مؤسسة القديس أنطونيوس
المركز الأرثوذكسى للدراسات الأبائية بالقاهرة
نصوص آبائية ـ ١٩٢ـ

تعليقات لامعة على

سفر التكوين

جلافيرا Glaphyra

للقديس
كيرلس
عمود الدين

مقدمة وترجمة وتعليقات
دكتور جورج عوض إبراهيم

مراجعة
دكتور نصحي عبد الشهيد

نصوص آبائية
ـ ١٩٢ـ
سفر التكوين
جلافيرا Glaphyra
للقديس كيرلس عمود الدين

الله المبدع الأعظم خلق بواسطة ابنه كل المخلوقات لأنه مكتوب: " كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١: ٣)، في البداية وقبل كل شيء خلق الله السماء والأرض، وأحضرهما للوجود دون أن يكون لهما وجودٌ مسبقٌ قط. لكن إذا تساءل أحد وقال كيف خُلِقت السماء، والأرض ومن أين؟ سوف يسمع منا ذلك القول الحكيم: "مَن يعرف فكر الرب ومَن صار له مشيرًا" (رو ١١: ٣٤). وإن أراد أحد أن يتعلم هذه الأمور، عليه أن يستخدم على أية حال العقل والفهم، فهكذا قصد الله عندما وهبنا العقل، وإن كان ما يخصنا منه لا يقارَن بما لدى الله، وهو نفسه يوضح لنا ذلك قائلاً: "لأن أفكاري ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقي يقول الرب. لأنه كما علت السموات عن الأرض هكذا علت طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم" (إش ٥٥: ٨ ـ ٩).

القديس كيرلس عمود الدين
جلافيرا على سفر التكوين ـ المقالة الأولى

ΤΟΥ ΕΝ ΑΓΙΟΙΣ ΠΑΤΡΟΣ ΗΜΩΝ ΚΥΡΙΛΛΟΥ ΑΡΧΙΕΠΙΣΚΟΠΟΥ
ΑΛΕΞΑΝΔΡΕΙΑΣ ΓΛΑΦΥΡΩΝ ΕΙΣ ΓΕΝΕΣΙΝ

Κείμενο - Μετάφραση – Σχόλια Από τον
George Awad Ibrahim

Επιμελητής
Noshy Abd El shehed



يطلب هذا الكتاب من:
+ المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية تليفاكس: ٢٢٤١٤٠٢٣
E-mail: opcc2007@yahoo.com Website: www.patristiccairo.com
+ بيت التكريس لخدمة الكرازة ت: ٢٤٦٩١٨٧٨
+ المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية - مار مينا فليمنج - الأسكندرية
ت: ٠٣٥٨٥٧٤٠٠ - ٠١٢٢٠٧٧٩٨١١
+ المكتبات والكنائس بالقاهرة والأقاليم

الثمن: ٤٥,٠٠ جنيه

مؤسسة القديس أنطونيوس
المركز الأرثوذكسى
للدراسات الآبائية بالقاهرة
نصوص آبائية
- ١٩٢ -

التعليقات اللامعة

جلافيرا (Glaphyra)

على سفر التكوين
للقديس كيرلس عمود الدين

مقدمة وترجمة وتعليقات
دكتور
جورج عوض إبراهيم

مراجعة
دكتور
نصحى عبد الشهيد

اسم الكتاب	:التعليقات اللامعة جلافيرا (Glaphyra)
اسم المؤلف	: القديس كيرلس الأسكندري
اسم المترجم	: دكتور جورج عوض إبراهيم
الناشر	: مؤسسة القديس أنطونيوس ، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة: ٨ (ب) ش إسماعيل الفلكي - الدور الأول محطة المحكمة مصر الجديدة ت: ٢٢٤١٤٠٢٣.

E-Mail: opcc2007@yahoo.com
Website: www.patristiccairo.com

الطبعة الأولي	: مايو ٢٠١٥
الطبعة الثانية	: أغسطس ٢٠١٥ .
اسم المطبعة	: دار يوسف كمال للطباعة ٢ ش المدارس - حدائق القبة ت : ٢٤٨٢٧٠٧٤ - القاهرة
رقم الإيداع	: ١٩٩٧٤ لسنة ٢٠١٥ م
الترقيم الدولي	: I . S .B . N . 978 - 977 - 487 - 030 - 9



القديس كيرلس الأسكندري

(عمود الدين)



صاحب الغبطة والقداسة

البابا المعظم الأنبا تواضروس الثانى

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

(١١٨)

المحتويات

مقدمة الناشر

يسر المركز الأرثوذكسي للدراسات الابائية بمؤسسة القديس أنطونيوس أن يقدم لأبناء كنيستنا الأرثوذكسية المحبوبين، تعليقات القديس كيرلس عمود الدين وشروحاته على سفر التكوين.

وهذا العمل المسمى الجلافيرا أي التعليقات اللامعة يحتوي على ٧ مقالات وموجود في مجلد تابع لسلسلة آباء الكنيسة اليونانيين إصدار

Tó Buzavtión: EΠE4,10-535

والنص موجود أيضًا في:

CPG 5201, PG 69,9-418

قام بالترجمة عن اليونانية والمقدمة والتعليقات د .جورج عوض إبراهيم وقام بالمراجعة د .نصحي عبد الشهيد.

نتوسل إلى مخلصنا الرب يسوع المسيح أن يهبنا فهمًا وإدراكًا لنتمتع بتعليم القديس كيرلس بصلوات العذراء القديسة مريم والدة الإله وصلوات الرسل الأطهار والقديس كيرلس وجميع الآباء القديسين، وصلوات قداسة البابا تواضروس الثاني، ولإلهنا الثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس كل تمجيد وتسبيح وسجود الآن وإلى الأبد آمين.

المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية

عيد الرسل
٢٠١٥/٧/١٢

مقدمة عامة

عن حياة وأعمال القديس كيرلس

يرجع السبب الأول لأهمية الآباء لنا، بحسب رأي أستاذ الآبائيات ستليانوس بابا دوبلوس[١]، ليس فقط لأجل أن نعرف مَنْ كانوا؟ وما هي تعاليمهم؟ لكن أيضاً لكي نتذوق مناخهم الروحي. أن نتحسس آثارِ الروحِ القدسِ في شخصياتهم المقدسة. أن نضع أصبعنا علي صراعهم من أجل الحق. أن نحيا شيئًا من خبراتهم الإلهية، من رؤياهم، من أفراحهم، من أحزانهم، من اختطافاتهم من العالم إلى السماء. نتتبع إيمانهم وثقتهم العميقة في الروح القدس. لذا من الأهمية بما كان أن نتعرف على قصة حياة القديس كيرلس، وعلى صراعه من أجل سلامة الإيمان من الانحراف، وعِظَم الجهاد الذي خاضه، وذلك حتى نتفهم منهجه في التفكير والتفسير. خلاصة الأمر، يجب أن نخوض معه مسيرة حياته هذه لنعيشها ونتلمس معه آثار كتابات السابقين التي أثَّرت عليه، وشكَّلت منهجه وأسلوبه في مواجهة المناخ الفكري والديني المحيط به، حتى يتسنى لنا أن

---

[١] أنظر المزيد:

Στυλιανοῦ. Γ. Παπαδοπουλου πατρολογìα Α`, Αθῆνα 1991, σελ. 2-79

نفهم جيداً كيف فسَّر الكتاب المقدس، وكيف صاغ إيمانه العقيدي أثناء شرحه للكتاب.

مكانة مدينة الإسكندرية ورئيس أساقفتها

منذ بدايات الإمبراطورية الرومانية ولزمنٍ طويل، ظلَّت مدينة الإسكندرية هي الميناء الرئيسي لتزويد روما الملكية بما تحتاجه من مؤن. لذلك زادت أهمية الإسكندرية جنباً إلى جنب مع العاصمة. ولم ينسَ أحدٌ تلك الأمجاد المبكرة لها كمركز عالمي للتعليم في زمن البطالسة خاصة في دورها الجديد كعاصمة إمبراطورية إقليمية ملكية. وكانت مدينة يونانية أكثر منها رومانية. وفي القرن الرابع الميلادي أثناء بداية الفترة البيزنطية كانت المدينة تتمتع بقوة سياسية وثقافية عظمى. وكان الحكام الإقليميون في مصر رجالاً ذوي قوة مؤثرة لم يتغاضَ عنها حتى الأباطرة أنفسهم. ومع قدوم القرن الخامس الميلادي، تعاظَمَ هذا الدور أكثر فأكثر ليشمل القادة الكنسيين لمدينة الإسكندرية، خاصة حين زاد عدد السكان المسيحيين بالمدينة، بالإضافة إلى مجموعتين أخريتين كبيرتين هما: المجتمع اليهودي الكبير، وطبقة المتعلمين من الفلاسفة التي كانت السبب في جعل الإسكندرية بؤرة لمعارضة وثنية ضد أسلوب الحياة المسيحية.

وفي زمن قسطنطين الكبير، تمتع الأسقف كقائد مسيحي عظيم بوضعٍ يقف في مواجهة بيروقراطية الدولة. وسرعان ما عرف الناس بطريركية الإسكندرية من خلال العالم المسيحي كقوة قيادة في صياغة التعليم المسيحي، والتي كان لها أكبر الأثر الإرشادي في العديد من القضايا ذات الأهمية القانونية.

ومنذ القرن الثالث الميلادي، كان اللاهوتيون المسيحيون السكندريون من المشاهير عالمياً، وقام كل واحد منهم بطريقته الخاصة بتطوير مدرسة مميزة روحانية للفكر. فهناك المفكرون أمثال بنتينوس وأكليمنضس وأوريجينوس. وقد احتل القديس كيرلس مركزاً كبيراً وسط مشاهير هؤلاء الآباء، وكان مدركاً بشكل كبير لأعمال الآباء الذين سبقوه.

القديس ثأوفيلوس وتربيته للقديس كيرلس

وقبل قيام القسطنطينية لتحتل شهرتها الكنسية في القرن الرابع، كانت إيبارشيات الإسكندرية وروما -بلا منازع- هي قادة الرأي المسيحي والراعي الرسمي للحياة المسيحية الشرقية. وكان القديس ثأوفيلوس الذي كان رئيس أساقفة الإسكندرية في الفترة من ٣٨٥م حتى ٤١٢م من بين أكبر القيادات الكنسية المؤثرة والعظيمة للإسكندرية. وقد استخدم السلطة قاعدة أساسية في كرسيه ليستفعل أثراً جديداً من التشريع القانوني الملكي ضد المقابر الوثنية. لذا شكّل تبوأه للكرسي ظهور الإسكندرية كمدينة مسيحية بالتمام. وكانت لثأوفيلوس طموحات عظيمة لمدينته وكرسيه.

وقد رفع هذا البطريرك القوي ابن شقيقته كيرلس على المدينة لتكميل تعليمه وتدريبه في شئون الكنيسة والإشراف على مقاليد الأمور فيها. وُلد كيرلس عام ٣٧٨م وأصبح تحت رعاية وإشراف خاله حين بلغ سن الاثنى عشر فصاعداً. درس قواعد اللغة والصرف والبلاغة في المدينة حتى عام ٣٩٧م تقريباً. ثم تلاها دراسات أعمق في المسيحية. كانت معرفته بالكتاب المقدس معرفة عميقة، وفي

شبابه كانت مدرسة الإسكندرية في أوجها تحت إشراف العظيم في المفسرين ديديموس الضرير (+ ٣٩٨م)، وقد ساعدت هذه الفترة من الدراسة اللاهوتية والكتابية الرسمية في تقديمه للتقليد المبكر للكنيسة، وكثيراً ما اعتبر نفسه امتداداً لهذا التقليد. وفي الحقيقة، فإن القديس كيرلس هو فعلاً الذي بدأ المنهج اللاهوتي المسيحي الذي يستعين بالكتابات الآبائية السابقة، فهو يأخذ عنهم نصوصهم كدليل على «فكر القديسين». إن معرفته باللاهوتيين السكندريين الأوائل (خاصة القديس أثناسيوس)، والأعمال التفسيرية لذهبي الفم، والأعمال العقائدية للقديس غريغوريوس اللاهوتي هي معرفة شاملة. وقد وظّفها جيداً في كتاباته الخاصة[٢].

كيرلس بطريركاً

وفي عام ٤٠٣م سيم كيرلس محاضراً وواعظاً للكنيسة في الإسكندرية. وهو مركز ألقى على كاهله أعباءً فكرية وإدارية في قصر رئيس الأساقفة. وحين تنيح ثأوفيلوس في أكتوبر ٤١٢م حاولت الإدارة البيزنطية توقيف ترشيح كيرلس ودعّمت رئيس الشمامسة المعيَّن إجبارياً تيموثاوس. وهذه شهادة للدعم الواسع الذي حصل عليه كيرلس داخل الكنيسة المحلية. فبالرغم من تدعيم خصمه من الإدارة الحاكمة المحلية، إلّا أنه تم انتخاب كيرلس خليفةً لثأوفيلوس، وتمت سيامته ووضع الأيادي عليه في ١٨ أكتوبر عام ٤١٢م.

---

[٢] على سبيل المثال استعان بعظة للقديس غريغوريوس النيصي عن ميلاد المسيح في كتابه المعروف: "ضد الذين يتصورون أن لله هيئة بشرية"، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، ٢٠١٣م. وكذلك وظف أعمال القديس أثناسيوس ضد الآريوسيين في عمله المشهور: الكنوز في الثالوث.

أظهرت الأيام الأولى لإدارة القديس كيرلس أنه من المصلحين البارزين، فقد قام بعدة تحركات ضد النفوذ المستمر للديانة الوثنية الأممية التي كانت لا تزال مؤثرة في عقول عامة الشعب. كان القديس كيرلس يتمتع بشخصية عظيمة وجذابة وسط الرهبان، وكانوا دائماً يسألونه النصح والإرشاد. ورسائله إلى الأديرة كانت مستمرة لا تنقطع. وكان اثنان من كبار النساك بالإسقيط على صلة وطيدة به خاصةً بُقطر الناسك والقائد المواهبي لأكبر الأديرة في تانيس القديس شنودة رئيس المتوحدين.

استمر القديس كيرلس في قراءته للآباء وصاغ أعمالاً تعليمية تفسيرية ذات أسلوب يستحق كل الاهتمام. ولكن تم نسيانها فترة طويلة، إذ طغت عليها أعماله التي صاغها بعد عام ٤٢٨م أثناء أشرس صراع خاضته الكنيسة ضد الهرطقات، حيث اندلعت على الكنيسة عاصفة هوجاء لم تكن في حسبان أولئك الذين اشتركوا فيها. كانت أزمة أجبرت الجميع في المسيحية على فحص أُسس التعليم عن يسوع والتي تسببت في انعقاد مجمع أفسس المسكوني سنة ٤٣١م ومجمع خلقيدونية عام ٤٥١م.

لقد كان القديس كيرلس هو الشخص الذي أسس رؤية محددة وواضحة المعالم للخريستولوجية (التعليم عن طبيعة وشخص المسيح) خلال تلك الفترة واستمرت تعاليمه تهيمن على قرارات المجامع المسكونية حتى بعد نياحته.

واليوم مثلما كان الحال في زمان القديس كيرلس، تُعتبر أعماله معياراً للأرثوذكسية في الشرق والغرب، حتى أن معظم معارضيه تشدداً، جاءوا في نهاية الأمر واستخدموا مصطلحات القديس كيرلس في تعليمه عن المسيح، وهو الذي قضى كل عمره يقاوم القديس كيرلس نفسه. وحتى هذا اليوم، فإن تعليم القديس

كيرلس يمثل رؤية لاهوتية واضحة المعالم ومحددة لدى الفهم المسيحي الشرقي عن المسيح، وسر الفداء ومفاعيل التدبير الخلاصي الذي أحدثه التجسد الإلهي.

كتابات القديس كيرلس:

القديس كيرلس هو واحد من أعظم رموز الفكر المسيحي في القرون الأولى. فكتاباته تملأ عشرة مجلدات ضخمة من مجموعة *Migne* اليونانية: مجلدات من ٦٨ إلى *PG.* ٧٧ وتتميز كتابات القديس كيرلس بالعمق وثراء الأفكار، والدقة والوضوح في النقاش مما يثبت موهبته التأملية والجدلية، ومما يجعل من كتاباته مصادر من الدرجة الأولى في الأهمية لتاريخ العقيدة والتعليم الإيماني. وقد درج علماء الآباء على تقسيم كتابات القديس كيرلس إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: تنتهي بظهور البدعة النسطورية سنة ٤٢٨م، وهذه المرحلة كانت مكرسة لتفسير أسفار الكتاب المقدس بعهديه، والدفاع عن الإيمان ضد البدعة الأريوسية.

المرحلة الثانية: تبدأ من سنة ٤٢٨م بظهور البدعة النسطورية وتنتهي بنياحة القديس كيرلس، ومعظم كتابات هذه المرحلة مكرسة للدفاع عن التعليم الصحيح في التجسد، ضد البدعة النسطورية.

أولاً: الكتابات التفسيرية:

تشكل الجزء الأكبر من إنتاجه اللاهوتي، إذ تشغل ٧ مجلدات من مجموعة ميني، وهي المجلدات من ٦٨ – ٧٤ من بترولوجيا جريكا. تشغل شروحاته على أسفار العهد القديم خمسة مجلدات منها (من ٦٨ – ٧٢) بينما تشغل شروحه

للعهد الجديد مجلدي ٧٣، ٧٤ من مجموعة ميني، وشذرات في مجلد ٧٢، وجزء صغير من مجلد ٧٧.

١- تفاسيره للعهد القديم

أ- السجود والعبادة بالروح والحق

يقع في ١٧ مقالة تشغل مجلد ٦٨ كله من مجموعة *Migne* اليونانية. وهو على شكل حوار بين كيرلس وبلاديوس عن تفسير مقاطع منتخبة من الأسفار الخمسة (من تكوين حتى تثنية)، يبيِّن فيه أن الناموس أُبطل حرفياً، ولكنه باق روحياً. وأن فرائض العهد القديم هي رموز مسبَقة للعبادة بالروح. (ترجمه المركز في ٨ أجزاء ثم بعد ذلك جُمعت الأجزاء في مجلد واحد ونُشر في ٢٠١٣م).

ب- جلافيرا (Glaphyra)

وهي عبارة عن ١٣ مقالة من «التفسيرات اللامعة»، وهذا هو معنى العنوان، وتعتبر مكملة لمقالات «السجود والعبادة بالروح والحق». وهو أيضاً تفسير مقاطع مختارة من الأسفار الخمسة الأولى، ولكن ليس على شكل حوار كالكتاب الأول. وهي تشمل ٧ مقالات مخصصة لسفر التكوين، و٣ للخروج، ومقالة واحدة لكل من اللاويين والعدد والتثنية، ويشمل حوالي نصف مجلد ٦٩ من *Migne* ونُشر هذا الكتاب على حلقات في الكتاب الشهري للشباب والخدام الذي يصدره بيت التكريس لخدمة الكرازة، وهذا الكتاب هو تجميع لهذه الحلقات.

جـ- تفسير أشعياء

مكون من ٥ كتب يفسِّر فيها جميع إصحاحات سفر أشعياء. ويشمل المجلد رقم ٧٠ من مجموعة .*Migne* وجاري ترجمة هذا السفر في المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ويُنشر على أجزاء في الكتاب الشهري للشباب والخدام الذي يصدره بيت التكريس لخدمة الكرازة.

د- تفسير الأنبياء الإثني عشر الصغار

يحوى ١٢ جزءاً لكل سفر من الأنبياء الصغار. (ويشغل مجلد ٧١ كله، وحوالي ثلث مجلد ٧٢ من .*Migne* وقد نشر المركز تفسير القديس كيرلس لسفر يونان في يناير ٢٠١١ وجاري ترجمة بقية أسفار الأنبياء الصغار.

وإضافةً إلى هذه التفاسير الكبيرة للعهد القديم، وصلتنا شذرات من تفاسير أخرى في سلاسل التفسير الـــ *Catenae*، بعضٌ منها كبير جداً؛ وهى شذرات من أسفار الملوك، والمزامير، بعض الأناشيد، والأمثال، نشيد الأنشاد، أرميا، حزقيال، دانيال. ويوجد مخطوط بالأرمينية بمكتبة (*Bodleian* أكسفورد) يحوى شذرات من تفسير حزقيال منسوب لكيرلس، وبعضها مماثل لما نشره *Migne* باليونانية لتفسير حزقيال.

٢- تفاسيره للعهد الجديد

من أهم تفاسيره للعهد الجديد، شرحه لإنجيل القديس يوحنا الذي يشغل مجلد ٧٣ كله ونصف مجلد ٧٤. أما تفسيره لإنجيل لوقا، فلم يبق من الأصل اليوناني سوى ٣ عظات كاملة وبعض شذرات متفرقة. ولكن وصلتنا نسخة مترجمة للسريانية ترجع إلى القرن السادس الميلادي تحوي ١٥٦ عظة على إنجيل لوقا

وهي التي ترجمها Payne Smith *باين سميث* إلى الإنجليزية ونشرها بأكسفورد سنة ١٨٥٩م (والتي نشر منها مركز دراسات الآباء، ٣ أجزاء من تفسير إنجيل لوقا للقديس كيرلس بالعربية في ١٩٩٠، وسنة ١٩٩٢، وسنة ١٩٩٦، والجزء الرابع صدر سنة ١٩٩٨، والجزء الخامس سنة ٢٠٠١. وقد صدر تفسير لوقا كاملاً في مجلد واحد في شهر سبتمبر سنة ٢٠٠٧). ويحوي مجلد ٧٤ عدة أجزاء من تفاسير مفقودة للقديس كيرلس على رسالة رومية وعلى رسالتي كورنثوس، وعلى الرسالة إلى العبرانيين وعلى إنجيل متى.

ثانياً: كتاباته العقيدية الدفاعية ضد الأريوسيين:

١- الكنوز في الثالوث، وقد تم ترجمته إلى العربية ونشره المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية عام ٢٠١١م.

٢- حوارات حول الثالوث، ويتكون من ٧ حوارات، وقد تم ترجمته ونشره المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية على أجزاء وتم تجميع هذه الأجزاء ونُشرت معاً في مجلد واحد في ٢٠١٤.

وهذان الكتابان يشغلان معظم مجلد ٧٥.

ثالثاً: كتاباته العقيدية الدفاعية ضد النسطورية:

وهي ثمانية كتب:

١- ضد تجاديف نسطوريوس.

٢- قاعدة الإيمان *De Recta Fide*

٣- الحروم الإثنى ضد نسطوريوس ترجمها نيافة الأنبا غريغوريوس في «مذكرة النسطورية»، ثم ترجمها ونشرها مركز دراسات الآباء سنة ١٩٨٨م ضمن الرسالة ١٧ وهى ترجمة جديدة للدكتور موريس تاوضروس والدكتور نصحي عبد الشهيد.

٤- الاحتجاج لدى الإمبراطور ثاؤدوسيوس الصغير.

٥- شرح تجسد الابن الوحيد، وقد ترجمه عن اليونانية د. جورج حبيب بباوي، ونُشِرَ بالقاهرة سنة ١٩٧٥م.

٦- ضد من ينكرون أن العذراء مريم هي والدة الإله، وقد تم ترجمه د. جورج عوض إبراهيم إلى العربية ونشره المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بعنوان: «والدة الإله» في يونيو ٢٠١١م.

٧- ضد ديودوروس الطرسوسي، وثيئودوروس أسقف المصيصة معلمي نسطوريوس.

٨- المسيح واحد: وهو حوار حول وحدة شخص المسيح. ترجمه عن اليونانية د. جورج حبيب بباوي ونشره مركز دراسات الآباء بالعربية سنة ١٩٨٧م بالقاهرة.

وتشغل هذه الكتب جزءاً من مجلد ٧٥ وجزءاً من مجلد ٧٦.

رابعاً: الرد على كتب يوليانوس الجاحد ضد المسيحيين:

ويشغل جزءاً من مجلد ٧٦ ويرجح أنه كُتب بين سنتي ٤٣٣ و٤٤١م.

خامساً: الرسائل الفصحية:

وعددها ٢٩ رسالة للسنوات من ٤١٤ إلى ٤٤٢ وتشغل جزءاً كبيراً من مجلد ٧٧. نُشرت الرسالة الفصحية الأولى للقديس كيرلس سنة ٢٠٠٤ والرسالة الفصحية الثانية سنة ٢٠٠٨.

سادساً: العظات:

لم يتبق من كل العظات التي ألقاها القديس كيرلس طوال سنين بطريركيته الطويلة (٤١٢ إلى ٤٤٤) سوى ٢٢ عظة، وقد وضعها الناشرون تحت عنوان «عظات متنوعة» للتمييز بينها وبين العظات الفصحية أو الرسائل الفصحية.

العظات الثمانية الأولى من هذه المجموعة ألقاها القديس كيرلس في صيف سنة ٤٣١م أثناء انعقاد مجمع أفسس المسكوني، والعظة رقم ٤ منها هي العظة الشهيرة جداً عن والدة الإله التي ألقاها في كنيسة القديسة مريم بأفسس في ٢٣ يونيه ٤٣١م. وهذه العظات تشغل جزءاً صغيراً من مجلد ٧٧.

سابعاً: الرسائل:

عددٌ كبير من مراسلات القديس كيرلس لا تزال باقية، فقد نُشرت في مجلد رقم ٧٧ من مجموعة ميني *Migne* ١٠٥ رسالة، ٨٨ رسالة منها أرسلها القديس كيرلس، و١٧ مرسلة إليه من آخرين. كما نشر شوارتز *E. Shwartz* خمس رسائل أخرى، فتكون جملة الرسائل ١١٠ رسالة.

هذه الرسائل هامة جداً بالنسبة لتاريخ "الكنيسة والدولة"، وبالنسبة للتعليم الكنسي، والقانون الكنسي، وللعلاقات بين الشرق والغرب والتنافس القائم بين المدارس اللاهوتية والكراسي الأسقفية:

١- رسالة رقم ٥٥ تحوي شرحاً لقانون الإيمان. ترجمها إلى العربية د. جورج حبيب بباوي، ونشرها مركز دراسات الآباء سنة ١٩٨٤م.

٢- بينما هناك ٣ رسائل لها الأهمية الأولى في تاريخ العقيدة المسيحية، وهي الرسالتان الثانية والثالثة إلى نسطور (رقم ٤ ورقم ١٧)، والرسالة إلى يوحنا الأنطاكي (رقم ٣٩). هذه الرسائل الثلاثة تسمي الرسائل المسكونية. رسالة رقم (٤) سُميت بالرسالة العقائدية. وقد اعتمدها مجمع أفسس بالإجماع في جلسته الأولى في ٢٢ يونيو ٤٣١م وشهد لها الجميع بأنها تتفق تماماً مع قانون إيمان مجمع نيقية. ورسالة رقم (١٧) تحوي الحروم الإثنى عشر وقد ضُمت إلى أعمال مجمع أفسس المسكوني، وقد اعتمدها مجمع خلقيدونية أيضاً فيما بعد سنة ٤٥١م.

أما الرسالة رقم ٣٩ والتي سميت "قانون إيمان أفسس"، فتحوي بيان الإيمان بخصوص طبيعة المسيح الذي على أساسه تم الاتحاد بين يوحنا الأنطاكي وكنيسة أنطاكية من جهة وبين القديس كيرلس وكنيسة الإسكندرية من جهة أخرى سنة ٤٣٣م بعد انشقاق استمر سنتين بعد مجمع أفسس المسكوني، ولذلك سميت "رسالة الاتحاد". وهذه الرسائل الثلاثة تُرجمت إلى العربية ونشرها مركز دراسات الآباء بالقاهرة سنة ١٩٨٨م في كتاب واحد. وطبعت طبعة ثانية سنة ٢٠٠١م.

٣- وفي ١٩٨٩م نشر مركز دراسات الآباء الجزء الثاني من رسائل القديس كيرلس السكندري من (١ - ٣٢). وفي سنة ١٩٩٥م نُشر الجزء الثالث (٣٢ - ٥٠)، ونُشر الجزء الرابع (٥١ إلخ) سنة ١٩٩٧م.

مقدمة عامة عن تعليم القديس كيرلس

في إطار تفسيره للعهد القديم

ظهورات الكلمة قبل التجسد

بحسب القديس كيرلس، تُجسِّد ظهورات العهد القديم، كتعبير أساسي عن سر التدبير الإلهي في المكان والزمان -بطريقة فريدة- عبارة بولس الرسول: «الله بعدما كلَّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة» (عب ١:١)، وتأخذ هذه الظهورات مكانها في قلب التعليم الآبائي[٣].

غير أن هناك بعض نظريات خاطئة تفسر هذه الظهورات بعيدًا عن التقليد الآبائي. هذه النظريات لا تختص فقط بـــ «ملاك يهوه ـــ Malak Jahwe»، بل استعلانات كلمة الله في تاريخ التدبير الإلهي، قبل التجسد ἄσαρκος (أنظر ١ كو ١٠: ١- ٤): "فَإِنِّي لَسْتُ أُرِيدُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ تَجْهَلُوا أَنَّ آبَاءَنَا جَمِيعَهُمْ كَانُوا تَحْتَ السَّحَابَةِ، وَجَمِيعَهُمُ اجْتَازُوا فِي الْبَحْرِ، وَجَمِيعَهُمُ اعْتَمَدُوا لِمُوسَى فِي السَّحَابَةِ وَفِي الْبَحْرِ، وَجَمِيعَهُمْ أَكَلُوا طَعَامًا وَاحِدًا رُوحِيًّا، وَجَمِيعَهُمْ شَرِبُوا

---

[٣] عن أهمية ظهورات العهد القديم، انظر:

Πρωτ. Ι. Ρωμανίδου, Δογματική καὶ Συμβολική θεολογία, σς. 190-199. Ν. Ματσοὺκα, Δογματική καὶ Συμβολική θεολογία, σς. 58-80, Ἀρχιμ. Ιερεμια φουντα, Ἡ περὶ προϋπαρξεως τοῦ Ἰησοῦ χριστοῦ διδασκαλὶα τῆς Ἁγὶα Γραφῆς κατά τόν Ἰ. Χρυσόστομον, (διδ. διατριβή), Ἀθῆναι 2002, σς. 195-227.

شَرَابًا وَاحِدًا رُوحِيًّا، لأَنَّهُمْ كَانُوا يَشْرَبُونَ مِنْ صَخْرَةٍ رُوحِيَّةٍ تَابِعَتِهِمْ، وَالصَّخْرَةُ كَانَتِ الْمَسِيحَ".

لقد رفض اليهود رفضًا جذريًا أية محاولة للفهم الخريستولوجي لظهورات العهد القديم. وفي هذا الخصوص كان رأي تريفون اليهودي في عمل يوستينوس واضح جدًا، حيث قال: "من الأفضل لنا أن نطيع معلمينا الذين حذّرونا من الاستماع إليكم أيها المسيحيون، ونهونا عن التحدث معكم في هذه الموضوعات؛ لأنكم جدَّفتم مرات عديدة وأنتم تحاولون إقناعنا أن هذا الرجل المصلوب كان مع موسى وهارون وتحدَّث معهما في عمود سحاب وأنه تأنس وصُلِب وصعد إلى السماء وسوف يعود مرةً أخرى إلى الأرض وتسجد له الشعوب"(٤).

على أن الشخصية التي يجب أن تلقى اهتمامنا من أزمنة إسرائيل الكتابي، هي شخصية فيلون السكندري؛ ذلك لأن اللوغوس له مكانة هامة في فكره الفلسفي واللاهوتي(٥).

يضع فيلون اللوغوس من ضمن الملائكة، وبالفعل -في أعماله- يربط شخص اللوغوس بظهورات العهد القديم(٦).

---

[٤] الحوار مع تريفون: *38,1, PG6, 556D - 557* . القديس يوستينوس الفيلسوف والشهيد، ترجمة آمال فؤاد المقدمة والمراجعة النهائية واللاهوتية د. جوزيف موريس فلتس، مركز باناريون مايو٢٠١٢م، ص ١٨٢

[5] *I. Καραβιδοπουλου, Ἡ περὶ θεοῦ καὶ ἀνθρώπου διδασκαλία φίλωνος τοῦ Ἀλεξανδρέως, Θεολογία 37 (1966), σς. 247-257.*

[6] *Βας. Τσάκωνα, Το φιλολογικόν και θεολογικόν πρόβλημα , σ. 93. J. LEBRETON, Histoire du Dogma de la Trinité des origimes au Concile de Nicee, V. I, Paris 1977, σ. 618.*

وبالرغم من أن المفسرين المحدثين يعتَبِرون أن الفهم الخريستولوجي لظهورات العهد القديم قد جاء بتأثير من كتابات فيلون السكندري، لكن بين فيلون والرؤية المسيحية اختلافات كبيرة وهوة شاسعة.

فاللوغوس الذي جاء إلى العالم، واستُعلِن في ظهورات العهد القديم دون جسد ἀσάρκως في الرؤية المسيحية، هو الله، وأحد الثالوث القدوس. على النقيض من ذلك عند فيلون، اللوغوس هو مجرد عنصر إلهي وليس الله(٧)، وبينما اللوغوس هو الله المشارك في الخلق مع الآب والروح القدس مسيحياً، يُحسب عند فيلون من بين الكائنات المخلوقة، من ضمن الملائكة. حيث يعتبره كوسيط بينهم، كأداة الله في خلق العالم(٨).

وقد أدرك الآريوسيون ظهورات اللوغوس في العهد القديم وفسروها بطريقة خاطئة. فقد زعموا أن ملاك يهوه الظهورات هو اللوغوس، إذن هو مخلوق بواسطة الإرادة الإلهية(٩).

وقد فنَّد القديس كيرلس(١٠) رأي الأريوسيين الخاطئ هذا، وأظهر أن: «الملاك الذي خلصني من كل شر يُبارك الغلامين...» (تك ٤٨: ١٦)، ليس ملاكاً مخلوقاً عادياً، بل هو الله اللوغوس قبل تجسده. وذات الأمر، عندما ذكر يعقوب البطريرك: «رأيت الله وجهًا لوجه» (تك ٣٢: ٣٠)، فالمقصود هنا

---

7 *Ι. Καραβιδοπουλου, Ἡ περὶ θεοῦ καὶ ἀνθρώπου διδασκαλία, σ. 250.*

8 *Βας. Τσακωνα, σς. 89, 93.*

9 *Πρωτ. Ι. Ρωμανιδου, Δογματικὴ καὶ συμβολικὴ θεολογία, σ.241.*

١٠ الكنوز في الثالوث، PG75, 193BCD مقدمة وترجمة وتعليقات د. جورج عوض إبراهيم مراجعة د. جوزيف موريس فلتس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ٢٠١١م، المقالة الثانية عشر، ص ١٧٧-١٧٩

بملاك الرب أو يهوه، هو اللوغوس الله الذي ظهر وأتى بلا جسد ἀσάρκως.
طبقاً لما قاله القديس أثناسيوس الكبير[١١]، وكذلك القديس باسيليوس الكبير[١٢].

كما نجد أيضًا التفسير الخاطيء لظهورات العهد القديم عند القديس أغسطينوس، وكذلك بالحري عند اللاهوتيين المدرسيين، حيث ملاك الرب هو كائن ملائكي مخلوق[١٣].

والجدير بالذكر أن بارلعام الهرطوقي قد عَبَّرَ عن رؤية اللاهوت المدرسي، وذلك في القرن الرابع عشر، ولكن الأب غريغوريوس بالاماس رد عليه معبِّرًا عن التقليد الآبائي[١٤].

وفي العصر الحديث أعاد بعضٌ من المفسرين غير الأرثوذكس إنتاج فكر اللاهوت المدرسي الذي يقول بأن ظهورات العهد القديم تخص كائن ملائكي مخلوق[١٥].

---

١١ ضد الأريوسيين14:3، *PG26, 349 - . 352B*

12 *Αγ. Βασιλεὶου, κατ` Εὐνομὶου 2, 18, PG29, 609AB.*

13 *H. Lange, Engel Jahue, LTH+3 (1931), 682. CHR. Pesch, praelectiones dogma Ticae, II, Freiburg 1925, n. 473-475. L. OTT, Grundrib der Dogmatik, Freiburg in Br 1965, P. 66.*

14 *Γρηγοριου παλαμα, Ὑπέρ τῶν ἱερῶς ἡσυχαζόντων1,3 , 26.3, 1, 40.3, 3,5, ΓΠΣ. ἐκδ. Π. Χρήστου. Τομ. Α, σς. 437,652, 683-684.*

15 *W. Zimmerli, Ἐπὶτομη θεολογὶα τῆς Π.Δ, (μετ. Β. Στογιάννου), ἐκδ Αρτος Ζωῆς, Ἀθηνα 1981, σελ. 90-92. Π. Τρεμπελα, Δογματική τῆς Ὀρθοδοξου Καθολικῆς Ἐκκλησὶας, ἐκδ. Σωτήπ, Ἀθηναι 1978, σ. 229.*

لكن، بماذا يعلِّم القديس كيرلس بشأن ظهورات العهد القديم؟

لا يقبل القديس كيرلس أي فكرة عن كائن ملائكي مخلوق، لأن الابن كلمة الله هو الذي كان يعلن عن ذاته، ويعمل في ظهورات العهد القديم، وذلك بدون جسد وبطريقة معجزية[١٦]. لكن إعلان الكلمة لذاته بدون جسد، للأنبياء وأبرار وأبرار العهد القديم، يعني إعلان طبيعة الثالوث الإلهي غير المخلوق.

هكذا نرى القديس كيرلس يذكر، على سبيل المثال، الظهور على جبل سيناء بأن اليهود «رأوا الابن والله الحقيقي بحسب الطبيعة نازلاً على هيئة نار على الجبل»[١٧]، لكنهم «لم يروا طبيعة الله على جبل سيناء»[١٨].

ومجيء الكلمة بدون جسد في ظهورات العهد القديم له أهمية خاصة في تعليم القديس كيرلس، خصوصاً وقد اعتبره سنداً قوياً في صراعه مع نسطور. فغنيٌّ عن البيان أن موقف نسطور بأن العذراء ولدت إنساناً سامياً سكن فيه الكلمة، قد سبَّبَ ليس فقط إزعاجاً لوحدة سر التدبير الإلهي، بل وُجد في تضاد جذري مع مسيرة الله في التاريخ. وقد سرد القديس كيرلس المآزق الناشئة من موقف نسطور قائلاً:

«كيف يذكر الكتاب المقدس كل ما صار بفعله وسلطانه قبل أن يجيء بالجسد؟ وكيف سلَّم لنا يهوذا، التلميذ الطوباوي، هذا الإيمان العظيم؟ لأنه إذ يتذكر ما حدث قبل أجيال كثيرة لمجيئه من عذراء، يقول الآتي: «فأريد أن أُذكِّركُم، ولو عَلِمتُمْ هذا مرةً، أن الرب بَعدما خَلَّص الشعب من أرض مصر،

---

16 *Ὁμιλία Α΄. Λεχθεῖσα ἐν Ἐφέσω, ὡραῖα πάνυ, ACO1.1.2, σ.97,6.*

١٧ المرجع السابق، *σ. 96..*

١٨ المرجع السابق، *σ. 96* أنظر أيضًا *15,4*: الرسالة الفصحية *PG77, 744C.*

أهلك أيضًا الذين لم يؤمنوا. والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم، بل تركوا مسكنهم حفظهم إلى دينونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام» (يهوذا ٥، ٦).

فإن كانت العذراء الطوباوية قد ولدت -بحسب رأيهم- إنسانًا عاديًا، يسوع، والتلميذ يقول إنه حرَّر الشعب الإسرائيلي من أيدي المصريين، وقاد الشعب في البرية، وهو نفسه صنع معجزات عظيمة قبل أجيال كثيرة من ولادته من عذراء، فهل يمكنهم إذن أن يقولوا لنا أين كان يوجد في تلك الأزمنة؟ ومتى كانت هناك بداية لمجيئة؟ وإلَّا فما هو السبب الذي لا يجعلهم يقولون إنه أخذ بداية وجوده من اللحظة التي أتى فيها من العذراء؟ ليت، إذن، مخترعي العقائد الشريرة يعلّموننا متى أخذ هذا الإنسان بداية وجوده، وأين وُجد منذ أزمنة كثيرة»[١٩].

دعونا إذن نرى تحليليًا كيف فسَّر وفَهِمَ القديس كيرلس بعض الظهورات الواردة في العهد القديم.

١- الظهور الإلهي أو الثيوفانيا في (تك ٢٨: ١٢ - ١٣)

الظهور الوارد في (تك ١٢:٢٨ - ١٣) يتعلق بحلم يعقوب في بيت إيل ما بين النهرين. ووفق الرواية الكتابية يرى يعقوب في حلمه الأرض مرتبطة بالسماء بواسطة سُلم وملائكة قديسين يصعدون ويترلون عليها. فوقها يقف «الرب Ὁ

[١٩] القديس كيرلس الأسكندري، والدة الإله: "ضد أولئك الذين لا يعترفون بأن العذراء القديسة هي والدة الإله"، ترجمة عن اليونانية د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، يونيو ٢٠١١، ص٩.

Κὺϱιος» الذي يعلن ليعقوب بأنه إله آبائه ويعده هو ونسله بأن يعطيه الأرض التي يجدها. حقيقة الظهور في الرواية تتعلق بكلمة Κὺϱιος: رب. مَنْ الذي أُعلن في حلم يعقوب كربٍّ؟

ثم بعد ذلك في (تك ٣١:١١ - ١٣) يظهر الرب كـ "ملاك الله"، ومباشرةً يذكر ملاك الرب: "أنا إله بيت إيل حيث مسحت عمودًا..." (تك ٣١:١٣). نلاحظ علاقة الروايات الكتابية بأن ملاك الله (تك ٣١:١١) يتطابق مع الله الذي أُعلن ليعقوب في حلم بيت إيل (تك ٢٨:١٣. ٣١:١٣).

القديس كيرلس يصف حقيقة هذا الحديث كـ "رؤية وإعلان إلهي"، فيقول: "وفي أعلى السُلَّم كان المسيحُ جالسًا لأن عنده كانت تصل الأرواح المقدَسة، وهو بالنسبة لها سيد ورب، فهو ليس مثلها، بل هو الله والرب"[٢٠]، هكذا بدون تردد يشدد القديس كيرلس على أن هذا الظهور هو لله الكلمة ربنا يسوع المسيح[٢١] الذي أُعلن في العهد القديم بدون جسد ἀσάϱκως.

فالقديس كيرلس إذن يدرك هذا الظهور ليس خريستولوجيًا فقط، بل ويعطي له منظوراً خلاصياً مشدِّدًا على أن الله الكلمة هو الرب الذي ظهر على السُلَّم، وبواسطته صارت شركة بين الأرضيين والسمائيين.

---

[٢٠] جلافيرا على سفر التكوين ٤، ٢: *PG69,193A*.

[21] *Πεντάβιβλος Ἀντιρρησις,2, ACOL.1.6. σ.37, 20-21. Ὑπόμνημα εἰς το κατά Ἰωάννην, 11, PG74, 608A. Ἡ ΒιΒλος τῶν θησαυρῶνι 2, PG75, 193BC.*

٢- الظهور الإلهي أو الثيوفانيا في (تك ٣٢: ٢٥ - ٣٢)

«وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِهِ، فَانْخَلَعَ حُقُّ فَخْذِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ. وَقَالَ: «أَطْلِقْنِي، لأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ». فَقَالَ: «لاَ أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي». فَقَالَ لَهُ: «مَا اسْمُكَ؟» فَقَالَ: «يَعْقُوبُ». فَقَالَ: «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ». وَسَأَلَ يَعْقُوبُ وَقَالَ: «أَخْبِرْنِي بِاسْمِكَ». فَقَالَ: «لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي؟» وَبَارَكَهُ هُنَاكَ. فَدَعَا يَعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ «فَنِيئِيلَ» قَائِلاً: «لأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ، وَنُجِّيَتْ نَفْسِي». وَأَشرقتْ لَهُ الشَّمْسُ إِذْ عَبَرَ فَنُوئِيلَ وَهُوَ يَخْمَعُ عَلَى فَخْذِهِ. لِذلِكَ لاَ يَأْكُلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ عِرْقَ النَّسَا الَّذِي عَلَى حُقِّ الْفَخْذِ إِلَى هذَا الْيَوْمِ، لأَنَّهُ ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِ يَعْقُوبَ عَلَى عِرْقِ النَّسَا.

يُعد صراع يعقوب مع إنسان مجهول وسري بمفرده، من الظهورات المميَّزة للعهد القديم، لأنه يشهد بطريقة واضحة على حضور الكلمة بلا جسد، وعلى سر المسيح.

في (تك ٢٨:٣٢) يذكر أنه صارع مع الله. وفي (تك ٣٢: ٣٠) يقول يعقوب: «لأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ، وَنُجِّيَتْ نَفْسِي». هاتان الإشارتان تستبعدان أن يكون الشخص الذي صارع معه يعقوب هو إنسان عادي. هذا الحدث يُؤكده النبي هوشع.

ففي هوشع إصحاح (٣:١٢ - ٤) يشير إلى هذه الحقيقة ذاتها، حيث يصف هذا الشخص بأنه الله، وأنه ملاك: "في البطن قبض بعقب أخيه وبقوته جاهد مع الله. جاهد مع الملاك وغلب. بكى واسترحمه. وجده في بيت إيل وهناك تكلم معنا". لا يوجد شك عند القديس كيرلس في أن هذا الشخص السرائري

الذي صارع معه يعقوب طول الليل هو شخص الكلمة الذي ظهر على هيئة إنسان. يذكر القديس كيرلس بوضوح شديد: ""قال (يعقوب): ""الله الذي رعاني منذ وجودي""، ثم قال: ""الملاك الذي خلصني من كل شر""، هكذا داعيًا ""الله""، ويقصد به الآب، وقائلاً ""الملاك""، ويقصد به الكلمة الآتي منه. لأنه يعرف أنه يُدعى ""ملاك المشورة العُظمى"" (أش ٩:٩)""[٢٢].

ثم يربط القديس كيرلس هذه الرؤية بسر المسيح، قائلاً: «إن الملاك الذي صارعه هو مِثالٌ للمسيح الذي كان مثلنا لأنه صار إنسانًا»[٢٣].

إن حضور وظهور الله الكلمة ليعقوب البطريرك، بحسب القديس كيرلس، تحقق في حوادث أخرى؛ إذ يؤكد الكلمة للبطريرك (تك ٢٨:١٥) إنه سيحرسه في طريقه ورحلته، وإن الله الكلمة سيحرس يعقوب من لابان ولن يفعل به شرًا بعد أن يطرده (تك ٣١:٧، ١٣، ٢٤)[٢٤].

٣- الحضور المسبَق للكلمة في أمثلة ورموز وصور مسبَقة

بحسب القديس كيرلس، هناك حشدٌ من الأشخاص والأحداث والأشياء يصوِّر مسبقًا أو هو بمثابة «إشارة سرية لقوة وساطة المسيح»[٢٥] هذا صار على الجانب الآخر بطريقة واضحة: «لأن الناموس هو معلم البدائيات ويقودنا إلى

---

[٢٢] الكنوز في الثالوث، فصل ١٢:٢٢، *196C. - PG75, 193C*

[٢٣] جلافيرا سفر التكوين، المقالة الرابعة.

[٢٤] الكنوز في الثالوث ١٢:*PG75, 193D* ، العبادة بالروح والحق١٤:.*PG68, 944B*

[٢٥] القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مقدمة وترجمة وتعليقات د. جورج عوض إبراهيم مراجعة د. جورج عوض إبراهيم، المركز الأرثوذوكسي للدراسات الآبائية، المقالة الثانية، ص ٧٥

أساسيات أقوال الله ويلقي داخلنا -بألغاز وظلال- بذرة معرفة سر المسيح»[٢٦].
إذن، فالمثال، الذي يصوِّر مسبقًا شخص الإله المتأنس في العهد القديم، أو الرمز الذي على علاقةٍ بحدث مستقبلي لعمل المسيح الفدائي، ليس -بحسب القديس كيرلس- إدراكاً ذهنياً مجرداً ذي طبيعة رمزية خالٍ من المنظور التاريخي والعمق اللاهوتي، بل على النقيض، هناك أشخاصٌ وأمثلة مرتبطون عضويًا، يحتوي احدهم الآخر بالتبادل في حلقة عضوية، تتوجه دائمًا تجاه حدث تدبير تجسد الرب. وعلى ذلك، فالمنظور الخلاصي لولادة الإنسان الثانية بحسب المسيح، نجده ظاهراً من خلال نماذج وأمثلة وظلال في أشخاص وحوادث العهد القديم.

هكذا ندرك بالضبط، بحسب القديس كيرلس، أن «الناموس يرشدنا إلى ما هو نافع لنا بآلاف الطرق، لكن رغم هذه الآلاف من الطرق الكثيرة، إلَّا أنها كلها تعتبر بدائية جدًا بالمقارنة بسر المسيح. فنحن نعلم طبعًا أن الناموس روحي، إلَّا أن كل ما يتصل بالظلال والأمثلة ليس مناسبًا أن يؤخذ كغذاءٍ كما هو، إجباريًا، لكنه يصير غذاءً حقًا، إذا تحول إلى التعليم الإنجيلي، وإلى إدراك المسيح»[٢٧].

هكذا بحسب القديس كيرلس، نجد أن الهدف الذي تتوجه نحوه هذه النماذج والرموز، والناموس، هو شخص الإله المتأنس: «كل هدف الكتب الملهمة بروح الله كما يبدو، هو التطلع إلى سر المسيح (٢ تيمو٣:١٦)»[٢٨].

---

[٢٦] القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، المقالة الثانية، ص ١٠٦.

[٢٧] القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، المقالة الثامنة، ص ٣٤٢

[٢٨] القديس كيرلس عمود الدين، السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، المقالة الثالثة، ص ١٢٠.

أ- آدم

آدم، كمثال للمسيح في العهد القديم، والتوازي بينهما هو مثالٌ يذكره القديس كيرلس مرارًا مثل آباء آخرين: «وكما أن آدم الأول قد صُوِّرَ من الطين وسبَّب لنا الموت، وقيَّدنا بشباك الفساد، هكذا أيضًا آدم الثاني (المسيح) عن طريق صيرورتنا مشابهين له بواسطة الروح، ختَمَنا بختم عدم الفساد. وكما أنه بذاك (آدم) وُضِعَت لنا عقوبات العصيان، هكذا بالمسيح أُظهر لنا أننا نشترك - بوداعةٍ وخضوع- في بركة الآب السماوية؛ لأنه يقول: «صار آدم الإنسان الأول نفسًا حية وآدم الأخير روحًا محييًا» (١ كو ١٥:٤٥)»[٢٩].

آدم كبداية (كجد) عن طريقه دخل الفساد والموت للجنس البشري (رو ١٤:٥. ١ كو ١٥:٢١ - ٢٢)، وهذا حدث بمحاولته للتألُّه بمعزل عن الله: «لأن (الكلمة) صار إنسانًا لكي يمكننا أن نرى الله نحن الذين سقطنا من أمام عيني الله بسبب عصيان آدم والخطية التي طغت علينا»[٣٠].

لكن المسيح على النقيض يمثل بدايةً لجذرٍ جديد يُعيد شركة الله والإنسان ويشفي جروح الخطية، وبالحري هدم مملكة الموت: «إن بولس العارف الحقيقي للناموس قد فهم سر الخلاص بواسطة المسيح، إذ قال إنه فى شخص المسيح صار انجماع (أف ١:١٠) ما في السموات وما في الأرض، وفق محبة الله الآب وإرادته، موضِّحًا بكلمة «انجماع» أنه قد حدثت عملية إصلاح للكل، كما عادت مرة ثانية الأمور التي طالها الفساد إلى الحالة التي كانت عليها في بداية

---

٢٩ جلافيرا على سفر التكوين، المقالة الأولى.

٣٠ جلافيرا على سفر اللاويين.

الخليقة»[٣١]. كذلك في موضع آخر يقول: «ربنا يسوع المسيح انتصر على جمع الشياطين النجسين وقام بأسرهم باذلاً دمه لأجلنا، هكذا أبعد الموت وأبطل الهلاك وجعلنا خاصته، إذ لا نحيا بعد حياتنا، بل حياته لأنه لو لم يمت لأجلنا لَمَا خَلَصنا ولو لم يُحسب من بين الأموات، لما انهدمت حصون مملكة الموت»[٣٢].

إن سقوط آدم والميلاد الثاني للإنسان بواسطة آدم الجديد، أي المسيح، هي محاور يتمحور حولها سر التدبير الإلهي: «من الواضح أنه على مثال آدم الأول تأسس سر المسيح، ليس بالطبع بتكرار نفسه فى صورة آدم القديمة، لكن بطريقة مختلفة وعكسية. لأن الأول كان من أصل الجنس البشرى وهو بداية مؤدية للموت واللعنة واللوم، بينما الثاني على العكس تمامًا هو بداية تعطى الحياة والبركة والبر»[٣٣]. وآدم بالتأكيد قَبِلَ المرأةَ كجسدٍ، وأُتلف بواسطتها، بينما المسيح، وحَّد الكنيسة بنفسه بواسطة الروح، وفداها وخلَّصها وجعلها أسمى من الخداع الشيطاني. لذلك آمنا ونقول: «إننا لا نجهل أفكاره» (٢ كو ٢: ١١). وكما أن آدم قَبِلَ الموت كنتيجة للخطية وللعصيان، أصبح التبرير بواسطة المسيح جرمًا بحسب جهل اليهود. هكذا فإنه بألم الموت كُلّل المسيح بالكرامة والمجد بحسب كلمات بولس الطوباوي (انظر عب ٢: ٩ وفي ٢: ٩). وبصعوبة بالغة خضعت الأرضيات فقط لآدم، بينما أُخضعت كل الأشياء للمسيح. لأنه يقول: «لكى تجثو باسم يسوع كل ركبه ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت

[٣١] جلافيرا على سفر التكوين، المقالة الأولى.

[٣٢] جلافيرا على سفر الخروج، المقالة الثالثة.

[33] ὁ μὲν γὰρ ἦν ἀρχὴ τῷ γένει, πρὸς θάνατον, πρὸς ἀράν, πρὸς κατάκρισιν, ὁ δὲ πρὸς πᾶν τοὐναντίον, εἰς ζωήν, εἰς εὐλογίαν, εἰς δικαίωσιν.

الأرض. ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو ربٌّ لمجد الله الآب» (في ٢:١٠ — ١١)»[٣٤].

ب– إسحق

يمثل إسحق بالنسبة للقديس كيرلس شخصَ مفتاحٍ، مثالاً للمسيح في العهد القديم: «الرسل القديسون لا يُسرُّون بأي نوع من العبودية للعبادة الناموسية، بل هم بالأحرى يطلبون ثمرة الحرية التي للعهد الجديد، أي الحرية في المسيح والذي كان إسحق رمزًا له، من جهة الوعد والإيمان»[٣٥].

هكذا كان إسحق مثالاً للمسيح فيما يتعلق بوعود الله لإبرام بخصوص بركات كل الشعوب، وكذلك فيما يتعلق بحقيقة إن ذبيحة إسحق تعبِّر عن ذبيحة المسيح بشكل واضح: «وكما أن الفتى الصغير إسحق حمل الحطب الذي أُعطي له من بيت أبيه وذهب به إلى مكان تقديم الذبيحة، هكذا حمل المسيح الصليب على كتفه وتألم خارج المحلة، وكانت هذه هي إرادة الله الآب وليست إرادة بشرية»[٣٦]. ويستمر القديس كيرلس، قائلاً: «أي أن إسحق عندما حمل الحطب كان يشير إلى آلام المسيح وموته، أمَّا تقديم الكبش المُعطى من الله ذبيحة على المذبح، فهذا يشير إلى حقيقة أن المسيح أصعد جسده ذبيحةً ذكيةً إلى الآب، ذلك الجسد الذى قيل عنه إنه أخذه من الله الآب بحسب ما ورد في المزمور: «ذبيحةً وقربانًا لم ترد ولكن هيأت لي جسداً. بمحرقات وذبائح للخطية

[٣٤] جلافيرا، المقالة الأولى.

[٣٥] السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، المقالة الرابعة، ص١٨٦.

[٣٦] جلافيرا على سفر التكوين، المقالة الثالثة.

لم تُسرّ. ثم قُلتَ ها أنذا أجيءُ في درج (رأس) الكتاب مكتوبٌ عني لأفعل مشيئتك يا الله» (عب ١٠: ٥ — ٧، مز ٤٠: ٧). ولكنه هو نفسه حقًا الكلمة الذى وُلِد من جوهر الله الآب، وتجسد من العذراء، وسُمِّرَ على الصليب، إلّا أنه بكونه إلهاً، فهو غير متألم وغير مائت ἀπαθὴς καὶ ἀθάνατος[٣٧]، وهو نفسه مُنزّهٌ عن أيِّ ألمٍ وأيِّ موتٍ»[٣٨].

ج- ملكي صادق

بالرغم من أن شخصية ملكي صادق تعتبر عند كثيرين من الآباء والكُتاب الكنسيين، من أكثر الشخصيات اللغزية في العهد القديم، إلّا أنه بالنسبة للقديس كيرلس يُعد ملكي صادق نموذجاً ومثالاً قوياً للمسيح في العهد القديم. وقد علّق القديس كيرلس على ما قاله بولس الرسول في رسالة العبرانيين عن ملكي صادق مقتبسًا كلامه من سفر التكوين: «فخرج ملك سدوم لإستقباله بعد رجوعه من كسرة كدر لعومر والملوك الذين معه إلى عمق شوي الذي هو عمق الملك. وملكي صادق ملك شأليم أخرج خبزًا وكان كاهنًا لله العلي وباركه وقال

[٣٧] يشدد القديس كيرلس على أن الابن بكونه إلهاً هو الحياة من حياة الله الآب، وبالتالي هو غير المائت، إذ يقول: "وإذاً ماذا نقول؟ "ربٌ واحد بالحق، وإيمان واحد، ومعمودية واحدة" (أف ٤:٥). لأنه ابن ورب واحد، وليس أن الكلمة اتخذ إنساناً بحسب الاتصال وأعلن أنه شريك لكراماته الخاصة، ونقل إليه البنوة والربوبية، كما يقول ويكتب بعض الذين يهذون. ولكن هو الكلمة الذي من الله، النور الذي من النور، الذي تأنس وتجسد. ونحن نعتمد في موت ذاك الذي تألم إنسانياً في جسده الخاص، ولكنه ظل غير متألم إلهياً وحيًّاً على الدوام، لأنه هو الحياة من حياة الله الآب. لذلك، هُزِمَ الذي تجاسر أن يهاجم جسد الحياة، وهكذا أيضاً أُبيد الفساد الذي فينا وضعف سلطان الموت نفسه، ولذلك يقول المسيح: "الحق الحق أقول لكم، إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم". رسائل القديس كيرلس، الجزء الرابع، رسالة ٥٥ فقرة ٣٨ ص٤٠.

[٣٨] جلافيرا، المقالة الأولى.

مبارك إبرآم من الله العلي مالك السموات والأرض. ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك فأعطاه عشرًا من كل شيء» (تك ١٤: ١٨ - ٢٠، عب ١٧: ١ - ١٣). يقول القديس كيرلس: «انتبه إذًا فإن أمثلة كمال المسيح تشرق بوضوح في شخص ملكي صادق»[٣٩]. يقول القديس كيرلس أيضًا: «ملكي صادق هو مثال لكهنوت المسيح»[٤٠].

بالتالي بين ملكي صادق والمسيح، أي بين المثال والحقيقة توجد تماثلات منها: أن ملكي صادق قُدِّم بدون نسب، أي بدون أم وأب، هكذا المسيح، بكونه الله هو بلاِ أم، وكذلك بكونه إنساناً كان بلا أب. وبينما ملكي صادق يعني «ملك السلام»، نجد أن المسيح هو مانح السلام. الذبيحة التي قدمها ملكي صادق كانت خبزًا وخمرًا، لأن كهنوته بالضبط كان أسمى ومختلفاً عن الكهنوت اليهودي إشارةً إلى الذبيحة غير الدموية للإفخارستيا الإلهية. أيضًا يُعد ملكي صادق مثالاً للمسيح رئيس الكهنة الأسمى سموًا مطلقًا والمختلف جذريًا عن الكهنوت العبراني. هكذا ملكي صادق كان صورةً مسبقةً لكهنوت المسيح الأبدي.

---

٣٩ جلافيرا على سفر التكوين، المقالة الثانية.

٤٠ السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، المقالة الرابعة، ص١٧٦. كذلك، يقول القديس يوحنا ذهبي الفم في شرحه لآية عب ٥: ٦: "أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكيصادق": "مَن هو الكاهن الذي على رتبة ملكي صادق؟ ليس آخر سوى الابن. لأن الجميع كانوا خاضعين للناموس، الجميع حفظوا السبت، واختتنوا. لا أحد يمكنه أن يُشير إلى شخصٍ آخر (سوى الابن)". راجع تفسير الرسالة إلى العبرانيين، ص ١٣٩.

سر الخلاص، تأنس الله الكلمة:

يمثل تأنس الابن كلمة الله بداية تحقيق خطة الثالوث القدوس لأجل خلاص الجنس البشري. وقد وُصِفَ الإعداد لحدث خلاص الإنسان بواسطة المسيح بطريقةٍ حقيقية وعملية في داخل الخطوة التاريخية لله في إطار العهد القديم حيث شخص الابن كلمة الله هو الشخص المحوري الذي تتحرك حوله كل الأمور.

ولأجل هذا فقط، يُعد حدث تجسد الله الكلمة من الروح القدس ومريم العذراء حدثاً عجيباً لا يُدرك، فقد تحقق الهدف الفريد، أي الميلاد الثاني للإنسان وتحرير الخليقة من عمل الخطيئة المفسد، بدخول الابن وكلمة الله في الجسد في المكان وزمان الخليقة.

وعندما يتحدث القديس كيرلس عن النتائج الكثيرة والثقيلة، جراء الإخفاق الوجودي للإنسان، مؤكداً أن هذا الإخفاق كان نتيجةً للاستقلال الأناني للأبوين الأولين من شركة الثالوث المحيية، فإنه يقترب من حدث التأنس، رابطًا إياه مباشرةً بعناية الله محب البشر.

كان الله يعرف مسبقاً أن نهايةً مأساويةً سوف تحدث للإنسان بسبب سقوطه في الخطية، وأن الموت سوف يدخل في حياة الإنسان نتيجةً للاستخدام السيئ لحريته، وبالرغم من ذلك فقد حرص الله على أن يعطي إمكانية للإنسان الساقط لكي يحقق هدف وجوده. إذ يقول القديس كيرلس بكل وضوح: «كون أن الإنسان سوف يخضع للفساد، فهذا أمر لم يجهله الخالق، ولكنه كان يعرف أيضًا، ما هو الحل لهذه الأمور غير المعقولة، ويعرف كيف يُبطل الفساد ويعود بالإنسان إلى الحالة الأفضل لكى يحصل مرة أخرى على الخيرات التي كانت له

منذ البداية. هو يعرف أنه سوف يرسل ابنه في الوقت المناسب في صورة إنسان لكي يموت لأجلنا ويبطل قوة الموت، حتى أنه يصير رب الأموات والأحياء»[٤١].

أيضاً في موضع آخر يقول القديس كيرلس: «هكذا نحن، فطالما تم بناءنا فوقه (المسيح)، نقوم أيضًا في عدم الفساد، نحن الذين سقطنا في الفساد بسبب المخالفة، لأنه كان يعرف أننا نصير أمواتًا بسبب المخالفة والعصيان، سامعين: «لأنك تراب وإلى التراب تعود» (تك ٣:١٩). لكن لأن صانع الكل وخالقهم كان قد قرر خيرًا لأجلنا منذ القديم، سبق ووضع وعيَّن الإنسان الذي سوف يُخلق بسببنا ولأجلنا أي كلمته لكي يصير أيضًا بدايةً لطرقه وأساسًا لإعادة تجديد الطبيعة البشرية معه في عدم الفساد ويكون بكرًا لأخوة كثيرين (رو ٨:٢٩)، ويقوم هو أولاً من الأموات (١ كو ١٥: ٢٠)»[٤٢].

وقد سبق للقديس أثناسيوس أن شرح هذا الأمر، قائلاً: «فإله الجميع إذن، عندما خلقنا بكلمته الذاتي ولأنه كان يعرف أمورنا أكثر منَّا ويعرف مقدمًا أننا رغم أنه قد خلقنا صالحين إلاَّ أننا سنُطرد من الجنة بسبب العصيان. ولأنه هو محب البشر وصالح فقد أعدَّ من قبل، تدبير خلاصنا بكلمته الذاتي، الذي به أيضًا خلقنا. لأننا حتى إن كنا قد خُدعنا بواسطة الحية وسقطنا فلا نبقى أمواتًا كليةً، بل يصير لنا بالكلمة الفداء والخلاص الذي سبق إعداده لنا لكي نقوم من جديد

---

٤١ جلافيرا، المقالة الأولى.

٤٢ القديس كيرلس السكندري، الكنوز في الثالوث، مقالة ١٥، فقرة ٦٧.

ونظل غير مائتين وذلك عندما «خُلق» هو من أجلنا «بدء الطُرق»، وصار «بكر الخليقة»، «وبكر إخوة»، وقام «باكورة الأموات»[٤٣].

في نفس الوقت، كل عمل الرب الخلاصي يعلن عمق وغنى محبة الله وحكمته. وحيث أن حدث تأنس الابن يمثل المحطة الأولى لكل عمله الخلاصي، يتحقق كيرلس من جوانب مختلفة لهذا الحدث الهام لتناول سر التدبير الإلهي:

(أ) الطابع الخارق لحمل وولادة الإله المتأنس من العذراء

لحمل وولادة عمانوئيل من العذراء والدة الإله طابع خارق: «المسيح هو الأسد الذي وُلِدَ كما مِن نبت وجذر شريف، مِن العذراء القديسة. لأنه حقًا هو: «قضيب عزك» (مز ١١٠: ٢) الذي أرسله الله لصهيون، هو العكاز الذي يسندنا كلنا ويعضدنا «قضيب استقامة قضيب مُلكك» (مز ٤٥: ٦)»[٤٤].

بالنسبة للقديس كيرلس حمل وولادة الرب من والدة الإله يُحدَّد كَسرٌ عميق لا يمكن لأذهاننا أن تدركه، فهو سرٌّ حقًا: «أرأيت كيف تعلن كلمة التعليم الرسولي معًا نعمة الاتحاد جهرًا، وأيضًا الاعتراف بالمسيح؟ لأن يسوع لم يكن أبدًا إنسانًا عاديًا قَبلَ شركة واتحاد الله به، لكن الكلمة ذاته الذي أتى إلى العذراء الطوباوية، وأتى منها، آخذًا نفس الهيكل لذاته من جوهر العذراء، خارجيًا هو بالطبع إنسانٌ، لكنه داخليًا هو إلهٌ حقيقيٌّ. لأجل هذا أيضًا -بعد الولادة- فإن التي ولدته، ظلت عذراء، الأمر الذي لم يَصِر مع أي أحد آخر من القديسين،

---

[٤٣] القديس أثناسيوس الرسولي، ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، فقرة ٧٥، ص ١٣٩.

[٤٤] جلافيرا، المقالة السابعة.

لأن أولئك كانوا بشرًا من جهة الطبيعة، أي أن الكل كان لديهم طبيعة بشرية وولادة متساوية، أما هو، فبسبب أنه كان إلهًا من جهة طبيعته آخذًا أيضًا الطبيعة البشرية في الأيام الأخيرة، ظهرت ولادته من العذراء أمرًا عجيبًا[٤٥].

بالطبع، يرتكز أساس تناول الأحداث الفائقة للطبيعة التي تتعلق بحمل وولادة الرب عند القديس كيرلس، في الاعتراف بالحدث والإيمان به، لا على محاولة المجادلات المنطقية؛ لأن هذه الأحداث هي أحداثٌ حقيقية تفوق الذهن والمنطق. إن «طريقة التدبير الجسدي هي مفارقة تفوق الذهن والمنطق»[٤٦].

فعن حمل وولادة عمانوئيل، يقول القديس كيرلس إنها كانت «مفارقة عجيبة παράδοξος": "فالملائكة كانوا هم أول مَنْ بَشَّرَ به، وأعلنوا مجده كإلهٍ مولودٍ في الجسد من امرأة بطريقة عجيبة""[٤٧].

هذه الملامح المتعلقة بسر التأنس تظهر عند القديس كيرلس بسلسلة من الحقائق: «ولادة عمانوئيل كانت مُعجزية، ولم تكن بحسب قوانين الطبيعة. لأن العذراء لم تحمل من زرع إنسان»[٤٨].

وبخصوص طريقة الولادة المعجزية لعمانوئيل، يقول القديس كيرلس أيضاً: «ولكن أولئك الذين يجادلون ويقولون، إن كان هو قد جاء في الجسد، فتكون

---

[٤٥] القديس كيرلس السكندري، والدة الإله، ترجمة عن اليونانية د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، يونيو ٢٠١١، ص ٨.

[46] *κατά Ἰουλιανοῦ, 8, PG70, 220A.*

[٤٧] القديس كيرلس الأسكندري، تفسير إنجيل لوقا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ٢٠٠٧م، ص ٣٨.

[٤٨] القديس كيرلس الأسكندري، تفسير إنجيل لوقا، المرجع السابق، ص ٣٣.

العذراء قد فسدت، وإن لم تكن قد فسدت، فإنه يكون قد جاء بطريقة خيالية فقط. هؤلاء نقول لهم إن النبي يُعلن «إن الرب إله إسرائيل قد دخل وخرج، والباب يظل مغلقًا» (حز ٤٤: ٢)، وأيضًا: «إن كان الكلمة قد صار جسدًا بدون تزاوج جسدي، إذ فقد حُمِلَ به بدون زرع بشر، فإنه إذن وُلد دون أن تُمس عذراويتها» (تفسير لوقا ٢). ص ٤٣

(ب) التفسير الصحيح لمصطلح «بِكر πρωτότοκος"

يقول القديس كيرلس: «إن عمانوئيل وُصِفَ بالبكر عندما صار إنسانًا مثلنا وبكرًا بين إخوة كثيرين» (انظر رو ٨: ٢٩)»[٤٩]

يقول إفنوميوس الهرطوقي -كما أشار القديس كيرلس في تفسيره لإنجيل لوقا- إن معنى كلمة بكر هي «الأول بين أخوة كثيرين» (تفسير لوقا ٢) ويرد القديس كيرلس، قائلا: «إن معنى البكر هنا ليس أنه الأول بين أخوة عديدين، بل هو ابنها (العذراء) الأول والوحيد، فإن هذا هو المعنى من بين المعاني التي تُفسَّر بها كلمة «البكر». لأن الكتاب المقدس أحيانًا يسمِّي الوحيد بالأول كما هو مكتوب: «أنا الله، أنا الأول وليس هناك آخر معي» (أش٤٤: ٦س)»[٥٠].

هكذا يستشهد القديس كيرلس بما جاء في أشعياء ٤٤: ٦: «بكر» يعني الأول والوحيد، وليس الأول بين أخوة جسدانيين كثيرين. إنه بكر، الأول والوحيد لأن الإنجيلي أراد أن يشدد على أن والدة الإله لم تلد في الزمن مجرد إنسان سامٍ، بل الابن الأزلي الذي من الآب. وكذلك يظل المولود الوحيد الجنس

---

[٤٩] حلافيرا، المقالة الثالثة.

[٥٠] القديس كيرلس الأسكندري، تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق، ص ٣٤.

هو الذي صار حقًا إنسانًا، ورغم أنه لكونه صار أخًا لنا، فقد أصبح له البشرية، فإنه يمكنه أن يجعلنا أيضًا أبناء الله» (تفسير لوقا ٢).

بالتالي يشدد القديس كيرلس على أنه «بكر» فيما يتعلق بحقيقة مجيء الكلمة في الجسد وعمله الخلاصي. هكذا، بينما هو كالله الكلمة، وحيد الجنس وواحد مع الآب في الجوهر من جهة ألوهيته، يصير بكرًا بتنازله إلى مستوى المخلوقات» (تفسير لوقا ٢). يقول القديس كيرلس: «إن شخص يعقوب يشير روحيًا أحيانًا إلى الرسل القديسين، إذ صار بداية لأولئك الذين تقدسوا بالروح وتبرروا بالإيمان، وأحيانًا يشير إلى المسيح كبداية للبشرية التي تجددت ونالت عدم الفساد، أي كبكر بين اخوة كثيرين (انظر رو٨:٢٨)، وكآدم ثانٍ وجذر ثانٍ للجنس البشري»[٥١].

ويقر القديس كيرلس بمبدأ عام في الكتب المقدسة حين تصف الابن بالبكر، قائلاً: «حينما يُدعى الابن الوحيد، فإنه يُدعى هكذا دون أن يكون هناك سبب آخر لكونه الابن الوحيد؛ إذ هو الإله الوحيد الجنس الذي في حضن الآب (يو ١:١٨)، ولكن حينما تدعوه الكتب الإلهية «بالبكر بين أخوة كثيرين»، فبسبب أنه صار مثلنا في كل شيء ما عدا الخطية، وفي المرة الثانية دُعي «البكر من الأموات»؛ لأنه هو الأول الذي لأقام جسده إلى حالة عدم الفساد» (تفسير لوقا ٢).

إذن، بدون أدنى شك، بأنه كابن وكلمة الله، هو وحيد الجنس، لكن هو نفسه الأول والوحيد الذي وُلِدَ من مريم والدة الإله بحسب مجيئه في الجسد.

---

٥١ جلافيرا، المقالة الرابعة.

(ج) الاختلاف الفائق بين المسيح والأنبياء

هناك معيار آخر لسر التأنس الإلهي، يركز عليه القديس كيرلس، هو الاختلاف الفائق والجذري لولادة المسيح عن أنبياء العهد القديم.

يحتل هذا الفرق أهميةً خاصةً في فكر القديس كيرلس، ففي إطار الفكر اللاهوتي لهذا الأب القديس هناك هدف مزدوج. فمن ناحية يهدف القديس كيرلس إلى إلغاء التقليل من عمل الرب الخلاصي، ومن ناحية أخرى تغيير الصورة والتعليم الكنسي عن شخص المسيح اللذان أتيا من الأريوسيين[٥٢].

إن مبرر القديس كيرلس يُبطل النزول الخاطئ بالمسيح إلى مستوى النبي العادي. هكذا بحسب القديس كيرلس يجب أن نلاحظ الآتي:

١- وُلِدَ الأنبياء القديسون على مر الأزمنة، ولكن واحداً منهم لم يُمجَّد بأصوات الملائكة، لأنهم كانوا بشرًا وكانوا على نفس القياس مثلنا كانوا خدام الله الحقيقيين وحاملي كلماته، أما المسيح فلم يكن هكذا: «لأنه إلهٌ وربٌّ، وهو مرسِل الأنبياء القديسين»[٥٣].

٢- الله الكلمة بحسب «مجيئه في الجسد»، لم يأتِ ويحل في إنسان مثلما حدث مع الأنبياء، لكن صار حقًا إلى ما نحن عليه، فيما عدا فقط الخطية»[٥٤].

---

٥٢ أنظر الكنوز في الثالوث، مرجع سابق، المقالة ١٩، ص ٢٨٧- ٣١٤.

٥٣ القديس كيرلس الأسكندري، تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق، الإصحاح الثاني، عظة ٢ على ميلاد مخلصنا بالجسد، ص ٣٧-٣٨.

٥٤ الكنوز في الثالوث، مرجع سابق، المقالة الرابعة والعشرون، فقرة٧، ص٣٧٠.

هكذا أدركنا لماذا سبَّحت القوات السماوية حين وُلِدَ المسيح، بينما على النقيض من ذلك «لأن أنبياء قديسين كثيرين وُلدوا على مر الأزمنة، ولكن لم يُمجَّد أي واحد منهم بأصوات الملائكة»[٥٥].

٣- المسيح بكونه الله، يعرف مسبقًا الأمور التي سوف تحدث، وهذا ما تحدث به للأنبياء: «إن حديث كلمة الله للأنبياء لم يختلف عن حديثه للملائكة عما سوف يحدث من أمور، لأنه لا قدرة لديهم على معرفتها بمفردهم، لأن معرفة ما سوف يحدث في المستقبل تليق فقط بالله»[٥٦].

٤- وعندما يستدعى القديس كيرلس مز ٨٩: ٧ - ٨ يشدد بوضوح على أنه: «ليس هناك أحدٌ من أولئك الذين -بحسب النعمة- حُسبوا أبناء الله، مساوٍ للابن بحسب الطبيعة»[٥٧].

٥- كان الأنبياء أناساً خطاةً خاضعين للتجربة والخطية كشركاء ووارثون للطبيعة البشرية الخاطئة على النقيض من ذلك المسيح الذي «صار شبيهًا بنا في كل شيء ما عدا الخطية»[٥٨].

لأجل هذه الأسباب -بحسب القديس كيرلس- نعترف بأن المسيح هو «كلمة الآب الذي أُرسل للأنبياء، وبالتالي، كيف -بحسب تجديفك أيها الهرطوقي- يتساوى معهم مَنْ كان أسمى مِن الأنبياء، وأعلى منهم بما لا يُقاس؟»[٥٩].

---

٥٥ القديس كيرلس الأسكندري، تفسير إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني، ص٣٨.

٥٦ الكنوز في الثالوث، المقالة التاسعة عشر، مرجع سابق، فقرة٨، ص٢٩٥.

٥٧ الكنوز في الثالوث، المقالة التاسعة عشر، مرجع سابق، فقرة٩، ص٢٩٦.

٥٨ الكنوز في الثالوث، المقالة الخامسة والعشرون، مرجع سابق، فقرة٧، ص٣٨٠.

الهدف من التأنس

يمثل سر تأنس المسيح العظيم المحطة الأولى من حوادث تدبير المسيح في الجسد. ولذلك، الإدراك المستقيم لكل ما عمله المسيح من أجل خلاص البشر بالنسبة للقديس كيرلس، يعد ضرورةً أساسية للمعرفة غير المضِلة: «عندما يقول (المسيح) شيئًا إنسانيًا بسبب الجسد الذي له، علينا ألا ننسب هذا القول إلى الله الكلمة، فإذا رأينا أنه غريب عن الألوهة، فعلينا أن ننسبه إلى الجسد. وهكذا نضع كل قول قاله المسيح في مكانه، فيكون لدينا معرفة غير مضِلة عن مخلصنا»[٦٠].

هكذا بالنسبة للقديس كيرلس، لا يُدرك السر العظيم بتبريرات قانونية، بل ينبغي أن نتناوله ونفسره في داخل رؤية متعددة الوجوه.

يشدد القديس كيرلس، في شرحه للتأنس، وفي مواجهة النظرة الهرطوقية في تاريخ الكنيسة (مثل رؤية سابليوس) على تجسد الابن والله الكلمة فقط، وليس كل الثالوث: «دعهم يبرهنون (الهراطقة) لنا على أن الروح صار إنسانًا، وخضع بحسب التدبير للإخلاء هكذا مثل الابن. وبسبب أن الثالوث هو مساوٍ (في الألوهية) ومسجود له، لا يمكن لأحدٍ -بسبب هذا- أن ينسب التأنس لأي أقنوم حسبما يرى. لأن الآب لم يصر إنسانًا، وبالمثل فإن الروح لم يصر إنسانًا، بل الابن فقط هو الذي صار إنسانًا، هذا ما علمتنا إياه الكتب المقدسة»[٦١].

---

[٥٩] الكنوز في الثالوث، المقالة التاسعة عشر، فقرة٨، مرجع سابق، ص٢٩٥.

[٦٠] الكنوز في الثالوث، المقالة الثالثة والعشرون، مرجع سابق، فقرة١٢، ص٣١٢.

[٦١] جلافيرا على سفر التكوين، المقالة الثانية.

هذا، وتعد حقيقة تأنس المخلص في حد ذاتها، تعبيراً عن محبة الثالوث القدوس للبشر: «ومن محبته العظيمة للبشر أظهر محبته لنا، وارتبط بطبيعتنا لكي يُقيمها ويحررها من عبوديتها للشيطان»[٦٢].

لقد أدرك القديس كيرلس ووصف الخطية الأولى ونتائجها كـــ «مرض»، وعلى ذلك فالهدف من التأنس إذن كان شفاء الطبيعة البشرية من المرض الذي أصابها: «لم يشأ أن يرى هلاك خليقته على الأرض، أعني الإنسان، بل على العكس، فلأجل أنه رأى أن الطبيعة البشرية قد أُصيبت بمرضٍ عُضال، فقد أرسل كلمته الذي يستطيع وحده أن يحطم مملكة الشيطان ويحررنا من الشرور التي أمسكتنا في قبضتها»[٦٣].

شفاء الطبيعة البشرية بحسب المسيح صار واقعًا بسر التدبير الإلهي

يشدد القديس كيرلس بكل واقعية ووضوح على أن «هدف الإخلاء هو أن يخلِّص البشر الذين على الأرض»[٦٤]. وهو يبتعد عن الأسس القانونية أثناء تناوله لسر التدبير الإلهي: «لقد أدان الناموس الخليقة، لأنه بالناموس أغلق الله على الكل تحت الخطية (غلا ٣:٢٢)، وأظهر أننا تحت العقاب، أما المخلص، فقد

---

٦٢ ضد الذين لا يعترفون بأن العذراء القديس هي والدة الإله، ترجمة عن اليونانية د. جورج عوض، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، يونيو ٢٠١١م، فقرة ٢٦، ص٣٥.

٦٣ القديس كيرلس السكندري، الرسالة الفصحية الأولى، ترجمة د. ميشيل بديع عبد الملك، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، مايو ٢٠٠٤، فقرة ٦، ص٢٨.

٦٤ جلافيرا على سفر التكوين، المقالة الخامسة.

أعطى الحرية للإنسان حيث قال: «لم آتِ لأدين العالم بل لأخلص الإنسان» (أنظر يو ١٢:٤٧)»[٦٥].

إن الله المتأنس هو «بداية كلِّ الصالحات للطبيعة الإنسانية، ومحرّر الإنسان من الفساد الدخيل، ومانح الحياة الأبدية، وأساس المصالحة مع الله، وبداية التقوى والبِّر، والطريق لملكوت السموات»[٦٦].

عند القديس كيرلس ترتبط نتائج الخطية وعملها الهدَّام بهدف التأنس وثماره الناتجة. فالتأنس يعطي إمكانية للطبيعة البشرية أن يكون لديها ما كانت تملكه في حالتها الأولى الأصلية قبل الخطية وقبل أن تُجرح بالجرح الخطير. لأجل هذا يربط القديس كيرلس في حزمة واحدة حشداً من جوانب سر مجيء الرب بالجسد، فبتأنس الرب تمت عملية إعادة التشكيل وإعادة التجديد للطبيعة البشرية: «فبينما كان عاليًا، رُفع لأجلنا كإنسان لكي يرفعنا نحن بالذي هو شبيهٌ بنا، وهكذا يغيِّرنا جاعلاً إيانا مماثلين لصورة الخالق، مجددًا الطبيعة البشرية لتكون مثلما كانت من البداية»[٦٧].

إن الطبيعة البشرية رُفعت وقُدِّست ومُجِّدت وتألَّهت: "الحكمة الذي هو كلمة الله اتخذ الطبيعة البشرية فتألَّهت، وتمت البرهنة على هذا من خلال أعمال الجسد، والنتائج العجيبة في أعين أولئك الذين يرون الهيكل (الجسد) الذي أخذه، جعلته يرتقي بالنسبة لهم. هكذا ارتقت الطبيعة البشرية في الحكمة متألِّهةً

٦٥ شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، مرجع سابق، ص١٤٠.

٦٦ شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ١٥٢.

٦٧ الكنوز في الثالوث، المقالة العشرون، فقرة٦، ص٣٠٨.

بواسطتها، لذلك أيضًا نحن بطريقة مماثلة للكلمة، الذي لأجلنا تأنس، نُدعى أبناء الله وآلهة. لقد تقدَّمت طبيعتنا في الحكمة مُنتقلةً من الفساد إلى عدم الفساد، ومن الطبيعة البشرية إلى الألوهية بنعمة المسيح"[٦٨].

هكذا «أتى لكي يُمجِّد ويُقدِّس الإنسان»[٦٩]، لقد أُعيدت الطبيعة البشرية إلى جمالها الأول وعدم الفساد، إلى تلك الحالة الأولى كما كانت عليها آدم في الأول. بتجسد الله الكلمة أُعيد إصلاح الضرر الذي كانت تعاني منه الطبيعة البشرية من جراء المخالفة الأولى. لأجل ذلك، فإن تأنس الرب، وبشكل عام، كل سر التدبير الإلهي يرتبط بشفاء الإنسان من حدث السقوط. إذن بالنسبة للقديس كيرلس، تجسد الله الكلمة هو ليس بلا ضرورة أو شرط، وذلك في مقارنة مع الأب مكسيموس المعترف الذي ينادي بأن تجسد الله الكلمة كان بلا ضرورة أوجبته[٧٠]. بالتالي عند كيرلس، التعليم الخريستولوجي يعد تجسد الكلمة أساس ومحور الخلاص.

مقدمة عن كتاب الجلافيرا

يستخدم القديس كيرلس التفسير الطيبولوجي: τυπολογική Ερμηνεὶα أثناء شرحه نصوص سفر التكوين على أساس أن المسيح وعمله الفدائي هو مركز كل شيء. وقد سبق أن طبَّق هذا المنهج في كتابة: السجود والعبادة بالروح والحق

[٦٨] الكنوز في الثالوث، المقالة الثامنة والعشرون، فقرة ١١، ص٤٠١.

[٦٩] الكنوز في الثالوث، المقالة الثالثة والعشرون، فقرة ١٠، ص٣٦٠.

[70] *G. Florofsky, Gur Deus Homo? τό κὶνητρο τῆς ἐνανθρωπὴσεως, στά θέματα ὀρθοδόξου θεολογὶας ἐκδ. Ἄρτος Ζωῆς, Ἀθὴνα 1989, σς. 33-42.*

الذي كتبه في صورة حوار بينه وبين بلاديوس، إلَّا أنه في هذا العمل الذي يأتي لكي يكمل ذلك العمل الأول، قد ركز على شخصيات وحوادث، هي مجرد نماذج وأمثلة لشخص المسيح وعمله الخلاصي. يتكون هذا العمل من سبع مقالات على سفر التكوين:

المقالة الأولى

يتحدث فيها القديس كيرلس عن سر المسيح الذي أُعِلن في كتابات موسى النبي بطريقة رمزية أو نماذجية، نقصد الطيبولوجية. ويحثنا على السعي بجدية في طلب الجوهرة المخفية، أي المسيح. والشخصيات التي تناولها القديس كيرلس في المقالة الأولى هي:

١ - آدم:

يتحدث القديس كيرلس أولاً عن آدم الثاني الذي فيه انجمع كل شيءٍ وبواسطته الخلاص، يقصد المسيح الذي به نلنا **الخليقة الجديدة** وأُعطيَ لنا إسمًا جديدًا. ولكي يشرح لنا القديس كيرلس هذا الأمر تحدث عن:

أ- **الخلق**، الله خلق بواسطة إبنه كل المخلوقات (أنظر يو١:٢) حيث خلق الكون، ثم بعد ذلك خلقِ الإنسان الذي لأجله خُلِقت المخلوقات الأخرى. دافع الخلق عند القديس كيرلس هو لأن الله صالح، إذ يقول: [لأنه طالما أن خالق الجميع الذي هو صالحٌ بطبيعته أو بالأحرى الصلاح نفسه... كان من الحتمي أن يخلق الله في الأرض كائنًا عاقلاً، لأن كل ما خُلِق قبله خُلِق لأجل سعادته حتى أن الله رأى أنه حسن جدًا أنه قد خلق

الإنسان». لقد كَرَّمَ الله الإنسان خليقته وذلك بإرادته الإلهية «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (تك ١:٢٦)].

ب- مواصفات الإنسان المخلوق بحسب صورة الله ومثاله عند القديس كيرلس: [كائن حي عاقل ونفخ فيه مباشرةً روحاً خالدة ومحيية، لأنه مكتوب: «ونفخ في وجهه نسمة حياة فصار آدم نفسًا حية» (تك ٢:٧)].

لقد وضعه الله في الفردوس وأعطاه السيادة على كل المخلوقات الأرضية وأصبح الإنسان يمثل المجد الأسمى على الأرض وصورة للسيادة الملائمة لله.

ت- الله يعطي الإنسان وصية: لقد أعطى الله للإنسان وصية وتحذير في حالة مخالفته لها: «من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها. لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت» (تك ٢:١٦ - ١٧).

ث- الله يخلق المرأة: لقد خلق الله المرأة لكي تُعين آدم في ولادة البنين والبنات والتي سوف تحيا معه نظيرًا له وتشترك معه في الحياة.

جـ- المرأة أُغويت أولاً لأنها انقادت بخيالات الشيطان إلى المخالفة ومعها انخدع آدم نفسه.

حـ- نتائج السقوط (المخالفة):

١- حُكِم على الطبيعة البشرية بالموت.

٢- قال للمرأة: «بالوجع تلدين أولادًا»

٣- قال لآدم: «ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك» (تك ٣: ١٦ - ١٧).

٤- طُرد الأثنان (آدم وحواء) من مسكنهما المحبوب ومن التمتع بالفردوس.

٥- عرفا أنهما عريانان وفي حاجة للثياب.

٦- أُعطيَ لهما أقمصةٌ جلديةٌ من قِبلَ الله.

٧- صارت الأرض أُمًّا لهما وجذبتهما قيود الفساد.

ويجيب القديس كيرلس على تساؤل مُثار من الذين يسمعون قصة الخلق والسقوط: هل كان من الأفضل أن يُوجد الآبوين الأولين اللذين أخفقا، أم كان الأفضل لهما أن يصيرا شركاء في نقاوة الخالق؟

ينطلق القديس كيرلس في إجابته على هذا السؤال من مسألة خلق الملائكة النورانية، مشددًا على أنه لم يكن من المنطقي أن يتردد الله الخالق في خلق الملائكة لأنه بعلمه السابق يعرف أن مجموعة من الملائكة سوف تسقط بسبب خطية الكبرياء. ويحلل بعد ذلك القديس كيرلس مسألة سقوط الإنسان موضحًا أنه خُلِق منذ البداية متحملاً مسئولية إرادته وحرية إختياره للشيء الذي يفضِّله. وهذا الأمر أي هبة الحرية أشرف للإنسان من الإجبار على فعل الصلاح. لكن انقاد الإنسان بغواية الشيطان ليفعل ما لا يليق ووقع في العصيان.

الله كان يعلم بالطبع أن الإنسان سوف يسقط وأنه سوف يخلصه:

١- حُكِم على الإنسان بالموت والفساد، وبحسب القديس كيرلس أن الله يرى هذا الحكم هو لصالح الإنسان الذي أُصيب بمرض الميل تجاه الشر،

والموت الجسدي لن يؤدي إلى الدمار الكامل للإنسان لأنه سوف يُعاد خلق الإنسان كمثل إناء مكسور حُفِظ ليصير جديدًا في الوقت المناسب.

٢- كان الله يعرف أن الإنسان سوف يخضع للفساد، ولكنه كان يعرف أيضًا ما هو الحل، ويعرف كيف يبطل الفساد ويعود بالإنسان إلى الحالة الأفضل.

٣- كان الله يعرف أنه سوف يرسل إبنه في الوقت المناسب في صورة إنسان لكي يموت لأجلنا ويبطل قوة الموت.

٤- يجب علينا -بحسب تعليم القديس كيرلس- أن ندين ذواتنا نحن الذين بإرادتنا أصبحنا في معاناة بسبب الشر بدلاً من أن نتذمر على الخالق.

كان التأنس معروفًا من قبل، والشفاء من الأمراض كان مرتبًا له وقته المناسب: إن السر الذي ظل مكتومًا، ظهر الآن بالناموس والأنبياء حسب إرادة الله الآب. أي أن نُخلق مرة ثانيةً بالمسيح ونعود إلى الحالة التي كانت لنا منذ بدايات الخلق. هذه الحقيقة هي التي يتمركز حولها القديس كيرلس في مقالاته، إنه السر المكتوم منذ الدهور بحسب تعبير الرسول بولس بأن الأمم لديهم فرصة بالإيمان بالمسيح لينضموا إلى شعب الله.

الخالق أوجد أصلاً جديدًا للجنس البشري: إذن، بسبب أن آدم إنقاد إلى الموت، انتقل حكم الموت إلى كل البشر؛ لأن المرض إنتقل إلى الفروع التي خرجت منه. وهكذا تعهد الخالق مخلوقاته وأوجد أصلاً ثانيًا للجنس البشري الذي أصعدنا إلى عدم الفساد الأول.

٢- عن قايين وهابيل:

أ- التشديد هنا على أن **الكلمة** الذي خُلِقَ بواسطته كل شيء يصير هو نفسه الذي يجدد كل ما قد فسد ويشفي جرح الخطية.

نرى في هابيل وقايين أيضًا سر المسيح: قايين إنجذب إلى جمال الأرض الخضراء وعن طريق فلاحتها صارت أكثر جمالاً، أما هابيل فمارس الرعي كوسيلة لقيادة البشر.

١- هابيل قدَّم أفضل ما عنده، وبحسب القديس كيرلس، لم يكن يجهل هابيل الطريقة الطقسية، على النقيض قدَّم قايين تقدمة بتغافل وعدم أكتراث، إذ قَدَّم لله إنتاج ذي جودة أقل؛ لذلك أرسل الله نار من السماء والتهمت التقدمات المذبوحة، أما لتقدمات قايين لم يرسل الله النار.

٢- تضابق قايين، إذ أدرك أن الله تحول عنه وعرف أن هابيل أخوه قد حقق نجاحاً عظيماً. لم يصحح قايين أخطاءه بل سلَّم ذاته كثور هائج لإنفعالاته. لقد ابتعد عن الله واتخذ قراراً بالتخلص من أخيه وخطط لذلك ونفذ الأمر.

٣- قايين رمز أو مثال لإسرائيل الذي أراد أن يكرم الله مقدمًا له الأمور الوقتية، بينما هابيل هو مثال لعمانوئيل الراعي الصالح الذي كان قائدًا للرعية العاقلة.

٣- شيث:

يخبرنا سفر التكوين (تك ٥:٣) بأن آدم «وَلَدَ ولدًا على شبهه لصورته ودعا أسمه شيثًا». أي بحسب القديس كيرلس، بعد موت هابيل وُلِدَ الإبن شيث على

صورة الله ومثاله، أي مثل آدم. ثم يفسر القديس كيرلس رمزيًا هذا الحدث بأنه بعد موت عمانوئيل بالجسد وُلِدتَ ذرية أخرى ليست من نسل آدم. هكذا موت المسيح صار كأنه جذر وأساس للجنس الجديد.

صمت الله عن ذكر أحفاد قايين (أنظر تك ٤:١٧ - ٢٤)، إشارة إلى أن اليهود هم صورة لأخطاء قايين قاتل أخيه و لم يُكتبوا في سفر الحياة.

٤- أنوش:

لقد خرج أنوش من شيث العظيم الذي «إبتدأ أن يدعو بإسم الرب» (تك ٤:٢٦). هذا يعني بحسب القديس كيرلس، أنه بالرغم من انحدارنا من الأرض قد دُعينا أبناء سيد الكل وأخوة للمسيح الذي لأجلنا صار مثلنا حتى نصير بنسببه فضلاء وأسمى من الإنسان الأرضي.

المقالة الثانية

يتحدث القديس كيرلس في هذه المقالة عن نوح بن لامك ويوضح أمرًا هامًا بأن أحفاد أنوش كان يُطلق عليهم أهم أبناء الله حتى الجيل العاشر من آدم على أساس أن أنوش نفسه دُعيَ عليه أسم الرب. وعندما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض اتخذ أبناء الله لأنفسهم بنات الناس وتزوجوا بنساء حسبما اختاروا. ولما كانت بعض المخطوطات تذكر أنه «عندما رأي ملائكة الله بنات الناس» (تك ٦:٢)، ظن البعض أن الملائكة سقطت في شهوات جسدية وأعطوا مبررًا لأنفسهم بأن يرتكبوا هذه الشهوات الجسدية مع النساء، لكن القديس كيرلس

ينفي بشدة هذا الظن الخاطيء موضحًا بأنه إستحالة سقوط الملائكة في شهوات جسدية والمقصود بأبناء الله هم أبناء شيث.

كما يتحدث القديس كيرلس عن ازدياد شر الإنسان، وخلاص نوح (تك ٦:١٣ - ٢٠).

الفلك صورة للخلاص:

يؤكد القديس كيرلس على أن نوح كان مثالاً للمسيح:

١- نوح وُلِدَ من لامك الذي وُلِدَ من شيث، وكذلك ربنا يسوع أتى من إسرائيل الذي كان قدوسًا بالتأكيد بسبب آبائه الأولين.

٢- إسرئيل كان له نفس التصرف مع أحفاد لامك وتوافق مع القاتل وكان مثله في المقام (أنظر مت٢٢:٣١).

٣- نوح كان الحادي عشر في الترتيب بعد آدم، كذلك المسيح وُلِدَ كالأخير والحادي عشر [أنظر مثل أصحاب الساعة الحادية عشر (مت٢٠:٦)].

٤- **الكلمة** الابن الوحيد هو نوح الحقيقي أي البر والراحة، إذا صار المسيح لنا برًا وراحةً.

٥- نوح الحقيقي أسَّس على مثال الفُلك القديم، الكنيسة التي كل مَنْ يدخل فيها ينجو من دمار العالم، إنه مثال للمعمودية (أنظر ١بط٣:٢٠ - ٢١).

٦- يستخدم القديس كيرلس دلالة الأرقام في تفسير مقايس الفُلك. وهنا تبرز معرفته بعلم الأرقام الذي كان يُدرس في مدرسة الإسكندرية كذلك يستخدم معاني الأسماء التي دخلت الفُلك ليؤكد على تعاليم

إيمانيه تدور حول المسيح وعمله الخلاصي. وهذا يفعله أيضًا مع دلالات الغراب والحمام والحيوانات في قصة الطوفان.

٧- يستخلص القديس كيرلس من حادثة عُري نوح ولعنة حام بأن الوالدين هم دائمًا يستحقون التوقير (أنظر خر ٢٠:٢١، أم ١٧:٣). كذلك يمضي القديس كيرلس في تفسير هذا الحدث روحيًا حيث أن النص يعلن لنا سر اليهود.

إن جسد نوح العاري والمحتقر يرمز إلى المسيح من جهة الشكل البشري، أما جهة المفهوم الذهني، فهو يشير إلى جمال الألوهية. إن كل الشعوب كانت ثلاثة، الشعب الأول الذي يمثله سام، والمتوسط يرمز له حام الملعون، والثالث الأخير هو يافث الذي يُفسر بمعنى «المتسع». الشعبِ الأول والأخير أي الإبنان (سام ويافث) نالا رحمة من عمانوئيل الذي بواسطته صارا مباركين من الله الآب. أما حام ظل في العبودية لأنه إحتقر المسيح.

بناء برج بابل

يتحدث القديس كيرلس أيضًا عن بناء برج بابل الذي يشير لتفاقم الشر الذي انتشر في البشر حيث أرادوا أن يتفاخروا مُقدِمين على هذا العمل المتهور، فأوقف الله من لطفه أعمالهم عن طريق بلبلة الألسن. بحسب القديس كيرلس، الأعمال التي تحتاج فقط لقوة الخالق ولسلطانه، ليس لأحد سلطانٌ عليها إلّا هو فقط. إن بلبلة الألسن عند القديس كيرلس ترمز إلى تشتيت اليهود من جراء طيشهم وعدم تبصرهم؛ لأنهم ظنوا أنهم سيكونون في عِشرة مع الله ليس بحفظ وصايا ولا بالإيمان بالمسيح، بل ببناء برج عالٍ ليكونوا في مجد الآباء. لقد أرادوا -كما يؤكد القديس كيرلس- أن يبنوا مجدهم بالتفاخر بالأمور الأرضية.

كذلك يؤكد القديس كيرلس على أن الروح القدس مُنِحَ لنا لكي نعلو ونحقق الصعود إلى السموات بالإيمان بالمسيح.

إبرآم وملكي صادق

إن جذر الإسرائيليين هو بالطبع إبرآم والسبط الذي أتى منه هو اللاوي الذي كان متوجًا بكرامات الكهنوت، لكن هذا السبط كان في صلب إبراهيم عندما تقابل مع ملكي صادق. لقد باركه ملكي صادق في اسم يسوع حيث كان ملكي صادق مثال للمسيح.

بحسب القديس كيرلس، ملكي صادق ليس مجرد قوة بهية من جمهور الملائكة المختارين، ولا هو الروح، بل هو شخص، وينتقد القديس كيرلس الذين يجرون وراء معاني الأسماء لكي يستنتجوا مفاهيم ومعاني خاطئة إن ملكي صادق كان إنسانًا، وكان في فترة ما، ملكًا على ساليم حتى إن كان تفسير اسم هذه المدينة «سلام».

يؤكد القديس كيرلس على أننا نرى الآن الأسرار الإلهية رؤية غير واضحة كما في مرآة وفي لغز (أنظر ١كو١٣:٢) يلخص القديس كيرلس سر المسيح قائلاً: [إذ أن الوحيد الجنس هو الله ومولود من الله بحسب الطبيعة وصار إنساناً وحلّ بيننا (يو ١:١٤) وصار رسولنا ورئيس كهنتنا «Απόστολος» καί «Αρχιερεύς” ἡμῶν وحررنا من ثقل لسان الناموس (أنظر خر ٤: ١٠)، ونقلنا إلى صوت التعاليم الإنجيلية الحلو، وليس هذا فقط، ولكن بينما كنا مأسورين، حرَّرنا منتصرًا على رئيس هذا العالم، وأنقذ الراقدين من أحضان الهاوية. وبما إنه أسَّس الكنيسة وعُيِّن رئيسًا لنا، فقد عَبَرَ بنا الأردن، بالإيمان به،

وإذ أعطانا الختان الروحي δέδωκε δέ τήν ἐν Πνεύματι περιτομήν فقد أدخلنا إلى ملكوت السموات].

هارون يرمز أيضًا للمسيح

لقد مُسح هارون بالزيت المقدس وأُقيم رئيسًا وقائدًا للكهنة والشعب، وكان يلبس صدرة من الذهب على كتفي ردائه، وصفيحة من ذهب كُتب عليها اسم الرب (أنظر خر٢٨: ٢٦). وهذا بحسب القديس كيرلس هو رمز لمملكة مخلصنا.

يؤكد القديس كيرلس على سمو العبادة بواسطة المسيح مقارنةً بالعبادة الناموسية، وهذا نراه جيدًا في هارون وفي ملكي صادق. بالنسبة لهارون، كان سبط لاوي الذي منه هارون يأخذ العشور من بني إسرائيل، وعُشر هذه العشور لهارون كرئيس كهنة والذي كان مِثالاً للمسيح. بالنسبة لملكي صادق، كان إنساناً ملكاً على مدينة ساليم، وبحسب بولس كان مثالاً للمسيح.

المقالة الثالثة

يتحدث القديس كيرلس في هذه المقالة عن إبراهيم والوعد بإسحق على أساس أن من خلالهما نرى سر الإيمان. يؤكد القديس كيرلس على أنه بالمسيح وحده الخلاص لأن الناموس جلب الغضب، أما النِّعمة بواسطة المخلص قد أنعمت علينا بالتبرير. برهان هذه الحقيقة يأتي من أن النعمة التي بررت إبراهيم لم تُعط عندما كان مختونًا، لكن بالحري عندما كان أغرلاً. ومن هذا المنطلق، فإن النعمة المخلِّصة هي عطية سماوية للجميع.

هذه الحقيقة أيضًا نراها -بحسب القديس كيرلس- في الوعد بإسحق. لقد اعتبر إبراهيم نفسه عقيمًا بالرغم من أنه كان له إبنٌ غيرَ أصيل من هاجر، لذا وعده الله بإبنٍ أصيل. وبحسب التفسير الروحي للقديس كيرلس، لم يعتبر الله إسرائيل جديرًا بالإنضمام إلى أولاده، لذا قَبِلَ الأمم الذين آمنوا بالوعد، أي بيسوع. هكذا المؤمنون بالوعود هم وارثون. وبحسب القديس كيرلس نستطيع أن نرى سر المسيح من خلال الأمثلة، أي من خلال العجلة والعنزة والكبش والحمامة واليمامة: [نقول إن **كلمة** الله وحيد الجنس صار جسدًا ورُمز إليه بالذبائح التي أوصى الله أن تُشق، وأيضًا بالطير الذي لا يُشق. والسبب في هذا الأمر يحمل مفهومًا مزدوجًا. فمن ناحية نتأمل ولادته الإلهية والسرية من الآب، ومن ناحية أخرى نكرز بسر تأنسه ونحن ننشر تدبيره العميق لكي يعرفه كل الذين لم يعرفوه. وبالرغم من أن السبب يحمل مفهومًا مزدوجًا، إلّا أنه ظلَّ واحدًا بدون انقسام إلى اثنين بعد اتحاده بالجسد، ولم يُقطع أو يُشَّقُ إلى ابنين، لأن المسيحَ واحدٌ وغير منقسمٍ، وهذا ما يشير إليه النهي عن شق الطير لأنه يقول: «وَأَمَّا الطَّيْرُ فَلَمْ يَشُقَّهُ» (تك ١٥: ١٠)]. ويستمر القديس كيرلس قائلاً: [ويعلن من خلال الحيوانات مثل العجل والعنزة والكبش أنه أتى من الأرض كإنسان، لكن يُدرَك أيضًا أنه هو نفسه الآتي من السماء، ومن فوق لأنه إله]. ويؤكد القديس كيرلس على تراجع العبادة الموسوية أمام التعاليم الإنجيلية، وان عبادة الناموس المملوءة بالرموز والظلال هي خادمة لتعليم الإنجيل. كذلك ختان الجسد هو مثالٌ للختان الروحي الذي أشرق عندما أتى المسيح. كان الختان الجسدي يتم في اليوم الثامن الذي فيه قام المسيح من الأموات حيث الوقت الذي

فيه نصير شركاء الروح القدس ونقبل الختان الذي لا يجلب الألم للجسد، بل يُظهر الروح ويخلصنا ليس من الأدناس الجسدية، بل من الضعفات النفسية.

لقد سبق أن صُوِّر رمزيًا سر مخلصنا في تقدمة إبراهيم لإبنه إسحق كذبيحة إلى الله: [اسحق عندما حمل الحطب، كان يشير إلى آلام المسيح وموته، أمَّا تقديم الكبش المُعطى من الله ذبيحةً على المذبح، فهذا يشير إلى حقيقة أن المسيح أصعد جسده ذبيحةً ذكيةً إلى الآب، ذلك الجسد الذي قيل عنه إنه أخذه من الله الآب بحسب ما ورد في المزمور: «ذبيحة وقرباناً لم ترد ولكن هيأت لي جسداً. بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسرّ. ثم قُلتَ ها أنذا أجيءُ في درج (رأس) الكتاب مكتوبٌ عني لأفعل مشيئتك يا الله» (عب ١٠: ٥ – ٧، مز ٤٠: ٧). ولكنه هو نفسه **الكلمة** الذي وُلِد من جوهر الله الآب وتجسد من العذراء وسُمِرَ على الصليب، إلَّا أنه إله غير متألم وغير مائت ἀπαθὴς καὶ ἀθάνατος، وهو مُنزَّهٌ عن أيِّ ألمٍ وأيِّ موتٍ]. **كذلك أيضًا يظهر سر المسيح في زواج إسحق برفقة:** [إن عروس إسحق لم تأتِ من كنعان، بل من آرام ما بين النهرين. لأن الكنيسة المتحدة روحياً بالمسيح المخلّص –كما قلت– لم تأتِ من اليهود، بل من الأمم].

يظهر كذلك سر المسيح في عيسو ويعقوب اللذين كانا مثالين للشعب اليهودي والشعب المسيحي ويستخدم القديس كيرلس معاني الأسماء ليكشف لنا سر المسيح، إذ يقول: [اسم عيسو يعنى « شجرة البلوط» أي «القاسي والصلب». لقد قال الله لإسرائيل: «إنك قاسى وعضل من حديد عنقك وجبهتك من نحاس» (أش ٤٨:٤). بينما اسم يعقوب يعنى «الإزميل – قاطع الأحجار» أو

«الفنان الحاذق» وبكلامٍ آخر: الذي يعرف أن ينتصر. لأنه يضرب بإزميله على الحجر فينتصر عليه. والذى ينتصر – على أية حال– ليس الشعب الذي يتبع الناموس لكن الذي يتبع المسيح بالإيمان. وطالما أن هذا الشعب قد انقطع عن فعل جرائم الخطية، فإنه يغلب قوة الموت وينتصر عليه]. **أيضًا رفقة كانت أُماً للأثنين، إذ يقول القديس كيرلس:** [وربنا يسوع المسيح جعل الكنيسة –العذراء النقية– تخدم الشعبين اللذين صارا بالولادة الروحية. وهدف مجيئه هو أن يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً، كما هو مكتوب: «به لنا كلينا قدوماً في روح واحد» (أف ٢:١٧). لكن إسرائيل كان فاسقاً وغير متفق مع الشعب الجديد، لأنه كان البكر زمنياً. وأعتقدُ أن شِجار الطفلين وهما في البطن، يعلن هذه العداوة التي كانت بينهما فيما بعد. أما كون أن الصغير سوف يصير أعظماً ويتفوق في المجد على البكر إسرائيل، فهذا ما يؤكده الذي يعرف كل الأمور قائلاً: «ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعب. وكبير يُستعبد لصغير» (تك ٢٥: ٢٣). إن سر الشعبين قد أُعلن بفم القديسين، وإن إسرائيل سوف يكون خلف الأمم، وقد قيل لنا هذا الأمر بطرقٍ كثيرةٍ، فقد كان هذا الأمر من عند الله، وقد أظهره بوضوح أثناء ولادهما، إذ أن عيسو خرج أولاً من بطن أمه، ثم بعد ذلك يعقوب ماسكاً كعب أخيه مُظهراً بذلك أنه سوف يتجاوزه وينتصر عليه].

إن الشعب الجديد في الإيمان، يقتنص البركة التي كانت للشعب الإسرائيلي لأنه هيَّأ نفسه بأكثر إستعداد ليسمع أوامر الله. هذا هو سر المسيح.

المقالة الرابعة

يتحدث القديس كيرلس في هذه المقالة عن يعقوب البطريرك، ومازال الحديث المفضل عند القديس كيرلس هو كشف سر المسيح وقبول الأمم بالإيمان من خلال زواج يعقوب برفقة التي تنتمي إلى عائلة لابان، أي عائلة الأمم، وهذا الأمر كان بمثابة نصيحة إسحق لإبنه، ويفسر القديس كيرلس هذا الإرتباط روحيًا، إذ يقول: [وهكذا نرى الرسل القديسين الذين آمنوا في البداية وصاروا باكورة الشعب الجديد قد قاموا بتطبيق النصائح التي أُعطيت ليعقوب. إذ انفصلوا عن قطيع اليهود الذي كانت نواياهم تجاههم نوايا عدوانية، فرحلوا عن هذا القطيع تاركين مدناً وأماكن لكي يتجنبوا – عن إدراك– غضب اليهود. لأنهم تذكروا ما قاله المسيح لهم: «ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى» (مت ١٠:٢٢). وقد سبق أن تحدثوا مع أولئك الآتين من دم إسرائيل، والرافضين للإيمان، وكانوا يقولون لهم باستمرار: «كان يجب أن تكلّموا أنتم أولاً **بكلمة** الله ولكن إذ دفعتموها عنكم وحكمتم أنكم غير مستحقين للحياة الأبدية هوذا نتوجه إلى الأمم» (أع١٣:٤٦).

إن عريس الكنيسة، أي المسيح أعطى وصيةً لخاصته بأن يذهبوا إلى جموع الأمم ويلدوا أولاداً بالإيمان ويصيروا آباءً لشعوب كثيرة؟ لذلك حين كتب بولس الحكيم للأمم الذين آمنوا بواسطته، قال لهم: «لأنه وإن كان لكم ربوات من المرشدين في المسيح لكن ليس آباء كثيرون. لأنى أنا ولدتكم في المسيح يسوع بالإنجيل»].

لقد اهتم الله بيعقوب أثناء رحيله إلى حاران، وأظهر له في رؤيا، السُلَّم الذي كان منصوباً على الأرض ورأسه يمس السماء وملائكة الله صاعدة ونازلة عليها والرب واقف عليها. وبحسب القديس كيرلس فإن يعقوب قد [تعلَّم أن الله موجودٌ في كل مكان وفي كل موضع. وبالطبع يسكن في السماء، لكنه يحرس كل الأرض ويملأ كل المسكونة وتوجد تحت سلطانه كل أرواح السماء التي يأمرها بأن تُسرع إلى فوق وإلى تحت وهو لها الرب والرئيس. لذلك استحوذ عليه الاندهاش وقال: «حقاً إن الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم» (تك ٢٨:١٦). ولأنه اعتقد أن الحجر الذي نام عليه هو سبباً لرؤيته هذا الحُلم، لذا كرّم هذا الحجر وصبَّ عليه زيتاً. وبعد ذلك دعا هذا المكان «بيت الله وباب السماء» ودشّن الحجر]. **كذلك يفسر القديس كيرلس روحيًا هذا الحدث فيقول:** [لكن إذا نظرنا إلى الموضوع برؤية روحية، نقول إن الشعب الجديد - أي الرسل القديسين- هرب من غضب القتلة، أقصد اليهود، وأُجبر أن يهرب سراً (متخفياً) ويهجر أرضه متنقلاً من مدينة إلى مدينة، لكي يصنع شركة مع حشد الأمم راغباً في أن يكون الأمم معهم في شركة روحية وعبادة عقلية. كما أسرع يعقوب في الذهاب إلى بنات لابان لأن عيسو قد هدّده وشرع في قتله بطريقة وحشية. أيضاً لأن الشعب المؤمن استند على المسيح الذي هو الحجر المختار، حجر الزاوية الكريم، وهذا ما أشير إليه بقوله: «وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه»، تعلّمنا إذاً أن الله لا يترك شعبه وحده في الأرض، بل يرسل إليهم معاونين ومساعدين من الملائكة القديسين الذي يسرعون نزولاً وصعوداً. إذ قال المسيح: «الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو ١:٥١). هذا يعني ما

أشار إليه السُلّم ونزول وصعود الأرواح المقدسة عليه «المرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص» (عب ١:١٤). وفي أعلى السلم كان المسيح جالساً لأن عنده كانت تصل الأرواح المقدسة، وهو بالنسبة لها سيدٌ وربٌّ، فهو ليس مثلها، بل هو الله والرب. أيضاً قال داود عن الإنسان الذي يختار أن يسكن بمعونة العلي: «لأنه يوصي ملائكته بل لكي يحفظونك في كل طرقك. على الأيدي يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك. على الأسد والصل تطأ» (مز ٩١: ١١ - ١٣). وحقاً، أعطانا المسيح السلطان أن ندوس الحيات والأفاعي وكل قوات العدو].

إن رعية المسيح هي واحدة، يهود وأمم، يقول القديس كيرلس الإسكندري: [والآن نعود إلى يعقوب الذي أبعد الحجر وسقى غنم راحيل، واعتبر راحيل جديرة بأن يحبها. إذ يقول: «وأحب يعقوب راحيل» (تك ١٨:٢٩)، وقد قبله لابان وأتى به إلى بيته، وقال له: «إنما أنت عظمي ولحمي» (تك ١٤:٢٩). وهكذا رحّب لابان بابن اخته وقبله بمحبة وجعله ضمن أهل بيته. اسم راحيل يعني «رعية الله Θεοῦ Πρόβατον» ويمكن للمرء أن يعتبرها رمزاً لكنيسة الأمم. إذ أنها رعية المسيح، هذا الخروف الذي دخل ضمن الرعية القديمة واستقبله في حظيرة المخلص. لذلك قال: "ولي خراف أُخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراع واحد" (يو ١٠:١٦).

التلاميذ العظماء كانوا يرعون كنيسة المسيح، أي الخراف العقلية المنضمة إليها، وحسناً صاروا عاشقين لها وقدموها كعروس إلى الله، عذراء عفيفة طاهرة

"لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك بل تكون مقدسة وبلا عيب" (أف ٥:٢٧)].

هكذا يُعَدُ احتضان لابان ليعقوب واعترافه بأنه عظمه ولحمه -بحسب القديس كيرلس- إشارة واضحة لوحدة الشعبين الروحية بواسطة الإيمان.

يعود القديس كيرلس إلى معاني الأسماء ويعتبر لئية التي تعني "التي تتعب وتتجدد" بأنها تشير إلى اليهود الذين تعبوا تحت نير العبودية لكن (لئية) تجددت وأتت مرةً ثانيةً إلى التقوى لأبيها وتغيَّرت من العبادة الوثنية إلى معرفة الإله الحقيقي. يقول القديس كيرلس: [هكذا، خدمة يعقوب لم تكن بدون تعب، بل هي صورةٌ ومثالٌ لإسرائيل الذي لن يتحرر بدون مشقة، وسوف يصير شعباً لله بعبادة الناموس. وعندما اكتملت سبع سنوات للكبيرة، أخذ راحيل إلى بيته، أي الأسمى التي كان قد اشتهاها منذ البداية. لأن كنيسة الأمم هي "رعية الله"، وهذا هو تفسير اسم "راحيل" -كما قلت من قبل- التي دُعيت في الترتيب الثاني بعد الأولى. وكون أن المسيح تعب لأجلها، فهذا ما يرمز إليه تعب يعقوب سبع سنين من أجل راحيل. لأنه علينا أن ننظر للابن ليس فقط على أنه إله بطبيعته -لا يتعب- بل على أنه الابن المتأنس، لأنه تألم أولاً عندما حَكَمَ عليه بيلاطس، جرَّاء دسائس الفريسيين ووشايات الرؤساء، وبُصق على وجهه ولُطم وضُرب على ظهره، كما تألم من شتائم الجنود، وفي النهاية مات على الصليب].

لقد رأى أيضًا أولاد يعقوب من منظور روحي على أساس أن راحيل تشبه كنيسة الأمم ولئية الكبيرة تشبه مجمع اليهود، يقول القديس كيرلس: [يوجد سِرٌّ ما في الجاريتين علينا أن نراه. لأن ابني بلهة: دان ونفتالي نُسبا إلى راحيل، بينما ابني زُلفة: جاد وأشير نُسبا إلى ليئة. وأعتقد أنه قد يتشكك أحد، كيف أن

أبناء العبدة (بلهة) تُنسب إلى راحيل، بالرغم من أنهما يمثلان نموذج للكنيسة التي من الأمم. ماذا سنقول عن هذا الأمر؟ إن الآباء القديسين الذين كانوا منذ البداية حُسبوا من ضمن أولاد أورشليم العبدة، لكن بطريقة ما هم أولاد الكنيسة التي هي من الأمم. إذ أنهم آمنوا إيماناً مشتركاً مع تلك الكنيسة قائلين إنه سوف يظهر ويلمع سر المسيح، وأعلنوا هذا بطرق كثيرة، وفعلوا هذا الأمر بطرق منظورة. أما الذين أتوا بعد ذلك زمنياً (أي اليهود) فقد وُلدوا أيضاً في العبودية ولم يقبلوا المسيح مانح الحرية. وكون أن الأولين (الذين كانوا قبل الناموس) كانوا أفضل من أولئك الذين جاءوا بعدهم زمنياً، فمن السهل أن نعرفه حيث إن الله يقول بفم أشعياء: «كيف صارت القرية الأمينة زانية. ملآنة حقاً كان العدل يبيت فيها. وأما الآن فالقاتلون» (أش ١:٢١)].

يرى القديس كيرلس المسيح كقاضي عادل أيضًا عن طريق تفسير الأسماء، إذ يقول: [هل أدركت إذن، أنه يقول كيف أن أورشليم، أي صهيون التي كانت مكاناً مملوءً بالقضاء المستقيم ومسكن الأبرار، قد صارت في الأزمنة المتتالية ممتلئة من القاتلين. يمكن للمرء أن يرى –وبوضوحٍ تام– من الأسماء أن ابني بلهة يمكنهما أن يكونا ضمن أبناء الكنيسة، بينما ابني زلفة هما عدوان لهما، لأن دان يعني «القضاء باستقامة κρίσις" بينما نفتالي يعني "المتسع πλατνσμός". وكون أن المسيح يقضي للمسكونة بالعدل ويدين الشيطان لأنه أضلنا وأبعدنا عن الموضع الذي كُنا فيه، وكون أن المسيح يخلصنا من الضيقة العظيمة جداً، ويجعل قلوبنا متسعة بحيث لا يأتي شيء رهيب مرة أخرى، فهذا ما كرز به المرنم الطوباوي قائلاً نيابة عن هؤلاء الذين آمنوا بالمسيح وتقدسوا بالروح: "في طريق وصاياك أجري لأنك تُرحب قلبي" (مز ١١٩:٣٢)].

ثم يستمر القديس كيرلس، قائلاً: [ويبرهن داود الطوباوي أيضاً على أن المسيح صار قاضياً عادلاً، إذ يخاطب المسيح بلسان أولئك الذين ظُلموا قائلاً: ‘‘استيقظ وانتبه إلى حكمي يا إلهي وسيدي إلى دعواي’’ (مز ٣٥:٢٣). وهذا ما قاله المسيح نفسه: ‘‘الآن دينونة هذا العالم. الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع’’ (يو ١٢: ٣١ - ٣٢)].

يؤكد القديس كيرلس في نهاية المقالة الرابعة على حقيقة القطيع الآتي من الأمم مستشهدًا بأشعياء (٦٢:١٠): ‘‘اُعْبُرُوا، اعْبُرُوا بِالأَبْوَابِ، هَيِّئُوا طَرِيقَ الشَّعْبِ. أَعِدُّوا، أَعِدُّوا السَّبِيلَ، نَقُّوهُ مِنَ الْحِجَارَةِ، ارْفَعُوا الرَّايَةَ لِلشَّعْبِ’’، إذ يقول: [هكذا ولدت ليئة الابنين اللذين نجحا بأجرٍ ووعودٍ وبركات من قِبل الله، بينما راحيل وهى آخذة اللُفاح ولدت يوسف. لأنها مثل الكنيسة قَبلت سر المسيح بواسطة الرسل، كأنها أخت لمجمع اليهود. لقد صارت أُمَّ الشعب الذي نمى نمواً مستمراً وصار جمعاً لا يُحصى (لأن اسم يوسف يعني يزيد من الله). فالكنيسة التي هي من الأمم زيدت على جمع المجمع الذي هو من إسرائيل. لذلك قال المسيح ‘‘لي خراف أُخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراعٍ واحد’’ (يو ١٠: ١٦)].

المقالة الخامسة

يتحدث القديس كيرلس في هذه المقالة عن جمال سر المسيح عن طريق نصيب يعقوب من الغنم: كل شاة رقطاء وبلقاء وكل شاة سوداء بين الخرفان وبلقاء ورقطاء بين المعزي. يقول القديس كيرلس من خلال التفسير الروحي للحدث: [حسناً، بالرغم من أن الله الكلمة –في القديم– قاد العالم بوداعة كما

يليق بالله، الله الكلمة الذي «كل شيء به كان» (يو ١ :٣) ترك خاصته «تسلك كلٍ في طريقه» (انظر زك٣:٧) كما هو مكتوب، لكن عندما ولدت الكنيسة الشعب الجديد المتزايد، أي أولئك الذين بإيمانهم به نالوا بالفعل الولادة الروحية، طلب من العالم -كأجرة- الاعتناء بهؤلاء الذين هم متأهبون للإيمان به، والذين مثالٌ لهم هو كل شاة رقطاء (أبيض واسود) وبلقاء (الرمادي) من الخراف والماعز. ماذا يعني هذا؟ بحسب الرعاة الذين يُطعمون قطعان الغنم والماعز، فإن ذات اللون الواحد هي الأفضل، بينما المخططة وذات البُقع تُحسب في المستوى الثاني ولا تُعتبر مساوية للأخرى، لأن صوفهم ليس له لون واحد، بل ألوان متنوعة ومختلطة.

إذن، المسيح يقبل من العالم -كأجرة له- ليس المعتبرين أنهم مُهمين والذين هم من النخبة الممتازة في العالم، بل بالحري الذين يبدو أنهم في مستوى أدنى وليست لهم قيمة في نظر هذا العالم. ويؤكد كلامي هذا بولس العظيم خينما كتب لأولئك الذين آمنوا: «فانظروا دعوتكم أيها الاخوة أن ليس كثيرون حكماء حسب الجسد ليس كثيرون أقوياء ليس كثيرون شرفاء. بل اختار الله جُهال العالم ليخزي الحكماء « (١ كو ١: ٢٦ - ٢٧)].

كذلك يطرح القديس كيرلس تفسير آخر الأقوال الخاصة بنصيب يعقوب من القطعان، قائلاً: [فهذا يعني روحياً أن المؤمنين بالمسيح لهم سلوكيات متنوعة في الأعمال والأقوال. فالرمادي والأسود يُعتبران رمزاً وظلاً لسر المسيح، الذي يبدو أنه غامض وغير ظاهر لكثيرين. لأنه قال: «جعل الظلمة ستراً حول مظلته» (مز ١١:١٨) أي عبَّر عن صعوبة فهم التعاليم الخاصة بالله بالمظلة والتي دعاها ظُلمة «ضباب المياه وظلام الغمام» (مز ١١:١٨). وأيضاً تقول حكمة ابن سيراخ:

«الذي يصرف نفسه إلى التأمل في شريعة العلي ... يدخل في تشعبات الأمثال ... يبحث عن خفايا الأقوال السائرة وينصرف إلى ألغاز الأمثال» (حكمة سيراخ ٣٩:١ - ٣).

هكذا اللون الرمادي يشير إلى عمق وغموض التعاليم عن المسيح، بينما اللون الأبيض اللامع والشفاف يُمثل لمعان وشفافية الأعمال التي حسب الإيمان. لذلك أعلن ربُّ الكلِّ نقاوة الإيمان بالمسيح قائلاً بفم النبي «تعلّموا فعل الخير اطلبوا الحق انصفوا المظلوم اقضوا لليتيم حاموا عن الأرملة. هلم نتحاجج يقول الرب. إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج. إن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف» (أش ١: ١٧ - ١٨).

إذن، الذين في المرتبة الثانية في هذا العالم هم مختارون، ولهم المكانة الأولى بالقرب من مخلّص الجميع. وبينما ينظر إليهم الآخرون ويضعونهم بين الأدنياء، إلّا أنهم يتفوقون في المجد، ويكونون متميزين بألوانهم العقلية المتنوعة بعمق معرفتهم عن الله، ومتفردون جداً في البهاء والتقوى].

وبحسب القديس كيرلس، كما خطط يعقوب على العُصى بقعًا بيضاء نازعًا قشرها لكي تتوحم الحيوانات وتَلِد صغارًا ذات ألوان ناصعة، [بالمثل، نزع المسيح ظلال الناموس وبُرقع الكتب النبوية، مقدماً هكذا الأقوال التي تحوي كل هذه الأمور ناصعةً ومرئية. لقد قدَّم نشيداً روحياً ساحراً، وأقنع الإرادة بأن تقبله وتحبل وتلد فضائل متنوعة متدربة بطريقتين: بالعمل والقول. لذلك عبّر الأنبياء العظام عن هؤلاء الذين تبرّروا بالإيمان، صارخين بقوة قائلين: «شددوا الركب المرتعشة ثبتوها. قولوا لخائفي القلوب تشددوا لا تخافوا. هوذا إلهكم. الانتقام يأتي. جزاء الله. هو يأتي ويخلصكم» (أش ٣:٣٥)].

أيضًا يفسر روحيًا القديس كيرلس رجوع يعقوب ومعه زوجتيه وأولاده ونصيبه من الغنم، قائلاً: [فمثلما رحل يعقوب وقام لابان بإدانته هو وأولاده وتكلموا عليه بكلام سيء، هكذا عندما شرع المسيح في الرحيل مع عروسه. أي الكنيسة (الممثلة في التلاميذ) قال -بطريقة روحية- لخاصته: «قوموا ننطلق من ههنا» (يو ١٤: ٣١). لكن الرحيل لم يكن بطريقة مادية محسوسة، ولا هم انتقلوا من مكان إلى مكان بطريقة جسدية (لأنه من غير اللائق أن نعتقد أو نقول مثل هذا القول)، لكن تحقيق هذا الأمر (أي الرحيل عن العالم) بألا ننشغل بأمور هذا العالم، بل ننشغل بعمل كل ما يسر الله. لذا قال بولس الطوباوي «لأن ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا نطلب العتيدة» (عب ١٣:١٤)، وأيضاً قديس آخر قال: «أطلب إليكم كغرباء ونزلاء أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية التي تحارب النفس» (١ بط ٢:١١). يجب علينا أن نسلك كأننا موجودون في السماء بالرغم من أننا نحيا على الأرض (انظر في ٣:٢٠)، ونحرص على أن نحيا بعد الآن لا بطريقة جسدية، بل بالحري بطريقة روحية كما يليق بالقديسين].

ويستمر القديس كيرلس في تفسير كل الأحداث التي حدثت أثناء رجوعه ومواجهته للابان روحيًا حيث راحيل هي الكنيسة التي حرَّمت الأصنام، والمثياق الذي تم بين يعقوب ولابان حيث الحجر الذي أقامه يعقوب وأوقفه عمودًا يشير إلى المسيح والأحجار الأخرى التي تجمعت تشير إلى الرسل القديسين الذين تبرروا بالإيمان وتقدسوا بالروح واشتركوا في عهد السلام بالمسيح ويؤكد القديس كيرلس على أن نقتدي بيعقوب الرجل العظيم، ويلخص القديس كيرلس تفسيره الروحي لقصة يعقوب، قائلاً: [لكني أذكركم بأننا قلنا إن يعقوب يشير إلى شخص المسيح، وأيضاً يشير أحياناً إلى أولئك الذين يتبررون بالإيمان، بينما عيسو يشير إلى شعب

الختان والناموس، حيث إن الرب إله الكل قال لرفقة وهي ما زالت تعاني آلام الولادة: «في بطنك أمتان. ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعب. وكبير يُستعبد لصغير» (تك ٢٥: ٢٣)، الأمر الذي يتحقق في المسيح؛ لأنه بينما كان بنو إسرائيل الأولون زمنياً ولأجل هذا السبب دُعُوا أبكاراً، إلّا أنهم صاروا بعد أولئك الذين آمنوا بالمسيح، هؤلاء الذين ورثوا أيضاً مجد البِكر، بسبب وجود المسيح البِكر بينهم، وبالرغم من أنه هو الوحيد الجنس، إلّا أنهم صاروا متمثلين به نائلين الولادة الثانية من جهة عدم الموت والقداسة بواسطة الروح القدس].

كذلك يفسر القديس كيرلس -روحيًا- صراع يعقوب مع الله حتى الفجر ويبرز إعتراف إسرائيل بعمانوئيل، قائلاً: [عندما صارع يعقوب وهُزِم وأُصيب في الظلمة بانخلاع حُق فخذه، أمسَكَ مُصارعه في الحال مستعطفاً إياه أن يباركه حين بدأ طلوع الفجر، ونال حقًا البركة وسُمِّي بإسرائيل.

عصيان إسرائيل وعدم إيمانه بسبب جهله، ووجوده في الظلمة، أي ظلمة الجهل. هذا العصيان قد تبدَّل بفعل عمانوئيل. إذ أن إسرائيل كان عديم الإحساس و لم يعترف بعمانوئيل إلّا بعدما أشرق على عقله بالنور الإلهي. وباركه المسيح، لكن ليس كل إسرائيل، بل جزء منه، أقصد أولئك الذين آمنوا، لأنه كما هو مكتوب: «أيضاً قد حصلت بقية حسب اختيار النعمة» (رو ١١:٥)، وآمن عددٌ ليس بقليل من اليهود (انظر أع ١٧:١٢). والتلاميذ العظماء -بل الجميع- كانوا مثل يعقوب لديهم ناموس بلا فاعلية، وقد اجتازوا وابتعدوا بسرعة ورحلوا ودخلوا في صراع مع الله (لأنهم بالنسبة للناموس كانوا بلا لوم)، لكن بعد ذلك صاروا مثل إسرائيل لديهم عقل يعاين الله. إذ أنهم عرفوا المسيح:

مَنْ هو؟ ومن أين وُلِد وصار مثلنا؟، وما هي طريقة تدبيره بالجسد؟ هذا ما أقصده حين أقول قبلوا في عقلهم نور المعاينة الإلهية الحقيقية].

أيضًا يفسر القديس كيرلس حدث اغتصاب دينا بنت يعقوب في شكيم تفسراً روحيًا قائلاً: [هٰذا الموقف يذكّرنا بأن المخلص نفسه أنبأ بطرس الذي أخرج سيفه من غمده، وقال له: «لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» (مت ٢٦:٥٢). لا ينبغي أن نتسلح بسيوف ضد الأعداء، نحن الذين اخترنا أن نجاهد من أجل إيماننا بالله، بل على النقيض ينبغي علينا أن نتحمل الآلام للدرجة التي فيها إذا أراد البعض أن يطردنا، فإننا نباركهم عندما يسيئون إلينا، عندما نتألم لا نجازي الشر بالشر، بل نُسلم أنفسنا لذاك الذي يحكم بالعدل. أيضاً نحترس من هؤلاء الذين لهم إيمان آخر، لأنه عندما خرجت دينا من المسكن الأبوي، ابتعدت ووُجدت هناك عند بيت شكيم. لكن ما كان لها أن تُهان لو بقيت في بيت أبيها وعاشت داخل خيمة القديسين].

المقالة السادسة

يتحدث القديس كيرلس في هذه المقالة عن يوسف إبن يعقوب. إن قناعة القديس كيرلس بأن الله يعلن ذاته من خلال الأحداث التاريخية نتحقق منها من قوله الواضح في بداية هذه المقالة، إذ يقول: [فإن الله يستعمل صوراً كثيرة جداً لكي يساعدنا على إدراك الحق، ويعضِّد إيماننا به بهذه الصورة، بطريقة نافعة، وذلك بواسطة الأحداث التي تحدث خلال الزمن، ويقدمها لنا كأنها أيقونات بهية لنعرفه بواسطتها].

يشرح القديس كيرلس كيف كان ليوسف مكانة عظيمة عند أبيه يعقوب، فيقول:[لقد أظهر الله منذ البداية أن الشاب سوف يصير ممجداً ومشهوراً مع مرور الزمن، وسيكون من العظماء ويُكلّل بأمجاد كبيرة. فهذا الذي حدث من جهة القميص الملون كان يمكن أن يكون تشجيعاً من الأب لكي يدفعه إلى محبة الفضيلة. وهذا مثلما يحدث مع المصارعين، فالذين يدربوهم يدهنون أجسادهم ويمسحوها بالزيت لكي يحثّوهم على الشجاعة والجرأة، ويقنعوهم بهذا الأمر الذي يتطلب صبراً كثيراً، ويحدثوهم منذ البداية عن المكافآت العظيمة التي يحصل عليها المنتصرون، بالإضافة إلى هُتاف المشاهدين وثنائهم وتصفيقهم. هكذا إله الكل، فعندما يرى نفساً تتميز بعقل حكيم وجريء وبراعة في تتميم كل الأمور الصالحة، فإنه يدعوها للسلوك في كل ما هو حسن، إذ يُظهِر لها مسبقاً الامتيازات التي ستحصل عليها، ويحثها في داخلها لكي تتأهب لتعيش حياة الفضيلة].

كما فسر القديس كيرلس الحُلم الذي حلمه يوسف بشأن حزمته التي سجدت لها حِزم إخواته، قائلاً: [الحزمة نقبلها على أنها علامة للوقت. وكون أن حزمة قامت وانتصبت، فهذا يشير إلى المجد الظاهر. وكون أنه سيأتي الوقت الذي فيه يصير يوسف ممجداً، وأن أخوته سوف يسجدون ويخضعون له، تُظهِره حزمته التي قامت وانتصبت وسُجِد لها. لكن أحلام يوسف لم تقف عن هذا الحد، إذ سرد أيضاً لأبيه الطوباوي وأخوته، أنه رأى حلماً آخر. لأنه يقول: «إني قد حَلُمت حُلماً أيضاً وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي. وقصَّه على أبيه وعلى إخوته. فانتهره أبوه وقال له ما هذا الحُلمُ الذي حلمت. هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض. فحسده أخوته. وأما أبوه

فحفظ الأمر» (تك ٣٧:٩ - ١١). يا لحكمة الشيخ وبراعته أمام دلالات الأحلام، لقد أدرك بالطبع أهمية هذه الرؤى، لكنه وبَّخ ولده، قائلاً: «هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض». طريقة توبيخه كانت حكيمة وضرورية. لأنه من جهةٍ، قطع بذكاء، حسد أولئك الذين يسمعونه، ويضبط الفتى الذي استولت عليه جُرأة زائدة، ودعاه أن يلزم الهدوء، ومن جهة أخرى، لم يترك الفتى المراهق أن يطلق العنان لافتخاره أمام إخوته مستنداً على رجاء الأحلام، ولا أيضاً أن لا يبالي لأجل خاطر كرامة أبيه، بل أن يقتنص لذاته المجد الفائق قبل أوان حدوثه].

كما يستخدم القديس كيرلس دلالات الأرقام ليشرح لنا سر تدبير التجسد من خلال عمر يوسف، إذ يقول: [إن الأعداد التي تمثل وحدة واحدة، ترمز عادةً في الكتاب المقدس إلى الكمال. على سبيل المثال وِحدة العشرة، يستطيع المرء أن يبدأ العَدَّ من رقم عشرة بطريقة تنازلية ليصل إلى رقم واحد، ثم يبدأ من واحد ليصل إلى رقم عشرة، أي النهاية. نفس الأمر بالنسبة لوحدة الأسبوع، يبدأ المرء من اليوم الأول حتى يصل إلى السابع، وبعد ذلك يكون قد أكمل عدد الأيام حتى النهاية، ليبدأ مرةً أخرى من بداية الأسبوع. حسناً، بهذه الطريقة يعتبر الكتاب مثل هذه الأرقام رمزاً للكمال.

من ناحيةٍ أخرى، في مثل الوزنات (انظر مت ٢٥:١٤ - ٢٦)، فإن الذي استثمر وزناته وصل إلى كمال العمل بحسب الله باقتنائه عشر وزنات، وقد كافأ المسيح أيضاً الذي ربح عشرة أَمنَاءَ بإعطائه سلطاناً على عشر مُدنٍ (انظر لو١٩:٢٧)، مُظهِراً بهذا أن المكافآت تشير إلى كمال العطايا. كما استخدم أحد القديسين رقم سبعة ليرمز إلى الكثرة، إذ قال إن عاقراً قد ولدت سبعة. هكذا

أيضاً، فأن هذه الأرقام تُستخدم للتعبير عن الكمال. إذن، فعندما قيل عن يوسف إنه كان ابن سبعة عشر عاماً، فهذا يشير إلى عمانوئيل الذي هو مسيحٌ واحدٌ، وابنٌ واحدٌ من طبيعتين، لاهوت كامل وناسوت كامل εἰς ἕνα Χριστὸν καὶ Υἱὸν ἐκ δυοῖν τελείον, Θεότητός τε καὶ ἀνθρωπότητος· إننا لا نقبل بالطبع ما يظنه البعض ويؤمنون به، بأن ذاك الهيكل الإلهي الذي لبسه الله الكلمة من العذراء القديسة كان بدون نفس عاقلة. وأيضاً مثلما كان إلهاً كاملاً، فقد كان أيضاً إنساناً كاملاً في اتحادٍ سريٍّ يفوق العقل]. ويلخص هذه الحقيقة، قائلاً: [بالتالي، فإن رقم عشرة يشير إلى كمال اللاهوت بينما رقم سبعة يشير هنا إلى كمال الناسوت. والفرق بين عشرة وسبعة هو رقم ثلاثة الذي يشير إلى الثالوث. إذن الله الكلمة واحد من ثالوث قدوس يفوق بلاهوته العنصر الإنساني الذي هو أدنى من رقم عشرة، أي أن العنصر الإنساني هو أدنى من مجد الله. ويُدرَك الله الكلمة على أنه كائن أزلي، بينما العنصر الإنساني قد أُضيف إليه (بالتجسد). بالتالي حتماً، فإن رقم عشرة هو الأول والسابق، ثم أضيف إليه رقم سبعة؛ ليصبح في النهاية سبعة عشر، وهي سنيين عمر يوسف. لأنه يقول: "كان يوسف ابن سبعة عشر عاماً" (تك ٣٧:٢)].

لقد رأى أيضًا القديس كيرلس في يوسف، المسيح الراعي والطريق حيث يقول: [إن يوسف العظيم كان ابن سبعة عشر عاماً، ورعى قطعان أبيه مع إخوته الذين كانوا أبناء زِلفة وبلهة، أي أبناء الخادمتين. هكذا كلمة الله عندما صار إنساناً جال كل بلاد اليهودية طولاً وعرضاً ليرقى بخِراف إسرائيل الضالة إلى محبةٍ لله، لأنه كما كتب بولس الطوباوي: "أي أن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه" (٢ كو ٥:١٩). إذن، فعمانوئيل رعى أولئك الذين كانوا

عبيداً بالولادة، أبناء الخادمتين، غير الأحرار. لأنهم بعد مملكة يربعام، رحلت عشرة أسباط من أورشليم، وسكنت السامرة، وكان يربعام الملك هو الذي قاد الأسباط في ذلك. إلَّا أن يهود هذه الأسباط قد خُدِعوا وعبدوا الأبقار الذهبية].

ويستمر القديس كيرلس قائلاً: [حسناً، لقد رعى ابن الله، عندما صار إنساناً مثلنا، أولئك الذين كانوا أبناء العبيد والزواني. لقد كانوا زعماء إسرائيل ومدبروه وفق الناموس، بيد أن المسيح كان يعلّم هؤلاء الذين يقتربون منه وينقلهم إلى طريق الحق، فهو نفسه كان الطريق، لذا قال: "أنا هو الطريق" (يو ١٤: ٦). والكتبة والفريسيون الذين كانوا يؤمنون بالشرائع رعوا الشعب في مراعٍ مملوءةً شوكاً وزواناً وضلالاً. وكانت تعاليمهم هي وصايا الناس، بينما المسيح كان يرعى في مراعٍ حسنةٍ خضراء مملوءةٍ بالورود الجميلة، بمعرفة التعاليم الإنجيلية الرائعة والمحبوبة].

كذلك أيضًا في تصرف إخوة يوسف تجاه يوسف وإلقاءه في البئر وبيعه إلى الإسماعيليين يرى القديس كيرلس قصة تدبير الخلاص، إذ يقول: [وهذا يشير إلى ربنا يسوع المسيح الذي أُرسِلَ مِن الله أبيه لكي يفتقد أبناء إسرائيل، ولكي يطمئن عليهم هل هم بخير، وهل الخِراف التي يرعونها تفتقر إلى العناية، لكنه لم يجدهم في شكيم بل في دوثان. وشكيم تعني "كتف ὤμος"، وهذا الجزء في جسم الإنسان يشير إلى حب العمل. لأن الكتاب الموحى به من الله يستخدم كلمة "كتف" بمعنى القوة، وأحياناً أخرى بمعنى العمل. مثلما نقول: "أعط قلبك لأكتافك"، أي أعطِ قلبك لمحبة العمل. بينما "دوثان" تعني "نقصٌ كبير ἔκλειψις ἱκανή".

حسناً، لقد وُجِدَ بنو إسرائيل غير محبين لأعمال الفضيلة ولا يتقدمون في وصايا الناموس، بل لديهم نقصٌ كبير في البر والوداعة. لأنه يقول: "ليس من يعمل صلاحاً. ليس ولا واحد" (مز ١٤:١، ٥٣:٤)، وأيضاً مثلما قال الله بصوت النبي إنهم يكرمونه فقط بالشفاه، وأبعدوا قلبهم بعيداً، وبدلاً من أن يطبقون الوصايا التي شرَّعها موسى حادوا بقلوبهم بعيداً عنها (انظر أش ١٣:٢٩). إذن، لقد أعطوا فقط انتباههم لتعاليم الناس ووصاياهم.

لقد عرفوا أن الابن المحبوب مِن أبيه حاضرٌ، أي يوسف الروحي، كما قال يوحنا الإنجيلي: "آمن به كثيرون من الرؤساء أيضاً غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به" (يو ١٢: ٤٢). إذن، بالرغم من أنهم قد عرفوه جيداً، إلَّا أنهم احتقروه. لقد قتله التعساء وأنزلوه -كما في بئرٍ- إلى هوة الموت العميقة والمظلمة، أقصد الجحيم. لأنه هكذا وصف لنا هذا الأمر داود العظيم، متوجهاً إلى الله الآب السماوي، كممثلٍ للمسيح: "يا رب أصعدت مِن الهاوية نفسي أحببتني من بين الهابطين في الجُب" (مز ٣٠:٣). أرجو من فضلك أن تلاحظ عمق الكتب المقدسة وإصرارها الكبير على الدقة.

لأن الكتاب يقول: "وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء" (تك ٣٧:٣٤)، أي أن الهاوية هي مسكن وإقامة لأولئك الذين ليس لهم حياة. هكذا خرج يوسف من البئر. وهكذا المسيح أيضاً، فقد قام من الأموات. أي لم يُمسَكْ من الموت، لم يبقَ المسيح في الهاوية، بل بالحري أفرغها "قائلاً للأسرى أخرجوا" (أش ٤٩:٩). ويوسف العظيم أيضاً خرج سريعاً من البئر وانتقل إلى مصر، لأن الإسماعيليين اشتروه، هؤلاء الإسماعيليون كانوا تُجار عطور. حسناً، قام المسيح

أيضاً وخرج من البئر تاركاً اليهودية وانتقل إلى بلاد الأمم حيث حمله الإسرائيليون الروحيون، أي أولئك الذين أطاعوا الله، لأن هذا هو معنى اسمهم.

ومَنْ هم هؤلاء؟ هم التلاميذ الطوباويون الذين أصغوا لتعاليم المسيح، والذين صاروا بداية لأولئك الذين انتظروا -وهم في طاعةٍ وإيمان- أموراً فائقة على الناموس. لأن هؤلاء التلاميذ هم مِثل تجار العطور، إذ أنهم نشروا عِطر سر المسيح، وطبعوا في نفوسهم كل فضيلة. هؤلاء اشتروا يسوع تاركين أمجاد الناموس، إذ اقتنوا "اللؤلؤة كثيرة الثمن" (مت ١٣: ٤٦)، حسب المثل الذي رواه المخلّص].

لقد صوَّر الكتاب لنا -بحسب القديس كيرلس- سر تدبير المخلص من خلال يهوذا وثامار (أنظر تك ٣٨)، وأنه حين يذكر الكتاب شيئاً سيئاً، فإنه لا يُعطي أهمية لهذا الشيء السيىء بل يكفيه عرض جوهر الموضوع الذي يخدم الهدف بطريقة حسنة. والهدف من ذِكر الوقائع بحسب القديس كيرلس: [ليس هو تسجيل تاريخ حياة القديسين، بل هو يبتعد كثيراً عن هذا الأمر، بل هو يعطينا معرفة السر من خلال تسجيل موضوع الحديث لكي يصير واضحاً وحقيقياً. لذا لا يجب أن يُدين أيُّ أحدٍ الكتاب من أجل شيءٍ سيىءٍ ذُكِرَ فيه، متهماً إياه بأن ذِكر الشيء السيىء هو خطأ تجاه الحق]. **أما بخصوص يهوذا وثامار يقول القديس كيرلس:** [إذن، ونحن نتأمل طرق التدبير هذه، سوف ننال منفعةً مما حدث بين ثامار ويهوذا، لأن ثامار رغبت في أن يكون لديها ابنٌ حُرٌّ، بينما هي لم تكن تعاشر زوجاً شرعياً، ويهوذا أيضاً كان بلا امرأة لأن امرأته الأولى قد ماتت. إذن، علينا أن ننظر للعلاقة الجسدية والولادة الجسدية على أنها أمثلة للعلاقة الروحية والولادة الذهنية. وبهذه الطريقة سوف ينقاد الذهن البشري

إلى الحق، وليس بأي طريقة أخرى]. ويستمر القديس كيرلس في حديثه، قائلاً: [إذن، لقد نزل يهوذا ورحل إلى شخص يُدعى حِيرة، كان راعياً للماعز ومتخصصاً في الأعمال الرعائية. وحين رأى يهوذا سافا هناك اتخذها امرأته وأنجب منها ثلاثة أولاد: عِيرا وأونان وشيلة. "عيرا" يعني "جلدي δερμάτινος"، أي "جسدي σάρκινος"، و "أونان" يعني "مجروحٌ في القلب πεπληγώς δέ καρδίνος" والثالث يعني "الراحة والهدوء ἐκσπασμός". وهذا كله يشير إلى كلمة الله وحيد الجنس الذي نزل من السماء كما مِن أرضٍ مقدسةٍ، هذا الذي يُقدَّم له التسبيح ومنه يشع مجد المملكة. وهذا يعني اسم يهوذا حيث أنه يعني "الممدوح" وسبطه وُضِع في المكانة الملوكية وتفوَّق على غيره من الأسباط. لأجل هذا أيضاً باركه يعقوب العظيم، قائلاً: "يهوذا إياك يحمدُ إخوتك" (تك ٤٩:٨). وقد شهد أيضاً بولس الحكيم بأن مِن سبط يهوذا أتى المسيح، هذا الذي تقدَّم له كل الخليقة المدح والتمجيد والتسبيح.

لقد نزل كلمة (الله) وحيد الجنس وانتقل إلى صحراء مديان حيث رعي موسى الغنم وظهر له في شكل نار في العليقة (انظر خر ٣:٢ – ٤)، واتحد بواسطتها –كما بامرأةٍ من كنعان– بجميع بني إسرائيل في مصر، بالضبط مثل يهوذا حين اتحد بواسطة راعي غنم بسافا ابنة رجل كنعاني اسمه شوع، واسمها يعني "المرتفعة والمتكبرة ὕψωσίς τε καὶ ἔπαρσις" (راجع تك ٣٨:١ – ٢س)، لأن مجمع اليهود المدعو للسكنى مع الله لم يظل وضيعاً ومتذللاً بحقارة العبودية، بل صار مرتفعاً وعالياً وفخوراً. إذ أُفتدي كانتشال الحديد من الأتون، مِن العبودية كما هو مكتوب (انظر خر ١٣:٣)].

يستخدم القديس كيرلس معاني الأسماء لكي يوضح سر التدبير، إذ يقول:
[لأن ثامار تعني "خسوف وانتقال ἔκλειψις, ἠσαλευομένη". وحقاً قد انتقل مجمع اليهود. كيف حدث ذلك؟ لم تظل عبادة هذا المجمع غير متغيرة، بل انتقل وضعها إلى العبادة الروحية. هكذا جاءت العبادة التي بالمسيح مُبطلة العبادة الأولى، والتي لم تكن بلا لوم، وتزوَّج المسيح الكنيسة كما من عذراء طاهرة، تاركاً تلك القديمة والأولى. إذن، أُعتبر مجمعُ اليهود عن حقٍ منتقلاً ومتحولاً. أما كون أن ليس أحد يتبرر بالناموس، ولا يمكن التمتع برضا الله في مجمع اليهود؛ لأنه كما هو مكتوب: "الناموس ينشئ غضباً" (رو ٤: ١٥)، نجد كل هذا معلناً في قصة أولاد يهوذا الذين ارتبطوا بثامار. لأن البِكر، عِير يعني: "الجلدي" أي "الأرضي γήϊνος"، لكن بسبب أنه كان شريراً، فقد أماته الرب. والشعب الأول في الواقع كان شريراً، فقد تكلم ضد الله: "هل يقدر الله أن يُرتب مائدةً في البرية" (مز ٧٨: ١٩). بالرغم من أنه ضرب لهم الصخر وتدفقت المياه وفاضت الأودية، ولكنهم قالوا: "هل يقدر الله أن يُرتب مائدة في البرية" (مز ٧٨: ١٩). وأيضاً المرسلون الذين ذهبوا ليروا أرض الموعد، بكوا مثل الأطفال، كما لو أنهم سوف يموتون للتو سريعاً، وهم بعصيانهم أهانوا الله الذي يستطيع أن يفعل كل شيء. لأجل هذا أيضاً ماتوا ولم يدخل أحدٌ إلى أرض الموعد "فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر" (عدد ١٤: ٣٢).

إذن، البِكر عِير، أي الشرير والجسدي، مات أولاً، لأن ليس فيه أي ثمر للتقوى. والعصيان أيضاً يُعلَن لنا بمثال. لأن الأمور المحسوسة هي صُورٌ للأمور العقلية. ثم الثاني بعد ذاك، كأنه ابن الله الذي خلّصه وأخرجه من بيت العبودية، هذا الشعب، الذي عبر الأردن بقيادة يشوع وورث أرض الموعد، والذي دبر الله

أموره بواسطة القضاة، لكن هذا الشعب سقط بسبب أنه أغضب الله وتمرَّد عليه. لأن اسم أونان يعني «المجروح في قلبه». إذ أهم انجذبوا بجهلٍ تجاه تعدد الآلهة تاركين الإله الحقيقي الواحد بالطبيعة. لأجل هذا أيضاً هلك وأُستعبِد لأمم أخرى].

ويستمر القديس كيرلس في شرحه، قائلاً: [إذن، عندما مات الاثنان بصواب (لأن الأول كان شريراً، والآخر مجروحاً في القلب)، فإن الأب منع الثالث من عمل علاقة مع ثامار، لأنه خاف أن يموت هذا أيضاً كالاثنين الذين ماتا. لأن الشعب الثالث، الأعظم، الذي كان في الأزمنة الأخيرة للأنبياء القديسين (مع هؤلاء والتالي المباشر هو المعمدان العظيم، الذي أظهر أن المرسل من السماء هو حاضر، أقصد المسيح)، لم يتركه الله يسقط في أحضان مجمع اليهود، ولا أراد أن يكون له نسل من هؤلاء، خائفاً أن يهلك هو أيضاً. لأنه مكتوب «الناموس ينشئ غضباً» (رو ٤:١٥)، ولن يتبرر أحد بتاتاً بالناموس.

لكن، لاحظ كيف أن شيلة يُظهِر أنه مِثالٌ للشعب الأخير والمؤمن. لأن اسم «شيلة» يعني «الراحة والهدوء». إذن، جاء الغضب على نسل إسرائيل بسبب أعمالهم الشريرة ضد المسيح بتصرفاتهم المخمورة. لقد أفلت أولئك الذين آمنوا من فم الوحش ونجوا من القيود التي كبلتهم.

أقصد خَلُصت البقية بحسب الكتب (انظر قض ١٣:٥. أش ١٠:٢٢. رو ٩: ٢٧). قال الله بفم النبي: «كما ينزع الراعي من فم الأسد كراعين أو قطعة أُذن هكذا يُنتزع بنو إسرائيل» (عا ٣:١٢). إذن، لأجل هذا أيضاً سُمي شيلة «المرتاح والمنتزع ἐκσπασμός, ἢ ἀπόλυσις". بمعنى هذا الذي ارتاح من صُنع علاقة مع ثامار، أي من صُنع ثمار وفق الناموس، هؤلاء الذين آمنوا،

ومنتزَعين من وسط أولئك الذين هلكوا، يمكنك أن تعرف عنهم من بولس الطوباوي بسهولة، إذ يقول عن مفاخر الناموس: "ما كان لي ربحاً فهذا حسبته من أجل المسيح خسارة" (فيلبي ٣:٧). لأنه لم يرغب في الحصول على نفس البر، أي ذلك الذي بالناموس بل أراد التبرير بالإيمان بيسوع المسيح. بالتالي شيلة الأكثر حيوية وشباباً لم يرتبط بثامار. لأجل هذا ظلّت ثامار أرملةً، وعاشت في ترملها سنين عديدة. أي، لأن الله لم يُرد أن يُثمِر مجمع اليهود، صار كمثل أرملة بدون أولاد وبدون رجل، أي بدون عريس عقلي. لأنه قال (بالنبي): "لأنها ليست امرأتي وأنا لست رجلها" (هوشع ٢:٢).

حسناً، ألم يصر بعد هذا أيُّ حديثٍ عنها، ولم يهتم بها الله؟ أرجو أن لا تُفكر هكذا. لأنه، بالرغم من أنها أُدينت لأجل كل أعمالها الفاسقة والسيئة، إلَّا أن الله مِن صلاحه سوف يرحمها في الأيام الأخيرة، وسوف تُثمِر أيضاً صفات المسيح. أما بخصوص أنها ستكون في المرتبة الثانية بعد الأمم، فهذا سوف تعرفه مما هو مكتوب. لأن يهوذا ذهب لكي يجز غنمه وهو في طريقة وجد ثامار وعاشرها وأعطاها عصاه وخاتمه وعِصابته ووعدها بأن يرسل لها جدي معزى من الغنم. حسناً، وأيضاً المسيح، كراعٍ للخراف العقلية، اعتنى بالرعية قابلاً ثمارها، أي هؤلاء الذين قد آمنوا وتقدسوا بالروح، أما مجمع اليهود، فقد جعله -مؤقتاً- خارج عنايته الخاصة، وسوف يظهره ثانيةً قادراً أن يحمل ثمار حكمته. سيعطيه ذاته، مثلما أعطانا نحن، عصا القوة، وصورةً ومثالاً لله الآب (لأن الخاتم يرمز لهذا) وجمالاً أكثر مما لأبناء الناس (انظر مز ٤٥:٣). لأن هذا ما تشير إليه عِصابته (الزينة التي تُوضع على الرقبة). لأن كل شيء بمثابة زينة يمكن أن يُعتبر علامة للجمال. وأرسل لها أيضاً جدي معزى، أي سيعطيهم غفراناً لخطاياهم.

لأن جدي معزى، وفق الناموس، يُذبح لأجل الخطية ويرمز لغفران الخطايا. وخَلُصت ثامار، بالرغم من أنها أُدينت بالموت وتثقلت بأبشع الجزاءات. لقد أُدينت ثامار لأنها زنت. لكن خَلُصت لأنها قدَّمت العصا والخاتم والعِصابة، واعترفت بوضوح أنها حملت من يهوذا، ولديها ثمرة. والمسيح سوف يحرر مجمع اليهود نفسه الذي ينبغي عليه أن يُعاقَب لأنه حمل رموز الشركة معه τῆς πρὸς αὐτὸν κοινωνίας τὰ σύμβολα φέπουσαν، وأظهر بوضوح أنه حمل ما يخصه. هذه الأقوال قالها أيضاً هؤلاء الذين انتظروا، وكان لهم الرجاء بالإيمان بالمسيح: "كما أن الحُبلى التي تقارب الولادة تتلوى وتصرخ في مخاضها هكذا كنا قدامك يا رب. حبلنا تلوينا كأننا ولدنا ريحاً خلاصاً في الأرض و لم يسقط سكان المسكونة" (أش ٢٦:١٧ - ١٨س)].

أيضًا يفسر روحيًا القديس كيرلس حدث ولادة ثمار، إذ يقول: [وثامار التي حملت بجنينين وصلت إلى لحظة الولادة. وفي وقت ولادتها أخرج البكر يده، وردَّها ثانيةً بالرغم من أن يده رُبطت بالخيط القرمزي، وخرَّج الثاني أولاً، كمثل اقتحام شخصٍ لسدٍّ أو حاجزٍ، وبعد ذلك خرج الأول الذي صار الأخير. هذا الأمر بالنسبة لنا هو علامةٌ واضحة على أن الأمم تقدَّموا على بني إسرائيل، ونالوا مجد البكر، أولئك الذين كُرِّموا في أزمنة متتالية. لكن هذا الأخير سيتبعه، بدون شك، طالما أظهر ذبيحة المسيح، لأن الخيط القرمزي يُعتبر مثالاً للدم المقدس. إذن مَنْ هو هذا الذي أبطَل الحاجز المتوسط (انظر أفسس ٢:١٤)، وأحضر الثاني مكان الأول، ووضع الأول خلف ذاته؟ أليس من الواضح أنه هو المسيح الذي بواسطته، وله نعطي المجد لله الآب والروح القدس إلى أبد الآبدين. آمين].

يشرح لنا القديس كيرلس أيضًا بطريقة رمزية بركة يعقوب لإبنى يوسف اللذين كانا من أمٍّ تنتمي لجنس آخر، نقصد من أسنات بنت فوطي فارع الكاهن المصري (أنظر تك ٤١:٤٥) حيث يقول: [بنفس الطريقة، نحن الذين تبررنا بإيماننا، صِرنا بواسطة المسيح أبناء الله ورعيةً مع القديسين، بهذه الوساطة ومن خلال ذاته ربطنا بذاته وبالآب، وبمصاف القديسين، مثل يوسف، الموجود في المنتصف جعل أولاده افرايم ومنسى لأبيه، وتم تسجيلهما في قائمة رؤساء الآباء. لأنه يقول: "وَالآنَ ابْنَاكَ الْمَوْلُودَانِ لَكَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، قَبْلَمَا أَتَيْتُ إِلَيْكَ إِلَى مِصْرَ هُمَا لِي. أَفْرَايِمُ وَمَنَسَّى كَرَأُوبَيْنَ وَشِمْعُونَ يَكُونَانِ لِي" (تك ٤٨:٥)، أي سيكونان من بين الأبكار لأن ثمرة الطاعة أن كثيرين "أولون يكونون آخرين وآخرون أولين" (مت ١٩:٣٠). لأن رأوبين كان بكراً وشمعون أيضاً يعني الطاعة. أي بإيماننا صرنا نحن الأخيرون أولين، ومجد البكر كان من نصيب الشعب الآتي من الأمم، وقد كُرِّم هذا الشعب بسبب طاعته وخضوعه. لأن الرب ذاته أكد قائلاً: "شَعْبٌ لَمْ أَعْرِفْهُ يَتَعَبَّدُ لِي. مِنْ سَمَاعِ الأُذُنِ يَسْمَعُونَ لِي. بَنُو الْغُرَبَاءِ يَتَذَلَّلُونَ لِي" (مز ١٨:٤٣ – ٤٤). لأنه بالرغم من أننا وُلدنا من أمٍّ من جنسٍ آخر، فالكنيسة دُعيت من الأمم، لكن سُرِّ عمانوئيل أن يربطنا من خلال ذاته بالله الآب، ويسجِّلنا في مصاف القديسين، ويرفعنا إلى المجد اللائق بأولئك ويجعلنا جنساً مقدساً (انظر ١بط ٢:٩)].

المقالة السابعة

يتحدث القديس كيرلس في هذه المقالة عن بركة يعقوب لأبنائه الأثنا عشر ويشرحها بالتفسير الرمزي بكونه الأب المنتمي إلى مدرسة الإسكندرية التي تبنت التفسير الرمزي للكتاب المقدس.

عن رأوبين: «رَأُوبَيْنُ، أَنْتَ بِكْرِي، قُوَّتِي وَأَوَّلُ قُدْرَتِي، فَضْلُ الرِّفْعَةِ وَفَضْلُ الْعِزِّ. فَائِرًا كَالْمَاءِ لاَ تَتَفَضَّلُ، لأَنَّكَ صَعِدْتَ عَلَى مَضْجَعِ أَبِيكَ. حِينَئِذٍ دَنَّسْتَهُ. عَلَى فِرَاشِي صَعِدَ» (تك٤٩ :٣ – ٤).

لقد اعتبر القديس كيرلس بلهة خادمة يعقوب التي زنى معها رأوبين صورة لمجمع اليهود، أي الشعب البكر. ويستخدم معني الأسماء فيقول كلمة «بلهة» تعني «العتيقة»، و«رأوبين» معناه «إبن الدنس» ثم يقول: [وحقاً، شاخ مجمع اليهود وصار قديماً ومملوءاً بالغضن والتجاعيد، وحلّ الشعب الجديد المؤمن مكانه. ولأجل هذا ترنم داود بفرح: «وشعب سوف يُخلق يسبح الرب» (مز ١٠٢: ١٧). لأن كل ما للمسيح سيكون خليقةً جديدةً وفق الكتب المقدسة، بينما إسرائيل سيُعتبر دنساً ومملوءًا بالأرجاس؛ لأنه لم يقبل النقاوة التي من المسيح]. ويعلق القديس كيرلس على قول يعقوب: «رَأُوبَيْنُ، أَنْتَ بِكْرِي، قُوَّتِي وَأَوَّلُ قُدْرَتِي، فَضْلُ الرِّفْعَةِ وَفَضْلُ الْعِزِّ» (تك ٤٩ :٣)، قائلاً: [وحقاً حقق الله عجائب بقوة شديدة للشعب البكر القادم من مصر. لأن المصريين نالوا عقاباً بطرقٍ كثيرة، فتحول الماء إلى دم وامتلأ الجو بالبعوض والذباب وتغطت الأرض بالضفادع وسقط صقيعٌ على كل الأرض وذُبح الأبكار وعبر اليهود الأحرار البحر كأنه يابس (انظر تك ٨: ١٤). لأجل هذا دُعي رأوبين «قوة إسرائيل».

لكن كان رأوبين قاسياً في سلوكه ووقحاً وغير مؤمن وفظاً ومفترساً. لأن طباع اليهود كانت وحشية وسلوكهم غير منضبط. لأجل هذا استحقوا أن يسمعوا: «يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والآذان أنتم دائماً تقاومون الروح القدس. كما كان آباؤكم كذلك أنتم» (أع ٧:٥١)، والمسيح نفسه أيضاً يقول: «فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء. فاملأوا أنتم مكيال آباؤكم» (مت ٢٣:٣١ - ٣٢)]. لقد كان إسرائيل منتفخًا ويفور بطريقة مبالغ فيها مثل الماء: «فائرًا كالماء» (تك ٤٩:٤). ويلخص القديس كيرلس ما شرحه بخصوص بركة يعقوب لرأوبين: [لقد ارتكب بنو إسرائيل الزنى واستحقوا أن يصيروا أبناء جهنم، إذ صعدوا على سرير أبيهم محتقرين وصايا الناموس معتبرين إياها بلا فائدة، وأدخلوا تعاليمهم الخاصة واضعين بذور النجاسة داخل نفوس الذين يتعلمون].

عن شمعون ولاوي: « شِمْعُونُ وَلاَوِي أَخَوَانِ، آلاَتُ ظُلْمٍ سُيُوفُهُمَا. فِي مَجْلِسِهِمَا لاَ تَدْخُلُ نَفْسِي. بِمَجْمَعِهِمَا لاَ تَتَّحِدُ كَرَامَتِي. لأَنَّهُمَا فِي غَضَبِهِمَا قَتَلاَ إِنْسَانًا، وَفِي رِضَاهُمَا عَرْقَبَا ثَوْرًا. مَلْعُونٌ غَضَبُهُمَا فَإِنَّهُ شَدِيدٌ، وَسَخَطُهُمَا فَإِنَّهُ قَاسٍ. أُقَسِّمُهُمَا فِي يَعْقُوبَ، وَأُفَرِّقُهُمَا فِي إِسْرَائِيلَ» (تك٤٩:٥ـــ٧).

بحسب القديس كيرلس، أراد الله أن يغير أورشليم الدنسة للأفضل حيث يقول: [لكن لأن الله الآب، يعرف حالة أورشليم الدنسة وقد كانت مخمورة بتصرفاتها الطائشة الفاسدة، فإنه أراد أن يغيِّرها للأفضل. لذلك أرسل ابنه من السماء، ابنه الذي صار إنساناً مثلنا لعلهم يستحون من الابن الآتي إليهم، لأن جمع الأنبياء القديسين كان قد وصل إلى الدرجة التي فيها لم يستطع أن يفعل شيئاً مع هؤلاء اليهود (لأنهم قالوا: «مَنْ صدَّق خبرنا» أش ٥٣:١). لقد انحدر

هؤلاء اليهود إلى مثل هذا المستوى من عدم التقوى حتى أنهم ظنوا أنهم يستطيعون أن يأخذوا أيضاً نصيب سيِّدهم وقاموا بقتل القديسين وتخطوا كل حدود الشر، وتصرفوا بطريقة شاذة كالمخمورين ضد الابن ذاته].

يؤكد أيضًا القديس كيرلس على أن يعقوب تجنب المشاركة في تفكيرهم وقراراهم لأنه لم يقبل في قلبه أفكار الجاحدين الشريرة.

عن يهوذا: «يَهُوذَا، إِيَّاكَ يَحْمَدُ إِخْوَتُكَ، يَدُكَ عَلَى قَفَا أَعْدَائِكَ، يَسْجُدُ لَكَ بَنُو أَبِيكَ. يَهُوذَا جَرْوُ أَسَدٍ، مِنْ فَرِيسَةٍ صَعِدْتَ يَا ابْنِي، جَثَا وَرَبَضَ كَأَسَدٍ وَكَلَبْوَةٍ. مَنْ يُنْهِضُهُ؟ لاَ يَزُولُ قَضِيبٌ مِنْ يَهُوذَا وَمُشْتَرِعٌ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَ شِيلُونُ وَلَهُ يَكُونُ خُضُوعُ شُعُوبٍ. رَابِطًا بِالْكَرْمَةِ جَحْشَهُ، وَبِالْجَفْنَةِ ابْنَ أَتَانِهِ، غَسَلَ بِالْخَمْرِ لِبَاسَهُ، وَبِدَمِ الْعِنَبِ ثَوْبَهُ. مُسْوَدُّ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الْخَمْرِ، وَمُبْيَضُّ الأَسْنَانِ مِنَ اللَّبَنِ» (تك٤٩:٨ــ١٢).

أقوال البركة -كما يرى القديس كيرلس- تعلن مسبقًا تدبير مخلصنا للبشر حيث الحديث يخص نسل يهوذا، أي المسيح حسب الجسد والعذراء التي ولدته بالجسد، قد أتت أيضًا من يهوذا وداود. وكذلك يضع لمعنى إسم يهوذا أهمية كبيرة حيث يعني: « حمد» أو «ثناء» أو «تسبيح - تمجيد». ونحن لا نقدم المجد لأحد آخر إلا فقط -كما يؤكد القديس كيرلس- لله الذي هو الكائن بالحقيقة والمعروف للجميع. وبقوله « يدك على قفا أعدائك» (تك٤٩:٨) يشير إلى عمانوئيل الذي سوف يصير سيدًا على كل أولئك الذين يقاومونه وينتصر بسهولة على كل الأعداء. ويستمر القديس كيرلس في تفسير أقوال البركة بطريقة روحية فيها المسيح هو مركز كل شيء.

عن زبولون: « زَبُولُونُ، عِنْدَ سَاحِلِ الْبَحْرِ يَسْكُنُ، وَهُوَ عِنْدَ سَاحِلِ السُّفُنِ، وَجَانِبُهُ عِنْدَ صَيْدُونَ» (تك٤٩: ١٣).

ينطلق أيضًا القديس كيرلس من معنى اسم: «زبولون» الذي يعني «رائحة زكية» وأيضًا يعني «بركة» ثم يقول: [إذن، سنجد البعض من الإسرائيليين مباركين، وهؤلاء هم المحاطون برائحة الله الزكية، تلك الرائحة الموجودة في كل أولئك الذين يسرون الله، وأيضاً في هؤلاء الذين قد تبرروا بإيمانهم بالمسيح واستناروا بنعمة الروح القدس، حتى إننا نستطيع أن نجاهر بدون أن نكذب ونقول: «أنتم مباركون للرب الصانع السموات والأرض» (مز ١١٥: ١٥)]. ويعتبر «أرض زبولون» تُدعى مكان الأمم الذين رأوا نورًا عظيمًا، أقصد بواسطة المسيح.

عن يساكر: «يَسَّاكَرُ، حِمَارٌ جَسِيمٌ رَابِضٌ بَيْنَ الْحَظَائِرِ. فَرَأَى الْمَحَلَّ أَنَّهُ حَسَنٌ، وَالأَرْضَ أَنَّهَا نَزِهَةٌ، فَأَحْنَى كَتِفَهُ لِلْحِمْلِ وَصَارَ لِلْجِزْيَةِ عَبْدًا» (تك٤٩: ١٤ــ١٥).

إن معنى اسم «يساكر» هو أُجرة، لذلك يعتبر القديس كيرلس أنه مثال وصورة واضحة لأولئك الذين أعطاهم الله الآب للمسيح كأُجرة. ويستشهد بداود حين قال: «هُوَذَا الْبَنُونَ مِيرَاثٌ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ، ثَمَرَةُ الْبَطْنِ أُجْرَةٌ» (مز ١٢٧: ٣). يقول القديس كيرلس: [لأنه قد أُعطيَ لعمانوئيل هؤلاء الذين آمنوا مِن بني إسرائيل والبقية مِن الجمع، أقصد بالطبع جمع الأمم. ويدعو الرب يسوع قائلاً: إنه صار أيضاً ثمرة البطن لأنه صار مثلنا لأنه وُلِدَ من امرأة، وكان ثمرة الأم العذراء. بالتالي، لقد ربح المسيح هؤلاء الذين آمنوا، ولأجل هؤلاء قال لله الآب السماوي: «أنا أظهرت اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم» (يو ١٧: ٦)].

عن دان: «دَانُ، يَدِينُ شَعْبَهُ كَأَحَدِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ. يَكُونُ دَانُ حَيَّةً عَلَى الطَّرِيقِ، أُفْعُوانًا عَلَى السَّبِيلِ، يَلْسَعُ عَقِبَيِ الْفَرَسِ فَيَسْقُطُ رَاكِبُهُ إِلَى الْوَرَاءِ» (تك ٤٩: ١٦ - ١٧).

اسم دان يعني «ديان» أي من «الدينونة»، وهذا أيضًا، كما يشرح القديس كيرلس: [يشير إلى مصاف الرسل القديسين الممجدين والظاهرين للجميع، هؤلاء الرسل القديسون الذين صاروا رؤساء على الذين آمنوا وكذلك دُعُوا لكي يدينوا ويحكموا آخذين هذا السلطان مِن المسيح. لذلك يقول بولس العظيم: «ألستم تعلمون أننا سندين ملائكة فبالأولى أمور هذه الحياة» (١ كو ٦:٣). حسناً، المسيح هو بحسب الكتب المقدسة ديان ومشرّع، وطالما أن الرُسل يعملون كوكلاء عن المسيح ووضع فيهم كلمة المصالحة، إذن ليس تناقضاً على الإطلاق اعتبارهم قضاةٌ مثل المسيح. أيضاً على الجانب الآخر، كرز أشعياء العظيم بمملكة المسيح ذاته، قائلاً: «فإن الرب قاضينا. الرب شارعنا. الرب ملكنا هو يخلصنا» (أش ٢٢:٣٣)].

عن جاد: «سوف ينصبون شباكاً لجاد، أما هو فسوف ينصب شباكاً لقدم ذاك الذي شرع في إيقاعه» (تك ١٩:٤٩س).

اسم جاد -بحسب القديس كيرلس- يعني «تجربة» أو «عصابة للسلب»، لذا: [يشير إلى كراهية وكبرياء الكتبة والفريسيين الذين عارضوا الكرازة الإنجيلية والإلهية و لم يحترموا شيئاً من الأشياء المفيدة، وحنقوا غيظاً ضد المسيح الذي علّم بتعاليم كانت أسمى من الظلال والناموس، المسيح الذي كانت له سُمعة طيبة وأُعجب به الجميع، إذ أدهش كل سكان اليهودية بمعجزاته الكثيرة وتعاليمه التي قدَّم فيها كل ما هو مرضي أمام الله. لأجل هذا، بحسب أقوال النبي حين دخل

أورشليم وديعاً وجالساً على حمار وجحش ابن أتان (انظر زك ٩:٩)، صرخ الأطفال أمامه قائلين: «أوصنا لابن داود. مبارك الآتي باسم الرب» (متى ٢١:٩)، والبعض الآخر فرشوا ثيابهم في الطريق وجعلوا دخوله لأورشليم حماسياً وجديراً بالإعجاب وعلى النقيض من ذلك، فإن أولئك الذين امتلأوا شراً وطُعِنوا بسهام الحسد تشاوروا فيما بينهم وحكموا عليه بأنه ينبغي أن يُقتل. لأنهم قالوا: «أنظروا إنكم لا تنفعون شيئاً. هوذا العالم قد ذهب وراءه» (يو ١٢:١٩)].

عن أشير: «أَشِيرُ، خُبْزُهُ سَمِينٌ وَهُوَ يُعْطِي لَذَّاتِ مُلُوكٍ» (تك ٤٩:٢٠).

اسم أشير يعني «الغنى» لذلك يقول القديس كيرلس: [إنه يشير إلى ذاك «المذَّخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم» (كو٢:٣)، أقصد المسيح الذي هو «كنزٌ مُخفي في الحقل» (مت ١٣:٤٤)، «والجوهرة كثيرة الثمن» والذي يقول بفم الحكيم: «عندي الغني والكرامة. قنية فاخرة وحظ» (أمثال ٨:١٨). إنه ذاك الذي قال عنه داود: «تعهدت الأرض وجعلتها تفيض» (مز ٦٥:٩). أيضاً بولس الحكيم يكتب لنا عنه، قائلاً: «أشكر إلهي في كل حين من جهتكم على نعمة الله المعطاة لكم في يسوع المسيح. إنكم في كل شيء استغنيتم فيه في كل كلمة وكل علم» (١ كو ١:٤ – ٥). لأنه افتقر معنا أيضاً بالرغم من أنه غنيٌّ؛ حتى بفقره نصير نحن أغنياء. لأن هذا يعني، على أية حال، «الخبز الوفير πίων ὁ ἄρτος"، أي الغنى الكثير والمُغذِّي. لأن ربنا يسوع المسيح يغذِّي، ليس بالمَنْ المادي، مثلما أعطاه قديماً لبني إسرائيل، لكن بأن يعطي ذاته في نفوس الذين يؤمنون به بواسطة الروح القدس].

عن نفتالي: «نَفْتَالِي، أَيِّلَةٌ مُسَيَّبَةٌ يُعْطِي أَقْوَالاً حَسَنَةً» (تك ٤٩: ٢١).

يقول القديس كيرلس: [أيضاً يمكن للمرء أن يطبق هذا على عمانوئيل، وأيضاً على هؤلاء الذين تبّرروا بالإيمان وتقدسوا بالروح. لأنه قيل لأم اليهود، أقصد أورشليم، بفم أرميا: «زيتونة خضراء ذات ثمر جميل الصورة دعا الرب اسمك. بصوت صنجة عظيمة أوقد ناراً عليها فانكسرت أغصانها ورب الجنود غارسك قد تكلم عليك شراً من أجل شر بيت إسرائيل وبيت يهوذا» (أر ١١: ١٦ - ١٧)]. ويستمر في الشرح قائلاً: [لأن جذر وثمرة الكرمة المزروعة بعمق وثبات لهؤلاء الذين اقتيدوا إلى الحياة الجديدة هو ربنا يسوع المسيح، ونحن نبتنا كأغصان باتحاد روحي معه، ونحن معلقون ذهنياً فيه ومرتبطون بمحبته ومتمتعون بطعامه الغني ومتغذون بالنعمة الإلهية لنثمر ثمار الفضيلة.

والآب نفسه مع الابن يعضد أعمالنا. وبالرغم من أن المسيح هو الكرمة والآب هو الغارس لكن بالمسيح سوف يقطع ما هو غير مفيد، وسوف يعتني بما هو موجود في أحسن حالة، وما له القدرة على الإثمار بمفرده].

عن يوسف: «يُوسُفُ، غُصْنُ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ، غُصْنُ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ عَلَى عَيْنٍ. أَغْصَانٌ قَدِ ارْتَفَعَتْ فَوْقَ حَائِطٍ. فَمَرَّرَتْهُ وَرَمَتْهُ وَاضْطَهَدَتْهُ أَرْبَابُ السِّهَامِ. وَلكِنْ ثَبَتَتْ بِمَتَانَةٍ قَوْسُهُ، وَتَشَدَّدَتْ سَوَاعِدُ يَدَيْهِ. مِنْ يَدَيْ عَزِيزِ يَعْقُوبَ، مِنْ هُنَاكَ، مِنَ الرَّاعِي صَخْرِ إِسْرَائِيلَ، مِنْ إِلهِ أَبِيكَ الَّذِي يُعِينُكَ، وَمِنَ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ الَّذِي يُبَارِكُكَ، تَأْتِي بَرَكَاتُ السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَبَرَكَاتُ الْغَمْرِ الرَّابِضِ تَحْتُ. بَرَكَاتُ الثَّدْيَيْنِ وَالرَّحِمِ. بَرَكَاتُ أَبِيكَ فَاقَتْ عَلَى بَرَكَاتِ أَبَوَيَّ. إِلَى مُنْيَةِ الآكَامِ الدَّهْرِيَّةِ تَكُونُ عَلَى رَأْسِ يُوسُفَ، وَعَلَى قِمَّةِ نَذِيرِ إِخْوَتِهِ» (تك٤٩: ٢٢ - ٢٦).

تتحدث هذه النبوة عن عمانوئيل. اسم يوسف يعني «يزيد من الله» لذلك يقول القديس كيرلس: [حسناً، فإن الازدياد في حالة المسيح يجب أن نعتبر أنه عطية المجد الخاص بالله، ومُنِحَ له باتساع ووفرة واضحة. لأنه يُدرَك بأنه قريب من العالم بحسب الطبيعة البشرية، أما من جهة كونه ربًّا الكل فإنه يُقدَّم له المجد والسجود مع الله أبيه. أيضاً بالرغم من أنه خالق الدهور، إلَّا أنه (بسبب تجسده في الزمن) هو أحدث من مصاف الأنبياء القديسين، إذ أتى في الأزمنة الأخيرة (انظر عب ١:١)، بعد أولئك الذين كانوا قبل مجيئه ينتمون إلى رتبة الأبناء بفضل فضيلتهم]. ومن جهة حسد إخوة يوسف، يقول القديس كيرلس: [أما كون عمانوئيل كان أيضاً جديراً بأن يحسده أحد، فهذا لا يمكننا أن نشك فيه. أيضاً كان محط إعجاب وغيرة، بالنسبة للقديسين الذين حاولوا أن يتتبعوا آثاره وأن يكتسبوا جماله وأن يجعلوه قدوة لأعمالهم. هناك أيضاً غيرة وحسداً داخل هؤلاء الذين لم يحبوه، أقصد معلمي اليهود أي الكتبة والفريسيين، إذ كانوا يحسدونه بسبب مجده الفائق. لقد أقام المسيح الأموات الذين انبعثت منهم رائحة النتانة بسبب تحلل أجسادهم، وبذلك برهن على أنه أقوى من الموت ذاته. وأولئك المعلمين بدلاً من أن يتعجبوا وينقادوا –بلا تردد– إلى الإيمان، فإنهم اغتاظوا بشدة وحسدوه، وانتابهم حزن وغم واضطراب ذهني. وشفى المسيح أيضاً المولود أعمى، إلَّا أنهم دعوه خاطئاً (انظر يو ١:٩ـــ الخ). كذلك أخرج وطرد قطيعاً من الشياطين، إلَّا أنهم أتهموه زوراً بأنه ببعلزبول يُخرج الشياطين» (انظر مت ٢٢:١٢ـــ الخ). وشرعوا في قتله قائلين فيما بينهم: «لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف. فانك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً» (يو ٣٣:١٠). لقد اصطكت أسنانهم غيظاً قائلين: «هذا هو الوارث. هلموا نقتله

ونأخذ ميراثه» (مت ٢١:٣٨)]. ويستمر القديس كيرلس في التفسير الروحي لبقية أقوال البركة على أساس أن يوسف مِثال للمسيح.

عن بنيامين: «بَنْيَامِينُ ذِئْبٌ يَفْتَرِسُ. فِي الصَّبَاحِ يَأْكُلُ غَنِيمَةً، وَعِنْدَ الْمَسَاءِ يُقَسِّمُ نَهْبًا» (تك ٤٩:٢٧).

هنا بنيامين يشير إلى الشعب الجديد الذي دُعيَ للإيمان، إذ هو مثل الوحش المفترس الذي لا يخاف بسهولة حيث يقول القديس كيرلس: [هكذا الشعب الجديد الذي دُعيَ للإيمان، لا يخاف بسهولة من أولئك الذين يستخفون بأقوالهم وأعمالهم ويرفضون قبولهم. لأن القديسين قد تعلموا بجسارة أن يقولوا: «مَنْ سيفصلنا عن محبة المسيح: أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عُري أم خطر أم سيف» (رو ٨:٣٥). حتى لو اضطهدهم الرُعاة المزيفون وشرعوا في طردهم من الطريق الذي يحبونه بلا شفقة وفق ما هو مكتوب (انظر زك ١١:٤)، فإنهم يُظهرون صبراً كبيراً في الآلام ويعتبرون الحياة ذات قيمة حقاً حين يتألمون. لأنهم قد تعلموا: «لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح» (فيلبي ١:٢١)].

نص الكتاب

المقالة الأولى على سفر التكوين

سِرُّ المسيحِ

يُعلَنُ بطريقةٍ رمزية[٧١]

فى كل ما كتبه موسى النبى

مقدمة[٧٢]:

يقول المسيح لجموع اليهود: «فتشوا الكتب» (يو ٥: ٣٩)، مظهرًا لهم بوضوح أن البعض منهم لن يستطيعوا أن يأتوا إلى الحياة الأبدية، إن لم ينقّبوا بعمق، كما في كنز، في الناموس[٧٣]، وإن لم يسعوا بجدية في طلب الجوهرة المخفية فيه، أي المسيح «المذخَّر فيه كل كنوز الحكمة والعلم» (كو ٢: ٣)، طبقا لما قاله بولس الطوباوي.

ويقول سليمان عن الحكمة المستحقة كل وقار ومحبة، أي المعرفة: «إن طلبتها كالفضة وبحثت عنها كالكنوز، فحينئذ تفهم مخافة الرب وتجد معرفة الله» (أم ٢: ٤ــ٥).

---

٧١ ذُكرت الكلمة في اليونانية: αἰνιγματωδῶς بمعنى بطريقة لُغزية أو غامضة ويمكن ترجمتها بطريقة رمزية .

٧٢ هذا العنوان وبقية العناوين الجانبية من وضع المترجم.

٧٣ τό γράμμα τό νομικόν الحرف أو المكتوب الناموسي .

لذلك، لا يوجد أي شيء يعادل هذه الحكمة بالنسبة للذين يمتدحون حياة الكمال ويحبون ممارسة الفضائل في حياتهم ويملأون أذهانهم بنور الله، ويتغذون باستمرار بكلمات الله، ويستخدمون الكتاب المقدس كسراج تطبيقاً لكلمات المرتل الذي يدعو إلى التقوى قائلاً: «سراج لرجلى كلامك ونور لسبيلى» (مز ١١٨: ١٠٥). وبالتالى، فكوننا ندرس سر المسيح[٧٤] ونحبه، فهذا يضمن لنا الحياة الأبدية وكل طريق البهجة والسعادة. فلنتقدم إذن، حسنًا متحملين المشقة النافعة؛ عندئذٍ تظهر لنا جيدًا ـــ أكثر من غيرنا ـــ تلك الأمور التي بها نستطيع أن نشرح سر المسيح، وهو سوف يعيننا في نفس الوقت، حتى نحاول شرح مفاهيم كل عنصر على حدة. إن هذه المفاهيم تعتبر دقيقة، ولكن الرؤية الحقيقية يمكنها أن تصير دافعًا جيدًا لهؤلاء الذين يتعلمون بسهولة، وتكون بمثابة الدرجات التي يصعدون بها نحو المعرفة الفائقة.

سوف نعرض الأحداث التاريخية لكي نوضحها بطريقة التماثل συμμέτρως، ناقلين بقدر المستطاع الفكرة الأساسية الخاصة بسر المسيح من المثال والظل ἐκ τύπου καί σκιοῖς، لنجعلها رؤيةً واضحةً بمعرفة الكلمة، متخذين المسيح الرب هدفًا نهائيًا، طالما أنه حقًا "غاية الناموس والأنبياء هو المسيح" (رو ١٠: ٤). وإذا حدث مرة وأخطأنا من جهة المفهوم الحقيقي، يجب

٧٤ يقول القديس كيرلس في تفسيره لإنجيل لوقا وتعليقه علي معجزة إشباع الجموع وموقف اليهود من المسيح: "إن اليهود في رأيي، ليس لهم حجة واحدة يمكن أن تنفعهم أمام منبر الله يعتبروا بها عدم طاعتهم، لأن مقاومتهم لا تبدو معقولة. ولماذا الأمر هكذا؟ لأن ناموس موسي يمكن أن يقودهم ـــ بواسطة الظلال والرموز ـــ إلى سرّ المسيح. لأن الناموس ـــ أو بالحري الأشياء التي يحتويها ـــ كان رمزيًا وكان سرّ المسيح مصوّرًا فيه بواسطة المثال والظل كما في رسم". تفسير إنجيل لوقا، ترجمه د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، القاهرة ٢٠٠٧ ص ٢٣٢.

أن تغفروا لنا يا مَنْ سوف تقرأون. ويجب أن نعرف أننا كتبنا سبعة عشر فصلاً في "السجود والعبادة بالروح والحق"، وقد جمعنا فيها مفاهيم كثيرة، لكن تغافلنا في ذلك العمل عن هذه الفصول وتركناها بلا فحص، وإذا حدث وذكرنا شيئًا منها، فهذا كان للضرورة.

حسنًا. سوف نبدأ من مختارات سفر التكوين مسرعين نحو الخمسة الكتب الأولى لموسى، ومعهم سوف نفحص بقية الكتاب بقدر ما يكون هذا مفيداً لهدفنا.

١ــ آدم

أ ــ سر المسيح ينقلنا إلى الكمال

فَهِمَ بولس ــ العالِم الحقيقي بالناموس ــ سر الخلاص بواسطة المسيح، إذ قال إنه في شخص المسيح صار انجماع[٧٥] ما في السموات وما في الأرض (أف ١: ١٠)، وفق محبة الله الآب وإرادته، موضحًا بكلمة انجماع أنه قد حدثت عملية إصلاح للكل، كما عادت مرة ثانية الأمور التي طالها الفساد إلى الحالة التي كانت عليها في بداية الخليقة[٧٦]. لأنه في إحدى المرات تحدث عن الله الذي

---

75 *ἀνακεφαλαίωσιν εν αὐτῷ γενέσθαι φησί τῶν τε εν οὐρανῷ καί τῶν ἐπί τῆς γῆς.*

أي صار فيه (في المسيح) انجماع ما في السموات وما في الأرض. إن قلب تعليم القديس إيرينيوس عن المسيح بل ومحور وقلب كل تعليمه اللاهوتي هو رؤيته الخاصة بـ ''جمع الكل في المسيح''. واضح أن القديس إيرينيوس استعار هذا التعبير من بولس الرسول في رسالته إلى أفسس (١: ١٠): ''لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح''. ثم امتد هذه الفكرة امتدادًا كبيرًا حتى صارت فكرة ''جمع كل شيء في المسيح'' تحوي كل تعليمه عن التجسد والفداء وحلول الروح القدس وتأسيس الكنيسة، وكون المسيح رأس الجسد أي ''الكنيسة''. فيقول إيرينيوس إن ''جمع كل شيء في المسيح'' يشمل أخذ كل الأشياء منذ البداية وجعلها في المسيح. فالله أعاد الخطة الإلهية الأولى الخاصة بخلاص الجنس البشرى التي انقطعت بسقوط آدم، وهو يجمع كل ما عمله منذ البداية لكي يجدّد، ولكي يرد، ولكى يعيد تنسيق كل شيء في ابنه المتجسد، الذي يصير بهذه الطريقة هو آدم ثانٍ لأجلنا. وحيث إنه بسقوط الإنسان ضاع كل الجنس البشرى، فكان يلزم أن يصير ابن الله إنسانًا لكي يتمّم إعادة خلق جنس البشر: [المخلوقات التي هلكت كان لها جسد ودم لأن الرب صنع الإنسان من تراب الأرض، ولأجله حدثت كل تدبيرات مجيء الرب. لذلك أخذ لنفسه جسدًا ودمًا جامعًا في نفسه ليس إنسانًا آخر معيَّنًا بل ذلك الإنسان الأول الذي خلقه الآب، إذ أنه كان يطلب ذلك الذي كان قد هلك].(*AH5:14:2*)

76 *τὴν τῶν ὅλων ἐπανόρθωσιν καί τὴν εἰς ὅπερ ἦν εν ἀρχῇ αινφοίτησιν τῶν κατεφθαρμένων.*

يقول على فم الأنبياء: «لا تذكروا الأوليات، والقديمات لا تتأملوا بها، هأنذا صانع أمرًا جديدًا الآن ينبت. ألا تعرفونه. أجعل في البرية طريقًا في القفر أنهارًا» (إش ٤٣: ١٨ ــ ١٩). ولأن بولس تربى على الأقوال الإلهية، فهو يبرهن لنا بهذه الأقوال على أن هذه النبوة تحققت بالفعل في شخص المسيح، قائلاً: «إذًا إن كان أحدٌ في المسيح، فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديدًا» (٢ كو ٥: ١٧، رؤ ٢١: ٥). لقد وُلِدنا بواسطة المسيح وصرنا خليقةً جديدةً[٧٧] واكتسبنا اسمًا جديدًا من المسيح فقط، لأننا ندعى باسم المسيح. ويقول لنا بولس مرة أخرى: «ولكن الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات» (غلا ٥: ٢٤)؛ لأن حياة المسيحيين هي تلك الحياة التي تتماثل مع حياة القديسين، إذ تبتعد عن الأهواء الجسدية والأرضية الدنسة. وأمَّا أنه سوف يمنح لنا اسمًا جديدًا، يُعطَي لنا بإيماننا بالمسيح، فهذا صار واضحًا من إعلان الله من خلال صوت القديسين «مَن يغلب فسأعطيه أن يأكل من المن المخفى وأعطيه حصاةً بيضاء وعلى الحصاة اسم جديد مكتوب لا يعرفه أحد غير الذي يأخذ» (رؤ ٢: ١٧، ٣: ١٢)، لأن هؤلاء القديسين يمجِّدون الإله

---

77 *Ανεστοιχειώμεθοι γάρ ἐν χριστῷ καί γεγόναμεν καινὴ κτισις.*
لأنه أُعيد تشكيلنا مرة أخرى في المسيح وصرنا خليقة جديدة .وعن الخليقة الجديدة في المسيح، أثناء حديثة عن مذبح البخور يقول القديس كيرلس: [لأنه بالمسيح أُبطلت فرائض الناموس، والظلال وصلت إلى نهايتها. هذا ما يشير إليه عدم إصعاد محرقة أو تقدمةٍ أو سكيبٍ فوق مذبح البخور. وهو ما يؤكده النبي قائلاً: «انقطعت التقدمة والسكيب عن بيت الرب. ناحت الكهنة خدام الرب» (يؤ ١: ٩). أي أنه طالما ظهر السجود والعبادة بالروح والحق، صارت الظلال نافلة، وعبادة النماذج صارت بلا فائدة تماماً. لأنه بالمسيح صارت هناك خليقة جديدة. بعد مجيء الحق، كل الذين يطلبون برّهم في الناموس يفقدون النعمة. لأنه يقول: «لا تصعدوا عليه بخوراً غريباً» (خر ٣٠: ٩)]. السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، المقالة التاسعة ص ٣٦٨-٣٦٩.

الحقيقى. لأنه حسنٌ ألَّا يتشكك مَن يؤمن بحق وباستقامة أنه بالمسيح يصير الكل جديدًا. إذًا لنتقدم لفحص ما هو قديم على أية حال، ولنبحث عن التغيير الذي يشير إلى الأفضل، وهو ما يقول عنه الكتاب إنه تحقق، وبذلك ينتقل الإنسان من الضعف الذي كان عليه ويصبح قويًا ومعافى تمامًا، أي أنه يتحول من حالة الفساد إلى ما لم يكن قد تحقق بعد منذ البداية. لأنه بهذه الطريقة يستطيع المرء أن يعرف بالصواب المرمَى الذي صوَّب نحوه هدف الكلمة التي وُضعت من البداية، وبذلك يعتبر الإنسان بلا لوم من جهة المعرفة.

ب ــ العقل وسر الخليقة

الله المبدع الأعظم ὁ ἀριστοτέχνης τῶν ὅλων Θεὸς خلق بواسطة ابنه[٧٨] كل المخلوقات لأنه مكتوب: «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يو ١: ٣)، في البداية وقبل كل شيء خلق الله السماء والأرض، وأحضرهما للوجود دون أن يكون لهما وجودٌ مسبقٌ قط. لكن إذا تساءل أحد وقال كيف[٧٩] خُلِقت السماء، والأرض ومن أين؟ سوف يسمع منا ذلك القول الحكيم: «مَن يعرف فكر الرب ومَن صار له مشيرًا» (رو ١١: ٣٤). وإن أراد

---

٧٨ نسبح في لبش أدام على ثيؤطوكية الاثنين، قائلين: ”لأن أدم أبانا المخلوق الأول بيدي الله الخالق....“. والمقصود بتعبير ”بيدي الله“ هو الابن والروح القدس، كما يقول القديس إيرينيوس في كتابة: ”الكرازة الرسولية“ ترجمة ومقدمة وتعليقات وفهارس د. نصحي عبد الشهيد و د. جورج عوض إبراهيم، طبعة ثانية ــ فبراير ٢٠٠٩، ص ٧٦.

٧٩ يخبرنا الكتاب المقدس عن مَنْ خلق الكون، وليس عن كيف خُلِقَ، وبالتالي لم ينشغل الآباء بكيفية الخلق بل بالحري بمَن خلق الكون والعالم.

أحد أن يتعلم هذه الأمور، عليه أن يستخدم على أية حال العقل والفهم، فهكذا قصد الله عندما وهبنا العقل، وإن كان ما يخصنا منه لا يقارَن بما لدى الله، وهو نفسه يوضح لنا ذلك قائلاً: «لأن أفكارى ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقى يقول الرب. لأنه كما علت السموات عن الأرض هكذا علت طرقى عن طرقكم وأفكارى عن أفكاركم» (إش ٥٥: ٨ — ٩). ليتنا إذن نوقف البحث بالنسبة لهذا السؤال لأنه سيكون بلا جدوى، ولن يمكننا من أن نفهم كيف خُلِق العالم.

جـ ــ لماذا خلق الله الانسان؟

حسنًا. طالما أن السماء والأرض قد خُلِقتا في البدء، وتجمعت كل المياه في مكان واحد، لأنها كانت خاضعة للذى قال: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد» (تك ١: ٩)، فقد ظهرت الأرض وأنبتت عشبًا وأثمرت أشجارًا. وبعد ذلك ظهر تعاقب الشمس والقمر، ووضع ناموس الله حدودًا لحكم كل منها، بحيث تنير الشمس نهارًا والقمر ليلاً، كما أن السماء كانت مملوءة بالنجوم.

وقد وضع الله ــ بالتأكيد ــ قانونًا للهدف الذي خُلِقت الشمس والقمر لأجله قائلا: «لتكن أنوارٌ في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل. وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين. وتكون أنوارًا في جلد السماء لتنير على الأرض. وكان كذلك» (تك ١: ١٤ ــ ١٥). ولكن لأن الحياة هي من طبيعة خالق الكل الذي هو معطي الحياة، فقد أعطى طبيعة المياه أن تكون والدة للكائنات المائية الحية والطيور التي تطير في الهواء. وأمر الأرض أن تخرج ذوات أنفس حية والأجناس المختلفة للوحوش (تك ١: ٢٤ ــ ٢٥)، وفى لحظةٍ أوجد الله كل ما

يبدو أنه يفوق العقل. وكان الكلمة هو الخالق لكل المخلوقات التي خلقها بإشارةٍ منه[٨٠]. ولأن مُبدع الكل سُرَّ بالكون الذي خلقه، فقد خلق المخلوق الأخير، والذى لأجله خُلِقت المخلوقات الأخرى، أقصد الإنسان. لأنه طالما أن خالق الجميع الذي هو صالحٌ[٨١] بطبيعته أو بالأحرى هو الصلاح نفسه، صار معروفًا لنا، كان يجب أن تمتلئ الأرض من أولئك الذين يعرفون أن يمجدوه، ويمتلئ بأجمل المخلوقات، كما هو مكتوب، ولينقادوا جميعا إلى مجد ذلك الذي خلقهم. لأنه، كما يقول النبى إشعياء: «لم يخلقها باطلاً»، وواضح أنه يقصد الأرض بقوله: «للسكن صوَّرها» (إش ٤٥: ١٨). إذًا كان من الحتمى أن يخلق الله في الأرض كائنًا عاقلاً، لأن كل ما خُلِق قبله خُلِق لأجل سعادته، حتى أن الله رأى أنه حسنٌ جدًا أنه قد خلق الانسان[٨٢]. إذن، طالما أنه خلق الأرض مسبقًا بجمالٍ

---

80 *Εφ'έκάστῳ τῶν πεποιημένων Λόγος ἦν ὁ δημιουργὸς καί νεῦμα μόνον ἡ γένεσις.*

يقول القديس كيرلس في تعليقه على نص يو ٣:١: عندما يقول الإنجيلي «كل شيء به كان»، فهو لا يستثنِ أياً من الكائنات مهما كان ... ولأننا نؤمن أن كل شيء قد خُلِق بواسطة الابن فلا نستطيع أن نحسبه كواحد مع كل المخلوقات، بل هو غيرها تمامًا لإنه ليس ضمن الطبائع المخلوقة، بل نعترف أنه وحده بالطبيعة الإله الحق» انظر: شرح إنجيل يوحنا. المجلد الأول. مرجع سابق، ص ٧٨.

٨١ أيضًا القديس أثناسيوس في كتابه "تجسد الكلمة" يؤكد في الفصل الأول على أن [الآب الصالح يضبط كل الأشياء **بالكلمة**، وأن كل شئ به وفيه يحيا ويتحرك] تجسد الكلمة١:١ ترجمة د. جوزيف موريس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، القاهرة٢٠٠٢، أيضًا انظر ٣:٣، ١:١٧، ٤:٤٢ ــ ٦، وضد الوثنيين ١:٤١.

٨٢ يسرد لنا القديس كيرلس خلق الإنسان في سياق شرحه لما جاء في إنجيل يوحنا عن معمودية المسيح، فيقول: "إن الأسفار الإلهية تعلّمنا أن الإنسان خُلِقَ علي صورة ومثال الله الذي هو فوق الكل، وموسي الذي كتب لنا الأسفار الخمسة الأولي الذي شهد الله عنه أنه عرفه فوق الكل (خر ١٧: ٣٣ س) يقول: "فخلق الله الإنسان علي

يتناسب معها وكل الموجودات، فقد مضى في خلق الإنسان وجعل خلقته أسمى منها جميعًا، على الرغم من أن كل المخلوقات الأخرى صنعها بكلمته. ولأن الإنسان يعتبر وجودًا حيًا وعبقريًا بالحقيقة وشبيهًا جدًا بالله، وحتى لا يُعتبر أن هذا الذي كان شبيهًا جدًا بالمجد السماوى، خُلِق بنفس الطريقة التي خُلِقت بها المخلوقات الأخرى التي لم تكن هكذا، كرَّم خلقته، وذلك بإرادته الإلهية فقط، وعلى الرغم من أنه قد خلقه من الطين، إلّا أنه كائنٌ حيٌّ عاقل Ζῶον αυτό λογικὸν αποτελεῖ ونفخ فيه مباشرة روحاً خالدةً ومحيية، لأنه مكتوب: "ونفخ في وجهه نسمة حياة فصار آدم نفسًا حية" (تك ٢: ٧). وبعد أن وضعه في الفردوس وأعطاه السيادة على كل المخلوقات الأرضية، وجعله سيدًا على كل أنواع الكائنات التي تحيا في المياه والطيور، وأخضع له الوحوش المفترسة ومعها أجناس الحيات السامة، وألزمها ـــ بنواميس طبيعية ـــ أن تهابه، أصبح الإنسان يمثّل المجد الأسمى على الأرض وصورة للسيادة الملائمة لله[٨٣].

صورته، علي صورة الله خلقه" (تك ١: ٢٧)، ولكنه بالروح خُتم بالصورة الإلهية، وموسي يعلّمنا من هذا أيضاً قائلاً: "ونفخ في أنفه نسمة حياة" (تك ٢: ٧). لأن الروح وضع حياة في تكوين الإنسان منذ خلقته وبطريقة إلهية طبع صورته في الإنسان وهكذا فإن الله الصانع الحكيم، إذ صنع المخلوق العاقل الحي علي الأرض. أعطاه الوصيّة المخلّصة. وكان الإنسان في الفردوس كما هو مكتوب (تك ٢: ٨) حافظاً للعطيّة، مالكاً الصورة الإلهية الروح القدس الذي سكن فيه". شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، المجلد الأول، ٢٠٠٩، ص ١٦١.

83 *Ἡ οὖν ἄρα τῆς ἀνωτάτων δόξης τό εκμαγεῖον καί θεοπρεποῦς εξουσίας εἰκών ἐπί γῆς ὁ ἄνθρωπος*

. وفى موضع آخر يقول القديس كيرلس] :لا ينبغي أن يشك أحد في أن الإنسان قد جاء إلى الوجود ليس لأجل أعمال مخزية، بل لأجل عمل كل ما هو ممدوح، بما أنه ثمرة إبداع الله الصالح .ولكن تظل الحقيقة قائمة أنه قد

د ـــ لماذا الوصية؟

ولأن هذا الإنسان الذي وصل إلى مثل هذه الدرجة من المجد والسعادة، كان يجب عليه أن يعرف جيدًا إن سلطان الله الملك والرب يفوق كل ما يمتلكه، وحتى لا يتزلق سريعًا بسبب امتيازاته الكثيرة إلى الاعتقاد بأنه صار حرًا من سلطان الله وسموه، أعطاه الله على الفور وصيةً، وبجوارها وضع له تهديداً في حالة مخالفته لها، لأنه لم يكن قد وُجدَ بعد فوق الأرض طريقة للخطية، إذ أن الإنسان كان واحدًا وفريدًا. ولكن لكي يضعه تحت الناموس ابتدع له طريقة يؤَّمن بها نفسه لأنه يقول: «من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً. وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تاكل منها. لأنك يوم تأكل منهما موتًا تموت»[٨٤] (تك ٢: ١٦ ـــ ١٧). ثم بعد ذلك أخذ ضلعًا من جنب آدم، وخلق المرأة التي ستعينه في ولادة البنين والبنات، والتي سوف تحيا معه نظيرًا له وتشترك معه في الحياة ببساطة. ونظرًا لأنها انقادت بخيالات الشيطان إلى المخالفة، وأكلت من الثمرة المحرّمة ومعها انخدع آدم نفسه، ففي الحال حُكِمَ على الطبيعة البشرية بالموت ἡ φύσις εὐθύς θανοίτῳ καταδικάζετο. قال الله للمرأة: "بالوجع تلدين

خُلق سيدًا لنفسه وحرًا، وقادرًا على التحرك بواسطة قوة إرادته الخاصة نحو أي اتجاه يختاره سواء كان خيرًا أو شرًا [ضد يوليانوس الجاحد (PG76, 925) .

[٨٤] يعلق القديس أثناسيوس على هذه الآية موضحاً أن الآباء الأولين هما الذين جلبوا على أنفسهم حكم الموت، إذ يقول: "أما إذا تعدوا الوصية وارتدوا (عن الخير) وصاروا أشرارًا فليعلموا أنهم سيجلبون الموت على أنفسهم حسب طبيعتهم، ولن يحيوا بعد في الفردوس، بل يموتون خارجًا عنه ويبقون إلى الأبد في الفساد والموت. وهذا ما سبق أن حذّرنا منه الكتاب المقدس بفم الله قائلاً: "من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت". "وموتًا تموت" لا تعني بالقطع مجرد الموت فقط، بل البقاء في فساد الموت إلى الأبد " تجسد الكلمة، مرجع سابق، فصل ٣، فقرة ٤، ٥.

أولادًا"، بينما قال لآدم: "ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك" (تك ٣: ١٦ — ١٧). وعلاوة على هذا طُرِدا من مسكنهما الأول المحبوب ومن التمتع بالفردوس، وعندئذٍ عَرِفا للتو أنهما عريانان[٨٥] وأنهما في حاجة للثياب، وأعطيت لهما أقمصة[٨٦] جلدية من قِبَل الله الذي حزن عليهما، ودَعَيا الأرض أُمًّا لهما، وجذبتهما قيود الفساد. وأعتقد أنه لم يَغِب عن الله شيء على الإطلاق من تلك الأمور التي صارا عليها والتي كانا يتعذبان بها.

الوجود أم العدم للإنسان القابل للسقوط؟

قد نتساءل: لو كان الإنسان قد خُلِقَ لكي ينتهي به الأمر إلى التعاسة الفظيعة، ألم يكن من الأفضل له ألَّا يوجد بتاتًا؟ ألم يخلق الله الإنسان في بهاءٍ عظيم ويستحق المدح وهو يعلم أنه سيصبح بعد ذلك ذميمًا وتعسًا وسيحيا تحت اللعنة والدينونة؟

---

٨٥ عُري الأبوين الأولين كان حدثاً ذو طبيعة روحيّة ويخصّ، ليس فقط الجسد، بل كل طبيعتهما البشريّة؛ النفسيّة والجسديّة. علي الجانب الآخر، نجد أنّ تبيّن العُري كان نتيجة وثمرة عمل روحي، فهو برهان لوعيهما، الذي يصفه الكتاب المقدّس بعبارة «انفتحت أعينهما»؛ «فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عُريانان» (تك٣:٧). الكلام هنا عن إدراك هذا العُري. العنصر الذي تحقّق من العري كان أولاً بصيرة النفس والضمير، ثم بعد ذلك أعين الجسد. بالتالي، ملمح العُري كان نفسياً وجسدياً، وعُري الأبوين الأولين كان يخصُّ كل وجودهما (الجسد والنفس .. المرأة والرجل) وكان عريًا كيانيًّا للطبيعة البشريّة.

٨٦ الملابس الجديدة التي صنعها الله، يصفها الكتاب بـ "أقمصة" كملابس تغطي كل جسد الأبوين الأولين. بتغطية كل الجسد، يُصحّح الخالق حركة الأبوين الأولين غير الكافية، التي بها غطّيا بورق التين فقط جزء من جسديهما، من الوسط حتى أسفل. بهذه الطريقة، أظهر الله أنّ الإنسان بعد السقوط كان في احتياج مباشر لتغطية تامة لكل طبيعته بعد السقوط وليس فقط جزء من جسده.

بالطبع لم يجهل الخالق إطلاقًا ما سيحدث في المستقبل، طالما هو الله بطبيعته، ولأنه هو خالق الإنسان، فهو يعلم كل ذلك، بل ولا يعتبر أنه قد ظلمه، بل أفاده. قد يتصور أحدٌ أنه كان من الأفضل لهؤلاء الذين وُجِدوا ليكونوا تعساء ألَّا يُوجدوا أصلاً، ويتماشى ذلك مع قول المخلص نفسه عن تلميذه الخائن: «كان خيرًا لذلك الرجل لو لم يُولد» (مر ١٤: ٢١). ولكن فيما يتعلق بهذه الآراء، فإننى أقول بكل تأكيد إننا نرتكب خطأً جسيمًا، بل نلمس حدود قمة الجنون، أو بالحري نعبر إلى ما بعد حدود الجنون عندما نتهم قرارات الله بأنها غير صحيحة، وأن الطبيعة السامية مُعرَّضةٌ لأن توافق على أمور كانت تستوجب التعديل، أو نعتقد أن تلك الطبيعة الإلهية ارتكبت خطأً في خلقتنا. ولذلك لا يجب علينا أن نوجِّه لوماً لقرارات وأعمال الطبيعة الإلهية، ولا أن نزيد في التفكير أكثر مما يليق، ولنترك الفضول في هذه الأمور. إلَّا أننى أعتقد أنه يجب علينا أن نفكر في هذين الاتجاهين: هل كان من الأفضل للذين يوجدون ولا يحيون حياة صالحة ألَّا يُوجدوا، أم أن الأفضل لهم أن يصيروا شركاء في نقاوة الخالق؟ إني اعتقد أنه لا يجب أن يتشكك أحد. فهناك من له حجة تفيد بأنه من الأفضل ألا يأتي إلى الوجود سوى أولئك الذين سيحيون حياةً صالحة فقط. ماذا إذن إخبرني؟ إنني أرى أنه ينبغي أن أنقل هذا الكلام على طبيعة تختلف عن طبيعتنا، أي طبيعة الملائكة الطوباويين وليس على طبيعة الإنسان.

إن الله بكل تأكيد هو الذي خلق الملائكة ورؤساء الملائكة، والعروش، والسلاطين والقوات والرؤساء ومعهم أيضًا السيرافيم، خلقهم من العدم Ἐξ οὐκ ὄντων. ومن هؤلاء الذين وُجدوا كان هناك التنين المتمرد ὁ δράκων ὁ ἀποστάτης (والقوات الشريرة التي كانت معه)، وعنه قال:

"وأقمتك مع الشاروبيم" (حز ٢٨: ١٤س). وكانت هناك أيضًا المخلوقات الأخرى المقدسة العاقلة التي تملأ السموات وتسطع نورًا من فرط المجد المحيط بها، وتتمتع بجمال فائق يفوق طبيعتنا. وطغمات الشاروبيم المقدسة كان لها المجد الذي لا يتغير ويحافظ على سلطتها بكل ثبات. وهناك ألوف ألوف يخدمون الله، وربوات يقفون أمامه، لكن الشيطان ومعه آخرين سقط من ذلك الموضع وفقد مجده بالتالى. وبسبب أنه تصادم مع الله بإرادته لذلك فقد سلطته. أفهل كان يجب على خالق الجميع أن يتردد في خلق الملائكة القديسين، وهكذا يتجنب خلق المخلوقات النورانية والجديرة بالإعجاب؟ ألا يكون من الظلم لو أن الله لم يخلق طغمات الملائكة، والتى لا تزال تخدمه حتى الآن، والتى تظل مؤمنة بالله الذي خلقها، ولا تقبل أن تصل إلى درجة تجعلها تنسى سلطته؟ أخبرني إذن ما الذي يجعلك تحزن كثيراً لأجل أشخاص لم ينجحوا في أن يعيشوا حياة صالحة بسبب كبريائهم، لكن بقى أناس منهم وهم الأفضل، وكان الأفضل لأولئك لو ظلوا بالقرب من الله ونالوا غنى صلاحه ومجدوه بتمجيدات لا تنتهي. هؤلاء قال عنهم داود الطوباوى: "طوبى للساكنين في بيتك أبدًا يسبحونك" (مز ٨٤: ٤). وبما أن الكلام هنا ينطبق على هؤلاء، فلنتقدم إذًا لننتقل ببحثنا إلى ما يخصنا نحن، فلنفحص هذا الموضوع:

لقد خُلِقَ الإنسان منذ البداية متحملاً مسئولية[٨٧] إرادته وحرية[٨٨] اختيار الشيء الذي يفضِّله. ولأن الله خلقه على مثاله لذلك خُلِقَ حرًا. وأعتقد أنه بهذه

---

[٨٧] لم يتردد المسيح في أن يدعو بمبادئ محدّدة عن شروط التلمذة له، مثل: "إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني" (مت ١٦: ٢٤). لقد رسم أمامهم مسيرة تضحية وإنكار ذات، مسيرة يمكن أن تقودهم إلى الموت، مسيرة نجد قمتها في محبة الأعداء. وهذا هو مفهوم الحرية في المسيح والمقترنة بالمسئولية.

الطريقة، أُعطى للإنسان أن يكون جديرًا بالإعجاب، إذا أظهر بإرادته أنه يميل إلى الفضيلة، وأعماله هذه تكون ثمرة إرادته الحرة، وليست نتيجة حتمية لطبيعته οὐκ ανάγκης ὥσπερ ἀποτέλεσμα φυσικῆς (غير الحرة)، التي لم تسمح له بالابتعاد عن الصلاح، حتى لو أنه فَضّل أن يعمل ما ليس صالحًا. وهكذا، فالإنسان لديه منذ البداية إرادة حرة غير محدودة ليعمل كل الأعمال، ولكنه انقاد بطيشٍ بغواية التنين[89] إلى فعل الأمور التي لا تليق، إذ أنه لم يحترس من الوقوع في العصيان.

الله كان يعلم أن الإنسان سيسقط وأنه سيخلصه:

هكذا حُكِم على الإنسان بالموت والفساد κατεδικάζετο θανάτῳ καί φθορᾷ[90]، لأن الله رأى أن هذا الحكم هو لصالحه. بمعنى أنه طالما مال

---

[88] لقد أعطى المسيح أهمية جوهرية للحرية، والتي عبَّر عنها في مثل الابن الضال وموقف أخيه الأكبر. ولم يحاول أن يجبر الغني على أن يتبعه (مت ١٩:٢٢). وترك الحرية حتى للاثنى عشر تلميذًا في أن يمضوا: "فقال يسوع للاثنى عشر ألعلكم أنتم أيضًا تريدون أن تمضوا" (يو ٦:٦٧)، ولم يجبر الجموع التي أشبعها على الجبل على أن تمضى وراءه بل تركها. وفى موضع آخر نجده يقول: "ثم قال لهم مَن له أذنان للسمع فليسمع" (مر ٤:٩). لقد كان معلّمًا بالحق حتى وإن تعارض هذا الحق مع كثير من رؤساء اليهود في عصره، ممن مارسوا دورًا تعليميًا مليئًا بالتملق والنفاق.

[89] يقول القديس كيرلس في موضع آخر: "كان الإنسان في الفردوس كما هو مكتوب (تك ٢:٨) حافظًا للعطيّة، مالكًا الصورة الإلهية الروح القدس الذي سكن فيه. ولكن عندما انحرف بغواية الشيطان، وبدأ يحتقر خالقه، ويدوس الناموس الذي أعطاه الله إياه، ويُحزن المُحسن إليه، نزع الله النعمة التي أُعطيت له، وذلك الذي خُلِقَ للحياة سمع لأول مرَّة لأنك "تراب وإلى تراب تعود (تك ٣:١٩). شرح إنجيل يوحنا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد وآخرون، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، المجلد الأول، ٢٠٠٩، ص ١٦١.

[90] انظر القديس أثناسيوس، تجسد الكلمة، فصل ٥: ٣: "فالبشر لم يقفوا عند حد معيّن في خطاياهم بل تمادوا في الشر حتى أنهم شيئًا فشيئًا تجاوزوا كل الحدود، وصاروا يخترعون الشر حتى جلبوا على أنفسهم الموت والفساد، ثم

الإنسان مرةً للخطيئة، وأصاب طبيعته(٩١) مرض(٩٢) الميل للشر، مثل الأرواح النجسة، وانعطف نحو الشر، حسنًا، فبطريقة مُفيدة وُجدَ الموت الجسدى الذي لم يؤدِّ بالإنسان إلى الدمار الكامل، حتى يمكننا القول إن الإناء المكسور حُفِظَ لكي يصير جديدًا بطريقة ما، طالما أنه سيتم إعادة تصنيعه ἀνασκευὴν(٩٣) في الوقت المناسب. لأن ما يحدث أثناء مسيرة الإنسان يتم على النحو التالى: خضوع الإنسان للفساد παθεῖν τὴν φθοράν، أمرٌ لم يجهله الخالق، ولكنه كان يعرف أيضًا، ما هو الحل لهذه الأمور غير المعقولة، ويعرف كيف يُبطل

توغلوا في الظلم والمخالفة و لم يتوقفوا عند شر واحد بل كان كل شر يقودهم إلى شر جديد حتى أصبحوا نهمين في فعل الشر (لا يشبعون من فعل الشر)".

91 *Διανενευκώς γάρ ἅπαξ εἰς ἁμαρτίαν ὁ ἄνθρωπος καί ἀρρωστούσης αὐτῷ τῆς φύσεως τὴν εἰς τά φαῦλα ῥοπὴν*

٩٢ أيضاً القديس كيرلس يشرح حقيقة تجسد الابن لكي يشفي الإنسان من المرض العِضال جرَّاء سقوطه في موضع آخر، قائلاً: "لم يشأ أن يرى هلاك خليقته على الأرض، أعني الإنسان، بل على العكس، فلأجل أنه رأى أن الطبيعة البشرية قد أُصيبت بمرض عُضال، فقد أرسل **كلمته** الذي يستطيع وحده أن يحطم مملكة الشيطان ويحررنا من الشرور التي أمسكتنا في قبضتها" الرسالة الفصحية الأولى، ترجمة د. ميشيل بديع عبد الملك مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مايو ٢٠٠٤، فقرة ٦ ص ٢٨ .

٩٣ يستخدم القديس أثناسيوس تشبيهًا من الحياة العملية كي يوضح حتمية التجسد وضرورة أن يتم إعادة تجديد الخليقة بواسطة **كلمة** الله الذي خُلق العالم به منذ البدء فيقول: "... ولأن الله صالح وهو صالح على الدوام وهو يعرف طبيعتنا الضعيفة التي تحتاج إلى معونته وخلاصه لذا فقط خطط هذا. وذلك مثلما لو كان مهندسًا حكيمًا يريد أن يبنى منزلاً فإنه يخطط في نفس الوقت كيفية تجديده مرة أخرى لو دُمر يومًا ما بعد أن يتم بناؤه، وهو يعد لهذا من قبل عندما يخطط ويعطى القائم على العمل الاستعدادات اللازمة للتجديد. وهكذا يكون استعدادًا مسبقًا للتجديد قبل بناء المنزل... وبنفس الطريقة فإن تجديد خلاصنا قد تأسس في المسيح قبلنا لكي يمكن إعادة خلقتنا من جديد فيه. فالإرادة والتخطيط قد أُعدا منذ الأزل أما العمل فقد تحقق عندما استدعت الحاجة وجاء المخلّص إلى العالم" المقالة الثانية ضد الأريوسيين، فصل ٢٢ فقرة ٧٧. ص ٨٧

ἀναίρεσιν[٩٤] الفساد، ويعيد بناء ἀνακομιδὴν الإنسان إلى الحالة الأفضل لكي يحصل مرةً أخرى على الخيرات التي كانت له منذ البداية. هو يعرف أنه سوف يرسل ابنه في الوقت المناسب في صورة إنسان ἐν ἀνθρωπείᾳ μορφῇ[٩٥] لكي يموت لأجلنا ويُبطل قوة الموت، حتى أنه يصير رب الأموات والأحياء. وبطريقة أخرى نتساءل: ماذا لو لم نؤمن جميعنا؟ إن جمهور المُخَلَّصين ذوي العدد الكثير، سوف يعلنون عن هلاك أولئك الغير المؤمنين، وسوف يُظهر هذا الحشد حزنًا على أولئك الهالكين بدون نتيجة! وكأنهم يقولون؛ حسنًا: «يأكلون من ثمر طريقهم» (أم ١: ٣١)؛ لأنه، بينما كان في إمكانهم أن يخلصوا ـــ لو أرادوا ـــ وأن يتجنبوا الأضرار التي تورطوا فيها فيما بعد، فإنهم لم يقتربوا من الفادي، أي المسيح.

---

[٩٤] يشرح القديس أثناسيوس باستفاضة هذا الأمر في كتابه «تجسد **الكلمة**» قائلاً: «وهكذا إذ اتخذ جسدًا مماثلاً لطبيعة أجسادنا، وإذ كان الجميع خاضعين للموت والفساد، فقد بذل نفسه للموت عوضًا عن الجميع، وقدمه للآب. كل هذا فعله من أجل محبته للبشر، أولاً: لكي إذ كان الجميع قد ماتوا فيه، فإنه يُبطل عن البشر ناموس الموت والفناء، ذلك لأن سلطان الموت قد استُنفد في جسد الرب، فلا يعود للموت سلطان على أجساد البشر (المماثلة لجسد الرب). ثانيًا: وأيضًا فإن البشر الذين رجعوا إلى الفساد بالمعصية يعيدهم إلى عدم الفساد ويحييهم من الموت بالجسد الذي جعله جسده الخاص، وبنعمة القيامة يبيد الموت منهم، كما تبيد النار القش» تجسد الكلمة ٤:٨، ص ٢٢.

[٩٥] يقول القديس كيرلس في موضع آخر: "لم يكن المسيح قد صار وسيطاً باتخاذه هيئة إنسان، لما أمكن لحالتنا إطلاقاً أن تتقدم وتنمو إلى هذه الغبطة العالية جداً؛ أما الآن، فإن اقترب أي إنسان من الآب بروح الإيمان والمعرفة الخاشعة، فإنه سيفعل ذلك بمعونة مخلصنا المسيح نفسه. وأنا أعيد نفس الكلام الذي سبق أن قلته: بقبول الابن حقاً كابن، يمكن الإنسان أن يصل أيضاً إلى معرفة الله الآب: فلا يمكن أن يُعترف بالمسيح كابن، بدون أن يعترف بالآب الذي ولده في نفس الوقت. لذلك فإن معرفة الآب متزامنة بالضرورة ومرتبطة بالإيمان بالابن، وكذلك معرفة الابن مرتبطة بالإيمان بالآب. وهكذا بصواب تام يقول الرب: "ليس أحد يأتي إلى الآب إلّا بي". شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، الجزء الثامن، ص ٣٠ ـــ ٣١.

بناءً على ذلك، أخبرني، عما إذا كان هناك ـــ على سبيل المثال ـــ شخصٌ متخصصٌ في الزراعة، وملأ حديقته بالأشجار المناسبة، و لم تتجنب هذه الأشجار كل الأضرار التي حدثت لأسباب مختلفة، فهل يمكن للمرء عندئذٍ أن يصدق أن هذا الزارع لم يُرِد أن يُفلِّح حديقته بالطريقة السليمة؟ أعتقد أن أحداً لن يدينه، لأن هذا الزارع أظهر اهتمامًا لائقًا بالأشجار التي أنبتها، لكن هذه الأشجار مرضت. إذًا هل كان من الممكن أن نقول إنه كان من الأفضل ألّا يذهب أحدٌ أبدًا لفلاحة الأرض، ولا يجب أن تُزرع النباتات الأكثر جودة في الحديقة، بل بالحرى يتعين على المتخصصين في هذه الحالة أن يوقفوا مناهج علم النبات تمامًا لأن بعض النباتات سوف تُصاب بالضرر؟ كيف لا نكون قد انحرفنا نحو الهذيان، إذا آمنا بصحة هذا؟!

فلا نتذمر إذًا على الخالق، لأنه أحضرنا إلى الوجود ـــ بل بالأحرى ندين ذواتنا، نحن الذين بإرادتنا أصبحنا في معاناة بسبب الشر ـــ لأن ذهننا وفكرنا كانا صالحين.

إذن، فقد أحضر الله الإنسان إلى الوجود وهو يعلم تمامًا أنه سوف يسقط في الفساد، لكنه لم يكن يجهل طرق الشفاء[٩٦]، وهذا ما يؤكده لنا بولس العظيم،

---

[96] نصلي في القداس الغريغوري: "ربطتني οὐκ ἠγνόει δέ καί τούς τῆς θεραπείας τρόπους بكل الأدوية المؤدية إلى الحياة". لقد أتى الشفاء بواسطة تجسد الكلمة، وهذا ما سبق للقديس أثناسيوس التأكيد عليه، إذ يقول: "إن الأعمال الخاصة بالكلمة ذاته مثل إقامة الموتى، وإعادة البصر إلى العميان، وشفاء المرأة نازفة الدم، قد فعلها بواسطة جسده، و**الكلمة** حمل ضعفات الجسد كما لو كانت له، لأن الجسد كان جسده، والجسد خدم أعمال اللاهوت، لأن اللاهوت كان في الجسد، ولأن الجسد كان جسد الله". القديس أثناسيوس الرسولي، ضد الآريوسيين ، المقالة الثالثة، ترجمة د. مجدي وهبة ود. نصحي عبد الشهيد، مراجعة د. جوزيف موريس فلتس ود. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية أبريل٢٠٠٧، ص٦٢.

شاهدًا ـــ وفق معرفة الروح القدس ـــ على قرار الله منذ القدم لأجل خلاصنا بواسطة المسيح. لأنه يكتب في رسالته إلى تلميذه تيموثاوس: «فلا تخجل بشهادة ربنا ولا بي أنا أسيره بل اشترك في احتمال المشقات لأجل الإنجيل بحسب قوة الله. الذي خلّصنا ودعانا دعوة مقدسة لا بمقتضى أعمالنا، بل بمقتضى القصد والنعمة التي أعطيت لنا في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية. وإنما أُظهرت الآن بظهور مخلصنا يسوع المسيح الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل» (١تي ٨: ١٠)، وأيضًا: «ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معا للخير للذين يحبون الله الذين هم مدعوون حسب قصده، لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكرًا بين اخوةٍ كثيرين. والذين سبق فعينهم فهؤلاء دعاهم أيضًا. والذين دعاهم فهؤلاء بررهم أيضًا والذين بررهم فهؤلاء مجدهم أيضا» (رو٨: ٢٨ــ٣٠).

متى أُعطيت النعمة؟

اسمع إذن، إن النعمة أُعطيت بالمسيح قبل الأزمنة الأزلية [٩٧]، وكانت معروفة προεγνῶσθαι وعُيِّنت προωρίσθαι بوضوح من الله الآب لأولئك

---

[97] *Ἀκούεις ὃπως δεδόσθαι φησί εν Χριστῷ χρόνων αἰωνίων* الابن بكونه إلهاً باركنا بكل بركة روحية، وهذا ما أكد علية القديس كيرلس حيث أختارنا قبل تأسيس العالم، إذ يقول القديس كيرلس: «إذن، فنحن نتبارك في اسم الله، لكن كيف يمكن لطريقة إعطاء البركة هذه أنْ تكون مناسبة؟ سنتحقق من ذلك بطريقة جميلة، إذ مكتوب أنّ الكاهن الذي يصلي يجب أنْ يضيف قائلاً: «يُبَارِكُكَ الرَّبُّ وَيَحْرُسُكَ. يُضِيءُ الرَّبُّ بِوَجْهِهِ عَلَيْكَ وَيَرْحَمُكَ. يَرْفَعُ الرَّبُّ وَجْهَهُ عَلَيْكَ وَيَمْنَحُكَ سَلاَماً» (عد ٦: ٢٤ ـــ ٢٦). حسناً، البركة تصون، وتُبطل اللعنة، وتُعيد تشكيل المخطئ حتى يستطيع أنْ يكون محل ثناء ومدح من المسيح. وبولس الرسول يشهد بذلك عندما كتب: «مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَارَكَنَا بِكُلِّ بَرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ، كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ قُدَّامَهُ فِي الْمَحَبَّةِ، إِذْ سَبَقَ فَعَيَّنَنَا لِلتَّبَنِّي

الذين سيصيرون مشابهين صورة ابنه τούς συμμόρφους εσομένους τῆς εἰκόνος τοῦ Υιοῦ αυτοῦ. أي أن طريقة التأنس كانت معروفةً ὁ τῆς ἐνανθρωπήσεως τρόπος من قبل، كما قلت. والشفاء من الأمراض كان مرتبًا له وقته المناسب، كما يؤكد أيضًا بولس حين قال: "وللقادر أن يثبّتكم حسب إنجيلي والكرازة بيسوع المسيح حسب إعلان السر الذي كان مكتوماً في الأزمنة الأزلية. ولكن ظهر الآن وعَلِمَ به جميع الأمم بالكتب النبوية حسب أمر الإله الأزلي لإطاعة الإيمان لله الحكيم وحده يسوع المسيح له المجد إلى الأبد آمين" (رو ١٦: ٢٥ ــ ٢٦). لأن السر الذي ظل مكتومًا، ظهر الآن بالناموس والأنبياء حسب إرادة الله الآب. أي أن نُخلق مرةً ثانيةً بالمسيح، ونعود إلى الحالة التي كانت لنا منذ بدايات الخلق، لأن مكونات حالتنا الأولى، كانت قد تغيّرت في داخلنا، بخداع الشيطان[٩٨] لأن بولس يقول

بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِنَفْسِهِ، حَسَبَ مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ « (أف ١: ٣ ــ ٥). أرأيت كيف أنّ الإنسان الذي طُرد بسبب عصيانه، صار مقبولاً بالتبني عندما نال البركة من خلال المسيح بشركة الروح القدس الذي سمح أنْ ينسكب بغنىً علينا، والذي لم يمنحه للقديسين جزئياً، بل وضعه داخلنا بكل كماله؟» السجود والعبادة بالروح والحق، .مرجع سابق، المقالة الحادية عشر ص ٤٦٣

98 *Ανὲστοιχειώμεθα καί γὰρ ἐν Χριστῷ πρὸς τὸ εν ἀρχαῖς· ἀνατετραμμένων τῶν μεταξὺ παρεισθλη κότων ἐξ ἀπάτης διαβολικῆς.*

يؤكد القديس يوحنا ذهبي الفم على دور الشيطان، قائلاً: «لأن الشيطان قد زرع في قلوب الناس شوك وحسك الخطايا، لذلك جئتُ لأُلقي ناراً على الأرض لأحرق تلك الأشواك. لذلك جئتُ لأُلقي ناراً على الأرض، وأريدها أن تضطرم منذ الآن حتى تطهِّر أرضي، لأنه ينبغي لي أن أُبيد بالنار الأصول المُرَّة والمضرَّة التي زرعها الشيطان، حتى أبذر الزرع السماوي في نفوس نقية. من أجل ذلك جئتُ لأُلقي ناراً على الأرض. لقد جبلتُ الإنسان منذ البدء من تراب الأرض، وأسكنتُ في وسط قلبه شرارة النار الإلهية، حتى أنه بهذه النار يتمسَّك بمحبة الله. ومع أنه من المستحيل أن تُستأصل تماماً هذه الشرارة الإلهية النارية وهذا الدفء الإلهي، إلَّا أن الشيطان قد قتل نفوس الناس بصقيع الفجور. فلكي يحصلوا بثبات على اشتعال الروح القدس فيهم، ينبغي لي أن أُلقي ناراً على

أيضًا عن خلاص الكل بالمسيح: «الذى فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا حسب غنى نعمته. التي أجزلها لنا بكل حكمة وفطنة إذ عرفنا بسر مشيئته حسب مسرته التي قصدها في نفسه، لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض في ذلك الذي فيه أيضًا نلنا نصيبًا معينين سابقًا حسب قصد الذي يعمل كل شيء حسب رأى مشيئته، لنكون لمدح مجده نحن الذين قد سبق رجاؤنا في المسيح» (أف ١: ٧ ــ ١٢). إذن، ها قد تم تعيِّننا نحن أيضًا بالتأكيد، وفق مشورة الآب، وبطريقةٍ ما، اكتسبنا الرجاء الأعظم لوجودنا، حيث أن الله عرف أن الشيطان كان يريد منذ البدء أن يجردنا من كل ما حصلنا عليه.

الخالق أوجد أصلاً جديدًا للجنس البشري:

أي إنه بسبب أن مُبتدع الخطية ὁ τῆς ἁμαρτίας εὑρετής في البدايات خدع آدم، وبسبب تكاسله جعله مذنبًا، هكذا حدث أن انقاد آدم إلى الموت، وانتقل[٩٩] حكم الموت إلى كل البشر، لأن المرض انتقل إلى الفروع التي خرجت

الأرض حتى أُبطل وأُلاشي جليد الفجور الذي غطّى به الشيطان نفوس الناس، فأجعل هذه النفوس تنبت من جديد وتزهر في سكينة ونقاوة.] عظة على لو ١٢:٤٩.

[99] *διαθέθηκε δέ εἰς πάντας ανθρώπους ἡ δίκη.*

انتقال حكم الموت هنا يعني امتداده ليلقي بظلاله على كل البشر. يشبِّه القديس كيرلس عملية تجديدنا بواسطة **الكلمة** المتأنس بالطبيعة التي تزدهر في الربيع، فالطبيعة البشرية مثل نبات أصابه الذبول من جرَّاء الموت بسبب مخالفة الأبوين الأولين، إذ يقول: «هكذا ازدهرت طبيعة الإنسان مرةً أخرى مثل النبات، بعدما أصابها الذبول من جرَّاء الموت بسبب مخالفة آدم والخطية التي تملّكت علينا. اسمع ما يقوله المسيح بفم واحد من الأنبياء القديسين: «أنا هو الذي أتحدث إليك مثل الربيع على الجبال» (أش ٥٢: ٦س). فكما أنَّ الربيع يتوِّجُ الجبال

منه، (لأن الموت ملك من آدم إلى موسى، ولهؤلاء الذين سقطوا في نفس خطية آدم). إذن، هكذا تعهَّد الخالق مخلوقاته وأوجد أصلاً ثانيًا للجنس البشري، الذي أصعدنا إلى عدم الفساد الأول. وكما أن آدم الأول قد صُوِّرَ من الطين وسبَّب لنا الموت، وقيَّدنا بشباك الفساد، هكذا أيضًا آدم الثاني[١٠٠] (المسيح)، عن طريق صيرورتنا مشابهين له بواسطة الروح، قد ختمنا بختم عدم الفساد. وكما أنه بذاك (آدم) وُضِعت لنا عقوبات العصيان، هكذا بالمسيح أظهر لنا أننا نشترك ــ بوداعة وخضوع ــ في بركة الآب[١٠١] السماوية؛ لأنه يقول: «صار آدم الإنسان الأول نفسا حية وآدم الأخير روحًا محييًا» (١كو ١٥:٤٥).

والغابات بنباتات وزروع جديدة، هكذا فإن حضور المسيح يحقق لنا نفس الأمر». السجود والعبادة بالروح والحق، المقالة العاشرة ٣٨٥.

١٠٠ أيضاً يقول القديس كيرلس أثناء شرحه يو ١٢:٢٨: "لأنه في المسيح ــكبواكيرــ فإن طبيعة الإنسان قد استُعيدت إلى جدة الحياة *ἐν γάρ ἀπαρχῇ χριστῷ εἰς καινότητα ζωῆς ἡ ἀνθρώπου φύσις ἀνεκομίζετο.*، وفيه أيضًا قد نلنا اشياءً فوق طبيعتنا .لهذا فإن المسيح في الكتب المقدسة يُدعى آدم الثاني». *In Jo12,28-. Pusey II, 316-317.*

١٠١ هذه البركة أكد عليها القديس كيرلس في موضع آخر، إذ يقول: "إذن، فنحن نتبارك في اسم الله، لكن كيف يمكن لطريقة إعطاء البركة هذه أنْ تكون مناسبة؟ سنتحقق من ذلك بطريقة جميلة، إذ مكتوب أنَّ الكاهن الذي يصلي يجب أنْ يضيف قائلاً: "يُبَارِكُكَ الرَّبُّ وَيَحْرُسُكَ. يُضِيءُ الرَّبُّ بِوَجْهِهِ عَلَيْكَ وَيَرْحَمُكَ. يَرْفَعُ الرَّبُّ وَجْهَهُ عَلَيْكَ وَيَمْنَحُكَ سَلاَماً" (عد ٦: ٢٤ ــ ٢٦). حسناً، البركة تصون، وتُبطل اللعنة، وتُعيد تشكيل المخطئ حتى يستطيع أنْ يكون محل ثناء ومدح من المسيح. وبولس الرسول يشهد بذلك عندما كتب: "مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَارَكَنَا بِكُلِّ بَرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ، كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ قُدَّامَهُ فِي الْمَحَبَّةِ، إِذْ سَبَقَ فَعَيَّنَنَا لِلتَّبَنِّي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِنَفْسِهِ، حَسَبَ مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ" (أف ١: ٣ ــ ٥). أرأيت كيف أنَّ الإنسان الذي طُرد بسبب عصيانه، صار مقبولاً بالتبني عندما نال البركة من خلال المسيح بشركة الروح القدس الذي سمح أنْ ينسكب بغنىً علينا، والذي لم يمنحه للقديسين جزئياً، بل وضعه داخلنا بكل كماله؟" السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، المقالة الحادية عشر ص٤٦٣

وهو يوضح نفس الأمر بطريقة أخرى قائلاً: «الإنسان الأول من الأرض ترابي. الإنسان الثاني الرب من السماء. كما هو الترابي هكذا الترابيون أيضًا. وكما هو السماوي هكذا السماويون أيضًا. وكما لبسنا صورة الترابي سنلبس أيضًا صورة السماوي» (١ كو ١٥: ٤٧ ــ ٤٩).

وأيضًا: «المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنةً لأجلنا؛ لأنه مكتوب ملعون كل من عُلِّقَ على خشبة» (غلا ٣: ١٣)، لأنه كما هو مكتوب: «أخلى ذاته» (في ٢: ٨)، وطالما أن كلمة الله وحيد الجنس قد نزل إلى طبيعتنا لا لكي يخضع معنا للموت[١٠٢] ــ فإن آدم هو الذي نقل إليه (أي إلى المسيح) الموت، أي إلى ذاك الذي يعطي الحياة للكل ــ وذلك ليحرر الجنس البشري الذي كان مُستعبدًا للفساد، مُشكِّلاً إياه بطبيعة تقبل الحياة؛ ولهذا (الغرض) بالضبط اتخذ المسيح جسدًا.

هذا ما كتبه بولس الحكيم: «فإنه إذ الموت بإنسان أيضًا قيامة الأموات لأنه كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيُحيا الجميع» (١ كو ١٥: ٢١ ــ ٢٢). لأنه يكون من الجهل أن نعتقد بأن قوة لعنة آدم الذي كان أرضيًا وإنساناً قد نُقلت بطريقة طبيعية إلى الجنس البشري كما لو كانت ميراثًا καθάπερ τινά κλῆρον، بينما نزعم أن هؤلاء الذين يفضِّلون أن يعيشوا معه حياة

---

[١٠٢] بالتأكيد لم يخضع معنا للموت كأنه فعل ما يستحق أن يموت بسببه، حاشا! إنه حمل عنَّا ولأجلنا خطية العالم، إنه حمل الله كما قال يوحنا المعمدان، وهذا ما أكد عليه القديس كيرلس في شرحه لنص يو ١: ٣٥ ــ ٣٦، إذ يقول: "لقد أشار إليه المعمدان من قبلْ، ولكن ها هو يعيد نفس الكلمات، ويشير لتلاميذه أن يسوع هو حمل الله الذي يسير أمامه وأنه هو الذي يرفع خطيّة العالم. هذه الشهادة تهدف إلى أن تُذكِّر السامعين بالذي قال في الأنبياء "أَنَا أَنَا هُوَ الْمَاحِي ذُنُوبَكَ لأَجْلِ نَفْسِي وَخَطَايَاكَ لاَ أَذْكُرُهَا" (أشعياء ٤٣: ٢٥)". شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ١٦٧.

الإيمان لا يشتركون في الحياة الغنية التي لعمانوئيل الذي أتى من فوق ومن السماء وهو من طبيعة الله وهو الذي صار شبيهًا بنا، أي صار آدم الثاني. لأننا صرنا جسدًا واحد معه بواسطة البركة السرائرية(١٠٣). واتحدنا بطريقة أخرى معًا، لأننا صرنا شركاء طبيعته بواسطة الروح(١٠٤). لأن الروح سكن في نفوس القديسين، وكما يقول يوحنا الطوباوى: «وبهذا نعرف أنه يثبت فينا من الروح الذي أعطانا» (١ يو ٣: ٢٤).

---

103 *Σύσσωμοι μέν γὰρ γεγόναμεν αὐτῷ δὶ εὐλογίας τῆς μυστικῆς.*

والقديس كيرلس يشرح هذه الحقيقة من خلال حديثة عن الخدمة المقدسة في الخيمة، إذ يقول: «كما تشير المائدة حيث يُوضع الخبز، إلى الذبيحة غير الدموية، التي بها نأخذ البركة، متناولين الخبز السماوي، أي المسيح الذي أخذ شكلنا، بالرغم من أنه كان ويكون وسيظل هكذا، الله الذي أتى من العلاء ومن الآب وهو فوق الكل كملك ورب الكل». السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء السابع، المقالة الثالثة عشر ص ٧٥ ــ ٧٦.

104 *ὅτι τῆς θείας αὐτοῦ φύσεως γεγόναμεν κοινωνοὶ διὰ τοῦ πνεύματος.*

أي يجعلنا شركاء الطبيعة الإلهية كما قال الرسول بطرس (٢ بط ١: ٤) بواسطة الروح القدس، وهنا يبرهن القديس كيرلس على ألوهة الروح القدس من خلال عمل الروح فينا. والجدير بالذكر أن القديس أثناسيوس سبق أن استخدم نفس البرهان، قائلاً: «فلو كان الروح القدس مخلوقاً، لما كان لنا اشتراك في الله بواسطته. فإن كنا قد اتحدنا بمخلوق فإننا نكون غرباء عن الطبيعة الإلهية حيث إننا لم نشترك فيها. أمّا الآن فلكوننا نُدعى شركاء المسيح وشركاء الله، فهذا يوضّح أن المسحة والختم الذي فينا، ليس من طبيعة المخلوقات بل من طبيعة الابن، الذي يوحّدنا بالآب بواسطة الروح الذي فيه. هذا ما علّمنا إياه يوحنا ــ كما قيل سابقاً ــ عندما كتب: «بهذا نعرف أننا نثبت في الله وهو فينا أنه قد أعطانا من روحه» (١ يو ٤: ١٣). ولكن إن كنا بالاشتراك في الروح نصير «شركاء الطبيعة الإلهية» (٢ بط ١: ٤)، فإنه يكون من الجنون أن نقول إن الروح من طبيعة المخلوقات وليس من طبيعة الله، القديس أثناسيوس الرسول، رسائل إلى الاسقف سيرابيون عن الروح القدس، ترجمه ومراجعة د. نصحي عبد الشهيد ود. موريس تاوضروس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية نوفمبر ٢٠٠٥، طبعة ثانية، الرسالة ١: ٢٤.

إذن، فهذا هو حياتنا، هذا هو برنا[١٠٥]. مكتوب أيضًا: «فإذًا كما بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة» (رو ٥: ١٨).

وأيضا: «لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خطاه، هكذا أيضا بطاعة الواحد سيُجعل الكثيرون أبرارًا» (رو ٥: ١٩).

إذًا فمن الواضح أنه على مثال آدم الأول تأسَّس سِرُّ المسيح، ليس بالطبع بتكرار نفسه في صورة آدم القديمة، لكن بطريقة مختلفة وعكسية. لأن الأول كان من أصل الجنس البشرى، وهو بداية مؤدية للموت واللعنة واللوم، بينما الثاني

105 *αὐτος ἐστιν ἡμῶν ἡ ζωή· αὐτός ἡ δικαίωσις.*

أيضًا يؤكد القديس أثناسيوس على أن المسيح هو الحياة، قائلاً: «فالموت الذي قَبِلَه واحتمله على الصليب قد أوقعه عليه آخرون ـــ الذين هم أعداؤه، ظانين أن هذا الموت مرعب ومهين ولا يمكن احتماله ـــ لكن المسيح أباد هذا الموت، فآمن الجميع أنه هو الحياة، الذي به تتم إبادة سلطان الموت كلية» انظر: تجسد الكلمة، المرجع السابق، ٢٤:٣. كذلك يشرح القديس كيرلس في كتابة: حوار حول الثالوث، هذه الحقيقة على أساس أن الابن يستمد الحياة من الآب بحسب الطبيعة، بالتالي فإن فعل الإحياء هو للآب وللابن، إذ يقول: «لأن الآب هو الحياة، فقد استمد الابن الحياة منه حسب الطبيعة، مُظهِراً بذلك جوهر الذي وَلَده. ولأنه هو في الآب تماماً، والآب هو ـــ بالكمال ـــ فيه، لهذا نقول إن الفعل هو فعل الآب والابن، ولهذا أيضاً، فإن الابن وهو يشير إلى أن ما يفعله الآب يفعله هو أيضاً، يوضّح تماماً أن كل أفعاله هي مساوية لأفعال الآب وذلك بسبب أنه هو واحد مع الآب في الجوهر» أنظر حوار حول الثالوث، الجزء الرابع، الحوار الخامس، ص ٤٩. أيضاً برهن القديس كيرلس على أن المسيح هو برنا في شرحه لإنجيل يوحنا، إذ يقول: «تدعو الأسفار الإلهية الابن بأسماء كثيرة ومختلفة: فهو يُسمَّى أحياناً «حكمة وقوَّة الآب» مثلما قال بولس «فَبِالْمَسِيحِ قُوَّةِ اللهِ وَحِكْمَةِ اللهِ» (١ كور ١: ٢٤)، ودُعيَّ أيضاً «النور والحق» مثلما رتَّل أحد القديسين في المزامير « أَرْسِلْ نُورَكَ وَحَقَّكَ» (مز ٣:٤٣)، ويدعى أيضاً «البّر» «أحييني في برِّك» (مز ٤٠:١١٩). لأن الآب يُحيي في المسيح كل الذين يؤمنون به». شرح إنجيل يوحنا، المرجع السابق، مرجع سابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٥٣.

على العكس تمامًا هو بداية تعطي الحياة والبركة والبر[١٠٦]. وآدم بالتأكيد قَبلَ المرأة كجسدٍ وأُتلِف بواسطتها، بينما المسيح، وحَّد الكنيسة بنفسه بواسطة الروح، وفداها وخلَّصها وجعلها أسمى من الخداع الشيطاني. لذلك آمنا ونقول: «إننا لا نجهل أفكاره» (٢ كو ٢: ١١). وكما أن آدم قَبلَ الموت كنتيجةٍ للخطية وللعصيان، أصبح التبرير بواسطة المسيح جرمًا بحسب جهل اليهود، هكذا، فإنه بألم الموت كُلِّل المسيح بالكرامة والمجد بحسب كلمات بولس الطوباوى (انظر عب ٢: ٩ وفي ٢: ٩). وبصعوبةٍ بالغةٍ خضعت الأرضيات فقط لآدم، بينما أُخضعت كلُّ الأشياء للمسيح. لأنه يقول: «لكي تجثو باسم يسوع كلُّ ركبةٍ ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض. ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو ربٌّ لمجد الله الآب» (في ٢: ١٠ ــ ١١).

٢ــ عن قايين وهابيل

كما قلتُ سابقًا، فالطبيعة البشرية خضعت للموت والخطية بآدم، كرئيسٍ للجنس البشرى، ولم تُفتدى بأية طريقة سوى بالمسيح فقط δία μονου Χριστοῦ[١٠٧]. لأنه كما كتب تلميذه: «لأن ليس اسمٌ آخر تحت السماء أُعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص» (أع ٤: ١٢).

---

[106] *ὁ μὲν γὰρ ἦν ἀρχὴ τῷ γένει‘ πρὸς θάνατον‘ πρὸς ἀράν‘ πρὸς κατάκρισιν‘ ὁ δὲ πρὸς πᾶν τοὐναντίον‘ εἰς ζωήν‘ εἰς εὐλογίαν‘ εἰς δικαίωσιν.*

[١٠٧] يؤكد القديس كيرلس أثناء حديثة عن المذبح الترابي (خر٢٤: ٢٠ ــ ٢٥) على أنه لا يستطيع أحد أن يُفتدى ويقترب من الآب إلا فقط بالمسيح، إذ يقول: "فنحن لا نقترب إلى الآب إلَّا بواسطة الابن، حسب قوله: "ليس أحد يأتي إلى الآب إلَّا بي" (يو ١٤: ٦). وإذا كان الإتيان إلى الآب بواسطة الابن بمثابة قانون حتمي، فقد وضع لهم شريعة الأمثلة الحاملة للثمار

أي أنه كان يلزم أن هذا، الذي خُلِقَ بواسطته كل شيء[١٠٨]، أن يصير هو نفسه الذي يجدِّد كل ما قد فسد ويشفي جُرح الخطية، ويُبطل الحزن ويمنح الوجود الحسن εὖ εἶναι مرةً ثانيةً بغنًى لأولئك الذين خلقهم. لأنني على الأقل أُرجع هذا حقًا إلى قوته الإلهية وسلطته، فإنه أنجز كل شيءٍ بطريقةٍ مجيدةٍ، واستطاع أن يأتي بالكل من العدم إلى الوجود ἐκ τοῦ μὴ ὄντος εἰς τό εἶναι[١٠٩]. وأعاد كل الأمور التي كانت صالحة وبلا دنس إلى حالتها الأولى الصالحة πρὸς το εὖ εἶναι καλεῖν بعدما أفسدها الخطيئة. وقد كانت صورة آدم مثالاً τύπος لذلك. ويمكن أن نرى في آدم نفس الصورة التي جدَّدها المسيح وليس أقل منها، لأن الله الآب جَمَعَ في المسيح كل ما في

بواسطته قائلاً: "مذبحاً من تراب تصنع لي وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك غنمك وبقرك في كل الأماكن التي فيها اصنع لاسمي ذكراً آتي إليك وأباركك. وإن صنعت لي مذبحاً من حجارة فلا تبنه منها منحوتةً، إذا رفعت عليها أزميلك تدنسها" (خر ٢٠: ٢٤ ــ ٢٥).وتأكيداً لذلك، يُشير المذبح الترابي إلى عمانوئيل؛ لأنه يقول: "الكلمةُ صار جسداً" (يو ١: ١٤). وإذا كانت طبيعة الجسد هي تراب من تراب، إذن فكلُ ثمرةٍ وكلُ اقتراب، يصير بالمسيح؛ لأنه هو نفسه الذي قال: "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً" (يو ١٥: ٥). وكما أننا نحقق اقترابنا إلى الآب بواسطته، هكذا كل ذبيحة لأولئك الذين قبلوا الإيمان، تصير مقبولةً بواسطته؛ لأنه يَعد أولئك الذين أقاموا مذبحاً من تراب أنه سوف يأتي إليهم ويباركهم؛ لأنه يقول: "آتي إليكم وأباركم". أنظر السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع السابق، المقالة التاسعة ص ٣٣٩.

١٠٨ بحسب صياغة القديس أثناسيوس: "لأنه مثلما ينير النور كل شيء بأشعته وبدون إشعاعه ما كان شيء قد أضاء، هكذا أيضاً فإن الله قد خلق كل شيء **بالكلمة** كما بواسطة يد، وبدونه لم يخلق شيئاً" ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، فقرة ٣١ ص٦٤. والجدير بالذكر أن أول من شبَّه الابن باليد هو القديس ايرينئوس، إذ قال: "أما الإنسان فقد خلقه بيديه". القديس إيرينئوس، الكرازة الرسولية، طبعة ثانية، فبراير ٢٠٠٩، ص ٧٦.

١٠٩ هنا نستطيع أن نرى الفرق بين فعل الخلق الخاص بالله وحده ــ الثالوث القدوس، وهو إحضار الكائنات إلى الوجود من العدم، وبين التقدم التكنولوجي والعلمي الذي يعكس إمكانيات الإنسان العظيمة. فالله بكونه خالقاً أوجد الكائنات من العدم، أما الإنسان فإنه يعمل شرط وجود مادة مسبقة. ففعل الإبداع عند الإنسان يتم على شيء بالفعل موجود.

السموات وما على الأرض[١١٠]. وهذا الذي سقط في تلك الخطيئة التي لا تليق رُفِعَ إلى حالته الأولى لأن المسيح الرب أزال كل تغيير نتج عن السقوط، وهكذا تجدَّدت الطبيعة الأرضية وتحولت إلى خليقة جديدة. لأن بواسطته جُدِّدت الخليقة[١١١]، وصادقة هي الكلمة.

---

١١٠ *Ἀνακεφαλαιοῦ ται γὰρ ἐν Χριστῷ τά τε ἐν τοῖς οὐρανοῖς καὶ τὰ ἐπὶ τῆς γῆς ὁ θεός καὶ Πατήρ.* إن قلب تعليم إيرينيوس عن المسيح، بل محور وقلب كل تعليمه اللاهوتي هو رؤيته الخاصة بـــ «جمع الكل في المسيح». واضح أن القديس إيرينيوس استعار هذا التعبير من بولس الرسول في رسالته إلى أفسس (١:١٠) «لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح». ثم امتد بهذه الفكرة امتدادًا كبيرًا حتى صارت فكرة «جمع كل شيء في المسيح» تحوي كل تعليمه عن التجسد والفداء وحلول الروح القدس وتأسيس الكنيسة، وكون أن المسيح رأس الجسد، أي «الكنيسة». فيقول إيرينيوس إن «جمع كل شيء في المسيح» يشمل أخذ كل الأشياء منذ البداية وجعلها في المسيح. فالله أعاد الخطة الإلهية الأولى الخاصة بخلاص الجنس البشرى التي انقطعت بسقوط آدم، وهو يجمع كل ما عمله منذ البداية لكي يجدّد، ولكي يرد، ولكي يعيد تنسيق كل شيء في ابنه المتجسد، الذي يصير بهذه الطريقة هو آدم ثانٍ لأجلنا. وحيث إنه بسقوط الإنسان ضاع كل الجنس البشري، فكان يلزم أن يصير ابن الله إنسانًا لكي يتمّم إعادة خلق جنس البشر: «المخلوقات التي هلكت كان لها جسد ودم لأن الرب صنع الإنسان من تراب الأرض، ولأجله حدثت كل تدبيرات مجيء الرب. لذلك أخذ لنفسه جسدًا ودمًا جامعًا في نفسه ليس إنسانًا آخر معينًا، بل ذلك الإنسان الأول الذي خلقه الآب، إذ أنه كان يطلب ذلك الذي كان قد هلك» .(AH5:14:2) وبهذا» الجمع «للإنسان الأصلي في المسيح تم تجدّيد ورد، ليس آدم الأول شخصيًا فقط، بل وكل الجنس البشرى، إذ يقول» :حينما تجسد وصار إنسانًا، جَمَعَ في نفسه كل تاريخ الإنسان الممتد جامعًا إيانا ومعطيًا لنا الخلاص لكي ننال مرةً أخرى في المسيح يسوع ما قد فقدناه في آدم، أي صورة الله ومثاله .(AH3:18:1) «

١١١ عن الخليقة الجديدة في المسيح، أثناء حديثة عن مذبح البخور يقول القديس كيرلس: " لأن فرائض الناموس أُبطلت بالمسيح، والظلال وصلت إلى نهايتها. هذا ما يشير إليه عدم إصعاد محرقة أو تقدمةٍ أو سكيبٍ فوق مذبح البخور. وهو ما يؤكده النبي قائلاً: "اِنْقَطَعَتِ التَّقْدِمَةُ وَالسَّكِيبُ عَنْ بَيْتِ الرَّبِّ. نَاحَتِ الْكَهَنَةُ خُدَّامُ الرَّبِّ" (يؤ ١: ٩). أي أنه طالما ظهر السجود والعبادة بالروح والحق، صارت الظلال عديمة النفع، وعبادة النماذج صارت بلا فائدة تماماً. لأن خليقةً جديدةً صارت بالمسيح بعد مجيء الحق، كل الذين يطلبون برّهم في الناموس يفقدون النعمة. لأنه يقول: "لا تصعدوا عليه بخوراً غريباً" (خر ٣٠: ٩). السجود والعبادة بالروح والحق، المقالة التاسعة، ص ٣٦٨-٣٦٩.

فلنرَ في هابيل وقايين أيضًا سر المسيح الذي به خلُصنا.

حسنًا، مكتوبٌ في التكوين: «وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين. وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب. ثم عادت فولدت أخيه هابيل. وكان هابيل راعيًا للغنم وكان قايين عاملاً في الأرض. وحدث من بعد أيام أن قايين قدَّم من أثمار الأرض قربانًا للرب. وقدَّم هابيل أيضًا من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قايين جدًا وسقط وجهه. فقال الرب لقايين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك. إن أحسنت أفلا رفع. وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها» (تك ٤: ١ — ٧). وبعد ذلك: «كَلَّمَ قايين هابيل أخيه. وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك. فقال لا أعلم. أحارسٌ أنا لأخي. فقال ماذا فعلت. صوت دم أخيك صارخ إليَّ من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها تائهًا وهاربًا تكون في الأرض. فقال قايينُ للرب ذنبي أعظم من أن يُحتمل. إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون تائهًا وهاربًا في الأرض. فيكون كل من وجدني يقتلني. فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف يُنتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن» (تك ٤: ٨ — ١٦).

قايين استعمل كل قوته لأجل التمتع بجمال وثمار الأرض:

قايين وهابيل وُلِدا من أبٍ واحدٍ هو آدم، وكانا مثل فرعين جميلين يحملان أزهارًا جميلة وكلاهما نبتا من البداية من الجذر الأول، وطبيعتهما البشرية أراد لها الله أن تكون مثمرة، وقد بدأت الوصية «أثمروا وأكثروا» (تك ١:٢٨) على الفور في التطبيق وأصبحت سارية. وكان قايين قد سبق هابيل في زمن ولادته، وكل الأطفال والشباب الذين جاءوا بعد ذلك كان يتغذون مثل طيورٍ من والديهم، لكن عندما صارا ناضجين وأصبحا رجلين تحولا إلى اهتمامات مختلفة. فانجذب قايين بحسب رأيي، إلى جمال الأرض الخضراء شاهدًا إياها مملوءةً بالأشجار الجميلة وخصبةً جدًا، ومزينةً بثمارٍ جميلةٍ، ورأى أنه ينبغي ــ عن طريق فلاحتها ــ أن يجعل منظر هذه الأشياء التي يراها أكثر جمالاً، وتأمَّل هذه الأشياء التي ــ وبطريقة طبيعية من ذاتها ــ كانت فاتنة، ووصلت إلى جمال فائق بدون تدخلٍ من أحد، كما أنها كانت طبيعية أيضًا. فالأرض والأشجار إذا قبلت الفلاحة الزراعية فيها فيمكنها أن تبدو على جمال منقطع النظير. حسنًا، لقد عمل قايين كفلاحٍ متعلمٍ تعليمًا ذاتيًا (من نفسه)، وبذل كل قوته لكي يتمم هدفه. ربما علَّمته الطبيعة أن يعرف كل هذا، بل إن فكرًا إلهيًا وناموسًا سريًا وَضَعَ فيه معرفة هذه الأشياء التي أرادها. حسنًا، لقد أفلح قايين في أن يحقق كل هذا بحماسٍ واجتهاد.

هابيل يمارس الرعي كوسيلة لقيادة البشر:

أمَّا هابيل الحكيم، فقد ترك تعب زراعة الأشجار والفأس، وبسبب أنه لم يتحمل المنجل، اتجه نحو قطعان الخراف. ربما يكون قد اتجه إليها عن طريق

الحملان التي كانت تموء نحو أُمهاتها في رقة المشاعر والتي كانت تبكي دائمًا بإحساسٍ رقيق، كما أنها كانت تقفز داخل حقول الأزهار، وكان بعضها يستند على الأخرى. وشاهد هابيل أيضًا قطعان الماعز وهي تموء باستمرار وتقفز بسهولةٍ على قمم الصخور. وبقرار جميل اختار هابيل الاشتغال بالرعي. ولأنه حكيم جدًا، فقد اتجه إلى هذا العمل، وكأنه دراسة لفن قيادة البشر، واعتقد هابيل أن المرعى يجب أن يكون هكذا.

وهناك عادة أن يُطلَق لقب رعاة على الكُتَّاب اليونانيين ورؤساء الأمم أو المدن أو الشعوب، كما أن الكتاب المقدس نفسه يُطلق عليهم هذا اللقب أيضًا. حسنًا، هذان الشابان: الواحد مال إلى الزراعة والآخر إلى الرعي. وكلما مر الزمن على قايين زرع حدائق بأشجار كثيفة مملوءة بثمار جميلة، بينما أخذ هابيل يرعى قطعان لا تحصى من الخراف التي تجمعت حوله. وبعد ذلك أملى ناموس معرفة الله المغروس فينا νόμος δ ἐν ἡμῖν ἐμφύτου θεογνωσίας[١١٢]

---

[١١٢] يوضح القديس يوحنا ذهبي الفم أن هناك ناموساً طبيعياً لدى الأمم أثناء شرحه لنص رسالة رومية: «لأن الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس هم ناموس لأنفسهم» (رو ٢: ١٤) حيث يقول: «والرسول بولس هنا لا يرفض الناموس، بل على العكس هو يُبرر الأمم من خلال الناموس أيضًا. أرأيت كيف أنه يُقوض مجد اليهودية، ولا يستطيع أحد أن يشتكي عليه، باعتبار أنه يسيء إلى الناموس؟ لكن على العكس، فإنه يُظهر كل الأشياء كما هي، فيرفع من شأن الناموس ويُظهر فضله. وعندما يقول «بالطبيعة» يقصد الأفكار الفطرية، ويُظهر كيف أن البعض أفضل من هؤلاء اليهود. والأمر الأكثر أهمية بالنسبة له، إنهم صاروا أفضل مع أن ليس عندهم الناموس، الذي يفتخر به اليهود على الأمم. ولهذا تحديدًا يقول إن الأمم مستحقون للتقدير، لأنهم لم يتسلموا الناموس، ومع ذلك عملوا بكل وصاياه. وعبّروا عن أفكارهم بأعمالهم وليس بالكلام فقط. لأنه يقول: «الذين يظهرون عمل الناموس مكتوبًا في قلوبهم شاهدًا أيضا ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة. في اليوم الذي فيه يدين الله سرائر الناس حسب إنجيلي بيسوع المسيح» (٢: ١٥، ١٦).

على الرجلين أن يقدِّما ذبيحة شكر لله، خالق الكل ومعطى كل الخيرات لنا. لأنه على الرغم من أن هدف أولئك الذين يعبدون الأصنام هو أن يعرفوا مَنْ هو خالق الكل، إلّا أنهم ـــ في عبادتهم للأصنام ـــ لم يعرفوه إلّا كمجرد مخلوق فاسد، ولا يُرى فيه الحق، بالرغم من أن الله كان قد غرس فيهم ناموسًا داخليًا حثّهم فيه على أن يدركوا بذواتهم أنه يجب عليهم أن يفكروا في هذا الذي هو فائق على الإنسان وأعظم منه بما لا يقارن، أي الله.

هابيل يقدِّم أفضل ما عنده وقايين يحتفظ لنفسه بالإنتاج الأجود:

حسنًا، قدَّم هابيل الكاهن والحكيم أجمل وأفضل ما عنده. لأنه مكتوب: «وقدَّم هابيل أيضًا من أبكار غنمه ومن سمانها» (تك ٤:٤)، أي أفضل وأحسن ما عنده، ولم يكن يجهل الطريقة الطقسية καὶ τόν τῆς ἱερουργίας οὐκ ἀγνοήσας τρόπον، فقدَّم أسمن أبكار غنمه. وعلى العكس من ذلك، لم يفعل قايين نفس الأمر، ولكنه قدَّم تقدمته بتغافلٍ وعدم اكتراث πολύ δέ

«أرأيت كيف أنه يشير أيضًا إلى يوم الدينونة، ويجعله قريبًا، وينذرهم، موضحًا كيف أنه ينبغي تكريم أولئك الذين اهتموا بأن يعملوا بوصايا الناموس بدون الناموس؟ لكن ما ينبغي أن نُعجب به بشكل خاص هو رؤية الرسول بولس، وهذا ما يستحق أن نتكلم عنه الآن. لأنه بعدما أظهر بالدليل، كيف أن اليوناني هو أسمى من اليهودي، لم يُشِر إلى هذا كنتيجة بجملة مُسلم بها، حتى لا يثير سخط اليهودي. ولكي يكون قولي أكثر وضوحًا، سأشير إلى كلامه هو نفسه حيث قال: «لأن ليس الذين يسمعون الناموس هم أبرارًا عند الله، بل الذين يعملون بالناموس هم يبررون». وقد كان متوقعًا أن يقول: «لأن الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس» هؤلاء هم أفضل بكثير من أولئك الذين لديهم الناموس» شرح رسالة رومية، ترجمة د. سعيد حكيم يعقوب مراجعة د. جوزيف موريس فلتس د.جورج عوض إبراهيم، المركز الأرثوذوكسي للدراسات الآبائية، ٢٠١٣م، الإصحاح الأول، ص ١٥٠-١٥١.

λίαν ἀτημελῶς، إذ أنه احتفظ لنفسه بأفضل إنتاج ناضج ليستمتع به، وهكذا سبَّب حزنًا لله خالق الكل عن طريق تقديم إنتاج ذي جودة أقل. وهكذا نزلت على تقدمة هابيل نارٌ من السماء والتهمت التقدمات المذبوحة، أما بالنسبة لقايين فيقول الكتاب: "إلى قايين وقربانه لم ينظر" (تك ٤:٥)؛ لأن الله لم يرسل النار التي كانت تنزل عادةً على التقدمات[١١٣]. بسبب هذا تضايق قايين جدًا واضطرب مرتعبًا، وهو يعلم بتحول الله عنه، وعرف حقيقة أن هابيل حقق النجاح الأعظم. ومع ذلك لم يُظهر قايين أي تصحيح لأخطائه، ولكنه سلَّم نفسه كثور هائج لانفعالاتٍ حادةٍ. فقد شرع أول المولودين من البشر، الجاحد الحسود[١١٤] والمنتقم، في النفور من إله الجميع، وتصرَّف بمكرٍ ضد الله الذي أحبه وداس ناموس الحنان καὶ νόμον ἐπάτει φιλοστοργίας واتخذ له عقلاً مملوءً من النزعات الشيطانية الرديئة والأفكار الدنسة، ولكنه تظاهَر بالصلاح بكلمات لينة فيقول: "ليتنا نذهب إلى السهل" (تك ٤:٨س). فقد دعا أخيه ليذهب إلى الحقول ليرى كيف أنه إنسانٌ صالحٌ، ولكي يتمتع بمنظر الأزهار الجميلة. لقد فكَّر، ولكنه كان فاجرًا في تفكيره، إذ قتل أخيه جاعلاً إياه أول

---

١١٣ سبق للقديس يوحنا ذهبي الفم التأكيد على هذا الأمر، إذ يقول: "بالإيمان قدم هابيل لله ذبيحة أفضل من قايين فيه شُهد له أنه بار إذ شهد الله لقرابينه وبه وإن مات يتكلم بعد" عب ١١:٤. وما هي الطريقة التي شُهد بها له بأنه بار؟ قيل لأنه نزلت نار من السماء وأخذت الذبيحة المقدمة، لأن الكتاب يقول "فنظر الرب إلي هابيل وقرابينه". فالله شهد له بأنه بار بالأقوال والأفعال" شرح الرسالة إلى العبرانيين، ترجمة د. سعيد حكيم يعقوب مراجعة د.جورج عوض إبراهيم، المركز الأرثوذوكسي للدراسات الآبائية، طبعة ثانية ٢٠١٥م، الإصحاح الحادي عشر، ص ٣٠٠ ـــ ٣٠١

١١٤ أيضاً بحسب تعبير القديس ذهبي الفم: "فقد قتله حسدًا بسبب أنه وجد نعمة في عيني الله" المرجع السابق.

إنسان يذوق الموت. وهكذا، ألم يكن قايين معلّمًا لكيفية قتل البشر[١١٥] وعندما سأله الله بعد ذلك قائلاً: "أين هابيل أخوك" (تك ٤ :٩)، كَذِبَ البائسُ وأجاب بجسارةٍ قائلاً: "لا أعرف"، لكن بسبب أنه كان قاتلاً وعذّبته لعنات الله تأكد أنه سوف يموت أيضًا، ولو بدون رضى الله، ويكون موته بسبب غضب الله. لأنه يقول: "إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون تائهًا وهاربًا في الأرض. فيكون مَن وجدني يقتلني" (تك ٤ :١٤).

على أية حال، فقد عَرِفَ أنه سوف يكابد اللعنات والعقوبات على جرائمه، ماضيًا في حياةٍ بائسةٍ على الأرض؛ إذ أعلن الله بكل وضوح أن "كل مَن قتل قايين فسبعة أضعاف يُنتقم منه. وجعل الرب لقايين علامةً لكي لا يقتله كلٍ من وجده" (تك ٤: ٥). وواضح أن الله استخدم رقم سبعة رمزًا لكلمة "كثيرًا"، وكأنه أراد أن يقول، هذا الذي يخلصه من الحياة الأرضية سوف يضيف جرائم أكثر إلى قايين قاتل أخيه.

قايين يسقط في سبع خطايا:

لكن إذا فضّل شخصٌ أن يستخدم لفظة «سبعة ἑπτὰ» ليعرِّف بها الخطايا التي يعاقَب عليها قايين، فلن يكون من الصعب تعدادها. أول خطية لقايين: هي أن اختياره لم يكن جيدًا، ولا هو قدَّم لله أفضل ما عنده. الثانية: هي عدم توبته عندما ارتكب الخطية، ولم يصحح خطأه، ولكنه انحدر إلى انفعالات غاضبة واغتاظ من نجاح أخيه الذي كان يجب بالحري أن يتمثل به ولا يعتبره عدوًا، ولا

---

115 καὶ τῆς εἰς μιαιφονίαν ὁ δοῦ τῇ ἀνθρώπου φύσει διδάσκαλος ἦν;

ينظر إليه بعين الحقد. الثالثة: أدخل بوحشيته فكرة أن يكون الإنسان حسودًا ووحشيًا. الرابعة: هي ما قاله لهابيل أخيه: "دعنا نذهب إلى السهل"، والتي تمثل علامةً تدل على الخداع والضلال. الخامسة: جريمة القتل الجاحدة. السادسة: هي أنه تحدَّث كذبًا مع الله. والسابعة: هي أنه بدون إرادة الله اعتقد أنه يستطيع أن ينفذ العقوبات ويتخلص من حياته بإرادته، "لكن الله جعل لقايين علامةً لكي لا يقتله كل من وجده، فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرق عدن" (تك ٤:١٦). وهكذا أحيط في الحال باللعنات وتبعته خطيئة النفور (الكراهية). فكيف كان من الممكن لهذا الذي وصل فعلاً إلى قمة كل شر أن يتمتع برعاية وبركة الطبيعة كلية القداسة والطهارة ἡ πάναγνος καὶ ἁγιωτάτη φύσις؟

إن ما قيل لنا الآن، قيل بطريقةٍ عامة، وعلى نحو تاريخي، ولكن فلنتقدم ونحاول بطريقةٍ ما أن نغيِّر ألوان هذه الصورة التاريخية، وننقل ظلال الحقيقة، ونتقدم للبحث في سر الحوادث الغامضة[١١٦]. عندئذٍ يمكن لنا أن نرى سر المسيح يُعلَن في البدايات التي تحدث في شكل الظلال؛ لأنه بما أن الطبيعة البشرية قد انعطفت ناحية الخطية وغُلِّفت بشباك الموت، فيجب أن يعلَن سر السمو إلى

[١١٦] هنا القديس كيرلس عمود الدين، بعدما استعرض الحدث التاريخي يبدأ في التفسير الرمزي أو الروحي الذي يرمي إلى كشف سر المسيح المخفي وراء الأحداث. وهذا هو منهجه في التفسير، فهو لا يهمش التفسير الحرفي أو التاريخي ولكنه لا يبقى هناك بل يسعى بعد ذلك في استخدام التفسير الروحي.

الحياة الأفضل، حتى لا يظل المسيح مجهولاً مع مرور الزمن، وهو نفسه الذي سوف يأتي ليموت لأجلنا(١١٧).

أبانا الأول خُلق إذًا على صورة الله ومثاله(١١٨). ثم وُلِد منه قايين أولاً ثم هابيل، لكننا سوف نعتبر أن قايين يرمز لشعب إسرائيل، لأن المسيح نفسه اعتبر أن جموع اليهود كانت هي نفسها مثل قايين بانتهاجهم نفس الأسلوب، فقد قال هو نفسه: «إن ثبتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي وتعرفون الحق والحق يحرركم» (يو ٨: ٣١ ــ ٣٢). لكن هؤلاء، بسبب أنهم لم يدركوا جمال الحرية الأبوية، شرعوا في التباهي بالقرابة الجسدية قائلين: «إننا ذرية إبراهيم و لم نُستعبد لأحد قط كيف تقول أنت إنكم تصيرون أحرارًا» (يو ٨: ٣٣)، فبماذا أجاب المسيح؟: «لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم. ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله. هذا لم يعمله إبراهيم» (يو ٨: ٣٩ ــ ٤٠).

فالمسيح يصف أبوهم بالشيطان قائلاً: «أنتم من أبٍ هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالا للناس من البدء و لم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم بما له لأنه كذاب وأبو الكذاب» (يو ٨:٤٤). ولا أظن أن المسيح يشير إلى الشرير ورئيس شياطين الشر. فقد

---

١١٧ أيضاً القديس كيرلس يشرح حقيقة تجسد الابن لكي يخلص الإنسان في موضع آخر، قائلاً: "لم يشأ أن يرى هلاك خليقته على الأرض، أعني الإنسان، بل على العكس، فلأجل أنه رأى أن الطبيعة البشرية قد أُصيبت بمرض عُضال، فقد أرسل **كلمته** الذي يستطيع وحده أن يحطم مملكة الشيطان ويحررنا من الشرور التي أمسكتنا في قبضتها" الرسالة الفصحية الأولى، مايو ٢٠٠٤، فقرة ٦ ص ٢٨.

118 *πεποίηται τοίνυν ὁ προπάτωρ Ἀδαμ κατά γε τήν πίστιν τῶν ἱερῶν Γραμμάτων, κατ' εἰκόνα καί καθ' ὁμοίωσιν θεοῦ.*

أصاب اليهود السُّعار وشرعوا في قتل يسوع، وهو قد اعتبر أبوهم هو أول قاتل وأول مبتدع للكذب، أقصد بالطبع قايين، وأبو قايين هو الشيطان مبتدع الخطية. إن البعض اعتبروا صورة قايين هي الصورة المعبّرة عن الشيطان، وتصف أولئك الذين اختاروا أن يتشبهوا به.

ويمكننا أن نؤكد أن المسيح قد اعتاد أن يُطلق اسم الشيطان على من يتشبه بطرق الشيطان، ونستطيع أن نرى ذلك بوضوح مما ما قاله لتلاميذه: «أليس أني أنا اخترتكم الاثنا عشر وواحد منكم شيطان. قال هذا عن يهوذا سمعان الإسخريوطي، لأن هذا كان مزمعا أن يسلّمه وهو واحد من الاثنى عشر» (يو ٦: ٧٠ ـــ ٧١). إذن قايين يماثل إسرائيل، الذي كُتِب عنه: «إسرائيل ابنى البكر» (خر ٤:٢٢). وبعد إسرائيل البكر ظهر المسيح في الترتيب الثاني زمنيا، ابن آدم. لذلك دائما يسمي نفسه بطريقة حكيمة وبحسب التدبير οἰκονομικῶς[١١٩] ابن الانسان Υἱὸν ἀνθρώπου. وكما فعل قايين، هكذا اعتقد اسرائيل أيضا أنه يكرم الله مقدمًا له الأمور الوقتية التي تذبل بسهولة، ووضع عقله في الانشغال بكل ما يتعلق بالأرض، إذ أن قايين انشغل بفلاحة الأرض، بينما هابيل كان راعيا للغنم. وعمانوئيل كان قائدًا للرعية

[١١٩] تعبير "بحسب التدبير" أو " تدبيرياً " يقصد به تدبير التجسد، ويشرح القديس كيرلس في حواره حول الثالوث هذه الحقيقة، قائلاً: "إن الابن الوحيد قد أخلى ذاته وأخذ شكل العبد واحتمل الآلام والعار وأطاع حتى الموت موت الصليب. لأجل هذا يقال إن الله قد وَهَبَه اسماً فوق كلّ اسم، لكي تجثو باسم يسوع كلّ ركبة ممن في السماء وممن على الأرض. إذن بينما كان هو كواحد منا، أُعطِي أن يُسمىّ "الله" كمكافأة له على عظيم أعماله وطاعته. حتى صار يُسجَد له من الملائكة نفسها ومنّا نحن يا مَنْ نعيش على الأرض وحتى من الذين قد ماتوا؟". القديس كيرلس الكبير، حوار حول الثالوث، الجزء الرابع، الحوار الخامس، مايو ٢٠١٠، ص ٥٧.

العاقلة[١٢٠]، وهو الراعي الصالح الذي يرعى الرعية السمائية والأرضية، في مرعى فسيح كما هو مكتوب (أش ٣٠:٢٣) وإليه يصرخ النبي قائلا: «اِرع بعصاك شعبك غنم ميراثك» (ميخا ٧:١٤).

هابيل رمز المسيح، يقدِّم أبكار الرعية العقلية

إذن، الشعب الإسرائيلي رأى أنه يجب أن يكرم الله بالأرضيات التي هي الثمار الآتية من الناموس، ومقدمين ذبائح غير مقبولة. لذلك سمع من خلال صوت القديسين: «لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب. أُتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات. وبدم عجول وخرفان وتيوس ما أُسر. حينما تأتون لتظهروا أمامي مَن طلب هذا مِن أيديكم أن تدوسوا دوري. لا تعودوا تأتون بتقدمه باطلة. البخور هو مكرهة لي» (أش ١: ١١ ـــ ١٣). وأيضًا: «لماذا يأتي لِيَّ اللبان من شبا وقصب الذريرة من أرض بعيدة. محرقاتكم غير مقبولة وذبائحكم لا تلذ لي» (إر ٦:٢٠). هكذا يتضح السبب الذي لأجله لم يقبل الله ذبيحة قايين. على العكس من ذلك، البار هابيل، رمز المسيح، قدَّم أبكار الرعية العقلية τὰ τῶν λογικῶν ποιμνίων πρωτότοκοι كتقدماتٍ لله، قدَّم ودعاء القلب، وأطفالا في الشر، والأنبياء الذين بتشبههم بالمسيح يحملون مجد البكر τήν τοῦ πρωτοτόκου φοροῦντας δόξαν. لأن هذا الحشد الذي دُعي بالإيمان لكي يتقدس، يُدعى بواسطة بولس الرسول كنيسة الأبكار المكتوبة أسمائهم في السموات. بالتالي صار المسيح هو المقدِّس لهذا الجمع وقطيع

120 *καθηγεῖτο γὰρ τῆς λογικῆς αγέλης ὁ Εμμανουήλ.*

الأبكار[١٢١]. لأن بواسطته «صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون» (رو ٥:٢). وصرنا ذبيحةً صالحةً ومقبولةً أكثر من ذبيحة ثور بقر ذي قرون وأظلاف (انظر مز ٦٩:٣٢). بالفعل، تُعد الذبيحة الدموية تقدمة زهيدة ولا تبعث رائحة ذكية نحو الله، بالمقارنة مع العبادة بالروح التي تُقدَّم بالمسيح، التي تكون مقبولةً جداً لدى الآب[١٢٢].

لذلك صرخ الله قائلاً للإسرائيليين الذين قدَّموا تقدمات أرضية: «لا آخذ من بيتك ثورًا ولا من حظائرك أعتدة. لأن لي حيوان الوعر والبهائم على الجبال الألوف. قد علمت كل طيور الجبال ووحوش البرية عندي. إن جعت فلا أقول لك لأن لي المسكونة وملأها» (مز ٥٠: ٩ ــ ١٢)، بينما يقول لنا نحن الذين نلنا التبرير بالمسيح وتقدسنا بالروح: «أذبح لله حمدا وأوف العلي نذورك. وادعني في يوم الضيق أنقذك فتمجدني» (مز ٥١: ١٣ ــ ١٤).

بناءً على ذلك، فإن الأمور الروحية تعتبر أسمى من الأرضية، وذبيحة المسيح تُعد أسمى كثيرًا جدًا من الذبيحة الناموسية[١٢٣].

---

121 *τῆς ἁγίας πληθύος καὶ τῆς τῶν πρωτοτόκων ἀγέλης ἱερουργός γέγονεν ὁ Χριστός.*

122 *ἡ δέ γε ἐν Πνεύματι καὶ διὰ Χριστοῦ λατρία πολύ δὴ λίαν ἐστίν ἀνδάνουσα τῷ πατρί.*

123 *Οὐκοῦν ἐν ἀμείνοσι τῶν ἀπό τῆς γῆς τὰ πνευματικά· καὶ πολύ προφερεστέρα τῆς κατὰ νόμον θυσίας· ἡ διά Χριστοῦ*
. يشرح القديس كيرلس في موضع آخر، سمو ذبيحة المسيح على الذبائح الناموسية، قائلاً: «فالذي صوّرته هذه الرموز بشكل غامض أي الحمل نفسه، والذبيحة التي بلا عيب، قد جاء لكي يُقاد إلى الذبح لأجل الكلّ، لكي يرفع خطيّة العالم، لكي ما يبيد المُهلك من الأرض. وعندما يموت عن الكلّ، يبيد الموت، ويُبطل اللعنة التي لحقت بنا، ويضع حداً لما قيل « لأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ» (تك ١٩:٣). وبذلك يصبح آدم الثاني، ليس «من التراب» وإنما من السماء، ويصبح بداية كلّ الصالحات للطبيعة الإنسانية، ومحرّر الإنسان من الفساد الدخيل،

ما السبب في إن الله قَبل ذبيحة هابيل و لم يقبل ذبيحة قايين؟ لقد قدَّم إسرائيل ذبائح لله فعلاً (طالما كان يجب أن يذبح لله)، ولكنه لم يقضِ بالحق، إذ ظل دائماً على مستوى الرموز، معتقِدًا أن الله يَسعَد بالظلال (أنظر مز ٥٠). لذلك أخطأ، وأمره الله أن يتوب ويهدأ، بمعنى أن يتوقف عن الأمور العتيقة التي بحسب الناموس، ويجعل المسيح رئيساً له[١٢٤]. لأنه قال لقايين: «أخطأت، توقف» (تك ٤:٧س). وإلى هابيل: «سيرجع إليك، وأنت ستصير رئيساً له» (تك ٤:٧س). لكن، لو كان الشعب الإسرائيلي قد رفض تقديم تقدمات من نتاج الأرض، ولو كان قد أيضًا رفض العبادة الناموسية غير المفيدة، وجعل المسيح رئيسًا ومرشدًا له في الطريق نحو الأفضل[١٢٥]، لَكَان في استطاعته أن يكون حرًا معنا ويُكتب «في سفر الحياة» بحسب الكتب (انظر رؤ ٣:٥). ولكن بسبب تشبُّهِهِ بقايين جعل انتظاره للمخلص دافعًا للقتل الدنس، وسقط في اللعنة وصار شعبًا مذنبًا بسبب ارتكابه لخطايا أكثر من قايين. وصار الإسرائيليون مذنبين، ولذلك حُكِمَ عليهم بأحكامٍ كثيرة وخضعوا لجزاءاتٍ قاسية، وعاش التعساء في حسرةٍ ورعب. فهم دائمًا غرباء ولاجئين وخائفين وليست لهم شجاعة الأحرار. وكما قَبِلَ قايين

ومانح الحياة الأبدية، وأساس المصالحة مع الله، وبداية التقوى والبِّر، والطريق لملكوت السموات». شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص١٥٢ ــ ١٥٣ .

124 *καὶ ἡγούμενον ποιεῖσθαι Χριστόν.*

يحثنا القديس يوحنا ذهبي الفم على أن نحول نظرنا تجاه يسوع الذي هو رئيس الإيمان ومكمله. ثم يتساءل: ماذا يعني ذلك؟ فيقول: "يعني أن المسيح هو الذي وضع داخلنا الإيمان، وهو الذي أعطانا البداية. هذا ما قاله لتلاميذه: "ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم" (يو ١٥:١٦) بل والرسول بولس يقول: "حينئذ سأعرف كما عُرفت" (١كو ١٣:١٢)" شرح الرسالة إلى العبرانيين، مرجع سابق، الإصحاح الثاني عشر، ص ٣٦٦.

125 *ἄρχοντα καὶ καθηγητὴν τῆς εἰς το ἄμεινον ὁδοῦ ποιεῖσθαι Χριστόν.*

علامةً بأن الله لن يقتله، هكذا لم يُفقد الشعب الإسرائيلي تمامًا، لكن البقية خلصت σέσωσται δέ τό κατάλειμμα (انظر إش١٠ :٢١)، طبقًا لما قاله النبي مسبقًا: "لولا أن رب الجنود أبقى لنا بقية صغيرة لصرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة" (أش ١ :٩). لكن مع هذا يتوسل النبي والمرنم العظيم إلى إله الجميع أن لا يمحو الشعب الإسرائيلي تمامًا: "لا تميتهم حتى لا ينسوا ناموسك" (مز ٥٩ :١٢س).

وعلى عكس هذا كله هرب قايين من وجه الله. لأنه مكتوب: "فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن" (تك ٤ :١٦). ومثل هذا الأمر أصاب الإسرائيليين الذين قيل لهم بفم النبي: "فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم وإن كثّرتم الصلوة لا أسمع أيديكم ملآنة دمًا" (أش ١ :١٥)، لأنهم قتلوا إله الجميع، وبجحود كبير قالوا: "دمه علينا وعلى أولادنا" (مت ٢٧ :٢٥). وإذا كان دم هابيل صرخ ضد القاتل فقط، فقد صرخ دم المسيح الكريم بالتأكيد ضد فظاعة وجحود اليهود، ولكنه خلّص العالم من الخطية لأنه سال κεχυμένον ὑπερ αὐτοῦ لأجل هذا العالم. لذلك يقول بولس العظيم: "قد أتيتم إلى وسيط العهد الجديد يسوع وإلى دم رش يتكلم أفضل من هابيل" (عب ١١ :٣٤).

إلّا أنني أعتقد أنه كان يجب أن نضيف على ما ذكرناه سابقًا هذه الآيات؛ لأنه مكتوب: "وعرف آدم امرأته أيضًا. فولدت ابناً ودعت اسمه شيثا قائلةً لأن الله قد وضع لي نسلا آخر عوضًا عن هابيل؛ لأن قايين كان قد قتله" (تك ٤ :٢٥).

٣- شيث

وبعد ذلك يقول: "عاش آدم مئة وثلاثين سنة وولد ولدًا على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا" (تك ٥:٣). إذن لاحظ أنه بعد موت هابيل وُلِدَ الابن شيث على صورة الله ومثاله، أي مثل آدم. وحقيقةً بعد موت عمانوئيل بالجسد مباشرةً وُلِدَت ذريةٌ أخرى ليست من نسل آدم، تتمتع بغنى[١٢٦] جمال صورة الله الفائقة، لأنه «ونحن جميعا ناظرين مجد الرب بوجهٍ مكشوف كما في مرآة نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح» (٢ كو ١٨:٣). وبالتأكيد فإن موت المسيح[١٢٧] بالنسبة لهؤلاء صار كأنه جذرٌ وأساسٌ

126 *καταπλουτοῦν ἐν ἑαθτῷ τῆς θεὶας εἰκόνος τὸ ὑπερτατον κάλλος.*
أوضح القديس كيرلس حين شرح يو ١٢:١ جمال الصورة السمائي، إذ يقول: «وليس هناك وسيلة أخرى غير هذه تجعلنا نحن الذين لبسنا «صورة الترابي» نهرب من الفساد، إلّا إذا خُتِمنا بجمال الصورة السمائي» (١ كور ١٥: ٤٩) بدعوتنا إلى البنوّة لأننا عندما نشترك فيه بالروح القدس، نُختم لنكون مثله ونرتفع إلى الصورة الأولى التي أخبرتنا الكتب المقدّسة أننا خُلِقنا عليها (تك ٢٧:١). وبذلك نكون قد استعدنا جمال طبيعتنا الأولى وخُلِقنا من جديد لنكون على مثال الطبيعة الإلهية، ونصير مرتفعين فوق الأمراض التي أصابتنا بسبب السقوط. إذن نحن نرتفع إلى كرامة أسمى من طبيعتنا بسبب المسيح لأننا سنكون أيضاً «أبناء الله» ليس مثله تماماً، بل بالنعمة وبالتشبّه به. فهو الابن الحقيقي، الكائن مع الآب منذ الأزل أما نحن فبالتبنّي بسبب تعطفّه، ومن خلال النعمة التي أخذناها بقوله: «أنا قلت إنكم آلهة، وكلكم أبناء العلي» (مز ٨٢:٦) فالطبيعة المخلوقة الخاضعة للخالق، دُعِيت إلى ما هو فوق الطبيعة بإرادة الآب فقط، أما الابن، والإله والرّب، فهو ليس الابن والإله بإرادة الآب واختياره، وإنما بالولادة من جوهر الآب ذاته يكون له بالطبيعة كل صفات الله وصلاحه». شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ١٢٨.

127 *ὅτι δὲ τούτοις γένους ρίζα τις ὥσπερ καὶ πρόφασις ὁ Χριστοῦ γέγονε θάνατος.*
لقد صار المسيح حقاً بموته جذراً لبشرية جديدة، وهذا ما يشرحه القديس كيرلس بوضوح في كتابه الكنوز في الثالوث، إذ يقول: [بسبب محبة الآب لمخلوقاته دُعيَ الابن بِكرَ كل خليقة، والابن بمحبته تجاه المخلوقات لم يتردد في أن يجعل ذاته بين المخلوقات، حتى أن المخلوقات التي جاءت بعده تخلُص بسبب أنه دُعيَ بِكراً. هكذا ينبغي له أن يكون

للجنس الجديد، وهذا ما يؤكده هو بنفسه قائلاً: «الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبه الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير» (يو ١٢: ٢٤).

إذن عندما سقط في الأرض، كحبةٍ وكسنبلةٍ، أنبتت الأرض ثمارًا مضاعفة، إذ أنه بالمسيح أُعيد[١٢٨] خلق طبيعة الانسان بالصورة الأولى التي خُلق عليها الإنسان الأول.

أنساب قايين وشيث

جديرٌ بنا أن نبحث الأنساب التي أتت من الاثنين، أقصد قايين وشيث. لأن شيئًا مفيدًا سينتج من هذا البحث. مكتوب: «وعرف قايين امرأته فحبلت

بكراً لكي تظل المخلوقات تدعوه بكراً. إذن هو المولود الوحيد من جهة الطبيعة؛ لأنه أتى فقط من الآب، فهو إلهٌ من إله، ونورٌ من نور، لكن هو البكر لأجلنا، لدرجة أن كل الخليقة طُعِّمت فيه كأنها في جذرٍ عديم الموت، لكي تنبت مرةً ثانيةً من هذا الذي هو موجودٌ دائماً. لأن الكل صار بواسطته والكُل يخلُص بفضله] الكنوز، مرجع سابق، المقال الخامس والعشرون، فقرة ٨، ص ٣٧٩.

128 *τῆς ἀνθρώπου φύσεως ἀναπλαττομένη ἐν αὐτῷ πρὸς τὴν ἐν ἀρχαῖς εἰκόνα‘ καθ’ ἣν ὁ πρῶτος γέγονεν ἄνθρωπος*

يستخدم القديس أثناسيوس تشبيهًا من الحياة العملية لكي يوضح ضرورة أن يتم تجديد الخليقة بواسطة **كلمة الله** الذي خُلق العالم به منذ البدء فيقول: «ولأن الله صالح وهو صالح على الدوام وهو يعرف طبيعتنا الضعيفة التي تحتاج إلى معونته وخلاصه لذا فقط خطط هذا. وذلك مثلما لو كان مهندسًا حكيمًا يريد أن يبنى منزلاً فإنه يخطط في نفس الوقت كيفية تجديده مرة أخرى لو دُمر يومًا ما بعد أن يتم بناؤه، وهو يعد لهذا من قبل عندما يخطط ويعطى القائم على العمل الاستعدادات اللازمة للتجديد. وهكذا يكون استعدادًا مسبقًا للتجديد قبل بناء المنزل... وبنفس الطريقة فإن تجديد خلاصنا قد تأسس في المسيح قبلنا لكي يمكن إعادة خلقتنا من جديد فيه. فالإرادة والتخطيط قد أُعدا منذ الأزل أما العمل فقد تحقق عندما استدعت الحاجة وجاء المخلّص إلى العالم» ضد الأريوسيين ٢: ٧٧. ص ٨٧

وولدت حنوك. وكان يبني مدينة. فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك. ووُلِد لحنوك عيراد. وعيراد ولد محويائيل ومحويائيل ولد متوشائيل. ومتوشائيل ولد لامك. واتخذ لامك لنفسه امرأتين. اسم الواحدة عادة واسم الأخرى صلة. فولدت عادة يابال. الذي كان أبًا لساكني الخيام ورعاة المواشي. واسم أخيه يوبال، الذي كان أباً لكل ضاربٍ بالعود والمزمار. وصلة أيضًا ولدت توبال قايين الضارب كل آلة من نحاس وحديد. وأخت توبال قايين نعمة. وقال لامك لامرأتيه عادة وصلة. اسمعا قولي يا امرأتيّ لامك. واصغيا لكلامي. فإني قتلت رجلاً لجرحي. وفتى لشدخي. إنه ينتقم لقايين سبعه أضعاف. وأما للامك فسبعة وسبعين» (تك ٤: ١٧ ــ ٢٤). إن ما كُتب عن نسل قايين واضح. لذا ليتنا ننظر إلى نسل شيث.

مكتوب «وعاش شيث مئة وخمس سنين وولد أنوش» (تك ٥:٦)، الذي عنه قال الكتاب: «ولشيث أيضًا وُلِد ابنٌ فدعا اسمه انوش، حينئذ ابتدئ أن يدعى باسم الرب» (تك ٤:٢٦)، «وعاش أنوش بعدما ولد فينان ثماني مئة وسبع سنين وولد بنين وبنات» (تك ٥: ٧ ــ ٨). ثم قال: «وعاش يارد مئة وستين سنة وولد أخنوخ». وبعد ذلك قال: «وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه» (تك ٥: ٢٤).

لمن يقول الله: «الحق أقول لكم لست أعرفكم»؟

إذن لاحظ قبل أي شيء آخر كيف تُذكر أسماء أحفاد قايين، وكيف ظهر تعاقب الأجيال، وأيضًا كم عدد السنين التي عاشها كل منهم.

لقد سجَّل الكتاب بنفس الطريقة نسل شيث. ولكن لماذا كتب بدقة عمر كل واحد منهم، موضحًا مَنْ هو وما هي عدد السنين التي عاشها قبل أن ينجب نسلاً، ثم بعد إنجابه، الأمر الذي يمكن للمرء أن يعرفه بدقة وتفصيل من الكتب المقدسة.

هذه رسالة واضحة لهؤلاء الذين اعتادوا بصفة عامة أن يميزوا هذه الأمور، إن الله لا يريد أن يعرف حياة هؤلاء الذين يحبون الخطية. حسنًا، هؤلاء سوف يسمعون المسيح يقول لهم من المنبر الإلهي: «الحق أقول لكم لست أعرفكم» (مت ٢٥: ١٢، لو ١٣: ٢٧)، بالرغم من أنه لا يخفى عليه شيء من حيث معرفته، أقصد أنه إله الجميع. وعلى الرغم من أنه يعرف هؤلاء المحبين للخطية إلّا إنه لا يعرفهم، بسبب بغضه الشديد لأفعالهم الشريرة. إذًا فقد صَمَتَ الله عن الإشارة إلى أعمار أحفاد قايين، لأنهم لم يفعلوا شيئًا جديرًا بالمعرفة، ولأن الذين سوف يقرأون عن حياتهم سيلحق بهم الضرر. لكننا نؤكد أن الكتاب تكلم عن أن الله يعرف بالتفصيل حياة القديسين، وإنه لا يخفى على فكر الله أي شيء يخصهم. وسوف يؤكد هذا ربنا يسوع المسيح قائلاً: «أليس عصفوران يباعان بفلس وواحد منهما لا يسقط على الأرض بدون أبيكم. وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة. فلا تخافوا أنتم أفضل من عصافير كثيرة» (مت ١٠: ٢٩ ــ ٣٠).

وإن كان الله قد تكلم عن عدد الشعر، بسبب أنه يعرف بوضوح كل ما يخص القديسين ويعتني بكل هذا، فهل يمكن أن يجهل عمر حياتهم؟ لأنه يقول: «عينا الرب نحو الصديقين وأذناه إلى صراخهم» (مز ٣٤:١٥).

٤– آنوش

والثاني مباشرةً بعد قايين: آنوش كان له مدينة على الأرض تحمل اسمه، في حين أن القديسين الذين آمنوا بافتخار، قالوا: ''لأن ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا نطلب العتيدة'' (عب ١٣:١٤)، واعتبروا الحياة في هذا العالم غربة. أيضًا سبح داود قائلاً: ''لأني أنا غريبٌ عندك. نزيل مثل جميع آبائي'' (مز ٣٩:١٣).

وقال في مزموره لهؤلاء الذين يحبون الأرضيات: ''والإنسان في كرامة لا يبيت يشبه البهائم التي تباد'' (مز ٤٩:١٢). إذن من شيث خرج أنوش العظيم المكتوب عنه ''ابتدأ أن يدعو باسم الرب'' (تك ٤:٢٦). لأن جيش المسيح المقدس يأمل في المجد الفائق (الذى يفوق البشر)، أي بالرغم من أننا انحدرنا من الأرض، فقد دُعينا أبناء سيد الكل وأخوة للمسيح الذي لأجلنا صار مثلنا حتى نصير نحن بسببه فضلاء وأسمى من الإنسان، أي آلهة[١٢٩] مكتسبين المجد بنعمته

---

[129] *θεοὶ δηλονότι‘ χάριτι καὶ φιλανθρωπίᾳ τὴν δόξαν ἀποκερδαίνοντες.*
يشدد القديس كيرلس حين يفسر يو ١٠:٣٤ على الفرق الشاسع بين الذين دُعُوا آلهة، والابن الإله الحقيقي بالطبيعة، إذ يقول: «وإذ يرى (المسيح) أن الفرق بين الذين دُعوا آلهة وبين الذي هو بطبيعته الله، هو فرق عظيم جداً، فهو يعلّمنا التمييز بين الاثنين بواسطة الكلمات التي يستخدمها؛ لأنه إن كان الناس الذين أُرسلت إليهم كلمة الله، دُعوا آلهة، وقد صاروا لامعين بكرامة الألوهية، بنوالهم وإدخالهم كلمة الله إلى داخل نفسهم، فكيف لا يكون هو بالطبيعة إلهاً ذلك الذي بواسطته صار هؤلاء آلهة؟. لأن «**الكلمة** كان الله » بحسب قول يوحنا، و**الكلمة** أيضاً هو الذي سكب هذا البهاء (بهاء المجد) على الآخرين. فإن كان **كلمة** الله يقود إلى نعمة فوق بشرية بالروح القدس، ويزين أولئك الذين يكون فيهم، بكرامة إلهية، ويقول لماذا تقولون إني أجدف حينما أدعو نفسي ابن الله والله؟ رغم أن الأعمال التي قد عملتها من الآب تشهد لي إني إله بالطبيعة. فإذ قدسني (الآب)، أرسلني إلى العالم لأكون مخلص العالم؛ وذلك الذي هو وحده إله بالطبيعة، هو الذي له الخاصية التي يستطيع بها أن يخلّص الناس من الشيطان ومن الخطية ومن الفساد». شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، المجلد الأول، الإصحاح العاشر ص ٧٤٤.

ومحبته للبشر. لأنه يقول: «أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم» (مز ٨٢:٦). ترجَّى إذن أنوش أن يُدعى اسم الله على بعض الرحماء ممن يريدون أن يكرموا الله بكرامة عظيمة؛ لأن أعمالهم تسير وفق ناموس الله.

اليهود صورة لأخطاء قايين قاتل أخيه ولم يُكتبوا في سفر الحياة

والآن نصل إلى هدفنا من هذا الكلام. اليهود إذًا هم صورة لأحفاد قايين. وأنهم بالتأكيد معروفون لدى إله الجميع، لكنهم غير مكتوبين[١٣٠] في سفر الحياة، وهذا صار واضحا من صمت الله عن ذِكر أحفاد قايين في الكتاب المقدس. نهدف من هذا الكلام أيضًا أن نوضح أن جنس المسيح[١٣١] مكتوب في سفر الحياة ويذكرهم الله، وهذا هو ما أعتقد أنه يشير به إشارة واضحة إلى حياة الأبرار، أي أحفاد شيث. إذًن، فأنوش هو ثاني شخص بعد قايين كانت له مدينه

---

130 *ὅτι δὲ τὴν ἀπογραφὴν ἐν βίβλῳ ζωῆς οὐκ ἔχουσι.*

عن الكتابة في سفر الحياة يقول عنها القديس غريغوريوس النيصي» :أعطوني أسمائكم لكي اكتبها بحبر .الرب نفسه سوف يسطرها فوق الألواح العديمة الفساد مثل ناموس العبرانيين« P.G. 46 ،417B.« ، هذا يعني أن التسجيل المنظور في سجلات الكنيسة الخاص بالمقبلين على المعمودية هو صورة لتسجيل المختارين في الألواح السماوية. هذه الفكرة نجدها في (خروج ٣٢ :٣١، ٣٢) «فرجع موسى الي الرب وقال آه قد اخطأ هذا الشعب خطية عظيمة وصنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب والآن أن غفرت خطيتهم. وإلّا فامُحني من كتابك الذي كتبت» وفي لوقا ١٠ :٢٠ يقول المسيح للتلاميذ «ولكن لا تفرحون لهذا أن الأرواح تخضع لكم بل افرحوا بالحري أن أسماءكم كُتبت في السموات « وفي (رؤيا ٣ :٥) «من يغلب فذلك سيلبس ثياباً بيضا ولن أمحو اسمه من سفر الحياة وسأعترف باسمه أمام أبي وأمام ملائكته». **وشهادة الليتورجيا القبطية واضحة فيصلي الكاهن علي المُعمد قائلاً:** «أنت دعوت عبيدك هؤلاء باسمك القدوس المبارك اكتب أسماءهم في كتابك واحسبهم مع شعبك وخائفيك» صلوات الخدمات في الكنيسة القبطية، مكتبة المحبة، ص ٣١.

131 *ὅτι γάρ ανάγραπτον τό ἐν Χριστῷ γένος, καὶ ἐν μνήμῃ τῇ παρὰ Θεῷ.*

تحمل اسمه. بمعنى أن اليهود المتمردين آمنوا فقط بالأرضيات و لم يعرفوا كنيسة الأبكار[١٣٢] التي انتظرها حفيد شيث، أنوش الذي دعا باسم الله، بشوق شديد. وأيضا نحن الذين التجأنا إلى المسيح ونحن ممسكون بقوة بالرجاء فيه، اكتسبنا بإيماننا غنى مجده. وأستطيع أن أضيف على ما قلته ملاحظة أخرى ضرورية: إذا أراد أحدٌ أن يحسب أنساب أحفاد قايين وشيث عليه أن يجعل آدم جذر كل واحد منهما، وسيجد أن لامك السابع من نسل قايين، ونوح يكون السابع من نسل شيث. هكذا يتضح تسلسل الأحفاد كما يلي: «آدم، قايين، أنوش، قينان، مهلئيل، يارد، أخنوخ».

دعونا نرى إلى من يُنسب كل واحد: «وقال لامك لامرأتيه عادة وصلة. اسمعا قولي يا امرأتيّ لامك. وأصغيا لكلامي. فإني قتلت رجلاً لجرحى. وفتىً لشدخي، إنه ينتقم لقايين سبعة أضعاف. وأما للامك فسبعة وسبعين» (تك ٤: ٢٣ ــ ٢٤) وقد قيل العكس من ذلك على البار: «بالإيمان نُقل أخنوخ لكي لا

---

[132] *τὴν τῶν πρωτοτόκων οὐκ εἰδότες ἐκκλησίαν.* يوضح القديس كيرلس بنوتنا للآب باستخدام الشاهد الوارد في غلا ٤: ٦ مؤكدا أننا نلنا البنوة بفضل سكنى الكلمة فينا بالروح القدس وبذلك صرنا من جنس المسيح، إذ يقول: «غير أني أود أن أسألهم (الهراطقة) عن طريقة التبني هذه وكيف حدثت وأيضاً عن بنوّته هو وبنوّتنا نحن. لأننا ورثنا أن نكون أبناء، ولسنا نحن الذين نقول كيف صرنا أبناء لكن القديس بولس هو الذي علّمنا ذلك عندما كتب «ثم بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الآب». وهذا معناه: نحن نقول إننا دعينا إلى البنوة الروحية وذلك بسبب أن الابن يسكن في داخل قلوبنا بطريقة لا توصف بواسطة الروح القدس». القديس كيرلس عمود الدين، حوار حول الثالوث، المرجع السابق، الجزء الثاني، الحوار الثالث ص ٦١. والقديس أثناسيوس يؤكد أن هذا التبني يتم بسكنى المسيح بالروح فينا، إذ يقول: «كما أن المسيح ابن حقيقي، فإننا عندما نأخذ الروح «نصير أبناء» لأن الكتاب يقول «إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً لخوف بل أخذتم روح التبني» (رو ٨: ١٥). وإن كنا بالروح قد صرنا أبناء، فواضح أننا في المسيح ندعى أولاد الله لأن «كل الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله». الرسائل عن الروح القدس ١: ١٩.

يرى الموت ولم يوجد لأن الله نقله. إذ قبل نقله شُهِدَ له بأنه قد أرضى الله» (عب ١١:٥)، بحسب قول بولس الرسول: «ولم يوجد لأن الرب نقله» (تك ٥: ٢٤)، أي في أواخر الأيام التي ظهر فيها الفرح باستقبال المسيح، يبدو أن إسرائيل المرتعب، سقط في خوف الجحيم؛ لأنه قتل رجلاً وأُدين من أجل دم القدوس، أكثر من دينونة قايين نفسه. لأن قايين بسبب أنه أخطأ إلى واحد من البشر مثلنا صار مذنبًا في سبع خطايا، بينما الشعب الإسرائيلي الذي أظهر الجحود الرهيب لعمانوئيل نفسه، صاروا مذنبين بالأكثر. لأن الله فرض عقابًا لقايين سبع مرات، بينما لإسرائيل سبعين مرة في سبعة. لأن العقاب يُفرض قياسًا على بشاعة الأفعال. بينما أولئك الذين يضعون رجاءهم في المسيح بالإيمان، لن يكونوا في المجيء الثاني (في قبضة الشيطان). لأن الله سينقلهم إلى حياة المجد الفائق والرفعة بجواره، منتقلين من الموت والفساد إلى الحياة الأبدية، لأنهم تحولوا من فعل مشيئات الجسد إلى فعل ما يُرضي الله، ومن الهوان إلى المجد، ومن الضعف إلى القوة، بنعمة يسوع المسيح ربنا الذي له المجد مع الآب والروح القدس إلى أبد الآبدين. آمين

المقالة الثانية على سفر التكوين

نوح والطوفان

كان نوح رجلاً صالحًا وعاشقًا أصيلاً لله ومحبًا له ولم يبالِ بشيء عدا هذه المحبة. ولأنه كان ذو بهاء ومكانة مرموقة ومشهورًا جدًا ومتوَّجًا بالعظمة لأسباب كثيرة، فقد صار محط الإعجاب، لذلك سنتكلم عنه. فهو صورة ومثال للخلاص بواسطة المسيح مسبقًا عن طريق التدبير الإلهي الذي صار لأجل هؤلاء الذين كانوا يعاصرونه، وليس هم فقط، بل والذين يقرأون عنه. إذًا لنمضِ ونستعرض كل ما حدث له باحثين عن معنى ما يرويه، مفسرين روحيًا وبطريقة حسنة كل ما اتضح لنا من نتيجة هذا البحث.

لقد وُلِدَ شيث من آدم بعد موت هابيل، وشيث وَلَدَ أنوش، الذي ترجى أن يُدعى باسم الرب (انظر تك ٤:٢٦). وحقاً قد دُعِيَ أنوش من معاصريه باسم الرب. لأنهم كانوا يدركون مدى بره الذي ميَّزه، فدعوه منذ اللحظة الأولى باسم الله، مؤمنين بأن هذا الاسم يتمشى كثيرًا جدًا مع فضيلة الرجل. ثم وُلِدَ أُناسٌ آخرون من أنوش، وبعدهم لامك أبو نوح الذي أثناء ولادته دُعِيَ نبيٌّ، مثل زكريا بعد ولادة المعمدان الطوباوي (انظر لو ١:٧٦). ودعا لامك اسم ابنه نوحًا الذي يعني "راحة" في لغتنا. وبرر لامك آنذاك سبب هذه التسمية قائلاً:

"هذا يعزينا عن عملنا وتعب أيدينا من قبل الأرض التي لعنها الرب" (تك ٢٩:٥). بمثل هذه الأمجاد والآمال المفرحة صارت ولادة نوح مقبولة لدى القدماء. وأصبحت هناك عادة أن يطلق على أحفاد آنوش آلهة Θεούς حتى الجيل العاشر من آدم، إذ أن أنوش نفسه دُعيَ عليه اسم الرب τοῦ ἐπίκλην Θεοῦ.

استمر الكتاب موضحًا «وكان نوح ابن خمسمائة سنة وولد نوح سامًا وحامًا ويافث» (تك ٣٢:٥). سام الذي يعني «الكمال τελειότης" ويمكن أن تُترجم هذه الكلمة من العبرية إلى اليونانية "نبت أو زرع φύτευμα"، وحام بمعنى "حرارة أو دفء Θερμασία" ويافث بمعنى "الواسع أو الفسيح πλατυσμὸς". ثم بعد ذلك يقول الكتاب: "وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض ووُلِدَ لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد. لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة. كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضًا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادًا. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم" (تك ٦: ١ — ٤). ولكن، بسبب أن جنس البشر تضاعف جدًا، فإن أبناء الله (شيث) يقول الكتاب، قد سقطوا[١٣٣] في الرغبة غير الطبيعية تجاه النساء الفاسدات، وتزوجوا بنساءٍ

---

133 *εἰς επιθυμίαν ἐκτοπωτάτην γυναῖκας ἐκπεπτωκότες οἱ νἱοί‘ φησί‘ τοῦ θεοῦ‘ ἔλαβον ἑαυτοῖς γυναῖκας ἀπό πασῶν ὧν ἐξελέξαντο.*

حسبما اختاروا. نعرف بالتأكيد أن بعض المخطوطات تذكر بوضوح عبارة «عندما رأى ملائكة الله بنات الناس» (تك ٦:٢)[١٣٤].

بسبب هذا، فإن البعض أخذوا يرتكبون جرائم الانغماس في محبة الجسد ويوجدون مبررات للشهوة القذرة بحجة أن الملائكة سقطت إذ لم يحفظوا رئاستهم كما هو مكتوب (انظر يهوذا ٦). وهذا يدعوني إلى أن أقول وأوافق على أن أعراض أي مرض عقلي تنطبق على أولئك. فكوننا نسمح للإيمان بما ذكره الكتاب في هذا الموضوع أن يقودنا إلى التفكير المنحرف بحجة أن ذلك قد حدث بالفعل قديمًا، فهذا يبدو من الأمور غير المعقولة. لذلك علينا أن نفحص باهتمام حقيقة كل ما كُتب على حدة، ولا نقبل ـــ على أية حال ـــ الأفكار المريضة التي تنبع من الشياطين، بل على العكس يجب أن نفهم دائمًا أن رغباتنا تنبع من الميول المزروعة فينا. لأننا، إمَّا أن نحب الشهوات الجسدية الطبيعية، وإلَّا اعتدنا على الانغماس والانشغال الدائم في تلك التي تولد من شهوات الجسد. إن ما أؤكد أنه حق هو أن اللذات الطبيعية لا تنقلنا خارج النواميس الطبيعية. وعلى سبيل المثال الطعام والشراب والاتصال الطبيعي بالنساء هي أعمال وشهوات الجسد. أيضًا شهوات الغنى والمجد يخدمون لذات الجسد، وتنبع كل شهوات العالم تقريبًا من هذه الأمور، كما قال التلميذ الحكيم: «لأن كل ما في العالم شهوة الجسد وشهوة العين وتعظم المعيشة ليس من الآب بل من العالم» (١ يو ٢:١٦). إن الشهوات الضارة والرهيبة والمخيفة التي تخدعنا بسهولة لكي نريد

---

١٣٤ يؤكد القديس كيرلس خطأ هذه القراءة، حيث يقول إن "هذه كتابة خاطئة للنص، والكتابة الصحيحة والحقيقية هي: أن أبناء الله رأوا بنات الناس". راجع في ذلك بالتفصيل الفصل السابع عشر من كتابه: ضد الذين يتصورون أن لله هيئة بشرية، ترجمة وتعليقات د. جورج عوض إبراهيم، القاهرة، مايو ٢٠١٣.

ونفكر لها علاقة بالجسد، بينما أن نرتئي ونعتقد في أمور هي خارج الجسد وبخلاف الطبيعة وغير معقولة، لا يقنعنا أي سبب.

استحالة سقوط الملائكة في شهوات جسدية

إذًا، أليس من الجهل أن نقول بأن الأرواح السامية التي هي خارج الجسد تشتهي كل ما ينتمي للجسد؟ أيُّ إغراء طبيعي لديهم يدفعهم لذلك، أو أي قانون يحفِّزهم مثلما يحدث معنا نحو العطش إلى هذه الشهوات؟ إذن لا يجب أن نترك السبب الحقيقي لهذه الأمور الشيطانية، لأن أتباع هذه الآراء غير المعقولة ينعطفون بسهولة إلى دنسٍ ودناءةٍ، وإلى كل شيء من هذه السخافات، ويسقطون في اللذات على خلاف الطبيعة. عندما يقول الكتاب المقدس إن أبناء الله فعلوا المعاشرة مع هؤلاء النساء الفاسقات، وهن قد ولدن أولئك الذين يُدعون جبابرة، أي مخلوقات غريبة وليسوا بشراً متعقلين، ما الذي ينبغي أن نفكر فيه عندئذٍ؟ لأنه ليس من الممكن لأرواح أسمى من طبيعة الجسد أن تنجذب إلى معاشرة نساء من البشر. البعض يتحدث بدون تبصُّر ويعطون للأمر حكمة قائلين بأن الأرواح الشريرة دخلت في رجال، وبواسطة هؤلاء أنجبوا ذرية. لكن قولهم هذا مليء تمامًا بالجهل؛ لأنه كيف يمكن أن نضع ما قاله الكتاب في هذا الشأن في عداد الأمور الطبيعية الحقيقية.

أبناء الله هم أبناء شيث وآنوش، لا الملائكة

ليتنا نقرأ الكتاب «أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا» (تك ٦:٢). إن كلام الكتاب كلامٌ

صحيح، وليتنا نقرأ ترجمة المفسرين[١٣٥] لأن أكويلا يقول: «عندما رأى أبناء الآلهة بنات الناس». وسيماخوس أيضًا لم يذكر عبارة «أبناء الآلهة»، بل ترجم نص الآية كما يلي: «أبناء أولئك الذين تسلطوا» وبالطبع أن أبناء شيث وأنوش هم الذي دُعُوا أبناء الآلهة المتسلطين وذلك لمحبتهم وتقواهم، وبسبب أنهم استطاعوا أن يتسلطوا على الذين تمرَّدوا وذلك بمعونة الله الذي أظهر مجدًا للجنس المقدس الذي لم يختلط بجنس آخر، أي أولاد قايين ولامك الذي سار على نهج أبيه الذي صار قاتلاً، لأنه اعترف «إني قتلت رجلا لجرحي وفتى لشدخي» (تك ٤:٢٣). إذًا فقد ظل هذا الجنس المقدس هو الوحيد الذي لم يختلط بالأسوأ. لقد لمع جمال التقوى تجاه الله بنقاء وأصالة، وجعلهم الله جديرين بأن يصيروا محبوبين، ولكنهم انزلقوا إلى المتع الجسدية φιλοσαρκία وابتعدوا عن الله بسبب جمال النساء الفاسقات لأنه مكتوب: "اتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا" (تك ٦:٢)، أي أن أحفاد شيث، بالرغم من أنهم دُعُوا آلهة وأبناء الآلهة، إلَّا أنهم تطبَّعوا بأخلاق أولئك وبالتصرفات السيئة والحياة القذرة، ونساءهم ولدن مخلوقات غريبة لأن الله شوَّه جمال الأجساد البشرية بسبب انفلاتهم في الشهوات والزنى.

إذًا فهؤلاء الذين وُلِدوا كانوا جبابرة γίγαντες، أي متوحشين ἄγριοί وأشداء ومعاندين ومتفوقين على الآخرين في طول أجسادهم. ولكن يجب أن

---

[١٣٥] هنا يمارس القديس كيرلس ما نسميه تحقيق النصوص أو الدراسة النقدية critical study من خلال مقارنة الترجمات القديمة للنص العبري. وقد سبق أن أشرنا إلى أن القديس كيرلس تعرض لهذا الموضوع في الفصل السابع عشر من كتابه: «ضد الذين يتصورون أن لله هيئة بشرية»، والذي قمنا بترجمته عن اليونانية، وصدر بالقاهرة في مايو ٢٠١٣

نعرف أن الكتاب اعتاد أن يدعوهم جبابرة وأنهم أقوياء جدًا جسديًا، وحقا يقول على فم الأنبياء عن الفارسيين والمديانيين يقول: "وأعاقب المسكونة على شرها والمنافقين على إثمهم وأبطل تعظم المستكبرين وأضع تجبر العتاة" (أش ١٤: ٩) ولكننا لن نشترك مع اليونانيين في كلامهم الكاذب لأن ادبائهم وشعرائهم قد اعتادوا على تصوير طبائع الأشياء بالطريقة التي يعتقدون أنها تريحهم، فيعظمون الصغائر والأمور المحتقرة، وبأقوالهم الكاذبة والمبالَغ فيها يعتقدون أنه يجب أن يثنوا على هذه الأشياء حتى لو كانوا ينحرفون عن الحقيقة فيما يقولون. مِن هؤلاء مَن يقول إن جبارًا قد أُلقيَ من السماء على كل صقلية، بينما يقول آخر أكاذيب أكثر من غيره، بمعنى أنهم كانوا قساةً ولا يُظهِرون ملامح المودة في مقابلتهم لغيرهم، وبتفوقهم الجسدي يظنون أنهم يتفوقون في كل شيء على الآخرين، رغم أنهم ليسوا بمتفوقين، وكما اعتاد مؤلفو الأساطير القول: إنهم يستندون على السحاب.

لماذا الطوفان؟

عندما اختلطت الأجناس فيما بينها، وعندما انعطف الجميع ناحية الخطية الجامحة ἀχάλινον ἁμαρτίαν كما يقول الكتاب: "ورأى الرب أن شر الإنسان قد كَثُرَ في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسَّف في قلبه. فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء. لأني حزنت أني عملتهم. وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب" (تك ٦: ٥ — ٨). ها أنت ترى أن الله أراد أن يفني كل البشر. لكن بسبب أن نوحًا تميَّز

بتقواه، تنازَل وغفر له هو وحده، ولم يمحوه مع الآخرين، بل خلّصه مع كل عائلته. حسنًا قال له: "نهاية كل بشر قد أتت أمامي لأن الأرض امتلأت ظلمًا منهم فها أنا مهلكهم مع الأرض. اصنع لنفسك فلكًا من خشب جفر. تجعل الفلك مساكن وتطليه من الداخل ومن خارج بالقار، وهكذا تصنعه ثلاثمئة ذراع يكون طول الفلك وتكمله إلى حد ذراع من فوق وتضع باب الفلك في جانبه مساكن سفلية ومتوسطة وعلويه تجعله. فها أنا آتٍ بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت. ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كلٍّ تُدخِل إلى الفلك لاستبقائها معك. تكون ذكرًا وأنثى من الطيور فأجناسها ومن البهائم فأجناسها ومن كل دبابات الأرض فأجناسها اثنين من كلٍّ تدخل إليك لاستبقائها" (تك ٦: ١٣ ــ ٢٠).

إذن عندما تحقق كل هذا كما أمر إله الجميع، بالتأكيد اختفى كل جسد؛ إذ أن الأمطار والثلوج والمياه الغزيرة التي سقطت من فوق ومن السماء غطّت كل شيء ولكن الفُلك طفا على وجه المياه وبه أنفس الأبرار. لكن عندما تراجعت المياه قليلاً استقر الفلك على جبل أراراط، إذ يقول: "واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط وكانت المياه تنقص نقصًا متواليًا إلى الشهر العاشر. وفي العاشر في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال. وحدث من بعد أربعين يوما أن نوحًا فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها وأرسل الغراب فخرج مترددًا حتى نشفت المياه عن الأرض. ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض فلم تجد الحمامة مقرا لرجلها.

فرجعت إليه إلى الفلك فلبث أيضًا سبعة أيام أخر فأرسل الحمامة من الفلك. فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض. فلبث أيضًا سبعة أيام أخر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع أيضًا" (تك ٨: ١٢ ــ ١٤). إذن لقد فهم بهذه الطريقة أن الأرض قد شربت كل المياه وظهرت اليابسة ثانيةً وكل ما هو فوقها. وعندما فتح نوح وأولاده وكل المجتمعين طاقة السقف رأى أن الأرض تخلصت من المياه فللتو بنى مذبحًا وقدم محرقات من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة ليشكر الله الذي خلّصهم "فتنسم الرب رائحة الرضا وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضًا من أجل الإنسان لأن تصور قلب الانسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضًا أميت كل حي كما فعلت مرة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل لا تزال" (تك ٨: ٢١ ــ ٢٢). ثم يقول: "وبارك الله نوحًا وبنيه وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض. ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيوز السماء مع كل ما يدب على الأرض وكل أسماك البحر قد دفعت إلى أيديكم" (تك ٩: ١ ــ ٢).

الفُلكُ صورةٌ للخلاص

إذن، طالما وصل كلامي بالفعل إلى هذه النقطة بحسب السرد الحرفي والتاريخي κατά τό γράμμα καί ἱστορικῶς أعتقد أنه ليست هناك حاجة لأي شيء آخر. حسنًا، فلنتقدم تابعين آثار كل ما قيل حاملين المعنى العميق المخفي في هذه الأمور لكي نصيغ سر المسيح ونبرهن على أن نوحًا نفسه وعناية الله الحكيمة والسرية بالفُلك يمثل صورة εἰκόνα الخلاص بواسطة

المسيح. حسنًا، فإن نوحًا قد وُلِد من لامك، ليس من ذلك الذي قتل سابقًا رجلاً، والذي كان صغير السن، لكن ممن كان في نفس مكانته، الذي وُلِدَ من شيث، وربنا يسوع المسيح أتى من إسرائيل الذي كان قدوسًا بالتأكيد بسبب آبائه الأولين، وكان إسرائيل أيضًا له نفس التصرف مع أحفاد لامك، وتوافق مع القاتل، وكان مثله في المقام، لأنه كان قاتلاً. إذ قيل مرة لليهود: "أي الأنبياء لم يضطهده آباؤكم" (أع ٧:٥٢)، والمسيح أيضًا قال لهم: "أنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء" (مت ٢٣:٣١) وأيضًا بفم إشعياء يقول: "فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم وأن كثّرتم الصلوة لا أسمع أيديكم ملآنة دمًا" (أش ١:١٥). أيضًا كان نوح هو الحادي عشر في الترتيب بعد آدم، كذلك المسيح وُلِد كالأخير والحادي عشر بالجسد، وبدأ عمله التدبيري للخلاص لأجلنا، وهذا الأمر حقيقي ومؤكد، وعلى أية حال ستقتنع من الكتب المقدسة. لأن هذا الذي استأجر عمالاً للكرم في الساعة الحادية عشر قال للبعض الذين يرمزون للأمم: "لماذا وقفتم هنا كل النهار بطالين" (مت ٢٠:٦). وعندما قالوا له بوضوح إن أحدا لم يستأجرهم (لأنه لم يكن أحدٌ قبل مجيء مخلصنا إلى العالم قد دعى الأمم إلى معرفة الله)، ردَّ عليهم بإشفاق جزيل وعطف قائلاً: "اذهبوا أنتم أيضًا إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم" (مت ٢٠:٧).

اللوغوس الابن الوحيد هو نوح الحقيقي، أي البر والراحة

والناموس الذي أُعطيَ بواسطة موسى، أعطى وصيةً بأن ذبح الخراف يجب أن يتم أثناء ساعات المساء، عندما يبدأ الليل وعندما تضاء المصابيح، أي عندما يصل

الوقت إلى الغروب. وأستطيع أن أقول إن اللوغوس الابن الوحيد(١٣٦) تأنَّس عندما جاء ملء الزمان الحاضر، واحتمل ــ لأجل الجميع ــ الذبح مُحرِّرًا إياهم من العقوبة ومبعدًا خوف العقاب عن كل الذين آمنوا. لأنه هذا هو نوح الحقيقي(١٣٧)، أي البر والراحة ἡ ἀνάπαυσις، لأنه هكذا معنى اسم نوح. وحقا كما قال الكتاب: "متبررين مجانًا بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح" (رو ٣: ٢٤). إذن، فقد صار المسيح لنا نحن الذين آمنا به برًا وراحةً؛ إذ أنه هو يسوع المسيح الحقيقي، "وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا. كلنا كغنم ضللنا ملنا كل واحد إلى طريقه

---

136 *ὁ Μονογενής τοῦ θεοῦ Λόγος.*

بفضل الابن الوحيد الذي تجسد وتأنس صرنا نحن أبناء بالتبني، وهذا ما يؤكد عليه القديس كيرلس في استخدامه لهذا المصطلح، إذ يقول: «ولقد كان من المستحيل أن يوجد أبناء بالتبني لو لم يكن الابن الوحيد بالطبيعة كائناً من قبل، كما أنه كان من المستحيل أن توجد ولادة على صورة الأصل لو لم تكن ولادته هي الأصل والمصدر. فإذا كان الآب لم يَلِد بالحقيقة وإذا كانت الولادة بالنسبة له هي نوع من الخلق ولا تتميّز عنه، إذن يصير الحديث عن الابن الوحيد عبثا وتبدو لنا طبيعة الآب كأنها طبيعة عقيمة، وينتهي رجاء أولئك الذين آمنوا ويصير كأمر تافه، فأين إذن التبني؟ وأين الكرامة التي ننالها منه والتي تنقل كائن من حالة إلى حالة أفضل بين المخلوقات إذا كان المخلوق يتساوى في القيمة ــ حسب رأيهم ــ مع المولود؟ وهكذا فإنهم يخلطون الخلق والولادة معتبرين كليهما حقيقة واحدة، وهذا أمر يدعو إلى الخجل الشديد». حوار حول الثالوث، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٠٨.

137 *Αὐτος γάρ ἐστιν ὁ κατά αλήθειαν Νῶε ἡ δικαιοσύνη.*

يرى التقليد الآبائي أن الفلك هو مثال للمعمودية المسيحية حيث نوح هو نموذج لنوح الجديد الذي حل عليه الروح القدس ليعلن مصالحة الإنسان مع الله .**أيضا نجد كل هذا عند كيرلس الأورشليمي**» البعض يقول إنه، مثلما أتي الخلاص في أيام نوح من الخشبة والماء، ومثلما صارت بداية لخليقة جديدة، ومثلما الحمامة آتت في هذا المساء بفرع زيتون، بنفس الطريقة يقولون أن الروح القدس نزل على نوح الحقيقي، خالق الخليقة الجديدة، عندما نزلت الحمامة الروحية فوق المسيح أثناء العماد لكي تظهر أن ذاك بخشبة الصليب يمنح الخلاص للمؤمنين، إذ في المساء موته قَدَمَ للعالم نعمة الخلاص PG, 33, 982A ».

والرب وضع عليه إثم جميعنا" (أش ٥٣: ٤ــ٥). بمعنى أن الرب سلّمه إلى الموت بسبب خطايانا حسب كلمات النبي. إذاً فطالما تألّم[١٣٨] المسيح بحسب الجسد لأجلنا، فنحن مطوَّبون وموضع إعجاب الجميع. وكيف لا؟ ألم نُدعى لننال المواهب السماوية[١٣٩] ونشترك بغنى فيها وألقينا عن كاهلنا حِمل الخطية الذي لا يُطاق وارتفعنا إلى مستوى الراحة الروحية[١٤٠]؟ لأنه هو بنفسه دعانا إلى ذلك قائلاً: «تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم. احملوا نيري

---

138 *Χριστοῦ οὖν παθόντος ὑπερ ἡμῶν σαρκί.*

سبق للقديس أثناسيوس التأكيد على أن المسيح تألم بحسب الجسد، إذ يقول: «لأنه قد أُعطى لهم أن يروا كيف أن الذي يعمل هذه الأعمال هو نفسه الذي أظهر جسده متألماً بسماحه له بالبكاء والجوع، وأن يُظهر الخواص الأخرى للجسد. لأنه بينما بواسطة مثل هذه (الخواص) عُرف أنه قد أخذ جسداً متألّماً رغم أنه هو الله غير المتألّم، إلّا أنه من هذه الأعمال أظهر نفسه أنه بالفعل هو **كلمة الله** الذي صار فيما بعد إنساناً وكأنه يقول «رغم أنكم لا تؤمنون بي حيث ترونني مرتدياً جسداً بشرياً، فآمنوا بالأعمال» لكي تعرفوا أني أنا في الآب، والآب فيّ» (يو ١٠:٣٨)». ضد الأريوسيين، المرجع السابق، المقالة الثالثة، فقرة ٥٥، ص ١٠١. ويكرر أيضاً القديس كيرلس هذا الشرح ــ فيما بعد ــ في رسائله إلى نسطور، قائلاً: «نقول أنه أيضاً تألم وقام، ليس أن **كلمة الله** تألم في طبيعته الخاصة أو ضُربَ أو طُعِنَ أو قَبِلَ الجروح الأخرى، لأن الإلهي غير قابل للتألم حيث أنه غير جسمي. لكن حيث أن جسده الخاص، الذي وُلِد عانى هذه الأمور، فإنه يقال أنه هو نفسه أيضاً قد عانى هذه الأمور لأجلنا» رسائل القديس كيرلس إلى نسطور ويوحنا الأنطاكي، رسالة ٢ فقرة ٥

139 *τῶν οὐρανίων Χαρισμάτων.*

نوال المواهب السماوية يتم بواسطة الروح القدس، وهذا ما أكد عليه القديس يوحنا ذهبي الفم، إذ يقول: «المعزي هو بالحقيقة الذي منح المواهب وأعطى الخيرات التي لا تُحصى، لأنه يقول: «ولكن هذه كلها يعملها الروح» (كو ١٢:١١)» شرح الرسالة إلى رومية، الإصحاح الثامن، ص ٣٦٤.

140 *εὐμερίαν πνευματικήν.*

ينصحنا القديس يوحنا ذهبي الفم لكي نستمتع بهذه الراحة، قائلاً: «علينا أن نهجر الكبرياء، ولنفضل الاتضاع. لأنه هكذا سنجد الراحة في الحياة الحاضرة، وسنتمتع في حياة الدهر الآتي بكل الخيرات» شرح الرسالة إلى رومية، الإصحاح الثاني عشر، ص ٤٩٦

عليكم وتعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم» (مت ١١: ٢٨ ــ ٢٩).

كون أن المسيح سيريحنا، فهذا ما قاله قديمًا رئيس الملائكة جبرائيل للعذراء مريم: «لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله. وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع» (لو ١: ٣٠ ــ ٣١). أيضا الأنبياء المُلهمين بالروح حرصوا على أن يتحدثوا مسبقًا عن الراحة التي ستصير بواسطة المسيح. هكذا قال أحدهم: «في ذلك اليوم يُقال لأورشليم لا تخافي يا صهيون لا ترتخ يداك. الرب إلهك في وسطك جبار. يخلّص. يبتهج بك فرحًا. يسكت في محبته. يبتهج بك بترنم» (صفنيا ٣: ١٦ ــ ١٧).

وأيضًا إشعياء ــ كأنه رأى هذه الأمور ــ قال: «شددوا الأيادي المسترخية والركب المرتعشة ثبتوها. قولوا لخائفي القلوب تشددوا لا تخافوا. هوذا السيد الرب بقوة يأتي وذراعه تحكم له. هوذا أجرته معه وعملته قدامه. كراع يرعى قطيعه يجمع الحملان وفى حضنه يحملها ويقوم المرضعات» (أش ٣٥: ٣، ٤٠: ١٠ ــ ١١). إذًا فقد صار المسيح لأجلنا برًا وراحة، وخلصنا[١٤١] من الأرض

141 *σέσωκε δέ ἡμᾶς καί ἀπό τῆς γῆς ἧς κατηράσα το κύριος ὁ Θεός.*

ثقتنا بخلاصنا تأتي من إيماننا بألوهية المخلص، فما كان لنا أن نتخلص من الفساد لو كان الابن ليس مساوياً للآب في الجوهر وليس هو وجه الآب أو صورة الآب، وهذا ما أكده القديس كيرلس حين قال: «فالابنُ، وهو وجه الله الآب الذي ظهر لنا، ولا يمكن أنْ يكون لدينا أي تردد تجاه هذه الحقيقة؛ لأنه هو ختمه ورسم جوهره، وبواسطته وفيه نحصل على معرفة الآب. وبهذه المعرفة يأتي إلينا، لذا يجب أنْ نكون رُحماء؛ لأننا خلصنا بالإيمان وليس من أعمال البر التي نفعلها، لكن بسبب رحمته العظيمة (انظر تي ٣: ٥) ألقينا عن كاهلنا الفساد وأخذنا شكلاً جديداً مناسباً لحياة المسيح الجديدة، بسبب رحمة الله». السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السادس، المقالة الحادية عشر ص ١٢٩ ــ ١٣٠. أيضاً القديس كيرلس يشرح حقيقة تجسد الابن لكي يخلص الإنسان في موضع آخر، قائلاً: «لم يشأ أن يرى هلاك خليقته على الأرض، أعني الإنسان، بل على العكس، فلأجل أنه رأى

التي لعنها الرب الإله (انظر تك ٥:٢٩). وهذا بالضبط ما قاله لامك متنبئًا به لنا في عصر نوح. ولا يوجد أدنى شك في أن جرائم عصيان آدم قد وَجَدَت حلاً بالمسيح لأنه كما هو مكتوب «صار لعنةً لأجلنا» (غلا ٣: ١٣) محرِّرًا الأرض من اللعنة القديمة. وحقًا نقول أنْ انجمع الكل بواسطته إلى حالته الأولى التي أعطاها الله الآب[١٤٢]. «إذن، إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكل قد صار جديدًا» (٢ كو ٥:١٧). لأنه هو آدم الثاني δεύτερος Ἀδὰμ[١٤٣] وبطاعته[١٤٤] أبعد عنا تهمة الإنسان الأول، أقصد بالتأكيد العصيان παρακοήν[١٤٥] الذي صار في بدايات الخليقة.

أن الطبيعة البشرية قد أُصيبت بمرض عُضال، فقد أرسل **كلمته** الذي يستطيع وحده أن يحطم مملكة الشيطان ويحررنا من الشرور التي أمسكتنا في قبضتها» الرسالة الفصحية الأولى، مايو ٢٠٠٤، فقرة ٦ ص ٢٨.

142 *Δἰαὐτοῦ γάρ ἅπαντα πρὸς τὸ ἐν ἀρχαῖς ἀνακεφαλαιοῦσθαί φαμεν τὸν Πατέρα καί Θεόν*

هنا يركز القديس كيرلس على انجماع الكل في المسيح، الحقيقة التي أعلنها الرسول بولس وقد سبق أن أكد عليها أيضاً القديس إيرينيوس.

١٤٣ استخدم القديس كيرلس تعبير آدم الثاني في شرحه لإنجيل يوحنا، إذ يقول: [ولأن آدم الأول لم يحتفظ بالنعمة التي أعطاها الله له، قرر الله الآب أن يُرسل لنا آدم الثاني من السماء. إذ أرسل ابنه الوحيد الذي أخذ شكلنا، والذي هو بالطبيعة بلا تغيير أو اختلاف، والذي لم يعرف الخطيَّة مطلقًا. حتى كما "بمعصية" الأول خضعنا للغضب الإلهي هكذا بطاعة الثاني (رو٥:١٩) نهرب من اللعنة وكل شرورها تنتهي. ولكن حينما صار كلمة الله إنسانًا، قَبِلَ الروح القدس من الآب كواحد منَّا (ولم يقبله لنفسه كأقنوم من ذاته، لأنه هو الذي يُعطي الروح) وإنما الذي لم يعرف خطيّة، عندما يقبل الروح كإنسان، فإنه يحفظ الروح لطبيعتنا لكيما تتأصل فينا النعمة التي كانت قد فارقتنا]. شرح إنجيل يوحنا، د. نصحي عبد الشهيد وآخرون، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، المجلد الأول، ٢٠٠٩، ص١٦٢.

144 *Δι’ ὑπακοῆς ἀνατρέπων το τοῦ πρωτοπλάστου κατηγόρημα.*

وقد آمن بهذا بولس العظيم، إذ قال: «لأنه إن كان بخطية واحد مات الكثيرون فبالأولى كثيرًا نعمة الله والعطية بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت للكثيرين» (رو ٥:١٥) وأن المسيح «وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب» (في ٢: ٨). إذن، كما أن الأرض قديمًا في البداية كانت ملعونة بسبب عصيان آدم، هكذا صارت مباركة بسبب طاعة المسيح. لقد حرَّرنا من الأرض التي صارت ملعونة، «ولكننا بحسب وعده ننتظر سموات جديدةً وأرضًا جديدةً يسكن فيها البر» (٢ بط ١٣:٣، انظر رؤ ١:٢١)، كما قال تلميذ المخلص الحكيم. لقد دشَّن لنا طريق الصعود إلى فوق وإلى السموات، وكسابقٍ لأجلنا أتى أولاً إلى الأرض المقدسة التي قال إن الودعاء سوف يرثونها، أي هؤلاء الذين نشأوا في الوداعة بالتعاليم الإنجيلية. إن الناموس حدَّد لهؤلاء الذين يظلمون وصية «عين بعين وسن بسن» (مت ٥: ٢٨)، ولكن المسيح أوصانا نحن قائلاً: «مَن لطمك على خدك الأيمن...» (لو ٢٩:٦).

حسنًا، إن نوحا وُلِدَ ـــ في الترتيب ـــ الحادي عشر بعد آدم بواسطة شيث وأنوش «الذي دُعيَ باسم الرب» (تك ٢٦:٤) بسبب حياة التقوى والمحبة لله.

وفي حواره حول الثالوث يوضح القديس كيرلس هذه الحقيقة، قائلاً: «إن الابن الوحيد قد أخلى ذاته وأخذ شكل العبد واحتمل الآلام والعار وأطاع حتى الموت موت الصليب». القديس كيرلس الكبير، حوار حول الثالوث، الجزء الرابع، الحوار الخامس، ص ٥٧.

[١٤٥] سبق للقديس أثناسيوس أن شرح هذا الأمر بكل وضوح، إذ قال: "فإله الجميع إذن، عندما خلقنا **بكلمته** الذاتي ولأنه كان يعرف أمورنا أكثر منا ويعرف مقدماً أننا رغم أنه قد خلقنا صالحين إلا أننا سنكون فيما بعد مخالفين للوصية، وأننا سنُطرد من الجنة بسبب العصيان. ولأنه هو محب البشر وصالح فقد أعد من قبل تدبير خلاصنا **بكلمته** الذاتي الذي به أيضاً خلقنا". ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، فقرة ٧٥، ص ١٣٩. (ص ٨٦)

إسرائيل يحيد عن طريق آبائه

ولكن الأناجيل الأربعة توضح أن سلسلة أنساب السيد المسيح تبدأ من آدم حتى يوسف، وكل الأنساب تمر، كما قلنا، عبر كل القديسين. لذا، فلنمضِ في حديثنا عن امتزاج الأنساب وتكاثرها بالنسبة للإنسان القديس والإنسان غير القديس، أي الإنسان الدنس والمنحرف. لأنه بنفس الطريقة التي وُلِدَ بها هؤلاء من أنوش الذي دُعيَ باسم الرب، نجد أن الانجذاب نحو بنات الناس إلى حد الجنون قد استولى عليهم أيضًا فغيّروا للتو سلوكهم مفضّلين أن يعيشوا حسب الشهوات متممين نواميسها. وتملكهم مرض الفساد[١٤٦] متجهين نحو كل شيء غير لائق. وبنفس الطريقة عاش الذين وُلِدوا من صُلب إسرائيل حياةً لائقةً بالقديسين متشبهين جيدًا بأجدادهم متجنبين كل طريق يؤدي إلى حياة الدناءة، وحافظوا تمامًا على المفاخر الأصلية وغير المتغيرة لحياتهم المُمجدة. ولكن عندما اختلطوا بالأمم المجاورة، امتلئوا بطريقة مباشرة بالحياة الدنسة التي عاشتها هذه

---

146 *κατηρρώστουν ἀποφθοράν*

تعتبر الكنيسةُ السقوطَ ليس مجرد مخالفة قانونية، بل بالحري مرض أصاب الطبيعة البشرية، لذلك تصلي الكنيسة في القداس الغريغوري، قائلة: «ربطتني بكل الأدوية المؤدية إلى الحياة». أيضاً هنا نتذكر صلوات سر مسحة المرضى التي تؤكد على أن الله هو الطبيب الذي يهتم بشفاء نفوسنا وأجسادنا، إذ يصلى الكاهن قائلاً: «يا الله الآب الصالح طبيب أجسادنا وأرواحنا، الذي أرسل ابنه الوحيد يسوع المسيح ليشفي كل الأمراض وينقذ من الموت. أشف عبدك من أمراضه الجسدية. وامنحه حياة مستقيمة، ليمجد عظمتك ويشكر إحسانك وتكمل مشيئتك من أجل نعمة مسيحك» صلوات الخدمات في الكنيسة القبطية، إصدار مكتبة المحبة، ص ١٥٩. والقديس أغناطيوس الأنطاكي يعظ قائلاً: «يوجد طبيب واحد نفسي وجسدي... يسوع المسيح ربنا» (ΒΕΠΕΣ2, 265). ويؤكد العلاّمة أوريجينوس في تفسيره لسفر أيوب»: إن المسيح أتى من السموات ليشفينا من الأمراض المستعصية، والتي ما كان لنفوسنا أن تُشفى منها بدونه.(ΒΕΠΕΣ15,287) ».

الأمم، وانخدعوا بسهولة وسيطرت عليهم حتى الأمور السيئة والشريرة، والأغرب من ذلك، استولى عليهم ضلال عبادة تعدد الآلهة، إذ صاروا مثل الأمم يعبدون المخلوق لا الخالق. وكرموا أجناد الشياطين، بينما إسرائيل القدوس منذ البداية ومنذ عهد الآباء لم ينشغل بالأمور التي تبعده عن الله. لذلك يقول الله لهؤلاء بصوته المقدس: «فاعبروا جزائر كتيم وانظروا وارسلوا إلى قيدار وانتبهوا جدًا وانظروا هل صار مثل هذا. هل بدَّلت أمة آلهة وهي ليست آلهة. أما شعبي فقد بدل مجده بما لا ينفع» (إر ٢: ١٠ ــ ١١). وأيضًا: «فأين آلهتك التي صنعت لنفسك. فليقوموا إن كانوا يخلصونك في وقت بليتك. لأنه على عدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا لماذا خاصمتموني كلكم عصيتموني يقول الرب» (إر ٢: ٢٨ ــ ٢٩)، بمعنى أنهم انتهوا إلى هذه الأمور[١٤٧] بسبب أفكارهم الفظة، أو بالأحرى بسبب أفعالهم الطائشة بمعاشرتهم لنساء ضالات.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنهم قدَّموا أطفال الشعوب المقدسة للشياطين الدنسة على الرغم من أنه كان يجب عليهم أن يطبعوا فيهم ملامح العبادة اليهودية مثل الختان في اليوم الثامن وتقديم الذبائح. وهذا ــ على ما أعتقد ــ هو ذلك الذي قيل عنه بفم النبي: «بنو الغرباء يبلون ويزحفون من حصونهم» (مز ١٨: ٤٥). إذن، عندما اتحد الجنس المقدس بالفاسد وصار الاثنان واحدًا من حيث نوعية

---

١٤٧ يؤكد أيضاً القديس غريغوريوس النيسي حقيقة أن مسئولية الشر تقع علي عاتق الإنسان واختياره الحُر، قائلاً: "ما مِن شرٍ جاء إلي الوجود كان له أصله في المشيئة الإلهية. كلا فقد وُلِد الشر من الداخل، ونشأ عن الإرادة حينما تراجعت النفس عن الخير... إن المسئولية تقع علي عاتق الإرادة المنحرفة التي اختارت الأردأ وليس بالحري الأفضل"

Gr. Nyss.or.Catech.5,PG.45,20f

الصفات التي تميزهما، ومن حيث معتقداهما وأساليبهما، وعندما اختلطت عادات إسرائيل بعادات الأمم، قرر خالق الكل إهلاك كل أولئك الذين هم على الأرض. ولكنه تراجع أمام وداعته و لم يغضب بالقدر الذي تستحقه خطاياهم. إذن، فحتى لا يهلك كل جنس الأرض أعلن البر بالإيمان، والغفران بالماء بواسطة نوح، ولهذا السبب بالتحديد صار الله إنسانًا كما هو مكتوب: «وبعد ذلك تراءى على الأرض ومشى بين البشر (ὁ Μονογενής الابن الوحيد)" (باروخ ٣:٣٨).

إن نوح الحقيقي أسَّس على مثال الفلك القديم[١٤٨]، الكنيسة، التي كل من يدخل فيها ينجو من دمار العالم. هكذا يفسِّر بولس العظيم سر الفلك قائلاً: «بالإيمان نوح لما أوحيَ إليه عن أمورٍ لم تُر بعد خاف فبنى فلكًا لخلاص بيته فيه دان العالم وصار وارثا للبر الذي حسب الايمان» (عب ١١:٧)، كما قال عنه بطرس: الذي فيه خَلَصَ قليلون أي ثماني أنفس بالماء. الذي مثاله يخلّصنا نحن الآن أي المعمودية. لا إزالة وسخ الجسد بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح» (١ بط ٣: ٢٠ ـــ ٢١).

---

148 *ὡς ἐν τύπῳ τῆς ἐν ἀρχαῖς ἐκείνης καὶ διαβοήτου κιβωτοῦ.*

هنا، الفلك كان نموذجاً ومثالاً للكنيسة، لذا **عند القديس يوحنا ذهبي الفم** نجد هذا النموذج التقليدي «إن رواية الطوفان هي سر، وتفاصيلها هي نموذج للحقائق الآتية. الفلك هو الكنيسة، ونوح هو المسيح، الحمامة هو الروح القدس، وفرع الزيتون هو المحبة الإلهية للبشر. وكما أن الفلك حمى هؤلاء الذين كانوا بداخله، هكذا الكنيسة تخلص هؤلاء الذين ضلوا، لكن الفلك قد حمى فقط، بينما الكنيسة تفعل أكثر من ذلك، مثلا الفلك قَبلَ حيوانات غير عاقلة واحتفظ بها كما هي، أما الكنيسة تقبل البشر ولا تحتفظ بهم كما هم لكن تغيرهم» *PG, 18, 1037-1038*

لكن بأي طريقة صُنع الفلك؟ «وهكذا تصنعه ثلث مئة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعًا عرضه وثلثين ذراعا ارتفاعه، وتصنع كَوًّا للفلك وتكمله إلى حد ذراع من فوق. وتصنع باب الفلك في جانبه: مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله» (تك ٦: ١٥ ــ ١٦). إن صناعة الفلك تشير بالتأكيد إلى سر المسيح. فعلى الرغم من أنه غامض إلّا أنه يمكن أن يصير واضحًا لكل واحد بسهوله كبيرة وذلك من خلال ما كتبه بولس العظيم لهؤلاء الذين هم أبرار بالإيمان ولأجلهم صلّى بلا انقطاع قائلاً: «لتدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو، وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله» (أف ٣: ١٨ ــ ١٩).

رموز مقاييس الفلك

ما هي إذن أهمية مقاييس الفلك؟ إنه ظهورٌ صحيحٌ وواضحٌ تمامًا للثالوث القدوس والمساوي، وأن الطبيعة الإلهية كاملة تمامًا في الثالوث. وهذا ما يُعلَن لنا بالأرقام التي ذُكِرت ويمكن أن يراها المرء بوضوح عندما يتذكر أن الكتاب المقدس اعتاد أن يستخدم الأرقام التي تتكرر ويجعلها رموزًا للكمال. إنني أعني بذلك ما يلي:

يبدأ الأسبوع باليوم الأول وينتهي بالسبت أي اليوم السابع، بعد ذلك أيضا نعد التالي: ابتداءً من الأول منتهيًا أيضًا في السابع. تتكرر نفس الطريقة بالنسبة لعدد عشرة، نبدأ أيضًا العشرة من الأول وبنفس الطريقة وبنفس القياس يتكون الكامل من الأرقام الكاملة، بمعنى أن العدد مائة يتكون من عشرة عشرات، والدوران المتكرر يأتي أيضًا إلى الوحدة. إذن كما قلت إن رمز الكمال في

الكتاب المقدس هو أي عدد يتزايد بطريقة مستترة ويبلغ إلى النهاية ويأتي مرة ثانية إلى هذا الذي هو محدد.

انتبه إذًا إلى ما ورد في الكتاب المقدس بخصوص الثلاثمائة ذراع والتي ترمز إلى الكمال. لأن هذا كان طول الفلك، لكن عرض الفلك الذي يبلغ خمسين ذراعًا يعبِّر جيدًا عن وحدة الألوهة ὡς ἐν μονάδι θεότης[149] التي هي كمال الكمال، فإن الخمسين هي سبع سبعات وتضاف إليهم وحدة واحدة؛ لأن الطبيعة الإلهية هي واحدة διά τὸ μίαν εἶναι θεότητος φύσιν[150]. أمَّا

[149] يبرهن القديس أثناسيوس على وحدة الألوهية، فيقول: "حيث إن الشعاع هو النور وليس في المرتبة الثانية بعد الشمس، ولا هو نور آخر، ولا هو ناتج من المشاركة مع النور، بل هو مولود كلّي وذاتي من النور ومثل هذا المولود هو بالضرورة نور واحد ولا يستطيع أحد أن يقول إنه يوجد نوران، فرغم أن الشمس والشعاع هما اثنان إلّا أن نور الشمس الذي ينير بشعاعه كل الأشياء، هو واحد. هكذا أيضاً ألوهية الابن هي ألوهية الآب، ولهذا أيضاً فهي غير قابلة للتجزئة، ولذا فإنه يوجد إله واحد وليس آخر سواه. وهكذا حيث إنهما واحد، والألوهية نفسها واحدة، فكل ما يقال عن الآب يقال أيضاً عن الابن ما عدا أن يُلقّب بالآب". القديس أثناسيوس الرسولي، ضد الأريوسيين، المقالة الثالثة، فقرة ٤ ص ١٦. كذلك يؤكد ق. كيرلس في حواره عن الثالوث على أن الألوهة والربوبية هي واحدة للثالوث القدوس، فيقول: "لأن الآب فيه كل ملء الربوبية والمجد كإله، كما أن الابن هو أيضاً رب وإله. فبدون الربوبية لن يكون الآب إلهاً ولا يكون الابن رباً حقيقياً إن كان منفصلاً عن الألوهة الحقيقية حسب الطبيعة. ولهذا فإن الطوباوي بولس يربط بين الاسمين في وحدة واحدة، وذلك عندما يقول في إحدى المرات: إن الإنجيل هو إنجيل الله الآب وفي مرة أخرى يقول إن الإنجيل هو إنجيل المسيح". حوار عن الثالوث القدوس، الجزء الثاني، الحوار الثالث، ص ٧٨.

[150] في موضع آخر، يستخدم القديس كيرلس مثل القديس أثناسيوس تشبيه النور والشعاع للتعبير عن الوحدة غير القابلة للانفصال بين الآب والابن على أساس أن لهما طبيعة واحدة، إذ يقول: "ولا يليق بنا أن نقدّم تشبيهاً عن هذا الأمر، فما يليق بالله لا يمكن تصويره. وإنما عندما نقول إنه يعمل مع الابن، فنحن لا نعتقد باثنين منفصلين لأن هذا يؤدي إلى الإيمان بإلهين، اجتمعا معاً وصارا واحداً ـــ بل مثل اجتماع النور والإشعاع في وحدة طبيعية، لأن مثال النور والإشعاع يؤكد التمايز، لأن الإشعاع الذي يشرق ويحمل جمال النور، ليس هو النور، ولكن

ارتفاع الفلك فلا يعلن لنا أي شيء آخر سوى هذه الألوهية، لأنه يصل إلى ثلاث عشرات وينتهي أيضًا إلى ذراع واحد الذي هو فوق الكل والأعظم. لأنه يقول: «وثلثين ذراعًا ارتفاعه وتصنع كوا الفلك وتكمله إلى حد ذراع من فوق» (تك ٦:١٦)، أي بينما الثالوث القدوس هو ثلاثة أقانيم[١٥١] إلَّا أن له طبيعة واحدة إلهية. بالطبع يفضِّل اليونانيون الطريق الذي يؤدي إلى تعدد الآلهة، ولكننا إذا كنا نقول إن الآب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم، إلَّا أننا نؤمن بطبيعة واحدة، وأنهم متحدون في جوهر واحد، وهذا ما أشار إليه بقوله: «وتكمله إلى حد ذراع من فوق». حسنًا، قد خلَّصنا المسيح بالإيمان وأدخلنا إلى الكنيسة، فهي كمثل فُلكٍ ندخل إليها لننتصر على خوف الموت وننجو من نيران هذا العالم لأن نوح البار ــ أي المسيح ــ سيكون معنا.

أسماء أبناء نوح وما ترمز له

أعتقد أنه من الجدير أن نفحص بالتفصيل مَن هم الذين دخلوا مع نوح إلى الفلك ونالوا الخلاص بالإيمان والماء[١٥٢]. مكتوب: «فدخل نوح وبنوه وامرأته

الطبيعة واحدة، والتمايز بين النور والإشعاع الذي يشرق لا يسمح بانفصال واحد عن الآخر". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، ص ٨١.

[١٥١] هذا ما أكده القديس كيرلس حين علّق على نص (تك ١:٢٦)، قائلاً: "عن خلق الإنسان نسمع صوت الله يقول "نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا" (تك ١:٢٦). فلو كان الله أقنوماً واحداً بلا تعدّد وليس ثلاثة أقانيم، فمَنْ الذي كان يتكلّم مع مَنْ ويقول له: "نخلق الإنسان على صورتنا"؟ ولو كان الله أقنوماً واحداً لقال: "أخلق الإنسان على صورتي"، لكن الكتاب لم يذكر ذلك، ولكن حيث إن صيغة الجمع استخدمت "صورتنا"، فإنها تُعلِن بصوت قوي أن أقانيم الثالوث هي أكثر من واحد". شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ٤٩.

[152] *καί τὴν διὰ πίστεώς τε καὶ ὕδατος σωτηρίαν αποκερδαίανουτες.*

ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان» (تك ٧:٧). لكن مع هؤلاء أدخل إلى داخل الفلك من كل حيوان ونوع من الطيور، سبعة من الطاهرة واثنين من غير الطاهرة.

أيضا أسماء أولاده هي: سام وحام ويافث، تفسر هكذا: سام يعنى «زرع» و«كامل»، حام يعنى «حرارة»، ويافث «الواسع أو الفسيح».

بمعنى أننا خلصنا بالإيمان بالمسيح ــ نحن الذين انحدرنا من حياة غير كاملة حسب حكم الناموس ــ وزُرِعنا في كمال[153] تعليم الإنجيل، مزروعين كأغصانٍ

يقصد بالإيمان والمعمودية، فالمعمد قبلما يترل في ماء المعمودية يعلن إيمانه وانضمامه لمملكة المسيح جاحدا الشيطان وكل جنوده القمص، لذا يقول كيرلس الأورشليمي» :إن نزول المعمودية كالترول في مياه الموت حيث يسكن تنين البحر وكما سبق ونزل المسيح إلى الأردن في لحظة عماده وحطم قوة التنين، هكذا المعمد يشترك مع المسيح في معركته مع التنين، منتصرًا عليه*PG, 33, 1080A* «، **لذلك يقول الكاهن القبطي مصلياً** «رفعنا أعيننا إليك يا رب. وأعين أنفسنا ناظرة نحوك أيها الرب إلهنا. ونسألك أيها الرب الضابط الكل اله آبائنا الذي خلق السماء والأرض وكل زينتها والذي خلق المياه التي فوق السماء وثبت الأرض على المياه الذي جمع المياه إلى مكان واحد الذي ربط البحر وغلق الأعماق وختمها باسمه، المملوء مجداً وخوفاً الذي كل شيء يخاف ويرتعد من قدام وجه قوته، أنت يا سيدنا ثبت البحر بقوتك. أنت رضضت رؤوس التنين على المياه» . صلوات الخدمات، مكتبة المحبة، ص ٥٢

153 *τὴν τῆς εὐαγγελικῆς παιδεύσεως τελειότητα.*

يتم كمال التعليم الإنجيلي بواسطة الروح القدس، الذي بالفعل يبدأ عمله بعد المعمودية، إذ يقول القديس إمبروسيوس» :الختم الروحي يأتي بعد العماد، لأن بعد الولادة ينبغي أن يُتمم الكمال .وهذا يحدث عندما يستدعي الكاهن الروح القدس لينسكب، روح الحكمة والفهم .روح المشورة والقوة .روح المعرفة والتقوى .روح مخافة الله : حيث أن مواهب الروح القدس هم سبعة .وبالتأكيد كل النعم تشير إلى الروح القدس، لكن هذه السبعة هي أساسية . مثل هذه المواهب هي سبعة تأخذها عندما ترسم بالختم*De sacr, III,8 Botte 74* . «-75نفس المعنى نجده عند القديس كبريانوس فهو يرى أن» المعمدين حديثًا يجب أن يحضروا أمام رؤساء الكنيسة لكي يأخذوا الروح القدس باستدعائه ووضع الأيدي ويتكملون بعلامة ختم الرب *Epist, 83, 90 CSEL, 785*«هنا الختم بعد المعمودية هو نفسه سر الميرون الذي تمارسه الكنيسة بعد العماد.

غضَّةٍ، لذلك وبَّخ داود العظيم اليهود الذين لم يقبلوا التبرير بيسوع المسيح قائلاً: «أحببت الشر أكثر من الخير. الكذب أكثر من التكلم بالصدق. أحببت كل كلام مهلك ولسان غاش» (مز ٥٢: ٣ ــ ٤). وفي الحقيقة لقد جدَّف اليهود بتهور على الابن، لذلك يقول: «يهدمك الله إلى الأبد. يخطفك ويقلعك من مسكنك ويستأصلكم من أرض الأحياء» (مز ٥٢:٥)، بينما لأولئك الذين أحبوا حياة المسيح يقول: «يثمرون في الشيبة يكونون وسامًا وخضرًا» (مز ٩٢:١٤)، وهنا نؤكد أن عمانوئيل لن يعمل فينا بنعمته بدون النار الإلهية والعقلية τοῦ θείου πυρός καὶ νοητοῦ أي بحرارة الروح، وهذا ما أكَّد عليه بولس العظيم قائلاً: "حارين في الروح عابدين الرب" (رو ١٢:١١، انظر ٢ تس ٢:١٣). أيضًا يثبِّتنا يوحنا المعمدان الحكيم قائلاً: "أنا أعمدكم بماء للتوبة ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني الذي لست أهلا أن أحمل حذاءه. هو سيعمدكم بالروح القدس ونار" (مت ٣:١١). لقد بردت محبة اليهود كما هو مكتوب "كثرت خطاياهم" (مز ١٦:٤). أمَّا نحن فبالعكس من ذلك، فإننا حارون جدًا. لذلك يقول: "من سيفصلنا عن محبة المسيح أشدة أم ضيق أم اضطهاد أو جوع أم عُري أم خطر أم سيف" (رو ٨:٣٥).

ويُعدُّ حام الذي يعني اسمه "حرارة" مثالاً لهؤلاء الحارين روحيًا. وكوننا دخلنا إلى قلبٍ متسع مبتعدين عن الحزن الذي يجلبه ناموس الحياة، فهذا ما أشار إليه الثالث، يافث الذي يعني "الفسيح أو المتسع". وحقيقةً قال الله لليهود بفم أشعياء: "لذلك اسمعوا كلام الرب يا رجال الهزء ولاة هذا الشعب الذي في أورشليم" (أش ٢٨:١٤)، وأيضًا: "اسمعوا كلام الرب أيها المرتعدون من كلامه" (أش ٦٦:٥). لكن بولس وهو يتخطى ضيق الناموس متجها نحو أُناسٍ

مؤمنين يقول: "فمنا مفتوح إليكم أيها الكورنثيون. قلبنا متسع. لستم متضيقين فينا بل متضيقين في أحشائكم. فجزاء لذلك أقول كما لأولادي كونوا أنتم أيضًا متسعين. لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين" (٢ كو ٦: ١١ ــ ١٤)، أي الذين اتبعوا وصايا اليهود وهذيانهم غير المفيد. وداود يسبّح مخلّص الكل يسوع المسيح: "في طريق وصاياك أجري لأنك ترحب قلبي" (مز ١١٩:٣٢). وحقًا يتسع ذهننا للحكمة لأن عمانوئيل يبقى ويسكن بالروح في نفوسنا. أي أن مثل هؤلاء يصيرون متحدين بالمسيح بواسطة الإيمان.

إلى ما يرمز الغراب والحمام:

من المؤكد أن الحشد الطاهر لهؤلاء الذين تبرروا بالإيمان هم الأكثر، أما اليهود فهم الأقل، ويمكن للمرء أن يعرف هذا بسهولة. لأنه في الفلك وُضِعَ سبعة أزواج من الحيوانات الطاهرة واثنين اثنين من النجسة، أي من اليهود الذين قتلوا الرب. طبقا لكلام النبي: «ترجع البقية بقية يعقوب إلى الله القدير» (إش ١٠:٢٢، رو ٩:٢٧). إلّا أن ذلك قد حدث بسبب أن بعضهم ممن أتوا من صُلب إسرائيل خرجوا وابتعدوا عن الإيمان، وهذا ما أُشير إليه أيضًا في حادثة الطوفان. لأنه مكتوب: «وأرسل الغراب. فخرج مترددًا حتى نشفت المياه عن الأرض» (تك ٨:٧). وأعتقد أنه كاد يغرق في المياه بسبب أنه لم يجد شيئًا يستند عليه. بالتالي، كون المرء ينحرف عن الإيمان بالمسيح ويحاول أن يبتعد، فإن ذلك يصير سببًا لهلاكه. هكذا يتوجه بولس نحو هؤلاء الذين بعد الإيمان يريدون أن يتبرروا بالناموس قائلاً: «قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس. سقطتم من النعمة فإننا بالروح من الإيمان نتوقع رجاء بر» (غلا ٥: ٤ ــ ٥).

لاحظ كيف أن الغراب الذي أتى من الحيوانات النجسة خرج مترددًا. لأنه كان يوجد البعض من اليهود الذين بعد تبريرهم بواسطة المسيح رجعوا خفية إلى ظلال الناموس، وأعتقد أن يوحنا قد كتب عن هؤلاء قائلاً: «منا خرجوا لكنهم لم يكونوا منا لأنهم لو كانوا منا لبقوا معنا لكي يظهروا أنهم ليسوا جميعهم منا» (١ يو ٢: ١٩). أيضا الروح يقول بوضوح: «إنه في الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان تابعين أرواحًا مضلة وتعاليم شياطين» (١ تي ٤: ١).

انتبه إذن، فالمثال قد صار واضحًا بواسطة نوح. لأنه أرسل حمامتين على مرتين لكي يتحقق من توقف الطوفان. وقد رجعتا إلى الفلك، كما إلى عُشٍّ، وكانت الثانية منهما ممسكةً بغصنٍ في فمها، كما هو مكتوب: «ورقة زيتون خضراء» (انظر تك ٨: ١١). أي أن قديسي المسيح قد أُرسلوا لكي يفلّحوا العالم والبشر ورجعوا كارزين بالسلام (انظر رو ١٠: ١٥)، وهذا ما يشير إليه برجوع الحمامة وفى فمها غصن زيتون. لأن النبات دائمًا هو رمزٌ للسلام. إذن، فهؤلاء الذين تطهروا بالإيمان هم أحباء الله، ولأنهم يحيون حياتهم بوداعة الإنجيل فيعتبرون أنهم مختاري الله. وأمَّا أن يتمرد البعض منهم في الأزمنة الأخيرة، كما قلت من قبل، فالمثال السابق يمكن أن يرمز إلى هذا. فالحمامة الثالثة والأخيرة قد أُرسلت ولكنها لم ترجع، إذ ظلت خارجًا. «واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهور على جبل أراراط» (تك ٨: ٤)، وهذا يعني «شهادة النزول μαρτυρία καταβάσεως» حقًا، فإن المتحدين بالمسيح بالإيمان ـــ كالجبال العالية بسبب عظمة الحياة الإنجيلية δία τό τῆς εὐαγγελικῆς πολιτείας υπερανεστηκός ـــ يكرزون بالكلمة الذي نزل من السماء. والله نفسه قال عنهم بفم النبي: "أنتم شهودي يقول

الرب وعبدي الذي اخترته لكي تعرفوا وتؤمنوا بي وتفهموا أني أنا هو قبلي لم يصور إله وبعدي لا يكون" (أش ٤٣: ١٠)، أي أن مفاخر هؤلاء الذين يحيون حسب وصايا المسيح هي أعظم من انحدار العالم.

رائحة رضا الله من خلال عمانوئيل رئيس كهنتنا

أمَا وقد صار عمانوئيل لنا رئيسَ كهنةٍ Ἀρχιερεύς ومن خلاله صار لنا الحضور أمام الآب، وتجددنا ἀνεκαινίσθημεν وصرنا كما كنا منذ البداية ـــطالما أنه أزال اللعنة λελυμένης τῆς ὀροῖς، أقصد تلك التي أصابت الإنسان الأولـــ فهذا ما سنتحقق منه من خلال ما كُتب بعد ذلك. لأنه مكتوب: «فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه. وكل الحيوانات وكل الدبابات وكل الطيور كل ما يدب على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك. وبنى نوح مذبحًا للرب وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح. فتنسم الرب رائحة الرضا. وقال الرب في قلبه لا اعود ألعن الأرض أيضًا من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضًا أميت كل حي كما فعلت، مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل لا تزال» (تك ٨: ١٨ ـــ ٢١). وبعد ذلك يقول أيضًا: «وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض. ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء. مع كل ما يدب على الأرض وكل أسماك البحر قد دفعت إلى أيديكم» (تك ٩: ١ ـــ ٢). إذن، عندما صار المسيح رئيس كهنتنا وقدَّمنا ذواتنا كرائحة ذكية إلى الله الآب، عندما صرنا جديرين لغنى القبول والرضا ونلنا بثبات الوعد

بأن الموت لن يقوى علينا، مُحيَت تلك الأمور التي كانت سببًا في غضب الله، وذهبت بعيدًا نتائج اللعنة لأننا صرنا مبارَكين بالمسيح الذي له المجد مع الآب والروح القدس من الآن وإلى أبد الآبدين آمين.

عن عُرى نوح ولعنة حام

بعد أن أنهينا كلامنا عن الفلك وتوقف الطوفان وبعدما فلّح نوح الأرض، سوف نتناول الآن ما فعله حام مع نوح. لأن هذا الكلام سيقنع هؤلاء الذين يريدون أن يحيوا حسب الناموس بألّا يعتبروا أي شيء على الاطلاق مساويًا لإظهار الوقار نحو الآباء، وأن يتجنبوا بكافة الطرق الاستهزاء بهم؛ إذ أن ذلك يعتبر إحدى الخطايا الكبرى، حتى لو تصرف الآباء في لحظةٍ ما بما لا يليق بسبب ضعف الطبيعة. وكون أن الوالدين هم دائمًا يستحقون التوقير، فهذا ما يعلمنا إياه الناموس الإلهي الذي رسم لنا منذ البداية أن نحب الإله الواحد الحقيقي من كل النفس والقلب قائلاً: «اكرم أباك وأمك لكي تطول أيام حياتك على الأرض» (خر ٢٠:‏١٢)، لأن الوالدين يجب أن يعتبرا بمثابة أيقونة ومثال لله[١٥٤]، إذ يقول: «اُذكر أنك بهما كُوِّنتَ» (حكمة سيراخ ٧:‏٣٠)، لذلك

---

[154] Ἐν εἰκόνι γὰρ ὥσπερ καὶ ἐν μιμὴσι θεοῦ κατα λογισθεῖν ἂν οἱ γεγεννηκότες.

يربط القديس كيرلس فضيلة إكرام الوالدين بنموذج المسيح الذي اهتم بأمه في أحلك اللحظات على الصليب حين شرح نص (يو١٩:‏٢٦، ٢٧) «فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أُمَّهُ، وَالتِّلْمِيذَ الَّذِي كَانَ يُحِبُّهُ وَاقِفًا، قَالَ لأُمِّهِ: «يَا امْرَأَةُ، هُوَذَا ابْنُكِ». ثُمَّ قَالَ لِلتِّلْمِيذِ: «هُوَذَا أُمُّكَ». وَمِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ أَخَذَهَا التِّلْمِيذُ إِلَى خَاصَّتِهِ»، إذ يقول: «اهتم الرب بأمه، غير مبالٍ بآلامه المرَّة، لأن معاناته لم تؤثر عليه. لقد أعطاها لرعاية تلميذه المحبوب (وهذا هو يوحنا، كاتب هذا الإنجيل)، وأَمَرَه أن يأخذها إلي خاصته، ويعتبرها أمه؛ وأوصي أمه أن تعتبره ابنها بحق بسبب حنانه، أي محبته، وبذلك يكون بدلاً منه وفي مكانه، الذي هو ابنها بالطبيعة... الناموس الذي أمر أن المجدِّف يجب أن يعاقب بالموت قائلاً: «ومن جدف علي اسم الرب فإنه يُقتل» (لا ٢٤:‏١٦)، حكم أيضًا بنفس العقوبة علي

أيضًا مكتوب: «العين المستهزئة بأبيها والمحتقرة إطاعة أمها تقورها غربان الوادي وتأكلها فراخ النسر» (أم ٣٠:١٧)، ومن خلال حام يمكن أن نفهم بسهولة أن من لا يقتنع بضرورة اعتبار الوالدين جديرين بالاحترام، فإنه يخضع للعنة بالعقاب لأنه مكتوب: «وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك سامًا وحامًا ويافث. وحام هو أبو كنعان هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح. ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض. وابتدأ نوح يكون فلاحًا وغرس كرمًا. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجًا. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهم ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء. فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته. وقال مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبدًا لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبدًا لهم» (تك ٩: ١٨ ــ ٢٧).

حدث أن نوحاً كان يزرع كرمًا وتعب كثيرًا في فلاحته، وشرب خمرًا كثيرًا بطريقة غير معتادة، هكذا من محبته المفرطة والخاطئة للخمر بدون وعيٍّ،

الإنسان الذي يستخدم لسانه غير المنضبط ضد والديه قائلاً: «ومن شتم أباه وامه يُقتل قتلاً» (خر٢١:١٧). إذًا، بما أن معطي الناموس قد أمر بأن نقدِّم مثل هذا الإكرام لوالدينا، لذلك كان من الصواب تمامًا أن الوصية المعطاة لنا ينبغي أن تُثبّت بموافقة المخلّص، وبما أن الصورة الكاملة لكل سمو وفضيلة تأتي إلي العالم بواسطته هو اولاً، فلماذا لا توضع هذه الفضيلة أيضًا علي قدم المساواة مع بقية الفضائل؟ فإنه أمرٌ أكيد، أن إكرام الوالدين هو نوع ثمين من الفضيلة. وكيف كان ممكنًا أن نتعلّم أننا ينبغي أن لا نستّخف بالمحبة من نحوهما، حتى حينما نكون مغمورين بفيض من الكوارث التي لا تُحتمل، سوي بمثال المسيح أولاً، وبواسطته هو؟ لأنه هو أفضل من الكل في اهتمامه بالوصايا المقدسة، ولا يتحوّل عن إتباع الواجب في الأوقات العاصفة والمضطربة وليس فقط في أوقات السلام والهدوء « شرح إنجيل يوحنا، المجلد الثاني، ص ٤٧٦.

وخلع ملابسه وظل عاريًا حينما كان في بيته و لم يره كثيرون. لكن ذاك الذي لم يكن لديه الصواب في عقله ــ أقصد بالطبع حام ــ جعل المنظر غير اللائق فرصةً للهزل الدنس، بالرغم من أنه كان يجب أن يستره وبطريقة ما يساعد والده الذي تحت تأثير الخمر سقط في الزلات التي تأتي من جراء هذا الشراب، ولكن حام فعل عكس ذلك، فقد تغافل عن كل هذا وتصرف غير مبالٍ وبدون أي احترام لهذا الذي ولده، وأسرع لكي يقدم هذا المشهد للآخرين مقدمًا هذا العجوز كأنه على مسرح لكي يجذب اخوته للاستمتاع بهذا المشهد والاستهزاء به. لكنهما كانا على مستوى أعلا من حماقته، وأرادا أن يسترا والدهما وغطيا بالملابس هذا المنظر غير اللائق، وسارا بدون أن يشاهدا (عورة أبيهما). لأنهما آمنا أنه من واجب الاحترام أن يخجلا من رؤية فخذي أبيهما، اللذان بواسطتهما ولدا. وعندما أدرك والدهما وشعر بهذا الذي حدث، لعن للتو ذلك الذي لم يفعل الأمر اللائق، والذي لم يتصرف بوقار، بل بطريقة سخيفة. وكان محقًا أن يضع عليه نير العبودية داعيًا إياه كنعان أبو الكنعانيين الذين سوف يولدون منه، الذين سوف يشتركون معه في العقاب. وهكذا لعن كل جنس حام، وعلى العكس بارك نوح الابنين اللذين احترماه.

التفسير الروحي

لكن من الممكن أن يعبَّر هذا النص رمزيًا αἰνιγματωδῶς[١٥٥] عن سر اليهود. بمعنى أن كل الشعوب كانت ثلاثة، الشعب الأول الذي يمثله سام، والمتوسط يرمز له حام الملعون، والثالث الأخير هو يافث الذي يفسَّر بمعنى

[١٥٥] حرفياً الكلمة بمعنى: لُغزياً وهي تعتبر مرادف للظل والمثال والرمز.

«المتسع». عندما أعلن لنا الله الآب ابنه الذي يُرمز إليه بجسد نوح العاري، وبينما هو محتَقرٌ وتعيسٌ من جهة الشكل البشري ἀσχήμονά τε καὶ ἀτρεπῆ διά τὸ ἀνθρώπινον، إلّا أنه من جهة المفهوم الذهني الروحي يشير إلى جمال الألوهة τὸ νοητὸν τῆς θεότητος κάλλος[١٥٦]. كما يقول النبي: «وكمستَّرٌ عنه وجوهنا محتقرٌ فلم نعتد به» (أش ٥٣: ٢). فهذا ما تم بالضبط كما تؤكده طبيعة الأمور: الشعبان الأول والأخير ــ أي الابنان (سام ويافث) اللذان في البداية وبالطبع اللذان دعيا أخيرًا ــ نالا رحمةً من عمانوئيل الذي بواسطته صارا مباركين من الله الآب. لكن ذاك الذي كان بينهما (أي حام)؛ فلأنه استهزأ بنوح (الذي يشير للمسيح) بسبب منظره المحتَقر من جهة طبيعته البشرية، فإنه ظل في العبودية وفقد الحرية التي كانت للآباء. أمّا وإن كان بعض اليهود الذين آمنوا في الأزمنة الأخيرة، سوف يصيرون مشاركين للأولين وبطريقة ما سيسكنون معًا، طالما إنهم يجتمعون في مدينة واحدة، أي الكنيسة،

---

١٥٦ المسيح من جهة الجمال الذهني هو أبرع جمالاً من بني البشر، ويؤكد هذه الحقيقة القديس كيرلس أثناء حديثة عن منارة خيمة الاجتماع، إذ يقول: ''أيضاً تكون المنارة مخروطة لأن عمانوئيل هو فائق الجمال ــ بطريقة أبلغ من أي تعبيرــ من جهة الجمال الذهني بالتأكيد. لأنه مكتوب عنه ''أنت أبرع جمالاً من بني البشر'' (مز ٤٥: ٢). إذن هذه الخراطة الواحدة للمنارة، بالمنظر المدهش، أي الذي يليق بالله، أظهرت لنا عمانوئيل بشكل ممتاز''. السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٧٣. أيضاً السبب الذي جعل المولود أعمى يسجد للمسيح بعد شفائه هو أن قلبه نظر فيه جمال ألوهيته، وهذا ما يؤكد علية القديس كيرلس، إذ يقول: ''وحينما عرف أن ذلك الشخص الحاضر معه والذي يراه بعينيه أنه هو بالحقيقة الابن الوحيد الجنس، فإنه سجد له كإله، رغم أنه كان يراه بالجسد بدون المجد اللائق بالله حقاً. ولكن لأن قلبه قد استنار بحلول قوة المسيح وسلطانه فيه، فإنه يتقدم نحو الأفكار الحكيمة والصالحة بتفكير حسن، وينظر جمال طبيعته الإلهية التي لا يُعبّر عنها؛ لأنه لو لم يكن قد آمن أنه الله لما كان قد سجد له''. شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ٧٠٢ ــ ٧٠٣.

فهذا ما أشار إليه قائلاً: «ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام. وليكن كنعان عبدًا لهم» (تك ٩: ٢٧)، أي الثالث والأخير. لأن يافث هو الثالث «فيسكن في مساكن سام (أي الأول) وليكن كنعان عبدًا لهم». هذا ما اعتقد أن يسوع قاله لجموع اليهود: «الحق الحق أقول لكم إن كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية. والعبد لا يبقى في البيت إلى الأبد. أما الابن فيبقى إلى الأبد فإن حرركم الابن فبالحقيقة تصيرون أحرارًا» (يو ٨: ٣٤ ـــ ٣٦). لكن بسبب أن اليهود المعاندين استهزأوا بتدبير خلاصنا و لم يحترموا إعلان الآب الذي صار لنا، ظلّوا في روح العبودية.

عن البرج وبنائه

لم يكن ببعيد عن الطبيعة البشرية أن تحيا في الخيرات وتحيا حياةً رغدةً لأن مبدع الكل ὁ τῶν ὅλων ποιητής[١٥٧] قد جعلها كاملةً وملآنةً من كل خير. ولكنها انقادت كثيرًا نحو الخطأ الذي كان في البداية، وفقدت ـــ تدريجيًا ـــ تلك الطبيعة التي كانت تبدو محترمة وكاملة من حيث اللياقة الكاملة. على سبيل المثال، فقد خانت حالة عدم الفساد في آدم لأنه قيل له: «من التراب وإلى التراب تعود» (تك ٣:١٩). هنا حُرِمَ آدم من روح الله. ولأن الله رأى أن البشر

[١٥٧] تترجم أحياناً: خالق الكل لكن حرفياً: مبدع الكل، أي حين يخلق الله فهو يصنع بإبداع ما يخلقه، بحسب القديس كيرلس يؤكد على أن الابن هو خالق وصانع ومبدع في شرحه نص يو١:١، إذ يقول: «الإنجيلي يقدّم لنا الابن الوحيد كخالق وصانع: «**كل شيء به كان**» وأيضاً «**وبغيره لم يخلق شيء**»، وبذلك أغلق إلى الأبد المدخل المؤدي إلى ضلال تعدد الآلهة. وأعلن الابن الوحيد، للذين لم يعرفوه (الوثنيين) كخالق الكلّ. وبهذه الكلمات يقول إن الخليقة قد خلقها الابن الوحيد، لكي يَظهر أنه لم يأت أحد إلى الوجود إلّا بقوّة الابن الوحيد، فهو القوّة التي أتت بكلّ الكائنات من العدم إلى الوجود». شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ٧٧.

أرادوا أن يفكروا فقط في الحماقة والشهوات الدنسة قال: «لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد. لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة» (تك ٦: ٣)، واحتمل الإنسانُ شرًا آخر. بمعنى أن بعض الذين أُدينوا بسبب الأفكار الغبية والهذيان السخيف قد غيَّروا اللغةَ وجعلوها مختلفةً. لأنه يقول: «وكانت الأرض كلها لسانًا واحدًا ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقًا أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبنًا ونشويه شيًّا. فكان لهم اللبن مكان الحجر وكان لهم الحمر مكان الطين. وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجًا رأسه بالسماء. ونصنع لأنفسنا أسمًا لئلا نتبدد على وجه كل الأرض. فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونها. وقال الرب هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض» (تك ١١: ١ ــ ٨). لقد وبَّخ إله الجميع هذه الأعمال المتهورة. إنه لم يَخَف اكتمال البرج، ولكن بسبب أنهم أرادوا أن يفعلوا شيئًا للتفاخر فأوقف ــ من لطفه ــ بطريقة مباشرة أعمالهم عن طريق بلبلة ألسنتهم مُظهِرًا أن الأفكار التي تتجاوز قدرات الإنسان، عندما تنقاد إلى غير الممكن، لا يتركها الله بدون توبيخ، إذ بلبل الألسنة συγχεῖ τάς γλώσσας لأن هذه الأعمال التي تحتاج فقط لقوة الخالق، وأيضًا لسلطانه، ليس لأحد سلطان عليها إلَّا هو فقط. وحسنٌ أيضًا أن يُنسب تحوّل اللسان وبلبلة الكلام إلى الله الوحيد والحقيقي. لكن هذا الحدث بطبيعته لا بُد وأن يثير ضحكنا؛ لأنني لا أعرف كيف تخيلوا أنهم سوف يمكنهم بالأحجار والطين أن يبنوا برجا عاليًا حتى السماء؟

بلبلة الألسن ترمز إلى تشتيت اليهود

ولكن من الممكن ـــ على ما أعتقد ـــ أن هؤلاء أيضًا كانوا يمثلون صورةً لعدم تبصُّر وطيش اليهود، الذين ظنوا أُهم سيكونون في عِشرة مع الله، وأن هذه المسيرة نحو الأمور العالية سوف لا يحققوها عن طريق تفضيل إتمام الأعمال التي يريدها الله ويحبها، ولا بالطبع عن طريق الإيمان بالمسيح، ولكنهم فكّروا بجهلهم أُهم ببناء برج عالٍ سوف يحققون الأمور السامية فقط ليكونوا في مجد الآباء (الأجداد). لأُهم كانوا دائمًا وفى كل مكان يُظهرون اسم إبرآم، وقد بنوا مجدهم بالتفاخر بالأمور الأرضية. لكن الله وبَّخ أولئك الذين بنوا البرج وقسَّمهم إلى لغات كثيرة. إذن، نقول إن هذا الذي صار آنذاك لأولئك كان بمثابة نبوةٍ عن كل الذي حدث لليهود. أي، بسبب أُهم رغبوا كثيرًا جدًا في الأمور العالية وكانوا يرومون لمسيرة نحو العلويات عن طريق الأمور (التفاخر المستمر) التي لا تفيد، شتتهم الله إلى ألسنة كثيرة، أي إلى كل الأمم. وحقًا شُتتوا مضطهدين من بلادهم ومدينتهم وبيوتهم وصاروا شاردين بين الأمم، حسب كلام النبي (انظر مز ١٠٦: ٤١). لكن في المسيح كان تعدد الألسنة هو علامة صالحة[١٥٨]. لأن التلاميذ عندما كانوا مجتمعين في يوم الخمسين «صار بغتةً من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين. وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأُها من نار واستقرت على كل واحد منهم. وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا» (أع ٢: ٢ ـــ ٤). إذن، ما الذي تقوله هذه الكلمات؟

---

158 *Ἀλλ' ἐν Χριστῷ το πολύγλωσσον σημεῖον ἦν ἀγαθόν.*

إن الروح القدس منح لنا المسيرة نحو العلو وتحقق الصعود إلى السموات بالإيمان بالمسيح، ويجب أن تتحد كل لغات المسكونة أي الشعوب أو الأمم بمعونة الروح. لأن كل لسان للبشر قَبِلَ المسيح أصبح يكرز بأسراره. إذًا في حالة تعطيل بناء البرج وتشتت الناس في كل الأمم كان تعدد الألسنة πολυγλωσσία رسالة مسبقةً تقول بأنه عند مجيء المسيح ستكون هذه أداةً للوحدة[١٥٩] بمعونة الروح القدس وللصعود إلى فوق. لأن المسيح صار لنا «برج قوة» حسب كلمات المزمور (انظر مز ٦١: ٣) الذي يحملنا إلى المدينة السمائية ويوحِّد البشر بطغمات الملائكة.

إبرآم وملكي صادق

أعطى الله لنا الناموس عونًا[١٦٠]. لأنه هكذا مكتوب (انظر غلا ٣: ٢ ــ ٤). وأيضًا إن الناموس يُربي Παιδοκομεῖ[١٦١] ويعطى الكمال τελειοῖ[١٦٢] لسر

[159] εἰς ἑνότητα διὰ πνεύματος συνδρομῆς.

[160] *Νόμον μέν εἰς βοήθειαν δέδωκεν ὁ τῶν ὅλων Θεός.*

انظر أش ٨: ٢٠ س، نفس التعبير الذي نجده في القداس الغريغوري: «أنت يا سيدي حولت لي العقوبة خلاصاً كراع صالح سعيت في طلب الضال، كأب حقيقي تعبت معي أنا الذي سقطت، ربطتني بكل الأدوية (أدبتني بكل التأديبات) المؤدية إلى الحياة أنت الذي أرسلت لي الأنبياء من أجلي أنا المريض، أعطيتني الناموس عوناً أنت الذي خدمت لي الخلاص لما خالفت ناموسك، كنور حقيقي أشرقت للضالين وغير العارفين».

[١٦١] دور الناموس كان مثل دور المربي، وهذا ما أكده القديس كيرلس، في موضع آخر، حين قال: "يتميز الكتابُ المقدس بالدقة، ولا يوجد فيه شيءٌ بلا فائدة. بل لعلك تلاحظ كيف أنَّ الرمزَ يُظهر لنا أنَّ الناموسَ إنما يعمل كمربي يقودنا إلى المسيح. ويتضح لنا هذا من أنَّ مذبحَ العبادة الناموسية قد وُضع بالقرب من المداخل التي تؤدى إلى قدس الأقداس. أي أنَّ الناموس يقودنا إلى بداية أسرار المسيح، وإلى مبادئ الدخول لمعرفته الدقيقة. لكن لا يقودنا أبداً إلى قدس الأقداس، أي إلى الخيمة الداخلية حيث يوجد المسيحُ الفائق الجمال، كلمة الله، والنور، والخبز الحي، والرائحة الذكية لله الآب". السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، المقالة العاشرة ص ٣٩٢

المسيح. وليس من الصعب البتة أن نتحقق من ذلك من الكتب المقدسة، إذ أننا نستمد إيماننا بالمسيح عندما نجمع الشهادات الحقيقية من هذه الكتب. ولكنني أعتقد أن بولس العظيم وهو يتحدث عن العهدين يقول: «فإنه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها. إذ الناموس لم يكمل شيئًا ولكن يصير إدخال رجاء أفضل به نقترب إلى الله» (عب ٧: ١٨ — ١٩). بالتالي، فأن يسير شخصٌ بسهولة ليقترب من الله، لا يتم ذلك عن طريق الوصية الموسوية الأولى، بل بالرجاء الذي أُدخل بعد ذلك، والذى آمن به بولس البار الذي كان يهدف إلى الحق. لقد أُبطل كل ما يخص الناموس، وتم إقرار أن الوصية السابقة لا تستطيع أن تقدِّم أي كمال، حسب المكتوب في الرسالة إلى العبرانيين: «فإنه لو كان ذلك الأول بلا عيب لما طُلِبَ موضعٌ لثانٍ. لأنه يقول لهم لائمًا هوذا أيام تأتي يقول الرب حين أكمِّل مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدًا جديدًا. لا كالعهد الذي عملته مع آبائهم يوم أمسكت بيدهم لأخرجهم من أرض مصر لأنهم لم يثبتوا في عهدي وأنا أهملتهم يقول الرب لأن هذا هو العهد الذي أعهده مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب أجعل نواميسي في أذهانهم وأكتبها على قلوبهم وأنا أكون لهم إلهًا وهم يكونون لي شعبًا ولا يعلِّمون كل واحد قريبة وكل واحد أخاه قائلاً أعرف الرب لأن الجميع سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم لأني أكون صفوحًا عن آثامهم ولا أذكر

---

[١٦٢] يوضح القديس كيرلس هذه الحقيقة حين يقول: "الناموس لم يوصّل إلى الكمال، أما ربّنا يسوع المسيح فلم يُظهِر لنا ظلال الأشياء بل الحقيقة نفسها صراحة، فهو لا يرسم لنا مختصراً للفضيلة بواسطة مثالات ورموز — كما فعل موسى — بل يضع الحقيقة مكشوفة في نور ساطع، لكي يجعل الإنسان كاملاً في البرّ" شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص ٢٢٨.

خطاياهم وتعدياتهم في ما بعد» (عب ٨: ٧ ــ ١٢)، ثم يقول مباشرةً: «فإذ قال جديدًا عتَّقَ الأول. وأمَّا ما عَتُقَ وشاخ فهو قريب من الاضمحلال» (عب ٨:١٣). بالتالي، فإن الناموس غير قادر، ويبدو ضعيفاً جدًا من حيث مقدرته على منح القداسة، وأن البر بالمسيح ἡ ἐν Χριστῷ δικαίωσις[١٦٣] هو أعظم. ونسمع الله يُكرَز به بوضوح بفم الأنبياء الذين كرّموا عبادة الناموس وهاجموا بشدة الوصية القديمة قائلين مرةً: «اغتسلوا تنقوا» (أش ١:١٦)، وأيضاً: «أريد رحمةً لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات» (هو ٦: ٦، انظر مت ١٢:٧). لأننا قد رُحِمنا بواسطة المسيح ومن خلاله رأينا ــ ذهنيًا ــ الآب، وعرفنا الله[١٦٤].

وبالرغم من أنه من السهل أن أجمع آلافاً من هذه الأقوال التي قيلت، وأضيف عليها أقوال الأنبياء والتي بواسطتها يستطيع المرء أن يرى بوضوح أن العبادة بحسب الناموس هي غير مقبولة عند الله، لكن حتى لا يبتعد الحديث عن هدفنا بعيدًا، فإننا نستمر في المضي في طريق آخر، ونأتي الآن إلى إبرآم. عندما

---

١٦٣ يؤكد القديس يوحنا ذهبي الفم أن البر نناله فقط بالإيمان بالمسيح وليس بالناموس، إذ يقول: "ما هو الأمر الذي كان يُريده الناموس؟ كان يريد أن يُبرر الإنسان. لكنه لم ينجح، لأنه لا يوجد أحد قد تمم الناموس. لأن ما كان يصبو إليه الناموس هو تبرير الإنسان، وكانت جميع الممارسات تدور حول تحقيق ذلك الهدف ــ أي تبرير الإنسان ــ مثل الاحتفالات، والوصايا، والذبائح، وكل الأمور الباقية. لكن هذا التبرير قد حققه المسيح بأعلى درجاته، بالإيمان، شرح الرسالة إلى رومية، الإصحاح العاشر، ص ٤٢٧.

١٦٤ بالحري الله هو الذي جعلنا نعرفه، وهذا ما يؤكد عليه القديس يوحنا ذهبي الفم، إذ يقول: "إنه جعلنا حكماء وفطناء، حسب الحِكمة الحقيقية والفِطنة الحقيقية. يا لها من محبة! لأنه أعلن أسراره لنا، لقد عرّفنا ما بداخل قلبه، هذا هو السر المملوء بكل حِكمة وفِطنه" شرح الرسالة إلى أفسس، ترجمة د. سعيد حكيم يعقوب مراجعة د. جورج عوض إبراهيم، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ٢٠١٢م، الإصحاح الأول، ص ٤٣-٤٤.

عَلِمَ أن لوطاً ابن أخيه في خطر، لأنه إذ كان ساكنًا في سدوم وأصبح أسيرًا، سلَّح أهله وبعض محاربيه الآخرين «أشكول وعانر وممرا» وهاجم ببسالة وانتصر وحرَّر لوطًا من أطماع أولئك وخلَّص معه الحشد الذي ظُلِم وكان في خطر معه. ورجع إلى وطنه وحمل عينات النُصرة الوقورة على الأعداء، وخرج أولئك الذين خاطر من أجلهم لاستقباله، إذ مكتوب الآتي: «فخرج ملك سدوم لاستقباله بعد رجوعه من كسرة كدر لعومر والملوك الذين معه إلى عمق شوي الذي هو عمق الملك. وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزًا وخمرًا وكان كاهنًا لله العلي وباركه وقال مبارك إبرآم من الله العلي مالك السموات والأرض. ومبارك الله العلي الذي أسلم اعداءك في يدك. فأعطاه عشرًا من كل شيء» (تك ١٤: ١٨ ــ ٢٠، عب ٧: ١ ــ ٣). انتبه إذن، فإن أمثلة τούς τύπους[١٦٥] كمال المسيح تشرق بوضوح في شخص ملكي صادق، ومستوى العبادة الناموسية يوجد في موضع أدنى[١٦٦] إذ أنه لا يوجد أيُّ نزاع في أن يُبارك

---

[١٦٥] هنا نتقابل مع التفسير النماذجي أو المثلاني أو النمطي، يتميز هذا التفسير للكتاب المقدس عن التفسير الرمزي أو التأويلي والذي يُنسب إلى مدرسة إسكندرية وأيضًا عن التفسير الحرفي التاريخي المنسوب إلى مدرسة إنطاكية، فكلمة "مثال" هنا باليونانية هي *Τύπος* أو «*Type*» بالإنجليزية وهي تعني نموذج أو مثال أو نمط يحمل صور ترمز إلى الحقائق التي أُعلنت في العهد القديم، حقائق أُخروية تتم في الأزمة الأخيرة بواسطة المسيح — والسمة الجوهرية في هذا التفسير هو *Christocentric* أي أن المسيح هو مركز كل شيء، فآدم ونوح وموسى هم مجرد أمثلة أو نماذج لآدم الثاني ونوح الجديد وموسى الجديد أي» المسيح .«

[166] *τῆς κατά νόμον λατρείας τὸ μέτρον ἐν μείοσιν*

العبادة الناموسية هي في وضع أدنى، إذ يقول في موضع آخر القديس كيرلس: «العبادة الناموسية، لم تكن فيها عطية الروح القدس، لكن أُعطي هذا بالحري لأولئك الذين تبرروا بالإيمان، فقد أخبرنا عنها يوحنا الحكيم قائلاً: «لأَنَّ الرُّوحَ الْقُدُسَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أُعْطِيَ بَعْدُ لأَنَّ يَسُوعَ لَمْ يَكُنْ قَدْ مُجِّدَ بَعْدُ» (يو ٧: ٣٩)، أي لأن المسيح لم

الأصغر من الأكبر كما هو مكتوب (انظر عب ٧:٧). إن جذر الإسرائيليين هو بالطبع إبرآم والسبط الحسن الذي أتى منه هو اللاوي الذي كان متوَّجًا بكرامات الكهنوت الإلهي «لكن كان ما زال موجودًا في صلبه»، لأن إبرآم الطوباوي هو الذي يمثل قوةً للنسل الذي سوف يُولد منه. وهذا، على ما أظن، هو ذاك الذي ــ بطريقةٍ حكيمةٍ ــ قيل عن لاوي؛ لأنه كان لا يزال في صلب أبيه عندما تقابل مع ملكي صادق. لقد باركه وفق ناموس البر في اسم يسوع الذي كان ملكي صادق مِثالاً له[١٦٧]. ومن المؤكد أن هذه البركة تعد الأكثر فائدة بدون أية مقارنة. وكيف يشك المرء في هذا؟ إننا سوف نحصر حديثنا تدريجيًا في ذلك، دون أن نفحصه بالتفصيل.

مَنْ هو ملكي صادق؟

١ــ ربما يتساءل الذي يريد شن حرب ضد المسيح، ويقول: مَنْ هو ملكي صادق؟ لأن البعض مثل السكارى يعبِّرون عن آراء مختلفة عنه مترلقين بطيشٍ إلى جهالات مشتركة فيما بينهم، بدون أن ينتبهوا جيدًا للأعراف المتبعة في الكتاب المقدس. البعض يقول إن الروح القدس أخذ شكلاً مثل شكلنا وبه استقبل إبرآم

يكن قد قام بعد. ولكن بعد ذلك تزيَّنت الطبيعة البشرية بالروح وبشركتها مع المسيح» السجود والعبادة، المقالة التاسعة، ص ٣٩٩.

167 *Εὐλόγηται τοίνυν ἡ κατά νόμον δικαιοσύνη παρά τῆς ἐν Χριστῷ λατρίας ἧς τύπος ὁ Μαλχισεδέκ.*

يقول القديس يوحنا ذهبي الفم في شرح عب ٦:٥: «أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكيصادق» «مَن هو الكاهن الذي على رتبة ملكي صادق؟ ليس آخر سوى الابن. لأن الجميع كانوا خاضعين للناموس، الجميع حفظوا السبت، واختتنوا. لا أحد يمكنه أن يُشير إلى شخص آخر (سوى الابن)» تفسير الرسالة إلى العبرانيين، مرجع سابق، ص ١٣٩.

المنتصر. آخرون لا يقبلون هذا الرأي (لأهم يخافون، على ما أظن، أن يعد هذا الرأي غير لائق)، هؤلاء يزعمون أن ملكي صادق هو قوة δύναμιν[١٦٨] هيئة ومتألقة من جمهور الملائكة المختارين. وكما يبدو فإن عقلهم الخامل والطائش قد قادهم بالتأكيد إلى هذا الرأي. لأهم يقولون إن كلمة ساليم تترجم «سلام» وملكي صادق يدعى ملك ساليم. فيقولون إننا لا ينبغي أن نعتبره إنسانا بل نعتبره روحًا. لأن السلام هو صفة من صفات الله، وهو فقط الذي يُعتبر رئيس السلام. ويضيفون إلى هذا، إنه إذا كان ملكي صادق لا بداية لأيامه ولا نهاية لحياته، ألا يكون من الجهل أن ننسب اللابداية والخلود إلى الإنسان؟ اذًا لابد وأن يكون المقصود به الروح. لأنه يقول إذا كان يعادل ابن العلي، ويبقى إلى الأبد، فلا يمكن بالنسبة للجميع أن يعتبرونه «إنسانا». بعد ذلك يضيفون بعض الأفكار الأخرى معتقدين انهم يثبتون كلامهم كحقيقة، وأنا لا أعرف كيف ابتدعوا هذا الكلام.

معنى كلمة ملكي صادق

لكن من الضروري أن نقول هذا الذي يخطر على ذهننا، مفضّلين أن نقارن هذا الذي نؤمن بأنه صواب بتلك الآراء أولاً، فطالما هم يؤمنون بأهم يعرفون الأمور الصحيحة فسوف يوافقون على أن ساليم هي مدينة والتي لم يكن ملكي صادق هو الملك الأول والوحيد عليها، بل كان كثيرون قد ملكوا عليها قبله، وأيضًا كان يوجد آخرون بعده. وإن كان هناك شخص يظن أننا نكذب فليأتِ لنا ببرهان على أن ملكي صادق يملك حتى الآن على ساليم، بالرغم من أن

[١٦٨] يقصد أهم يظنون أنه قوة وليس شخصية حقيقية.

المدينة اليهودية هي واحدة وقد تغير اسمها الآن إلى أورشليم والتي تعني «رؤية السلام ὅρασις δέ εἰρήνης». لذلك فإن الانسياق وراء إيجاد تفاسير لمعاني الأسماء والتهور في تغيير ما هو واضح ومعروف يعتبر نموذجًا كاملاً للجهل[169]. إن الحديث في هذا الموضوع بهذه الطريقة يدل على الجهل والغباء التام. لأن أورشليم كما قلت سابقا تعني «رؤية السلام» أو «أسمى من الموت». وإسرائيل تعني «العقل الذي يرى الله»، ويهوذا «المديح» أو «التسبيح». لكن كم من الملوك الأغبياء والدنسين كانوا يحكمون لفترات في أورشليم وإسرائيل ويهوذا، وهذا ما أعلنه الكتاب المقدس بوضوح شديد.

الفرق بين معاني الأسماء وطبيعة الأشياء

إذن بالتالي، فبسبب أنه لا يمكن أن يوجد ملك أرضي يعتبر «رؤية سلام» و«مديح وتسبيح»، و «العقل الذي يرى الله»، وأيضًا بحجة أن هذه الصفات لا تنطبق على الإنسان، كما يدَّعون، يرون منساقين إلى معاني الأسماء، أن الذين كانوا موجودين لفترات هناك (أي في أورشليم وإسرائيل ويهوذا) هم ظلالٌ وأصنام وليسوا بشرًا، وأيضًا بالحري هم أرواح كما في حالة ملكي صادق. ولكنك سوف تعلم أن تفسير الأسماء لا يدل بأية حال على طبيعة الأشياء[170].

---

[169] هنا القديس كيرلس يوضح أن التفسير الصحيح لا يعتمد اعتماداً كلياً على التحليل اللغوي لمعاني الكلمات فالإيمان والاستنارة بفعل الروح القدس والعلاقة الحية للمفسر بالكنيسة جسد المسيح هي من الأمور اللازمة لضمان التفسير الصحيح لنصوص الكتاب. لذلك النموذج الكامل للجهل بحسب القديس كيرلس بالنسبة لقضية التفسير هو الاعتماد فقط على التفسير اللغوي للكلمات.

[170] هذا المبدأ نجده بوضوح عند القديس أثناسيوس في تفسيره لنصوص الكتاب أثناء رده على الأريوسيين "فليست الألفاظ هي التي تقلل من قدر طبيعة الأشياء بل بالحري فإن طبيعة الأشياء هي التي تضفي المعنى على

لأننا لو صدقنا أن الأسماء تدل على طبيعة الأشياء، عندئذٍ لا يمكن للمرء أن يعتقد أن أورشليم التي هي «رؤية السلام»، لا تجهل اسم المسيح، إذ أنه هو «سلامنا» بحسب الكتاب (انظر أف ٢:١٤). ونحن نتساءل كيف تُعتبر أورشليم «رؤية السلام» إن كانت لم تؤمن بالمسيح الذي هو (سلامنا)، المسيح الذي بواسطته تحقق لنا الاقتراب إلى الآب (انظر رو ٥:٢، أف ٢:١٨)، واتحدنا به روحيًا «الذي جعل الاثنين واحدًا» (أف ٢:٤) وخلق الشعبين (الاثنين) في نفسه إنسانًا واحدًا جديدًا، وإن كانت «فوق الموت»، أي «أفضل وأسمى من الموت»، فكيف دُمرت التعيسة بسبب عدم إيمانها بالمسيح؟ وهو الذي قال لليهود: «إن لم تؤمنوا أني أنا هو تموتون في خطاياكم» (يو ٨:٢٤). وإن كان معنى اسم إسرائيل هو «العقل الذي يرى الله Νοῦς ὁρῶν Θεόν"، فلماذا لم يرَ مجد الله، الذي بواسطته وفيه عرفنا الآب؟ وكيف استولى عليهم الظلام، أو كيف قال الرب عن أولئك الذين يعتبرون قادة لهم: "اتركوهم هم عميان قادة عميان" (مت ١٥:١٤)؟ لأنه أيُ عمىً ذلك الذي يقصد به أن يصيب الذهن الذي يرى الله؟ وهكذا نجد أنه من الجهل المطبِق أن ننسب دائمًا معاني الأسماء إلى طبيعة الأشياء. إذن، فإنني أعتقد أنه لا يوجد شيء على الإطلاق يمنعنا أن نعتبر أن ملكي صادق كان إنسانًا، وأنه كان في فترةٍ ما ملكًا على ساليم حتى إن كان تفسير اسم هذه المدينة يعنى "سلام".

الألفاظ وغيرها. لأن الألفاظ تأتي تالية لها" القديس أثناسيوس الرسولي، ضد الأريوسيين المقالة الثالثة، فقرة ٣: ص ١٤ ــ ١٥.

لكن ليتنا نفهم ذلك بعد كل ما قيل لأنه مكتوب إننا نرى الأسرار الإلهية الآن رؤية غير واضحة أي كما في مرآة وفي لغز[١٧١] (انظر ١ كو ١٢:١٣). أي بسبب أننا لا نستطيع أن نجعل هذه الأحداث تعبِّر تعبيرًا كاملاً عن الطبيعة الإلهية غير الموصوفة، فإننا نجمع آلاف الأمثلة حتى يمكننا ـــ باعتدال ـــ أن نقول شيئًا عن الطبيعة الإلهية. وسر المسيح جدير بأن نتحدث عنه باستفاضة، إذ أن سبب تأنسه يفوق فهم أي شخص. بمعنى أن سببَ التدبير عميقٌ جدًا، إذ أن الوحيد الجنس هو الله ومولود من الله بحسب الطبيعة وصار إنساناً وحلَّ بيننا[١٧٢] (يو ١٤:١) وصار رسولنا ورئيس كهنتنا « Απόστολος» καί «Αρχιερεύς» «ἡμῶν» وحررنا من ثقل لسان الناموس (أنظر خر ٤: ١٠)، ونقلنا إلى صوت التعاليم الإنجيلية الحلو، وليس هذا فقط، ولكن بينما كنا

---

171 *Βλέπομεν γάρ ἄρτι δι' ἐσόπτρου καί αἰνίγματος τά θεῖα μόλις μυστήρια.*
يشرح القديس كيرلس هذه الرؤية مؤكداً على دور المسيح الذي يقودنا إلى الآب أثناء شرحه لآية يو٦:١٤، إذ يقول: «ليس أحد يأتي إلى الآب إلى بي»، هيَّا بنا نعطي الانتباه لهذه النقطة في حديثنا؛ عندما نفحص السؤال عن كيف يمكن للإنسان أن يأتي إلى الآب. نجد أننا نقترب منه بطريقتين: إما بأن نصير قديسين بأقصى ما هو ممكن للبشرية، وبهذا يمكن أن نلتصق بالإله القدوس، حسب المكتوب: «تكونون قديسين لأني أنا قدوس» (لا ٢:١٩)، وإما بالطريقة الثانية، إذ نصل إليه بالإيمان والتأمل، أي إلى معرفة الآب التي كما لو كانت « في مرآة في لغز» كما هو مكتوب (١كو١٢:١٣): ولكن لن يستطيع إنسان إطلاقًا أن يكون قديسًا ويتقدم في حياة الفضيلة، إن لم يكن المسيح هو الذي يقود خطواته في كل شيء: ولن يستطيع أحد إطلاقًا أن يتحد بالله الآب إلَّا عن طريق وساطة المسيح. لأنه هو الوسيط بين الله والناس، فهو من خلال نفسه وفي نفسه يوحِّد البشرية بالله» شرح إنجيل يوحنا، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ٢٠١٢م، المجلد الثاني، ص ١٤٩-١٥٠.

172 *Θεός γάρ ὤν καί ἐκ θεοῦ κατὰ φύσιν ὁ Μονογενής γέγονεν ἄνθρωπος· «καί ἐσχήνωσεν ἐν ἡμῖν»*

مأسورين، حرَّرنا منتصرًا على رئيس هذا العالم، وأنقذ الراقدين من أحضان الهاوية. وبما إنه أسَّس الكنيسة وعُيِّن رئيسًا لنا، فقد عَبَرَ بنا الأردن، بالإيمان به، وإذ أعطانا الختان الروحي δέδωκε δέ τήν ἐν Πνεύματι περιτομήν فقد أدخلنا إلى ملكوت السموات.

هارون رمزٌ للسيد المسيح

وفيما يختص بما صار لنا، فمن المؤكد أنه يكفي أن نستشهد بالإنجيلي الملهم بالروح الذي قال: «الكلمة صار جسدًا وحلَّ بيننا» (يو ١: ١٤). وهو (المسيح) الذي مُسح كاهنًا ورسولاً (انظر عب ٣: ١)، ويمكن أن يُرمز إليه بوضوح من خلال اختيار هارون. فإن هارون مُسح بالزيت المقدس وأُقيم رئيسًا وقائدًا للكهنة والشعب. وكان يلبس صدرةً من الذهب على كتفي ردائه، وصفيحةً من ذهب كُتب عليها اسم الرب (انظر خر ٢٨: ٣٦)

هذا بالتأكيد بكل وضوح هو رمز لمملكة مخلصنا[١٧٣]، وبطريقةٍ ما كان لها تاجٌ متألقٌ. أمّا وإن كانت العبادة بواسطة المسيح أسمى من العبادة الناموسية، فهذا ما يمكن للمرء أن يراه جيدًا في هارون، وبالتأكيد في ملكي صادق. بمعنى أن اللاويين قد أخذوا العشور طبقًا للناموس من أحفاد إسرائيل، لكن الله أمر أن يُعطى عشر هذه العشور لهارون كرئيس كهنة، لأنه وفق الترتيب الذي وُضع له وهو يقوم بالتقديس، أخذ كراماتٍ عظيمة. لاحظ إذن، أن هارون كان يشير إلى المسيح. وكان كل اللاويين الآخرين يقدمون الذبائح التي أمر بها الناموس، وكانوا

173 *τῆς του Σωτῆρος ἡμῶν Βασιλέως σύμβολον.*

يقفون في الخيمة في الصف الأول، وواحد منهم فقط كان يدخل مرة في السنة «ليس بلا دمٍ يقدِّمه عن نفسه وعن جهالات الشعب» (عب ٩: ٦)، وذلك حسب ما أمر به الناموس. وهذا يمكن أن يكون رمزًا للمسيح «الذي تألم مرة واحدة من أجل الخطايا» (١ بط ٣: ١٨)، ودخل إلى فوق إلى مسكن قدس الأقداس. لأنه لأجلنا فتح هذا الطريق مقدِّسًا الكنيسة بدمه.

وموسى العظيم، وهو يقبل رسامته لإتمام الرسالة التي حددها له الله، توسَّل إلى الله قائلاً: «استمع أيها السيد لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمت عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان» (خر ٤: ١٠) وأضاف إلى ذلك «ارسل بيد مَن ترسل» (خر ٤: ١٣)، «فحميَ غضب الرب على موسى وقال أليس هارون اللاوي أخاك. أنا أعلم أنه هو يتكلم وأيضا ها هو خارج لاستقبالك فحينما يراك يفرح بقلبه فتكلمه وتضع الكلمات في فمه. وأنا أكون مع فمك وأعلمكما ماذا تصنعان وهو يكلم الشعب عنك وهو يكون لك فَمًا وأنت تكون له إلهاً» (خر ٤: ١٤ ــ ١٦). وحقًا كان الناموس القديم ثقيل اللسان، و لم يعرف أن يتحدث بطريقة حسنة، وفقط بالكتاب كلَّمنا متلعثمًا .بالأقوال التي أراد الله أن يخبر بها، بينما كان فم موسى الحسن رمزًا للمسيح، المسيح الذي حوّل الأمثلة أو النماذج إلى حقيقة[١٧٤] وقدَّم للجميع في

---

[174] *ὁ Χριστός· μεθιστάς τούς τύπους εἰς ἀλήθειαν.*

أيضًا في تفسير القديس كيرلس لإنجيل لوقا وتعليقه علي معجزة إشباع الجموع وموقف اليهود من المسيح يقول «إن اليهود في رأي، ليس لهم حجة واحدة يمكن أن تنفعهم أمام منبر الله يعتبروا بها عدم طاعتهم، لأن مقاومتهم لا تبدو معقولة. ولماذا الأمر هكذا؟ لأن ناموس موسي يمكن أن يقودهم بواسطة الظلال والرموز إلي سرَّ المسيح. لأن الناموس ــ أو بالحري الأشياء التي يحتويها ــ كان رمزيًا وكان سرَّ المسيح مصَّورًا فيه بواسطة المثال

كل مكان المعرفة التي كانت ضرورية. لذلك يقول في المزمور التاسع والأربعين: «اسمعوا هذا يا جميع الشعوب. اصغوا يا جميع سكان الدنيا» (مز ٤٩: ١).

أي أن المسيح قد صُوِّرَ في شخص هارون[١٧٥]، ولعلك لا تتعجب ــبل مما يعتبر أكثر غرابةــ عندما تعرف أن السيد المسيح أعلن مقدار سموه لأولئك الذين عرفوه عن طريق الناموس وذلك في اللحظة التي ظهر فيها كإنسان لأممٍ أخرى وحرّر إسرائيل من الأسر، وأسس المدينة المقدسة، وذلك لأن لديه قوة لا تُقهر تفوق الجميع. لكن سوف أجعل الكلام واضحًا متحدثًا بقدر الامكان بإيجاز.

لقد وقعت الأمة اليهودية مرةً في الأسر، وأُنهك الإسرائيليون خلال أزمنة كثيرة في بابل مقهورين من العبودية البربرية القاسية، ولكن عندما تولى كورش سلطة الحكم على المديانيين والفارسيين، أعلن الحرب على الأشوريين الذين كانوا متاخمين وجيران، واستولى آنذاك على بابل نفسها بالكامل، وحرّر اليهود الذين عادوا إليه ببكاء مؤكدين له إن الله قد اختاره، كما قال القديسون، وأنه سوف يأتي وينتصر على هؤلاء الذين قاوموه وأنه سينصف المظلومين. وأنه سوف يعيد بنفسه بناء هيكل أورشليم الذي أحرقه الأشوريون مستهزئين بالله. وعندما نبحث في كتب الأنبياء القديسين لن نجد أن هناك كذب من جانب اليهود. وحقًا قال الله بفم أشعياء: «هكذا يقول الرب فاديك وجابلك من البطن. أنا الرب صانع كل شيء ناشر السموات وحدي باسط الأرض من معي. مبطل آيات المخادعين ومحمق العرافين مُرجعِ الحكماء إلى الوراء ومُجهِل

والظل كما في رسم». تفسير إنجيل لوقا، ترجمه د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، القاهرة ٢٠٠٧ ص ٢٣٢.

175 *Ἀνετυποῦ το δή οὖν ὡς ἐν Ἀαρὼν ὁ Χριστός.*

معرفتهم. مُقيم كلمة عبده ومُتمم رأي رسله. القائل عن أورشليم ستُعمر ولمدن يهوذا ستُبنين وخربها أُقيم. القائل للجة أنشفي وأنهارك أجفف. القائل عن كورش راعي، فكل مسرتي يتمم، عن أورشليم ستبنى، وللهيكل ستؤسس. هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أممًا وأحقاء ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تُغلق. أنا أسير قدامك والهضاب أُمهد. أُكسِّر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد أقصف. وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ لكي تعرف إني أنا الرب الذي يدعوك باسمك إله إسرائيل. لأجل عبدي يعقوب وإسرائيل مختاري دعوتك باسمك. لقبتك وأنت لست تعرفني» (أش ٤٤: ٢٤ ـــ ٢٩، ٤٥: ١ ـــ ٥).

اسمع قوله الواضح: «وأنت لست تعرفني» (أش ٤٥:٥). ولا من بين أولئك الذين عرفوا الله لم يحسب أحد في وضع أكثر مجدًا إذ وصفه (أي وصف كورش) بأنه أعظمُ من الملوك وسيدٌ على آلاف الأمم. لأن كل هذا كان أمثلةً لما سيتم بواسطة المسيح[١٧٦]. لقد أعلن الله لكورش أنه سوف يشتت عرّافي بابل، ويبطل آيات المخادعين، وأنه سوف لا يكذب المشورات، أي نبوات أنبيائه الذين يدعوهم ملائكة، أيضًا أعلن أنه سيُعيد بناء اليهودية، وسيحول اللجة (لجة البحر) إلى صحراء، وسوف ينشف كل أنهارها داعيًا بابل لجةً بسبب ذلك الشعب الهائل العدد الذي كان يسكن فيها. كما دعا الأمم ـــ الذين تجمعوا من كل صوب لمعونتها ـــ أنهارًا. ولكن دعونا نتحدث عن الأمور المتعلقة بكورش بوضوح ولنحوّل ما حدث معه إلى سر المسيح.

---

176 *τύποι γάρ ἦσαν τά ἐπ᾽ αὐτῷ τῶν δὶα Χριστοῦ κατορθωμάτων.*

مقارنة بين كورش والسيد المسيح

وُلِدَ كورش من أمٍّ من مادي بنت ملك مادي، وأبوه كان من أصل فارسي، وكان وديعًا جدًا في تصرفه. لذلك وصفه بعض القدماء بأنه مهجَّن ومن جنس غريب، ذلك بسبب اختلاف جنس الأب عن الأم. لأن الفرس كانوا أمةً أخرى من المديانيين. مثل هذا الأمر يمكن أن تراه في المسيح. لأنه وُلِدَ من أمٍّ بالتأكيد بحسب الجسد، من العذراء المقدسة التي كانت بشرًا مثلنا من جهة الطبيعة، ولكنه وُلِدَ من أبٍ لم يكن مثلنا ويمكن أن نقول إنه كان بالكامل من جنس آخر وأعظم من حيث طبيعته، وهو جنس يعلو على كل ما هو بشرى. لذلك قال لليهود الذين ظنوا أنه مثلنا ووُلِدَ مثلنا: «أنتم من أسفل. أما أنا فمن فوق» (يو ٨: ٢٣)، وكورش بالتأكيد صار سيدًا على آلاف الأمم، وكل مدينة رحَّبت به. أيضا أخذ معه ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ، وحرَّر إسرائيل من العبودية الطويلة. أيضًا مع الفارق، لقد ملك عمانوئيل على الأرض وقبلته كل مدينة كمخلص وفادي وهو محرر كل جنسٍ ــ كان قبلاً مقهورًا ومجبرًا على الخضوع لسيطرة إبليس ــ حرَّره من العبودية وطمع إبليس. إذ نزل إلى الجحيم وأخذ ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ «أكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد أقصف» (أش ٤٥: ٢، مز ١٠٦: ١٦). «قائلاً للأسرى اخرجوا. للذين في الظلام اظهروا، على الطرق يرعون وفى كل الهضاب مرعاهم» (أش ٤٩: ٩). لذلك قديمًا قال لأيوب المصارع والمجاهد: «هل انتهيت إلى ينابيع البحر أو في مقصورة الغمر تمشيت هل انكشفت لك أبواب الموت أو عاينت أبواب ظل الموت» (أيوب ٣٨: ١٦ ــ ١٧). هذا ما نقرأه كأنه سؤال؛ لأن الكلام يُظهر بوضوح

مفاخر المسيح التي تمت حتى في عمق الهاوية، لذلك مات المسيح وقام لكي يسود على الأحياء والأموات[١٧٧].

ومن المؤكد إن الرب أعطى قديمًا مالاً وأمر أن يُعاد بناء هيكل أورشليم، ولكن عمانوئيل أسَّس الكنيسة، حقا إنها المدينة المقدسة والمعروفة التي مثل بابل الجديدة والتي أَبطلت مرةً واحدة وللأبد عبادة الأصنام المهينة والمنتفخة. أيضًا يقول الله لكورش: «سوف تفعل كل مشيئتي». أيضًا قال مخلصنا مرة لجموع اليهود الذين احتقروه: «أنتم حسب الجسد تدينون» (يو ٨: ١٥). وفى موضع آخر: «ودينونتي عادلة لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني» (يو ٥: ٣٠)، وأيضًا قال الله لكورش: «أناديك باسمي»، والرب حقًا هو عمانوئيل بالرغم من أنه ظهر كإنسان. بالتأكيد إن كل ما يتعلق بكورش صار مشيرًا إلى مجد المسيح، وسوف تخبرنا عنه الأقوال الآتية التي قيلت بفم النبي: «أنا صنعت الأرض وخلقت الإنسان عليها، يداي أنا نشرتا السموات وكل جندها أنا أمرت. أنا قد أنهضته بالنصر وكل طرقة أسهِّل. هو يبني مدينتي ويطلق سبيي لا بثمن ولا بهدية قال رب الجنود. هكذا قال الرب تعب مصر وتجارة كوش. والسبئيون ذوو القامة إليك يعبرون ولك يكونون. خلفك يمشون. بالقيود يمرّون ولك يسجدون. إليك يتضرعون قائلين فيك وحدك الله وليس آخر. ليس إله. حقا أنت إله محتجب يا إله اسرائيل المخلص. قد خزوا وخجلوا كلهم ومضوا بالخجل جميعا الصانعون التماثيل» (أش ٤٥: ١٢ ــ ١٦).

---

177 *Εἰς τοῦτο γὰρ Χριστός ἀπέθανε καὶ ἔζησεν· ἵνα καὶ νεκρῶν καὶ ζώντων κυριεύσῃ.*

حقًا إن ذاك الذي خلق الأرض والإنسان عليها، ذاك الذي خلق السماء المزيَّنة بالنجوم، أرسل لنا البر أي المسيح، لكي يحرِّرنا مجانًا δωρεάν. لأننا "تبررنا بالإيمان" (رو ٥: ١)، حرَّرنا من القيود والأسر مشيِّدًا أورشليم العقلية Ἰερουσαλὴμ νοητήν بطريقة روحية πνευματικῶς ومؤسِّسًا الكنيسة، حتى أنها أكثر شدة وأقوى من أبواب الجحيم وأكثر ثباتًا من الأعداء. إن أولئك الذين كانوا قديمًا مضلِّين اعترفوا به كإله قائلين: "وحدك الله وليس آخر ليس إله" (أش ٤٥: ١٤). له يسجدون وله سوف تجثو "كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب" (في ٢: ١٠ ــ ١١). بعض الإسرائيليين تجرأوا وانحرفوا إلى الوراء وقاوموه ولكنهم صاروا خزيًا وسقطوا حسب كلام النبي.

إذن، أسس كورش هيكل الله في أورشليم، وكان مثالاً εἰς τύπον Χριστοῦ يشير إلى المسيح. بالتأكيد إنه سوف يتحقق روحيًا وعقليًا في عمانوئيل، ويمكن أن يعرف المرء هذا الأمر بصورةٍ أخرى. بمعنى أنه عندما حرَّر كورش إسرائيل من عبودية بابل ظهرت مباشرة القيادات أي رؤساء الشعوب، زربابل بن شالتئيل من سبط يهوذا، ويهوشع بن يهو صادق الكاهن العظيم. وهؤلاء عندما وصلوا إلى أورشليم أصدر الله على فم النبي أمرًا بإعادة بناء الهيكل لأنه مكتوب: "في السنة الثانية لداريوس الملك في الشهر السادس في أول يوم من الشهر كانت كلمة الرب عن يد حجي النبي إلى زربابل بن شألتيئيل وإلى يهوذا وإلى يهوشع بن يهوصادق الكاهن العظيم قائلاً: هكذا قال رب الجنود. هذا الشعب قال إن الوقت لم يبلغ وقت بناء بيت الرب. فكانت كلمة الرب عن يد حجي النبي قائلاً: هل الوقت لكم أنتم أن تسكنوا في بيوتكم المغشاة وهذا البيت خراب" (حجي ١:١ ــ ٤). ثم بعد ذلك يقول أيضا: "ونبَّه الرب روح

زربابل بن شألتئيل والي يهوذا وروح يهوشع ابن يهوصادق الكاهن العظيم وروح كل بقية الشعوب فجاءوا وعملوا الشغل في بيت رب الجنود إلههم" (حجي ١: ١٤).

لاحظ إذن، أن عمانوئيل قُدِّم هنا بمثالٍ ونموذجٍ مزدوج، قُدَّم كملكٍ في شخص زربابل والذى ينحدر من سبط يهوذا وكان حاكمًا في ذلك الوقت على إسرائيل، وكرئيس كهنةٍ أيضا في شخص هوشع رئيس الكهنة الذي أتى إلى المدينة المقدسة عندما رجع من الأسر، أقصد أسر البابليين. لاحظ أنه كان الغني الماهر والمعتني بالهيكل المقدس. إذن، عندما نتبع يسوع بالإيمان ـــ كقائد وكملك ورئيس كهنة ينقلنا من الجشع الشيطاني كأنه من مكان الغرباء ومن الضلال العالمي ـــ ندخل إلى المدينة المقدسة، أي إلى كنيسة الأبكار التي بناها المسيح نفسه بأحجار عقلية. وهذا ما يؤكده بولس عندما كتب لهؤلاء المفديين الذين يفضِّلون أن يتبعوا آثار المسيح: "الذي فيه أنتم أيضا مبنيون معا مسكنًا لله في الروح" (أف ٢: ٢٣).

أَمَا وإن كان مجد الكنيسة أسمى من المجد الأول والقديم، أقصد بالطبع من الهيكل الذي كان مبنيًا بالأحجار، فهذا هو ما يعلنه قائلاً بفم حجي أيضًا: "من الباقي فيكم الذي رأى هذا البيت في مجده الأول. وكيف تنظرونه الآن. أما هو في أعينكم كلا شيء" (حجي ٢: ٣)، وبعد هذا أيضًا: "مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول قال رب الجنود وفى هذا المكان أعطي السلام يقول رب الجنود" (حجي ٢: ٩).

من المؤكد أنه من الممكن بسهولة تجميع الشخصيات القديمة التي ترمز لشخص المسيح. لكن حتى لا يُظن، إننا بالأمثلة الكثيرة قد غيّرنا حديثنا عن الهدف الذي يرمي إليه، فإننا نقول ـــ دون أن ننتقل إلى أمثلة أخرى ـــ إنه علينا

أن نفضِّل أمرًا من اثنين: إما أن نرفض تمامًا هؤلاء الذين بواسطتهم صارت تلك الأمور، إذا اعتبرنا أن كل ما حدث على أيدي بشرٍ مثلنا مع أنهم كانوا يتميزون بوقارٍ إلهي، أو أن نعتبر أن الروح كان يأخذ في كل مرة شكل شخصٍ مِنا، وبالضرورة سوف نعترف عندئذ أن هذا الشخص كان يتغير في بعض الأحيان ويصير مثل شكل كورش "الذي لم يعرف الله". هكذا إذا رفضنا هؤلاء الذين يمثلون نماذج (أمثلة) بشرية، عندئذ ربما يصبح هارون ظلاً، ويصبح زُربابل ابن شالئيل وأيضًا يهوشع بن صادق، الكاهن العظيم مجرد أسماء. ولكن إذا اقتنع البعض بالحري بالمنطق العقلي، سوف يفهمون فهمًا صحيحًا أن ملكي صادق كان بالتأكيد إنسانًا ملكًا على مدينة ساليم، لكن بولس، الذي كان دقيقا في شرح الآراء الروحية، جعله مثالاً للمسيح.

ملكي صادق مثالٌ للمسيح:

بعد كل ما قلناه نرى البعض يقولون إن ملكي صادق لم يكن إنسانًا بل بالحري كان الروح القدس، أو أي قوة أخرى من فوق، أي من السماء ذات رتبة ليتورجية. هكذا نراهم يفكرون، فنقول لهم أنتم ترتكبون خطأً بطريقتين، فأنتم تحرفون الطبيعة الإلهية للروح القدس فائقة الوصف بطريقة غير لائقة، وكذلك تنقلون الخليقة المخلوقة وترفعونها ـــ بطريقة منحطة ـــ إلى مجدٍ فائق(١٧٨). وسوف أقول لكم كيف صار هذا؟ مكتوبٌ عن ملكي صادق أنه «كان كاهن الله العلّي» (مز ١٠٩: ٤). إذن، لو كان الروح القدس هو ملكي

178 *καί τὴν θείαν καί ἄρρητον τοῦ Πνευμάτος φύσιν εἰς τόν μη πρέποντα τρόπον αὐτῇ κατασύροντες· καί τὴν γεννητὴν καί πεποιημένην κτίσιν εἰς δόξαν ὑπερτενῆ φληνάφως ἀνακομίζοντες.*

صادق، عندئذ فإن الروح يكون قد انحدر إلى فصيلة البشر الذين يخدمون الليتورجية، ويكون من ضمن الملائكة القديسين الذين يسبِّحون العلّي، لأنه مكتوب: «باركوا الرب يا جميع جنوده خدامه العاملين مرضاته» (مز ١٠٣: ٢١). ومن الواضح كل الوضوح أن الذي يقوم بعمل ليتورجي لخدمة آخر وليس لخدمة ذاته، فإنه يخدم ــ عن طريق الليتورجيا ــ الله الذي هو أسمى وأعظم. وبالتالي، فإن قلنا إن الروح يقوم بالخدمة الليتورجية، فإنه يكون أقل من الطبيعة الإلهية، ويكون بالحري من ضمن المخلوقات، ويسجد معنا ولا يقدِّس ذاته، لأن الذي يُقدِّس هو أسمى ولا يحتاج أن يُقدِّس طبيعته (من آخر). أي بذلك سوف يحتاج إلى التقديس مثلنا. إذن كيف يمكن أن يكون إلهًا من جهة طبيعته هذا الذي يقدَّس؟ «ولا يأخذ أحد هذه الوظيفة بنفسه بل المدعو من الله كما هارون أيضًا» (عب ٥: ٤). ويضيف أيضًا بولس الرسول قائلاً: «كذلك المسيح أيضًا لم يمجِّد نفسه ليصير رئيس كهنة، بل الذي قال له أنت ابني أنا اليوم ولدتك» (عب ٥: ٥). كما في موضع آخر يقول: «أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق» (عب ٥: ٦).

إذن، يجب أن نعرف أنه ولا الكلمة كان سوف يُدعى بأنه يقدَّس وينتمي إلى رتبة القائمين على الليتورجية، إن لم يصر مثلنا، مثلما دُعيَ بلقب «نبي» (تث ١٨: ١٥ــ أع ٣: ٢٢)، وأيضًا دُعيَ «رسولاً» (عب ٣: ١)؛ لأنه صار إنسانًا، وهكذا دُعيَ كاهنًا. إذ أنه أخذ شكل العبد (في ٢: ٧)، وصارت هذه الألقاب التي تليق بالعبيد τά δουλοπρεπῆ مناسبة له. وهذا هو الإخلاء τοῦτό ἐστιν ἡ κένωσις. لأن هذا الذي هو مساوٍ للآب ἰσότητι τοῦ πατρός في الجوهر وأمامه نرى الساروفيم السماوي واقفين، وكذلك تخدمه الملائكة، هذا عندما وضع ذاته؛ قيل عنه إنه ظهر خادمًا للأقداس وللمسكن

الحقيقي، وعندئذ تقدَّس معنا، هذا الذي كان فوق أي خليقة ὁ ὑπὲρ πᾶσαν κτίσι. فالرسول يقول: "لأن المقدِّس والمُقدَّسين جميعهم من واحد فلهذا السبب لا يستحي أن يدعوهم إخوة. قائلاً أخبر باسمك إخوتي وفي وسط الكنيسة أسبحك" (عب ٢: ١١ ــ ١٢).

إذن هذا الذي يعطى التقديس كإله، عندما صار إنسانًا وسكن بيننا وصار أخًا لنا(١٧٩) بحسب ناسوته، عندئذٍ قيل إنه تقدَّس معنا. هكذا يمكن أن يخدم ويتقدس معنا بتدبير الجسد قابلاً ــ على صواب ــ قياسات الإخلاء، تلك القياسات التي نقبلها تمامًا. ولكن لو قلنا إن الروح، الذي لا يخضع مطلقًا للإخلاء، يخدم ويقدَّس، عندئذٍ نُخرج الروح خارج المجد الذي يليق بالله ونضعه في قياسات أدنى من الله جاعلين له قياسات المخلوقين (أي البشر). دعهم يبرهنون لنا أن الروح صار إنسانًا وخضع بحسب التدبير للإخلاء هكذا مثل الابن. وبسبب أن الثالوث هو مساوٍ (في الألوهية) ومسجودٌ له، لا يمكن لأحد بسبب هذا أن ينسب التأنس لأي أقنوم حسب ما يرى. لأن الآب لم يصر إنسانًا، وبالمثل فإن الروح لم يصر إنسانًا، بل الابن فقط هو الذي صار إنسانًا(١٨٠). هذا ما علمتنا إياه الكتب المقدسة. لماذا يخالفون الحق ويترلون الروح القدس ــ بدون مبرر لإخلائه نفسه ــ يترلونه إلى قياسات الإخلاء ويُحسب من تعداد أولئك الذين يطيعون أوامر التقديس؟ لأن ملكي صادق كان ــ من جهة الكرامة للابن ــ نموذجاً أو مثالاً لكهنوت الابن الذي سوف يصير عليه،

---

179 *Οὐκοῦν ὁ αγιάζων ὡς Θεός· ὅτε γέγονεν ἄνθρωπος ἐσκήνωσεν ἐν ἡμῖν καί κεχρημάτικεν ἀδελφός κατά τὸ ανθρώπινον.*

180 *Γέγονε γάρ ἄνθρωπος· οὐκ αυτός ὁ Πατήρ· οὐδέ τὸ Πνεῦμα το ἅγιον μόνος δὲ ο Υἱός.*

وبالتالي أقول إن الروح القدس (وفق اعتقادهم بأنه هو ملكي صادق) كان غير مبالٍ بكرامة الابن واعتنى قليلاً بهذه الكرامة (إذ أخذ فقط صورة ملكي صادق)؟! إنه غباء أن نؤمن ونقول هذا الكلام؟ لأن البارقليط أي الروح يمجِّد الابن إذ يقول عنه الرب: «ذاك يمجدني» (يو ١٦:١٤). وكون أنه أتى لكي يكرمه تكريمًا متواصلاً، لماذا لم يَصِر الروح بالحري هارون؟ نفس الأمر لماذا لم يَصِر الروح كورش الذي كان سيدًا على الفرس المديانيين، أيضًا يشوع ابن يهوصادق وبالتأكيد زُربابل ابن شالتئيل من سبط يهوذا وموسى الذي ظهرت فيه وساطة المسيح بقوله: «أُقيم لهم نبيًا في وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيته به» (تث ١٨:١٨، انظر أع ٣:٢٢). لماذا لم يَصِر الروح يشوع بن نون الجندي الذي خلف موسى الذي قاد الإسرائيليين أثناء عبورهم نهر الأردن وفرض عليهم الختان بسكين من حجر وأدخلهم أرض الموعد؟ أو لم نعتمد نحن باسم المسيح، و لم نخضع للختان غير المصنوع بيد بالروح القدس وبذلك صرنا ورثة ملكوت السموات؟ وكيف لم يكن هذا واضحًا؟ بناءً على ذلك، إما أن نقبل أن يكون الروح قد أخذ دائمًا شكل كل واحد من هؤلاء الذين أشرنا إليهم لكي نكرم الابن، وإما أن يكون الروح قد اعتنى قليلاً بهذا الأمر، أمر إعطاء الكرامة للابن؛ إذ صار مثلما يدّعي البعض مثالاً وشبيهًا للابن. هذه أفكارٌ سخيفةٌ، وهى بعيدة تمامًا عنا. إذن ملكي صادق كان إنسانًا وليس روحًا.

أما من جهة أنه لا يمكن أن يُفهم (ملكي صادق) على أنه قوة مقدسة وخادمة ـــ كما يعتقد البعض ـــ فدعونا نجمع أفكارًا مناسبة ونقدم برهانًا للحق. هكذا يقولون إنه بسبب أنه مكتوب عن ملكي صادق أنه كان «بلا أب وبلا أم وبلا نسب» (عب ٧: ٣)، وأنه بارك إبراهيم بالرغم من أنه كان عظيمًا

جدًا «وبدون مشاجرة الأصغر يُبارك من الأكبر» (عب ٧:٧)، ويقولون إننا لا يمكن أن نفهم ملكي صادق على أنه إنسان مثلنا بل يجب أن يكون ـــ من جهة طبيعته ـــ ملاكاً، أي قوة مكرمة وممجدة من القوات السامية والخادمة. لكنني يا أحبائي أرى أن طريقة توقيرهم لإبراهيم العظيم أبعدهم عن إدراك ما هو نافع ولائق، وضللتهم عن الأمور الهامة في العثور على أفكار الحق. فهم عندما يُظهِرون لنا أن ملكي صادق شبيهٌ ومثالٌ لعمانوئيل لا يهدفون إلى نوعية الأشياء التي فيه ولا يفحصون منهج كهنوته، لكن بالحري يفحصون طبائع الأشياء التي وضعت فيه. وأتساءل ما الذي سوف يحزهم، هل سوف يسألهم شخصٌ أن إبراهيم بما أنه يُبارَك من ملكي صادق كما من إنسان، فإنه لم يكن أسمى منه؟ لأننا لا نفحص هؤلاء الأشخاص من جهة طبيعتهم، بل من جهة الأعمال التي يقومون بها؛ وذلك لكي تُعلَن أقوال الحق التي هي أسمى من الظلال والرموز.

إنه أمرٌ غريب كونهم لا يرون الأمور المتماثلة التي تُعلَن بالظلال، لكن بالحري يرون طبائع هذه الأمور. وهذا نعرفه من الآتي: لقد كان هارون رئيسًا ومشرفًا للخيمة المقدسة، وكان منتخبًا ومتوَّجًا بكرامة الكهنوت السامية. كيف تقدَّس هارون إذن؟ ألم يذبح كبشًا مسح بدمه طرف أذنه اليمنى وأيضًا يده ورجله، وبهذه الطريقة صار كاملاً للقيام بالخدمة المقدسة؟ لكن، يا أصدقائي أقول لكم، لو أن صلاح هؤلاء الذين يقدِّسون ويتقدَّسون يوجد في طبائعهم ولا يصلون إلى جمال الحق عن طريق النموذج والظل عندئذٍ كيف أن الأعظم يُبارَك من الأصغر؟ من هو الأعظم في هذه الأمور، لندع أولئك يخبروننا: هل يجب أن نضع هارون بعد الكبش؟ هذا الذي هو عاقل (كإنسان) يحقق الكمال بحيوان غير عاقل. إننا نقول إنه بدم حملان قُدِّس المختار للكهنوت، وبرماد عجلة مرشوشًا على المدنسين يقدِّس إلى تطهير أجسادهم. ماذا يعني هذا الفعل؟ ما هو عمق هذه

المفاهيم؟ إن الأمثلة والصور هي هذه الأمور المقصودة، إذ نقول إنها صورة لتقديس المسيح. والمثال يوجد في الأشياء التي تقدِّس وليس في طبيعتها. لأنه كما قلت سابقًا الأعظم يُبارَك من الأصغر في حين أن طبيعة الإنسان هي الأعظم من تلك التي للعجلة والكبش. ليت وجوههم لا تحمر خجلاً لأنه بالإضافة إلى أن إبراهيم هو أعظم جدًا من ملكي صادق مكتوب أنه يُبارَك منه. وذلك لأن المثال هو الذي يفوز وليس طبيعة من يُعطي البركة[181]. وبالنسبة لهؤلاء أشُك أن يقدِّموا ملكي صادق كشبيه ومثال للابن قائلين إنه مثل ملاك بدون أُمٍّ وأب؛ إذ أن المسيح قد انحدر من الاثنين. لأن أمه وهو على الأرض هي العذراء المقدسة، وأبوه كان ومازال هو الله في السماء. وأعتقد كيف أنه يجب أن تصير الصور شبيهة بالأصول. وبسبب أن الرسول بولس قال: «ملكي صادق ليس له بداية ونهاية حياة» (عب ٧:٣)، لذلك يزعمون ويقولون إنه كانت توجد فيه قوة عاقلة وكهنوتية، غير مدركين أنه ضاع منهم أمرٌ هام. لأن الذي يُولد له بداية زمنية، فالذي يأتي للوجود له بداية حياة وأيام. عندئذٍ ما الهدف الذي جعل بولس يقول هذا الأمر؟ لماذا وضع ملكي صادق كمثال وشبيه بالمسيح؟ وطالما نُبعد ذهننا عن المفاهيم غير المتبصرة دعنا نمضي ونفكر ونتحدث بقدر استطاعتنا.

لأن بولس كان عارفًا جيدًا للناموس وهو لم يتكلم إلى اليهود بمفاهيم بسيطة، بل بنصوص موسى والتي كان من الطبيعي أن يتراجعوا أمامهما بالرغم من أولئك الذين أرادوا أن يحابوا الحق. حسنًا، لقد قُبل ملكي صادق كشبيه ومثال للمسيح، إذ قيل عنه: «ملك البر» وأيضًا: «ملك السلام» (تك ١٤:١٨). لأنني

---

[181] Ὁ γὰρ τύπος ἡ ὁ νικῶν· καὶ οὐχὶ δὴ μᾶλλον ἡ τοῦ εὐλογοῦντος φύσις.

أعتقد أن هذه الأوصاف تتمشى معه، أي مع عمانوئيل بطريقة سرية. إذ أنه ظهر لهم على الأرض رئيسًا للبر والسلام و «إذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح» (رو ٥:١) مظهرًا لنا ثقل الخطية. أيضًا حصلنا على السلام مع الله الآب الذي توسَّط وفصلنا عن الخطية حيث أننا اغتسلنا من دنس السلوك الخاطئ، ووحدنا به بواسطة الروح. ويقول: «وأما من التصق بالرب فهو روح واحد» (١كو ٦:١٧).

«ملكي» بحسب اللغة اليونانية تعني «الملك ὁ Βασιλεύς"، و"صادق" يعني "البر δικαιοσύνη". ويمكن للمرء أن يرى ملكي صادق أنه بنفس اسمه اكتسب لقباً وفق معنى اسمه، "ملك البر βασιλεύς δικαιοσύνης" وبلقب "ملك ساليم" اكتسب لقب "ملك السلام βασιλεύς εἰρήνης" (١ كو ٦:٢١). لقد نسب بولس الرسول هذه الألقاب للمسيح بسبب التشابه الحكيم والواضح لملكي صادق معه، وقَبِلَ أنه رمز الكهنوت الذي هو فوق الناموس، إذ أدركه وقدَّم له خمرًا وخبزًا، لأننا لا نتبارك من المسيح بأي طريقة أخرى، المسيح هو الكاهن العظيم والحقيقي[١٨٢]. ونتبارك على مثال إبرآم العظيم طالما حاربنا رؤساء هذا العالم بكل قوتنا، وأظهرنا أننا أسمى من يد الأعداء و لم نخف من أي شيء من الأمور العالمية معتبرين عطايا الله بالحري أنها الغنى الروحي، والمجد والنصيب المزدهر للمواهب السماوية. تأمل إذن، عندما انتصر إبرآم ورجع من انتصاره العظيم ضد الملوك كما هو مكتوب (انظر تك ١٤:١٧) بدون أن يطلب أن يأخذ شيئًا من رئيس سادوم ليكون مِلكًا له، وبعد ذلك باركه ملكي صادق. لأن رئيس سادوم، بسبب أن إبرآم قد انتصر، قال: «أعطني النفوس وأما

---

182 *Εὐλογούμεθα γὰρ οὐκ ἑτέρως παρὰ Χριστοῦ τοῦ μεγάλου τε καὶ αληθοῦς ἱερέως.*

الأملاك فخذها لنفسك» (تك ١٤:٢١)، بينما ذاك بدون أن يفكر في أخذ شيئًا منه قال: «رفعت يديَّ إلى الرب الإله العلي ملك السماء والأرض. لا آخذن لا خيطًا ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك. فلا تقول أنا أغنيت إبرآم» (تك ١٤:٢٢ ــ ٢٣).

إذن، طالما قد انتصرنا على الأعداء المنظورين وغير المنظورين وبدون أن نقبل شيئًا من العالم، لكن ونحن مقدِّرين بالأكثر الغنى السماوي نُبارك بواسطة المسيح ملك السلام. ونُبارَك قابلين الأسرار كعطية محبة سماوية وحياة. سوف أصمت الآن إذا آمنتم أنكم تتباركون بواسطة المسيح وبشفاعته أمام الآب لأجلنا. لأن ملكي صادق بارك إبرآم قائلاً الآتي: «مبارك الله العلي الذي أسلم أعدائك بين يديك. فأعطاه عُشرًا من كل شيء» (تك ١٤:٢٠)، بينما ربنا يسوع المسيح الذي هو كفارة لنا[١٨٣] يقول: «أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك» (يو ١٧:١١). إذن، من تفسير الأسماء ندرك هذا الذي يصلح أن يكون مثالاً للمسيح. أيضًا بنفس طريقة الكهنوت يقدِّم تقدمةً واضحةً لكي يظهر الكهنوت. لأنه يقول: «وملكي صادق ملك ساليم أخرج خبزًا وخمرًا» (تك ١٤: ١٨). وكون أن ملكي صادق كان بدون أبٍ أو أُمٍّ، أي بلا نسب، أو أنه لا بداية أيام له ولا نهاية حياة، فهذا لم يُشِر إليه الكتاب المقدس (العهد القديم) إطلاقًا. إذًا، يمكن للمرء أن يقول، قد خدعنا بولس الرسول. حاشا هذا غير ممكن، بل هو يقول الحق. لكن هو بالحري الإنسان السرائري المُحنَّك الذي أوضحَ من المثال (مثال ملكي صادق) مجد عمانوئيل ورواية التدبير الإلهي. لأن الكتاب المقدس يذكر فقط أن ملكي صادق كان كاهنًا بدون أن يُسمي جنسه (عشيرته) أو من

183 *ὁ δὲ κύριος ἡμῶν Ἰησοῦς Χριστός τὸ πάντων ἡμῶν ἱλαστήριον.*

أي أب أو أم وُلِد، ولا كم هي سني حياته، و لم يُضِف شيئًا؟ ومَنْ هم خلفائه في الكهنوت؟ إذن، الرواية تشير إلى المسيح أنه بلا بداية إذ أنه إله، ولا بداية، أقصد بالنسبة إلى عدد سنين حياته، أي الزمن. لأن هذا هو خالق الدهور. وأيضًا تشير إلى أنه بدون نهاية لكهنوته. لذلك يقول بولس الرسول عن ملكي صادق إنه: «بلا أب بلا أم بلا نسب. لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة بل هو مُشبَّهٌ بابن الله هذا يبقى كاهنًا إلى الأبد» (عب ٧:٣).

يبدو أن بولس فكرَّ أيضًا في شيء آخر حكيم، فما هو هذا بالضبط؟ سأحاول أن أقوله بقدر استطاعِتي.

كان لليهود ردٌّ فعلٍ على تعاليم المسيح وتجرَّأوا على الاستهزاء بتعاليم الرسل واضعين شيئين: الأول، أنه من غير الممكن أن يجعلوا الوصية التي أُعطيت للآباء على فم موسى الحكيم في حالة إبطال، إذ تنبأ الناموس بطريقةٍ مختلفة عن الحياة القديمة، وقُدِّمَت على أن هذه هي الحياة التي نترجاها. والثاني، يزعمون أنه لا يجب على مجد الكهنوت أن يُقدَّم خارج السبط المختار، أي سبط اللاويين. لأن الله يطرد دائمًا من الخدمة في الهيكل أولئك الذين لا ينتسبون إلى هذا السبط، وحدد أقسى العقوبات لمن ارتكب هذا الفعل الآثم. إذن، فقد جاهد بولس، العارف حقًا بالناموس، وحاول أن يُخبر بمَن هو هذا الذي هو بركة، وذلك من الكتاب المقدس نفسه، لقد ارتقى بالناموس ونقل الكهنوت نفسه. وإعلان كل واحد من الاثنين ظهر من قِبَل كل واحد بأمثلة. أي أنه ذَكَرَ ملكي صادق الذي لم يكن من سبط لاوي، وأظهره أنه كاهن الله العلي الذي قدم خبزًا وخمرًا وقال عنه الآتي: «ثم انظروا ما أعظم هذا الذي أعطاه إبراهيم رئيس الآباء عُشرًا أيضًا من رأس الغنائم. وأما الذين هم من بني لاوي الذي يأخذ الكهنوت فلهم وصية أن يعشروا الشعب بمقتضى الناموس أي إخوتهم مع أنهم قد خرجوا من صُلب

إبراهيم. ولكن الذي ليس له نسب منهم قد عشّر إبراهيم وبارك الذي له المواعيد. وبدون كل مشاجرة الأصغر يُبارَك من الأكبر» (عب ٧: ٤ ـــ ٧).

لكن تفوُّق ملكي صادق ليس بسبب طبيعته، لكن تفوقه بسبب طريقة الكهنوت بدون أن يُرفض إبرآم أبو الآباء (من جهة الكرامة)، بل بالعكس قلَّده العظمة بهذه الأشياء التي أراد أن يكرمه بها، أي بتقدمات العشور. لأن هؤلاء الذين أتوا من صُلب اللاويين كانوا يأخذون العشور من الشعب، بالرغم من أنهم (أي الشعب) بمثابة إخوتهم، بينما هذا الذي لم يأتِ من جنسهم، أي ملكي صادق (لأنه لم يأتِ من سبط لاوي)، أخذ عُشرًا من الغنائم وبارك إبرآم. ونرى المثال موجودًا وواضحًا في هذه الأمور. هكذا المسيح (مثاله هنا ملكي صادق) الذي أُعلن بظلال، بالرغم من أنه لا ينتسب إلى جنسهم الذي كان قد أُمر بأن يخدموا الخدمة المقدسة (لأن المسيح جاء من سبط يهوذا الذي لم يسبق لموسى أن تكلم عنه شيئًا من جهة الكهنوت) أخذ عُشرًا من نسل لاوي، بمعنى أخذ الكهنوت وفق الناموس. إذ أخذ عُشرًا في القديم بملكي صادق وبعد ذلك بهارون. لأن هذا (ملكي صادق) أخذ عُشرًا من لاوي (أي بواسطة إبراهيم) لأنه يرمز لكهنوت المسيح كما قلنا سابقًا.

إذًا أوضح بولس بواسطة ملكي صادق أن رتبة الكهنوت سوف تنتقل من السبط الذي كُلِّف بالقيام بالخدمة الكهنوتية وفق الناموس، وسوف تظهر طريقة أخرى ونظام آخر لتتميم الكهنوت. لأنه كان من الضروري أن يُنقل ويُبطل الناموس نفسه مع خدمته الكهنوتية. لذلك يقول بولس الرسول بحكمة: «فلو كان بالكهنوت اللاوي كمال. إذ الشعب أخذ الناموس عليه. ماذا كانت الحاجة بعد إلى أن يقوم كاهن آخر على رتبة ملكي صادق ولا يُقال على رتبة هارون. لأنه إن تغير الكهنوت فبالضرورة يصير تغير للناموس أيضًا» (عب

١١:٧ ـــ ١٢)، وأيضًا يقول: «وذلك أكثر وضوحًا أيضًا إن كان على شبه ملكي صادق يقوم كاهن آخر. قد صار ليس بحسب ناموس وصية جسدية بل بحسب قوة حياة لا تزول. لأنه يشهد أنك كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق» (عب ١٥:٧ ـــ ١٧، مز ٤:١١٠). أترى إذن أن هذا الذي لم يستطع أن يقدم كمالاً (كهنوت هارون)، يُصوت ضده من أجل وضع وصية أكثر سموًا؟ ولو كان الأمر في احتياج لذلك، لماذا لم يقل إنني أُظهر لكم كاهنًا آخر على رتبة هارون وليس على رتبة ملكي صادق الذي كان مثالاً وشبيهاً بالمسيح، الذي تمّم الخدمة على الأقل جسديًا لكن بقوة حياة لا تزول؟ أيضًا لماذا يغذينا بتقدمات مقدسة سرائرية للحياة الأبدية، بالرغم من أن هارون كان يخدم الخدمة الكهنوتية بشريًا؟ لأنه بهارون صارت ذبائح عجول وذبائح حملان ورماد عجله يُرش على الدنسين لكي يطهر أجسادهم وأشياء أخرى مثل هذه لا تعطى كمالاً لأولئك الذين شاركوا في العبادة «لأنه لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا» (عب ٤:١٠). إذن، عندما تقدَّم إلينا طريقة أخرى للخدمة المقدسة وأُبطِلت النواميس القديمة، فقد صار هناك كاهنٌ آخر. وطالما أن الله وَعَد بعهدٍ جديدٍ لأن الأول شاخ، فإن الكاهن الذي على رتبة ملكي صادق، الذي يُفهم على أنه أبدي، لا يمكن أن يكون آخر غير ربنا يسوع المسيح الذي بواسطته ومعه المجد لله الآب مع الروح القدس إلى دهر الدهور آمين.

المقالة الثالثة على سفر التكوين

عن إبراهيم والوعد بإسحق،

وأن من خلالهما صُوِّر سِرُّ الإيمان

بالمسيح وحده الخلاص:

بولس الرسول يكتب لنا أن المسيح صار رئيس كهنة ورسول اعترافنا (انظر عب ٣: ١)، ويؤكد لنا بوضوح أنه وهو حاملٌ لنا السمو والفائدة التي تفوق وصية موسى القديمة صار ضامنًا ἐγγυητής لعهدٍ أسمى. وكلمته حقيقية؛ لأن الناموس جلب الغضب بمجرد أنه أظهر الخطية. أمَّا تبريرنا، فقد منحته لنا النعمة بواسطة المخلّص. لأنه كما قال هو نفسه، إنه لم يأتِ لكي يدين العالم بل لكي يخلّص العالم (انظر يو ١٢:٤٧). ورغم أنه لم يولد بالجسد من سبط لاوي، إلَّا أنه صار رئيس كهنة إلى الأبد بحسب طقس ملكي صادق، والحديث أظهر لنا ما كان يجب في هذا الأمر. إضافة إلى ذلك، فإن سر البر بالإيمان كان قد أُعلِن قديمًا بواسطة الختان الناموسى، وأن المثال أُعلن من قبل للإسرائيليين، بأنهم لن يستطيعوا أن يخلصوا إطلاقًا بطريقة أخرى إلَّا بواسطة المسيح الذي يبرر الفاجر

ويغفر الخطايا. وبالإضافة إلى ذلك، أنهم سوف يصيرون ورثة لله ويُحسبون بين الأولاد الحقيقيين أولاد الموعد الذي أُعطيَ لإبراهيم الطوباوي من جهة إسحق. دعنا نتحدث عن هذه الأمور من خلال الكتاب المقدس مُظهرين التعاليم الإيمانية في كل سفر بفحص دقيق ومُفصل.

إبراهيم أبو المؤمنين

حسنًا، يكتب بولس الرسول إلى أهل رومية قائلاً: «فَمَاذَا نَقُولُ إِنَّ أَبَانَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ وَجَدَ حَسَبَ الْجَسَدِ؟. لأَنَّهُ إِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ قَدْ تَبَرَّرَ بِالأَعْمَالِ فَلَهُ فَخْرٌ وَلَكِنْ لَيْسَ لَدَى اللهِ. لأَنَّهُ مَاذَا يَقُولُ الْكِتَابُ؟ «فَآمَنَ إِبْرَاهِيمُ بِاللَّهِ فَحُسِبَ لَهُ بِرًّا». أَمَّا الَّذِي يَعْمَلُ فَلاَ تُحْسَبُ لَهُ الأُجْرَةُ عَلَى سَبِيلِ نِعْمَةٍ بَلْ عَلَى سَبِيلِ دَيْنٍ. وَأَمَّا الَّذِي لاَ يَعْمَلُ وَلَكِنْ يُؤْمِنُ بِالَّذِي يُبَرِّرُ الْفَاجِرَ فَإِيمَانُهُ يُحْسَبُ لَهُ بِرًّا. كَمَا يَقُولُ دَاوُدُ أَيْضًا فِي تَطْوِيبِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَحْسِبُ لَهُ اللهُ بِرًّا بِدُونِ أَعْمَالٍ: «طُوبَى لِلَّذِينَ غُفِرَتْ آثَامُهُمْ وَسُتِرَتْ خَطَايَاهُمْ. طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي لاَ يَحْسِبُ لَهُ الرَّبُّ خَطِيَّةً». أَفَهَذَا التَّطْوِيبُ هُوَ عَلَى الْخِتَانِ فَقَطْ أَمْ عَلَى الْغُرْلَةِ أَيْضًا؟ لأَنَّنَا نَقُولُ إِنَّهُ حُسِبَ لإِبْرَاهِيمَ الإِيمَانُ بِرًّا. فَكَيْفَ حُسِبَ؟ أَوَ هُوَ فِي الْخِتَانِ أَمْ فِي الْغُرْلَةِ؟ لَيْسَ فِي الْخِتَانِ بَلْ فِي الْغُرْلَةِ!. وَأَخَذَ عَلاَمَةَ الْخِتَانِ خَتْمًا لِبِرِّ الإِيمَانِ الَّذِي كَانَ فِي الْغُرْلَةِ لِيَكُونَ أَبًا لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَهُمْ فِي الْغُرْلَةِ كَيْ يُحْسَبَ لَهُمْ أَيْضًا الْبِرُّ. وَأَبًا لِلْخِتَانِ لِلَّذِينَ لَيْسُوا مِنَ الْخِتَانِ فَقَطْ بَلْ أَيْضًا يَسْلُكُونَ فِي خُطُوَاتِ إِيمَانِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي كَانَ وَهُوَ فِي الْغُرْلَةِ» (رو ٤: ١ ــ ١٢). وبالإضافة إلى ذلك يفعل المستحيل في البحث عن السر. وهكذا يقول: «فَإِنَّهُ لَيْسَ بِالنَّامُوسِ كَانَ الْوَعْدُ لإِبْرَاهِيمَ أَوْ لِنَسْلِهِ أَنْ يَكُونَ وَارِثًا لِلْعَالَمِ بَلْ بِبِرِّ

الإِيمَانِ. لأَنَّهُ إِنْ كَانَ الَّذِينَ مِنَ النَّامُوسِ هُمْ وَرَثَةً فَقَدْ تَعَطَّلَ الإِيمَانُ وَبَطَلَ الْوَعْدُ!. لأَنَّ النَّامُوسَ يُنْشِئُ غَضَبًا إِذْ حَيْثُ لَيْسَ نَامُوسٌ لَيْسَ أَيْضًا تَعَدٍّ. لِهَذَا هُوَ مِنَ الإِيمَانِ كَيْ يَكُونَ عَلَى سَبِيلِ النِّعْمَةِ لِيَكُونَ الْوَعْدُ وَطِيدًا لِجَمِيعِ النَّسْلِ. لَيْسَ لِمَنْ هُوَ مِنَ النَّامُوسِ فَقَطْ بَلْ أَيْضًا لِمَنْ هُوَ مِنْ إِيمَانِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي هُوَ أَبٌ لِجَمِيعِنَا. كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «إِنِّي قَدْ جَعَلْتُكَ أَبًا لأُمَمٍ كَثِيرَةٍ». أَمَامَ اللهِ الَّذِي آمَنَ بِهِ الَّذِي يُحْيِي الْمَوْتَى وَيَدْعُو الأَشْيَاءَ غَيْرَ الْمَوْجُودَةِ كَأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ» (رو ٤: ١٣ ــ ١٧).

هل سمعت كيف أنه يؤكد مرارًا ويقول، بدون تحفظ، إن النعمة التي برّرت إبراهيم لم تُعطَ عندما كان مختونًا، لكن بالحري عندما كان أغرلاً، وأيضًا لورثة مواهب الله الذين يسيرون على خُطى إيمان إبراهيم عندما كان أغرلاً؟ وعلى أية حال، فليس هؤلاء فقط الذين اعتادوا أن يفتخروا بأن لهم أباً جسدياً هو إبراهيم الذي دُعيَ «أبٌ لأمم كثيرة» (رو ٤:١٨). بالرغم من أن إسرائيل هو أمة، حتى ولو كانت بعد تتسع إلى جمع لا يُحصى، فإنه أيضًا صار أبًا لأولئك الذين يؤمنون، الذين هم ــ كما تقول الكلمة ــ مجتمعين من كل مدينة ومكان، وصاروا جسدًا واحدًا مع المسيح، ودُعُوا لإخوَّةٍ روحية. لأن اليهود بالتأكيد قد وُلِدوا من إبراهيم، لكن ليس جميع أبناء إسرائيل هم إسرائيليين، ولا جميع ذرية إبراهيم هم أولادٌ لإبراهيم، ولكن بالحري جعلهم الإيمان أولادًا لإبراهيم، بالرغم من أنهم غير مختونين، لكنهم يؤمنون بنفس إيمانه (أي إيمانهم بالمسيح). لأن الوعد صار وأُعطيت النعمة التي بررت إبراهيم حين لم يكن مختونًا بعد، بل كان أغلفًا كما نعرف من الكتب المقدسة.

النعمة المخلّصة عطية سماوية للجميع

أما وإن كانت عطية البر بالإيمان لم تُعط فقط لإبراهيم، بالرغم من أن الوعد أُعطى له، بل أُعطيَ بعد ذلك للجميع، أي لأولئك الذين آمنوا، فهذا يؤكده لنا أيضًا بولس الحكيم حين قال: «وَلَكِنْ لَمْ يُكْتَبْ مِنْ أَجْلِهِ وَحْدَهُ أَنَّهُ حُسِبَ لَهُ. بَلْ مِنْ أَجْلِنَا نَحْنُ أَيْضًا الَّذِينَ سَيُحْسَبُ لَنَا الَّذِينَ نُؤْمِنُ بِمَنْ أَقَامَ يَسُوعَ رَبَّنَا مِنَ الأَمْوَاتِ» (رو ٤: ٢٣ ــ ٢٤). إذن النعمة التي تبرِّرنا هي عطية سماوية، لذا سوف يُحسب هؤلاء أنهم أبناء إبراهيم، ليس الذين وُلدوا منه حسب الجسد، بل كل الذين نالوا التشبُّه به بغنى وتيقنوا بأنهم إخوة ويؤمنون بربنا يسوع المسيح، هؤلاء سوف يصيرون ورثة مواهب الله، في حين أُبعد إسرائيل بحسب الجسد بسبب عصيانه.

الوعد بإسحق:

وقد تشكّلَ هذا الأمر بوضوح جدًا بالنسبة لنا، وذلك بالسر المتعلّق بإسحق. دعنا إذن نشرح هذه الأمور بقدر المستطاع واضعين أمام أعيننا ما كتبه موسى: «بَعْدَ هَذِهِ الأُمُورِ صَارَ كَلاَمُ الرَّبِّ إلى أَبْرَامَ فِي الرُّؤْيَا: لاَ تَخَفْ يَا أَبْرَامُ. أَنَا تُرْسٌ لَكَ. أَجْرُكَ كَثِيرٌ جدًّا. فَقَالَ أَبْرَامُ: أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ مَاذَا تُعْطِينِي وَأَنَا مَاضٍ عَقِيمًا وَمَالِكُ بَيْتِي هُوَ أَلِيعَازَرُ الدِّمَشْقِيُّ؟. وَقَالَ أَبْرَامُ أَيْضًا: إِنَّكَ لَمْ تُعْطِنِي نَسْلاً وَهُوَذَا ابْنُ بَيْتِي وَارِثٌ لِي. فَإِذَا كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَيْهِ: لاَ يَرِثُكَ هَذَا. بَلِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أَحْشَائِكَ هُوَ يَرِثُكَ. ثُمَّ أَخْرَجَهُ إلى خَارِجٍ وَقَالَ: انْظُرْ إلى السَّمَاءِ وَعُدَّ النُّجُومَ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعُدَّهَا. وَقَالَ لَهُ: «هَكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ. فَآمَنَ بِالرَّبِّ

فَحَسِبَهُ لَهُ بِرًّا»(تك ١٥: ١ ــ ٦). بالطبع كانت سارة الطوباوية متزوجة من إبراهيم ومقيمة معه («سارة» تعني رئيسة أو أميرة ἄρχουσα)، امرأة متقدمة في عمرها وكانت حسنة الصورة، كما يقول الكتاب، وكانت تتبعها هاجر (اسمها يعني النزيلة παροίκησις) العبدة، خادمة الزواج الثاني غير الأصيل. و لم تكن سارة لها بعد أولاد من رحمها، بينما هاجر ولدت إسماعيل. وخلال هذه الظروف تحدَّث الله إلى إبراهيم قائلاً له: "أَنَا تُرْسٌ لَكَ. أَجْرُكَ كَثِيرٌ جدًّا"، فأجاب قائلاً: "أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ مَاذَا تُعْطِينِي وَأَنَا مَاضٍ عَقِيمًا وَمَالِكُ بَيْتِي هُوَ أَلِيعَازَرُ الدِّمَشْقِيُّ؟". لاحظ دقة الحديث: "مَاذَا تُعْطِينِي؟"، وقال: "أيها الرب". هل أدركت أنه يقول إنه ليس له احتياج من أي شيء مطلقًا من الممتلكات الأرضية، ولا أيضًا في احتياج لأن يصير سيدًا على كثيرين، مع أن هذا الأمر كان يعتبر أمرًا مفرحًا، إذ أنه لم يكن لديه وريث يأتي من زواج أصيل، أي ابنٌ حقيقيٌّ.

ولاحظ، أنه (إبراهيم) يعرف أن يطلب ما يفيد، فالطبيعة (المغروسة في داخله) تعمل من ذاتها، بدون أن يكون هناك نواميس مكتوبة، لأنه بالرغم من أنه كان له ابن، أقصد إسماعيل، إلَّا أنه دعا نفسه عاقرًا ἄτεκνον. هكذا تعرف الطبيعة جيدًا، وبوضوح أن الابن الذي أتى من زواج غير أصيل لا يُسمّى ابنًا. لأنه مكتوب: "لا يتجذرون عميقًا في الأرض ولا يقومون على أسس ثابتة" (حكمة ٤:٣). وأيضًا وإن كان له بعد ولدٌ من عبدةٍ ـــ الأمر الذي هو على أية حال غير ذي قيمة ومزدرى ـــ إلَّا أن هذا الابن سوف لا يشترك في بهجة الأحرار وفرحهم، وهذا ما أظهره إبراهيم حين قال: "وَمَالِكُ بَيْتِي هُوَ

أَلِيعَازَرُ الدِّمَشْقِيُّ؟"[١٨٤] (تك ١٥: ٢)، بمعنى أن ابن العبدة سوف يصير «قبلة دم ἀίματος φίλημα» (لأن هذا ما يعنيه بكلمة "الدمشقي")، وسوف يصير له نصيب في مكافأة الله ومعونته، وهذا أيضًا ما يعنيه اسم "أليعازر". وكأن إبراهيم يقول بوضوح: "بدلاً من أن تكون هذه المحبة لابني، فقد صارت إجباريًا لعبدي، كما لو كان له قرابة الدم واستحق نوال معونة الله، وسيكون وريثي "ماذا تعطيني؟" لو لم يكن لديَّ هذا الابن الأصيل الذي سوف يخلفني، سوف أكون أنا إبراهيم خاصتك سخريةً في كل مكان أيها الرب. لأن العقيم هو من ليس له أولاد حقيقيون من امرأة حرة".

لكن الله لم يترك البار حزينًا لفترة طويلة، لأنه وعده بأنه سيحصل على أحفاد حقيقيين من إسحق وسوف يصير عددهم لا يُحصى مثل نجوم السماء. ويؤكد له بأنه سوف يُدعى أبٌ لألوف وربوات من كل الأمم. وبالرغم من إنه كان مضطربًا قليلاً من كونه عقيمًا، لكنه "آمن"، ومكتوب: "آمن بالرب فحُسِب له برًّا" (تك ١٥: ٦).

هذا الذي اتقى رب الجميع نال التبرير كمكافأة إذ آمن أن كل وعود الله ستتحقق، على عكس غير المؤمن الذي سوف يكون مملوءً بالغيرة والسُّباب (من جراء ما أصابه من عقم) وسوف يقع تحت طائلة الحساب والعقاب. على العكس آمن إبراهيم بالله ونال تبريرًا منه. ولكنه طلب علامةً وتأكيداً على تحقيق كل ما وُعِد به. والله بحسب التدبير أقسَم له حتى لا يتركه عرضةً للاضطراب والشك

١٨٤ كُتبت هذه الآية في نص القديس كيرلس كالآتي: "ومالك بيتي هو ابن عبدتي التي تُدعى "ماسيك"، "أليعازر الدمشقي".

والريب. حسنًا مكتوب الآتي: "ثُمَّ أَخْرَجَهُ إلى خَارِجٍ وَقَالَ: انْظُرْ إلى السَّمَاءِ وَعُدَّ النُّجُومَ إنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعُدَّهَا. وَقَالَ لَهُ: هَكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ. فَآمَنَ بِالرَّبِّ فَحَسبَهُ لَهُ بِرًّا. وَقَالَ لَهُ: أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الْكِلْدَانِيِّينَ لِيُعْطِيَكَ هَذِهِ الأَرْضَ لِتَرِثَهَا. فَقَالَ: أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ بِمَاذَا أَعْلَمُ أَنِّي أَرِثُهَا؟. فَقَالَ لَهُ: خُذْ لِي عِجْلَةً ثُلاَثِيَّةً وَعَنْزَةً ثُلاَثِيَّةً وَكَبْشًا ثُلاَثِيًا وَيَمَامَةً وَحَمَامَةً. فَأَخَذَ هَذِهِ كُلَّهَا وَشَقَّهَا مِنَ الْوَسَطِ وَجَعَلَ شِقَّ كُلِّ وَاحِدٍ مُقَابِلَ صَاحِبِهِ. وَأَمَّا الطَّيْرُ فَلَمْ يَشُقَّهُ. فَنَزَلَتِ الْجَوَارِحُ عَلَى الْجُثَثِ وَكَانَ أَبْرَامُ يَزْجُرُهَا. وَلَمَّا صَارَتِ الشَّمْسُ إلى الْمَغِيبِ وَقَعَ عَلَى أَبْرَامَ سُبَاتٌ وَإِذَا رُعْبَةٌ مُظْلِمَةٌ عَظِيمَةٌ وَاقِعَةٌ عَلَيْهِ. فَقَالَ لأَبْرَامَ: اعْلَمْ يَقِينًا أَنَّ نَسْلَكَ سَيَكُونُ غَرِيبًا فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ وَيُسْتَعْبَدُونَ لَهُمْ فَيُذِلُّونَهُمْ أَرْبَعَ مِئَةِ سَنَةٍ. ثُمَّ الأُمَّةُ الَّتِي يُسْتَعْبَدُونَ لَهَا أَنَا أَدِينُهَا. وَبَعْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُونَ بِأَمْلاَكٍ جَزِيلَةٍ. وَأَمَّا أَنْتَ فَتَمْضِي إلى آبَائِكَ بِسَلاَمٍ وَتُدْفَنُ بِشَيْبَةٍ صَالِحَةٍ. وَفِي الْجِيلِ الرَّابِعِ يَرْجِعُونَ إلى هَهُنَا لأَنَّ ذَنْبَ الأَمُورِيِّينَ لَيْسَ إلى الآنَ كَامِلاً. ثُمَّ غَابَتِ الشَّمْسُ فَصَارَتِ الْعَتَمَةُ وَإِذَا تَنُّورُ دُخَانٍ وَمِصْبَاحُ نَارٍ يَجُوزُ بَيْنَ تِلْكَ الْقِطَعِ" (تك ١٥: ٥ ـــ ١٧).

تفسير رؤية إبرآم

وسوف يتساءل محب التعلّم ماذا يعني هذا الذي صار، وسوف يصير فضوليًا تجاه طريقة القَسَم قائلاً ما الذي سوف تظهره هذه القطع من الحيوانات وطيران الطيور الجارحة وهجومها على اللحم؟ ماذا يعني أيضًا أن إبرآم جلس بالقرب منها، وتنور الدخان (ألسنة النار) الذي كان يجوز بين تلك القطع؟ سوف نشرح كل هذا.

إن تنور الدخان (ألسنة النار) الذي اجتاز بين قطع الذبائح قد تمَّمَ قَسَمًا هامًا لدى الكلدانيين وكان له معنى بالغ الدلالة كأن إبراهيم يقول: انظروا أنا لا أصير مثل هذه القطع. بمعنى أن إبراهيم كان كلدانيًا من جهة جنسه، وكان قد رحل من وطنه للتو، لذلك أمر ربُّ الكل بحسب التدبير أن تُتمّم هذه الأشياء التي اعتادوا أن يفعلوها أثناء القَسَم، وهكذا ربط سر المسيح ـــ بطريقة رائعة ـــ بالذبائح. ولأن القِطع وُضعت على الأرض بهذه الطريقة لكي يمر الله من عليها، مكتوب: «نزلت الجوارح على الجثث وكان إبرآم يزجرها» (تك ١٥: ١١)، أي أن إبراهيم حرص على الجلوس بجوار القطع ليحرسها حتى لا تصير غذاءً للطيور الجارحة. وهذا الأمر كان من ضرورات إتمام القَسَم.

وعند غروب الشمس «وقع على إبرآم سُبَاتٌ. وإذا رعبةٌ مظلمةٌ عظيمةٌ وقعت عليه» (تك ١٥: ١٢). ما هو السبب في حدوث هذا الأمر؟ سوف أشرح ذلك على قدر استطاعتي.

كانت هناك عادة لدى الكلدانيين بأن يلاحظوا بتدقيق طيران الطيور الجارحة بقصدٍ صالح وغير شرير. وإله الجميع قد سمح تدبيريًا بإجراء هذه العادة التي كان يعرفها بالطبع إبراهيم. إذ كانت في ذلك الوقت عُرفٌ لدى البعض بواسطته يعرفون الأمور المستقبلية التي سوف تحدث. هكذا عندما هجمت الطيور الجارحة لتنقض بوحشية على قطع الذبائح ارتعب إبراهيم متفكرًا ومتسائلاً في نفسه: لمن سوف تحدث هذه العلامة؟ إذ أنه ظن بأن شرًّا سوف يقع بسبب طيران هذه الجوارح البغيضة فوق الجثث. وهذه الطيور الجارحة اعتُبرت دنسة ـــ عند الكلدانيين ـــ إذ كانت تأكل اللحوم. هكذا خاف إبراهيم من هجوم هذه الطيور إذ كانت علامة (لدى الكلدانيين) لوقوع شرٌّ. لكن الله أراد أن

يخلصه من هذا القلق، فقال له: «اعلم يقينًا أن نسلك سيكون غريبًا» (تك ١٥: ١٣)[١٨٥]، لكنه طمأنه بأنه سوف يعاقِب الأمة التي سوف تسبب شرًا لنسله (انظر تك ١٥: ١٤). ثم قال له: «وأما أنت فتمضي إلى آبائك بسلام وتُدفن بشيبة صالحة» (تك ١٥: ١٥).

يقول الكتاب، بعد ذلك، عندما اقتربت الشمس من المغيب «وإذ تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع» (تك ١٥:١٧). النار هنا ترمز إلى الله الذي كان بحسب عُرف الكلدانيين يصدِّق على القَسَم، ويقول: «فَإِنَّهُ لَمَّا وَعَدَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَعْظَمُ يُقْسِمُ بِهِ، أَقْسَمَ بِنَفْسِهِ. قَائِلاً: إِنِّي لأُبَارِكَنَّكَ بَرَكَةً وَأُكَثِّرَنَّكَ تَكْثِيراً. وَهَكَذَا إِذْ تَأَنَّى نَالَ الْمَوْعِدَ. فَإِنَّ النَّاسَ يُقْسِمُونَ بِالأَعْظَمِ، وَنِهَايَةُ كُلِّ مُشَاجَرَةٍ عِنْدَهُمْ لأَجْلِ التَّثْبِيتِ هِيَ الْقَسَمُ» (عب ٦:١٣ ـــ ١٦).

لقد أعطى الله ـــ تدبيريًا οἰκονομικώτατα ـــ الوعد بقَسَمٍ، بالرغم من أنه لا يعرف الكذب كما كتب بولس الرسول: «حتى بأمرين عديمي التغيّر لا يمكن أن الله لا يكذب فيهما تكون لنا تعزية قوية نحن الذين التجأنا لنمسك بالرجاء الموضوع أمامنا» (عب ٦:١٨).

ظهور الملاك لهاجر:

أيضًا كما هو مكتوب في الكتاب: «فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية على العين التي في طريق شور. وقال يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت وإلى أين تذهبين. فقالت: أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي. فقال لها ملاك

---

[١٨٥] وبهذا فسر له دلالة طيران الطيور الجارحة.

الرب: ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها» (تك ١٦: ٧ ـــ ٩)، وللتو عادت هاجر ودخلت تحت نير العبودية.

شريعة الختان:

لكن الله كان قد شرّع الختان لإبراهيم إذ أننا نقرأ: «وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: «وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظُ عَهْدِي أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ. هَذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ. فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ فَيَكُونُ عَلاَمَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. اِبْنَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ فِي أَجْيَالِكُمْ: وَلِيدُ الْبَيْتِ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّةٍ مِنْ كُلِّ ابْنِ غَرِيبٍ لَيْسَ مِنْ نَسْلِكَ. يُخْتَنُ خِتَانًا وَلِيدُ بَيْتِكَ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّتِكَ فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ عَهْدًا أَبَدِيًّا. وَأَمَّا الذَّكَرُ الأَغْلَفُ الَّذِي لاَ يُخْتَنُ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ فَتُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا. إِنَّهُ قَدْ نَكَثَ عَهْدِي» (تك ١٧: ٩ ـــ ١٤).

لقد اختُتِن إبراهيم الطوباوي مع كل عائلته لأنه كان من الحتمي أن يخضع الكل للنواميس الإلهية. وفي هذه الفترة وُلد ابن الحرة، أي إسحق. وما الذي صار بعد هذا؟ إسماعيل ابن إبراهيم غير الأصيل، وكان شقيًّا (في مزاحه) وهو خارج البيت الذي نال فيه كرامةً مساويةً لإسحق، لأنه مكتوب: «وَرَأَتْ سَارَةُ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي وَلَدَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَمْزَحُ» مع ابنها إسحق (تك ٢١: ٩س)، بعد ذلك بكت وأخبرت إبراهيم بالطبع. فقال الله له: «لاَ يَقْبُحُ فِي عَيْنَيْكَ مِنْ أَجْلِ الْغُلاَمِ وَمِنْ أَجْلِ جَارِيَتِكَ. فِي كُلِّ مَا تَقُولُ لَكَ سَارَةُ اسْمَعْ لِقَوْلِهَا لأَنَّهُ بِإِسْحقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. وَابْنُ الْجَارِيَةِ أَيْضًا سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً لأَنَّهُ نَسْلُكَ. فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْزًا وَقِرْبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لِهَاجَرَ وَاضِعًا إِيَّاهُمَا عَلَى

كَتِفِهَا وَالْوَلَدَ وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةِ بِئْرِ سَبْعٍ. وَلَمَّا فَرَغَ الْمَاءُ مِنَ الْقِرْبَةِ طَرَحَتِ الْوَلَدَ تَحْتَ إِحْدَى الأَشْجَارِ. وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ بَعِيدًا نَحْوَ رَمْيَةِ قَوْسٍ لأَنَّهَا قَالَتْ: لاَ أَنْظُرُ مَوْتَ الْوَلَدِ». فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ. فَسَمِعَ اللهُ صَوْتَ الْغُلاَمِ. وَنَادَى مَلاَكُ اللهِ هَاجَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: مَا لَكِ يَا هَاجَرُ؟ لاَ تَخَافِي لأَنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ لِصَوْتِ الْغُلاَمِ حَيْثُ هُوَ. قُومِي احْمِلِي الْغُلاَمَ وَشُدِّي يَدَكِ بِهِ لأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً. وَفَتَحَ اللهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بِئْرَ مَاءٍ فَذَهَبَتْ وَمَلأَتِ الْقِرْبَةَ مَاءً وَسَقَتِ الْغُلاَمَ. وَكَانَ اللهُ مَعَ الْغُلاَمِ فَكَبِرَ وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ وَكَانَ يَنْمُو رَامِيَ قَوْسٍ. وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ. وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ» (تك ٢١: ١٢ ــ ٢١).

لقد كان إبراهيم الطوباوي ضعيفًا (في البداية) بسبب محبته الأبوية لإسماعيل، لكن عندما أُعلنت له الوصية الإلهية أنه ينبغي عليه أن يضع أمله في إسحق، لأن بإسحق كان الوعد، وهكذا طرد هاجر وابنها مظهرًا بذلك أن الناموس ــ من ذلك الوقت ــ كان بالفعل هو مثالٌ لسر المسيح.

الإيمان أقدم من الختان

دعنا نفحص هذه الأقوال من بدايتها، فالأمور المختصة بالمسيح هي أكثر قِدمًا من كل ما أشار إليه الناموس، والتبرير بواسطة الإيمان هو أقدم من الختان الجسدي. لأن الختان ــ وفق كلمات بولس الحكيم ــ قد أُعطيَ لإبراهيم كعلامة للإيمان الذي كان له قبل الختان.

لقد كان إبراهيم الطوباوي مضطربًا لأنه لم يكن قد صار أبًا لابنٍ حُرٍّ، وبالرغم من أنه كان له ابنٌ غير أصيل من هاجر المصرية، إلَّا أنه كان حزينًا جدًا معتبرًا نفسه

عقيمًا. لكن عندما أخذ وعدًا بأنه سيصير أبًا لابنٍ أصيل، أي إسحق، وسمع بوضوح من الله بأنه سوف يصير مالكًا للأرض التي سوف يُريها له الله الذي قال له: «وَأُعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ» (تك ١٧:٨). وقد طلب من الله أن يعرّفه كيف يصير ذلك قائلاً: «أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ بِمَاذَا أَعْلَمُ أَنِّي أَرِثُهَا». لذلك أمره الله أن يأخذ هذه الذبائح التي قطّعها إلى اثنين، أي عجلة ثلثية وعنزة ثلثية وكبشًا ثلثيًا ويمامة وحمامة (انظر تك ٩:١٥). لقد قطع إبراهيم الحيوانات ذوات الأربع إلى اثنين، ووضع الواحد مقابل الآخر، أي في ترتيبٍ معيَّنٍ، بينما الطيور لم يقطعها. وعندما اقتربت الشمس إلى المغيب جاز الله بين القطع بنارٍ (انظر تك ١٥: ٩ ــ ١٧).

إذن، ما هو الشرح الروحي[١٨٦] الذي نستطيع أن نُعطيه لهذا الكلام؟ سوف نشرح بقدر استطاعتنا.

لقد كان إسرائيل بحسب الجسد بمثابة الابن الأول لإله الكل. لأنه يقول: «إسرائيل ابني البكر» (خر ٤:٢٢)، أي لم يكن من امرأة عبدة مصرية. لكن الله (المُحب بطبيعته للحرية والأصالة) لم يعتبر إسرائيل جديرًا بالانضمام إلى أولاده، لذا قَبِل الأمم الذين آمنوا بالوعد، أي بيسوع الذي بواسطته صار من هؤلاء الذين آمنوا بإيمان إبراهيم الطوباوي، آباء لكثيرين من الأمم. لأنهم ورثوا المجد الذي كان له وذلك ليس لأنهم من بني إسرائيل، بل بسبب أنهم أتوا من الأمم الذين خلصوا بالإيمان. وأكد بولس الرسول ذلك حين قال: «فَإِنَّهُ لَيْسَ بِالنَّامُوسِ

---

١٨٦ هنا يبدأ القديس كيرلس التفسير الروحي بعدما فرغ من التفسير الحرفي أو التاريخي وبذلك يؤكد مرارًا أنه لا يهمش التفسير التاريخي لكنه لا يبقى هناك، بل ينتقل إلى التفسير الروحي.

كَانَ الْوَعْدُ لإِبْرَاهِيمَ أَوْ لِنَسْلِهِ أَنْ يَكُونَ وَارِثاً لِلْعَالَمِ بَلْ بِبِرِّ الإِيمَانِ» (رو ٤: ١٣).

لأننا ندعو إبراهيم أبونا ــ نحن الذين آمنا ــ بالرغم من أننا غير مختونين وتبرَّرنا مثل إبراهيم ببرّ الإيمان.

أورشليم الأرضية وأورشليم العُليا

وبولس الرسول يوضِّح هذا السر الإلهي، إذ يكتب ــ وهو العارف جدًا بالناموس ــ إلى أهل غلاطية موبِّخًا إياهم لأنهم رجعوا عن الإيمان بعدما تكمَّلوا بالمسيح: «قُولُوا لِي، أَنْتُمُ الَّذِينَ تُرِيدُونَ أَنْ تَكُونُوا تَحْتَ النَّامُوسِ، أَلَسْتُمْ تَسْمَعُونَ النَّامُوسَ؟ فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ أَنَّهُ كَانَ لإِبْرَاهِيمَ ابْنَانِ، وَاحِدٌ مِنَ الْجَارِيَةِ وَالآخَرُ مِنَ الْحُرَّةِ. لَكِنَّ الَّذِي مِنَ الْجَارِيَةِ وُلِدَ حَسَبَ الْجَسَدِ، وَأَمَّا الَّذِي مِنَ الْحُرَّةِ فَبِالْمَوْعِدِ. وَكُلُّ ذَلِكَ رَمْزٌ، لأَنَّ هَاتَيْنِ هُمَا الْعَهْدَانِ، أَحَدُهُمَا مِنْ جَبَلِ سِينَاءَ الْوَالِدُ لِلْعُبُودِيَّةِ، الَّذِي هُوَ هَاجَرُ. لأَنَّ هَاجَرَ جَبَلُ سِينَاءَ فِي الْعَرَبِيَّةِ. وَلَكِنَّهُ يُقَابِلُ أُورُشَلِيمَ الْحَاضِرَةَ، فَإِنَّهَا مُسْتَعْبَدَةٌ مَعَ بَنِيهَا. وَأَمَّا أُورُشَلِيمُ الْعُلْيَا، الَّتِي هِيَ أُمُّنَا جَمِيعاً، فَهِيَ حُرَّةٌ. لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «افْرَحِي أَيَّتُهَا الْعَاقِرُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ. اهْتِفِي وَاصْرُخِي أَيَّتُهَا الَّتِي لَمْ تَتَمَخَّضْ، فَإِنَّ أَوْلاَدَ الْمُوحِشَةِ أَكْثَرُ مِنَ الَّتِي لَهَا زَوْجٌ». وَأَمَّا نَحْنُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ فَنَظِيرُ إِسْحَاقَ، أَوْلاَدُ الْمَوْعِدِ وَلَكِنْ كَمَا كَانَ حِينَئِذٍ الَّذِي وُلِدَ حَسَبَ الْجَسَدِ يَضْطَهِدُ الَّذِي حَسَبَ الرُّوحِ، هَكَذَا الآنَ أَيْضاً. لَكِنْ مَاذَا يَقُولُ الْكِتَابُ؟ «اطْرُدِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لأَنَّهُ لاَ يَرِثُ ابْنُ الْجَارِيَةِ مَعَ ابْنِ الْحُرَّةِ». إِذاً أَيُّهَا الإِخْوَةُ لَسْنَا أَوْلاَدَ جَارِيَةٍ بَلْ أَوْلاَدُ الْحُرَّةِ» (غلا ٤: ٢١ ــ ٣١).

هل أدركت ـــ إذن ـــ أن بولس يدعو هاجر وسارة عهدين، فالعبدة (هاجر) تشير إلى أم اليهود بمعنى أورشليم الأرضية؛ لأنها ظلت ملتصقة بنواميس العبودية ولا تتميز بروحٍ حُرةٍ، بينما سارة الحُرة والذي اسمها يعني «رئيسة أو أميرة» تمثل صورة أورشليم العُليا والسماوية مؤكدًا بكل وضوح أنها صارت أم الأبرار بواسطة الإيمان والذين دُعُوا من الله لكي يصيروا أولاد إبراهيم. لأنه يقول: «أَمَّا نَحْنُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ فَنَظِيرُ إِسْحَقَ، أَوْلاَدُ الْمَوْعِدِ» (غلا ٤:٢٨، رو ٩:٨). وحقيقةً، فقد تحررنا بواسطة المسيح الذي به أخذنا غنى الروح الإلهي والسماوي، وقد صرنا أولاد الله ونصرخ «يا أبّا الآب» (رو ٨:١٥)، وصرنا ورثةً للخيرات التي وَعَدَ بها الله القديسين. **وقد أقسَم الله بذاته، أي بالسر الخاص به، أي بابنه الذي هو قوته الخاصة.** حيث إن الابن مساوٍ للآب في الجوهر ومن نفس طبيعته الإلهية ولا يوجد (ابن) آخر له نفس هذه المكانة غير المسيح الابن الوحيد[١٨٧]. عندما أعلن لنا موسى عن الله وهو يُقسِم، قال بوضوح: «إني أرفع إلى السماء يديَّ وأقول حيٌّ أنا إلى الأبد» (تث ٣٢:٤٠). يد الله الآب هي الابن[١٨٨] الذي به يضبط الكل ويدعو الأشياء غير الموجودة إلى الوجود، والأشياء الموجودة فعلاً يمنحها الحياة الفضلى.

---

[187] *Ἔθος γὰρ ὀμνύναι τῷ Πατρὶ ὡς κατά ἰδίας δυνάμεως τοῦ· Υἱοῦ‘ καί τοῦτό ἐστι τὸ ὀμνύναι καθ’ ἑαυτοῦ.*

[188] *Δαξιὰ γὰρ τοῦ Θεοῦ καὶ Πατρὸς ὁ Υἱός.*

سبق للقديس إيرينيوس أن استخدم تعبير: «يدي الآب»، إذ يقول: «أمَّا الإنسان، فقد خلقه بيديه نفسها، آخذًا جزءً رقيقًا ونقيًا من الأرض ثم وحّده بجزء من قوته» الكرازة الرسولية، فقرة ١١، ص ٧٦، يقصد الابن والروح القدس، لأن القديس إيرينيوس ينفرد بتسمية الابن والروح القدس بيدي الله، انظر *AH5:6:1.*

المعاني الرمزية لذبائح رؤية إبرآم

هكذا استُخدِم سر مخلصنا كقَسَمٍ ليؤكد أن المؤمنين بالوعد هم وارثون. ويكشف لنا سر المسيح[١٨٩] عن طريق الأمثلة، أي من خلال العجلة والعنزة والكبش والحمامة واليمامة. وسوف أشرح هذه المعاني على قدر استطاعتي.

يرمز العجل إلى المسيح بسبب قوته وقدرته الفائقة كإله. ويُرمز له بالعجلة (البقرة) بسبب ناسوته διὰ τό ἀνθρώπινον، ولذلك خضع للناموس؛ لأن البقرة (بطبيعتها الأنثوية) هي خاضعة للذكر الذي يمسك بزمام الأمور. **وبالرغم من أن الابن هو أسمى من أي مخلوق ويتفوق على طبيعة المخلوقات، والآب إله الكل بالنسبة له هو الجذر والأصل، إلّا أنه صار مثلنا وخضع للناموس، لذلك قال: «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ» (مت ٥: ١٧)**[١٩٠]. إننا ننسب هذه الصور والتشبيهات ومسألة خضوعه، إلى مبدأ الإخلاء، إذا أردنا أن نؤمن إيمانًا صحيحًا.

---

[١٨٩] كان اليهود يجهلون ''سرَّ المسيح'' أي يجهلون طبيعة الابن الإلهية، وبالتالي فهم ينكرون عليه ألوهيته ويقولون إنه ''شريكٌ في التقديس''. وذلك لأنهم يعتقدون أنه لا يملك القداسة في ذاته وبالتالي في احتياج للتقديس، وفي موضع آخر استخدم ق. كيرلس نفس هذا التعبير وذلك في سياق شرحه لملابس هارون الكهنوتية، حيث فسَّر عبارة ''قدس للرب'' المكتوبة علي صفيحة من ذهب علي عمامة هارون بأنها هي عبارة تخص الابن المتجسد غير أنها لا تصفه بأنه محتاج للقداسة إذ هو قدوس حسب طبيعته الإلهية ولا يحتاج لتقديس من آخر، إنما هي تعني أن الابن قد عيّن خصيصًا وأرسِل إلي العالم لخلاص وتقديس البشرية. انظر: السجود والعبادة بالروح والحق، ترجمه د. جورج عوض إبراهيم، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، الجزء السادس، يوليو ٢٠٠٧ ص ١٠٥ — ١٠٦.

[١٩٠] قلنا في مقدمة هذا الكتاب إن الجلافيرا تكمل ما سبق أن كتبه القديس كيرلس في السجود والعبادة بالروح والحق، وهذا الموضع من أهم المواضع التي تؤكد صحة ما قلناه من أن الكتابين يكملان بعضهما البعض، ففي تعليق القديس كيرلس على نص مت ٥: ١٧ ــ كما هو وارد في المتن ــ نلاحظ أنه ــ ربما لأول مرة —

لقد رُمِزَ إليه أيضًا بالعنزة. ونتساءل: لأي سببٍ؟ أقول لأنه قدَّم ذاته ذبيحةً لأجل خطايانا وفق الكتب المقدسة. وبحسب الناموس، ذبيحة الخطية كانت تيسًا

يستخدم هذا النص مطبِّقاً إياه على التجسد، حيث يفهم أن تكميل الناموس وعدم نقضه يعني تجسد الابن، وهو معنى يختلف اختلافاً شاسعاً عن الاستخدام الشائع له، حيث يُستخدم هذا النص تحديداً في بيان العلاقة بين العهدين، ومدى المساحة التي يحتلها الناموس في العهد الجديد، ويكاد يكون هذا الموضوع هو محور مقالات السجود والعبادة بشكلٍ عام، ففضلاً عن تعرُّض القديس كيرلس له بالتفصيل في المقالة الثانية، وغيرها من المقالات، نجد أنه افتتح المقالة الأولى بالحوار حول هذا النص تحديداً، حيث يضع تساؤلاً على لسان بلاديوس يطرح فيه المشكلة التي قد يثيرها هذا النص، والتناقض المحتمل إذا أُخِذَ النص بشكلٍ مجرد، فيقول بلاديوس: ''إذن، بما أن الناموس لم يقدم الكمال في أي شيء، وحدث إبطالٌ للوصية القديمة ودخولٌ للوصية الثانية التي تقودنا إلى الاقتراب من الله، فلماذا يقول المخلص: '' لم آتِ لأنقض الناموس، بل لأكمل''، ... هذا يعني ــ على ما أظن ــ أنه يجب أن نهجر عادات الناموس وعبادته''. ويستكمل ق. كيرلس فكرته على لسان بلاديوس قائلاً: ''طالما أُدخل الختان الروحي وتغيرت الذبائح الناموسية وفقدت طريقة الحياة اليهودية مكانها عندنا، ألا يبدو مستحيلاً أن يقول المسيح: ''ما جئت لأنقض بل لأكمل''؟'' ... هنا يأخذ القديس كيرلس في شرح الأمر فيقول ''إن الحياة (في المسيح) ليست منفصلة تماماً عن ما جاء في الناموس، لو فُهِمَ الناموس بالمفهوم الروحي لأن الناموس هو مثال وظلٌّ التقوى والحقيقة فيه لا تزال في فترة المخاض''. وفي سبيل شرح وجهة نظره يستعين بمثال، فيقول: ''الفنانون الذين يرسمون ويكتبون على الألواح لا تكون كتابتهم أو رسمهم كاملاً مباشرةً بمجرد أن يبدأوا الكتابة ... ولكنهم يضعون تخطيطاً لشكل الرسم ولونه بحيث يصبح ذي جودة فائقة ويختارون المواضع التي تحتاج إلى ظلال معينة ... حتى يصلوا إلى الشكل المطلوب والأكثر مناسبة .... فعندما يضيف الصانع الألوان المتنوعة فوق آثار الرسم ... يُظَنُ في لحظةٍ ما أن الأشكال الأولى قد نُقِضَت وأُبطلت. لكن الأمر ليس كذلك لأنه لو كان هذا الاعتقاد حقيقياً لقال الرسام والصانع إننا لم نلغِ آثار الكتابة لكن بالحري قد أكملناها، وما كان يبدو غير واضحٍ وبدون جمال في الظلال والنماذج الأولى صار الآن أكثر روعة ووضوحاً''. فإذا طبقنا الشرح الوارد في الجلافيرا على هذا المثل، فسوف نتبن أن الناموس كان يمثل الخطوط الأولى في اللوحة، وأن إضافة الألوان لهذه الخطوط هي بمثابة التجسد، فبالرغم من أن التجسد يبدو وكأنه ألغى الناموس إلّا أن الأمر ليس كذلك، فمازال الناموس يقبع أسفل هذه الألوان، ولكن هذه الألوان (تجسد الابن) هي التي أعطت اللوحة جمالها الحقيقي. فحين يفهم القديس كيرلس هذا النص في إطار التدبير، وأن تكميل الناموس لا يأخذ معناه الصحيح إلّا في مجيء الابن وتجسده، فإنه يعطينا درساً هاماً في كيفية فهم نصوص الكتاب المقدس فهما صحيحاً في إطار الهدف النهائي من هذه النصوص، لا الاعتماد بشأنها على معناها الحرفي أو المجرد. راجع الطبعة المجمَّعة لمقالات السجود والعبادة، ٢٠١٣، نصوص آبائية ١٨٠ ــ ص ٣١ ــ ٣٦.

من الماعز. ورُمِز إليه أيضًا بالكبش؛ لأنه هو رئيسٌ على الرعية العقلية. لأن واحداً هو رئيسنا: يسوع المسيح. ونحن طبعًا شعبه وغنم رعيته وفق المكتوب (انظر مز ٧٩: ١٣)، ورُمِز إليه أيضًا بالكبش نظرًا لأنه تشبَّه بإخوته في كل شيء، وصار رئيسًا. لأن الكباش دائمًا هي التي تقود أثناء الرعي.

هكذا أُشيرَ إلى المسيح بالبقرة؛ لأنه خضع للناموس، وبالعترة كذبيح لأجل خطايانا، وأيضًا بالكبش كقائدٍ، وعلينا أن نتبع أثاره نحن الذين قبلناه وأسرعنا لنتبعه وفق كلمات النبي: «في مراعٍ حسن وفي مرعى دسمٍ» (حز ٣٤: ١٤) لنصل إلى الأماكن المقدسة. لأنه أعدَّ لنا أماكن إقامة في السموات حيث إنه هو نفسه القائد ورئيس الكهنة. وهو تحت الناموس كواحدٍ منا، وهو فوق الناموس كإله، وهو برٌّ الجميع بالرغم من أنه «أُحصيَ مع أثمةٍ» (أش ٥٣: ١٢)، تألم وذُبح لأجلنا.

وأخذ أيضًا شكل اليمامة والحمامة؛ لأنه هو اليمامة الفريدة والعاقلة والناطقة. حقيقةً هو كمثل الطائر الفصيح الذي أتى من فوق، أي من السماء، وفَتَنَ المسكونةَ كلها بكلمات بشارته المفرحة ونادى البشرية بالعروس، أي كنيسة الأمم قائلاً: «أَرِينِي وَجْهَكِ. أَسْمِعِينِي صَوْتَكِ لأَنَّ صَوْتَكِ لَطِيفٌ وَوَجْهَكِ جَمِيلٌ» (نش ٢: ١٤). إنه هو نفسه الحمامة الوديعة والبريئة والتي لا يوجد فيها أي غش، كما هو مكتوب لم يوجد «في فمه غشٌّ» (أش ٥٣: ٩).

كان عمر البقرة ثلاث سنوات، وكذلك بقية الذبائح، وذلك لأن هذا الرقم يشير إلى الكمال. والرب يسوع كان كُلِّي الكمال[١٩١]. وهذا يعني أن عمر الحيوانات يشير رمزيًا إلى كمال وحيد الجنس من جهة ألوهيته. والحيوانات قُطِّعَت (لأنه يقول شُقَّت) بينما الطيور ظلَّت غير مشقوقة. ونتساءل ما هو السبب في ذلك؟

نقول إن كلمة الله وحيد الجنس صار جسدًا ورُمز إليه بالذبائح التي أوصى الله أن تُشق، وأيضًا بالطير الذي لا يُشق. والسبب في هذا الأمر يحمل مفهومًا مزدوجًا. فمن ناحية نتأمل ولادته الإلهية والسرية من الآب، ومن ناحية أخرى نكرز بسر تأنسه ونحن ننشر تدبيره العميق لكي يعرفه كل الذين لم يعرفوه. وبالرغم من أن السبب يحمل مفهومًا مزدوجًا، إلَّا أنه ظلَّ واحدًا بدون انقسام إلى اثنين بعد اتحاده بالجسد[١٩٢]، ولم يُقطع أو يُشَّقُ إلى ابنين، لأن المسيحَ واحدٌ

---

[١٩١] يؤكد القديس كيرلس بكافة الطرق – أثناء حديثة عن ألواح مسكن الخيمة ــ على حقيقة تجسد **الكلمة** وأنه أخلى ذاته ولم يتوقف عن أن يكون هو الله والإنسان في آن واحد، وأنه هو كُلي الكمال، إذ يقول: "أمَّا الألواح (الأعمدة) التي للمسكن فكان عرض الواحد منها ذراع ونصف بينما الطول عشرة أذرع مذهبة عند الرؤوس والجسم، وتستند على قواعد فضية مزدوجة. واللوح (العمود) يقصد به المسيح، معضِّد الكنيسة ومؤسِّس الحق وفقاً لقول بولس (انظر ١ تي ٣: ١٥). لأنه هو الذي يعضد ويحفظ كل شيء. وعرض اللوح (العمود) ذراعٌ ونصف، وهو يشير إلى أن (المسيح) كاملٌ بحسب طبيعته، وصغيرٌ بحسب المقاييس البشرية. وليس من السذاجة في شيء إذا قلنا إن المسيح هو كلي الكمال كمثل الذراع الواحد، لأنه هو الله بحسب الطبيعة، لكنه صغير مثل نصف الذراع بسبب طبيعته البشرية، ووحيد الجنس كان غنياً، لكنه صار فقيراً لأجلنا (٢ كو ٨: ٩)، ووضع ذاته بالإخلاء من عظمته الإلهية". السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، المقالة التاسعة ص ٣٧٠.

[192] *ἀλλ᾽ εἷς που πάντως καὶ ὁ αὐτός· οὐ διουρούμενος εἰς δύο μετὰ τὴν πρὸς σάρκα σύνοδον.*

التأكيد هنا على أن **الكلمة** بعد تأنسه ظل هو إله وإنسان في آن واحد بدون انفصال أو انقسام، وهذا ما أكد عليه القديس كيرلس أثناء حديثة عن المذبح المصنوع من الحجارة (خر ٢٠: ٢٤ ــ ٢٥) حيث يقول:

وغير منقسم[١٩٣]، وهذا ما يشير إليه النهي عن شق الطير لأنه يقول: «وَأَمَّا الطَّيْرُ فَلَمْ يَشُقَّهُ» (تك ١٥: ١٠). ويعلن من خلال الحيوانات مثل العجل والعنزة والكبش أنه أتى من الأرض كإنسان، لكن يُدرَك أيضًا أنه هو نفسه الآتي من السماء، ومن فوق لأنه إله. وهذا ما أشارت إليه مسألة عدم شق الطير. وأنه بالرغم من أنه خضع للموت من أجلنا بإرادته إلّا أن «جسده لم يرَ فسادًا» (مز ١٥: ١٠) كما هو مكتوب، وأنه وفق كلام المرنم: «لا يرغمه عدو وابن الإثم لا يذلّله» (مز ٨٩: ٢٣). وهذا ما أظهره إبراهيم الطوباوي ــ كما في مثالٍ ــ بعد طيران الجوارح من فوق القطع المشقوقة حتى لا تفترسها. وقد سبق أن أُعلِنَ بالتأكيد لإبراهيم عن ما الذي سوف يحدث فيما بعد لنسله، أي ضد الإسرائيليين في مصر، وكذلك أعلن فداءه المنتظر، لأنه مكتوب: «ثُمَّ غَابَتِ الشَّمْسُ فَصَارَتِ الْعَتَمَةُ وَإِذَا تَنُّورُ دُخَانٍ وَمِصْبَاحُ نَارٍ يَجُوزُ بَيْنَ تِلْكَ الْقِطَعِ» (تك ١٥: ١٧).

«وعندما يقول: «وإن صنعت لي مذبحاً من حجارة فلا تبنه منها منحوتةً»، فهو يعني أنه من غير المسموح أن يضرب الحديدُ الحجارةَ المخصصة لله. لأن الحجر المختار وحجر الزاوية والحجر الكريم ــ بالتأكيد ــ هو المسيح، الطاهر من الخطايا، والذي لا تجد جروح الشيطان أي طريق فيه، ولا هو منقسم بين الله والعالم، فبالرغم من أنه صار جسداً إلا أنه كله قدوس، بدون أن يُقسّم إلى إله وإنسان من بعد الاتحاد الذي لا يُوصف، أي بعد اتحاده بالجسد، لكن هو إلهٌ واحد وفي الوقت نفسه هو إنسان، أي غير منفصل بأي طريقة كما كتب بولس الحكيم (راجع ١ كو ١١: ٤)». السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، المقالة التاسعة ص ٣٣٩

193 *οὔτε μὴν εἰς υἱῶν δυάδα τεμνόμενος εἷς γάρ καὶ ἀμέριστος ὁ Χριστός.*

إعلان المسيح

سبق وأخبرنا الناموس الموسوي عن وعود الله لإسرائيل وعن عبوديته وفدائه مقدِّمًا لمستمعيه روايات عن أحداثٍ كثيرة، ثم أخبرنا الوحيُ في الأزمنة الأخيرة أن «الكلمة صار جسدًا» (يو ١:١٤). وهذه الأزمنة الأخيرة هي ما يُشار إليها بمغيب الشمس وحلول الظلمة (وقت المساء حين قدَّم إبراهيم ذبيحة العهد). وأعتقد أن هذا ما نراه ظاهرًا عن طريق مصباح النار الذي من خلاله جازت الطبيعة الإلهية الفائقة فوق القطع المشقوقة. أمَّا ما كُتِب عن أنه «تنور ودخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع»، فهذا يشير حقًا إلى أنه صار تنور دخان ونار لأولئك الذين لم يؤمنوا به ورفضوه، أي أنه صار لهم دينونةً أبديةً لا مفر منها. وحقًا يقول داود لله أبو الكل عن بني إسرائيل الذين يهينون سر المسيح بدون تبصُّرٍ وسوف يُقبض عليهم كأعداء وحاسدين هكذا: «تَجْعَلُهُمْ مِثْلَ تَنُّورِ نَارٍ فِي زَمَانِ وجهك (حُضُورِكَ). الرَّبُّ بِسَخَطِهِ يَبْتَلِعُهُمْ وَتَأْكُلُهُمُ النَّارُ» (مز ٢١: ٩س). عبارة «فِي زَمَانِ وجهك» تشير إلى زمن تأنُّسه؛ إذ أن الابن هو وجه الآب وصورته[194]. لذلك فإن النار المخيفة والتنور المشتعل هما مصير أولئك الذين يرفضون سر تأنس وحيد الجنس، بينما أولئك الذين يؤمنون بمجيئه

---

[194] *εἴπερ ἐστὶ καὶ πρόσωπον καὶ εἰκὼν τοῦ Θεοῦ καὶ Πατρὸς ὁ Υἱός.*
ما كان لنا أن نتخلص من الفساد لو كان الابن ليس مساوياً للآب في الجوهر وليس هو وجه الآب أو صورة الآب، وهذا ما أكده القديس كيرلس حين قال: «فالابنُ، وهو وجه الله الآب الذي ظهر لنا، ولا يمكن أنْ يكون لدينا أي تردد تجاه هذه الحقيقة؛ لأنه هو ختمه ورسم جوهره، وبواسطته وفيه نحصل على معرفة الآب. وبهذه المعرفة يأتي إلينا، لذا يجب أنْ نكون رُحماء؛ لأننا خلصنا بالإيمان وليس من أعمال البر التي نفعلها، لكن بسبب رحمته العظيمة (انظر تي ٣: ٥) ألقينا عن كاهلنا الفساد وأخذنا شكلاً جديداً مناسباً لحياة المسيح الجديدة، بسبب رحمة الله». السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، المقالة الحادية عشر، ص ٤٦٤

يكون هو لهم «سراجٌ ينير في الظلمة» كما هو مكتوب (مز ١٨ :٢٨)، ويبدد الضباب الشيطاني الكثيف، إذ لا يترك الذين يتقونه يسقطون في العثرات. هكذا وصف الله الآب الابن قائلاً بفم أشعياء: «من أجل صهيون لا أسكت ومن أجل أورشليم لا أهدأ حتى يخرج برها كضياء وخلاصها كمصباح يتقد» (أش ٦٢ :١).

لقد صار الابن حقًا هو الخلاص والبر من الله الآب لأجلنا، إذ هو الحق، وهو الذي تبرَّرنا به لأنه انتصر على الموت الذي كان متملِّكاً علينا منذ القديم، وأعادنا إلى عدم الموت، وأعاد تشكيلنا ἀναμορφούμεθα[١٩٥] إلى الحالة التي كانت عليها طبيعتنا منذ البداية.

تراجع العبادة الموسوية أمام التعاليم الإنجيلية

كان من الحتمي أن تتراجع فرائض العبادة الموسوية أمام التعاليم الإنجيلية ووصايا المسيح الأسمى والأكمل، وذلك عندما ظهر عمانوئيل وصار سره

---

١٩٥ أكد القديس كيرلس في موضع آخر حقيقة أن الكلمة تجسد لكي يعيد تشكيلنا، إذ يقول: "لقد جاء ابن الله ــ كما قلتُ ــ وتأنَّس، وأعاد تشكيل الذي لنا في نفسه هو أولاً إلى ميلاد جديد وحياة مقدسة عجيبة وإعجازية بالحقيقة. فقد صار هو بصفته البدء مولوداً من الروح القدس ــ أعني بحسب الجسد ــ لكي تصل إلينا نحن أيضاً هذه النعمة عن طريقه، فيكون لنا الميلاد الجديد الروحي «ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل لكن من الله» (يو ١: ١٣)، بالروح القدس، وإذ يتغيَّر شكلنا الروحي إلى شكل الابن الحقيقي الطبيعي ندعو بالتالي الله أباً لنا، وهكذا نبقى غير فاسدين، إذ لم نَعُد بعد ننتمي إلى أبينا الأول، أعني آدم الذي فيه فسدنا. ولذلك قال المسيح مرةً بحق: «لا تَدْعُوا لكم أباً على الأرض، لأن أباكم واحدٌ الذي في السموات.» (مت ٢٣: ٩)" المسيح واحد *5 PG 75, 1272; SC 97, 335.*

مكشوفًا للعالم. وهذا ما نراه كظلٍّ في مثالٍ مجسَّم [١٩٦]. وسوف أقول لكم الآن ما هو هذا المثال؟

لقد انتفخت هاجر بكبرياء[١٩٧] في مواجهة سارة[١٩٨] الحرة. وذلك بسبب أنها حملت بإسماعيل. أمَّا سارة فلم تحتمل كبرياءها هذا وأساءت إلى هاجر، فتركت هاجر المسكن وتاهت في الصحراء. عندئذٍ سألها ملاكٌ من السماء مِن أين أتت؟ وإلى أين تذهب؟ فأجابته قائلة: «أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي»، فقال لها الملاك: «ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها» (تك ١٦:٨ — ٩). وهذا يشير إلى أن العبادة الناموسية قد **حملت**[١٩٩] مبكرًا بإسرائيل عندما

---

196 *ἐσκιαγραφεῖτο πάλιν ὡς ἐν τύπῳ τὸ χρῆμα παχεῖ*

يؤكد أيضاً القديس كيرلس في موضع آخر أن المسيح أبطل الظلال، إذ يقول: «لأنه بالمسيح أُبطلت فرائض الناموس، والظلال وصلت إلى نهايتها. هذا ما يشير إليه عدم إصعاد محرقة أو تقدمةً أو سكيباً فوق مذبح البخور. وهو ما يؤكده النبي قائلاً: «انقطعت التقدمة والسكيب عن بيت الرب. ناحت الكهنة خدام الرب» (يؤ ١: ٩). أي أنه طالما ظهر السجود والعبادة بالروح والحق، صارت الظلال نافلة، وعبادة النماذج صارت بلا فائدة تماماً. لأنه بالمسيح صارت هناك خليقة جديدة. بعد مجيء الحق، كل الذين يطلبون برّهم في الناموس يفقدون النعمة. لأنه يقول: « لا تصعدوا عليه بخوراً غريباً» (خر ٣٠: ٩)». السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٨٨.

١٩٧ عند القديس كيرلس ترمز هاجر للعبادة الناموسية بسبب أنها كانت عبدة.

١٩٨ ترمز سارة بحسب القديس كيرلس إلى التعاليم الإنجيلية بسبب أنها كانت حُرة ومنها يأتي إسحق ابن الموعد .

١٩٩ يذهلنا القديس كيرلس الكبير في رؤيته لتاريخ العهد القديم، وتطبيقه لهذا التاريخ على تدبير العهد الجديد، حتى بالنسبة للحوادث التي قد لا تثير اهتمام القارئ أو التي يمكن أن يعتبرها القارئ مجرد حوادث تاريخية، فحدث حمل هاجر العبدة بإسماعيل واستباقها لسارة في الحمل، وهو حدث قد لا يعني شيئاً عند القارئ العادي، إلا أنه لا يفلت من عيني عمود الدين، فيرى فيه قصة كنيسة العهد القديم والعهد الجديد كاملة، وكيف أن إسرائيل المولود في العبودية يسبق اسحق ابن الموعد، هو ذاته حدث أسبقية العبادة الناموسية التي تتناسب وحالة العبودية، لخدمة العهد الجديد التي تتناسب وحالة بنوتنا في ابن الله ربنا ومخلصنا يسوع المسيح. بل ولا تخلو جنسية هاجر المصرية من دلالة داخل هذا التدبير، فكما حملت هاجر المصرية بإسماعيل، هكذا تعلم موسى كل حكمة المصريين، وبالرغم من ذلك لم تنفعه

كانت مجرد عبدة (لأن ليس بها روح حرة)، لقد **حملت** الشعب القادم من مصر قبل ظهور التعاليم الإنجيلية. لذلك احتقرت أتباع المسيح واضطهدتهم وظلت تحتقر التعاليم الإنجيلية بطرقٍ كثيرة. وقد هدَّد مجمع اليهود الرسولين القديسين قائلاً لهما جهرًا: «أن لا ينطقا البتة ولا يعلِّما باسم يسوع» (أع ٤: ١٨).

هل رأيت كيف أن المصرية تصرَّفت بزهوٍ مع سارة وتجرَّأت العبدةُ الوضيعة على الحرة؟ لكنها هُزِمت فيما بعد، وهربت ثم تلقت أمرًا من الملاك أن لا تهجر الحرة وأن تخضع تحت سلطانها. لأن عبادة الناموس المملوءة بالرموز والظلال هي خادمة لتعليم الإنجيل، إذ أظهرت جمال الحق غامضًا[٢٠٠]. وبصوت الملاك أُمرت هاجر (الناموس) أن تضع عنقها تحت الناموس الحر (ناموس المسيح) وأن تتراجع ولو ضد إرادتها. هذا ما تشير إليه — روحيًا — وصية الملاك بأن تخضع هاجر تحت يدي سارة (انظر تك ١٦:٩).

ختان الجسد مثالٌ للختان الروحي

يجب أن نتذكر أن بولس الرسول حدَّد هاجر وسارة على أنهما عهدان، واحدة في رتبة العبودية وتتماثل مع أورشليم الحاضرة، بينما الأخرى في رتبة الأحرار أي سارة. وعندما يأتي المسيح سوف يُشرق زمن الختان الروحي، وهذا ما عَلِمه إبراهيم الطوباوي بطريقة واضحة. إذ شرَّع الله أنه ينبغي أن يتم الختان

حكمته أمام فرعون لأنه كان ثقيل اللسان، وخلاصه من فرعون جاء عن طريق هارون أخيه الكاهن الذي يرمز للمسيح الكاهن والوسيط الوحيد بين الله والناس؛ "لأنه إذ كان العالم في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة استحسن الله أن يخلص المؤمنين بجهالة الكرازة ... لان جهالة الله أحكم من الناس وضعف الله اقوى من الناس" (١كو ١: ٢١، ٢٥).

200 ἀμυδρὸν τῆς ἀληθείας τὸ κάλλος ἐφ'ἑαυτῇ δεικνύουσα.

بأمثلة جسدية تكشف المعنى الروحي في نفس الوقت. لأنه يقول: «يُختن منكم كل ذكر» (تك ١٧: ١٠). وحدَّد عقابًا للتراخي في هذا الأمر، ألا وهو الهلاك والضياع. إذ قال إن الذكر غير المختون والذى لا يُختتن في اليوم الثامن يُقطع من شعبه لأنه نكث عهدي (انظر تك ١٧: ١٤).

هل رأيت كيف أن ختان الجسد يشير إلى الختان الروحي والحقيقي بطريقةٍ ما؟ إذ يتم هذا الختان في اليوم الثامن الذي فيه قام المسيح من الأموات، وبالفعل كان هذا هو الوقت الذي فيه تصيرون شركاء الروح القدس وتقبلون الختان به[٢٠١]، الختان الذي لا يجلب الألم للجسد بل يُطهِّر الروح، ويخلصهم ليس من الأدناس الجسدية، بل من الضعفات النفسية.

أي عندما قام المسيح وأبطل[٢٠٢] سلطان الموت وأعلن من خلال تلميذه بداية نوال عطية الروح القدس. لأنه نفخ فيهم قائلاً: «اقبلوا الروح القدس» (يو

---

201 *καὶ καιρὸς ἦν ἤδη τοῦ μεταλαχεῖν ἁγίου Πνεύματος καὶ τὴν ἐν αυτῷ δέχεσθαι περιτομὴν.*

يقصد الختان الروحي، والجدير بالذكر أن الابن مع الآب والروح القدس يسكنون في المؤمنين الذين نالوا الختان الروحي، وهذا يشرحه القديس كيرلس في موضع آخر بكل وضوح، إذ يقول: «إن ختان الجسد هو مِثالٌ واضحٌ جداً للختان الذهني والروحي، الذي بمقتضاه ينزع المسيحُ كل دنسٍ من أذهاننا؛ فهذا يتفق مع ما قاله بولس الطوباوي (كو ٢: ١١). أننا طالما خلعنا الإنسان القديم الذي يفسد من شهوات الباطل، واللذات الجسدية، **فبسكنى الروح وفعله، نُظهِر ذواتنا جديرة بأن ترى الله، ونصير مسكناً مقدساً للثالوث القدوس والمساوي**. كما قال المخلص أيضاً: «إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كلاَمِي وَيُحِبُّهُ أَبِي وَإِلَيْهِ نَأْتِي وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً» (يو ١٤: ٢٣)». السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السابع، المقالة الخامسة عشر ص ١٥٥.

٢٠٢ بحسب القديس إيرينيوس إن تجسد المسيح له المجد كان ضروريًا لكي ينقل عدم الفساد إلى البشر ولكى يَبطُل الموت الآتي من عصيان آدم. وهذا الأمر قد شرحه فيما بعد القديس أثناسيوس في كتابه "تجسد الكلمة": "لأن المخلّص تمّم بتأنسه عمليتي المحبة: (أولاً): أنه أباد الموت من داخلنا وجدّدنا ثانية. (ثانيًا): أنه إذ هو غير ظاهر ولا منظور، فقد أعلن نفسه وعرّف ذاته بأعماله في الجسد، بأنه **كلمة** الآب، ومدّبر وملك الكون" انظر تجسد

٢٠:٢٢). هل أدركت أيضًا ما قاله يوحنا الحكيم: «لأن الروح القدس لم يكن قد أعطيَ بعد. لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد» (يو ٧:٣٩). أي أنه مُجِّد عندما قام من الأموات في اليوم الثامن من الأسبوع (الأحد)، لذلك أتى إلينا الروح وبه خُتنا ختانًا روحيًا غير مصنوع بيدٍ. لأن هذه الطريقة الروحية للختان هي طريقة محبوبة عند الله، إذ قال القديس بولس: «لأن اليهودي في الظاهر ليس يهوديًا ولا الختان الذي في الظاهر ليس ختانًا، بل اليهودي في الخفاء هو اليهودي. وختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان الذي مدحه ليس من الناس بل من إله» (رو ٢:٢٨ ـــ ٢٩).

البقية ستخلص

هكذا، فإن العبادة الناموسية[٢٠٣] قد أُبطِلتْ، في حين أن العبادة الجديدة رسخت حقًا باسم المسيح، وعُرِفتْ الشعوب التي آمنت وانضمت إلى أولاد

الكلمة، المرجع السابق ٥:١٦. والقديس أمبروسيوس أسقف ميلان يصف لنا المسيح بأوصاف توضح نتائج التجسد بالنسبة لنا: ''المسيح هو لنا كل شيء. إذا أردت أن تبرئ جرحك، فهو الطبيب الشافي؛ إذا أردت أن تروى عطشك الشديد، فهو ينبوع الماء الحي؛ إذا كنت في حاجة إلى معونة، فهو القوة الحية الفعّالة؛ إذا كنت ترهب الموت، فهو الحياة القاهرة للموت؛ إذا كنت تخشى الظلام، فهو ''النور الحقيقي''؛ إذا كنت جوعانًا، فهو قوت الحياة'' *(PL16, 305)*.

[٢٠٣] لقد أبطل المسيح العبادة الناموسية، ويؤكد هذا الأمر القديس كيرلس أثناء حديثة عن عرض شقق المسكن للخيمة، قائلاً: ''عرض الشُقة الواحدة هو أربعة أذرع، بينما طولها ثمان وعشرون ذراعاً. الرمزُ دقيقٌ وعجيب، لكني أعتقد أنه يُظهر أن العيش بالناموس بالنسبة للكنيسة، صعبٌ جداً لأن الحرفَ مظلمٌ. إذ أن تربية الناموس ـــبمرور الزمنـــ وصلت إلى نهايتها في سر المسيح، أي في اليوم الثامن الذي حدثت فيه قيامة المسيح. لأن غاية الناموس والأنبياء هو المسيح الذي إليه صرخ داود العظيم ''أمّا وصيتك فواسعة جداً'' (مز ١١٩: ٩٦). وبولس العظيم يكتب لأولئك الذين فضّلوا العبادة الناموسية عن الإيمان بالمسيح قائلاً: ''فمنا مفتوح إليكم أيها الكورنثيون قلبنا متسع. لستم متضيقين فينا بل متضيقين في أحشائكم. فجزاء لذلك أقول كما لأولادي كونوا أنتم أيضا متسعين. لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين لأنه أية خلطة للبر والإثم وأية شركة للنور مع الظلمة'' (٢ كو ٦:

الحرة، الذين ليس فيهم روح الدناءة أو الخِسة (لأنهم ينادون الله «أبانا»). لقد حان الوقت بالفعل لكي يُطرد مجمع اليهود ويصير الشعب محرومًا من ميراث الموعد. أمَّا عن رجوعه فيما بعد لكي يصير مقبوًلا ويقتني الوداعة السماوية من الآب ويعترف بمخلص وفادي الكل، فهذا أيضًا ما يكشفه لنا الكتاب المقدس. لأنه يقول إن الابنين قد لعِبا أحدهما مع الآخر، أقصد اسحق وإسماعيل (أعتقد أن لعبتهما كانت هي الصيد بالنبال)، والتي بعدها طُرد إسماعيل، بينما يبدو أن اسحق قد هرب. وهذا ما جعل سارة ذات العقل الحُر تغضب وتقول لإبراهيم أُطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني اسحق (تك ٢١: ١٠، وانظر غلا ٤: ٣٠). وقد سبَّبَ كلامها إزعاجًا لإبراهيم حين سمعها تقول هذا الأمر، لكنه علِم من الله أنه ينبغي أن يسمع لقول سارة. هكذا زوَّد إبراهيم هاجر بالخبز والماء وأمرها أن ترحل مع ابنها من البيت، فرحلت هاجر وهي مضطربة من الحزن وباكية وهامت في الصحراء الجرداء. لكن بسبب أن الطفل تعرَّض للخطر، فإنها أخذت تبكي بشدة، ثم «فتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء. فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام» (تك ٢١: ١٩).

لاحظ أن السر[٢٠٤] سوف يصير معروفًا، والذي حدث أثناء اللعب يسهم في توضيح هذا الأمر. لأن إسماعيل اضطهد اسحق، وكون أن ابن العبدة سوف

---

١١ ــ ١٤). هل أدركت أن المرء الذي يريد أن يرتبط باليهود الذين أظهروا عدم إيمان، ومازالوا يتحدثون عن ضرورة التزام حرف الناموس بعد الإيمان بالمسيح يجعل القلوب تتنافر؟". السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء الخامس، المقالة التاسعة ص ٩٨.

[٢٠٤] يقصد المعنى الروحي المستتر خلف السرد التاريخي للأحداث، ولا يوجد سر عند القديس كيرلس غير سر المسيح.

يضطهد ابن الحرة فيما بعد، أي الشعب الذي سوف يؤمن بالمسيح، فهذا ما يوضحه بولس الطوباوي قائلاً: "كما كان حينئذٍ الذي وُلِد حسب الجسد يضطهد الذي حسب الروح، هكذا الآن أيضًا" (غلا ٤:٢٩). وكما أن إسماعيل كان قد حارب أبناء الحُرة، هكذا طُرِد مجمع اليهود و لم يأخذ سوى زادٍ قليل وفقير أي خبز وماء. أي أنه أخذ قليلاً من المعرفة والتقوى، وهي المؤن التي تحفظهم من الضياع. لأن الله ترك لإسرائيل بقية من نسله بناموس الرأفة "فإني أكون لهم مقدسًا في الأراضي التي يأتون إليها" (حز ١١: ١٦). فهو سوف يصير مقدسًا صغيرًا لأبناء إسرائيل بعد تشتتهم في الأمم، لقد زوَّد هاجر بالماء والخبز وهي التي كانت تلد للعبودية. وبالمثل فلم يكن لليهود ـــأقصد مجمع اليهودـــ قوة كافية لكي تمكنهم أن يتمموا الناموس الموسوي، فزوَّدهم بالقليل حتى يحفظوا الختان الجسدي وراحة السبت على الأقل. وكما تضايق إبراهيم لرحيل هاجر ومع ذلك تركها لأن الله أمره بذلك، هكذا بسبب أن الإسرائيليين سقطوا من نعمة الله وانفصلوا عنه حَزِنَ الرسل والبشيرون القديسون، وحزنهم هذا كان بسبب محبتهم للمسيح. ويقول بولس الرسول أيضًا: "إن لي حزنًا عظيمًا ووجعًا في قلبي لا ينقطع. فإني كنت أود لو أكون أنا نفسي محرومًا من المسيح لأجل اخوتي أنسبائي حسب الجسد" (رو ٩:٢). إذن عندما طُردت أمُّ اليهود وتاهت سنينًا كثيرة وتعرضت لخطر الهلاك التام وصرخت إلى الله، فإنه رحمها. فإن الله سيفتح عيون أذهانهم ليروا ينبوع الماء الحي[٢٠٥] πηγὴν τὴν

---

[٢٠٥] يؤكد القديس إيرينيوس على الينبوع الصافي الذي ينبع من جسد المسيح، إذ يقول: "كما أن نفخة الله قد حلّت في الجبلة الأولى، هكذا استؤمنت الكنيسة على عطية الله (أي الروح القدس)، حتى باشتراك جميع الأعضاء فيه، ينالون منه الحياة. وفي الكنيسة اذُّخرت الشركة مع المسيح، التي هي الروح القدس عينه، عربون عدم الفساد

أي المسيح، اليَنبوع الذي لو شربوا منه لَحيوا متحدين ὕδατος ζῶντος τοῦ معه. وإذا اغتسلوا فيه لتطهروا. أما وإن المسيح هو ينبوع الحياة، فهذا يوضحه المرنم بقوله: "يُروون من دسم بيتك ومن نهر نعمك تسقيهم. لأن عندك ينبوع الحياة. بنورك نرى نورًا. أدم رحمتك للذين يعرفونك وعدلك للمستقيمي القلب" (مز ٣٦:٨ ـــ ١٠). وليس هناك ينبوع آخر سوى المسيح، الذي له مع الله الآب المجد والقوة مع الروح القدس المحيي المساوي إلى أبد الأبدين آمين.

إبرآم واسحق:

«وَحَدَثَ بَعْدَ هَذِهِ الأُمُورِ أَنَّ اللهَ امْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لَهُ: «يَا إِبْرَاهِيمُ». فَقَالَ: «هاأَنَذَا». فَقَالَ: «خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ الَّذِي تُحِبُّهُ إِسْحَقَ وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِيَّا وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ» (تك٢٢:١ـــ٢). هذا ما أعلنه الله لإبراهيم وللتو شَدَّ البارُّ على حماره ـــ كما هو مكتوب ـــ وأخذ اثنين من غلمانه معه، وأخذ إسحق ابنه المحبوب وارتحل مسرعاً لكي يقدم الذبيحة. عندما وصل إلى ذلك المكان المقدس، في اليوم الثالث قال لغلاميه: «اجْلِسَا أَنْتُمَا هَهُنَا مَعَ الْحِمَارِ وَأَمَّا أَنَا وَالْغُلاَمُ فَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَيْكُمَا. فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ حَطَبَ الْمُحْرَقَةِ وَوَضَعَهُ عَلَى إِسْحَقَ ابْنِهِ

وثبات إيماننا، والسلّم الصاعد إلى الله... لأنه حيث تكون الكنيسة، يكون روح الله؛ وحيث يكون روح الله، تكون الكنيسة وكل موهبة. والروح هو حق، ولذلك فالذين لا يشتركون فيه لا يرضعون ثدي أمهم (الكنيسة) لينالوا الحياة، ولا يرتشفون من الينبوع الصافي الذي ينبع من جسد المسيح" (ضد الهرطقات ٣:٢٤:١) SC . *475-211, pp. 473*

وَأَخَذَ بِيَدِهِ النَّارَ وَالسِّكِّينَ. فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعاً. وَقَالَ إِسْحَقُ لإِبْرَاهِيمَ أَبِيهِ: «يَا أَبِي». فَقَالَ: «هَأَنَذَا يَا ابْنِي». فَقَالَ: «هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ وَلَكِنْ أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ؟». فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «اللهُ يَرَى لَهُ الْخَرُوفَ لِلْمُحْرَقَةِ يَا ابْنِي». فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعاً» (تك ٢٢: ٥ — ٨).

هكذا بنى المذبح، ورتَّب الحطب فوقه، وربط إسحق ابنه، ووضعه فوق الحطب الذي على المذبح، وأمسك السكين، فمنعه صوت الملاك قائلاً له: لا ينبغي أن تذبح ولدك؛ لأن الله عِلم مدى استعدادك الصالح. ثم بعد ذلك رأى البار كبشاً ممسَكاً في الغابة بقرنيه، وقام البار بتقديمه ذبيحة بدلاً من ولده. وهكذا نزل إلى غلاميه ومعه ابنه سليًما.

حيث إننا لخصنا بإيجاز القصة الطويلة بعرضٍ سريع، فإننا لن نتردد أبداً في شرحها على قدر استطاعتنا، ونبيّن أن سر مخلصنا قد سبق أن صُوِّرَ في تلك الأحداث. أمَّا إن كان البعض لا يتتبعون كل الأقوال الواردة بخصوص هذا الحدث، فهذا ما لا نقبل أن نفعله. إذ في مرات كثيرة يختفى المعنى الروحي في جزء صغير أثناء سرد الحدث. وذلك مثل زهور المراعي التي قد تكون ملفوفةً بأوراق لا قيمة لها. لكن إذا قطع أحد هذه الأوراق فسيجد داخلها ما هو مفيد (يقصد رائحة الزهور العطرة).

والآن نبدأ حديثنا بالشرح الرمزي. كوّن أن إبراهيم الطوباوي وُضِع في اختبار وأُمِرَ أن يقدم ابنه المحبوب، وأنه تضايق طبعاً كأب، وجُرِح بمخراز الطبيعة الساخن (الحنان الأبوي)، لكنه اختار الموقف الذي يخفي صلاح الله، كأنه يكشف بوضوح جداً ما قاله الإنجيل فيما بعد: "لأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ

حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (يو ٣: ١٦).

أتحدث إنسانياً لكي أُظهِر المعنى بكل وضوح، فأقول: إن الله الآب تأثر تأثراً عميقاً وهو يقدم ابنه للموت لأجلنا، بالرغم من أنه كان يعرف أنه سوف لا يعاني شيئاً كإله لأنه غير قابل للتألم. كما كان يدرك مدى المنفعة التي ستنتج عن الموت، أقصد خلاص الكل وهبة الحياة، فلم يتأخر الآب ـــ عن خلاصنا ـــ بسبب محبته تجاه ابنه. لذلك قال عنه بولس الرسول: "اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضاً مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ؟" (رو٨: ٣٢). وكيف كان يمكن أن تظهر عظمة محبة الله الآب لنا، لو لم يُظهر لنا مدى احتماله لكل هذه الأمور مسلماً ابنه لأجلنا؟ لأن عبارة "لم يشفق" التي قالها بولس الرسول تجعلنا نفكر فيها هكذا. وهذه الأقوال لا تُقال اعتباطاً، بل عن أولئك الذين يشرعون في عمل شيء عظيم وجليل، وبالمثل أيضاً: "أَوْسِعِي مَكَانَ خَيْمَتِكِ وَلْتُبْسَطْ شُقَقُ مَسَاكِنِكِ. لاَ تُمْسِكِي. أَطِيلِي أَطْنَابَكِ وَشَدِّدِي أَوْتَادَكِ. لأَنَّكِ تَمْتَدِّينَ إلى الْيَمِينِ وَإِلَى الْيَسَارِ" (أش ٥٤: ٢ ـــ ٣)، وأيضاً: "لاَ تَخَافِي لأَنَّكِ لاَ تَخْزِينَ" (أش ٥٤: ٤)، وكذلك: "أَنْقِذِ الْمُنْقَادِينَ إلى الْمَوْتِ وَالْمَمْدُودِينَ لِلْقَتْلِ" (أم ٢٤: ١١، انظر مز ٨١: ٤). ومثل هذه الكلمات تُقال أيضاً عن عبارة: "خذ ابنك حبيبك"[٢٠٦].

أما الخادمان اللذان كانا يصاحبان الرجل المُسن إبراهيم ويتبعانه من الخلف لمدة يومين أو ثلاثة، فهما مثالٌ للشعبين اللذين دُعيا للخضوع للناموس، أقصد

[٢٠٦] يقصد القديس كيرلس أن هذه العبارة هي على نفس مستوى الأقوال الجريئة التي سبق وأوردها من سفر أشعياء والأمثال والمزامير والتي توحى بحدوث أمر عظيم وجرئ.

إسرائيل ويهوذا، وهما اللذان آمنا بأنه ينبغي عليهما أن يتبعا وصايا الله الآب مثل الخادمين اللذين كانا مع إبراهيم. هذان الشعبان لم يعرفا الابن الذي به خُلِق الكل، ولا اعترفا بمن هو وارث للآب الذي يشير إليه إسحق الصغير الذي كان موجوداً في حضن أبيه بأروع صورة، رغم أنه لم يكن بعد سيد البيت. أما الابن، فهو كان كائناً وسيكون كائناً على الدوام، وهو الرب والإله الكُليُّ الكمال. ولكنه بسبب أنه لم يكن معروفاً من الجميع وخاصةً اليهود عديمي التقوى الذين كان نظرهم دائماً إلى الجسد فقط، فإنهم ظنوا أنه شخصٌ عادي لا نفع منه. إذ أنه كان حينئذٍ في الصورة التي تناسب ذهن البشر ومعرفتهم، فبدا وكأنه صغيرٌ وحقيرٌ عند البشر الصغار. أما بالنسبة للعظماء، فإنه عظيمٌ، وهذا ما يقوله الأنبياء: «يَا رَبُّ إِلَهَ الْجُنُودِ مَنْ مِثْلُكَ قَوِيٌّ رَبٌّ وَحَقُّكَ مِنْ حَوْلِكَ؟» (مز ٨٩: ٨)، ويقصد بالذين حوله أولئك الذين اقتربوا إليه بقلب مستقيم. أما الذين لم يقتربوا إليه هكذا، فإن بولس يشعر بالألم بسببهم وهو يقول لهم: «إلى أن يتصوّر المسيح فيكم» (غل٤:١٩)، أي إلى أن تنطبع ملامح الألوهية الفائقة للطبيعة رويداً رويداً في ذهن هؤلاء[٢٠٧]. وكون أن الغلامين تبعا إبراهيم لمدة ثلاثة ايام و لم يسمح لهما بأن يصعدا معه إلى المكان العالي والمقدس، بل أمرهما

207 *Τουτ έστιν, ἄχρις ἄν οἱ μεγάλοι καὶ ὑπερφυιεῖς τῆς θεότητος αὐτοῦ χαρακτῆπες εἰς τόν ἐκείνων ἠρέμα διαπλάποιντο νοῦν.*

سبق للقديس أثناسيوس التأكيد على أن الابن هو واحد مع الآب في الجوهر، وبفضله نكون نحن على صورته، إذ يقول: «قيل عن الابن وحده إنه الصورة الحقيقية للآب ومن جوهره، ورغم أننا قد خلقنا حسب الصورة ودعينا صورة الله ومجده فذلك ليس من ذواتنا، بل بسبب صورة الله ومجده الحقيقي الساكن فينا، الذي هو **كلمته**، والذي صار جسداً لأجلنا فيما بعد، لكي ننال نحن نعمة هذه الدعوة» ويستمر قائلاً: «وحيث إن فكر الأريوسيين هذا يظهر غير لائق وغير معقول، لذلك فمن الضروري أن يرجع هذا التماثل وهذه الوحدة بين الآب والابن إلى جوهر الابن نفسه، لأنه إن لم يكن سبب التماثل هو وحده الجوهر، فلن يظهر أن الابن يملك شيئاً أكثر من المخلوقات». ضد الأريوسيين ٣: فقرة ١٠، ١١.

بأن يجلسا مع الحمار، فهذا يعلن أن مسيرة الشعبين إلى الله حسب الناموس ستمتد حتى السنة الثالثة، أي الزمن الأخير، وهذا يشير إلى الزمن الذي فيه وُلِد المسيح لأجلنا. لأن الوقت له ثلاثة قياسات هي الماضي والحاضر والمستقبل. وهكذا كأنه في الوقت الثالث، أي الزمان الأخير. والكتاب المقدس يقول إن المسيح جاء في الزمن الأخير[٢٠٨].

ورغم إن الشعب الإسرائيلي اتبع الله بواسطة الناموس حتى الزمن الذي أتى فيه مخلصنا، إلّا أنه لم يُرِد أن يقبل المسيح بالإيمان في مسيرته نحو الموت لأجل الجميع، أو بالحري، فإن هذا الشعب تعوّق عن اتباع المسيح بسبب خطاياه الكثيرة. فهذا الشعب كان مصاباً بالبلادة وعدم الإحساس الذي يرمز إليه الحمار الذي ظل مع الغلامين. فالحمار يرمز لانعدام التبصُّر الذي يلد بلادة إحساس. وكون الأب إبراهيم ارتحل مع ابنه، في حين ظل الغلامان في مكانهما بعدما أخبرهما أنه سوف يعود إليهما ومعه ابنه، إذ قال: «اجْلِسَا أَنْتُمَا هَهُنَا مَعَ الْحِمَارِ وَأَمَّا أَنَا وَالْغُلاَمُ فَنَذْهَبُ إلى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَيْكُمَا» (تك ٢٢: ٥)، فهذا يشير إلى ابتعاد الله المؤقت عن أبناء إسرائيل، ثم رجوعه إليهم عندما يؤمنون

---

[٢٠٨] في موضع آخر يقول القديس كيرلس: "إن الرسول (بولس) يحدّد على ما أعتقد، أن الفترة الوحيدة التي تتناسب مع الوساطة هي الأزمنة الأخيرة، والتي فيها حسب كلام الرسول "الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه آخذًا صورة عبد". ورغم أنه الإله والرب فلكي يُرجعنا بواسطة ذاته لله الآب ولكي يصالح الكلّ حسب المكتوب "عاملاً الصلح بدم صليبه سواء كان ما على الأرض أم ما في السموات" لكي يصنع ذلك كله، توسط كإنسان. ولهذا يقول بولس "نطلب عن المسيح تصالحوا مع الله وذلك بالاتحاد بشخص المسيح. ولأن طبيعة الإنسان لا تحتمل أن تستوعب مجد الله في حالته الأولى قبل التَجسُّد، فقد لَبِسَ الابن الوحيد لأجلنا ولأجل منفعتنا جسدنا ـــ وتشبَّه بنا". حوار حول الثالوث، مرجع سابق، ج١، ط٢، مارس ٢٠٠٨، ص٤٤.

بالمسيح في آخر الأزمنة. لأنه بعدما يؤمن جمهور الأمم[209] بالمسيح عندئذٍ سوف يخلُّص بقية إسرائيل (انظر رو ١١: ٢٦)[210]. أمَا وأن إبراهيم الطوباوي لم يقل للغلامين بوضوح أنه ذاهب ليقدم ابنه ذبيحةً، فهذا يشير إلى أن الشعوب اليهودية يصعُب عليها تصديق سر المسيح، وهذه الحقيقة أظهرها المسيح بكل وضوح حين كان يتحدث مع اليهود بأمثال، أمَّا التلاميذ فقال لهم: «لأَنَّهُ قَدْ

[209] يشرح القديس كيرلس ـــ في موضع آخرـــ خلاص الأمم، إذ يقول: ''وأولئك الذين أعتمت قلوبهم منذ القديم بظلمة إبليس، قد أنار لهم بإشراقه كشمس للبر، وجعلهم أبناء لا لليل والظلمة فيما بعد، بل أبناء للنور والنهار كقول بولس الرسول (١ تس ٥:٥). وأولئك الذين كانوا عمياناً ''لأن المُضِل أعمى قلوبهم'' قد استعادوا بصرهم وعرفوا الحق، وكما يقول أشعياء ''صارت ظلمتهم نوراً'' (أش ٤٢: ١٦)، أي صار الجُهال حكماء، وأولئك الذين كانوا في الخطية عرفوا مسالك البر، والآب أيضاً يقول للابن في موضع ما ''أجعلك عهداً للشعب، لتفتح عيون العمي، لتُخرج من الحبس المأسورين، من بيت السجن الجالسين في الظلمة'' (أش ٤٢: ٦، ٧)، لأن الابن الوحيد جاء إلى هذا العالم وأعطى عهداً جديداً لشعبه، الإسرائيليين، الذين منهم وُلد حسب الجسد، وهو العهد الذي أُعلن عنه سابقاً جدّاً بصوت الأنبياء. ولكن النور الإلهي السماوي أضاء أيضاً على الأمم، وذهب وبشَّر الأرواح في الجحيم، وأظهر نفسه لأولئك الذين كان مغلقاً عليهم في بيت السجن، وفك قيود الجميع وحررهم''. تفسير لوقا، مرجع سابق، ص ٨٤.

[210] يؤكد القديس يوحنا ذهبي الفم أثناء تفسير رسالة رومية في العظة الثامنة عشر (رو ١١: ١ ـــ ٦)، ويستكملها بالعظة التاسعة عشر (رو ١١: ٧ ـــ ٣٤) على أن الله لم يرفض شعبه، ويستشهد بموقف إيليا النبي وما حدث آنذاك، إذ أبقى الله لنفسه في ذلك العصر سبعة آلاف نفس لم تحنِ لبعل. لكنه يؤكد على أن الخلاص يتحقق بنعمة الله فقط، وليس بالناموس، لأن التمسك بأحكام ووصايا الناموس سيؤدي إلى حرمان المتمسكين به من نعمة الله. لذلك وحتى لا يبدو أن هذا كلامًا غريبًا، قال إن هناك سبعة آلاف قد خلصوا بالنعمة إذ يقول ''فكذلك في الزمان الحاضر أيضًا قد خلصت بقية بالنعمة'' (رو ١١: ٥) بل قال أيضًا ''أبقيت لنفسي''. لكنه يؤكد أيضًا على أن النعمة تخلص فقط الذين يقبلونها، وليس الذين يتحولون عنها ويقاومونها''. شرح رسالة رومية، ص ٤٢٥ـــ٤٦٠.

أُعْطِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا أَسْرَارَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَأَمَّا لأُولَئِكَ فَلَمْ يُعْطَ» (مت١٣:١١).

وكما أن الفتى الصغير اسحق حمل الحطب الذي أُعطيَ له من أبيه، وذهب به إلى مكان تقديم الذبيحة، هكذا حمل المسيح الصليب على كتفه وتألم خارج المحلة، وكانت هذه هي إرادة الله الآب، وليست إرادة بشرية. وهذا ما قاله المسيح نفسه لبيلاطس البنطي: «لَمْ يَكُنْ لَكَ عَلَيَّ سُلْطَانٌ الْبَتَّةَ لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ فَوْقُ» (يو ١٩: ١١). أي أن اسحق عندما حمل الحطب، كان يشير إلى آلام المسيح وموته، أمَّا تقديم الكبش المُعطى من الله ذبيحةً على المذبح، فهذا يشير إلى حقيقة أن المسيح أصعد جسده ذبيحةً ذكيةً إلى الآب، ذلك الجسد الذي قيل عنه إنه أخذه من الله الآب بحسب ما ورد في المزمور: «ذبيحة وقرباناً لم ترد ولكن هيأت لي جسداً. بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسرّ. ثم قُلتَ ها أنذا أجيءُ في درج (رأس) الكتاب مكتوبٌ عني لأفعل مشيئتك يا الله» (عب ١٠: ٥ — ٧، مز ٤٠: ٧). ولكنه هو نفسه الكلمة الذي وُلِد من جوهر الله الآب وتجسد من العذراء وسُمِرَ على الصليب، إلّا أنه إله غير متألم وغير مائت[211] ἀπαθὴς καὶ ἀθάνατος، وهو مُنزّهٌ عن أيِّ ألمٍ وأيِّ موتٍ.

---

[211] يشدد القديس كيرلس على أن الابن بكونه إلهاً، هو الحياة من حياة الله الآب، وبالتالي هو غير المائت، إذ يقول: ''وإذاً ماذا نقول؟ ''ربٌّ واحدٌ بالحق، وإيمانٌ واحدٌ، ومعمودية واحدة'' (أف ٤:٥). لأنه ابنٌ وربٌّ واحد، وليس أن الكلمة اتخذ إنساناً بحسب الاتصال وأعلن انه شريك لكراماته الخاصة، ونقل إليه البنوة والربوبية، كما يقول ويكتب بعض الذين يهذون. ولكن هو الكلمة الذي من الله، النور الذي من النور، الذي تأنس وتجسد. ونحن نعتمد في موت ذاك الذي تألم إنسانياً في جسده الخاص، ولكنه ظل غير متألم إلهياً وحيًّا على الدوام، لأنه هو الحياة من حياة الله الآب. لذلك، هُزِمَ الذي تجاسر أن يهاجم جسد الحياة، وهكذا أيضاً أُبيد الفساد الذي فينا

وهذه الأمور التي قيلت لأجلنا، هي تشير حقاً للمسيح، ويؤكد هذا المكتوب: «في درج (رأس) الكتاب مكتوب». الكتاب طبعاً مُكوّن من خمسة أجزاء، وهو كل كتابات موسى النبي، ودرج أو رأس الكتاب، أي بدايته هو سفر التكوين الذي وردت فيه الأقوال التي تُشير إلى المسيح. وفى الكتب المقدسة كلمة «رأس — ἀρχὴ» تعني «بداية»، وسوف تعلم هذا جيداً عندما تدرك ما قاله بولس الرسول: «إن رأس كل رجل هو المسيح. وأما رأس المرأة فهو الرجل، ورأس المسيح هو الله» (١ كو ١١:٣، أف٥:٢٣). أي بداية الرجل هو المسيح لأن المسيح خلقه من العدم[٢١٢]. أيضاً بداية المرأة هو الرجل بحسب المكتوب: «فقال آدم هذه الآن عظمٌ من عظامي ولحمٌ من لحمي. هذه تدعى امرأة لأنها من أمرئٍ أُخذت» (تك٢:٢٣). ورأس المسيح هو الله نفسه؛ لأن الابن أتى منه بحسب الطبيعة κατά φύσιν وهو أزلي[٢١٣] مع الآب الذي وَلَده.

حسنٌ جداً أن ينكشف لنا سر المسيح من خلال هذه الأمور التي يخبرنا بها الكتاب. ويستحق إبراهيم الطوباوي منا إعجاباً عظيماً، ومدائح فخمة ليكون

وضعف سلطان الموت نفسه، ولذلك يقول المسيح: "الحق الحق أقول لكم، إن لم تأكلوا جسد ابـــن الإنســـان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم". رسائل القديس كيرلس، الجزء الرابع، رسالة ٥٥ فقرة ٣٨ ص٤٠.

212 Ἀρχὴ μὲν γὰρ τοῦ ἀνδρὸς ὁ Χριστός, ὡς ἐκ τοῦ μὴ ὄντος εἰς τὸ εἶναι παρενεγκών.

يؤكد القديس يوحنا ذهبي الفم على أن الله خلقنا من العدم، إذ يقول: «لقد جاء بنا من العدم إلى الوجود» شرح الرسالة إلى أفسس، ص ٨١.

٢١٣ يؤكد القديس أثناسيوس على الولادة الأزلية للابن، إذ يقول: "إن الابن لم يصر من العدم، ولا يحسب في عداد المخلوقات إطلاقا، بل هو صورة الآب وهو **الكلمة**، ولم يكن قط غير موجود، بل هو موجود على الدوام، وهو الشعاع الأزلي لنور هو أزلي. لماذا إذن تتخيلون أن هناك أزمنة سابقة على الابن؟ أو لماذا تجدّفون على الكلمة بأنه لاحق وتالي للدهور وهو الذي به قد صارت الدهور؟". ضد الأريوسيين، المقالة الأولى، فقرة ١٣ ص ٢٧.

مُمجداً ومكشوفاً للجميع في كل مكان، وكذلك علينا أن نفحص فكر الله فحصاً عميقاً. إذ أن الله امتحن إبراهيم الطوباوي، وهو يعلم تماماً ما سوف يحدث. فكل شيء معروف ومكشوف أمام ذاك الذي يعرف الكل، كما هو مكتوب: «مَنْ هو الذي يخفي فكره عني ويحفظ في قلبه أقوالاً ظاناً أنه يخفيها عني؟» (أي ٣٣:٢س)، ويقول في أشعياء: «أَنَا الرَّبُّ وليس آخر لن أَتَكَلّم بالخفاء في مكان من الأرضِ مظلم ... أنا الرب متكلم بالصِّدْقِ مُخْبِرٌ بِالإسْتِقَامَةِ» (أش ٤٥: ١٩ ــ ٢٢). لذلك فإن الذين يقولون إن إله الجميع كان يجهل الأمور التي سوف تحدث من امتحان إبراهيم، وأنه لذلك أدخله الامتحان، مثل هذا القول هو هذيان ولا يليق أن يُقال عن الله. فقد كان ضرورياً أن يُمجِّد الله إبراهيم رأس البر، ليس في الخفاء، بل أن يتمجد من الجميع عندما يعرفون هذا الامتحان الذي هو من نصيب كل الصالحين. فكان ينبغي أن يُكرز به من خلال الكتب المقدسة لطاعته واحترامه الشديد لأوامر الله. وأستطيع أن أقول إنه لم يكن عنده شيء أعظم من هذه الأوامر الإلهية. وقد وصل إلى مثل هذا المستوى من الإيمان حتى أنه تجاهل محبته الطبيعية لابنه ولم يخف أن يُتهم بأنه قتل ابنه. والغريب جداً أنه كان ينتظر وعد الله بأن يصير أباً لكثير من الأمم. هكذا قدَّم ابنه ليكون ذبيحةً بدون أن يفقد رجاءه في إتمام الوعد الذي وعده به الله بقسم. ولقد كان هذا الامتحان مفيداً له، بالرغم من أنه كان قد اجتاز فترةً مؤلمةً. إذ قد استشف من هذا الأمر ما سيحدث في المستقبل، أقصد الحدث الذي لا يُنطق به، أي معجزة القيامة العجيبة من الأموات، وأيضاً سر التقوى العظيم، سر تأنس الابن الوحيد. وهذا ما يقوله بولس الرسول: «بِالإِيمَانِ قَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَقَ وَهُوَ مُجَرَّبٌ قَدَّمَ الَّذِي قَبِلَ

الْمَوَاعِيدَ، وَحِيدَهُ. الَّذِي قِيلَ لَهُ: «إِنَّهُ بِإِسْحَقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ». إِذْ حَسِبَ أَنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى الإِقَامَةِ مِنَ الأَمْوَاتِ أَيْضاً، الَّذِينَ مِنْهُمْ أَخَذَهُ أَيْضاً فِي مِثَالٍ» (عب١١: ١٧ـــ١٩).

لقد تعلم البار محبة الله، من خلال اجتيازه لهذا الامتحان بطريقة مفيدة لنا، بسبب أن الله الآب كشف له أنه سوف يُظهر عمانوئيل كأصل ρίζαν[٢١٤] وبداءة جديدة لربوات الأمم، وذلك بموته لأجل خلاص العالم. هذه هي المحبة الفائقة للطبيعة التي لا يُعبّر عنها، إذ أنه: «لم يشفق على ابنه» كما قلنا من قبل «بل بذله لأجلنا أجمعين» (رو٨: ٣٢)، نحن الذين نلنا التبرير بالإيمان وصرنا أولاداً لأبي الآباء إبراهيم.

وإن كان ينبغي أن أتحدث عن مأساة بشرية، فسأقول إن الأزمة التي تعرَّض لها إبراهيم كانت قاسية جداً وغير محتَمَلة. فقد أمره الله أن يقدم ابنه إسحق ذبيحة. وأتساءل يا ترى، ما الذي كان يفكر فيه إبراهيم وهو يتمم هذا الأمر؟ لقد كان رجلاً في سن الشيخوخة وله ولدٌ وحيد ولد وهو في هذا السن المتقدم، ولم تكن لديه فرصة أن ينجب أولاداً آخرين، وزوجته كانت متقدمة في السن (لأن سارة كانت في سن الشيخوخة). وأُمِر أمراً حاسماً، أن يقدم ابنه الوحيد الذي كان يتشوق لاستمرار وجوده معه، والذى تمنى كثيراً بأن يكون له مثل هذا الابن.

---

[٢١٤] يؤكد القديس كيرلس في موضع آخر على هذه الحقيقة قائلاً: ''نحن ازدهرنا بموت المسيح وصرنا موجودين ومحفوظين آخذين المسيح الحياة والجذر الثاني للجنس البشرى'' السجود والعبادة بالروح والحق، ص ٤٧٣.

بأي يدٍ أغمد الشيخ السكين في ابنه الصغير وتجرّأ على ذبح ابنه؟ أليس أمراً طبيعياً أن يفكر أفكاراً مؤلمة وغير محتملة، بل وكانت هذه الأفكار تعذب نفس هذا البار؟

وأيضاً كانت تضغط عليه طبيعته كأب مذكّرةً إياه أن يُظهِر مشاعر محبته وحنانه تجاه ابنه، لكنه امتثل للأمر الإلهي ضد طبيعته بالرغم من كل هذا.

إن البار يستحق إعجاباً عظيماً، وتقديراً كبيراً لمحبته لله التي يستحق عليها كل ثناء. لأنه قدم ذبيحة العبادة العقلية[٢١٥] ناسياً نواميس الطبيعة ومتخلياً عن الحنان الأبوي. و لم يشأ أن يستبدل محبته لله بأي شيء من الأشياء الأرضية. لذلك مُمجِّدَ ودُعيَ خليل الله φίλος ἐκλήθη θεοῦ والأمر الذي كان ينتظره قد تحقق، والأمر الذي ترجاه قد صار فعلاً. لأنه صار أباً لأمم كثيرة ولا تُحصى، وذلك

---

[٢١٥] يستخدم القديس كيرلس التعبير الذي استخدمه الرسول بولس: ''عبادتكم العقلية'' رو ١:١٢ ويشرح القديس يوحنا ذهبي الفم الاختلاف بين العبادة الجسدية والعبادة العقلية، متسائلاً: ''أخبرني يا بولس ماذا تطلب؟ يطلب ''أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتكم العقلية'' ولأنه تكلّم عن ''ذبيحة''، ولكي لا يعتقد أحد أنه يأمر أن يقدموا أجسادهم ذبائح، أضاف كلمة ''حية''. بعد ذلك يُميز هذه الذبيحة عن الذبيحة اليهودية، بقوله: ''مقدسة مرضية عند الله عبادتكم العقلية''. خاصةً وأن الذبيحة اليهودية جسدية وليست مرضية تمامًا. لأن النبي يقول: ''مَنْ طلب هذا من أيديكم'' أش ١: ١٢. وفي مواضع أخرى كثيرة جدًا يتضح أن الله كان يرفض هذه الذبائح، لكنه لم يرفض هذه الذبيحة العقلية، وحتى إن كانت الذبيحة اليهودية ما زالت تُقدم، فإنه طلب هذه الذبيحة العقلية. ولهذا قال: ''ذابح الحمد يُمجدني'' مز ٥: ٢٣. وأيضًا ''أسبح اسم الله بتسبيح وأعظمه بحمد. فيستطاب عند الرب أكثر من ثور بقر ذي قرون وأظلاف'' مز ٦٩: ٣١ ــ ٣٢. وفي موضع آخر من الكتاب نراه يرفض هذه الذبيحة الحيوانية، قائلاً: ''هل آكل لحم الثيران وأشرب دم التيوس. اذبح لله حمدًا وأوف العلى نذورك'' مز ٥٠: ١٣ ــ ١٤. هكذا فإن الرسول بولس هنا يأمر أن يقدموا أجسادهم ذبيحة حية''. شرح الرسالة إلى رومية، ص٤٨٥.

في اسم المسيح الذي يحق له وبه ومعه الله الآب المجد مع الروح القدس إلى أبد الآبدين، آمين.

إسحق ورفقة:

كتب بولس الحكيم لأولئك الذين تبرروا بالإيمان واتحدوا معه وصاروا بتحنن ومسرة الآب ἐν εὐδοκίᾳ πατρὸς شركاء الروح القدس μεταλαχεῖν ἁγίου πνεύματος، قائلاً: «خطبتكم لرجل واحد لأقدم عذراء عفيفة للمسيح» (٢ كو ١١: ٢). إن التلاميذ الطوباويين صاروا كارزين وحملوا على عاتقهم رسالة اجتذاب البشر ليكونوا عروساً للمسيح. هكذا أتوا بأولئك الذين كانوا بعيدين ليصيروا قريبين من المسيح وملتصقين به وموجودين فيه بفضل نعمة الروح القدس. وسوف تظل الكنيسة (العروس)[٢١٦] بجوار المسيح عريسها، إذ أن الله الآب قد أقامها وقادها وصارت موضع ثقته في الابن، ولا ينبغي أن يشك أحدٌ في أن هذا الأمر قد تحقق في المؤمنين المقدسين. وقد سبق وأعلن لنا داود

---

[٢١٦] يشرح القديس كيرلس كيف أن الكنيسة التي اتحد بها المسيح هي العروس أثناء الحديث عن المنارة الموجودة في خيمة الاجتماع، قائلاً: "الفن المرسوم على المنارة والذي به فرعا الزيتون يميناً ويساراً، هو مثالٌ للمسيح. وإنه بوضعهما الدائري هذا ينسكب الزيت فيهما، وهذا الزيت يشير إلى الروح القدس، وهو الذي يروي عقول المؤمنين وفق المكتوب "مسحت بالدهن رأسي" (مز ٢٣: ٥). لقد تذكّر هذه الفروع ـــ مرةً ـــ المُرنم الطوباوي تجاه مخلص الجميع المسيح، قائلاً عن العروس التي أتحد بها، أي الكنيسة وأبنائها اللذين هم ثمار الإيمان "امرأتك مثل كرمة مثمرة في جوانب بيتك. بنوك مثل غروس الزيتون حول مائدتك" (مز١٢٨: ٣). ونحن نحيا مشتركين في الروح، آخذين الحياة من مائدة المسيح المقدسة، معلنين إيماننا بالمسيح". السجود والعبادة بالروح والحق، المقالة التاسعة ص ٣٦٠.

النبي هذا الأمر مخاطباً الكنيسة قائلاً: « اسمعي يا بنت وانظري وأميلي أذنك وانسي شعبك وبيت أبيك. فيشتهي الملك حُسنك لأنه هو سيدك فاسجدي له» (مز ٤٥: ١٠ ــ ١١). وقد أكد بولس الرسول ــ كما قلت سابقاً ــ عن هؤلاء الذين آمنوا أهم سيقفون بجوار المسيح كعروس. ويستطيع المرء أن يرى سر التقوى بوضوح فيما كُتِب: «وَشَاخَ إِبْرَاهِيمُ وَتَقَدَّمَ فِي الأَيَّامِ. وَبَارَكَ الرَّبُّ إِبْرَاهِيمَ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِعَبْدِهِ كَبِيرِ بَيْتِهِ الْمُسْتَوْلِي عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ: «ضَعْ يَدَكَ تَحْتَ فَخْذِي. فَأَسْتَحْلِفَكَ بِالرَّبِّ إِلَهِ السَّمَاءِ وَإِلَهِ الأَرْضِ أَنْ لاَ تَأْخُذَ زَوْجَةً لاِبْنِي مِنْ بَنَاتِ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ أَنَا سَاكِنٌ بَيْنَهُمْ. بَلْ إِلَى أَرْضِي وَإِلَى عَشِيرَتِي تَذْهَبُ وَتَأْخُذُ زَوْجَةً لاِبْنِي إِسْحَقَ» (تك ٢٤: ١ ــ ٤). فعندما أمر إبراهيم العبد بكل هذا، أقسم العبد حالاً واضعاً يده تحت فخذ سيده، وهذا يجعلنا نفكر أن هذا القسم يخص كل الأبناء الذين سوف يأتون من صُلبه. هكذا انطلق العبد مُحمَّلاً بخيرات سيده موزِّعاً إياها على عشرة جِمال، ووصل بسرعة إلى آرام النهرين، إلى مدينة ناحور. وقد ترك الجِمال تستريح خارج المدينة بالقرب من بئرٍ تأتي إليه النساء في المساء ليأخذن ماءً. وتضرَّع العبد إلى الله لكي يرشده ويريه عذراء حسنة ومحبة للغرباء، وتتحلى بمثل هذه الصفات الحسنة بحيث لا يتردد في أن يختارها لابن سيده. لذا قال العبد: «فَلْيَكُنْ أَنَّ الْفَتَاةَ الَّتِي أَقُولُ لَهَا: أَمِيلِي جَرَّتَكِ لأَشْرَبَ فَتَقُولَ: اشْرَبْ وَأَنَا أَسْقِي جِمَالَكَ أَيْضاً هِيَ الَّتِي عَيَّنْتَهَا لِعَبْدِكَ إِسْحَاقَ. وَبِهَا أَعْلَمُ أَنَّكَ صَنَعْتَ لُطْفاً إلى سَيِّدِي» (تك ٢٤:١٤). وبعد قليل أتت العذراء المحتشمة وذات الوجه الجميل التي هي رفقة. وعندما طلب منها أن يشرب، رحَّبَت به وقدمت له الماء وأبدت استعدادها أن تسقي جِماله أيضاً. فاستنتج العبد أن هذه هي التي يريدها الله لابن سيده،

وليست أية فتاة أخرى. وفي الحال أخذ خُزامة ذهب وسوارين وقدمهم للفتاة، وهي بدورها طلبت منه أن يأتي إلى مترلها. وهكذا نزل العبد ضيفاً في مترلها، وبدأ يتحدث مع أهل البيت، ويقول لهم بالتفصيل عن ثروة سيده، وأن له ابناً وحيداً محبوباً اسمه إسحق، وقد أعطاه أبوه كل شيء. وأبدى العبد رغبته في العودة بسرعة وطلب أن يأخذ الفتاة معه، فسألوا رفقة هل هي مستعدة للذهاب معه. فقبلت رفقة بفرح وذهبت معه. وعندما وصلت استقبلها إسحق وتعزى كثيراً بوجودها معه بعد موت أمه.

طبعاً القصة طويلة، لكننا سردناها[٢١٧] بإيجاز على قدر المُستطاع، ولكن دون إخلال بما حدث. ليتنا نفكر في هذه القصة برؤية ثاقبة لنستكشف السر المستتر وراء الظلال الغامضة، ونرى الحق المُعطَى لنا.

لم يقبل إبراهيم أن يزوج إسحق ابنه بامرأة من بنات كنعان، بل أمر عبده بأن يُسرِع إلى أرضٍ وثنية، لكي يبحث عن فتاةٍ مناسبة ليزوجها لابنه. وهذا يشير إلى أن الله الآب لم يَرد أن تكون هناك علاقة بين مجمع اليهود والمسيح، إذ أن إسحق يرمز إلى المسيح. وقد وُلِد إسحق بعد انتظار طويل وكان محبوباً من أبيه. وهكذا أتى المسيح في الأيام الأخيرة وبعد انتظار طويل وهو المحبوب، بل ومشتهى كل الأمم[٢١٨]. وأيضاً فإن اسم إسحق معناه «البهجة والانشراح

---

٢١٧ المقصود هنا هو السرد التاريخي، ومن ثم يجيء بعد ذلك تفسير النص روحياً مثلما كان يفعل آباء مدرسة الإسكندرية.

٢١٨ مسكونية تعليم المسيح تتأسس على العناصر الآتية:

أ- مسكونية رسالته: ""كان هو النور الذي ينير كل إنسان آتيًا إلى العالم" (يو ١: ٩). "وهذه هي الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة " (يو٣: ١٩). " ما

«τέρψις» τε καὶ «ἀγαλλίαμα. وكون أن الكنعانيين يشيرون إلى الإسرائيليين، فهذا يتضح لنا من ترجمة كلمة «كنعانيين» التي تعني «الميالون للوضاعة ἕτοιμοι πρός ταπείνωσιν»، وفى الحقيقة قد صاروا أكثر وضاعةً من اليهود، وهم ملعونون في كل شيء. حسناً، إن عروس إسحق لم تأتِ من كنعان، بل من آرام ما بين النهرين. لأن الكنيسة المتحدة روحياً بالمسيح المخلّص -كما قلت- لم تأتِ من اليهود، بل من الأمم. وهذا صار بمسرة الله وبواسطة الخدام الذين هم مؤمنون وعبيد أمناء، وهؤلاء الخدام هم التلاميذ الذين صاروا وكلاء مدبرين لأسرار المسيح والله الآب (١ كو ٤: ١)، وأُعطيَ لهم كل ما لسيدهم. هؤلاء بمجرد أن تركوا اليهودية مثل عبد إبراهيم حين ترك كنعان، بشَّروا في البلاد التي كانت فيها عبادة الأوثان، مقدمين كنوز الله الآب وغنى الحكمة السماوية والمواهب الروحية التي فاضت على الجميع. لاحِظ أيضاً أن

دمت في العالم فأنا نور العالم " (يو٩:٥). " أنا قد جئت نورًا إلى العالم حتى كل مَن يؤمن بي لا يمكث في الظلمة " (يو١٢:٤٦).

ب – شمولية الهدف من تعليمه: "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَن يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية" (يو٣:١٦). "إن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح بالإنجيل" (أف ٣:٦).

جـ ـ المسيح مخلّص العالم: "ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلّص العالم" (يو٤:٤٢). " لأننا لهذا نتعب ونعير لأننا قد ألقينا رجاءنا على الله الحى الذي هو مخلص جميع الناس ولا سيما المؤمنين" (١تي٤:١٠). " وهو كفارة لخطايانا. ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضًا" (١يو٢:٢).

د ـ – اتحاد الكل: "ولي خراف أُخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتى بتلك أيضًا فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراعٍ واحد" (يو١٠:١٦). "وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما أننا نحن واحد" (يو١٧:١٢). "وصنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض" (أع١٧:٢٦).

هذا العبد كان غير معروفٍ، وهذا يشير إلى أن كل تلميذ مؤمن ومختبر لغنى الله يصلح أن يكون خادماً (لمقاصد الله).

لقد كان العبد عند بئر الماء وقت المساء، وتضرَّع في صلاته إلى الله لكي يساعده في اختيار فتاة لابن سيده، واختبر العبد الفتاة العذراء بواسطة طلب الماء. كذلك أيضاً فإن التلاميذ المُلهمين بالروح اختبروا وقت المساء ــ أي في آخر الأيام ــ العذراء العقلية بجوار الماء، أي كنيسة الأمم[٢١٩] التي كانت ودودة ونشيطة، حتى أنها شربت الكلمة الحية بغزارة من بئر المخلّص. وكانت تتمتع بحكمة عقلية لتعطى أي أمور أخرى يحتاجها المرء لتساعده في حياته.

حسناً، فقد سقت رفقة العبد وأيضاً جِماله. والعبد هنا يشير إلى بنى إسرائيل. أي إلى أُناس عندهم الناموس والظلال وعندهم سر المسيح مخفياً، لكنهم لا يفهمونه تماماً (انظر غلا ٣:٢١). والجِمال تشير إلى الأمم الذين كانوا لا يختلفون عن الحيوانات. لأن الحيوان بحسب الناموس دنس، وهم مثل الحيوانات الدنسة التي لم تعرف الله الحقيقي. إذن، فالكنيسة ــ التي تشير إليها رفقة ــ هي قادرة على أن تروي بينابيعها المقدسة الإلهية أولئك الذين أتوا من اليهود وفضّلوا محبة المسيح، وكذلك المدعوين من الأمم الذين أُشير إليهم بالجِمال.

وإذ رأى التلاميذ أن العذراء (الكنيسة) جميلة، فإنهم قدَّموا لها إسورة لليد وحلقاً للأذن. أي جعلوها لامعة وظاهرة للجميع بأمجادها التي يُسمع عنها

---

[٢١٩] كنيسة الأمم هي العذراء العقلية التي تتكون مِنَ الخراف العقلية حيث تشرب من الكلمة الحية من بئر المخلص والقديس اكليمندس السكندري يصلى للمسيح في النشيد الذى يختم به كتاب "المربى":

"كن أنت المرشد والراعي للخراف الناطقة".

"الخراف الناطقة، الخراف العاقلة، خراف اللوغوس) **الكلمة**."

بفرحٍ، وهذا ما يشير إليه حلق الأذن. وهكذا أيضاً جعلوها ظاهرة للجميع بأعمال يديها أي بأعمالها العظيمة، وهذا ما تشير إليه الأساور.

وأخبر العبد سُكان حاران عن غنى سيدة وعن وريثه الوحيد المحبوب إسحق. وهكذا أيضاً فإن التلاميذ علّموا الأمم وبشّروهم بغنى الله الآب، وبالرجاء وبالحياة وبالقداسة، وأيضاً عن ابنه الوحيد الذي هو منه بالطبيعة، الابن الحقيقي الذي هو المسيح، وكرزوا بكل وضوح أن الابن قد صار وارثاً لكل شيء.

وسُئلت الفتاة إن كانت تريد أن تذهب مع العبد، وقد وافقت بدون تردد، ونفس الأمر أيضاً حدث مع كنيسة الأمم التي كانت مُهيأة جداً للانضمام للمسيح من فرط محبتها له. ويشهد داود العظيم متنبأً عن الأمم: «أذنك (يا رب) استمعت إلى استعداد قلوبهم» (مز٩:١٧س).

وعندما تزوج إسحق برفقة، قال الكتاب إنه: «تعزَّى بعد موت أمه». هكذا فإن العريس[٢٢٠] الحقيقي (المسيح) قد حزن لموت شعب اليهود بسبب عدم إيمانهم، ذلك الشعب الذي وُلِد منه حسب الجسد، ولكنه تعزَّى إذ صار عريساً

---

[٢٢٠] يصور القديس مقاريوس علاقة النفس بالمسيح كعلاقة النفس بعريسها، إذ يقول: "إن النفس التي تحب الله والمسيح بالحق ولو عملت ربوات من أعمال البر، تحسب نفسها كأنها لم تعمل شيئًا بسبب اشتياقها للرب بدون شبع. حتى وإن أرهقت جسدها في الأصوام والأسهار، تعتبر ذاتها كأنها لم تبدأ بعد الجهاد من أجل الفضيلة. لكنها طول النهار تجوع وتعطش بالإيمان والمحبة في الصلاة المتواترة للحصول على أسرار النعمة وعلى كل فضيلة بلا شبع، وتكون مجروحة بمحبة الروح السماوي، وتضرم باستمرار داخلها الاشتياق المشتعل بالنعمة نحو العريس السماوي، وتشتهي أن تؤهَّل بالكمال للدخول معه في شركة سريَّة لا يُنطق بها، في تقديس الروح، وأن ينكشف الغطاء عن وجه نفسها، فتنظر إلى العريس السماوي وجهًا لوجهٍ في نوره الروحاني غير المنطوق به. وتمتزج به بكل يقين، متشبهةً بموته باشتياق كثير، ومنتظرة كل حين أن تموت من أجل المسيح " عظة *4:10 BEP 41, pp. 198.-197*

لكنيسة الأمم. لأن الأنبياء بالروح قالوا موجهين الحديث للكنيسة: «وكفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك» (إش ٦٢:٥)، الذي به وله المجد مع الله الآب والروح القدس إلى أبد الآبدين آمين.

عيسو ويعقوب مثالٌ لشعبين:

الشعب اليهودي والشعب المسيحي

مواليد إسحق ابن إبراهيم هي الآتي: « وَلَدَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَقَ. وَكَانَ إِسْحَقُ ابْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمَّا اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ زَوْجَةً رِفْقَةَ بِنْتَ بَتُوئِيلَ الأَرَامِيِّ أُخْتَ لاَبَانَ الأَرَامِيِّ مِنْ فَدَّانَ أَرَامَ. وَصَلَّى إِسْحَقُ إِلَى الرَّبِّ لأَجْلِ امْرَأَتِهِ لأَنَّهَا كَانَتْ عَاقِراً فَاسْتَجَابَ لَهُ الرَّبُّ فَحَبِلَتْ رِفْقَةُ امْرَأَتُهُ. وَتَزَاحَمَ الْوَلَدَانِ فِي بَطْنِهَا فَقَالَتْ: «إِنْ كَانَ هَكَذَا فَلِمَاذَا أَنَا؟» فَمَضَتْ لِتَسْأَلَ الرَّبَّ. فَقَالَ لَهَا الرَّبُّ: «فِي بَطْنِكِ أُمَّتَانِ وَمِنْ أَحْشَائِكِ يَفْتَرِقُ شَعْبَانِ: شَعْبٌ يَقْوَى عَلَى شَعْبٍ وَكَبِيرٌ يُسْتَعْبَدُ لِصَغِيرٍ». فَلَمَّا كَمُلَتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ إِذَا فِي بَطْنِهَا تَوْأَمَانِ. فَخَرَجَ الأَوَّلُ أَحْمَرَ كُلُّهُ كَفَرْوَةِ شَعْرٍ فَدَعُوا اسْمَهُ عِيسُوَ. وَبَعْدَ ذَلِكَ خَرَجَ أَخُوهُ وَيَدُهُ قَابِضَةٌ بِعَقِبِ عِيسُو فَدُعِيَ اسْمُهُ يَعْقُوبَ. وَكَانَ إِسْحَاقُ ابْنَ سِتِّينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْهُمَا. فَكَبِرَ الْغُلاَمَانِ. وَكَانَ عِيسُو إِنْسَاناً يَعْرِفُ الصَّيْدَ إِنْسَانَ الْبَرِّيَّةِ. وَيَعْقُوبُ إِنْسَاناً كَامِلاً يَسْكُنُ الْخِيَامَ. فَأَحَبَّ إِسْحَقُ عِيسُوَ لأَنَّ فِي فَمِهِ صَيْداً وَأَمَّا رِفْقَةُ فَكَانَتْ تُحِبُّ يَعْقُوبَ. وَطَبَخَ يَعْقُوبُ طَبِيخاً فَأَتَى عِيسُو مِنَ الْحَقْلِ وَهُوَ قَدْ أَعْيَا. فَقَالَ عِيسُو لِيَعْقُوبَ: «أَطْعِمْنِي مِنْ هَذَا الأَحْمَرِ لأَنِّي قَدْ أَعْيَيْتُ. لِذَلِكَ دُعِيَ اسْمُهُ أَدُومَ. فَقَالَ يَعْقُوبُ: «بِعْنِي الْيَوْمَ بَكُورِيَّتَكَ». فَقَالَ عِيسُو: «هَا أَنَا مَاضٍ إِلَى الْمَوْتِ فَلِمَاذَا لِي بَكُورِيَّةٌ؟». فَقَالَ يَعْقُوبُ: «احْلِفْ لِيَ الْيَوْمَ». فَحَلَفَ لَهُ. فَبَاعَ بَكُورِيَّتَهُ لِيَعْقُوبَ. فَأَعْطَى يَعْقُوبُ عِيسُوَ خُبْزاً وَطَبِيخَ عَدَسٍ فَأَكَلَ وَشَرِبَ وَقَامَ وَمَضَى. فَاحْتَقَرَ عِيسُو الْبَكُورِيَّةَ» (تك ٢٥: ١٩ ــ ٣٤).

وعد الله ـــ المُنزّه عن الكذب (انظر تي ١:٢) ـــ إبراهيم، أنه سيصير أباً لأمم كثيرة، ويؤكد له دائماً أن الحشد الذي سوف يأتي من صُلبه ἐξ αὐτοῦ سيكون كثيراً وعدده لا يُحصى. إذ يقول: «أُبَارِكُكَ مُبَارَكَةً وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ تَكْثِيراً كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ» (تك ٢٢:١٧). وقد امتد الوعد ليس فقط إلى الشعب اليهودي، بل إلى جموع الأمم[٢٢١] الذين شاهدوا مجد الله المُنير جداً. إذ دُعُوا أيضاً بالإيمان، وهؤلاء هم بالحرى أبناء إسحق، أي أبناء الموعد. ويؤكد بولس الحكيم هذا الأمر قائلاً: «وَالْكِتَابُ إِذْ سَبَقَ فَرَأَى أَنَّ اللهَ بِالإِيمَانِ يُبَرِّرُ الأُمَمَ، سَبَقَ فَبَشَّرَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ «فِيكَ تَتَبَارَكُ جَمِيعُ الأُمَمِ». إِذاً الَّذِينَ هُمْ مِنَ الإِيمَانِ يَتَبَارَكُونَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ الْمُؤْمِنِ. لأَنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَعْمَالِ النَّامُوسِ هُمْ تَحْتَ لَعْنَةٍ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ «مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ لاَ يَثْبُتُ فِي جَمِيعِ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابِ النَّامُوسِ لِيَعْمَلَ بِهِ». وَلَكِنْ أَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَتَبَرَّرُ بِالنَّامُوسِ عِنْدَ اللهِ فَظَاهِرٌ، لأَنَّ «الْبَارَّ بِالإِيمَانِ يَحْيَا». وَلَكِنَّ النَّامُوسَ لَيْسَ

---

[٢٢١] يقول أيضاً القديس كيرلس في رسالته الفصحية الخامسة: "حيث أن الوعد الذي أعطاه الله بخصوص إسحق (أن تتبارك فيه جميع الأمم)، ما كان سيتحقق سوى بصليب المسيح الذي به وصلت البركة إلى جميع الأمم" *PG 77, 489 -492.* أيضاً يدعو القديس كيرلس الأمم للفرح بخلاص الرب وهو يشرح نص لقاء المرأة الخاطئة بالمسيح الوارد في لو ٧: ٣٦ ـــ ٥٠ موضحاً الفرق بين بر الناموس والبر بالمسيح، إذ يقول: «يا جميع الأمم صفقوا بأيديكم، اهتفوا لله بصوت الابتهاج والشكر» (مز ٤٧: ١س). وما هو سبب هذا الابتهاج؟ إنه بسبب أن المخلص هنا أنشأ لنا طريقاً للخلاص لم يَسِر فيه الذين في القديم. لأن الناموس الذي وضعه موسى الحكيم كان لتوبيخ الخطية لإدانة التعديات، ولكنه لم يبرر مطلقاً أي أحد. لأن بولس الحكيم يكتب ويقول « مَن خالف ناموس موسى فعلى فم شاهدين أو ثلاث شهود يموت بدون رأفة» (عب ١٠: ٢٨). أما ربنا يسوع المسيح فإذ قد أبطل لعنة الناموس وجعل الوصية التي تدين بلا قوة وغير فعّالة، «صار رئيس كهنتنا الرحيم» بحسب كلمات بولس المبارك (عب ٢: ١٧)، لأنه يبرِّر الخطاة بالإيمان، ويطلق المأسورين بالخطية أحراراً». تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق، عظة ٤٠، ص ١٨١.

مِنَ الإِيمَانِ، بَلِ «الإِنْسَانُ الَّذِي يَفْعَلُهَا سَيَحْيَا بِهَا»» (غلا ٣: ٨ ــ ١٢، انظر حب ٢: ٤، لا ١٨: ٥).

إذن، الوعود التي أُعطيت قد تحققت ليس فقط عن طريق أولئك الذين تربَّوا بالناموس، بل أيضاً أولئك الذين تبرروا بإيمانهم بالمسيح[٢٢٢]. لكن بحسب التدبير، توارى ناموس موسى بدون أن يحدث إهمالٌ للوعد، لكي يتحول الناموس ويُنقل رويداً رويداً إلى الدعوة بالإيمان بالمسيح، ويظهر ضعف أولئك الذين شُرِع لهم، وكذلك لكي يبرهن للجميع أنه من الآن فصاعداً سيكون التبرير بالضرورة بواسطة النعمة والإيمان بالمسيح. وقال بولس الرسول أيضاً ما يلي: «أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِحَسَبِ الإِنْسَانِ أَقُولُ «لَيْسَ أَحَدٌ يُبْطِلُ عَهْداً قَدْ تَمَكَّنَ وَلَوْ مِنْ إِنْسَانٍ، أَوْ يَزِيدُ عَلَيْهِ». وَأَمَّا الْمَوَاعِيدُ فَقِيلَتْ فِي «إِبْرَاهِيمَ وَفِي نَسْلِهِ». لاَ يَقُولُ «وَفِي الأَنْسَالِ» كَأَنَّهُ عَنْ كَثِيرِينَ، بَلْ كَأَنَّهُ عَنْ وَاحِدٍ. وَ«فِي نَسْلِكَ» الَّذِي هُوَ الْمَسِيحُ. وَإِنَّمَا أَقُولُ هَذَا: إِنَّ النَّامُوسَ الَّذِي صَارَ بَعْدَ أَرْبَعِمِائَةٍ وَثَلاَثِينَ

[٢٢٢] يبرز القديس كيرلس التبرير بالمسيح مقارنةً بالناموس في شرحه لما جاء في يو ١:١٧ قائلاً: "كل مَنْ يريد أن يتعلّم أن يدرس النعمة الإنجيليّة التي وُهِبَتْ لنا بواسطة المخلّص ويقارنها بنعمة الناموس التي أعطيت بواسطة موسى، فسوف يرى أن الابن أسمى بكثير، لأنه هو واضع الناموس الذي يهب خيرات أفضل من الناموس الموسوي. ولذلك يقول الإنجيلي "النَّامُوسَ بِمُوسَى أُعْطِيَ أَمَّا النِّعْمَةُ وَالْحَقُّ فَبِيَسُوعَ الْمَسِيحِ صَارَا". وما هو الفرق بين الناموس والنعمة التي صارت بواسطة المخلّص؟ لقد أدان الناموس الخليقة، لأنه بالناموس أغلق الله على الكلّ تحت الخطية (غلا ٣:٢٢) وأظهر أننا تحت العقاب، أما المخلّص فقد أعطى الحرِّية للإنسان "لأنه لَمْ آتِ لأَدِينَ الْعَالَمَ بَلْ لأُخَلِّصَ الْعَالَمَ" (انظر يو ١٢:٤٧). ومع أن الناموس أعطي نعمة معرفة الله للإنسان وجذبه من عبادة الأصنام التي أضلّت الإنسان، وبالإضافة إلى ذلك أشار إلى الشرِّ وعلّم الخير، وإن كان بطريقة غير كاملة، لكنه كان كمعلّم نافع، أما النعمة والحق اللذان بالابن الوحيد، الذي لم يقدّم لنا الخيرات في رموز، ولا رسم الأمور النافعة في ظلال، بل بوصايا مجيدة ونقيّة، يقودنا بيده، لكي ننال معرفة كاملة للإيمان" شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ١١٨.

سَنَةً، لاَ يَنْسَخُ عَهْداً قَدْ سَبَقَ فَتَمَكَّنَ مِنَ اللهِ نَحْوَ الْمَسِيحِ حَتَّى يُبَطِّلَ الْمَوْعِدَ. لأَنَّهُ إِنْ كَانَتِ الْوِرَاثَةُ مِنَ النَّامُوسِ فَلَمْ تَكُنْ أَيْضاً مِنْ مَوْعِدٍ. وَلَكِنَّ اللهَ وَهَبَهَا لإِبْرَاهِيمَ بِمَوْعِدٍ» (غلا٣:١٥ــ١٨). ويضيف بولس الرسول على هذه الأقوال سبب إضافة الناموس قائلاً الآتي: «فَلِمَاذَا النَّامُوسُ؟ قَدْ زِيدَ بِسَبَبِ التَّعَدِّيَاتِ، إِلَى أَنْ يَأْتِيَ النَّسْلُ الَّذِي قَدْ وُعِدَ لَهُ، مُرَتَّباً بِمَلاَئِكَةٍ فِي يَدِ وَسِيطٍ. وَأَمَّا الْوَسِيطُ فَلاَ يَكُونُ لِوَاحِدٍ. وَلَكِنَّ اللهَ وَاحِدٌ. فَهَلِ النَّامُوسُ ضِدَّ مَوَاعِيدِ اللهِ؟ حَاشَا! لأَنَّهُ لَوْ أُعْطِيَ نَامُوسٌ قَادِرٌ أَنْ يُحْيِيَ، لَكَانَ بِالْحَقِيقَةِ الْبِرُّ بِالنَّامُوسِ. لَكِنَّ الْكِتَابَ أَغْلَقَ عَلَى الْكُلِّ تَحْتَ الْخَطِيَّةِ، لِيُعْطَى الْمَوْعِدُ مِنْ إِيمَانِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ. وَلَكِنْ قَبْلَمَا جَاءَ الإِيمَانُ كُنَّا مَحْرُوسِينَ تَحْتَ النَّامُوسِ، مُغْلَقاً عَلَيْنَا إِلَى الإِيمَانِ الْعَتِيدِ أَنْ يُعْلَنَ. إِذاً قَدْ كَانَ النَّامُوسُ مُؤَدِّبَنَا إِلَى الْمَسِيحِ، لِكَيْ نَتَبَرَّرَ بِالإِيمَانِ. وَلَكِنْ بَعْدَ مَا جَاءَ الإِيمَانُ لَسْنَا بَعْدُ تَحْتَ مُؤَدِّبٍ. لأَنَّكُمْ جَمِيعاً أَبْنَاءُ اللهِ بِالإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ» (غلا٣:١٩ــ٢٦).

إذن، لا يستطيع أحد أن يتشكك في أن الناموس أظهر مدى ضعف الخاضعين له وكشف تعدياتهم وخطاياهم. لأنه يقول: «لأَنَّ النَّامُوسَ يُنْشِئُ غَضَباً إِذْ حَيْثُ لَيْسَ نَامُوسٌ لَيْسَ أَيْضاً تَعَدٍّ» (رو ٤:١٥). وأيضاً: «أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ بِدُونِ النَّامُوسِ عَائِشاً قَبْلاً. وَلَكِنْ لَمَّا جَاءَتِ الْوَصِيَّةُ عَاشَتِ الْخَطِيَّةُ فَمُتُّ أَنَا» (رو ٧:٩). وأيضاً: «فَإِنَّهُ حَتَّى النَّامُوسِ كَانَتِ الْخَطِيَّةُ فِي الْعَالَمِ. عَلَى أَنَّ الْخَطِيَّةَ لاَ تُحْسَبُ إِنْ لَمْ يَكُنْ نَامُوسٌ. لأَنَّ النَّامُوسَ يُنْشِئُ غَضَباً إِذْ حَيْثُ لَيْسَ نَامُوسٌ لَيْسَ أَيْضاً تَعَدٌّ» (رو ٥:١٣و ٤:١٥).

إذن، الناموس يقود تربوياً إلى المسيح[٢٢٣] πεπαιδαγώγηκε τοίνυν ό νόμος επί Χριστόν كاشفاً ضعف أولئك الذين يخالفونه، ومعلّماً الناس أنه من السهل أن يقع الإنسان المريض في الخطية ويستحيل أن يتجنب الإنسان عقاب الناموس. وهكذا فإنه يكون في أشد الاحتياج للخلاص بواسطة المسيح الذي يبرر بالإيمان بمقتضى رحمته (انظر تى٣:٥).

فمن الواضح ـــ بحسب التدبير ـــ أن الوصية التي أُعطيت من الله بواسطة موسى كانت ضرورية (في حينها)، إذ كانت إشارة مسبقة للنعمة التي تحققت فعلاً بالمسيح[٢٢٤] الذي هو أساس النسل الذي أشار إليه وعد الله لإبراهيم، أي هؤلاء الذين آمنوا بالمسيح.

---

[٢٢٣] دور الناموس كان مثل دور المربى، وهذا ما أكده القديس كيرلس، في موضع آخر، حين قال: "يتميز الكتاب المقدس بالدقة، ولا يوجد فيه شيءٌ بلا فائدة. بل لعلك تلاحظ كيف أنّ الرمزَ يُظهر لنا أنّ الناموسَ إنما يعمل كمربي يقودنا إلى المسيح. ويتضح لنا هذا من أنّ مذبحَ العبادة الناموسية قد وُضع بالقرب من المداخل التي تؤدي إلى قدس الأقداس. أي أنّ الناموس يقودنا إلى بداية أسرار المسيح، وإلى مبادئ الدخول لمعرفته الدقيقة. لكن لا يقودنا أبداً إلى قدس الأقداس، أي إلى الخيمة الداخلية حيث يوجد المسيحُ الفائق الجمال، كلمة الله، والنور، والخبز الحي، والرائحة الذكية لله الآب". السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السادس، المقالة العاشرة ص ٢٥ ـــ ٢٦.

[٢٢٤] لقد أبطل المسيح العبادة الناموسية، ويؤكد هذا الأمر القديس كيرلس أثناء حديثة عن عرض شقق المسكن للخيمة، قائلاً: "عرض الشُقة الواحدة هو أربعة أذرع، بينما طولها ثمان وعشرون ذراعاً. الرمزُ دقيقٌ وعجيب، لكني أعتقد أنه يُظهر أن العيش بالناموس بالنسبة للكنيسة، صعبٌ جداً لأن الحرفَ مظلمٌ. إذ أن تربية الناموس ـــ بمرور الزمن ـــ وصلت إلى نهايتها في سر المسيح، أي في اليوم الثامن الذي حدثت فيه قيامة المسيح. لأن غاية الناموس والأنبياء هو المسيح الذي إليه صرخ داود العظيم " أمّا وصيتك فواسعة جداً" (مز ١١٩: ٩٦). وبولس العظيم يكتب لأولئك الذين فضّلوا العبادة الناموسية عن الإيمان بالمسيح قائلاً: "فمنا مفتوح إليكم أيها الكورنثيون قلبنا متسع. لستم متضيقين فينا بل متضيقين في أحشائكم. فجزاء لذلك أقول كما لأولادي كونوا أنتم أيضا متسعين. لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين لأنه أية خلطة للبر والإثم وأية شركة للنور مع الظلمة" (٢ كو ٦:

وهكذا صار إبراهيم الطوباوي أباً لعددٍ لا يُحصى. وإذا نظرنا لمثال التوأم الذي أتى من إسحق، أقصد عيسو ويعقوب، سنتحقق أن خطة التدبير رُسمت بطريقة عجيبة. فقد قيل لإبراهيم الطوباوي: «بإسحق يُدعى لك نسل»[٢٢٥]، وبولس الذي كان تلميذاً للناموس يفسر هذه النبوة قائلاً: «وأمَّا الْمَوَاعِيدُ فَقِيلَتْ فِي «إِبْرَاهِيمَ وَفِي نَسْلِهِ». لاَ يَقُولُ «وَفِي الأَنْسَالِ» كَأَنَّهُ عَنْ كَثِيرِينَ، بَلْ كَأَنَّهُ عَنْ وَاحِدٍ. و«فِي نَسْلِكَ» الَّذِي هُوَ الْمَسِيحُ» (غلا ٣:١٦). وهكذا، فإن الوعود قد تحققت في المسيح، وكان إسحق مثالاً له. واسم إسحق ـــ كما قلنا ـــ يعني البهجة والانشراح، وداود الطوباوي يشير إلى يسوع على أنه البهجة قائلاً بالنيابة عن أولئك الذين عطشوا للخلاص: «أبتهج وأفرح برحمتك لأنك نظرت إلى مذلتي وعرفت في الشدائد نفسي» (مز ٣١:٧).

المسيح سر النُّصرة والبهجة

لقد انتصرنا بنعمة المسيح على تمرد القتلة، ودُسنا بأقدامنا ـــ بفضل قوة ذاك (المسيح) ـــ على الحيات والعقارب، ولدينا ثقة وإيمان، ونحن ندوس على

---

١١ ـــ ١٤). هل أدركت أن المرء الذي يريد أن يرتبط باليهود الذين أظهروا عدم إيمان، ومازالوا يتحدثون عن ضرورة التزام حرف الناموس بعد الإيمان بالمسيح يجعل القلوب تتنافر؟". السجود والعبادة بالروح والحق، المقالة التاسعة ص ٣٧٦.

٢٢٥ يعلّق القديس أغسطينوس على وعد الله لإبراهيم المُؤكد بقسم "ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض، من أجل أنك سمعت لقولي" قائلاً: "وهكذا صار الوعد الخاص بدعوة الأمم في نسل إبراهيم، مُؤكدًا بقَسمٍ من الله بعد هذه المحرقة (الكبش الذى قُدِّم عوضًا عن إسحق) التي ترمز للمسيح. لأنه كثيرًا ما وعد ولكنه لم يُقسِم قط. وماذا يكون قَسم الله الصادق والأمين إلّا تأكيدًا للوعد وتوبيخًا مضاعفًا لغير المؤمن؟" انظر: مدينة الله. فصل ٣٢.

الزواحف المسامة كأننا مثل المتسلح بالتُرس والمجن (انظر مز١٣:٩١). أمّا وإن المسيح، في الكتب المقدسة يُدعى «البهجة»، فهذا ما تخبرنا به الكلمة النبوية كما هو مكتوب: «هكذا السيد الرب ينبت بِراً وبهجة (تسبيحاً) أمام كل الأمم» (أش١١:٦١). وحقاً صار عمانوئيل ــ ليس فقط لبنى إسرائيل، لكن للأمم وشعوب كل المسكونة ــ بِراً وبهجة(٢٢٦). لأننا بالمسيح(٢٢٧) قد تبررنا، وأُزيلت من فوقنا اللعنة القديمة وسمعتها السيئة. لأننا ونحن متحررون من الموت والخطية، نشعر كأننا لابسون البهجة والفرح. وأتساءل حقاً: ما هي الخيرات التي لم نكتسبها من الله؟! لقد تعلّمنا أن نمجّده قائلين: «تبتهج نفسى بإلهى لأنه قد ألبسني ثياب الخلاص. كساني رداء البر» (أش١٠:٦١). وما هو الرداء؟ هذا ما يوضّحه لنا بولس الرسول حين يقول: «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غل ٣: ٢٧)، «البسوا الرب يسوع المسيح ولا تصنعوا تدبيراً

---

226 *Γέγονε γὰρ ὁ Ἐμμανουὴλ οὐχὶ μόνοις τοῖς ἐξ Ισραὴλ ἀλλὰ καὶ τοῖς ἀνὰ πᾶσαν τὴν οἰκουμένην ἔθνεσί τε καὶ λαοῖς "δικαιοσύνη καὶ ἀγαλλίαμα".*

يعلّق ق. كيرلس في موضع آخر على الآية «ففرح التلاميذ إذ رأوا الرب» (يو٢٠:٢٠) بقوله: «لم يستطع شيء أن يمنع نفوسهم (أي نفوس التلاميذ) عن الفرح والبهجة. والمسيح إذ مات مرّة من أجل الجميع لكي يبطل الخطيّة لا يموت مرّة أخرى إذ هو حي إلى الأبد. وهو بكل تأكيد سيحفظ أولئك الذين وضعوا رجاءهم فيه وسوف يحفظهم في فرح لا ينقطع»، انظر: قيامة المسيح للقديس كيرلس عمود الدين. ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية ٢٠٠٩، ص٢١ــ٢٢.

٢٢٧ **الكلمة** تجسد وصار خادماً للأقداس الحقيقية لكي يقدسنا ويبررنا، وهذا ما أكد علية القديس كيرلس في موضع آخر، قائلاً: "لقد عُيِّن عمانوئيل حقاً كمشرِّعٍ، ورئيسَ كهنةٍ لأجلنا بواسطة الله الآب مقدِّماً ذاته ذبيحةً لأجلنا (انظر عب ٩: ١٤)؛ لأنّ الناموس، كما يقول بولس الطوباوي: "يُقِيمُ أُنَاساً بِهِمْ ضَعْفٌ رُؤَسَاءَ كَهَنَةٍ. وَأَمَّا كَلِمَةُ الْقَسَمِ الَّتِي بَعْدَ النَّامُوسِ فَتُقِيمُ ابْناً مُكَمَّلاً إِلَى الأَبَدِ" (عب ٧: ٢٨). إذن، فقد نزل الكلمةُ من السماء وصار مشابهاً لنا، خادماً للأقداس والخيمة الحقيقية التي أقامها الرب، وليس أيُّ إنسان". السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، الجزء السادس، المقالة العاشرة ص ٣٤.

للجسد لأجل الشهوات» (رو ١٣: ١٤). هكذا البهجة هي إسحق الذي كان مثالاً للمسيح، وأكثر الشخصيات ملائمةً وموافقةً لرؤيتنا التفسيرية. كانت امرأته «رفقة» التي يُترجم اسمها «الصبر الكبير غير المحدود»، وشخصيتها هذه يمكن أن نأخذها على أنها مثال للكنيسة التي يتحقق شوقها وانتظارها بالصبر[٢٢٨]، إذ تصبر على أولادها لينالوا الخلاص بالإيمان ونعمة الروح القدس. لأن لهؤلاء قيلت هذه الأقوال المقدسة: «بصبركم اقتنوا أنفسكم» (لو ٢١:١٩)، وأيضاً: «تحتاجون إلى الصبر حتى إذا صنعتم مشيئة الله تنالون الموعد» (عب ١٠:٣٦).

إذن، لاحظ الآتي: قد تأخرت رفقة كثيراً عن الحمل (لأنها كانت عاقراً) لكن بسبب كرم الله ومحبة إسحق قد ولدت عيسو البكر، ثم ولدت بعده يعقوب، الاثنان يرمزان إلى الشعبين: الإسرائيلي والأممي. البكر بالتأكيد هو إسرائيل (لأنه دُعيَ أولاً بواسطة الناموس)، بينما الثاني: الشعب الذي دُعيَ بالإيمان بالمسيح.

---

[٢٢٨] حين يشرح القديس يوحنا ذهبي الفم نص (رو ٨:٢٥): ''ولكن إن كنا نرجو ما لسنا ننظره فإننا نتوقعه بالصبر''، يقول متسائلاً: ''لو أنك ستحصل على كل شيء هنا، فما هو الاحتياج للرجاء؟ إذًا ما هو معنى الرجاء؟ أن يكون لديك ثقة في أمور الدهر الآتي. وما هو الشيء الفائق الذي يطلبه الله منك، وهو الذي أعطى من تلقاء نفسه كل هذه الخيرات؟ إن كان يطلب منك فقط أن تتمسك بالرجاء، فلكي يكون لك أنت أيضًا شيئًا تقدمه، لأجل خلاصك، ولكي يوضح ما يقصده أضاف: ''إن كنا نرجو ما لسنا ننظره فإننا نتوقعه بالصبر''. لأنه كما أن الله يُتوج ذاك الذي يجاهد ويتعب ويعاني آلام كثيرة، هكذا أيضًا فإنه يتوج من يترجى. لأن كلمة الصبر هي كلمة لها دلالة التعب والعرق والجهد والتحمل. وهكذا الصبر قد منحه لمَن يترجى، لكي يُعزي النفس التي تعبت كثيرًا '' شرح رسالة رومية، مرجع سابق، ص ٣٦٢.

مقارنة بين شعبين

ويستطيع المرء أن يرى بسهولة الاختلاف بين الشعبين من جهة الاستعداد الداخلي (أي القصد والنية)، وكذلك من جهة التصرفات الأخلاقية وأيضاً من أسميهما[٢٢٩] ومظهرهما. لأن اسم عيسو يعنى « شجرة البلوط» أي «القاسي والصلب». لقد قال الله لإسرائيل: «إنك قاسى وعضل من حديد عنقك وجبهتك من نحاس» (أش ٤:٤٨). بينما اسم يعقوب يعنى «الإزميل ــ قاطع الأحجار» أو «الفنان الحاذق» وبكلامٍ آخر: الذي يعرف أن ينتصر. لأنه يضرب بإزميله على الحجر فينتصر عليه. والذى ينتصر ــ على أية حال ــ ليس الشعب الذي يتبع الناموس لكن الذي يتبع المسيح بالإيمان. وطالما أن هذا الشعب قد انقطع عن فعل جرائم الخطية، فإنه يغلب قوة الموت وينتصر عليه.

أيضاً كان عيسو «أحمراً»؛ لأنه مكتوب: «كله كفروة شعر» (تك ٢٥:٢٥)، بينما يعقوب كان رجلاً أجرداً. الاحمرار يشير إلى صفة الغضب والحمق، إذ حقاً الذي يستولى عليه الغضب يكون لونه أحمراً. وكونه مُشعر فهذا يتمشى مع الوحوش، هل يستطيع احد أن يشكك في هذا؟! أقول: يمكن لأي أحد أن يرى إسرائيل يتصرف بنفس الطريقة، إذ كان الغضب مسيطراً عليه دائماً، وكان لديه ميل للتصرف بوقاحة وتوحش تجاه عمانوئيل نفسه، مع أن صفة الليونة والمرونة هما بمثابة نموذج واضح وظاهر يتوافق مع الإنسان. وحقاً، فإن شعب الإيمان الجديد هو شعب وديع ويميل إلى الهدوء والسكينة. إذ أن رقة

---

[٢٢٩] هنا يبدو أن القديس كيرلس يستخدم معنى الأسماء ــ وكثيراً ما يفعل هذا الأمر ــ لكي يفسر النص طالما أن هذا يخدم التعليم اللاهوتي ولا يخرج عن السياق.

الكلام الذي يخرج من الفم تكون بمثابة برهان واضح للجمال الذهني والداخلي، مثلما الشعر الكثيف واللون الأحمر لعيسو يجعلانه مثال للتوحش.

كانت رفقة أُمًّا للاثنين. وربنا يسوع المسيح جعل الكنيسة ــ العذراء النقية ــ تخدم الشعبين اللذين صارا بالولادة الروحية. وهدف مجيئه هو أن يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً، كما هو مكتوب: «به لنا كلينا قدوماً في روح واحد» (أف ٢:١٧). لكن إسرائيل كان فاسقاً وغير متفق مع الشعب الجديد، لأنه كان البكر زمنياً. واعتقد أن شِجار الطفلين وهما في البطن، يعلن هذه العداوة التي كانت بينهما فيما بعد. أما كون أن الصغير سوف يصير أعظماً ويتفوق في المجد على البكر إسرائيل، فهذا ما يؤكده الذي يعرف كل الأمور قائلاً: «ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعب. وكبير يُستعبد لصغير» (تك ٢٥:٢٣). إن سر الشعبين قد أُعلن بفم القديسين، وإن إسرائيل سوف يكون خلف الأمم، وقد قيل لنا هذا الأمر بطرقٍ كثيرةٍ، فقد كان هذا الأمر من عند الله، وقد أظهره بوضوح أثناء ولادهما، إذ أن عيسو خرج أولاً من بطن أمه، ثم بعد ذلك يعقوب ماسكاً كعب أخيه مُظهراً بذلك أنه سوف يتجاوزه وينتصر عليه.

ولقد تحدثت عن هذه الأمور مدفوعاً من طريقة ولادة الاثنين ومن أوصاف جسمهما، لكن ليتنا نتحدث بقدر المُستطاع عن الأمور التي تخص الاثنين متقدمين في حديثنا بسرعة لننتقل إلى أفكارٍ أخرى. إذ أن طريقة حياتهما سوف تعلن لنا قصد ونية كل واحد على حدة. لأن الشابين كانا في عمرٍ واحد، لكن لم يكن لهما نفس الآراء ونفس القرارات. فعيسو فضّل أن يقضي وقته في الحقول وفى الصيد، بينما يعقوب كان من أهل المدينة، أي كان اجتماعياً ورجلاً طيباً لا

يعرف المكر ويفضّل العيش في المترل. وكان عيسو مستبيحاً من جهة الشهوات الجسدية، إذ ترك ما يخصه من امتياز حسن، وأخذ يلهث وراء الرخيص، واشترى ما هو زهيد ورخيص مضحياً بالأشياء الضرورية والتي كان في أمس الحاجة إليها. على العكس، كان يعقوب يهوى الأمور الحسنة ولا يعرف الاكتفاء منها، إذ طلب هذه الأمور بكافة الطرق، تلك الأمور التي ستمجده فيما بعد. هكذا اشترى البكورية التي احتقرها عيسو الذي فضّل أن يُشبع بطنه غير مبالٍ تماماً بامتيازاته، لذلك دُعيَ «أدوم» أي «الأرضي». لأنه حقاً كان مثالاً صارخاً للتصرف الوضيع باحتقاره المجد الذي كان له مفضلاً بالأحرى اللذة الوقتية والسعادة العابرة متخذاً قراراً خطيراً (أي بيع البكورية)، بالرغم من أنه أصابه ضرر كبير من جراء هذا القرار. لذلك كان بولس على صواب عندما اعتبر الزاني الدنس الذي اختار حياة الفحشاء مثالاً لأولئك الذين انزلقوا وانحدروا إلى مثل هذا الفجور الذي كان يحياه عيسو من جهة الشهوات الجسدية والأرضية، قائلاً: «لئلا يكون أحد زانياً أو مستبيحاً كعيسو الذي لأجل أكلة واحدة باع بكوريته»[٢٣٠] (عب ١٢:١٦، تك ٢٥:٣٣).

[٢٣٠] يشرح القديس يوحنا ذهبي الفم شراهة عيسو حين كان يفسر نص (عب١٢:١٦): "لئلا يكون أحد زانيًا أو مستبيحًا كعيسو الذي لأجل أكلة واحدة باع بكوريته"، إذ تساءل قائلاً: "ومتى كان عيسو زانيًا؟ إنه هنا لا يقصد هذا، أن عيسو كان زانيًا، بل اتجه في مسار ضد تميّزه، "اتبعوا القداسة"، بينما الاستباحة قيلت عن عيسو. إذًا ينبغي ألا يكون أحد مستبيحًا كعيسو، أي نَهِم أو شره، مندفع، دنيوي، يبيع الروحيات. هذا "لأجل أكلة واحدة باع بكوريته"، أي الكرامة التي خصه بها الله، سلمها وباعها بسبب خموله، وبسبب متعة صغيرة خسر هذه الكرامة الكبيرة والمجد العظيم. هذا لائق بِمَنْ هم علي شاكلة عيسو، هذه هي سمة الإنسان المقزز، سمة الإنسان النجس. إذًا ليس الزاني وحده هو النجس، بل والشَره أيضًا، الذي هو عبد لبطنه. لأن هذا أيضًا هو عبد للذة أخري، ويضطر أن يكون شرها أو نهما، وأن يسلب، وكثيرًا ما يُخجِل نفسه، لأنه عبد لشهوة الطعام هذه، وكثيرًا ما جدّف عيسو واحتقر بكوريته، ولأنه فكّر في الراحة المؤقتة، فقد وصل إلي حد أنه باع البكورية. حتى

شعبٌ فظٌّ ميالٌ بعقله للأرضيات

حسناً، فلننحِ جانباً الفحص التفصيلي للتصرف السلوكي للشابين، وظلمة اليهود ووداعة وحرية جموع الأمم، ولنتحدث أيضاً في أمور حسنة ومفيدة. كان إسرائيل فظّاً ميالاً بعقله إلى الأرضيات، وكان مندفعاً ومتهوراً ومحباً للحرب ومرعباً جداً في عمليات القتل مثل عيسو الفظ وقاتل الوحوش. وكان قول الأنبياء يدينهم: «لأنه وُجد في شعبي أشرار يرصدون كمنحن من القانصين ينصبون أشراكاً يُمسكون الناس» (إر ٥: ٢٦)، وأيضاً المسيح نفسه أدانهم (بروح النبوة) قائلاً: «لأنهم بلا سبب أخفوا لي هوة شبكتهم. بلا سبب حفروا لنفسي. لتأتِه التهلكة وهو لا يعلم ولتنشب به الشبكة التي أخفاها وفى التهلكة نفسها ليقع» (مز ٣٥: ٧ ــ ٨). وحقاً قد أرسلوا بعض الفريسيين مع البعض المدعوين هيرودسيين الذين كانوا مُحصِّلي ضرائب، ليضايقوه ويقولون له: «أيجوز أن تُعطى الجزية لقيصر أم لا» (مت ٢٢:١٧). كان إسرائيل صياداً، بينما الشعب الجديد والمؤمن مثل يعقوب، البار، كان رقيقاً يحب بيته وديعاً متعقلاً بسيطاً بدون شر «يسكن الخيام»، كما هو مكتوب (انظر تك ٢٥:٢٧).

أن البكورية أصبحت لنا بالأكثر وليست لليهود. وفي نفس الوقت فإن الرسول بولس يقارن بين شهوة الأخوين، أي أنه يقصد بهذا، أن الأول قد صار، في الترتيب والمكانة، ثانيًا، والثاني صار أولاً، وأن بسبب صبره صار أولاً، وعيسو بسبب خموله صار ثانيًا " شرح رسالة العبرانيين، الإصحاح الثاني عشر، مرجع سابق، ص ٤٠٠.

جموع الأمم كنيسة ممجدة

وحقاً هذه هي الحقيقة، أن جموع الأمم ـــ الذين تبرروا بالإيمان ـــ جعلوا الكنيسة مثل مدينة مُمجَّدةٍ ومقبولة[٢٣١]، وحياتهم وتصرفاتهم بحسب وصايا المسيح مثل مسكنٍ ثابتٍ وغير متزعزع أمام أولئك الذين يريدون محاصرته. وذهنهم أيضاً هو بلا شر ومتحرر من أية شراسة وخبث، وكذلك مقاصدهم وسلوكهم كانت بعيدة جداً عن التكلف والتصنع. وقد قال عنهم داود العظيم: «الله مُسكن المتوحدين في بيت» (مز ٦٨ :٧). لأن الذي يحيا ببساطة في اسم المسيح له طريق واحد ويسكن في بيت واحد. في حين أن أحد الأنبياء قال لليهود: «بطول أسفارك أعييتِ» (أش ٥٧ :١٠). إذن، يبقى المؤمنون بالمسيح ساكنين كما في بيت متمتعين بحياة وسلوك طاهر ومقدس، مفضلين الإيمان كتاج على رؤوسهم، إذ يعتبرونه وسيلتهم للهناء والسعادة، لذلك يقولون: «فرحت بالقائلين لي إلى بيت الرب نذهب» (مز ١٢٢ :١)، وفي موضع آخر: «أن أسكن في بيت الرب كل أيام حياتي لكي أنظر إلى جمال الرب وأتفرس في هيكله» (٢٧ :٤).

---

٢٣١ على الجانب الآخر يرى القديس يوحنا ذهبي الفم أن جمال الكنيسة هو من الرب، إذ يقول: " كل جمال الكنيسة هو من الرب، لقد صارت مجيدة وبلا غضن بسبب محبته لها " شرح الرسالة إلى أفسس، الإصحاح الخامس، ص ٢٨٥ أيضاً القديس كيرلس يعطي لنا مفهوم جمال الكنيسة في موضع آخر، قائلاً: "إن جمال الكنيسة هو بالتأكيد جمال غير عالمي، وهو عقلي وحقيقي لأنه مكتوب: "كل مجد ابنة الملك في خدرها"، كلمة "خدرها" تعني في العبرية "داخلياً"، لأنه لا يمكن أن تدركها العيون، بينما من السهل أن نراها بالعقل النقي" السجود والعبادة، المقالة الثانية، ص ٩٨-٩٩.

أسمعت كيف أنهم يعتبرون السكنى في بيت الله والبقاء في الأماكن المقدسة هي حالة من البهاء والفرح الشديد؟[٢٣٢] طبعاً هذه الإقامة لا تُفهم جسدياً، بل بالحري (روحياً) باستعداد ثابت وحياة فاضلة.

أيضاً: « أحب إسحق عيسو لأن في فمه صيداً» (تك ٢٥:٢٨)، بمعنى أن إسرائيل البكر كان لديه محبة الله في تحقيق طريقة حياة وفق الناموس، وعليه أن يجتهد مقدماً كل أتعابه ــ لتحقيق هذه الحياة ــ كصلاة امام الله. لأن القديسين كانوا من إسرائيل، وهؤلاء أحبوا الله وحفظوا ناموسه.

حالة أورشليم المزرية

بالفعل، وصف النبي أشعياء حالة أورشليم المزرية كأنها زانية، وقال إن برها هبط مع مرور الوقت، أي استراح ومات، إذ أن كثيرين توقفوا عن تتميم طريقة الحياة وفق وصايا الناموس. هكذا نال إسرائيل كبكر كرامة من الله، ولكنه لم يحتفظ حتى النهاية بهذه الكرامة، إذ تخلى عنها لشعبٍ جديد، وصار (إسرائيل) تابعاً خلفه ــ أي خلف المؤمنين الذين هم من الأمم ــ إذ أحب مشيئات الجسد والعالم محبة شديدة. هكذا نقرأ ــ هذا الأمرــ في الأمثلة الإنجيلية: «ملكاً صنع عرساً لابنه» (مت ٢٢:٢). ثم بعد ذلك أتى الذين دُعُوا إلى العشاء معلنين للمدعوين كل ما قاله الله: «هوذا غذائي أعددته. ثيراني ومسمناتي قد ذُبحت وكل شيء مُعد. تعالوا إلى العرس. ولكنهم تهاونوا ومضوا واحد إلى حقله وآخر إلى تجارته» (مت ٢٢:٤ ــ ٥). وعلى العكس،

---

[٢٣٢] السُكنى في بيت الله تجلب الفرح لأن الكنيسة هي بيت الخبز الواهب للحياة، وهذا ما يؤكده القديس كيرلس في موضع آخر، إذ يقول: ''«لنذهب الآن إلى بيت لحم»: حيث أن بيت لحم تُفسَّر أنها «بيت الخبز»، فإلى أين كان الرعاة مزمعين أن ينطلقوا بعد أن سمعوا بشارة السلام، إلّا إلى البيت الروحي الذي للخبز السماوي، أعني الكنيسة التي فيها يقدَّم كل يوم بالسر الخبز النازل من السماء الواهب حياة للعالم؟!'' تفسير لوقا ٢:١٥

استعفى الجميع مبرراً كل واحد منهم موقفه. فقال أحدهم: «إني اشتريت حقلاً وأنا مضطر لأن أخرج وأنظره. أسألك أن تعفيني»، وقال آخر: «إني تزوجت بامرأة فلذلك لا أقدر أن اجيء» (لو ١٤: ١٨ــ٢٠).

الشعب الجديد في الإيمان، يقتنص البركة

هل رأيت إذن، بأية طريقة قلّدوا عيسو مفضّلين التمتع بالخيرات الوقتية والجسدية، على المجد بالقرب من الله، وفضّلوا أن يعطوا البكورية إلى آخرين؟ وحقاً كان أولئك الذين آمنوا من الأمم بديلاً عن الذين دُعُوا مباشرةً، فنال الأمم المجد[٢٣٣] وأيضاً البركة التي أُعطيت لإسرائيل لأنهم كانوا مُطيعين ومهذبين ومستعدين لتتميم الأمور التي يُسرّ بها الله. وداود النبي شاهدٌ على هذا الأمر، إذ قال عن هؤلاء: «تأوه الودعاء قد سمعت يا رب. تثبت قلوبهم. تميل إذنك بحق اليتيم والمنسحق لكي لا يعود أيضاً يرعبهم إنسان من الأرض» (مز ١٠: ١٧و١٨). لأن شعب الإيمان (من الأمم) هم أكثر الشعوب استعداداً للخضوع تحت التأديب، بالرغم من أن شعب إسرائيل كان لديه ــ مبكراً جداً ــ تعليم الناموس، إلّا أن جمع الأمم الذي كان قد حُرم من التعاليم الإلهية، قد قَبل الإيمان بسهولة، وأصغى بأذنيه إلى نواميس المسيح، الأمر الذي تأكد بكلامه هو. لأنه قال الآتي بفم المرنم: «شعبٌ لا أعرفه يتعبد لي من سماع الأذن يسمعون لي» (مز ١٨: ٤٤و٤٥). بينما الشعب الإسرائيلي قد تغرّب بالفعل و لم يحاول أن يقف منتصباً، وكان منحلاً من جهة عقله، مكتوب: «بنو الغرباء يتذللون لي.

---

[٢٣٣] يتفق القديس يوحنا ذهبي الفم على هذه الحقيقة، إذ يقول: "وكثيرًا ما جدّف عيسو واحتقر بكوريته، ولأنه فكّر في الراحة المؤقتة، فقد وصل إلي حد أنه باع البكورية. حتى أن البكورية أصبحت لنا (نحن الأمم) بالأكثر وليست لليهود" شرح الرسالة إلى العبرانيين، الإصحاح الثاني عشر، ص ٤٠٠.

بنو الغرباء يبلون ويزحفون من حصونهم» (مز ١٨: ٤٥ ــ ٤٦). لأن الطرق الصحيحة والثابتة التي تقود إلى المسيح هي تعاليم الناموس وعظات الأنبياء. لكن عندما جاء غاية الناموس والأنبياء، أي المسيح، لم يكن اليهود ثابتين بسبب عدم فهمهم، متصرفين تجاهه مثل السكارى بسبب ذهنهم المريض، وتجرَّأوا على قتل رئيس الحياة[٢٣٤].

إن الشعب الجديد في الإيمان اقتنص البركة التي كانت للشعب الإسرائيلي، وذلك لأنه هيَّأ نفسه بأكثر استعداد ليسمع أوامر الله، وهذا ما نستطيع أن نستنتجه من الآتي، إذ يقول الكتاب: «وحدث لما شاخ اسحق وكلّت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له يا ابني. فقال له هأنذا. فقال إنني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي. فالآن خذ عدتك جُعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لي صيداً. واصنع لي أطعمة كما أُحب وأتني بها لآكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت» (تك ٢٧: ١ــ٤).

هذه الأقوال قالها الأب إلى عيسو ابنه، عندئذٍ خرج عيسو مباشرةً من البيت لكي يكابد أتعاب الصيد، فجهز نفسه لهذا العمل. وما الذي صار بعد ذلك؟

أقنعَتْ رفقة ابنها يعقوب أن يلحق بعيسو ويُسرع لكي يخطف البركة. خاف يعقوب في البداية، ولكن تحت ضغط أمه عليه أحضر من الحقول اثنين من الجِداء

[٢٣٤] يشرح القديس كيرلس في كتابة: حوار حول الثالوث، حقيقة أن الابن هو رئيس الحياة على أساس أن الابن يستمد الحياة من الآب بحسب الطبيعة، بالتالي فإن فعل الإحياء هو للآب وللابن، إذ يقول: "لأن الآب هو الحياة، فقد استمد الابن الحياة منه حسب الطبيعة، مُظهِراً بذلك جوهر الذي وَلَده. ولأنه هو في الآب تماماً، والآب هو ــ بالكمال ــ فيه، لهذا نقول إن الفعل هو فعل الآب والابن، ولهذا أيضاً، فإن الابن وهو يشير إلى أن ما يفعله الآب يفعله هو أيضاً، يوضّح تماماً أن كل أفعاله هي مساوية لأفعال الآب وذلك بسبب أنه هو واحد مع الآب في الجوهر" أنظر حوار حول الثالوث، الجزء الرابع، الحوار الخامس، مايو ٢٠١٠، ص ٤٩.

الحسنة وطبخهما. ثم بعد ذلك لفّ أكتافه والأجزاء العارية من رقبته بفرو غنمٍ لكي يُقلِّد خشونة وشعر عيسو الكثيف ويُضلل أبيه عندما يلمسه بيده. وأخذ طعاماً وذهب لأبيه وقال له: «يا أبي. فقال هأنذا. من أنت يا ابني. فقال يعقوب لأبيه أنا عيسو بكرك. قد فعلت كما كلمتني. قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك. فقال اسحق لابنه ما هذا الذي أسرعت لتجد يا ابني. فقال إن الرب إلهك قد يسَّر لي. فقال اسحق ليعقوب تقدم لأجسك يا ابني. أأنت هو ابني عيسو أم لا؟ فتقدم يعقوب إلى اسحق أبيه. فجسه وقال: الصوت صوت يعقوب، ولكن اليدين يدا عيسو. ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه. فباركه. وقال: هل أنت هو ابني عيسو. فقال: أنا هو. فقال: قدِّم لي لآكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي. فتقدم وقبّله. فشّم رائحة ثيابه وباركه. وقال انظر. رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب. فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض. وكثرة حنطة وخمر. ليُستعبد لك شعوب. وتسجد لك قبائل. كن سيداً لإخوتك. وليسجد لك بنو أمك. ليكن لاعنوك ملعونين. ومباركوك مباركين» (تك ٢٧:١٨ ــ ٢٩).

هكذا حصل يعقوب على البركة من أبيه. ثم بعد ذلك أتى أيضاً عيسو من الحقل ومعه صيده، وقدَّمه لأبيه. وعرف عيسو بما حدث، وسمع من أبيه القول: «جاء أخوك بمكرٍ وأخذ بركتك»، وبينما عيسو يبكي بالدموع قال لأبيه: «ألك بركة واحدة فقط يا أبي». فأجاب اسحق أبيه قائلاً: «هوذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك. وبلا ندى السماء من فوق. وبسيفك تعيش. ولأخيك تُستعبد. ولكن يكون حينما تجمح تكسر نيره عن عنقك» (تك ٢٧:٣٩ ــ ٤٠). إذاً

طالما قد استعرضنا بكلام قليل ما حدث بطريقة مفهومة للقراء، أرى أنه يجب علينا الآن أن نفسر روحياً ما قيل عن هذه الأمور المحسوسة.

التفسير الروحي لكل هذه الأمور

إن الرب وأب الجميع أعلن أنه يجب الاعتناء بأن يسلك الشعب الإسرائيلي ويحيا حياة تسره، وذلك قبل أن يدعو الآخرين بالإيمان بالمسيح. هذه الحياة الفاضلة مستترة في أمثلة الكتاب المقدس، ولكن لم تكن هذه الأمثلة والأقوال مفهومة لأولئك الذين شرعوا في تفسيرها.

لقد اشتهى اسحق أن يقدم له عيسو صيداً، وبالمثل أمر الله الشعب الإسرائيلي أن يفعل وصايا الله، ووعد الشعب الله أن يطبِّقها، فحينما كان الشعب مجتمعاً في حوريب وظهر له الله بشكل نارٍ فوق جبل سيناء، قال الشعب: "كل ما تكلم به الرب نفعل" (خر ١٩:٨). وبالرغم من أن الشعب وعد الرب بالفعل، إلّا أنه أخذ يتراخى ويهمل اهمالاً شديداً في العمل.

يرمز يعقوب في قصتنا إلى الشعب الجديد الذي دخل بالإيمان وهو الذي سبق عيسو، أي الشعب الإسرائيلي. قدَّم الشعب الجديد الإيمان والخضوع، وهو الطعام الذي طلبه الرب الإله، إذ قال المخلّص للرسل القديسين ـــ عن رجوع السامريين ـــ مؤكداً "أنا لي طعام لآكل لستم تعرفونه" (يو ٤:٣٢). وأوضح كلامه قائلاً: "طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله" (يو ٤:٣٤).

لقد سبق أن أعطى الوعد لبني اسرائيل، ولكنه لم يتحقق فيهم، والرب أنصف شعوب الأمم، وحتى الذين كانوا مترددين منهم في أن يؤمنوا بالمسيح الفادي، فإنهم عندما عرفوه كرموه بعد ذلك بكل استعداد وطاعة لكل ما هو صالح،

وهذا ما قد علّمنا به المسيح حين قال المثل: "ماذا تظنون. كان لإنسان ابنان فجاء إلى الأول وقال يا ابني اذهب اليوم اعمل في كرمي. فأجاب وقال ما أريد. ولكنه ندم أخيراً ومضى. وجاء إلى الثاني وقال كذلك فأجاب وقال ها أنا يا سيد. و لم يمض. فأيُّ الاثنين عمل إرادة الآب" (مت ٢١: ٢٨ ــ ٣١).

من الواضح أن الذي ذهب إلى الكرم ــ حتى لو كان قد انتابه بعض الكسل ــ هو الذي نال الموعد. أيضاً لاحظ الاثنين (يعقوب وعيسو)، عيسو ذهب متأهباً إلى الصيد ووعد أبيه أن يفعل ما أمر به، إلّا أن يعقوب وصل قبله ــ بالرغم من أنه في البداية تردد في فعل هذا الأمر ــ وهكذا نال البركة من أبيه. بنفس الطريقة اقتنص الشعب الجديد البركة، مثلما تحايل يعقوب ولبس جلود الخرفان لتكون يديه مشعرتين (مثل عيسو). لكنه سمع مباشرةً صوت أبيه قائلاً: "الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو" (تك ٢٧:٢٢).

إذاً، بأية طريقة نستطيع أن نطبق هذا على الشعوب التي آمنت من جهة أخذهم لشكل التصرف اليهودي ولديهم صوت مختلف عن اليهود؟

أقول إن اليد تشير في الكتب المقدسة إلى الإنجازات والفعل العملي، أما ما يخص هوية الفعل ونوعية الإنجازات، فإن هؤلاء الذين آمنوا بالمسيح يطبقون الناموس روحياً وذهنياً وهم يمارسون الخدمة المقدسة مقدِّمين ذواتهم لله الآب كرائحة ذكية. والمسيح قد سبق ووضع لنا نواميس إنجيلية، إذ قال بوضوح: "لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل" (مت ٥:١٧ ــ ١٨). أدركت إذاً، أن

المسيحيين طبّقوا الناموس قابلين الختان الروحي[٢٣٥] بدلاً من الجسدي، ويذهبون إلى يوم الراحة الحقيقي ويعيِّدون في اسم المسيح. وكون أن يعقوب قد كان لديه يدي عيسو لكن صوته مختلف عنه، فهذا يشير إلى أننا لم نستخدم ثرثرة اليهود وغير معتادين على رفض الرب الذي اشترانا حتى نتفوه عليه بكلام سيئ، بل بالحرى نحن نمجد[٢٣٦] الابن مع الله الآب وندعوه ربنا ومخلّصنا وفادينا.

---

٢٣٥ هذا يشرحه القديس كيرلس في موضع آخر بكل وضوح، إذ يقول: "إن ختان الجسد هو مِثالٌ واضحٌ جداً للختان الذهني والروحي، الذي بمقتضاه ينزع المسيحُ كل دنسٍ من أذهاننا؛ فهذا يتفق مع ما قاله بولس الطوباوي (كو ٢: ١١). أننا طالما خلعنا الإنسان القديم الذي يفسد من شهوات الباطل، واللذات الجسدية، فبسكين الروح وفعله، نُظهِر ذواتنا جديرة بأن ترى الله، ونصير مسكناً مقدساً للثالوث القدوس والمساوي. كما قال المخلص أيضاً: "إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كَلاَمِي وَيُحِبُّهُ أَبِي وَإِلَيْهِ نَأْتِي وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً" (يو ١٤: ٢٣)". السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السابع، المرجع السابق، المقالة الخامسة عشر ص ١٥٥.

٢٣٦ يقول القديس يوحنا ذهبي: "إن أردنا أن نُسبّح، فينبغي ألا نُجدّف، أو نقول كلامًا أهوجًا، أو وقحًا، ولا نتكلم بجسارة، ولا بقنوط، بل لنتكلم في كل شيء بوقار وتقوي. وهو لم يقل هذا الكلام مصادفة، بل لأنه رأي أنهم متضايقين، والنفس عندما تحزن، تفقد الكثير. مرة أخري يقول نفس الشيء، هذا ما أشار إليه من قبل "غير تاركين اجتماعنا" (عب١٣:١٥)" شرح الرسالة إلى العبرانيين، الإصحاح الثالث عشر، ص٤٢٢ـــ٤٢٣.

المفهوم العميق للبركة

أيضاً ونحن نفحص المفهوم العميق للبركة التي نالها الاثنان، نقول كل ما يخطر على عقلنا، وهذا على ما أعتقد أنه ينفع أولئك الذين سوف يقرأون كلامنا. حسناً، قال اسحق الطوباوي ليعقوب: «رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب. فليعطِك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض. وكثرة حنطة وخمر» (تك ٢٧:٢٧ ـــ ٢٨). الحديث عن الاثنين (يعقوب وعيسو) اختلط مع بعضه، ومن الحديث عن كليهما يخرج حقٌ من خلال الحوادث التي صارت معهما. وعلى أية حال، فإن هذه الأمور لم تكتمل في يعقوب، لكن في المسيح، ولهؤلاء الذين نالوا الحق بالإيمان به، الذين قد صاروا أولاد اسحق بحسب الموعد.

هكذا يتناسب مفهوم النبوة مع الشعب الجديد ومع المسيح نفسه الذي هو البداية والأصل، فهو آدم الثاني حقاً وبمثابة جذرٍ ثانٍ للبشرية[٢٣٧] لأن كل ما في المسيح هو خليقة جديدة καινὴ γὰρ κτίσις τὰ ἐν Χριστῷ[٢٣٨]. لقد

---

237 Λε λόγισται δὲ καὶ εἰς δεύτερον Ἀδάμ, καὶ ῥίζα τις ὥσπερ τῆς ἀνθρωπότητος ανέφυ δευτέρα.

يوضح القديس كيرلس في موضع آخر هذه الحقيقة، إذ يقول: « ومَن ساد عليه الموت يزدهر مرةً أخرى وينال الحياة؛ لأنّ جذر الجنس البشرى قد هلك لأنه أتى من أُمٍ مثلما صار في حالة آدم، لكن كل الذين أتوا منها، أي نحن، ازدهرنا بموت المسيح وصرنا موجودين ومحفوظين آخذين المسيح الحياة والجذر الثاني للجنس البشرى « السجود والعبادة بالروح والحق، المقالة العاشرة، ص ٤٧٣.

٢٣٨ يوضح القديس يوحنا ذهبي الفم سمو الخليقة الجديدة على الخليقة الأولى حين شرح آية: " لأَنَّنَا نَحْنُ عَمَلُهُ، مَخْلُوقِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لأَعْمَال صَالِحَةٍ، قَدْ سَبَقَ اللهُ فَأَعَدَّهَا لِكَيْ نَسْلُكَ فِيهَا " (أف٢:١٠) إذ يقول: "فكِّر في ما يقول، إنه يشير هنا إلى الولادة الجديدة، فهي بالحقيقة خليقة جديدة. لقد جاء بنا من العدم إلى الوجود، فقد كُنا أمواتًا، بسبب الوضع الذي كنّا عليه قبلاً، أي وضع الإنسان العتيق، أما ما وصلنا إليه الآن، فلم نكن نحياه من

تجددنا ثانية بالمسيح من جهة القداسة والحياة والخلود[٢٣٩]. أيضاً أعتقد أن حديث البركة يعني الرائحة الروحية الذكية التي في المسيح، كالرائحة الجميلة والمفرحة التي تأتي من ورود الربيع في الحقول اليانعة والمزهرة. هكذا قدَّم لنا المسيح ذاته في نشيد الإنشاد قائلاً: «أنا نرجس شارون سوسنة الأودية» (نش ٢:١). حقاً كان سوسنةً ونرجساً، هذا الذي نبت من الأرض كإنسان، لكن بدون أن يعرف خطية، إذ يفوح منه عبيق الرائحة الذكية على كل المسكونة. إذاً، المسيح يشبه حقلاً مباركاً من الله حيث هو بالحق رائحة معرفة الله الآب الذكية لأن بولس الرسول قال: «شكراً لله الذي يقودنا في موكب نصرته في المسيح كل حين ويُظهر بنا رائحة معرفته في كل مكان» (٢ كو ٢:١٤).

فإن ربنا يسوع المسيح هو رائحة معرفة الله الآب الذكية[٢٤٠]، لأنه يقول: «ليس أحد يعرف الابن إلَّا الآب» (مت١١:٢٧)، بسبب أنه من نفس طبيعة الآب، وهو

قبل. إذن فهذا العمل هو بالحق خليقة جديدة، وأفضل بكثير من الخليقة الأولي، لأن ما أخذناه من الخليقة الأولي، هو أننا نلنا الحياة فقط، أما الولادة الجديدة، فقد منحتنا القدرة على أن نعيش الحياة كما ينبغي في جمالها الروحي " شرح رسالة أفسس، الإصحاح الثاني، مرجع سابق، ص ٨١.

239 ἀνεκαινίσθημεν ἐν αὐτῷ πρὸς ἁγιασμόν τε καὶ ἀφθοιρσίαν καὶ ζωήν

هذا التجدد يشرحه أيضاً القديس كيرلس في موضع آخر، إذ يقول: « إن تعدي الإنسان الأول واللعنة الإلهية المرتبطة به أعطانا ليس الموت فقط بل كل آلام الجسد التي بدأت في الإنسان الأول؛ هكذا بنفس الطريقة، كما أفهم، فإننا جميعاً سنتبع المسيح، وهو يخلّص ويقدّس في ذاته طبيعة الجسد بطرق متنوعة. لذلك يقول الرسول بولس أيضاً: «وكما لبسنا صورة الترابي، سنلبس أيضاً صورة السمائي» (١ كو ١٥: ٤٩). فإن «صورة الترابي» ــ أي صورة آدم ــ هي في الآلام والفساد؛ و«صورة السمائي» ــ أي صورة المسيح، هي في عدم التألم وعدم الفساد». شرح إنجيل يوحنا، الجزء الثامن، الإصحاح الرابع عشر ص ١٢١ ــ ١٢٢.

240 ὁ κύριος ἡμῶν Ιησοῦς Χριστὸς ὡς ὀσμὴ τῆς γνώσεως τοῦ Θεοῦ καὶ Πατρός

مساوٍ له في كل شيء. هذه الأقوال التي أشرنا إليها تناسب المسيح، أما ما يتناسب مع شعب الله، فهو الأقوال الآتية: «فليعطِك الله من ندى السماء. ومن دسم الأرض. وكثرة حنطة وخمر» (تك ٢٧:٢٨). لأن الندى من السماء ومن دسم الأرض والخمر يشير إلى أن كلمة الله الاب قد أعطانا نعمة اشتراكنا معه بواسطة الروح القدس. وهكذا صرنا شركاء الطبيعة الإلهية[٢٤١]، وكذلك نلنا قمحاً وخمراً كثيراً، أي قوةً وبهجةً حيث إن كلام المرنم صادق حين يقول: «وخمرٌ تفرح قلب الإنسان.. وخبز يسند قلب الإنسان» (مز ١٠٤: ١٦). إذن، الخبز هو علامة القوة الذهنية والروحية، بينما الخمر يشير إلى البهجة والفرح. وقد أعطاهما المسيح بنفسه للمتحدين به. لكن كيف وبأيةِ طريقةٍ صرنا ثابتين في التقوى وغير متزعزعين ونعترف ونؤمن ونحن أقوياء وبلا أي تردد؟ لقد صرنا هكذا لأننا نلنا سلطاناً: «أن

ومن محبة الله أن أعطى للإنسان أن يعرفه بأن تجسد حتى لا يعتمد البشر على الطريقة السابقة، أي معرفة الله عن طريق الإعلان الطبيعي أي عن طريق الطبيعة، وهذا أيضاً ما يؤكده القديس أثناسيوس، إذ يقول: «لأن الله لا يريد بعد ــ مثلما حدث في العصور السابقة ــ أن يُعرف عن طريق صورة وظل الحكمة الموجودة في المخلوقات بل جعل الحكمة الحقيقية ذاتها تتخذ جسداً وتصير إنساناً وتعانى موت الصليب، لكي يتمكن جميع الذين يؤمنون أن يخلصوا بالإيمان به» ضد الأريوسيين، مرجع سابق، المقالة الثانية، فقرة ٨١ ص ١٤٩.

241 καὶ Θεὶας μὲν φύσεως δὶαυτοῦ γεγόναμεν κοινωνοὶ.

أي صرنا شركاء الطبيعة الإلهية كما قال الرسول بطرس (٢ بط ١:٤). والجدير بالذكر أن القديس أثناسيوس سبق أن أكد هذه الحقيقة، قائلاً: «فلو كان الروح القدس مخلوقاً، لما كان لنا اشتراك في الله بواسطته. فإن كنا قد اتحدنا بمخلوق فإننا نكون غرباء عن الطبيعة الإلهية حيث إننا لم نشترك فيها. أمّا الآن فلكوننا نُدعى شركاء المسيح وشركاء الله، فهذا يوضّح أن المسحة والختم الذي فينا، ليس من طبيعة المخلوقات بل من طبيعة الابن، الذي يوحّدنا بالآب بواسطة الروح الذي فيه. هذا ما علّمنا إياه يوحنا ــ كما قيل سابقاً ــ عندما كتب: « بهذا نعرف أننا نثبت في الله وهو فينا أنه قد أعطانا من روحه» (١ يو ٤:١٣). ولكن إن كنا بالاشتراك في الروح نصير «شركاء الطبيعة الإلهية» (٢ بط ١: ٤)، فإنه يكون من الجنون أن نقول إن الروح من طبيعة المخلوقات وليس من طبيعة الله» القديس أثناسيوس الرسول، الرسائل إلى الاسقف سيرابيون عن الروح القدس، مرجع سابق، الرسالة ١:٢٤.

ندوس الحيات والعقارب وكل قوة العدو» (لو ١٠ :١٩). هذا ما يشير إليه دسم الأرض (القمح الكثير). أيضاً نلنا خمراً لأنه مكتوب: «وليملأكم إله الرجاء كل سرور وسلام في الإيمان لتزدادوا في الرجاء بقوة الروح القدس» (رو ١٥ :١٣). لأننا نحن ننتظر المسكن السماوي، أي الحياة الخالدة، الحياة الأبدية، حيث نملك مع المسيح.

هذه الأقوال ينبغي أن تُقال لنا، إذ دعتنا الكلمة لهذا الأمر. بعد ذلك، فإن بقية البركة سوف ترجع ثانيةً إلى عمانوئيل، لأنه يقول: «ليُستعبد لك شعوب. وتسجد لك قبائل. كُن سيداً لإخوتك» (تك ٢٧ :٢٩). بمعنى أن عمانوئيل وُصِفَ بالبكر عندما صار إنساناً مثلنا وبكراً بين إخوة كثيرين (انظر رو٨ :٢٩)، ولم يكن ممكناً أن يتوقف عن أن يكون إلهاً وربّاً للكل، إذ أننا نسجد له كربٍّ وإله، ورب الكل لنا نحن الذين دُعينا بالنعمة وصرنا إخوة، كما هو مكتوب: «لأنه مَنْ في السماء يعادل الرب» (مز ٨٩: ٦). هكذا صار عمانوئيل الذي هو إله ورب الجميع للذين دُعُوا ليصيروا إخوته «لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض» (في ٢ :١٠).

أيضاً يقول: «ليكن لاعنوك ملعونين. ومباركوك مُباركين» (تك ٢٧ :٢٩). والقول واضح، لأن الذين يلعنونه هم ملعونون وممقوتون من الله، وعلى النقيض الذين يباركونه، أي أن هؤلاء الذين يكرزون بمجده الإلهي هم مملؤون من المواهب الإلهية.

هذه هي بركة يعقوب والتي تشير إلى المعنى العميق لكلمة عمانوئيل ولهؤلاء الذين تبرروا بالإيمان.

لكن، دعنا نرى بركةً أخرى، أي تلك التي صارت إلى البكر (عيسو)، لأنه يقول: «هوذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك وبلا ندى السماء من فوق. وبسيفك تعيش ولأخيك تُستعبد. ولكن حين تجمح أنك تكسر نيره عن عنقك» (تك ٢٧: ٣٩ ــ ٤٠). وهذا يعني أن البركة قد أُعطيت لإسرائيل بواسطة ناموس موسى، أي الكلمة التي تكلّم بها ملائكة (عب ٢:٢). لأن الله قد تحدث أولاً إلى الأقدمين، وهذا ما يقوله بولس الرسول: «الله بعدما كلّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة. كلمنا في هذه الأيام ألأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين» (عب ١: ١ ــ ٢). وقد أظهر المسيح نفسه، أن الناموس يحتوي على كلام يشير إليه حين قال: «فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (مت ٥:١٨). فإن المسيح هو الذي تكلّم بالناموس بواسطة ملائكة، ذلك الناموس الذي هو بركة لإسرائيل. وكذلك ندى السماء ودسم الأرض يشير إلى المسيح. لأنه كما أن جمع الملائكة بيد ممدودة يروون البشر بالندى السماوي والروحي، هكذا دسم الأرض يمتص الأمطار الروحية ويُعطى ثماراً روحية. ونحن بالتأكيد كأبناء الله نقترب من المسيح بدالة لأنه يُشبهنا وهو أخٌ لنا، معلنين له الخضوع إرادياً، بينما إسرائيل تحت النير ومتثقل جداً بالناموس تحت حكم الموت لأجل معاصيه. لأن عيسو سمع القول: «لأخيك تُستعبد» (تك ٢٧: ٤٠) بمعنى أنك سوف تخضع ــ بدون أن تريد ــ لهذا الذي هو نفسه مثلك في الطبيعة. وموسى هو إنسان مثلنا بدون أن يكون لديه شيء زائد عنا. وحقاً دعا رب الجميع إسرائيل أنه شعب موسى، إذ أنهم صنعوا عجلاً في البرية. بعد ذلك يقول الله لموسى: «لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر»

(خر ٣٢:٧). القديس بولس ينسب الناموس المكتوب إلى موسى الطوباوي، لأنه قال الآتي: «من خالف ناموس موسى فعلى شاهدين أو ثلاثة شهود يموت بدون رأفة» (عب ١٠:٢٨). وبقوله: «حينما تجمح أنك تكسر نيره عن عنقك» (تك ٢٧:٤٠)، أشار إلى أن إسرائيل (أي شعب اليهود) يمكن أن يلقي من على كاهله النير الذي حُمِل به، لأن المسيح دعا هذا الشعب إلى النعمة بواسطة الإيمان به. فالذين آمنوا منهم كسروا نير الناموس الذي لا يُحتمل عن أعناقهم، إذ دُعُوا إلى الحرية بالإيمان بالمسيح الذي به ومعه لله الآب المجد مع الروح القدس إلى أبد الآبدين. آمين.

المقالة الرابعة على سفر التكوين

عن يعقوب البطريرك

الجمال الروحي للمؤمنين ومواجهة أبناء المعصية

حقاً «جميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يُضطهدون» (٢ تي ٣: ١٢). لأن أبناء المعصية مثل وحوشٍ متوحِّشةٍ ينقضُّون على المؤمنين، إذ أنهم يعتبرون الجمال الروحي للمؤمنين الذي يتزايد دائماً كأنه اتهام وشهادة[٢٤٢] ضد طريقتهم الرديئة. لأن الأمور السيئة تُفضَح دائماً بمقارنتها بالأفضل، والأمور السامية تُظهِر نقص الجمال عند أولئك الذين يسلكون في الشر. وما الذي يصير بعد هذا؟ يحدث أن تشتعل الغيرة ونيران الحسد في الحاسدين، فيؤدي إلى الهوس والدافع إلى ارتكاب الفجور ضد أولئك الذين اختاروا أن يعيشوا في الصلاح[٢٤٣]، الذين لا يخورون أبداً من جراء الصراعات

---

[٢٤٢] يجب أن نحافظ على طهارة القلب لكي نكون شهادة ضد خبث الشيطان، هذا ما أكد عليه القديس كيرلس في موضع أخر، إذ يقول: "فلنطهّر قلوبنا من كل دنس، لكي يسكن الله فينا، ويجعلنا شهادة ضد كل خبث الشيطان، ويجعلنا سعداء ومباركين، ويهبنا أن نكون شركاء طبيعته الإلهية التي تفوق كل وصف" شرح إنجيل يوحنا، المجلد الثاني، مرجع سابق، الإصحاح الرابع عشر، ص ٢٢٨.

[٢٤٣] حين شرح القديس يوحنا ذهبي الفم قول الرسول بولس: "فَإِنَّ مُصَارَعَتَنَا لَيْسَتْ مَعَ دَمٍ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّؤَسَاءِ، مَعَ السَّلاَطِينِ، مَعَ وُلاَةِ الْعَالَمِ عَلَى ظُلْمَةِ هذَا الدَّهْرِ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ" (أف٦:١٢) أكد على أن المعركة شرسة لأن الأمر يتعلق بالصلاح الذي فينا، إذ يقول: "إنهم يرغبون في ان

التي تأتي من الذين يحاربونهم. لأن رئيس القديسين لا يهمل أولئك الذين يخاطرون لأجله، بل بالحري سينقذهم بسهولة جداً، ويجعلهم ممجَّدين، إذ أنه يجعل مكابدتهم للمشقات التي سمح لهم بها، تدريباً على الصبر. وينصح بولس الرسول المؤمنين بهذا الأمر، قائلاً: «ولكن الله أمين الذي لا يدعكم تُجرَّبون فوق ما تستطيعون، بل سيجعل مع التجربة أيضاً المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا» (١كو١٠:١٣).

امتحان المؤمنين

نجد في سفر المزامير أن أولئك الذين اجتازوا الصراعات وتحملوا الأتعاب يصرخون قائلين: «لأنك جرَّبتنا يا الله. محصتنا كمحص الفضة. أدخلتنا إلى الشبكة. جعلت ضغطاً على مُتوننا. ركبت أُناساً على رؤوسنا. دخلنا في النار والماء ثم أخرجتنا إلى الخصب» (مز ٦٦: ١٠ ـــ ١٢).

قليلون هم الذين يتضايقون من التجارب وكثيرون يفرحون بها، لأن التجارب تُظهرهم أنهم أسمى، وبهذه الخبرة يدركون هذا الأمر، وهم بهذه الآلام التي يعانون منها يؤكدون محبتهم الشديدة لله. لقد قالوا إنهم مروا في النيران، بمعنى أنهم كانوا

ينزعوا منّا خيرات عظيمة. ما هي هذه الخيرات؟ تتضح في هدف المعركة التي تقع في السماويات، فهي ليست من أجل المال، ولا من أجل المجد، بل هي معركة خاصة بالعبودية. إن العداوة تصبح أكثر شدة، والتشاحن يصير أكثر عنفًا، عندما تكون المعركة لأجل الخيرات العظيمة. لأن عبارة "في السماويات"، هي بدلاً من "من أجل السماويات". لا لكي ينال هؤلاء مكافآت ما، لأنهم انتصروا علينا، بل لكي يحرموننا منها، وكأنه قد قال إن الحالة الماثلة مرتبطة تمامًا بشيء، وهو أن كلمة «في» «$\varepsilon\nu$»، تعني من أجل ($\upsilon\pi\acute{\varepsilon}\rho$) أو.($\delta\iota\acute{\alpha}$) لاحظ كيف أنه يُظهر لنا قوة العدو، ويجعلنا حذرين، فالمعرفة، والخطر، والانتصار، هو من أجل الخيرات العظيمة، فهو يُعاني ويصارع لكي يطردنا من السماء « شرح الرسالة إلى أفسس، الإصحاح السادس، مرجع سابق، ص ٣٢٧.

مثل البخور عندما يُوضع في النار فيُظهر رائحته الزكية، هكذا النفس المقدسة عندما تتعرض للاحتراق بواسطة الامتحان والآلام، فإن الفضيلة الأكثر جمالاً تسكن فيها. بالإضافة إلى هذا يرنم داود العظيم قائلاً: «ملاك الله حال حول خائفية لينجيهم» (مز ٣٤:٧). أيضاً يقول مانح المعونة نفسه بكل وضوح: «لأنه تعلّق بي أنجّيه. أرفّعه لأنه عرف اسمي. يدعوني فأستجيب له. معه أنا في الضيق. أنقذه وأمجده من طول الأيام أشبعه وأريه خلاصي» (مز ٩١: ١٤ — ١٦).

ما هو — إذن — «خلاص الله الآب»؟ إنه كلمة الله الذي وُلِد منه، والذى لأجلنا صار مثلنا آخذاً شكل العبد بحسب التدبير[٢٤٤]. هكذا قال الله الآب بواسطة أشعياء: «من أجل صهيون لا أسكت ومن أجل أورشليم لا أهدأ حتى يخرج برها كضياء وخلاصها كمصباح يتقد» (أش٦٢:١). وحقاً، فإن الابن صار من أجلنا براً ومجداً من الله الآب، وأيضاً صار لنا طريق خلاص[٢٤٥]. لأننا تبررنا بواسطته ورُفعنا إلى مجد البنوة.

244 Ὁ ἐξαὐτοῦ Θεὸς Λόγος, ὁ δὶήμᾶς καθ› ἡμᾶς καὶ εν δούλου μορφῇ γεγονὼς οἰκονομικῶς.

تعبير «تدبيرياً» أو «بحسب التدبير» يعني بكون الابن إنسانا حين أخذ على عاتقة خلاص البشرية وتجسد لأجلنا، ويكرر هذا الأمر القديس كيرلس في كل مرة تُقال فيها أقوالاً متواضعة على الابن، وفي حواره حول الثالوث يوضح هذه الحقيقة، قائلاً: «إن الابن الوحيد قد أخلى ذاته وأخذ شكل العبد واحتمل الآلام والعار وأطاع حتى الموت موت الصليب. لأجل هذا يقال إن الله قد وَهَبَه اسماً فوق كلّ اسم، لكي تجثو باسم يسوع كلُّ ركبة ممن في السماء وممن على الأرض. إذن بينما كان هو كواحد منا، أُعطِي أن يُسميّ «الله» كمكافأة له على عظيم أعماله وطاعته. حتى صار يُسجَد له من الملائكة نفسها ومنّا نحن يا مَنْ نعيش على الأرض وحتى من الذين قد ماتوا؟». القديس كيرلس الكبير، حوار حول الثالوث، الجزء الرابع، الحوار الخامس، مايو٢٠١٠، ص ٥٧.

245 *Γέγονε γὰρ ἡμῖν δικαιοσύνη καὶ δόξα παρὰ τον Θεοῦ καὶ πατρὸς ο Υἱὸσ, καὶ μὴν καὶ σωτήριον.*

لقد خلّصنا وحلّ عنا رباطات الموت، وجعلنا نُسرع نحو الخلود[٢٤٦]، وكيف يمكن للمرء أن يتشكك في هذا الأمر؟! لقد ظهر لنا كمصباح في وسط الظلام واضعاً النور الإلهي داخل نفوسنا نحن المؤمنين. لذلك قال: «أنا هو نور العالم» (يو ٨: ١٢). وأيضاً وِفق كلام المخلص: «طوبى للمطرودين من أجل البر» (مت ٥: ١٠) (لأنهم سوف يرثون السماء، وسوف يكون لهم إله الكل والمخلص مدافعاً، وسيرون سر المسيح نفسه). ويمكن للمرء أن يعرف سر المسيح هذا من خلال كل ما يتعلق بيعقوب رئيس الآباء وأعتقد أنه ينبغي أن نعرض كل ما هو مكتوب عن يعقوب لكي يكون لدى الجميع معرفة دقيقة لكل ما هو مكتوب

يشرح لنا القديس أغسطينوس كيف أن المسيح هو» الطريق «قائلاً» :المسيح هو» الطريق «الذى علينا أن نتبعه ونهتدى به، وهو في نفس الوقت الهدف الذى نسعى لبلوغه. *PL38, 1206.* »

246 *ὅτι δὲ καὶ σέσώσμεθα τὰ τοῦ θανάτου φυγόντες δεσμά καὶ ἀνατρέχοντες εἰς ἀφθαρσὶαν.*

يشرح القديس أثناسيوس باستفاضة حقيقة نوالنا لحياة عدم الفساد أو الخلود في كتابه «تجسد **الكلمة**» قائلاً: «وهكذا إذ اتخذ جسدًا مماثلاً لطبيعة أجسادنا، وإذ كان الجميع خاضعين للموت والفساد، فقط بذل نفسه للموت عوضًا عن الجميع، وقدمه للآب. كل هذا فعله من أجل محبته للبشر، أولاً: لكى إذ كان الجميع قد ماتوا فيه، فإنه يُبطل عن البشر ناموس الموت والفناء، ذلك لأن سلطان الموت قد استُنفد في جسد الرب، فلا يعود للموت سلطان على أجساد البشر (المماثلة لجسد الرب). ثانيًا: وأيضًا فإن البشر الذين رجعوا إلى الفساد بالمعصية يعيدهم إلى عدم الفساد ويحييهم من الموت بالجسد الذى جعله جسده الخاص، وبنعمة القيامة يبيد الموت منهم، كما تبيد النار القش» تجسد الكلمة٨: ٤ ص٢٢. أيضًا يؤكد القديس كيرلس السكندري على إبطال الموت بواسطة الابن لأجلنا لذي أعاد الجنس البشري إلى حياة الخلود، قائلاً: «عندما سقط الإنسان بعصيانه واستُعبِد لقوة الموت وفقد كرامته القديمة أعاده الآب وجدَّده إلى الحياة الجديدة بالابن كما كان في البدءِ. وكيف جدَّده الابن؟ بموته بالجسد ذبح الموت وأعاد الجنس البشرى إلى عدم الفساد عندما قام من الموت لأجلنا» قيامة المسيح، للقديس كيرلس عمود الدين، تفسير يوحنا٢٠، ترجمة د. نصحى عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، القاهرة ٢٠٠٣، ص٢٧.

عنه. لدينا الآتي: « فَحَقَدَ عِيسُو عَلَى يَعْقُوبَ مِنْ أَجْلِ الْبَرَكَةِ الَّتِي بَارَكَهُ بِهَا أَبُوهُ. وَقَالَ عِيسُو فِي قَلْبِهِ: «قَرُبَتْ أَيَّامُ مَنَاحَةِ أَبِي فَأَقْتُلُ يَعْقُوبَ أَخِي». فَأُخْبِرَتْ رِفْقَةُ بِكَلاَمِ عِيسُوَ ابْنِهَا الأَكْبَرِ فَأَرْسَلَتْ وَدَعَتْ يَعْقُوبَ ابْنَهَا الأَصْغَرَ وَقَالَتْ لَهُ: «هُوَذَا عِيسُو أَخُوكَ مُتَسَلٍّ مِنْ جِهَتِكَ بِأَنَّهُ يَقْتُلُكَ. فَالآنَ يَا ابْنِي اسْمَعْ لِقَوْلِي وَقُمِ اهْرُبْ إلى أَخِي لاَبَانَ إلى حَارَانَ. وَأَقِمْ عِنْدَهُ أَيَّاماً قَلِيلَةً حَتَّى يَرْتَدَّ غَضَبُ أَخِيكَ عَنْكَ. وَيَنْسَى مَا صَنَعْتَ بِهِ. ثُمَّ أُرْسِلُ فَآخُذُكَ مِنْ هُنَاكَ. لِمَاذَا أُعْدَمُ اثْنَيْكُمَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؟» (تك ٢٧: ٤١ ـــ ٤٥).

ثم بعد ذلك اخترعت مبرراً مناسباً لرحيل ابنها وذهبت إلى اسحق وقالت له: «مَلِلْتُ حَيَاتِي مِنْ أَجْلِ بَنَاتِ حِثّ. إِنْ كَانَ يَعْقُوبُ يَأْخُذُ زَوْجَةً مِنْ بَنَاتِ حِثٍّ مِثْلَ هَؤُلاَءِ مِنْ بَنَاتِ الأَرْضِ فَلِمَاذَا لِي حَيَاةٌ؟» (تك ٢٧:٤٦). وحتى لا تجعل المرأة رحيل يعقوب بدون إرادة أبيه، أقنعت الشيخ إسحق أن يسمح لابنه بالرحيل. لذلك: «دَعَا إِسْحَاقُ يَعْقُوبَ وَبَارَكَهُ وَأَوْصَاهُ وَقَالَ لَهُ: «لاَ تَأْخُذْ زَوْجَةً مِنْ بَنَاتِ كَنْعَانَ. قُمِ اذْهَبْ إلى فَدَّانِ أَرَامَ إلى بَيْتِ بَتُوئِيلَ أَبِي أُمِّكَ وَخُذْ لِنَفْسِكَ زَوْجَةً مِنْ هُنَاكَ مِنْ بَنَاتِ لاَبَانَ أَخِي أُمِّكَ. وَاللهُ الْقَدِيرُ يُبَارِكُكَ وَيَجْعَلُكَ مُثْمِراً وَيُكَثِّرُكَ فَتَكُونُ جُمْهُوراً مِنَ الشُّعُوبِ. وَيُعْطِيكَ بَرَكَةَ إِبْرَاهِيمَ لَكَ وَلِنَسْلِكَ مَعَكَ لِتَرِثَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ الَّتِي أَعْطَاهَا اللهُ لإِبْرَاهِيمَ» (تك ٢٨: ١ ـــ ٤).

ينبغي إذن أن نقبل عيسو ويعقوب كمثالين لشعبين: الإسرائيلي القديم، والآخر الذي سوف يأتي بالإيمان. أيضاً يقول: «فَحَقَدَ عِيسُو عَلَى يَعْقُوبَ مِنْ أَجْلِ الْبَرَكَةِ الَّتِي بَارَكَهُ بِهَا أَبُوهُ» (تك ٤١:٢٧)، بسبب أنه حرم نفسه من كل الأمور المتعلّقة بالبكورية متنازلاً بذلك عن كرامته لآخر، وبسبب أنه كان قد أحضر الصيد وهو في الترتيب الثاني، لذلك فَقَدَ البركة. لذلك فكّر في أمور وحشية وخطّطَ ودرس مدفوعاً

بحقده لكي يقوم بقتل أخيه. هكذا نفس الأمر اغتاظ إسرائيل البكر[٢٤٧] وغَضب بطريقة رهيبة من أولئك الذين آمنوا وكانوا في المرتبة الثانية بعدهم، أقصد الشعب الجديد وحُسِب في موضع البكر، ونال ملء البركة الإلهية بواسطة الروح في المسيح. هكذا انقض إسرائيل (اليهود) على أتباع يسوع بالإيمان، وبسبب رؤيتهم التي رأوا أنها صحيحة بالنسبة لهم، فإنهم صاروا معادين وقتلة ومضطهدين للمؤمنين مصوبين سهام الحقد والقتل ضدهم.

لكن رفقة أقنعت يعقوب أن يترك البيت ويهرب من أخيه ويذهب إلى لابان الذي كان وثنياً. أيضاً إسحق أبوه سمح له بالذهاب ولم يسمح له بالزواج من امرأة من كنعان، مُفضِّلاً له أن يأخذ بنت لابان زوجةً له. وهذا الأمر يُفسَّر روحياً هكذا: عندما يخاطر الشعب الجديد بالإيمان، ويتعرض للاضطهاد والطرد تنصحه الكنيسة بحكمة ــ التي رُمِز إليها برفقة ــ أن يهرب من غضب القتلة.

---

[٢٤٧] هنا ينتقل القديس كيرلس من التفسير التاريخي إلى التفسير الروحي لكشف المعاني الروحية العميقة المستترة في الحدث التاريخي. وهذه هي طريقته، كما شرحنا من قبل. يؤكد القديس كيرلس على أن المسيح هو الخبز الحقيقي والحياة بالنسبة للأمم الذين قبلوه في حين أن إسرائيل البكر لم يقبله وذلك أثناء حديثة عن المنارة والمائدة للخيمة المقدسة، إذ يقول: "أمَّا كونُ المسيحِ نوراً، فقد أعلنته المنارة، وكونه الحياةَ والخبز الذي يعطي حياةً، فقد أظهرته المائدة وكل ما وُضع فوقها. لكن عليك أنْ تتأمل أمراً آخراً، وتلاحظ ما ينطوي عليه من سرٍّ: يقع موطن اليهود في الجنوب، بينما موطن الأمم في الشمال. فإذا أخذنا في الاعتبار مكان كلٍ من المنارة والمائدة، فسوف يُدرك مَن يريد، أنَّ المسيحَ قد أشرق كنورٍ على اليهود وكرز لهم "أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ" (يو ٨: ١٢). لأنه قد أُرسل إلى خراف بيت إسرائيل الضالة (مت ١٥: ٢٤)، وبحسب الكتب المقدسة "لأنَّ لهم المواعيد" (رو٩: ٤). لكن بما أنهم لم يقبلوا نور الحق، صار المسيحُ للأمم هو الحياةَ والخبزَ النازل من السماء، وهكذا لم يبقَ الأممُ بدون نور. وهذا ما تراه من جهة أنَّ النورَ يُشرق على شمال الخيمة؛ لأنَّ المنارةَ قد وُضعت فوق المائدة التي كانت جنوباً. وما ساعد على إظهار ذلك، أنَّ الخيمةَ كانت محدودة القياس". أنظر السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، المقالة العاشرة ص ٣٩٨.

لقد تَفهَّم رجل رفقة (إسحق) الذي يشير إلى المسيح وسمح ليعقوب الذي يشير إلى الشعب الجديد بتجنب أولئك الذين هم مدفوعين بالغضب والإقدام على ارتكاب القتل بطرق وحشية.

(الزواج كان يشير إلى العِشرة والأُلفة)، هكذا فضَّل بالحرى نساء عائلة لابان بمعنى عائلة الأمم. وهكذا نرى الرسل القديسين الذين آمنوا في البداية وصاروا باكورة الشعب الجديد قد قاموا بتطبيق النصائح التي أُعطيت ليعقوب. إذ انفصلوا عن قطيع اليهود الذي كانت نواياهم تجاههم نوايا عدوانية، فرحلوا عن هذا القطيع تاركين مدناً وأماكن لكي يتجنبوا ــ عن إدراك ــ غضب اليهود. لأنهم تذكروا ما قاله المسيح لهم: «ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى» (مت ١٠: ٢٢). وقد سبق أن تحدثوا مع أولئك الآتين من دم إسرائيل، والرافضين للإيمان، وكانوا يقولون لهم باستمرار: «كان يجب أن تكلموا أنتم أولاً بكلمة الله ولكن إذ دفعتموها عنكم وحكمتم أنكم غير مستحقين للحياة الأبدية هوذا نتوجه إلى الأمم» (أع١٣: ٤٦).

إن عريس الكنيسة[٢٤٨] أي المسيح أعطى وصيةً لخاصته بأن يذهبوا إلى جموع الأمم ويلدوا أولاداً بالإيمان ويصيروا آباءً لشعوب كثيرة؟ لذلك حين كتب بولس الحكيم للأمم الذين آمنوا بواسطته، قال لهم: «لأنه وإن كان لكم ربوات

---

[٢٤٨] لقب المسيح كعريس يؤكد عليه أيضاً القديس يوحنا ذهبي الفم، إذ يقول: ''هو كمالنا، إذ هو ''ملء الذي يملأ الكل في الكل'' أف ١: ٢٣. وهو الطريق، والزوج، والعريس، لأنه يقول ''خطبتكم لرجل واحد لأقدم عذراء عفيفة للمسيح'' (٢كو١١: ٢)'' شرح رسالة روميه، الإصحاح الثالث عشر، ص ٥٤٠

من المرشدين في المسيح لكن ليس آباء كثيرون. لأني أنا ولدتكم في المسيح يسوع بالإنجيل» (١كو٤:١٥).

إن إسحق القديس الذي توَّج يعقوب ـــ قبل ان يرتحل من بيته ـــ ببركات سماوية وقال له: «لاَ تَأْخُذْ زَوْجَةً مِنْ بَنَاتِ كَنْعَانَ. قُمِ اذْهَبْ إِلَى فَدَّانِ أَرَامَ إِلَى بَيْتِ بَتُوئِيلَ أَبِي أُمِّكَ وَخُذْ لِنَفْسِكَ زَوْجَةً مِنْ هُنَاكَ مِنْ بَنَاتِ لاَبَانَ أَخِي أُمِّكَ. وَاللهُ الْقَدِيرُ يُبَارِكُكَ وَيَجْعَلُكَ مُثْمِراً وَيُكَثِّرُكَ فَتَكُونُ جُمْهُوراً مِنَ الشُّعُوبِ. وَيُعْطِيكَ بَرَكَةَ إِبْرَاهِيمَ لَكَ وَلِنَسْلِكَ مَعَكَ لِتَرِثَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ الَّتِي أَعْطَاهَا اللهُ لإِبْرَاهِيمَ» (تك ٢٨:١ ـــ ٤)، قد أظهر بهذه الكلمات أن الله سيكون مع خدام العهد الجديد وسيبارك شعوبهم بغنى وسخاء، أي المؤمنين بالمسيح.

وحقاً، فقد تبارَك المؤمنون بالمسيح وازدادوا كثيراً وصاروا جمعاً من الأمم ووارثين للآباء القديسين، لأنهم سوف يستريحون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السماوات وفق كلام المخلّص نفسه (انظر مت ٨:١١). وأيضاً قد باركنا، لأنه قال لأجلنا: «أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك» (يو١٧:١١).

وبالرغم من أن رفقة كانت أم عيسو، إلّا أن شروحاتنا لا ينتابها أيُّ عيب؛ لأن بعض أبناء إسرائيل صاروا أيضاً أبناء الكنيسة لأنهم آمنوا بالمسيح، ولم يُحسبوا من ضمن الشعب القديم والعتيق بل نُقلوا إلى الشعب الجديد الذي كان من الأمم. لأنه وفق الكتب المقدسة: «إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة» (٢ كو ٥: ١٧)، المسيح الذي وحَّد الشعبين إلى إنسان واحد جديد

مصالحاً الاثنين مع الآب بنعمة الروح، إذ نقض حائط السياج[٢٤٩] المتوسط وأبطل بالتعاليم الإيمانية فرائض الناموس.

رحيل يعقوب إلى حاران

في الحال بعد أن تزوّد يعقوب ببركات أبيه، سار نحو هدف الرحيل الذي وُضع له. لكن ما هي الأحداث التي حدثت أثناء مسيرته. هذا ما سوف نعرفه من الكتب المقدسة. مكتوب الآتي: «فخرج يعقوب من بئر سبع (أي بئر القسم) وذهب نحو حاران. وصادف مكاناً وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت. وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه، فاضطجع في ذلك المكان. ورأى حلماً، وإذا سُلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء. وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها. وهوذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله اسحق. الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً. ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض. وها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب وأردك إلى هذه الأرض. لأني لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به. فاستيقظ يعقوب من نومه وقال حقاً إن الرب

---

٢٤٩ الحائط هو العداوة التي كانت حاجز بين البشر والله بحسب القديس يوحنا ذهبي الفم، إذ يقول: ''الحائط هو الحاجز الذي كان يفصلنا عن الله ''أي العداوة''، كما يقول النبي '' آثامكم صارت فاصلة بينكم وبيني'' (أش ٥٩: ٢) الحائط المتوسط إذن هو العداوة التي كانت قائمة لدى اليهود والأمم تجاه الله، وطالما كان الناموس قائمًا فإنه ليس فقط لم يَبطُل، بل أيضًا قد تَدّعم، لأن الرسول بولس يقول ''لأن الناموس ينشئ غضبًا'' (رو ٤: ١٥). إذن تمامًا كما أنه يقول في رسالته لأهل رومية ''لأن الناموس ينشئ غضبًا''، ولا ينسب كل شيء للناموس، بل لأننا خالفناه، هكذا هنا أيضًا دعا الناموس ''حائط السياج المتوسط''، لأنه أنشأ عداوة بسبب مخالفته '' شرح رسالة أفسس، ص٩١.

في هذا المكان وأنا لم أعلم. وخاف وقال ما أرهب هذا المكان. ما هذا إلّا بيت الله وهذا باب السماء. وبكر يعقوب في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصب زيتاً على رأسه. ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل. ولكن اسم المدينة أولاً كان لوز» (تك ٢٨: ١٠ ـــ ١٩).

كان اسم تلك المدينة هو "بئر القسم"[٢٥٠] لأنه مكتوب: «في ذلك اليوم أتى عبيد اسحق ليروه المنبع الذي حفروه وقالوا لم نجد ماء. ودعاه القسم. لذلك سموه في تلك المدينة باسم «بئر القسم» والذي هو موجود حتى اليوم» (تك ٢٦: ٣٢ ـــ ٣٣س). وإن أراد أحد أن يعرف السبب الذي لأجله دُعي «بئر القسم» سوف نقول هذا الأمر أيضاً؛ لأن هناك حدث ميثاقُ سلامٍ وقَسَمٍ مع اسحق وأبيمالك وأتباعه. إذاً فقد ارتحل يعقوب من مسكنه الأبوي ومن هذه المدينة وابتعد عن أهله، لذا كان متضايقاً جداً. لأنه فكّر ـــ وهذا طبيعي ـــ أنه سيكون غريباً ونزيلاً وسوف يسكن في بلد غريبة، وربما سيأخذه أناس آخرون ويعاني من عبودية ثقيلة، لأن يعقوب كان من المهذبين الذين يخضعون لأصحاب السُلطة. وهذا ما يعرفه الله «الفاحص القلوب والكلى» (مز ٧: ١١)، لذا لم يترك نفس البار تتعذب بمثل هذه الأحزان الثقيلة، فأظهر له حشداً من الملائكة يترلون ويصعدون من على السلم، هذا الحشد ينقذ بسهولة هؤلاء الذين هم واثقون في الله. وحقاً هذا ما تعلّمه يعقوب من الحُلم. لأنه رأى ـــ بطريقة ملموسة αἰσθτῶς[٢٥١] ـــ سُلّماً واصلاً من الأرض إلى السماء، والملائكة نازلة

---

[٢٥٠] بحسب السبعينية.

[٢٥١] أي رأى يعقوب منظراً يستطيع أن يدركه لأنه معتاد وملموس في الحياة اليومية.

وصاعدة عليها، أدرك يعقوب هذا بالرغم من أن هذه الأمور عُرضت أمامه بنماذج مادية غامضة ἐν πάχεσιν ὥσπερ ἐγράφετο τύποις (بطريقة رمزية). وسمع أيضاً صوت ذاك الذي أمر هذه الملائكة، بأن ما يحدث هو غاية البركة التي أخذها من أبيه. لأنه يقول: «ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً» (تك ٢٨: ١٤). وأخبره بأنه سوف يحرسه ويُدافع عنه أينما مضى. وعندما استيقظ يعقوب كان مندهشاً، وقال «حقاً إن الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم» (تك ٢٨: ١٦).

ألا يجدر بنا أن نرى الذي أظهره هذا الحلم؟ كانت الأفكار عن الله عند الأقدمين قليلة وفقيرة، إذ كان الكلدانيون يؤمنون بأن الله ترك كل الأرض وسكن في أرضهم فقط. فهؤلاء الذين كانوا يعبدون الأصنام كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة، ووزعوا كل واحد من الشياطين على أرض معينة، واضعين كل شيطان كإله مستبد في كل مدينة، وكانوا يعتبرون أنه لا يمكن لكل المستبدين أن يكونوا في مستوى واحد من التقدير في كل مكان. لذلك، فإن البطاركة الطوباويين، بالرغم من أنهم تخلصوا حديثاً من ضلالات تعدد الآلهة ولديهم يقين بأن يسجدوا للإله الحقيقي وحده بطبيعته، إلّا أنهم كانوا في احتياج للتأكيد على أن الله موجود في كل مكان[٢٥٢] وأنه يمنحهم معونةً ويهتم بهم حتى في الأشياء

[٢٥٢] لقد أكد القديس كيرلس في موضع آخر أن الله هو موجود في كل مكان، إذ يقول: ''إن قوّة وحقيقة وجود الله هي أن يكون حاضرًا في كلّ مكان، وهو يملأ السماء والأرض بطريقة لا يمكن النطق بها، وهو يحتوي كل الأشياء ولا يحتويه شيء. فالله لا يحده مكان ولا تفصله مسافة مهما كانت كبيرة، لأن مثل هذه الأمور لا تستطيع أن تؤثر في تلك الطبيعة التي لا علاقة لها بأبعاد المكان'' شرح إنجيل يوحنا، المجلد الثاني، الإصحاح السابع عشر، ص ٣٨١.

الصغيرة جداً. هكذا تعلم يعقوب الطوباوي واكتسب هذا اليقين الذي كان غائباً في إيمانه، اكتسبه كثمرة لارتحاله.

لقد تعلم أن الله موجودٌ في كل مكان وفي كل موضع. وبالطبع يسكن في السماء لكنه يحرس كل الأرض ويملأ كل المسكونة وتوجد تحت سلطانه كل أرواح السماء التي يأمرها بأن تُسرع إلى فوق وإلى تحت وهو لها الرب والرئيس. لذلك استحوذ عليه الاندهاش وقال: «حقاً إن الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم» (تك ٢٨:١٦). ولأنه اعتقد أن الحجر الذي نام عليه هو سبباً لرؤيته هذا الحُلم، لذا كرّم هذا الحجر وصبّ عليه زيتاً. وبعد ذلك دعا هذا المكان «بيت الله وباب السماء» ودشّن الحجر.

وهذه الأقوال قيلت لنا أيضاً في رموز. لكن إذا نظرنا إلى الموضوع برؤية روحية، نقول إن الشعب الجديد ـــ أي الرسل القديسين ـــ هرب من غضب القتلة، أقصد اليهود، وأُجبر أن يهرب سراً (متخفياً) ويهجر أرضه متنقلاً من مدينة إلى مدينة، لكي يصنع شركة مع حشد الأمم راغباً في أن يكون الأمم معهم في شركة روحية وعبادة عقلية. كما أسرع يعقوب في الذهاب إلى بنات لابان لأن عيسو قد هدّده وشرع في قتله بطريقة وحشية. أيضاً لأن الشعب المؤمن استند على المسيح الذي هو الحجر المختار، حجر الزاوية الكريم، وهذا ما أشير إليه بقوله: «وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه»، تعلّمنا إذاً أن الله لا يترك شعبه وحده في الأرض، بل يرسل إليهم معاونين ومساعدين من الملائكة القديسين الذي يسرعون نزولاً وصعوداً. إذ قال المسيح: «الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو ١:٥١). هذا يعني ما أشار إليه السُلّم ونزول وصعود الأرواح

المقدسة عليه «المرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص» (عب ١:١٤). وفي أعلى السلم كان المسيح جالساً لأن عنده كانت تصل الأرواح المقدسة، وهو بالنسبة لها سيدٌ وربٌّ، فهو ليس مثلها، بل هو الله والرب. أيضاً قال داود عن الإنسان الذي يختار أن يسكن بمعونة العلي: «لأنه يوصي ملائكته بل لكي يحفظونك في كل طرقك. على الأيدي يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك. على الأسد والصل تطأ» (مز ٩١:١١ـــ١٣). وحقاً، أعطانا المسيح السلطان أن ندوس الحيات والأفاعي وكل قوات العدو.

هؤلاء، إذاً، الذين يؤمنون بالمسيح هم مستحقون أن يروا الله ويتصرفوا بشجاعة لأنه سيكون معهم ويعينهم وينقذهم أينما كانوا، وسوف يظهر لهم ثمار إيمانهم. لأنه يقول: «ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨:٢٠).

إن التلاميذ الطوباويين صاروا آباءً لأمم لا تحصى، أقصد بالإيمان بالمسيح وبالولادة الروحية، حيث إن بولس الرسول يقول بكل وضوح لأولئك الذين آمنوا بواسطته: «لأنه وإن كان لكم ربوات من المرشدين في المسيح لكن ليس آباء كثيرون. لأني أنا ولدتكم في المسيح يسوع بالإنجيل» (١كو٤:١٥). لقد صارت ثمارهم لا تُحصى مثل رمل البحر وقد انتشرت وامتدت في الشرق والغرب والشمال والجنوب. أيضاً لقد كرَّم يعقوب الحجر كمثال للمسيح ودشنه حيث مسحه بالزيت. وحقاً مُسح عمانوئيل[٢٥٣] من الله الآب:

---

[٢٥٣] يؤكد القديس إيرينيوس على أن غاية التجسد هو رؤية الله، إذ يقول: "لأجل ذلك فإن غير المُحوَى وغير المُدرَك وغير المَرئي جعل نفسه مرئياً ومُدركاً وقابلاً للاحتواء من الذين يؤمنون به، لكي يُحيي الذين يحتوونه وينظرونه بالإيمان. وكما أن عظمته تفوق الحدود، هكذا صلاحه أيضاً لا يُنطَق به، وبسبب هذا الصلاح الفائق

«مسحك الله إلهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك» (مز ٤٥: ٨). أيضاً قام الرب من الأموات بالرغم من أنه نزل إلى الموت بإرادته. وهذا، كما أعتقد، ما تُشير إليه مسألة أن أقام أو دشَّن الحجر، لأن يسوع المسيح كُرِز به من الرسل القديسين، بأنه ممسوح من الآب بالروح القدس وأنه قائم من الأموات، ذاك الذي له المجد مع الله الآب والروح القدس إلى أبد الآبدين آمين.

جعل نفسه منظوراً، لكي يبث الحياة في الذين يرونه. ذلك لأنه يستحيل أن يحيا أحد بدون الحياة، وجوهر الحياة كائن في الشركة مع الله، والشركة مع الله هي في رؤية الله وتذوُّق صلاحه. إذاً، فالناس (من بعد التجسُّد) يرون الله، لكي يحيوا ويصيروا بهذه الرؤيا غير مائتين ومتصلين بالله!''

Against Heresies IV, 20, 5-6; ANF I, p. 489.

ونحن أيضاً مُسحنا على مثال المسيح كما يؤكد القديس كيرلس الأورشليمي، قائلاً: ''لـمَّا اعتمدتم للمسيح ولبستم المسيح، صرتم ''مشابهين صورة ابن الله'' (رو٨: ٢٩)، لأن الله إذ سبق وعيَّننا للتبنِّي، جعلنا ''مشابهين صورة جسد مجده'' (في٣: ٢١). وأنتم صرتم ''شركاء المسيح'' (عب ٣:١٤)، ولذلك دُعيتُم بحق ''مسحاء *χριστοί*''...، فإن الله يقول عنكم: «لا تمسوا مسحائي.» (مز ١٠٤:١٥) لقد صرتم مسحاء لأنكم قبلتم رسم الروح القدس، وكل شيء قد تم فيكم على صورة ما حدث للمسيح، لأنكم صرتم صوراً للمسيح... أما هو فلما اغتسل في نهر الأردن، ووهب المياه رائحةَ لاهوته، صعد منها وظهر الروح القدس حالاً عليه بجوهره، إذ أن المثيل يستريح على المثيل .وأنتم أيضاً بشبه ذلك لما صعدتم من جرن الماء المقدس قد نلتم مسحة هي صورة لتلك التي مُسِح بها المسيح، وهذا هو الروح القدس«...

NPNF, 2nd Ser., Vol. VII, p. 149.

أمور أخرى عن يعقوب البطريرك

سر المسيح في أقوال القدماء

كوننا نشتهي الأقوال الإلهية ونرغب في تعلّم الأشياء الصالحة، فهذا أمر لا يستطيع أحد أن يشك فيه، إذ هو أفضل من أي شيء آخر، بل هو من الأمور السامية عند الله. لذا هذا الأمر هو جدير بأن نتحدث عنه، فقد علّمنا بهذا الخصوص المخلّص نفسه قائلاً: «أيضاً يشبه ملكوت السموات إنساناً تاجراً يطلب لآلئ حسنة. فلما وجد لؤلؤة كثيرة الثمن مضى وباع ما كان له واشتراها» (مت ١٣: ٤٥ ـــ ٤٦).

إذاً، من الضروري أن نطلب الجواهر الجيدة لعلنا نجد الجوهرة الثمينة والفريدة، أقصد المسيح. وما هي الجواهر الجيدة التي يستحق أن يشتريها المرء وتقود إلى هذه الجوهرة الواحدة، والتي يخبرنا عنها القديسون بفم النبي: «كحجارة مقدسة مرفوعة على أرضه» (زك ٩: ١٦س).

إذاً، يجب أن نبحث بيقظة شديدة كل ما قيل وصار بواسطة القدماء. لأننا سوف نرى بوضوح في هذه الأمور، سر التقوى العميق، أقصد سر المسيح. لأنه يُعلَن بأمثلةٍ بطريقة واضحة وحكيمة. وكذلك سنجد سر التدبير الإلهي المخفي في هذا السر. وطبعاً، هذا السر غامض في العهد القديم. لذلك سوف نتحدث أولاً عن التدبير الإلهي، هذا التدبير الإنجيلي منتقلين مثل النحل على أوراق التاريخ الجميلة، فنجمع ما هو مفيد في كل واحدة من هذه الأوراق لأجل إيضاح حديثنا. وأرجو أن لا يتضايق أحد إذا مررنا بسرعة على أحداثٍ

مكتوبة سبق أن أشرنا إليها، وهى واضحة جداً، بينما نتوقف عند أحداث أخرى لكي نفحصها بدقة؛ لأنها ستكشف لنا مفاهيم عميقة.

مكتوب: «ثم رفع يعقوب رجليه وذهب إلى أرض بني المشرق. ونظر وإذا في الحقل بئر وهناك ثلثة قطعان غنم رابضة عندها. لأنهم كانوا من تلك البئر يسقون القطعان. والحجر على فم البئر كان كبيراً. فكان يجتمع إلى هناك جميع القطعان فيدحرجون الحجر عن فم البئر ويسقون الغنم. ثم يردون الحجر على فم البئر إلى مكانه. فقال لهم يعقوب يا اخوتي من أين أنتم. فقالوا نحن من حاران. فقال لهم هل تعرفون لابان ابن ناحور. فقالوا نعرفه. فقال لهم هل له سلامة. فقالوا له سلامة. وهوذا راحيل ابنته مع الغنم. فقال هوذا النهار بعد طويل. ليس وقت اجتماع المواشي. اسقوا الغنم واذهبوا ارعوا. فقالوا لا نقدر حتى تجتمع جميع القطعان ويُدحرجوا الحجر عن فم البئر. ثم نسقي الغنم. وإذا هو بعد يتكلم معهم أتت راحيل مع غنم أبيها. لأنها كانت ترعى. فكان لما أبصر يعقوب راحيل بنت لابان خاله وغنم لابان خاله أن يعقوب تقدم ودحرج الحجر عن فم البئر وسقى غنم لابان خاله. وقبّل يعقوب راحيل ورفع صوته وبكى. وأخبر يعقوب راحيل أنه أخو أبيها وأنه ابن رفقة. فركضت وأخبرت أباها. فكان حين سمع لابان خبر يعقوب ابن اخته أنه ركض للقائه وعانقه وقبّله وأتى به إلى بيته. فحدّث لابان بجميع هذه الأمور. فقال له لابان إنما أنت عظمي ولحمي. فأقام عنده شهراً من الزمان» (تك ٢٩:١ ــ ١٤).

بعد تلك الرؤيا الفائقة والتي بمقتضاها رأى يعقوب السلم يصل إلى السماء والرب جالس على قمة السلم، والملائكة يصعدون وينزلون وسمع بوضوح أن الله سيكون معه وأن نسله سيصير جمهوراً لا يحصى. وبعد أن أقام الحجر الذي هو

مثال للمسيح، حينئذٍ وهو في قمة شجاعته ورجائه المستند على الله، انطلق بكل قوته للرحيل، ووصل إلى المكان الموجود في الشرق، وفي الحال تعرَّف عليه رعاة كثيرون، وهو نفسه كان من أولئك المتدربين جداً على رعاية الغنم. وكون أنه كان خبيراً في هذا الموضوع، فهذا واضح حين قال: «هوذا النهار بعد طويل. ليس وقت اجتماع المواشي. اسقوا الغنم وأذهبوا أرعوا» (تك ٢٩:٧). لقد تعرّف بابنة لابان معطياً إياها مثالاً لمحبة الخير باعتنائه بسقي الغنم التي ترعاها. لأن راحيل كانت مهذبة ونشأت على عادات حسنة، وكانت لديها كرامة شديدة، إذ كانت عذراء في سن الزواج، فانتظرت حتى يتجمع الرعاة لكي يحركوا الحجر من على فم البئر ثم بعد ذلك تسقي غنمها، وذلك بسبب ضعفها الجسدي كامرأة، في مثل حالتها كعذراء. على الجانب الآخر، لقد قدّم يعقوب مثالاً للمحبة، لأن هذا ما دعا إليه ناموس العطف والحنان (القرابة الجسدية) فكان على يعقوب أن يكون ذا نفع لأقربائه حسب الدم. لذلك سقى غنم راحيل إذ رفع الحجر من على فم البئر بمفرده.

موسى ويعقوب

ومن الضروري أن أتذكر هنا موسى العظيم الذي عندما هرب من أرض المصريين ذهب إلى أرض المديانيين. هناك تقابل مع رعاة ورأى بنات كاهن مديان يثرون ودافع عنهن من بعض الرعاة، واهتم بهن اهتماماً شديداً. ويخبرنا الكتاب عن هذا الأمر هكذا: «فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يُقتل موسى. فهرب موسى من وجه فرعون وسكن في أرض مديان وجلس عند البئر. وكان لكاهن مديان سبع بنات. فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن.

فأتى الرعاة وطردوهن. فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن. فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن قال ما بالكن أسرعتن في المجيء اليوم. فقلن رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة واستقى لنا أيضاً وسقى الغنم. فقال لبناته وأين هو. لماذا تركتن الرجل ادعوه ليأكل طعاماً. فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل فأعطى موسى صفورة ابنته» (خر ٢ : ١٥ ـــ ٢١).

هل أدركت إذاً أن الأحداث متشابهة وقريبة من بعضها، وكذلك المعاني والمفاهيم. فموسى العظيم عندما دافع عن بنات كاهن مديان وأبعد عنهن شر الرعاة وطمعهم، أخرج مياهاً وسقى قطيع يثرون. نفس الأمر كان قد حدث مع يعقوب، إذ أبعد الحجر بمفرده، بالرغم من أن كثيرين لم يكونوا يستطيعون فعل هذا الأمر بدون مشقة، وبنفس الطريقة سقى غنم لابان. ومثلما سكن موسى في بيت رجل وثني، هكذا فعل يعقوب العظيم. لأن لابان كان مازال عابداً للأوثان، هكذا، وبسبب أن الحديث عن يعقوب يشير مسبقاً إلى «عظيم» الشعوب الذي تبررنا بالإيمان به (أي يسوع المسيح)، دعنا نمضي ونكشف الأمور العميقة والخفية ونحن نحلّل هذا التاريخ الغامض.

شعب المسيح الجديد

إن الشعب الذي سيُخلق ـــ وفق كلام المرنم في (مز ١٠٢ : ١٨) «شعبٌ سوف يُخلق» ـــ كيف يكون غير شعب المسيح الجديد، أي ذاك الشعب الذي دخل بالإيمان إلى مجد البكر، وذلك بعد استبعاد الشعب الأول الذي انزلق، أقصد إسرائيل. لأنه صار ذيلاً بينما كان هو الرأس قبل ذلك، وهذا الذي كان

معترَفاً به كشعب أول، صار تابعاً للذين دُعُوا بعده[٢٥٤]. إذ أن اليهود وُضعوا في الخلف بعد الأمم. هكذا شعب المسيح بالإيمان صار متفوقاً إذ خضع لتدبير يعقوب العظيم (أي المسيح). بداية هذا الجنس (الشعب الجديد) هم جماعة الرسل القديسين الذين وُلدوا من دم وجنس يهودي، لكن بسبب أنهم اغتنوا بقبولهم الإيمان بالمسيح، ولبسوا نعمة الروح القدس كإكليل، فإنهم تصادموا مع الذين هم من نفس جنسهم. لذلك، بسبب أن أولئك الذين من نفس جنسهم. امتلئوا بغضب وحشي وشرعوا في قتلهم، لذلك هجروا ليس فقط بيوت أجدادهم لكنهم تركوا أراضيهم التي وُلدوا فيها، أقصد أورشليم أرض اليهودية، وذهبوا إلى أرض الأمم مستندين على المسيح مآزراً لهم ومدافعاً عنهم، وكانت الملائكة تخدمهم، هؤلاء الرسل جعلوا كل رجاؤهم في الرب، مشتهين أن يصيروا «آباء لكثيرين من الأمم» (انظر تك ١٧:٤). لدرجة أن أبناءهم

---

[٢٥٤] كون أن قربان الأمم صار مقبولاً بفضل المسيح – عند القديس كيرلس– فهذا يعني أن المسيح هو الله، وهذا يؤكده القديس كيرلس في شرحه للوقا ١٤:٤ ــ ١٥، إذ يقول: "وأولئك الذين أعتمت قلوبهم منذ القديم بظلمة إبليس، قد أنار لهم بإشراقه كشمس للبر، وجعلهم أبناء لا لليل والظلمة فيما بعد، بل أبناء للنور والنهار كقول بولس الرسول (١ تس ٥:٥). وأولئك الذين كانوا عمياناً "لأن المُضِل أعمى قلوبهم" قد استعادوا بصرهم وعرفوا الحق، وكما يقول أشعياء "صارت ظلمتهم نوراً" (أش ٤٢: ١٦)، أي صار الجُهال حكماء، وأولئك الذين كانوا في الخطية عرفوا مسالك البر، والآب أيضاً يقول للابن في موضع ما " أجعلك عهداً للشعب، لتفتح عيون العمي، لتُخرج من الحبس المأسورين، من بيت السجن الجالسين في الظلمة" (أش ٤٢: ٦، ٧)، لأن الابن الوحيد جاء إلى هذا العالم وأعطى عهداً جديداً لشعبه، الإسرائيليين، الذين منهم وُلد حسب الجسد، وهو العهد الذي أُعلن عنه سابقاً جدّاً بصوت الأنبياء. ولكن النور الإلهي السماوي أضاء أيضاً على الأمم، وذهب وبشّر الأرواح في الجحيم، وأظهر نفسه لأولئك الذين كان مغلقاً عليهم في بيت السجن، وفك قيود الجميع وحررهم من العنف، فكيف لا تبرهن كل الأشياء أن المسيح هو إله وابن الإله بالطبيعة؟". تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق، ص ٨٤.

(الروحيين) تواجدوا في الشرق والغرب وفي الشمال وفي الجنوب، أقصد هؤلاء الذين وُلدوا ثانية بالروح وتبرروا بالإيمان بالمسيح[٢٥٥] بواسطتهم، والذين قال لهم بطرس الرسول: «وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي أمة مقدسة شعب اقتناء لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب. الذين قبلاً لم تكونوا شعباً وأما الآن فأنتم شعب الله الذين كنتم غير مرحومين وأما الآن فمرحومون» (١ بط ٢: ٩ ـــ ١٠).

ولا يستطيع أحدٌ أن يشك أن الكتاب المقدس دعاهم «آباءً لأمم». هكذا ابتعدوا من أرض اليهودية وهجروا الشعب الحقود والشتّام متجهين إلى الأمم وفق وصايا مخلّصنا، وأظهروا أنهم رعاة روحيون يعرفون التعليم بحسب مشيئة الله، إذ أنهم لم يقبلوا البقاء بدون عمل، معتبرين تعليم الإيمان ضرورة موضوعة عليهم. إذ قدّموا للأمم كلمة تعليم المسيح وأقنعوهم أن يفعلوا كل ما هو مفيد. كما فعل يعقوب العظيم لرعاة حاران، إذ كان هو نفسه راعياً، وهذا الأمر يظهر من قوله: «هوذا النهار بعد طويل ليس وقت اجتماع المواشي. اسقوا الغنم واذهبوا ارعوا» (تك ٢٩:٧). هل سمعت أنه أظهر للرعاة كيف يرعون الغنم؟

---

٢٥٥ المرحضة النحاسية كانت ترمز إلى المعمودية المقدسة، للذين تبرروا بالإيمان وهذا ما شرحه لنا القديس كيرلس، قائلا: ''كانت المرحضة موجودة بشكل بارز في المسكن الأول من الخيمة، حيث يغتسل فيها بالماء أولئك الذين يأتون إلى قدس الأقداس. وكان هذا الاغتسال قد فُرض ـــ كقانون ـــ على الكهنة. وهو ما يُظهر نقص ما كان يبدو في الناموس من كمال، معلناً أنّ التطهيرَ، إنما يكون بواسطة المعمودية التي تميِّز الجنس المقدس، أقصد هؤلاء الذين تبرروا بالإيمان، وهم الذين توجّه إليهم التلميذ العظيم بقوله: ''وَأَمَّا أَنْتُمْ فَجِنْسٌ مُخْتَارٌ، وَكَهَنُوتٌ مُلُوكِيٌّ، أُمَّةٌ مُقَدَّسَةٌ، شَعْبُ اقْتِنَاءٍ، لِكَيْ تُخْبِرُوا بِفَضَائِلِ الَّذِي دَعَاكُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى نُورِهِ الْعَجِيبِ'' (١ بط٢: ٩)''. القديس كيرلس السكندري، العبادة بالروح والحق، مرجع سابق، المقالة العاشرة، ص ٤٠٠.

هذا بالضبط ما أعلنه التلميذ الحكيم لشيوخ الشعب، أقصد للأساقفة، لأنه يقول: «أطلب إلى الشيوخ الذين بينكم أنا الشيخ رفيقهم والشاهد لآلام المسيح وشريك المجد العتيد أن يعلن. ارعوا رعية الله التي بينكم نُظاراً لا عن اضطرار بل بالاختيار ولا لربح قبيح بل بنشاط» (١ بط ٥: ١ — ٢). وكذلك ذهبوا إلى كل بلدة ومدينة، مقنعين الجموع بأن يقيموا رُعاةً كثيرين آخرين، لكي يعتنوا بالخراف العقلية (الناطقة) λογικῶν προβάτων ويرعوها مثل الراعي الصالح في مكان خصبٍ، ويقودوها إلى مراعٍ خضرٍ مليئة بالورود، أي إلى الكتاب المقدس[٢٥٦]. لأن كلمة الله هي غذاءٌ كافٍ لحياة النفس. إذاً يجب أن يُقال للرعاة الروحيين: احرص بأن تكون السهول خصبة وبها خضرة، اهتم بالخضرة واجمع العشب في ساعته المناسبة لكي يكون لك غنم حقلك. لقد قَبِل الأمم التلاميذ العظام لأنهم برهنوا لهم (أي للأمم) أنهم قادة لرُعاتهم، أي لحكمائهم ولمعلّميهم مقدِّمين للسامعين التعليم الحقيقي. وكون أن التلاميذ علّموا بأكثر قوة وأفضل من الرعاة المحليين (أصحاب المكان)، فهذا يمكن للمرء أن يعرفه بسهولة جداً، حين يتذكر أن البئر كان مغطى بحجر ثقيل بالكاد يستطيع أن يحركه رعاةٌ كثيرون. لكن هذا الأمر فعله يعقوب بمفرده. لكن ماذا يعني

---

[٢٥٦] هناك حاجة ماسة لأن يدخل المرء في روح الكتاب لكي يفسره تفسيرًا صحيحًا، وهذا لا يصير بدون فعل الروح القدس. يُشدد العلامة أوريجينوس في إحدى عظاته قائلاً "لا يستطيع أحد أن يكشف بسهولة المعاني والرموز الموجودة في قصة أبيمالك وسارة. يجب أن نصلي كلنا معًا لكي ينقشع البرقع الذي يغطي قلوبنا وذلك بالروح. الرب هو الروح. يجب أن نصلي إليه لكي يرفع عنا برقع الحرف ويظهر لنا بريق روحه". P.G.12,195

البئر؟ وما هو الحجر؟ فلنمض لنقول هذا الأمر بقدر استطاعتنا. لأننا سنرى هكذا تفاوت قوة الرعاة، وتفوق وعظمة وإدراك تلاميذ المخلّص.

الماء يشير إلى الكلمة الإلهية

يشبِّه الكتابُ المقدس معرفة الله بالماء. وقد أعلن المخلّص إن معرفة الله تمنح الحياة الأبدية قائلاً لأبيه السماوي: «هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو ١٧:٣). وقال للمرأة السامرية: «لو كنتِ تعلمين عطية الله ومن هو الذي يقول لك أعطيني لأشرب. لطلبت أنت منه فأعطاك ماءً حياً» (يو ٤:١٠). وقد دعا الرب تعليمه بأنه مُحيي، قال أيضاً: «إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب» (يو٧:٣٧). وأدان أناس اتبعوا ــ عن جهلٍ ــ معلّمين آخرين، ومالوا ناحية تعاليم ووصايا الناس، حسب قوله (بالنبي) «ابهتي أيتها السموات من هذا واقشعري وتحيري جداً يقول الرب. لأن شعبي عمل شرين. تركوني أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم آباراً مشققة لا تضبط ماء» (إر٢:١٢ ــ ١٣).

إذاً، فالماء الحي هو الكلمة الإلهية الموجودة في الأعماق، ولا أعتقد أنه يمكن للمرء أن يتزود به بدون بذل جهد. لأن الكلمة لا تعطي ذاتها لأي أناس لمجرد أنهم يريدونها، طالما أن الغموض الموجود حولها يحجب معناها كأنه حجر ثقيل ويصعب تحريكه. لذلك، فإن كان الذهن خاملاً لا يستطيع أن يزيل هذا

الغموض، فالذين يرعون الخِراف الناطقة[٢٥٧] τὰ νοητὰ يلزمهم تعب وجهاد كثير لكي يزيلوا الغموض عن الناموس، ويحضرونه من العمق، ويظهرونه على السطح، ويقدمونه واضحاً للمستمعين ليتمتعوا به، ويحفظونه في حياقم. لكن رُعاة اليونانيين أي الفلاسفة والخطباء الكثيرين، يسببون إزعاجاً شديداً من جهة التعاليم المتعلقة بالله. إذ يعلّمون بأمور ليست مستقيمة، ويعترفون (بوجود) الله لكنهم ينسبون للألوهية ما يروق لهم. وعلى النقيض من ذلك، فإن راعياً واحداً من رُعاة المسيح يستطيع أن يحرك الحجر الثقيل من على فم البئر، أقصد غطاء الغموض الذي يحجب بئر التعاليم الخاصة بالله[٢٥٨]. وهكذا فإن تلاميذ المسيح

---

٢٥٧ إن المعنى العميق للتجسد وقوّة السر العميق يعلنه فينا الروح القدس ويجب على المعلمين أن يعلموا بهذا التعليم فالخراف العقلية تحتاج لهذا الغذاء من التعليم. فالرسول بولس يوضّح لنا أن روح المسيح الساكن في القديسين، يحقق فيهم حضور المسيح نفسه، ويهبهم قوته، إذ يكتب قائلاً: "بِسَبَبِ هذَا أَحْنِي رُكْبَتَيَّ لَدَى أَبِي رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي مِنْهُ تُسَمَّى كُلُّ عَشِيرَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَعَلَى الأَرْضِ. لِكَيْ يُعْطِيَكُمْ بِحَسَبِ غِنَى مَجْدِهِ، أَنْ تَتَأَيَّدُوا بِالْقُوَّةِ بِرُوحِهِ فِي الإِنْسَانِ الْبَاطِنِ، لِيَحِلَّ الْمَسِيحُ بِالإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ، وَأَنْتُمْ مُتَأَصِّلُونَ وَمُتَأَسِّسُونَ فِي الْمَحَبَّةِ، حَتَّى تَسْتَطِيعُوا أَنْ تُدْرِكُوا مَعَ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ، مَا هُوَ الْعَرْضُ وَالطُّولُ وَالْعُمْقُ وَالْعُلْوُ، وَتَعْرِفُوا مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ الْفَائِقَةَ الْمَعْرِفَةِ، لِكَيْ تَمْتَلِئُوا إِلَى كُلِّ مِلْءِ اللهِ" (أفسس٣:١٤ــ١٩). لذلك يقول القديس كيرلس: "يجب أن نوضّح أنه حينما قال الرب إن كل شيء سيُعلن لهم بالروح القدس، فهو لا يسلّمهم إلى معلّم آخر ــ لا تفكروا هكذا ــ بل هو يحفظهم معه بواسطة الروح، بعد أن يصير غير منظور بعين الجسد بل بالحزي يتم التفرّس فيه كإله برؤية القلب العقلّية" شرح إنجيل يوحنا، المجلد الثاني، الإصحاح الرابع عشر، ص ٢٣١.

٢٥٨ سبق للعلامة أوريجينوس توضيح هذه الحقيقة –بطريقة مختلفة– في عظته الأولى على سفر الخروج: "أعتقد أن كل كلمة في الكتاب المقدس تشبه بذرة من طبيعتها أن تنتشر وتتغلغل وتتكاثر، ويُعاد ولادها ــ أي تثمر سنبلة حنطة أو أي نوع من جنسها، إذا ما أُلقيت في الأرض. وكلما بُذل الجهد والعرق في إنبالها كلما كان تكاثرها سريعًا خاصةً إن كان الزارع نشطًا ومتحمسًا دؤوبًا أو كانت الأرض خصبةً. لهذا حين يكون الزارع نشيطًا فإن "حبة الخردل" الصغيرة مثلاً "التي هي أصغر الحبوب جميعًا، قد تصير أكبر من كل الأعشاب وتصير شجرة تأتي إليها طيور السماء وتسكن بين أغصانها" (أنظر مت١٣:٣١ــ٣٢). هكذا الأمر أيضًا مع الكلمة التي قُرئت على مسامعنا الآن من الأسفار الإلهية. وبالرغم من أنها تبدو لنا من أول وهلة صغيرة حين ندنو منها، فإنها

كشفوا الحقيقة بوضوح للأمم. ولم يهملوا إثبات حقيقة وجود الإله الواحد الحقيقي. فعندما ذهب بولس الرسول إلى أثينا قدّم الماء الحيّ للخطباء قائلاً: «أيها الرجال الأثينيون أراكم من كل وجه كأنكم متدينون كثيراً. لأنني بينما كنت أجتاز وأنظر إلى معبوداتكم وجدت أيضاً مذبحاً مكتوباً عليه الإله المجهول. فالذي تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنادي لكم به» (أع١٧: ٢٢ ــ ٢٣).

ألا ترى هنا أنه بالرغم من كونهم فلاسفة ورؤساء ورعاة ومعلّمي الأثينيين، فإنهم بصعوبة شديدة استطاعوا أن يُحركوا الحجر الثقيل الذي كان على فم بئر التعاليم الخاصة بالله، معتقدين أنهم يؤمنون بالله لمجرد أنهم يحترمونه، بيد أنهم أخطأوا تجاه الحق، لماذا؟ لأنهم بنوا قبراً وكتبوا عليه: «الإله المجهول»، أي الذي لم يكن معروفاً بالنسبة لهم. وقد اعتقدوا أنهم قد اختاروا بذلك ــ على صواب ــ مجد الله، لكن بولس العظيم استخدم هذه العبارة وأظهر شيئاً مفيداً، قائلاً لهم إن الإله المجهول هو المسيح، إذ يقول «فالذي تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادي لكم به».

أرأيت كيف أنه كشف البئر ورفع الحجر، وقدّم لهم المعرفة الحية؟

إن وجدت مزارعًا دؤوبًا نشطًا وحاذقًا، يبدأ في زراعتها واستصلاحها وتناولها بالمهارة الروحية، فهي تنمو شجرة يافعة تطرح أغصانها وأوراقها النضرة. ويمكن أن يأتي إليها مباحثو هذا الدهر وحكماؤه ومناظروه (١كو١: ٢٠) ومثل "طيور السماء" على أجنحة النسور الخفيفة يطلبون الأفكار العالية العسرة بتدفق الكلمات وحدها. وإذ تأسرهم المباحثات، يرغبون أن "يسكنوا في تلك الأغصان" (مت١٣: ٣٢) حيث لا بلاغة في اللغة بل نظام حياة".

The Father of the Church, Origen, Homilies on Gensis and Exodus, Translated by Ronald E. Heine, volume 71, P. 227.

إذاً الاختلاف بين فكر هؤلاء الرُعاة وفكر رُعاة المسيح هو اختلاف كبير جداً. لأن أولئك الفلاسفة بالرغم من أنهم كانوا كثيرين جداً، إلّا أنهم يأتون في المرتبة الثانية بعد المؤمنين بالإله الحقيقي، إذ أن غموض تعاليمهم الناتج عن انجذابهم إلى أهوائهم يجعلهم عاجزين بينما بولس الرسول بالرغم من أنه كان بمفرده، فإنه كشف لهم الحق.

رعية المسيح واحدة، يهود وأمم

والآن نعود إلى يعقوب الذي أبعد الحجر وسقى غنم راحيل، واعتبر راحيل جديرة بأن يحبها. إذ يقول: «وأحب يعقوب راحيل» (تك ٢٩:١٨)، وقد قبله لابان وأتى به إلى بيته، وقال له: «إنما أنت عظمي ولحمي» (تك ٢٩:١٤). وهكذا رحّب لابان بابن اخته وقبله بمحبة وجعله ضمن أهل بيته. اسم راحيل يعني «رعية الله Θεοῦ Πρόβατον » ويمكن للمرء أن يعتبرها رمزاً لكنيسة الأمم. إذ أنها رعية المسيح، هذا الخروف الذي دخل ضمن الرعية القديمة واستقبله في حظيرة المخلص. لذلك قال: «ولي خراف أُخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراع واحد» (يو ١٠:١٦).

التلاميذ العظماء كانوا يرعون كنيسة المسيح، أي الخراف العقلية المنضمة إليها، وحسناً صاروا عاشقين لها وقدموها كعروس إلى الله، عذراء عفيفة طاهرة «لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك بل تكون مقدسة وبلا عيب» (أف ٥:٢٧).

كان لبني إسرائيل في بداية جنسهم فروعٌ من الأمم، وهذا ما نعرفه من كلام لابان. لأنه بينما كان رجلاً وثنياً، فإنه قَبِل يعقوب وقال إنه كان قريباً بصلات الدم. ودعا ابن رفقة بأنه عظمه ولحمه. وإبراهيم الطوباوي أيضاً دُعِيَ عندما كان أغلفاً في أرض الكلدانيين، وهؤلاء كانوا وثنيين، ونال علامة الختان كختم يؤكد على بره، وذلك على أساس إيمانه الذي كان له قبل الختان، كما هو مكتوب (انظر رو٤: ١١). بالتالي فإن بِكر إسرائيل صار واحداً مع الأمم رغم أنه كان يتميز عن الأمم بالناموس. هكذا الاثنان (اليهود والأمم) صارا واحداً بالإيمان بالمسيح، فهذا الإيمان رفع الحاجز الذي كان في الوسط مبطلاً الناموس المكتوب (انظر أف٢: ١٤)، وأيضاً الختان الذي كان يفصل اليهود والأمم عن بعضهما. لقد تجددنا وصِرنا إنساناً جديداً[٢٥٩]، جسداً واحداً ونفساً واحدةً، كلنا: أمماً ويهوداً، وصِرنا متحدين في وحدة روحية. لأن المسيح قال للآب السماوي: «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد» (يو ١٧: ٢١). لأنه هو سلامنا الذي نقض الحاجز المتوسط ـــ كما قلت ـــ ورفع من الوسط الحاجز الذي كان يفصلنا، وربطنا

---

259 *Ἀνεκαινίσθημεν γὰρ εἰς ἕνα καινὸν ἄνθρωπον*

المسيح حقاً هو مثال للشركة التي لا تنفصم والوفاق والوحدة، كما يؤكد القديس كيرلس، قائلاً: «إن المسيح حينما يبرز أمامنا وحدة الآب الجوهرية معه، ووحدته هو مع الآب، كصورة ومثال للشركة التي لا تنفصم والوفاق والوحدة التي توجد في النفوس القريبة لبعضها البعض، فهو يريدنا أن نندمج ـــ بطريقة ما ـــ بعضنا مع بعض بفعل القوَّة التي من الثالوث القدوس المساوي، حتى يصير جسم الكنيسة كله واحداً حقيقة، مرتفعين في المسيح بواسطة اندماج ووحدة شعبين ليصيرا واحداً كاملاً». شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، الجزء التاسع، الإصحاح السابع عشر ص ٢٢٢.

في وحدة وثيقة بواسطة الروح. وهكذا، فإن احتضان لابان ليعقوب واعترافه بأنه عظمه ولحمه هو إشارة واضحة لوحدة الشعبين الروحية بواسطة الإيمان.

أيضاً يوجد شيء آخر بالإضافة لكل هذه الأمور دعنا نذكره من الكتب المقدسة، فإننا نقرأ هكذا: «ثُمَّ قَالَ لابَانُ لِيَعْقُوبَ: ألأنَّكَ أخِي تَخْدِمُنِي مَجَّانا؟ اخْبِرْنِي مَا اجْرَتُكَ. وَكَانَ لِلابَانَ ابْنَتَانِ اسْمُ الْكُبْرَى لَيْئَةُ وَاسْمُ الصُّغْرَى رَاحِيلُ. وَكَانَتْ عَيْنَا لَيْئَةَ ضَعِيفَتَيْنِ وَأمَّا رَاحِيلُ فَكَانَتْ حَسَنَةَ الصُّورَةِ وَحَسَنَةَ الْمَنْظَرِ. وَأحَبَّ يَعْقُوبُ رَاحِيلَ فَقَالَ: اخْدِمُكَ سَبْعَ سِنِينٍ بِرَاحِيلَ ابْنَتِكَ الصُّغْرَى. فَقَالَ لابَانُ: إنْ اعْطِيَكَ ايَّاهَا احْسَنُ مِنْ انْ اعْطِيَهَا لِرَجُلٍ اخَرَ. اقِمْ عِنْدِي. فَخَدَمَ يَعْقُوبُ بِرَاحِيلَ سَبْعَ سِنِينٍ وَكَانَتْ فِي عَيْنَيْهِ كَأيَّامٍ قَلِيلَةٍ بِسَبَبِ مَحَبَّتِهِ لَهَا. ثُمَّ قَالَ يَعْقُوبُ لِلابَانَ: «اعْطِنِي امْرَاتِي لانَّ ايَّامِي قَدْ كَمُلَتْ فَادْخُلَ عَلَيْهَا. فَجَمَعَ لابَانُ جَمِيعَ اهْلِ الْمَكَانِ وَصَنَعَ وَلِيمَةً. وَكَانَ فِي الْمَسَاءِ انَّهُ اخَذَ لَيْئَةَ ابْنَتَهُ وَاتَى بِهَا الَيْهِ فَدَخَلَ عَلَيْهَا. وَأعْطَى لابَانُ زِلْفَةَ جَارِيَتَهُ لِلَيْئَةَ ابْنَتِهِ جَارِيَةً. وَفِي الصَّبَاحِ اذَا هِيَ لَيْئَةُ. فَقَالَ لِلابَانَ: مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِي! الَيْسَ بِرَاحِيلَ خَدَمْتُ عِنْدَكَ؟ فَلِمَاذَا خَدَعْتَنِي؟ فَقَالَ لابَانُ: لا يُفْعَلُ هَكَذَا فِي مَكَانِنَا انْ تُعْطَى الصَّغِيرَةُ قَبْلَ الْبِكْرِ. أكْمِلْ أسْبُوعَ هَذِهِ فَنُعْطِيَكَ تِلْكَ أيْضاً بِالْخِدْمَةِ الَّتِي تَخْدِمُنِي ايْضا سَبْعَ سِنِينٍ أخَرَ. فَفَعَلَ يَعْقُوبُ هَكَذَا. فَأكْمَلَ اسْبُوعَ هَذِهِ فَأعْطَاهُ رَاحِيلَ ابْنَتَهُ زَوْجَةً لَهُ. وَأعْطَى لابَانُ رَاحِيلَ ابْنَتَهُ بَلْهَةَ جَارِيَتَهُ جَارِيَةً لَهَا. فَدَخَلَ عَلَى رَاحِيلَ أيْضاً. وَأحَبَّ أيْضا رَاحِيلَ اكْثَرَ مِنْ لَيْئَةَ. وَعَادَ فَخَدَمَ عِنْدَهُ سَبْعَ سِنِينٍ أخَرَ» (تك ١٥:٢٩ ــ ٣٠).

الهدف من الزواج قديماً

ما قيل في هذه القصة لا يحتاج لأي شرح، لأنه لا يوجد فيها أمر متناقض، إلَّا إذا أشار أحد إلى الأمر الذي يُسّر به أولئك الذين اعتادوا أن ينتقدوا المكتوب. فنحن لا نعتبر مسألة زواج أحد بامرأتين ـــ حتى لو كانتا أختين ـــ ويعيشا معه في بيته، أنه أمر غير مناسب، لأنه بالنسبة للقدماء كان هدف الحياة والزواج هو ولادة أطفال كثيرين، إذ كانوا يعتبرون هذا الأمر أسمى من التنعم والرفاهية، والعلاقة الجسدية للمرء مع امرأتين أو حتى أكثر ليس هدفها الانبهار الظاهري بالمرأة، بل لزيادة النسل ليصير جمعاً لا يُحصى. لذا كان القدماء يعتبرون ولادة الأطفال بركة من الله. وأيضاً رب الجميع قد وعد الأقدمين والقديسين ـــ قبل موسى ـــ بمنح هذه العطية، وكذلك الذين قبلوا تعليم الناموس، إذ قال: «مباركاً تكون فوق جميع الشعوب. لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك» (تث ٧: ١٤). هذه الأقوال ليست بمثابة قانون، بل هي وعود يتطلب تحقيقها حفظ ناموس الله. إذن، الأمر يعتمد علينا نحن، أما الأمر الذي يسير وفق نواميس الطبيعة فلا يتوقف سريانه علينا.

إذن، من الواضح لأي إنسان، أن الخالق يأمر هكذا بطريقة آلية أن لا يوجد عقيم ولا عاقر من بين بني إسرائيل، بل إذا صرتم حافظين للناموس، فإنكم ستكونون مثمرين ويتحقق الوعد. وهكذا فإن، الإنجاب الكثير بالنسبة للقدماء هو موضوع هام جداً، ويكتسب الإنسان بمقتضاه سمعة طيبة.

نحن نفضِّل ما هو أسمى من الزواج

من جهتنا نحن المؤمنين بالمسيح، فيجب أن نكون مثمرين روحياً، بدون أن نعتبر الزواج غير مكرم، بل نحن نفضِّل ما هو أسمى من هذا الزواج، والمتوَّج بقرار عظيم في الكتاب المقدس، أي إذا فضَّلنا أن نكرس حياتنا كلها لله ولا نهتم بأمور هذا العالم كما قال بولس الرسول: «فأريد أن تكونوا بلا همّ. غير المتزوج مهتم في ما للرب كيف يرضي الرب. وأما المتزوج فيهتم في ما للعالم كيف يرضي امرأته» (١ كو ٣٢:٧ ــ ٣٣).

الرؤية الروحية للنص

يكفي كل ما قلناه في هذا الموضوع، لذا دعونا نمضي في الحديث عن رؤيتنا الروحية محولين ذهننا إلى المواضيع الروحية ومتذكرين أن تعب الرسل القديسين لأجل الكرازة لم يكن بدون أجر، أو بدون مكافأة، لأن لابان قال ليعقوب: «ألأنك أخي تخدمني مجاناً». أيضاً اعتبر التلاميذ العظماء جمهور الذين آمنوا أنهم افتخارهم العظيم. هكذا قال لهم بولس: «فرحي ومجدي» (في ٤ :١). أيضاً أريد أن أذكركم بأمر هام وضروري ذُكِر في البداية، إن شخص يعقوب يشير روحياً أحياناً إلى الرسل القديسين، إذ صار بدايةً لأولئك الذين تقدسوا بالروح وتبرروا بالإيمان، وأحياناً يشير إلى المسيح كبداية للبشرية التي تجددت ونالت عدم الفساد ἀφθαρσίαν، أي كبِكر بين اخوة كثيرين (انظر رو ٢٨:٨)، وكآدم ثانٍ وجذر ثانٍ للجنس البشري[٢٦٠] ὡς δεύτερος Ἀδὰμ καὶ ῥίζατοῦ

٢٦٠ يشدد القديس كيرلس على أن المسيح هو الله من منطلق التدبير الخلاصي الذي أتمه الابن لأجل خلاص العالم، فما كان لنا أن ننعم بغفران الخطايا إن لم يكن المسيح هو الله، وينطبق هذا على بقية النِعَم الإلهية التي

γένους δευτέρα. إذن، رؤيتنا الروحية يجب أن تتجه إليه لأن الابتعاد عن هذا المسار يجعل تفسيراتنا الروحية عقيمة وبلا نعمة. إذن، فيعقوب يشير إلى عمانوئيل العريس السماوي الذي أخذ ابنتي لابان ولكن ليس بدون تعب. إن الصفة الخاصة (بالله) الذي هو أعظم من كل الطبائع هي أنه يستطيع أن ينجز ما يريده بدون تعب. وأشعياء الطوباوي قال: «أما عرفت أم لم تسمع. إله الدهر الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا. ليس عن فهمه فحص» (أش ٤٠:٢٨). الله ليس في احتياج لشيء، بل هو كلّي الكمال وهو لا يحتاج لشيء من الخارج يعضده ويقويه، كما أنه لا يخضع لناموس الأجساد التي تتقوى بالأغذية والمشروبات، بل أنه هو القوي بطبيعته. لذلك هو يثبِّت السموات ويعطي القوة للذين يختارهم. وبالرغم من أنه لا يحزن بطبيعته، رغم أنه قيل عنه إنه حزن؛ لأنه قال مرةً لأم اليهود، أي المجمع: «أحزنتني في كل هذا» (حز١٦:٤٣س)، وقال بولس الرسول أيضاً: «ولا تحزنوا روح الله القدوس الذي به ختمتم ليوم الفداء» (أف ٣:١٤)، هكذا أيضاً عندما يُقال إنه تعب، فليس ذلك لأنه شعر بالألم والتعب. أما أي إنسان منا، فإنه عندما ينجز أشياء عظيمة باجتهاد وتعب، فمن الطبيعي أن يعاني من آلام رهيبة وشديدة. أما الطبيعة الإلهية

حصلنا عليها مؤكداً أنه آدم الثاني، إذ يقول أثناء شرحه لإنجيل يوحنا: "فالذي صوّرته هذه الرموز بشكل غامض أي الحمل نفسه، والذبيحة التي بلا عيب، قد جاء لكي يقاد إلى الذبح لأجل الكلّ، لكي يرفع خطيّة العالم، لكي ما يبيد المُهلِك من الأرض. وعندما يموت عن الكلّ، يبيد الموت، ويُبطل اللعنة التي لحقت بنا، ويضع حداً لما قيل " لأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ" (تك ٣:١٩). وبذلك يصبح آدم الثاني، ليس "من التراب" وإنما من السماء، ويصبح بداية كلّ الصالحات للطبيعة الإنسانية، ومحرّر الإنسان من الفساد الدخيل، ومانح الحياة الأبدية، وأساس المصالحة مع الله، وبداية التقوى والبِّر، والطريق لملكوت السموات". شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، المجلد الأول، ص١٥٢ ـــ ١٥٣.

غير المعرضة للتألم فهي ليست مثل طبيعتنا، بل هي أسمى من كل الخليقة وهى مكتفية بذاتها وهى تستند على جلالها، لذلك ونحن نفسر هذه الأحداث وننتقل من الأمور البشرية إلى المفاهيم الروحية السامية، فلا ينبغي أن نظن أن الطبيعة الإلهية هي مثل الطبيعة البشرية تتعرض للتعب والمشقة مثل طبيعة يعقوب، بل هي متحررة من أي تعب[٢٦١].

غاية الحياة بحسب الناموس هي المسيح

حسناً، ليس بدون أجر ولا بدون مشقة أقام الله مجمع اليهود الأول الذي ترمز إليه ليئة. لأن اسم «ليئة» يعني «التي تتعب وتتجدد κοπιῶσα καὶ ἀνανεουμένη». إذ تعب اليهود تحت ثقل المصريين ونير العبودية الذي لا يُطاق. لكن (ليئة) تجددت وأتت مرةً ثانية إلى التقوى لأبيها وتغيَّرت من العبادة الوثنية إلى معرفة الإله الحقيقي. لأنه قال لهم بواسطة موسى: «اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد» (تث ٦:٤) و«لا يكن لك آلهة أخرى أمامي» (خر ٢٠:٣).

كان الرب في البداية يشتهي كنيسة الأمم التي تشير إليها راحيل، لذلك قال لموسى عن مجمع اليهود: «رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة. اتركني فأبيدهم وأمحو اسمهم من تحت السماء وأجعلك شعباً أعظم وأكثر منهم» (تث٩:١٣ــ١٤).

---

[٢٦١] كانت مشكلة الهراطقة هي أنهم يريدون إخضاع الطبيعة الإلهية للمقاييس البشرية، ويؤكد القديس كيرلس على سمو الطبيعة الإلهية، في حواره حول الثالوث، قائلاً: "فالابن لا يخضع لمقاييسنا نحن العبيد كما أنه لا يوجد تحت نير، لكن له الطبيعة الإلهية الفائقة العلو والتي تسمو على كل الخلائق" حوار حول الثالوث، الجزء الثالث، الحوار الرابع ص ٢٩.

كان من الضروري أن لا يُسرع هؤلاء اليهود ذوو العقل الطائش والخفيف مباشرةً إلى الكمال والتربية (في المسيح) التي هي أسمى من عقولهم وتدبيرهم، أي التربية الإنجيلية، لكن بالحري كان من الضروري أن يتعلّموا أولاً تعاليم أدنى، وهكذا أعطى لهم الحياة بحسب الناموس كتدريب لهم وإعداد للحياة في المسيح (غلا ٤ ٢:٣)[٢٦٢].

إذن، فالعريس السماوي اشتهى في البداية العروس الأسمى، أقصد كنيسة الأمم، لكنه قَبِل في بيته أولاً، العروس الكبيرة، ليس بدون تعب. إذ خدم يعقوب لأجل ليئة. أمَا وأن الشعب الإسرائيلي قد تحرر من عبودية المصريين بأتعاب كثيرة، فهذا واضح جداً. لأن العالم كله كان يحاربهم. هكذا، خدمة يعقوب لم تكن بدون تعب، بل هي صورةٌ ومثالاٌ لإسرائيل الذي لن يتحرر بدون مشقة، وسوف يصير شعباً لله بعبادة الناموس. وعندما اكتملت سبع سنوات للكبيرة، أخذ راحيل إلى بيته، أي الأسمى التي كان قد اشتهاها منذ البداية. لأن كنيسة الأمم هي «رعية الله»، وهذا هو تفسير اسم «راحيل» ـــ كما قلت من قبل ـــ التي دُعيت في الترتيب الثاني بعد الأولى. وكون أن المسيح تعب لأجلها، فهذا ما يرمز إليه تعب يعقوب سبع سنين من أجل راحيل. لأنه علينا أن ننظر للابن ليس

[٢٦٢] كما قال بولس الرسول: ''كان الناموس مؤدبنا إلى المسيح'' (غلا ٣ :٢٤). إن دور الناموس كان مثل دور المربي، وهذا ما أكده القديس كيرلس، في موضع آخر، حين قال: '' يتميز الكتاب المقدس بالدقة، ولا يوجد فيه شيءٌ بلا فائدة. بل لعلك تلاحظ كيف أنّ الرمزَ يُظهر لنا أنّ الناموسَ إنما يعمل كمربي يقودنا إلى المسيح. ويتضح لنا هذا من أنّ مذبحَ العبادة الناموسية قد وُضع بالقرب من المداخل التي تؤدى إلى قدس الأقداس. أي أنّ الناموس يقودنا إلى بداية أسرار المسيح، وإلى مبادئ الدخول لمعرفته الدقيقة. لكن لا يقودنا أبداً إلى قدس الأقداس، أي إلى الخيمة الداخلية حيث يوجد المسيحُ الفائق الجمال، كلمة الله، والنور، والخبز الحي، والرائحة الذكية لله الآب''. السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، المقالة العاشرة ص ٤٠٠.

فقط على أنه إله بطبيعته -لا يتعب- بل على أنه الابن المتأنس[٢٦٣]، لأنه تألم أولاً عندما حَكَمَ عليه بيلاطس، جرَّاء دسائس الفريسيين ووشايات الرؤساء، وبُصق على وجهه ولُطم وضُرب على ظهره، كما تألم من شتائم الجنود، وفي النهاية مات على الصليب.

كان لابان مازال عابداً للأوثان، وكان له ابنتان هما ليئة وراحيل. إذن، فالاثنتان أتتا من الأمم، لأن إبراهيم العظيم هو نفسه وُلد من جنسٍ أممي. فالأولى تشير إلى مجمع اليهود، والثانية هي الأسمى، أي الكنيسة. عينا ليئة كانتا ضعيفتين وكليلتين، أما راحيل فعلى النقيض كانت حسنة المنظر وجميلة جداً من جهة الشكل. وقال المسيح للرسل عن اليهود: «أتركوهم هم عميان قادة عميان»، و«ولكن طوبى لعيونكم لأنها تبصر. ولآذانكم لأنها تسمع» (مت ١٥:١٤، ١٣:١٦).

إذن، عينا ليئة تشيران إلى ضعف المجمع اليهودي وعدم قدرته على أن يرى الله، بينما جمال راحيل يرمز إلى الحكمة والتعقل واللطف العظيم جداً الذي لمؤمني المسيح من جهة الفهم والإدراك، وكذلك من جهة عملهم البهي واللامع. وكلام الأنبياء يصرخ نحو أم اليهود: «لأن عينيك وقلبك ليست إلّا على خطفك وعلى الدم الزكي لتسفكه وعلى الاغتصاب والظلم لتعملهما» (إر٢٢:١٧)، بينما يدعو المسيح الكنيسة التي من الأمم ويقول عنها: «ها أنت جميلة يا حبيبتي

---

٢٦٣ والمفسر لابد أن يميز بدقة مفهوم الكلمات ويتعرف على المسيح "الإله الإنسان". وهذا الأمر قد شرحه القديس أثناسيوس بوضوح في رسالته الثانية إلى سرابيون فقرة ٨ ص ١٠٥: "يجب إذن مَنْ يقرأ الكتاب، أن يفحص ويميِّز متى يتكلم (الكتاب) عن ألوهية الكلمة، ومتى يتكلم عن أموره الإنسانية، لئلا يُفهم أحدهما بدل الآخر، فنقع في نفس الخلط الذي سقط فيه الأريوسيين".

ها أنت جميلة عيناك حمامتان» (نش ٤ :١)، وأيضاً: «الملك يشتهي حسنك» (مز ٤٥ :١١).

بالتالي، فإن الرب اتخذ في البداية مجمع اليهود كعروس، وكان موسى هو الوسيط وكذلك الملائكة كوسطاء، بينما كان يوحنا المعمدان هو الوسيط في اتخاذ المسيح كنيسة الأمم عروساً ثانيةً له. لذلك قال معبّراً عن هذا الزواج الإلهي والعقلي: «من له العروس فهو العريس. وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذاً فرحي هذا قد كمل. ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص» (يو ٣ :٢٩ ــ ٣٠).

أيضاً، فإن العطية التي تُعطى للعروس هي الرحمة والأمانة. لأن الذي أتى من الأعالي ومن السماء يقول ــ بفم الأنبياء ــ للكنيسة التي من الأمم: «وأخطبك لنفسي إلى الأبد وأخطبك لنفسي بالعدل والحق والإحسان والمراحم. أخطبك لنفسي بالأمانة فتعرفين الرب» (هو ٢ :١٩ ــ ٢٠).

لأنه تزوج ــ كما قُلت سابقاً ــ قبل كنيسة الأمم، بالكبرى، لكن الخُطبة وقوة الاتحاد لم تكن ثابتة. لأنه قال أيضاً عنها: « ليست امرأتي وأنا لست رجلها» (هو٢ :٢) وأيضاً: «أين كتاب طلاق أمكم التي طلقتها» (أش٥٠ :١). لقد طردها لأنها زنت وكانت مذنبة لأنها فعلت أفعالاً لا تليق. إذ قال مرة عنها: «إذا طلق رجل امرأته فانطلقت من عنده وصارت لرجل آخر فهل يرجع إليها بعد. ألا تتنجس تلك الأرض نجاسة. أما أنت فقد زنيت بأصحاب كثيرين. لكن ارجعي إليّ يقول الرب. ارفعي عينيك إلى الهضاب وانظري أين لم تُضاجعي. في الطرقات جلست لهم كإعرابي في البرية ونجسّت الأرض بزناك وبشرّك. فامتنع الغيث ولم يكن مطر متأخر. وجبهة امرأة زانية كانت لك. أبيتِ أن تخجلي.

ألست من الآن تدعينني يا أبي أليف صباي أنت. هل يحقد إلى الدهر أو يحفظ غضبه إلى الأبد» (إر٣:١ ــ ٥). هذه الأمور حصلت بالنسبة للكبيرة، أما راحيل الأسمى، أي الكنيسة التي من الأمم، فقد خطبها هو نفسه إلى الأبد. لكن عبارة «هو نفسه» يجب أن تفهم هكذا: لقد خطب مجمع اليهود ليس بنفسه، بل بوساطة موسى، بينما اتحد هو بنفسه بالكنيسة التي من الأمم داعياً إياها بصوته، مثل أي إنسان فوق الأرض، وذلك عندما ظهر كإنسان. لأنه أظهر قبوله للعروس التي ناداها بقوله: «أريني وجهك أسمعيني صوتك لأن صوتك لطيف ووجهك جميل» (نش٢:١٤). لقد سمعه بالتأكيد الأقدمون يتحدث لكن بواسطة موسى أو الأنبياء، بينما في الأيام الأخيرة تحدث إلينا الابن نفسه شخصياً كما يؤكد على هذا بولس الحكيم (انظر عب١:٢).

أولاد يعقوب

ويجب أن نفحص أيضاً ولادة أبناء يعقوب. بمعنى أن نرى كم كان عددهم، ومن أي نساء وُلدوا. ليئة الأولى ولدت أربعة أبناء، رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا. لكن بسبب أن راحيل كانت عاقراً وبدون أولاد تعرَّضت للمعاناة والاضطراب، فاخترعت حيلة لكي يكون لها أولاد. إذ أنها قدَّمت ليعقوب جاريتها قائلة له: «هوذا جاريتي بلهة. ادخل عليها فتلد على رُكبتي وأُرزق أنا أيضاً منها بنين» (تك ٣٠:٣). وعندما حدث هذا وُلد ليعقوب ابنان، دان ونفتالي. وليئة كذلك أعطت جاريتها زلفة ليعقوب زوجة له فولدت له ابنان، جاد وأشير. وما الذي حدث بعد ذلك؟ «وَمَضَى رَأُوبَيْنُ فِي أَيَّامِ حَصَادِ الْحِنْطَةِ فَوَجَدَ لُفَّاحاً فِي الْحَقْلِ وَجَاءَ بِهِ إلى لَيْئَةَ أُمِّهِ. فَقَالَتْ رَاحِيلُ لِلَيْئَةَ: «أَعْطِينِي مِنْ

لُفَّاحِ ابْنِكِ». فَقَالَتْ لَهَا: «أَقَلِيلٌ أَنَّكِ أَخَذْتِ رَجُلِي فَتَأْخُذِينَ لُفَّاحَ ابْنِي أَيْضاً؟» فَقَالَتْ رَاحِيلُ: «إِذاً يَضْطَجعُ مَعَكِ اللَّيْلَةَ عِوَضاً عَنْ لُفَّاحِ ابْنِكِ». فَلَمَّا أَتَى يَعْقُوبُ مِنَ الْحَقْلِ فِي الْمَسَاءِ، خَرَجَتْ لَيْئَةُ لِمُلاَقَاتِهِ وَقَالَتْ: «إِلَيَّ تَجِيءُ لأَنِّي قَدِ اسْتَأْجَرْتُكَ بِلُفَّاحِ ابْنِي». فَاضْطَجَعَ مَعَهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ. وَسَمِعَ اللهُ لِلَيْئَةَ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ لِيَعْقُوبَ ابْناً خَامِساً. فَقَالَتْ لَيْئَةُ: «قَدْ أَعْطَانِي اللهُ أُجْرَتِي، لأَنِّي أَعْطَيْتُ جَارِيَتِي لِرَجُلِي». فَدَعَتِ اسْمَهُ «يَسَّاكَرَ». وَحَبِلَتْ أَيْضاً لَيْئَةُ وَوَلَدَتِ ابْناً سَادِساً لِيَعْقُوبَ، فَقَالَتْ لَيْئَةُ: «قَدْ وَهَبَنِي اللهُ هِبَةً حَسَنَةً. الآنَ يُسَاكِنُنِي رَجُلِي، لأَنِّي وَلَدْتُ لَهُ سِتَّةَ بَنِينَ». فَدَعَتِ اسْمَهُ «زَبُولُونَ»» (تك ٣٠: ١٤ ــ ٢٠).

إذاً عندما وصل المولودون من إسرائيل إلى هذا العدد «وَذَكَرَ اللهُ رَاحِيلَ، وَسَمِعَ لَهَا اللهُ وَفَتَحَ رَحِمَهَا، فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتِ ابْناً فَقَالَتْ: «قَدْ نَزَعَ اللهُ عَارِي». وَدَعَتِ اسْمَهُ «يُوسُفَ» قَائِلَةً: «يَزِيدُنِي الرَّبُّ ابْناً آخَرَ»» (تك ٣٠:٢٢ ــ ٢٤). وبعد ذلك ولدت بنيامين.

وهذه الأمور ذُكرت في الكتاب المقدس كالآتي: «ثُمَّ رَحَلُوا مِنْ بَيْتِ إِيلَ. وَلَمَّا كَانَ مَسَافَةٌ مِنَ الأَرْضِ بَعْدُ حَتَّى يَأْتُوا إِلَى أَفْرَاتَةَ، وَلَدَتْ رَاحِيلُ وَتَعَسَّرَتْ وِلاَدَتُهَا. وَحَدَثَ حِينَ تَعَسَّرَتْ وِلاَدَتُها أَنَّ الْقَابِلَةَ قَالَتِ لَهَا: «لاَ تَخَافِي، لأَنَّ هذَا أَيْضاً ابْنٌ لَكِ». وَكَانَ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهَا، لأَنَّهَا مَاتَتْ، أَنَّهَا دَعَتِ اسْمَهُ «بَنْ أُونِي». وَأَمَّا أَبُوهُ فَدَعَاهُ «بَنْيَامِينَ». فَمَاتَتْ رَاحِيلُ وَدُفِنَتْ فِي طَرِيقِ أَفْرَاتَةَ، الَّتِي هِيَ بَيْتُ لَحْمٍ. فَنَصَبَ يَعْقُوبُ عَمُوداً عَلَى قَبْرِهَا، وَهُوَ «عَمُودُ قَبْرِ رَاحِيلَ» إِلَى الْيَوْمِ» (تك ١٦:٣٥ ــ ١٩). ولأن راحيل ولدت بصعوبة، وبآلام شديدة، فإنها فارقت الحياة عند الولادة. إذاً هؤلاء هم نسل يعقوب. لكن ما هو المفهوم العميق للمكتوب؟ لقد عرفه فقط هذا الذي يعرف كل شيء «المذخَّر فيه جميع

كنوز الحكمة والعلم» كما هو مكتوب (كو ٢:٣). أما نحن فليتنا نرى بأعين مفتوحة محاولين بقدر الإمكان، إزالة الضباب الكثيف المحيط بهذه الأمور. ليتنا نقول لذاك الذي يجعل العميان حكماء «اكشف عن عيني فأرى عجائب من شريعتك» (مز١١٩: ١٨). إذن، كما سبق أن قلت، فإن ليئة التي هي الكبيرة تشبه كثيراً مجمع اليهود، أما راحيل فتشبه الكنيسة التي من الأمم. هذا الإيمان نضعه كأساس لأقوالنا. وليتنا نضيف عليه أقوال أخرى.

إذن، ولدت ليئة أولاً أربعة أبناء. وبعد ذلك وُلد من الجاريتين بلهة وزلفة أربعة آخرين. ثم بعد ذلك عندما وجد رأوبين لُفاحاً في الحقول وُزع بين ليئة وراحيل، فالاثنتان صارتا والدتين. وليئة، بعد الأربعة أبناء السابقين، ولدت يساكر الذي يعني «أجرة μισθός» ثم زبولون، اسم مترجم يعني « بركة ورائحة ذكية εὐωδία» τε καὶ «εὐλογία». لكن راحيل ولدت يوسف الذي يعني «إضافة الله προσθήκη Θεοῦ» وبعده بنيامين الذي يعني «ابن الألم υἱὸς ὀδύνης». أقصد أن الأكبر عمراً أي التي تشير إلى المجمع، ولدت جميع اليهود. وكون أن الأنسال الذين وُلِدوا قد دعاهم الرب أبناء، سوف تدركه وتتحقق منه جيداً، وذلك من موسى النبي الذي قال: «إسرائيل ابني البكر» (خر ٤: ٢٢)، ومن أقوال أشعياء النبي «اسمعي أيتها السموات وأصغي أيتها الأرض لأن الرب يتكلم. ربيت بنين ونشأتهم. أما هم فعصوا عليّ» (أش ١: ٢). هكذا قد وُلِدوا من أحرار، إذ أن آبائهم لم يُفرض عليهم نير الناموس، (وقد أظهر لنا بولس حرية آبائهم حين قال: «أما أنا فكنت بدون الناموس عائشاً قبلاً» (رو ٧: ٩). والضمير «أنا» بالتأكيد ينسبه بولس إلى جذر هذا الجيل اليهودي، وهذا يسري بالتالي على رؤوس آبائه). لكن بالرغم من أنهم

وُلدوا من أحرار إلّا أنهم دخلوا تحت العبودية حسب الناموس. وقد ظهر هذا الأمر بطريقة رمزية بتزامن ولادة الأبناء الأربعة الذين وُلِدوا من الجاريتين.

يوجد سِرٌّ ما في الجاريتين علينا أن نراه. لأن ابني بلهة: دان ونفتالي نُسبا إلى راحيل، بينما ابني زُلفة: جاد وأشير نُسبا إلى ليئة.

وأعتقد أنه قد يتشكك أحد، كيف أن أبناء العبدة (بلهة) تُنسب إلى راحيل، بالرغم من أنهما يمثلان نموذج للكنيسة التي من الأمم. ماذا سنقول عن هذا الأمر؟ إن الآباء القديسين الذين كانوا منذ البداية حُسبوا من ضمن أولاد أورشليم العبدة، لكن بطريقة ما هم أولاد الكنيسة التي هي من الأمم. إذ أنهم آمنوا إيماناً مشتركاً مع تلك الكنيسة قائلين إنه سوف يظهر ويلمع سر المسيح[٢٦٤]، وأعلنوا هذا بطرق كثيرة، وفعلوا هذا الأمر بطرق منظورة. أما الذين أتوا بعد ذلك زمنياً (أي اليهود) فقد وُلدوا أيضاً في العبودية و لم يقبلوا المسيح مانح الحرية. وكون أن الأولين (الذين كانوا قبل الناموس) كانوا أفضل من أولئك الذين جاءوا بعدهم زمنياً، فمن السهل أن نعرفه حيث إن الله يقول بفم أشعياء: «كيف صارت القرية الأمينة زانية. ملآنة حقاً كان العدل يبيت فيها. وأما الآن فالقاتلون» (أش ١: ٢١).

---

[٢٦٤] الإيمان بالمسيح يدخلنا إلى معرفة الله الآب وشركة الروح القدس الحقيقية وهكذا نعترف بأقانيم الثالوث المساوي في الجوهر. وهذا الإيمان يبعدنا عن ضلال تعدد الآلهة أو كما يقول ق. أثناسيوس: "وإذًا يوجد ثالوث قدوس وكامل يُعترف بلاهوته في الآب والابن والروح القدس ... وهو مساوٍ وغير منقسم في الطبيعة وفعله واحد ... وليس بأقل من هؤلاء الثلاثة تعتقد الكنيسة الجامعة لئلا تنزلق إلى أفكار اليهود المعاصرين الرديئة وإلى أفكار سابيليوس كما أنها لا تعتقد بأكثر من ثلاثة لئلا تتدحرج إلى تعدد الآلهة". الرسائل عن الروح القدس. مرجع سابق. الرسالة الأولى: ٢٨.

هل أدركت إذن، أنه يقول كيف أن أورشليم، أي صهيون التي كانت مكاناً مملوءً بالقضاء المستقيم ومسكن الأبرار، قد صارت في الأزمنة المتتالية ممتلئة من القاتلين.

يمكن للمرء أن يرى ـــ وبوضوحٍ تام ـــ من الأسماء أن ابني بلهة يمكنهما أن يكونا ضمن أبناء الكنيسة، بينما ابني زلفة هما عدوان لهما، لأن دان يعني «القضاء باستقامةκρίσις» بينما نفتالي يعني «المتسع πλατνσμός». وكون أن المسيح يقضي للمسكونة بالعدل ويدين الشيطان[٢٦٥] لأنه أضلنا وأبعدنا عن الموضع الذي كُنا فيه، وكون أن المسيح يخلصنا من الضيقة العظيمة جداً، ويجعل قلوبنا متسعة بحيث لا يأتي شيء رهيب مرة أخرى، فهذا ما كرز به المرنم الطوباوي قائلاً نيابة عن هؤلاء الذين آمنوا بالمسيح وتقدسوا بالروح: «في طريق وصاياك أجري لأنك تُرحب قلبي» (مز ١١٩:٣٢). أيضاً بولس الحكيم بسبب أن مؤمني كورنثوس أرادوا أن يختلطوا بغير المؤمنين، لذا كتب لهم قائلاً: «فَمُنَا مَفْتُوحٌ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْكُورِنْثِيُّونَ. قَلْبُنَا مُتَّسِعٌ. لَسْتُمْ مُتَضَيِّقِينَ فِينَا بَلْ مُتَضَيِّقِينَ فِي أَحْشَائِكُمْ. فَجَزَاءً

---

[٢٦٥] يشدد القديس كيرلس على أن الابن هو الحياة من حياة الله الآب، وسبب هزيمة الشيطان فوق الصليب هو أن الابن هو الحياة، إذ يقول: "وإذاً ماذا نقول ؟ "رب واحد بالحق، وإيمان واحد، ومعمودية واحدة" (أف ٤:٥). لأنه ابن ورب واحد، وليس أن الكلمة اتخذ إنساناً بحسب الاتصال وأعلن انه شريك لكراماته الخاصة، ونقل إليه البنوة والربوبية، كما يقول ويكتب بعض الذين يهذون. ولكن هو الكلمة الذي من الله، النور الذي من النور، الذي تأنس وتجسد. ونحن نعتمد في موت ذاك الذي تألم إنسانياً في جسده الخاص، ولكنه ظل غير متألم إلهياً وحياً على الدوام، لأنه هو الحياة من حياة الله الآب. لذلك، هُزِمَ الذي تجاسر أن يهاجم جسد الحياة، وهكذا أيضاً أُبيد الفساد الذي فينا وضعف سلطان الموت نفسه، ولذلك يقول المسيح: "الحق الحق أقول لكم، إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم". رسائل القديس كيرلس، الجزء الرابع، رسالة ٥٥ فقرة ٣٨ ص٤٠.

لِذلِكَ أَقُولُ كَمَا لأَوْلاَدِي: كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضاً مُتَّسِعِينَ! لاَ تَكُونُوا تَحْتَ نِيرٍ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، لأَنَّهُ أَيَّةُ خِلْطَةٍ لِلْبِرِّ وَالإِثْمِ؟ وَأَيَّةُ شَرِكَةٍ لِلنُّورِ مَعَ الظُّلْمَةِ» (٢ كو ٦:١١ — ١٤).

ويبرهن داود الطوباوي أيضاً على أن المسيح صار قاضياً عادلاً[٢٦٦]، إذ يخاطب المسيح بلسان أولئك الذين ظُلموا قائلاً: «استيقظ وانتبه إلى حكمي يا إلهي وسيدي إلى دعواي» (مز ٣٥:٢٣). وهذا ما قاله المسيح نفسه: «الآن دينونة هذا العالم. الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع» (يو ١٢: ٣١ — ٣٢).

هل رأيت الأنبياء وهم يكرزون بسر المسيح[٢٦٧] وهم يعلنون مسبقاً أنه سيصير سيصير حاكماً عادلاً وسوف تُفتح له القلوب؟! حسناً، دان ونفتالي ولدا من

---

[٢٦٦] أيضاً في شرحه لنص يو ٥:٢٢ يؤكد القديس كيرلس على هذه الحقيقة، قائلاً: ''لأنه مَنْ من الناس يليق به أن يدين العالم سواه هو وحده ذاك الذي هو الله، الذي هو فوق الكّل، والذي تدعوه الأسفار الإلهية، في موضع ما قائلة، ''قُمْ يَا اَللهُ. دِنِ الأَرْضَ'' (مز ٨٢:٨)، ثم في موضع آخر ''وَلكِنَّ اللهَ هُوَ الْقَاضِي. هذَا يَضَعُهُ وَهذَا يَرْفَعُهُ'' (مز٧٥:٧). وها هو المسيح يقول إن '' الآب قد أعطى كل الدينونة للابن''، ليس كأن الابن كان بلا سلطان حتى الآن، بل تدبيرياً كإنسان، معلّماً أنه من المناسب أكثر أن تنسب كل الأشياء إلى الطبيعة الإلهية، إذ هو أيضاً ليس خارجاً عن الآب، لأنه هو الكلمة وهو الله الذي له السلطان في ذاته على الكّل، لكن إذ جُعِلَ إنساناً، والإنسان قد قيل له ''وَأَيُّ شَيْءٍ لَكَ لَمْ تَأْخُذْهُ؟'' (١ كو ٤:٧)، فإنه وبشكل لائق يقر أنه يأخذ هذا السلطان وقد يقول أحد خصومنا أيضاً عن تلك الأشياء. ''ها هوذا الابن يعلن صراحة أنه قد أخذ الدينونة من الآب''، فهو يأخذ وهذا واضح لكونه لا يملك، فكيف لا يكون ذلك الذي يعطي بسلطان، أعظم وذا طبيعة أسمى من ذاك الذي يحتاج أن يأخذ؟''. شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ٢٦٧.

[٢٦٧] يدل تعبير ''سر المسيح'' على سر تجسد كلمة الله، أي أن المسيح هو الكلمة المتجسد، وفي شرحه لما جاء في (يو ١٦:١٤) ''ذَاكَ يُمَجِّدُنِي، لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ'' يقول القديس كيرلس: ''حيث إن الروح القدس كان على وشك أن يعلن سِّر المسيح للذين يوجدون أهلاً لذلك، وأن يوضّح تمامًا مَنْ هو المسيح بالطبيعة وكم هي عظيمة قوّته وإقتداره، وأنه يملك مع الآب على الكّل؛ لذلك كان لابد أن يقول المسيح عنه: ''ذاك سيمجدني''. لأن المسيح

بلهة، اللذان أسماهما يعنيان «القضاء» و «الاتساع»، ومن زلفة وُلد جاد وأشير اللذان يعنيان «المُجرِّب πειρατήριον» و «الغني πλοῦτος». ألم يأتي الأخيران بعد الأولين، وهل يتشكك أحد في هذا الأمر؟ يمكننا التحقق من هذا الأمر من الأحداث التي حدثت ضد المسيح. فالهيرودسيون قد سخروا من المسيح قائلين: «حِينَئِذٍ ذَهَبَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَتَشَاوَرُوا لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ تَلاَمِيذَهُمْ مَعَ الْهِيرُودُسِيِّينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَتُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ بِالْحَقِّ، وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ، لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلى وُجُوهِ النَّاسِ. فَقُلْ لَنَا: مَاذَا تَظُنُّ؟ أَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟»(مت ٢٢: ١٥ ــ ١٧). إذاً لقد اقتربوا منه لكي يصطادوه. لأن هذا ما يؤكده الإنجيل العظيم، أيضاً أناسٌ آخرون منهم لم يقبلوا الابن بسبب أنهم مرتشون ويحبون الربح (المادي)[٢٦٨]. لأنه يقول: «وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث. هلموا نقتله فيكون لنا الميراث» (مت ٢١: ٣٨، مر ١٢: ٧، لو ٢٠: ١٤). وكون الفريسيون وجمع الكتبة الأردياء قد أحبوا الغنى حباً كبيراً، يمكن أن نراه ــــ بسهولة جداًـــ في المكتوب عنهم. إذ أن ربنا يسوع المسيح قال لأولئك الذين اختاروا أن يؤمنوا بالأمور السماوية أنه ينبغي أن يرفضوا الغنى الأرضي ويوزعوا ما يملكون على

يرفع عقلنا فوق غرور اليهود، ولا يدعنا أن نفكر عنه بمفهوم محدود جدًا وضيق حتى نظن أنه مجرَّد إنسان .....'' شرح إنجيل يوحنا، المجلد الثاني، الإصحاح السادس عشر، ص ٣٣١

[٢٦٨] إن محبة المال تجعل الإنسان يتصرف بلا حكمة، لذلك يوضح القديس يوحنا ذهبي الفم هذا الأمر أثناء شرحه لما جاء في (عب١٣: ٥): ''لتكن سيرتكم خالية من محبة المال كونوا مكتفين بما عندكم'' إذ يقول: ''لم يقل ''لا تقتنوا شيئًا'' بل قال ''لتكن سيرتكم خالية من محبة المال''، أي ليكن ذهنكم مُتحررًا، لتُظهر سيرتكم حكمة كبيرة، ويمكن إظهار ذلك إن كنا لا نطلب الأشياء الزائدة، إن كان اهتمامنا مُنصّباً فقط علي ما نحتاجه '' تفسير الرسالة إلى العبرانيين، الإصحاح الثالث عشر، ص ٤٢٠.

الفقراء لكي يكون لهم الكنز السماوي. لكن حينما سمع الكتبة والفريسيون مُحبي الفضة هذه الأقوال استهزءوا به. ولقد انشغلوا بأمور تافهة جداً وبتفصيلات دقيقة غير متساهلين بالمرة في أي أمر صغير جداً حتى من جهة الذين لم يقدموا العشور التي أوصى بها الناموس، بالرغم من أنهم هم أنفسهم لم يهتموا بالأمور الجوهرية الخاصة بالناموس، لذا قال لهم الرب: «وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ! لأَنَّكُمْ تُعَشِّرُونَ النَّعْنَعَ وَالشِّبِثَّ وَالْكَمُّونَ، وَتَرَكْتُمْ أَثْقَلَ النَّامُوسِ: الْحَقَّ وَالرَّحْمَةَ وَالإِيمَانَ. كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَعْمَلُوا هذِهِ وَلاَ تَتْرُكُوا تِلْكَ» (مت ٢٣:٢٣).

«جاد» معناها «المُـــحَرِّب» و «أشير» معناها «الغنى»، والاثنان وُلِدا من زلفة العبدة بعد دان ونفتالي اللذان وُلِدا من بلهة. بالنسبة لنا، فقد أُعلِن بواسطة هؤلاء الوقت الذي هو قبل مجيء مخلصنا، ذلك الوقت الذي تشير فيه راحيل إلى كنيسة الأمم، حيث كانت مازالت عاقراً، لكنها سوف تلد أبناء كثيرين وتصير مُرضعةً لعدد لا يُحصى. أعلن أشعياء النبي هذا الأمر قائلاً: «تَرَنَّمِي أَيَّتُهَا الْعَاقِرُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ. أَشِيدِي بِالتَّرَنُّمِ أَيَّتُهَا الَّتِي لَمْ تَمْخَضْ لأَنَّ بَنِي الْمُسْتَوْحِشَةِ أَكْثَرُ مِنْ بَنِي ذَاتِ الْبَعْلِ قَالَ الرَّبُّ» (أش ٥٤:١، وانظر غلا ٤: ٢٧). ويشرح أيضاً داود العظيم هذا الأمر متحدثاً عن الله قائلاً: «الْمُسْكِنِ الْعَاقِرَ فِي بَيْتٍ أُمَّ أَوْلاَدٍ فَرْحَانَةً» (مز ١١٣:٩). كذلك قال رب الجميع: «اِرْفَعِي عَيْنَيْكِ حَوَالَيْكِ وَانْظُرِي. كُلُّهُمْ قَدِ اجْتَمَعُوا أَتَوا إِلَيْكِ. حَيٌّ أَنَا يَقُولُ الرَّبُّ: إِنَّكِ تَلْبسِينَ كُلَّهُمْ كَحُلِيٍّ وَتَتَنَطَّقِينَ بِهِمْ كَعَرُوسٍ» (أش ٤٩:١٨). وأيضاً: «هَؤُلاَءِ مِنْ بَعِيدٍ يَأْتُونَ وَهَؤُلاَءِ مِنَ الشِّمَالِ وَمِنَ الْمَغْرِبِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ أَرْضِ سِينِيمَ» (أش ٤٩:١٢). إذن فلنمضِ ــإذا أردتــ لنرَ متى و كيف ولدت العاقر.

حسناً، بعد أولئك الذين وُلِدوا من العبدتين، وجد رأوبين البكر من يعقوب لُفاحاً في الحقل وجاء به إلى ليئة أمه. وعندما طلبت راحيل أن تعطي لها من اللُفاح أعطتها. هكذا ليئة عندما أخذت اللُفاح ولدت أيضاً ابنين من يعقوب: يساكر وزبولون. ثم بعد ذلك تذكّر الله راحيل إذ فتّح رحمها فولدت يوسف (انظر تك٣٠:٢١). وكون أن ليئة تشير إلى مجمع اليهود وراحيل تشير إلى كنيسة الأمم، فهذا ما أشرنا إليه في حديثنا مرات كثيرة.

سرُّ المسيح

دعونا نفحص ما هي الأمثلة التي أُشير إليها باللُفاح، ذلك اللُفاح الذي وُجِد بواسطة بكر يعقوب تاركين تكرار نفس الكلام لأن هذا غير مفيد. لكن ما هو دلالة توزيع اللُفاح بالتساوي على الاثنين (ليئة وراحيل)؟ وماذا تعني ولادة البنين في حد ذاتها؟ وما هو السر المخفي في الأسماء؟

اللُفاح تنبت في الحقول، وهي لها شكل التفاح. وهذا النبات يجلب النوم لمن يأكله ولا داعي للبرهنة على أن الأثر الطبيعي للُفاح الذي يفلح ويتفوق على ما يصفه الأطباء في حالة الأمراض المسببة للأرق، لأن هذا معروف للجميع. اللُفاح يعلن بطريقة رمزية سر المسيح[٢٦٩] الذي أخلى ذاته حتى الموت، وقام وعاد ثانيةً

[٢٦٩] يؤكد القديس كيرلس في كتابه "السجود والعبادة بالروح والحق" على سر المسيح الذي هو تدبير الخلاص الذي أتمه الابن، إذ يقول: "صرنا شركاء مخالفة آدم ومن جراء أخطائه عُوقبنا، إذ طالت اللعنةُ الجميعَ والغضبُ امتد على نسله. لذلك تنازل وحيد الجنس وأخضع ذاته لله الآب وصار إنساناً وسكن بيننا. لأنه يقول "وأطاع حتى الموت" (في ٢: ٨)، ماحياً نتائج عصيان الكل، وعصيان كل واحدٍ على حدة، وبهذا قد خلّصنا. ويشهد على ذلك بولس الذي قال: "فَإِذاً كَمَا بِخَطِيَّةٍ وَاحِدَةٍ صَارَ الْحُكْمُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ لِلدَّيْنُونَةِ، هكَذَا بِبِرّ وَاحِدٍ صَارَتِ الْهِبَةُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، لِتَبْرِيرِ الْحَيَاةِ. لأَنَّهُ كَمَا بِمَعْصِيَةِ الإِنْسَانِ الْوَاحِدِ جُعِلَ الْكَثِيرُونَ خُطَاةً، هكَذَا أَيْضاً بِإِطَاعَةِ الْوَاحِدِ سَيُجْعَلُ الْكَثِيرُونَ أَبْرَاراً" (رو ٥: ١٨ ــ ١٩)". راجع المقالة الحادية عشر ص ٤٦١.

إلى الحياة، إذ أنه هو الله بحسب الطبيعة وصار إنساناً. وحيث إننا ندرك الموت على أنه نوم، لذا ينبغي أن نثق في عودتنا إلى الحياة مرة أخرى. إذن، يُشار في كل هذا الذي قيل عن اللُفاح إلى سر المسيح الذي رقد ثم قام ثانيةً. لذلك يبكّت بولس الرسول أولئك الذين بطيشٍ انحرفوا عن الإيمان قائلاً: «إِنَّنِي سَلَّمْتُ إِلَيْكُمْ فِي الأَوَّلِ مَا قَبِلْتُهُ أَنَا أَيْضاً: أَنَّ الْمَسِيحَ مَاتَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا حَسَبَ الْكُتُبِ. وَأَنَّهُ دُفِنَ وَأَنَّهُ قَامَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ حَسَبَ الْكُتُبِ» (١ كو ١٥: ٣، ٤).وبعد ذلك قال: «لَكِنْ إِنْ كَانَ الْمَسِيحُ يُكْرَزُ بِهِ أَنَّهُ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ فَكَيْفَ يَقُولُ قَوْمٌ بَيْنَكُمْ إِنْ لَيْسَ قِيَامَةُ أَمْوَاتٍ» (١كو١٥:١٢).

ولأن المسيح هو الأول من بين البشر الذي برهن على أن الموت هو نوم، صار هو الباب والطريق للطبيعة البشرية حتى تواجه نفسه الموت[٢٧٠] بقوة. لذلك يسمّى بولس دائماً أولئك الذين ساد عليهم الموت، راقدين، إذ سوف يعودون ثانيةً إلى الحياة بواسطة المسيح. لأنه قال: «لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا نُؤْمِنُ أَنَّ يَسُوعَ مَاتَ وَقَامَ، فَكَذَلِكَ الرَّاقِدُونَ بِيَسُوعَ سَيُحْضِرُهُمُ اللهُ أَيْضاً مَعَهُ» (١ تس ٤:١٤). وسوف يحضرهم ويكونون معنا.

هكذا يشير اللُفاح إلى النوم، وقد وجده رأوبين البكر وأحضره إلى أمه، وتلك بدورها قسمته مع أختها.

إذن، الأولون هم أبناء إسرائيل، إسرائيل الذي هو بكر. أبناء إسرائيل الذين أدركوا وقبلوا سر المسيح كغنى حقيقي وكذلك الأم، أقصد طبعاً أورشليم، التي

---

[٢٧٠] كان من نتائج تجسد الابن وكلمة الله، القضاء على الموت وعلى فساد الطبيعة البشرية وأن يعرّف البشر عن الإله الحقيقي، عن الله الآب. انظر القديس أثناسيوس. تجسد الكلمة، فصل ١٥:٧ ص٤٥.

قدموا لها التقدمة البهية التي هي نتاج سرعة إدراك روحهم، لذا فقد فرحت هي بهم. لأن التلاميذ العظام ـــ قبل دعوة الأمم ـــ علّموا كل ساكني اليهودية عن المسيح «فالبقية ستخلص» كما هو مكتوب في الكتب (رو ٩:٢٧، أش ١٠:٢٢ـــ٢٣).

واضح جداً لكل واحد أن الرسل الذين هم من اليهود أتوا بالذين من الأمم إلى الإيمان. حسناً، عندما أخذت ليئة اللُفاح ولدت الابنين يساكر وزبولون. يساكر يعني «أُجرة μισθός» والآخر زبولون يعني «البركات والوعود εὐόδωμά τε καὶ εὐλογία». وكما قُلت سابقاً، إن مجمع اليهود بواسطة الرسل الذين كانوا أبناء إسرائيل الذين قبلوا سر المسيح، صار أُمَّاً للأبناء الذين بالأجرة والوعود والبركات، صاروا ناجحين من قِبل الله. وكون أن الإيمان بالمسيح ليس هو بلا أجرة أو مكافأة، فهذا يظهر مباشرةً من عطية الحياة الأبدية، وسوف يؤكده لنا ربنا يسوع المسيح نفسه قائلاً: «اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ يَسْمَعُ كَلاَمِي وَيُؤْمِنُ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ» (يو ٥:٢٤). أيضاً يؤكد لنا هذا الأمر بولس الرسول قائلاً: «اَلْكَلِمَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ فِي فَمِكَ وَفِي قَلْبِكَ أَيْ كَلِمَةُ الإِيمَانِ الَّتِي نَكْرِزُ بِهَا. لأَنَّكَ إِنِ اعْتَرَفْتَ بِفَمِكَ بِالرَّبِّ يَسُوعَ وَآمَنْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللهَ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ خَلَصْتَ» (رو ١٠: ٨، ٩).

باركنا بكل بركةٍ روحية

إذن، ما هو الأجر العظيم الذي يستحق أن يناله المرء لكي يُخلِّص نفسه؟ وكون أن الأمر هو عظيم ويستحق أن نتحدث عنه، فهذا ما يقنعنا به المخلِّص بنفسه قائلاً: «لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه. أو ماذا

يُعطي الإنسان فداء عن نفسه» (مت ١٦: ٢٦، مر ٨: ٣٦). بالتالي، فالأجرُ مجيدٌ جداً وخلاصيٌّ للذين يؤمنون، ولا مجال فيه للشك. إن هؤلاء الذين تبرروا بالإيمان بالمسيح قد نالوا بركة بالتأكيد. إذ يقول داود الطوباوي «أنتم مباركون للرب الصانع السموات والأرض» (مز ١١٥: ١٥). وقال أيضاً الله بفم أشعياء لأم الأبناء الذين آمنوا أي الكنيسة: «لأني أسكب ماءً على العطشان وسيولاً على اليابسة. أسكب روحي على نسلك وبركتي على ذريتك» (أش ٤٤: ٣). لذلك، فإن بولس الحكيم وهو يكتب لأولئك الذين تبرروا بالإيمان يقول: «مبارك الله ابو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح» (أف ١: ٣).

حسناً، فإن هؤلاء الذين صاروا مشاركين البركة السماوية بغنى، كيف لا ينجحون في كل عمل صالح؟ لأنه يقول «طريق الصديق استقامة. تمهد أيها المستقيم سبيل الصديق. ففي طريق أحكامك يا رب انتظرناك. إلى اسمك وإلى ذكرك شهوة النفس» (أش ٢٦: ٧ ــ ٨).

وبخصوص طريق المجمع قال الله: «هاأنذا أُسيِّج طريقك بالشوك وأبني حائطها حتى لا تجد مسالكها» (هو ٢: ٦).

القطيع الآتي من الأمم

لقد دُعينا لنقيم في السموات[٢٧١] عن طريقٍ ممهَّدٍ ليس به أية عوائق، فقد أمر القديسين قائلاً: «افتحوا الأبواب لتدخل الأمة البارة الحافظة الأمانة. ويقول أعدوا هيئوا الطريق. هيئوا طريق الشعب أعدوا أعدوا السبيل نقوه من الحجارة ارفعوا الراية للشعب» (أش ٦٢: ١٠). لكي لا يتعثروا ويظهروا عدم استعدادٍ للمهام الجيدة.

هكذا ولدت ليئة الابنين اللذين نجحا بأجرٍ ووعودٍ وبركات من قِبل الله، بينما راحيل وهى آخذة اللُفاح ولدت يوسف. لأنها مثل الكنيسة قَبِلت سر المسيح بواسطة الرسل، كأنها أخت لمجمع اليهود. لقد صارت أُمَّ الشعب الذي نمى نمواً مستمراً وصار جمعاً لا يُحصى (لأن اسم يوسف يعني يزيد من الله). فالكنيسة التي هي من الأمم زيدت على جمع المجمع الذي هو من إسرائيل. لذلك قال المسيح «لي خراف أُخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراعٍ واحد» (يو ١٠: ١٦).

أُضيفَ إذن ـــ كما قلت ـــ القطيع الآتي من الأمم إلى الرعية القديمة، وازداد بأكثر غنى حتى وُلِد في الأوقات الأخيرة بنيامين الذي يعني «ابن الحزن Υἱός

---

٢٧١ هذا المعنى شرحه القديس يوحنا ذهبي الفم في عظه كان قد ألقاها في الاحتفال بعيد الميلاد، إذ يقول: "أرى سرًا عجيبًا ومدهشًا، أسمع أصوات رعاة يصلوّن بتسبيح سماوي. ملائكة يرتلون، رؤساء ملائكة يمجدون، الشاروبيم يسبحون، والساروفيم يتهللون، الجميع يحتفلون برؤية الله على الأرض والإنسان في السماوات. وهذا الكائن أصلاً في السماء، يرونه بسبب تنازله ـــ كائنًا على الأرض، وهذا الذي هو أصلاً على الأرض (أي الإنسان)، يرونه ـــ بسبب محبة الله للبشر ـــ موجودًا في السماء. "ميلاد المسيح" للقديس يوحنا ذهبي الفم، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ترجمة د. سعيد حكيم يعقوب، يناير ٢٠٠١.

ὀδύνης». إذاً ما هو دلالة موت راحيل أثناء ولادة بنيامين؟ أعتقد أن جمع المؤمنين في الأيام الأخيرة يعتبر شعب ابن الحزن[٢٧٢]، لأنه في ذلك الوقت سيأتي ابن المعصية «المقاوِم والمرتفع على كل ما يُدعى إلهاً أو معبوداً حتى أنه يجلس في هيكل الله كإله مظهراً نفسه أنه إله. أما تذكرون أني وأنا بعد عندكم كنت أقول لكم هذا» (٢ تس ٢: ٤ ــ ٥). هذا المضاد سوف يقاوم القديسين، ولن يختلف إطلاقاً في وحشيته عن الوحوش الشرسة. لأنه، كما قال المخلّص نفسه «يكون حينئذٍ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون» (مت ١٤: ٢١).

وكون أن شراسته وغلاظته سوف لا تعلن لآخرين إلّا فقط للقديسين، قد أعلنه أيضاً الرب قائلاً: «ولو لم تُقصَّر تلك الأيام لم يخلص جسد. ولكن لأجل المختارين تُقصر تلك الأيام» (مت ٢٤: ٢٢). ولأن اضطهاداً شرساً ورهيباً سوف يصير ضد أي مختار ومؤمن أصيل، وسوف يُصاب البعض بأضرار جسدية، لذا أعتقد أن الوقت سيُقصَّر؛ لأن الله الرحوم سيسمح بالتجربة على قدر احتمال أولئك الذين يعانون منها. هكذا يخبرنا بولس الرسول بهذا الأمر لكي نثق ونؤمن قائلاً: «لم تصبكم تجربة إلّا بشرية ولكن الله أمين الذي لا يدعكم تجربون فوق ما تستطيعون، بل سيجعل مع التجربة أيضاً المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا» (١ كو ١٠: ١٣).

---

[٢٧٢] يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "سمة القلب المنسحق، تظهر عندما لا نغضب في مواجهة من يهينوننا، وعندما لا يُصيبنا اليأس، وعندما لا ندافع عن أنفسنا. لا شيء يجعل الفكر أكثر حكمة مثل الضيقة، ولا شيء مُبهج بهذا القدر، مثل الحزن بحسب مشيئة الله" تفسير الرسالة إلى أهل أفسس، الإصحاح السادس، ص٣٥٣.

عندما وُلِد بنيامين، أي الأخير في الآلام، تنيَّحتْ راحيل. لأنه ــ كما قلت سابقاً ــ ستنتقل الكنيسة إلى الحياة السماوية، وهذا يشير إلينا نحن الذين بإيماننا بالمسيح حصلنا بواسطة الروح على اتحادنا بالله[٢٧٣]. ولا تتشكك طبعاً إن كان الموت نقل راحيل من أمور هذا العالم الحاضرة. لأن هذا الحدث، هل أزعج البعض حاملين في فكرهم ذاك الذي حدث في القديم، ظانين أن الكنيسة ستتوقف فترات وسوف تنطفئ مائتة، حاشا، أم أن هذا يشير إلى الانتقال إلى الأعظم؟ هذه الأقوال نُجيب عليها: إننا ندعو الكنيسة أنها هي الجمع المقدس للذين آمنوا، أمَّا كل ما يخص الحياة العالمية والجسدية في هذا الجمع المقدس فإنه يموت[٢٧٤]. هذا الطريق، طريق الإماتة هو طريقٌ لنمو الكنيسة في المسيح وانتقالها إلى الأمور السامية والعُظمى. لذلك يحذِّر بولس الرسول بشدة بعض الأشخاص قائلاً: «إن

---

[٢٧٣] يقول ذهبي الفم: "إننا نذوق ونشترك في جسد ذاك الذي يجلس في السماء، الذي تسجد له الملائكة، الذي توجد حوله القوات السمائية التي لا حصر لها " تفسير الرسالة إلى أهل أفسس، الإصحاح الأول، ص ٦٧.

[٢٧٤] الحديث هنا عن إماتة الجسد وتقديم ذواتنا كذبيحة عقلية كما شرح القديس يوحنا ذهبي الفم: "يمكنك أنت أيضًا إن أردت أن تقدم مثل هذه الذبيحة. أي ماذا إن لم تحرق الجسد بالنيران؟ يمكنك أن تحرقه بنار أخرى، كما بنار الفقر الاختياري، نار الضيقة. أي حين يكون في استطاعة المرء أن يحيا في تمتع وترف، لكنه يفضل الحياة القاسية والصعبة وإماتة الجسد، أليست هذه محرقة؟ مُت واصلُب جسدك، وحينئذٍ ستنال أنت نفسك إكليل هذه الشهادة. أي أن ما يفعله هناك (أي في شهادة الدم) بالسيف، فلتفعله هنا الرغبة (في إماتة الذات). يجب ألا يحرقك ويسود عليك العشق للمال، بل ينبغي أن تحترق وتُمحى تمامًا بنار الروح، ولتقطع هذه الرغبة غير المعقولة و الفاسدة، بسكين الروح. هذه هي الذبيحة الحسنة والمقبولة، لا تحتاج إلى كاهن، بل إلى ذاك الذي يقدمها، والذبيحة الحسنة هي تلك التي تؤدي بالطبع على الأرض، لكنها تصعد فورًا إلى السماء" تفسير العبرانيين، الإصحاح السادس، ص١٨٥.

كنتم قد متم مع المسيح عن أركان العالم فلماذا كأنكم عائشون في العالم تُفرض عليكم فرائض» (كو ٢٠:٢).

أيضاً يقول لهؤلاء الذين خلعوا الحياة الجسدية والشهوانية: «لأنكم قد متم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله. متى أظهر المسيح حياتنا فحينئذٍ تُظهرون أنتم أيضاً معه في المجد» (كو ٣:٣ ــ ٤).

حسناً، قال بكل وضوح أن نميت أعضائنا الأرضية قاصداً الزنى والنجاسة وما شابه ذلك. بالتالي، فإن موت راحيل يعني ــ على أية حالٍ ــ موت جمع المؤمنين عن العالم، أي الكنيسة عروس المسيح الذي نقلها إلى الحياة السمائية، حيث إن حياتنا هنا على الأرض سوف تُنقل من الفساد إلى عدم الفساد، من الموت إلى الحياة، من الضعف إلى القوة، من الهوان إلى المجد، من الوقت المُقصّر إلى الحياة التي لا تزول. لأنه هكذا، سوف نوجد دائماً مع المسيح الذي له مع الله الآب المجد والقوة مع الروح القدس إلى أبد الآبدين آمين.

المقالة الخامسة على سفر التكوين

جمال سر المسيح

أخبرتنا الكتب المقدسة — بأنواعٍ وطرقٍ كثيرةٍ (انظر عب ١:١) — عن أمثلةٍ تشرح لنا الخلاص بالمسيح، لذا فهي تقدم للذين يقرأونها فائدةً ليست بقليلة. فكما يرسم الرسامون منظراً جميلاً جداً بأنواع كثيرة جداً من الألوان والظلال لتكتسب الأيقونة استحساناً عظيماً جداً، هكذا فإن الله كليُّ الحكمة خالق هذا الكون قد سبق وأشار بأعمال كثيرة جداً وبطريقة دقيقة إلى جمال سر المسيح. وكانت هذه الأعمال رموزاً تشير إلى هذا السر، وبمثابة عظات تمهيدية لكي يُدرك الداخلون إلى الإيمان ويفهموا هذا السر ويصيروا مستعدين لقبول الحق[٢٧٥]. ليتنا نحيا في هذا العالم ونحن متميزون ولو قليلاً عن الحيوانات وإلّا سنكون أدنى منهم، حسب قول الله لبني إسرائيل: «الثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه أما إسرائيل فلا يعرف شعبي لا يفهم» (أش ١:٣).

---

[٢٧٥] يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "وحسنًا فعل إذ بدأ (الرسالة إلى العبرانيين) بهذه الكلمات: "بأنواع وطرق كثيرة". لأنه يُظهر أن الأنبياء أنفسهم لم يروا الله، أما الابن فقد رآه. إن عبارة "بأنواع وطرق كثيرة" تعني بطرق متنوعة. لأنه يقول "وكلّمت الأنبياء وكثّرت الرؤى وبيد الأنبياء مثلت أمثالاً" (هو١٢:١٠). وقد اتضح أن امتياز النعمة لا يتمثل في هذا الأمر فقط، أي أن الله قد أرسل أنبياء للآباء، بينما لنا نحن أرسل الابن، بل يكمن الامتياز في أنه لا أحد من هؤلاء الأنبياء قد رأى الله، بينما الابن الوحيد الجنس قد رآه" تفسير الرسالة إلى العبرانيين، ص ٣٧.

إذن، فإن كان شعب اليهود الذين أعطى لهم الناموس كمربٍّ، قد أُدينوا بسبب جهلهم الرهيب، فماذا يمكن أن يقال عن الأمم الذين سقطوا في ظلام ضلال الأوثان الدامس؟ لقد كانوا حقاً منجذبين إلى الأمور الدنيئة ومنشغلين دائماً بشهوات الجسد، والشيء الوحيد الذي اهتموا به كان التفكير الدائم في الأرضيات، و لم يقدروا أن يرفعوا عيون أذهانهم إلى مفاخر المحبة الإلهية.

المسيح ينقذنا من الموت

لذلك استخدم الأنبياء الطوباويون أقوالاً كثيرة جداً، وهم يبكون علينا كأننا أموات. ويقول أشعياء الطوباوي: «لذلك وسعت الهاوية نفسها وفغرت فاها بلا حد فيترل بهاؤها وجمهورها وضجيجها والمبتهج فيها» (أش ٥:١٤). أي أنه لا توجد فرصة لتجنب الشر، وكأن الشيطان طغى على الأمم وتسلّط عليهم بطريقة قهرية. لقد نزل التعساء إلى الجحيم عند انطلاقهم من هذه الحياة، وكان فم الموت مفتوحاً ليبتلعهم، إذ قادهم مبتدع الخطية إلى الموت. أيضاً داود العظيم عندما تراءت أمام ذهنه هذه المصيبة العظيمة جداً، قال بدموع: «إنما الله يفدي نفسي من يد الهاوية لأنه يأخذني» (مز ٤٩:١٥). ولكن الله لم يتركنا تحت سلطان الموت، لأنه أرسل لنا من السماء ابنه[٢٧٦] ربنا يسوع المسيح كراعٍ

[٢٧٦] يشرح القديس كيرلس حقيقة إرسال الابن لكي يخلص الإنسان في موضع آخر، قائلاً: "لم يشأ أن يرى هلاك خليقته على الأرض، أعني الإنسان، بل على العكس، فلأجل أنه رأى أن الطبيعة البشرية قد أُصيبت بمرض عُضال، فقد أرسل كلمته الذي يستطيع وحده أن يحطم مملكة الشيطان ويحررنا من الشرور التي أمسكتنا في قبضتها" الرسالة الفصحية الأولى، ترجمة د. ميشيل بديع عبد الملك مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، مايو ٢٠٠٤، فقرة ٦ ص ٢٨.

صالح. ذلك الراعي الذي لا يقود خاصته إلى الجحيم، بل يقودهم إلى عدم الفساد وإلى الحياة الأبدية؛ لأنه يقول: «في مراعٍ خضر يربضني إلى مياه الراحة يوردني» (مز ٢٣:٢)، معطياً لنا العشب الروحي، ومانحاً إيانا المشروبات الروحية. وهكذا جعلنا مثمرين، وصيَّرنا جمعاً لا يحصى من الشعوب. ويمكن للمرء أن يرى بوضوح من خلال الظلال والرموز هذا الذي قلته حين تحدثت عن يعقوب وعن كل ما هو مكتوب عنه، وقد سهّلت حديثي بقدر المستطاع حين بدا أنه غامض. فقد كتب ما يلي: «وَحَدَثَ لَمَّا وَلَدَتْ رَاحِيلُ يُوسُفَ أَنَّ يَعْقُوبَ قَالَ لِلاَبَانَ: اصْرِفْنِي لأَذْهَبَ إلى مَكَانِي وَإِلَى أَرْضِي. أَعْطِنِي نِسَائِي وَأَوْلاَدِي الَّذِينَ خَدَمْتُكَ بِهِمْ فَأَذْهَبَ لأَنَّكَ أَنْتَ تَعْلَمُ خِدْمَتِي الَّتِي خَدَمْتُكَ. فَقَالَ لَهُ لاَبَانُ: لَيْتَنِي أَجِدُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ. قَدْ تَفَاءَلْتُ فَبَارَكَنِي الرَّبُّ بِسَبَبِكَ. وَقَالَ: عَيِّنْ لِي أُجْرَتَكَ فَأُعْطِيَكَ. فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ تَعْلَمُ مَاذَا خَدَمْتُكَ وَمَاذَا صَارَتْ مَوَاشِيكَ مَعِي لأَنَّ مَا كَانَ لَكَ قَبْلِي قَلِيلٌ فَقَدِ اتَّسَعَ إلى كَثِيرٍ وَبَارَكَكَ الرَّبُّ فِي أَثَرِي. وَالآنَ مَتَى أَعْمَلُ أَنَا أَيْضاً لِبَيْتِي؟ فَقَالَ: مَاذَا أُعْطِيكَ؟ فَقَالَ يَعْقُوبُ: لاَ تُعْطِينِي شَيْئاً. إِنْ صَنَعْتَ لِي هَذَا الأَمْرَ أَعُودُ أَرْعَى غَنَمَكَ وَأَحْفَظُهَا: أَجْتَازُ بَيْنَ غَنَمِكَ كُلِّهَا الْيَوْمَ وَاعْزِلْ أَنْتَ مِنْهَا كُلَّ شَاةٍ رَقْطَاءَ وَبَلْقَاءَ وَكُلَّ شَاةٍ سَوْدَاءَ بَيْنَ الْخِرْفَانِ وَبَلْقَاءَ وَرَقْطَاءَ بَيْنَ الْمِعْزَى. فَيَكُونَ مِثْلُ ذَلِكَ أُجْرَتِي وَيَشْهَدُ فِيَّ بِرِّي يَوْمَ غَدٍ إِذَا جِئْتَ مِنْ أَجْلِ أُجْرَتِي قُدَّامَكَ. كُلُّ مَا لَيْسَ أَرْقَطَ أَوْ أَبْلَقَ بَيْنَ الْمِعْزَى وَأَسْوَدَ بَيْنَ الْخِرْفَانِ فَهُوَ مَسْرُوقٌ عِنْدِي. فَقَالَ لاَبَانُ: هُوَذَا لِيَكُنْ بِحَسَبِ كَلاَمِكَ. فَعَزَلَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ التُّيُوسَ الْمُخَطَّطَةَ وَالْبَلْقَاءَ وَكُلَّ الْعِنَازِ الرَّقْطَاءِ وَالْبَلْقَاءِ كُلَّ مَا فِيهِ بَيَاضٌ وَكُلَّ أَسْوَدَ بَيْنَ الْخِرْفَانِ وَدَفَعَهَا إلى أَيْدِي بَنِيهِ.

جَعَلَ مَسِيرَةَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَعْقُوبَ. وَكَانَ يَعْقُوبُ يَرْعَى غَنَمَ لاَبَانَ الْبَاقِيَةَ» (تك ٣٠:٢٥ ــ ٣٦).

يجب أن نوجز هذه الأقوال ونشرح ما هو المفهوم الذي يتناسب معها.

لقد خدم يعقوب الطوباوي لأجل امرأتين هما ليئة وراحيل. وصرف سنين كثيرة في هذه الخدمة، لكن عندما ولدت راحيل التي أحبها حباً شديداً، يوسف، وأراد بعد ذلك أن يرجع إلى بيت أبيه، والحجة التي وجدها للرحيل كانت مقنعة. لأنه قال للابان: إن كان عليّ أن أرعى خرافك بدون مكافأة متى أعمل أنا أيضاً لبيتي؟ أي متى سأجمع لنفسي المواشي التي تكفي لأولادي؟ ومتى أُدعى أنا سيداً لبيتي؟ هذا ما قاله يعقوب.

غيّر لابان وقتذاك رأيه، لأن يعقوب كان الراعي الصالح، وقال له قد تباركت بقدومك. ومع ذلك لم يتركه لكي يذهب في حين أن زمن خدمته من أجل الابنتين وصل إلى نهايته، لكن وعده بأن يعطيه أجرته المناسبة. وقال له لابان أيضاً أنه كان صالحاً ورءوفاً وواحداً من الصبورين. ويعقوب بدوره أكد للابان بأنه قد صار له سبب بركة من الله. لأنه قال له «وباركك الله في أثري» مستخدماً كلمة «أثري» بدلاً من «دخولي». وهذا الكلام قد سبق وأن قاله لابان. لقد طلب يعقوب أجرةً، ونال وعد تقسيم قطعان لابان. هكذا بعد أن عزل كل شاة رقطاء وبلقاء وكل شاة سوداء بين الخرفان وبلقاء ورقطاء بين المعزي تسلمهم كأجرة. ثم بعد ذلك ارتحل يعقوب بصحبة أولاده وقطيعه الذي صار من نصيبه.

التفسير الروحي

إذن، من الضروري أن نقول بكل وضوح ما هو معنى هذه الأمور بالنسبة لنا؟

يرمز يعقوب إلى شخص المسيح نفسه، كما تكلمنا قبلاً عن ذلك. وحيث إن المسيح هو المهماز (المِنخَس) الحقيقي ὁ ἀληθής πτερνιστής إذ داس على الخطية بطرق كثيرة. وبهذا المفهوم صار بالحق إنساناً بعد أولئك الذين وُلدوا قبله أي الأنبياء القديسين ومنهم موسى نفسه. لكن المسيح له الوساطة[٢٧٧] والشفاعة إذ هو البكر[٢٧٨] بين إخوة كثيرين، وهو وحيد الجنس[٢٧٩]. هذا هو الذي بورك من الآب بقمحٍ وخمرٍ وفير. وله خضعت الأمم وسجد الرؤساء. وبحسب بركة اسحق «ليكن لاعنوك ملعونين. ومباركوك مباركين» (لا ٢٧: ٢٩).

---

٢٧٧ الوساطة الحقيقية بين الله والبشر تمت في المسيح يسوع، وهذا ما يؤكده القديس كيرلس في موضع آخر، قائلاً: "الاقتراب من الآب لا يكون إلّا بواسطة الابن، فهو الوسيط الذي يربطنا بالآب بواسطة ذاته، ويُصعِدُنا إلى المرتفعات التي تفوق الطبيعة" السجود والعبادة بالروح والحق، الجزء السادس، المقالة العاشرة ص ١١ — ١٢.

٢٧٨ يؤكد القديس كيرلس على أن الابن هو البكر بفضل التجسد في حواره حول الثالوث، قائلاً: "إن بولس الرسول المملوء بالمسيح والروح القدس والمتميّز بين الرسل يقول "وَأَيْضاً مَتَى أَدْخَلَ الْبِكْرَ إِلَى الْعَالَمِ يَقُولُ: «وَلْتَسْجُدْ لَهُ كُلُّ مَلاَئِكَةِ اللهِ»" وأعتقد أنه يستخدم تعبير "بكر" في الزمن المناسب الذي يشير إلى ظهوره في الجسد. لأنه قد جاء إلى العالم مع أنه منذ القِدم هو كائن فيه مع أن العالم لم يكن يعرفه وهكذا صار وسيطاً بين الله والناس وأصبح لقب "وحيد الجنس" امتيازاً خاصاً له. فهو إله من إله، واحد من واحد، ومولود بطريقة لا توصف، وعندما أتى إلينا فحينئذ فقط حُسِبَ بيننا كأخوة له وذلك عندما دعي بكراً. وإلاّ فأين الأخلاء إن لم يكن مَنْ هو "وحيد الجنس" قد صار "بكراً"، وسكن بين البشر كإنسان وهو يعلو عن كل الخليقة؟" مرجع سابق، الجزء الثالث، الحوار الرابع ص ٣٧.

المسيح مثل يعقوب، كأنه هجر السماء التي يشير إليها بيت أبي يعقوب، وجاء إلى العالم الذي يشير إليه لابان، ذلك العالم الذي لم يعرف بالمرة من هو الله بالطبيعة، ذلك العالم الذي عانى كثيراً من خلال تعدد الآلهة، فلابان كان وثنياً، وهكذا كان العالم وقت المسيح حيث لم يكن يعرف الرب وخالق الكل، الإله بطبيعته بسبب الهوة الفاصلة بينه وبين المسيح، وبسبب أن هذا العالم كان يتبع آخراً بسبب الخطية، إذ أن ملك العالم هو الشيطان.

هكذا نزل الكلمة[٢٨٠] من السماء تاركاً بيته الأبوي (هذا ما قلته سابقاً) وكان مثل غريب في العالم. وهذا ما يؤكده يوحنا الحكيم قائلاً: «كان في العالم

---

[٢٧٩] أي المولود من الآب قبل كل الدهور، والجدير بالذكر أن القديس كيرلس كان يفضل تعبير "المولود الوحيد" لأن المعارضين كانوا يستخدمون تعبير "وحيد الجنس" على أنه هو الوحيد الذي صار أو خُلِق بواسطة الآب. إذن تأكيد القديس كيرلس الدائم هو على ولادة الابن من الآب وبالتالي هو غير مخلوق.

[٢٨٠] يُبرز القديس كيرلس تواضع الابن وإخلائه وفي نفس الوقت على عظمته الفائقة بكونه الله، وذلك أثناء حديثه عن تابوت العهد، إذ يقول: "وكان الكاروبان مرسومين بطريقةٍ دائرية على الغطاء، حتى ما يُظهر خدمة القوات السماوية لله (لأن الكلمة هو الله)، وبذلك أعلنوا ــ بطريقةٍ حسنةٍ جداً ــ حضورهم القريب جداً، وأنهم موجودون بجواره لكي يخدموه. ثم قال الله لموسى: "وأنا اجتمع بك هناك وأتكلم معك من على الغطاء من بين الكروبين اللذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به إلى بني إسرائيل" (خر ٢٥:٢٢). لكن ــ كما قُلت ــ كان التابوت هو المسيح، الله اللوغوس في جسد غير فاسد، وكان التابوت ــ بالتأكيد ــ فوق الأرض، لكن وحيد الجنس نزل إلى حقارتنا ووضاعتنا. لأنه أخذ الشكل الذي يليق بالعبد ووضع ذاته (في ٢: ٧). هذا أيضاً هو الغطاء الموضوع عالياً، والقوات السماوية عون له ولكن الابن لم يُعرف بالنسبة لنا من طريقة تواضعه فقط، لكن أيضاً من كونه إلهاً وسيداً للكل. لأنه بالرغم من أنه وضع ذاته بسبب شكله البشري الذي أخذه نازلا بحسب التدبير إلينا، لكن "رفَّعَهُ اللهُ وأعطاه اسماً فوق كل أسم" (في ٢: ٩). ولذلك فإن وضع الغطاء عالياً ومرسوماً عليه الكاروبيم يميناً ويساراً يمكن أن يكون مثالاً. لأنه حيث تُعلن الخدمة التي تليق بالله، فهناك ــ فقط بالتأكيد ــ يوجد على أية حال مجد الأُلوهية وعظمة المكانة التي تفوق الكلام". السجود والعبادة، المقالة التاسعة، ص ٣٦٥ ــ ٣٦٦.

وكُوِّن العالم به ولم يعرفه العالم» (يو ١: ١٠). فالمسيح قبل التأنس كان إلهاً في السموات غير معروف للعالم، إلّا أنه اعتنى بنا بسبب صلاحه ومحبته ووداعته. وهذا الأمر نجده في يعقوب العظيم، يعقوب الذي كان مثالاً للمسيح. إذ أن يعقوب رعى خراف لابان بالرغم من أنه لم يأخذ أي أجر منه، وفعل هذا على أمل واحد أنه سوف يتحد بابنتي لابان ليكون أباً لأبناء، والابنتان طبعاً هما ليئة وراحيل. هكذا الابن الذي هو إله بطبيعته كان في العالم (أي عند لابان «العالم») ورعى خرافه معتنياً بهم لكي يعيشوا ويحيوا مانحاً إياهم ثمار الأرض ومنابع مياه تتدفق وأنهار، وأشرق شمسه كما هو مكتوب (انظر مت ٥:٤٥) ممطراً عليهم أمطاراً، وواضعاً في طبيعة الإنسان غريزة التعقل والتدبُّر لأنه هو «النور الحقيقي الذي ينير لكل إنسان يأتي إلى العالم» (يو ١: ٩) وصنع كل هذا ـــ كما قلت ـــ بسبب وداعته ومحبته الطبيعية بدون أن يأخذ أي أجر من العالم، ولا شكر، ولا سجود، ولا إيمان صحيح، ولا انتظار حكم صائب عنه.

كان ليعقوب امرأتان، وكل واحدة منهما صارت أُمًّا لبعض أولاده. الكبيرة هي ليئة التي كانت بمثابة مِثال للمجمع اليهودي، والصغيرة التي اقترن بها بعد زواجه من الأولى بقليل وكانت موضع اشتياق وانتظار، هي راحيل، والتي كانت مثالاً للكنيسة التي من الأمم. وهي التي ولدت يوسف الذي يعني اسمه «زيادة الرب». لأنه أضاف إلى بني إسرائيل راعياً للأمم. والدقة مفيدة عندما نشرح كلمات الكتاب المقدس. ليئة ولدت قبل راحيل. ثم بعد ذلك توسطت بينهما خادمتان بلهة وزلفة. لكن يعقوب حتى ذلك الوقت كان مستقراً وهادئاً، لأنه لم يكن قد فكر أن يصنع له بيتاً خاصاً به. لكن عندما ولدت راحيل يوسف عندئذٍ

أراد أن يصنع بيتاً، إذ قال: «والآن متى أعمل أنا أيضاً لبيتي» (تك ٣٠:٣٠). وهذا يعني روحياً أن مجمع اليهود ولد أولئك الذين عُينوا للعبودية تحت الناموس. لكن الرب قد اعترف بكل وضوح أنه لم يكن لديه بيت بعد. لأنه لم يقبل هيكلاً مصنوعاً من الحجارة، الهيكل الذي بناه سليمان. وبسبب أن اليهود اغتاظوا منه جداً، وهم الذين وبخهم قائلاً: «السموات كرسيَّ والأرض موطئ قدميَّ. أين البيت الذي تبنون لي وأين مكان راحتي» (أش ١:٦٦).

و لم يصر إسرائيل بيت الله العقلي، لأنه لم يسكن فيهم. لكن عندما وَلدت الكنيسة التي من الأمم، الشعب الجديد، صنع المسيح بيتاً خاصاً لذاته. وما هو هذا البيت؟ البيت هو نحن، الذين آمنا، وقال عنا النبي: «أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً » (إر ٣٣:٣١، عب ١٠:١٦). إنه يسكن داخلنا بواسطة الروح[٢٨١] ـــ كما سبق أن قُلت ـــ ولكنه لم يكن قد سكن في بني إسرائيل. وكون أن الذين كانوا قبل مجيء المسيح، كانوا غير مشاركين في الروح، وأنا أقصد بحسب المِثال الذي نتكلم عنه، فهذا يوضحه لنا يوحنا الإنجيلي قائلاً: «لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطى بعد. لأن يسوع لم يكن قد مُجد بعد» (يو ٣٩:٧).

---

[٢٨١] سبق للقديس أثناسيوس أن أكد على هذا الأمر بكل وضوح، قائلاً: ''إذن فإن كان يقدّس ذاته من أجلنا. وهو يفعل هذا لأنه قد صار إنساناً، فمن الواضح جداً أن نزول الروح عليه في الأردن، إنما كان نزولاً علينا نحن، بسبب لبسه جسدنا. وهذا لم يَصر من أجل ترقية اللوغوس، بل من أجل تقديسنا من جديد، ولكي نشترك في مسحته، ولكي يقال عنا: ''ألستم تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم'' (١ كو ٣: ١٦) فحينما أغتسل الرب في الأردن كإنسان، كنا نحن الذين نغتسل فيه وبواسطته''. ضد الأريوسيين، المقالة الأولى، فقرة٤٧ ص ١١٥.

لأنه عندما قام من الأموات وجدّد طبيعة الإنسان إلى صورة الطبيعة الإلهية[٢٨٢]، وقتذاك نفخ وقال للرسل: «اقبلوا الروح القدس» (يو ٢٠: ٢٢).
وأيضاً القديس بولس قال: «لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف بل أخذتم روح التبني الذي نصرخ به يا أبّا الآب» (رو ٨: ١٥). إذاً كان يوجد روح عبودية في إسرائيل، أما نحن الذين وُلِدنا من راحيل، وأبناء الكنيسة التي من الأمم فيوجد فينا روح الله الذي يمنح البنوة، التي هي بالنسبة لنا بمثابة البيت الروحي. لأن الذين وُلِدوا من راحيل هم أحرار، راحيل التي كان لها عينان جميلتان ورائعتان، بينما عينا ليئة لم تكونا بمثل هذا الجمال.

هذا يعني أن مجمع اليهود لم يكن يرى جيداً. ويؤكد هذا الأمر بولس قائلاً: «بل أُغلِظَت أذهانهم لأنه حتى اليوم ذلك البرقع نفسه عند قراءة العهد العتيق باقٍ غير منكشف الذي يبطُل في المسيح. لكن حتى اليوم حين يُقرأ موسى البرقع موضوع على قلبهم. ولكن عندما يرجع إلى الرب يرفع البرقع. وأما الرب فهو الروح وحيث روح الرب هناك حرية. ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه

---

282 Ἐγηγερμένος γάρ ἐκ νεκρῶν καὶ εἰς εἰκόνα τήν θείαν τήν ἀνθρώπου φύσιν ἀναμορφῶν

أيضًا يؤكد القديس كيرلس السكندري على إعادة تجديد الإنسان، قائلاً: «عندما سقط الإنسان بعصيانه واستُعبِد لقوة الموت وفقد كرامته القديمة أعاده الآب وجدَّده إلى الحياة الجديدة بالابن كما كان فى البدءِ. وكيف جدَّده الابن؟ بموته بالجسد ذبح الموت وأعاد الجنس البشرى إلى عدم الفساد عندما قام من الموت لأجلنا» قيامة المسيح، للقديس كيرلس عمود الدين، تفسير يوحنا٢٠، ترجمة د. نصحى عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، القاهرة ٢٠٠٣، ص٢٧.

مكشوف كما في مرآه نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح» (٢ كو ٣: ١٤ ــ ١٨).

إذن، هل أدركت أنه بعيون مضيئة ولامعة وبوجه مكشوف يظهر مجد الرب؟ لأنه ــ كما سبق أن قلت ــ عينا راحيل كانتا لامعتين. فعندما ولدت راحيل يوسف، أسرع يعقوب العظيم في الرجوع إلى وطنه. لكن لابان غيّر رأيه وقال إنه نال بركة من الله لأن خِرافه تكاثرت كثيراً. هذا يعني أن العالم الذي خلقه الله يحتاج أن يعترف ويقرّر أن كل ما هو لديه يكفي لأجل الحياة، وأننا على ما يرام وينبغي أن نشكر الله الذي ينعم علينا بخيراته.

لكن يعقوب الطوباوي طلب من لابان أجرةً مقابل كل خدمته له. والأجرة التي أرادها هو نفسه كانت كل شاة رقطاء وبلقاء من الخراف والماعز. حسناً، بالرغم من أن الله الكلمة ــ في القديم ــ قاد العالم بوداعة كما يليق بالله، الله الكلمة الذي «كل شيء به كان» (يو ١: ٣) ترك خاصته «تسلك كلٍ في طريقه» (انظر زك٣: ٧) كما هو مكتوب، لكن عندما ولدت الكنيسة الشعب الجديد المتزايد، أي أولئك الذين بإيمانهم به نالوا بالفعل الولادة الروحية، طلب من العالم ــ كأجرة ــ الاعتناء بهؤلاء الذين هم متأهبون للإيمان به، والذين مثالٌ لهم هو كل شاة رقطاء (أبيض واسود) وبلقاء (الرمادي) من الخراف والماعز. ماذا يعني هذا؟ بحسب الرعاة الذين يُطعمون قطعان الغنم والماعز، فإن ذات اللون الواحد هي الأفضل، بينما المخططة وذات البُقع تُحسب في المستوى الثاني ولا تُعتبر مساوية للأخرى، لأن صوفهم ليس له لون واحد، بل ألوان متنوعة ومختلطة.

إذن، المسيح يقبل من العالم ــ كأجرة له ــ ليس المعتبرين أنهم مُهمين والذين هم من النخبة الممتازة في العالم، بل بالحري الذين يبدو أنهم في مستوى أدنى وليست لهم قيمة في نظر هذا العالم. ويؤكد كلامي هذا بولس العظيم حينما كتب لأولئك الذين آمنوا: «فانظروا دعوتكم أيها الاخوة أن ليس كثيرون حكماء حسب الجسد ليس كثيرون أقوياء ليس كثيرون شرفاء. بل اختار الله جُهال العالم ليخزي الحكماء» (١ كو ١: ٢٦ ــ ٢٧).

وإذا أراد أحدٌ أن يفسر بأكثر دقة هذه الأقوال الخاصة بنصيب يعقوب من القطعان: الخراف والماعز الرقطاء (أسود وأبيض) والبلقاء (اللون الترابي الرمادي)، فهذا يعني روحياً أن المؤمنين بالمسيح لهم سلوكيات متنوعة في الأعمال والأقوال. فالرمادي والأسود يُعتبران رمزاً وظلاً لسر المسيح، الذي يبدو أنه غامض وغير ظاهر لكثيرين. لأنه قال: «جعل الظلمة ستراً حول مظلته» (مز ١١:١٨) أي عبَّر عن صعوبة فهم التعاليم الخاصة بالله بالمظلة والتي دعاها ظُلمة «ضباب المياه وظلام الغمام» (مز ١١:١٨). وأيضاً تقول حكمة ابن سيراخ: «الذي يصرف نفسه إلى التأمل في شريعة العلي ... يدخل في تشعبات الأمثال ... يبحث عن خفايا الأقوال السائرة وينصرف إلى ألغاز الأمثال» (حكمة سيراخ ٣٩:١ ــ ٣).

هكذا اللون الرمادي يشير إلى عمق وغموض التعاليم عن المسيح، بينما اللون الأبيض اللامع والشفاف يُمثل لمعان وشفافية الأعمال التي حسب الإيمان. لذلك أعلن ربُّ الكلِّ نقاوة الإيمان بالمسيح قائلاً بفم النبي «تعلّموا فعل الخير اطلبوا الحق انصفوا المظلوم اقضوا لليتيم حاموا عن الأرملة. هلم نتحاجج يقول الرب.

إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج. إن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف» (أش ١: ١٧ ــ ١٨).

إذن، الذين في المرتبة الثانية في هذا العالم هم مختارون، ولهم المكانة الأولى بالقرب من مخلّص الجميع. وبينما ينظر إليهم الآخرون ويضعوهم بين الأدنياء، إلّا أنهم يتفوقون في المجد، ويكونون متميزين بألوانهم العقلية المتنوعة بعمق معرفتهم عن الله، ومتفردون جداً في البهاء والتقوى.

هكذا أخذ يعقوب أجرةً، الخراف الملونة والمخططة. لكن بأي طريقة خدع لابان وجعل الخِراف التي اختارها كثيرة جداً، فلنفحص بدقة ودعونا نعرف هذا من الكتاب المقدس. مكتوب: «فَأَخَذَ يَعْقُوبُ لِنَفسهِ قُضْبَاناً خُضْراً مِنْ لُبْنَى وَلَوْزٍ وَدُلْبٍ، وَقَشَّرَ فِيهَا خُطُوطاً بيضاً، كَاشِطاً عَنِ الْبَيَاضِ الَّذِي عَلَى الْقُضْبَانِ. وَأَوْقَفَ الْقُضْبَانَ الَّتِي قَشَّرَهَا فِي الأَجْرَانِ فِي مَسَاقِي الْمَاءِ حَيْثُ كَانَتِ الْغَنَمُ تَجِيءُ لِتَشْرَبَ، تُجاهَ الْغَنَمِ، لِتَتَوَحَّمَ عِنْدَ مَجِيئِهَا لِتَشْرَبَ. فَتَوَحَّمَتِ الْغَنَمُ عِنْدَ الْقُضْبَانِ، وَوَلَدَتِ الْغَنَمُ مُخَطَّطَاتٍ وَرُقْطاً وَبُلْقاً. وَأَفْرَزَ يَعْقُوبُ الْخِرْفَانَ وَجَعَلَ وُجُوهَ الْغَنَمِ إِلى الْمُخَطَّطِ وَكُلِّ أَسْوَدَ بَيْنَ غَنَمِ لاَبَانَ. وَجَعَلَ لَهُ قُطْعَاناً وَحْدَهُ وَلَمْ يَجْعَلْهَا مَعَ غَنَمِ لاَبَانَ. وَحَدَثَ كُلَّمَا تَوَحَّمَتِ الْغَنَمُ الْقَوِيَّةُ أَنَّ يَعْقُوبَ وَضَعَ الْقُضْبَانَ أَمَامَ عُيُونِ الْغَنَمِ فِي الأَجْرَانِ لِتَتَوَحَّمَ بَيْنَ الْقُضْبَانِ. وَحِينَ اسْتَضْعَفَتِ الْغَنَمُ لَمْ يَضَعْهَا، فَصَارَتِ الضَّعِيفَةُ لِلاَبَانَ وَالْقَوِيَّةُ لِيَعْقُوبَ. فَاتَّسَعَ الرَّجُلُ كَثِيراً جِدًّا، وَكَانَ لَهُ غَنَمٌ كَثِيرٌ وَجَوَارٍ وَعَبِيدٌ وَجِمَالٌ وَحَمِيرٌ» (تك ٣٠:٣٧ ــ ٤٣).

إذن، نقول إن يعقوب كانت لديه معرفة ــ كراعي غنمٍ ــ أنه من الممكن للخراف والماعز أن تلد صغاراً شبيهةً بالألوان التي تراها أثناء فترة الحمل. يبدو

أن هذا الأمر يصير وفق قوانين الطبيعة، لكن هذه الأمور ــ هي بحسب العقل ــ سرية ولا يُقترب منها. يعقوب العظيم ــ إذن، ببرهان إلهي ــ اختار الخِراف والماعز المخططة والرقطاء. لأنه قال لليئة وراحيل: «وحدث في وقت توحُّم الغنم أني رفعت عينيّ ونظرت في حلم وإذا الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومتميزة. وقال لي ملاك الله في الحلم يا يعقوب. فقلت هاأنذا. فقال ارفع عينيك وانظر جميع الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومنمرة. لأني قد رأيت كل ما يصنع بك لابان» (تك ٣١: ١٠ ــ ١٢).

هذه الأقوال طبعاً وردت في الكتاب المقدس. لكن دعنا نعبر سريعاً على نص هذه الرواية (أي المعنى الحرفي لها) ونصعد نحو الروحيات.

المسيحُ مثل عصا، ماتت وقامت، ورُفِعَت إلى السموات

تشير العصا ــ بطريقةٍ رمزية ــ إلى عمانوئيل[٢٨٣]، لأنه هكذا دُعِيَ في الكتاب المقدس. على سبيل المثال، يقول أشعياء النبي: «ويخرج قضيب (عصا) من جذع يسى وينبت غصن من أصوله» (أش ١١: ١). وداود النبي أيضا يقول

---

[٢٨٣] قيامة الكلمة المتأنس هي برهان على ألوهية الابن ويشبِّهها القديس كيرلس، في كتاب آخر، بعصا هرون التي أنبتت، إذ يقول: "لكن العصا التي خرجت من جذر يسى، نبتت مرةً أخرى، أي قام المسيحُ ودبَّتْ فيه الحياةُ مرةً ثانيةً "ناقضاً أوجاعَ الموت" ــ كما هو مكتوبٌ ــ (انظر أع ٢: ٢٤). لقد كان حقاً هو الحياةُ بطبيعته، أي بلاهوته، فكيف يمكنُ أنْ يُمسكَ من الموت ولا ينتصر على الفساد؟!ومثلما أُحييت العصا، ونَبَتَ مرةً أخرى ــ بالفعل ــ السِّبط الميِّت، وكان هذا الأمر بالنسبة للأقدمين علامةً على أنَّ هرون قد عُيِّن رئيسُ كهنةٍ بقرار السماء، هكذا نستند على إنّ البرهان الساطع والحي والكافي على أنّ عمانوئيل هو الإلهُ بطبيعته، هو أنه داس الموت، وأنه قام من الأموات كما يليق بإلهٍ". أنظر السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، ص ٤٠٥.

لله الآب: «عصاك وعكازك يعزيانني» (مز ٢٣:٤). لأنه مكتوب: «الرب يعضد الأبرار» (مز ٣:٥).

أما نحن، الخراف العقلية[٢٨٤] وغنم مرعاه الذين في كل العالم، يقدم لنا المسيح ذاته مثل عصا. وليس فقط عصا، بل شجرة البلسم ذات الرائحة الذكية، وشجرة جوز الهند، وأيضا شجرة نبات الدلب الباسقة المعروفة باستقامة قوامها العالي. إن شجرة البلسم هي رمزٌ للموت (لأن الجسد الميت يُسكب علية روائح ذكية، والرائحة الأذكى من كل الروائح هي التي لشجرة البلسم. والمسيح مات لأجلنا وقبر بحسب الكتب (انظر رو ٥:٩). كذلك العصا التي هي من شجرة جوز الهند ترمز إلى السهر واليقظة (لأنه يسبب لنا عدم النوم. والمسيح قام لأجلنا. لأنه لم يُمسَك من أبواب الهاوية، ولا أُسِرَ بقيود الموت). أخيراً، العصا من شجرة الدلب يبدو أنها تصوِّر مسيرة المسيح نحو الأعالي، أي صعود المسيح إلى السموات. لأن هذا النوع من الشجر يتميز بطولة وباستقامته وامتداده لأعلى. أيضا رُفِعَ الابن بيمين الآب. لأن بطرس قال له «وإذ ارتفع بيمين الله»

---

[٢٨٤] حين يشرح القديس يوحنا ذهبي الفم الاختلاف بين المسيح وهرون أو بين العبادة المسيحية والعبادة اليهودية يقول: "وكما أن الفرق كبير بين المسيح وبين هرون، هكذا هو الفرق بيننا وبين اليهود. إذًا فلتلاحظ أن لنا في السماء الكاهن الذبيح، وفي السماء الكاهن، وفي السماء الذبيحة. وبناء على ذلك فلنقدم مثل هذه الذبائح التي يمكن أن نُقدمها على ذلك المذبح، ليس بعد خراف وعجول، ليس دم، ودخان ورائحة شواء. كل هذا قد أُبطِل، وحلّ محله العبادة العقلية. وما هي العبادة العقلية؟ هي تلك التي تُقدم بالنفس وبالروح، لأنه يقول " الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا"، أي كل مَنْ هو ليس في احتياج للجسد، والأعضاء، والأماكن. مثل هذه الأمور، هي الرأفة، والتعقل، والرحمة، والتسامح، والاحتمال، والتواضع" تفسير العبرانيين، الأصحاح السادس، ص ١٨٣.

(أع ٢:٣٣). وبولس يقول إن المسيح «رُفِّع وأعطاه اسما فوق كل اسم» (في ٢:٩)، ليكون له السجود من الجميع.

لكن إن أراد أحدٌ أن ينظر لهذا النبات من جهة أخرى، إذ هناك مَن هم فضوليون حول معاني الأسماء، ولأن هذه الشجرة لها أوراق عريضة ومتسعة، فهم يقولون، إنها لأجل هذا دعيت في اللغة اليونانية بمعنى المتسعة. لأننا نحن اتسعنا بالإيمان والمحبة، وصرنا مزدهرين حول المسيح. لأن الناموس ضيق، وضيقٌ هو أيضاً عقل عابدي الأوثان، ولا يتسع لأحد. وحقا يصرخ الله لجميع الأمم بفم النبي: «تعلموا أن تسمعوا عندما تكونوا متضايقين» (أش ٢٨:٢٠س). وبولس الرسول يكتب إلى أهل كورنثوس الذين يريدون أن يرجعوا إلى الضلال القديم بعد اتساع الإيمان، قائلا: «فمنا مفتوح إليكم أيها الكورنثيون. قلبنا متسع. لستم متضيقين فينا بل متضيقين في أحشائكم. فجزاء لذلك أقول كما لأولادي كونوا أنتم أيضاً متسعين. لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين. لأنه أية خلطة للبر والإثم. أية شركة للنور مع الظلمة. وأي اتفاق للمسيح مع بليعال. وأي نصيب للمؤمن مع غير المؤمن» (٢ كو ٦:١١ ــ ١٥). يقول المرنم أيضاً لعمانوئيل مشيراً إلى ضيق الناموس: «أمَّا وصيتك فواسعة جداً» (مز ١١٩:٩٦)، و«في طريق وصاياك أجري لأنك ترحب قلبي»، وأيضاً: «أتمشى في رحب لأني طلبت وصايتك» (مز ١١٩:٤٥).

لكن العصا التي من شجر اللوز، كما قلت منذ قليل، تسبب يقظةً لمن يتناول ثمرها، يتضح هذا مما قاله الله لإرميا النبي: «ماذا أنت راءٍ يا إرميا. فقلت أنا راءٍ قضيب(عصا) لوز» (إر ١:١١)، فقال الرب: «أحسنت الرؤية لأني أنا ساهر على كلمتي لأجريها» (إر ١:١٢). هكذا فإن المسيح قدَّم لنا ذاته على أنه مثل

العصا التي ماتت وقامت ورُفعت إلى السموات[٢٨٥]، وأنه يوسِّع قلوب الذين يقبلونه بواسطة الروح القدس.

لكن أين وضع يعقوب العُصي؟ وضعها على أحواض المسقاة. وهي ترمز إلى المسقاة والأحواض التي تسقي عقولنا، أي الخاصة بنا، وكتابات موسى وتعاليم الأنبياء هي التي تُسكب علينا كلمة الله. لأنه مكتوب: «فتسقون مياهاً بفرحٍ من ينابيع الخلاص» (أش ١٢:٣). هناك سنجد عمانوئيل، عصا القوة نراه كميت لأجلنا، وهو البكر من الأموات (انظر كو ١:١٨)، ونراه يصعد إلى السموات ممجداً ويكثر هؤلاء الذين يؤمنون، كما قُلت سابقاً. لأن كل أقوال الأنبياء ومن بينهم موسى النبي، تقودنا إلى سر المسيح. لذلك قال بولس الرسول: «لأن غاية الناموس هي المسيح» (رو ١:٤).

إذن، خطّط يعقوب على العُصي بقعاً بيضاء نازعاً قشرها. هكذا الحيوانات توّحمت وولدت صغاراً ذات ألوان ناصعة. بالمثل، نزع المسيح ظلال الناموس

---

[٢٨٥] بصعود الابن أعطانا أن نوجد نحن أمام الآب، وهذا ما يؤكد علية القديس كيرلس في موضع آخر، في موضع آخر، قائلاً: '' إذن، كان القسطُ ـــ المن ـــ هناك لكي يُحفظ لأجيال بني إسرائيل؛ لأنَّ المسيحَ غيرُ فاسدٍ، بل هو باقٍ إلى الأبد، وهو حاضرٌ في كل وقت، وفي كل زمانٍ ماثلٌ أمام الرب، أي أمام أعين الآب. لأنَّ وحيدَ الجنسِ عندما صار إنساناً دخل بعد ذلك إلى قُدس الأقداس في الخيمة الأعظم والأكمل، أي في السماء لكي يظهر الآن أمام الله لأجلنا، كما هو مكتوب (انظر عب ٩: ٢٤). لأنه لا يقدِّم ذاته أمام الآب لأجل نفسه، بل يقدِّمنا في ذاته إلى الآب، بالرغم من أننا ضللنا من أمام وجه الآب بسبب مخالفة آدم، وبسبب الخطية التي مَلَكَت وسادت على الكل. إذن، فقد اقتادنا المسيحُ، وبواسطته تمكنَّا من الحضور إلى مدخل الأقداس كما قال لنا بولس الرسول. لأنه مثلما قُمنا مع المسيح، وجلسنا معه في السماويات، هكذا أيضاً نُوجد معه أمام الآب''. السجود والعبادة بالروح والحق، المرجع السابق، مرجع سابق، المقالة العاشرة ص ٤٠٣-٤٠٤.

وبُرقع الكتب النبوية، مقدماً هكذا الأقوال التي تحوي كل هذه الأمور ناصعةً ومرئية. لقد قدم نشيداً روحياً ساحراً، وأقنع الإرادة بأن تقبله وتحبل وتلد فضائل متنوعة متدربة بطريقتين: بالعمل والقول. لذلك عبّر الأنبياء العظام عن هؤلاء الذين تبرّروا بالإيمان، صارخين بقوة قائلين: «شددوا الركب المرتعشة ثبتوها. قولوا لخائفي القلوب تشددوا لا تخافوا. هوذا إلهكم. الانتقام يأتي. جزاء الله. هو يأتي ويخلصكم» (أش ٣٥:٣). وأيضاً «هوذا السيد الرب بقوةٍ يأتي وذراعه تحكم له. هوذا أجرته معه وعملته قدامه. كراعٍ يرعى قطيعة. بذراعه يجمع الحملان وفي حضنه يحملها ويقود المرضعات» (أش ٤٠ :١٠). بمعنى أن الحنان والرأفة ستكون روحياً لأولئك الذين يحملون الكلمة الإلهية فعلاً، لأنهم سوف يحملون ثماراً ويلدون أينما يكونون، مفاخر حياقم الإنجيلية، الأمر الذي لم يصر أبداً من قبل. لأن هذه هي ثمار النفوس التقية والتي بلا لوم.

يعقوب يزداد غنى

عَزَلَ يعقوب أيضاً رعيته، ولم تختلط بخراف لابان. لأنه أي اتفاق للمقدَّس مع الدنس، لأن الدَنِس يُدنس الطاهر. وهكذا أيضاً فإن أتباع يسوع هم منعزلون ويتجنبون الاختلاط مع الذين هم من العالم (انظر ٢كو ٦:١٤ ـــ ١٥). وحقاً هم متحررون من أي محبة للجسد، وهم ليسوا مجهولين من جهة حياتهم، بل بالحري هم معروفون جداً بسبب فضائلهم. لأنه يقول: «فصارت الضعيفة للابان والقوية ليعقوب» (تك ٣٠:٤٢). أيضاً لم يظل يعقوب بعيداً عن الغنى والوفرة. إذ بني لابان رأوه في هذا الغنى فاغتاظوا وجُرحوا جرحا كبيراً. لذا فَكَّـــــرَ يعقوب في الرحيلِ والرجوعِ إلى بيته الأبوي. لأنه مكتوب: «فَاتَّسَعَ

الرَّجُلُ كَثِيراً جِدّاً، وَكَانَ لَهُ غَنَمٌ كَثِيرٌ وَجَوَارٍ وَعَبِيدٌ وَجِمَالٌ وَحَمِيرٌ» (تك ٣٠:٤٣)، «فَسَمِعَ كَلامَ بَنِي لاَبَانَ قَائِلِينَ: «أَخَذَ يَعْقُوبُ كُلَّ مَا كَانَ لأَبِينَا، وَمِمَّا لأَبِينَا صَنَعَ كُلَّ هذَا الْمَجْدِ». وَنَظَرَ يَعْقُوبُ وَجْهَ لاَبَانَ وَإِذَا هُوَ لَيْسَ مَعَهُ كَأَمْسِ وَأَوَّلَ مِنْ أَمْسِ. وَقَالَ الرَّبُّ لِيَعْقُوبَ: «ارْجعْ إلى أَرْضِ آبَائِكَ وَإِلَى عَشِيرَتِكَ، فَأَكُونَ مَعَكَ». فَأَرْسَلَ يَعْقُوبُ وَدَعَا رَاحِيلَ وَلَيْئَةَ إلى الْحَقْلِ إلى غَنَمِهِ، وَقَالَ لَهُمَا: «أَنَا أَرَى وَجْهَ أَبِيكُمَا أَنَّهُ لَيسَ نَحْوِي كَأَمْسِ وَأَوَّلَ مِنْ أَمْسِ. وَلكِنْ إِلهُ أَبِي كَانَ مَعِي. وَأَنْتُمَا تَعْلَمَانِ أَنِّي بِكُلِّ قُوَّتِي خَدَمْتُ أَبَاكُمَا، وَأَمَّا أَبُوكُمَا فَغَدَرَ بِي وَغَيَّرَ أُجْرَتِي عَشَرَ مَرَّاتٍ. لكِنَّ اللهَ لَمْ يَسْمَحْ لَهُ أَنْ يَصْنَعَ بِي شَرّاً» (تك ٣١:١ ـــ ٧).

وحقاً رَبِحَ ربنا يسوع المسيح غنىً كثيراً، فقد جمع حشداً لا يُحصى من العالم كله يعبدونه، ويعترفون به قائلين: «لأنه هو إلهنا ونحن شعب مرعاه وغنم يده» (مز ٩٥:٧). لكن أولاد العالم لا يهدأون. وهم يرون أباهم يُنهب وخِرافه الجيدة تذهب ليد راعٍ آخر، وهذه الخراف الجيدة تتزين بفضائل متنوعة وكثيرة، إذ أنهم يولدون تحت إشراف المسيح. فتذمر أولاد لابان قائلين: «أخذ يعقوب كل ما كان لأبينا. ومما لأبينا صنع كل هذا المجد» (تك ٣١:١). وهم لم يتكلموا بالكذب، لأن قولهم حق. إذ أن المسيح قدَّم ذاته لكل الناس في العالم، وضم لحظيرته حشداً كبيراً وهم الذين آمنوا، وأغدق عليهم من الغنى الذي يليق بالله والمجد الذي يصل إلى علو السماء. لأنه هو نفسه قال لأبية السماوي: «وكل ما هو لي فهو لك. وما هو لك فهو لي وأنا ممجد فيهم» (يو١٧:١٠).

المسيح يقبل الكل

دعونا أيضاً نرى أجرة يعقوب، إذ يقول الكتاب: «فاتسع الرجل كثيراً جداً. وكان له غنم كثير وجوار وعبيد وجمال وحمير» (تك ٣٠:٤٣). وهكذا جَمَعَ المسيح كذلك من كل جنس وفق المكتوب «يُشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة في البحر وجامعة من كل نوع» (مت ١٣:٤٧). يقبل المسيح حتى العبيد والجواري، وبالامتيازات التي يسبغها عليهم، يُظهرهم لامعين وممجدين. إنه يقبل الذين تحت الناموس، وهذا ما يُشار إليه بالغنم الكثير، ويجعلهم ذبائحَ روحيةً ناقلاً إياهم إلى بهجة التعاليم الإنجيلية، ومقدِّساً إياهم إلى التمام. والجِمال والحمير يشيران إلى أنه يقبل حتى الدَّنِس وغير الطاهر، إذ أن المسيح طهَّر الدنسين من وسخ ضلال تعدد الآلهة، ووحدَّهم مع صفوف الطاهرين والأنقياء من القديسين.

الله يأمر يعقوب بالرجوع

إذن، عندما حرَّكت الغيرةُ أبناءَ لابان، وأيضاً لابان نفسه ظهر عابساً بدون بشاشة، والحسدُ مرتسمٌ على حاجبيه، لأن الكتاب يقول: «أرى وجه أبيكما أنه ليس نحوي كأمس وأول من أمس» (تك ٣١:٥)، أعطى الله أمراً ليعقوب بأن يرجع إلى وطنه. ويعقوب بدوره أرسل ليدعو زوجتيه، ليئة وراحيل، وحكى لهما بكل وضوح عن ظلم أبيهما، وأضاف قائلاً: «قال لي ملاك الله في الحلم يا يعقوب فقلت هأنذا. فقال ارفع عينيك وأنظر جميع الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومنمرة. لأني قد رأيت كل ما يصنع لك لابان ... قم أخرج من

هذه الأرض» (تك ٣١: ١١ ـــ ١٢)، «فأجابت راحيل وليئة وقالتا له ألنا أيضاً نصيب وميراث في بيت أبينا. ألم نحسب منه أجنبيين لأنه باعنا وقد أكل أيضاً ثمننا. إن كل الغنى الذي سلبه الله من أبينا هو لنا ولأولادنا. فالآن كل ما قال لك الله أفعل» (تك ٣١: ١٤ ـــ ١٦).

هذا يعني ـــ روحياً ـــ أنه عندما تصرَّف العالم وأولاده بحقد ضد المسيح، أُعطيَ للعروس من فوق ومن السماء أي من الآب، نُصحاً وتحذيراً. لكن النُصح أُعطيَ بواسطة الابن الذي نقل إلينا كلام الآب. لأن الذي أُرسِل من الله، يقول أقوال الله وفق أقوال يوحنا الإنجيلي.

لاحظ كيف تحدَّث الله ليعقوب، وذاك بدوره تحدث إلى زوجتيه، ليئة وراحيل. وحديث النُصح كان مفاده أنه يجب أن يرحلا مع عريسهما من مسكنيهما الأبوي. هكذا المرنم الطوباوي الملهم بالروح يقول تجاه الكنيسة «اسمعي يا بنتِ وانظري وأميلي أذنك وأنسي شعبك وبيت أبيك. فيشتهي الملك حُسنك لأنه هو سيدك فأسجدي له» (مز ٤٥: ١٠ ـــ ١١).

بناءً على ذلك، قال يعقوب لزوجتيه قول الله. وما هو هذا القول؟ إدانة لابان بأنه ظالم وشرير ومتراخ في دفع الأجور المديون بها. روحياً، أيضاً أدان المسيحُ العالم لعدم إحساسه، فبدلاً من أن يشكره كرب لاعتنائه به بعطايا روحية مثل الإيمان والمحبة، كان ناكراً للجميل. لكن عطايا الله أتت ـــ بالمسيح ـــ من الله الآب، لأن الابن يقول له: «أنا أظهرت أسمك للناس الذين أعطيتني من العالم. كانوا لك وأعطيتهم لي وقد حفظوا كلامك» (يو ١٧: ٦). وهذا ما يقصده بعبارة «إن كل الغنى الذي سلبه الله من أبينا هو لنا».

وبالتأكيد، عروس المخلِّص الفاضلة تعهَّدت بأن تتبعه، لأنها سبق للعالم أن باعها، مثلما قالت راحيل وليئة «لأنه باعنا وقد أكل أيضاً ثمننا». حقيقةً اشترى عمانوئيل بدمه الكنيسة التي تغرَّبت وابتعدت عن أبيها القديم (العالم)[٢٨٦]. لأنه لا يوجد أي سبب لديها لتتصل بالعالم أو أن يكون لها أي نصيب معه. وغناها هي وأولادها يفوق كل عقل وكل منطق. عمانوئيل هو نصيبها وميراثها ومجدها وفخرها وهو كل شيء يساهم في بهاءها وراحتها، أما العالم وأولاده، فهم — بالطبع — غاضبون ضد المسيح ويستعرون بلهيب الحسد، وهم يشاهدونه يصل إلى مثل هذا المجد حتى إن المسكونة كلها تحت سلطانه، وصار سيداً على كل البشر الذين على الأرض. لكن كون أن جنونه ضده، مضى أبعد من الشتائم والسباب، إذ شَرَعَ في طرده وقتله والتطاول الكبير ووقاحته ضد مجد المخلص، وكذلك استمراره في محاربة كنيسته وأولاده، أي جمع الذين آمنوا، نستطيع أن نراه من الآتي: «فَقَامَ يَعْقُوبُ وَحَمَلَ أَوْلاَدَهُ وَنِسَاءَهُ عَلَى الْجِمَالِ، وَسَاقَ كُلَّ مَوَاشِيهِ وَجَمِيعَ مُقْتَنَاهُ الَّذِي كَانَ قَدِ اقْتَنَى: مَوَاشِيَ اقْتِنَائِهِ الَّتِي اقْتَنَى فِي فَدَّانِ أَرَامَ، لِيَجِيءَ إِلى إِسْحَاقَ أَبِيهِ إِلى أَرْضِ كَنْعَانَ. وَأَمَّا لاَبَانُ فَكَانَ قَدْ مَضَى لِيَجُزَّ غَنَمَهُ، فَسَرَقَتْ رَاحِيلُ أَصْنَامَ أَبِيهَا. وَخَدَعَ يَعْقُوبُ قَلْبَ لاَبَانَ الأَرَامِيِّ إِذْ لَمْ يُخْبِرْهُ بِأَنَّهُ هَارِبٌ. فَهَرَبَ هُوَ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ، وَقَامَ وَعَبَرَ النَّهْرَ وَجَعَلَ وَجْهَهُ نَحْوَ جَبَلِ جِلْعَادَ. فَأُخْبِرَ لاَبَانُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ بِأَنَّ يَعْقُوبَ قَدْ هَرَبَ. فَأَخَذَ إِخْوَتَهُ مَعَهُ وَسَعَى وَرَاءَهُ مَسِيرَةَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، فَأَدْرَكَهُ فِي جَبَلِ جِلْعَادَ. وَأَتَى اللهُ إِلى

---

[٢٨٦] وبحسب تعبير القديس يوحنا ذهبي الفم: "لقد اشترى (المسيح) ما يخص خلاصنا، وأعطاه لنا فيما سبق عربونا" تفسير الرسالة إلى أفسس، الإصحاح الأول، ص٥٠.

لأَبَانَ الأَرَامِيِّ فِي حُلْمِ اللَّيْلِ وَقَالَ لَهُ: احْتَرِزْ مِنْ أَنْ تُكَلِّمَ يَعْقُوبَ بِخَيْرٍ أَوْ شَرّ. فَلَحِقَ لأَبَانُ يَعْقُوبَ، وَيَعْقُوبُ قَدْ ضَرَبَ خَيْمَتَهُ فِي الْجَبَلِ. فَضَرَبَ لأَبَانُ مَعَ إِخْوَتِهِ فِي جَبَلِ جِلْعَادَ» (تك ٣١:١٧ ــ ٢٥).

لقد وجد لابان يعقوب وأدانه كثيراً لأنه رحل خفيةً وسرق بناته وآلهته. لأنه قال له الآتي: «والآن أنت ذهبت لأنك قد اشتقت إلى بيت أبيك. ولكن لماذا سرقت آلهتي»، فأجاب يعقوب وقال للابان «إني خِفت لأني قلت لعلك تغتصب ابنتيك مني. الذي تجد آلهتك معه لا يعيش. قدام إخوتنا أنظر ماذا معي وخذه لنفسك. و لم يكن يعقوب يعلم أن راحيل سرقتها ... فجس لابان كل الخباء و لم يجد» (تك ٣١:٣٠ ــ ٣٥). لكن راحيل، كانت تتوقع أن أبيها سوف يفتش الخيمة، وشرعت في عمل في منتهى الدهاء، لأنه يقول: «وكانت راحيل قد أخذت الأصنام ووضعتها في حداجة الجمل وجلست عليها ... وقالت لأبيها لا يغتظ سيدي أني لا أستطيع أن أقوم أمامك لأن عليَّ عادة النساء. ففتش و لم يجد الأصنام» (تك ٣١:٣٥).

اغتاظ يعقوب وأدان لابان؛ لأنه ظلمه و لم يستطع أن يجد شيئاً ليشتكيه. ثم بعد ذلك تبادلا الحديث معاً وتفاهم الأثنان وصارا في سلام. لأنه مكتوب: «فَأَجَابَ لأَبَانُ وَقَالَ لِيعقُوبَ: الْبَنَاتُ بَنَاتِي، وَالْبَنُونَ بَنِيَّ، وَالْغَنَمُ غَنَمِي، وَكُلُّ مَا أَنْتَ تَرَى فَهُوَ لِي. فَبَنَاتِي مَاذَا أَصْنَعُ بِهِنَّ الْيَوْمَ أَوْ بِأَوْلاَدِهِنَّ الَّذِينَ وَلَدْنَ؟ فَالآنَ هَلُمَّ نَقْطَعْ عَهْداً أَنَا وَأَنْتَ، فَيَكُونُ شَاهِداً بَيْنِي وَبَيْنَكَ. فَأَخَذَ يَعْقُوبُ حَجَراً وَأَوْقَفَهُ عَمُوداً، وَقَالَ يَعْقُوبُ لإِخْوَتِهِ: الْتَقِطُوا حِجَارَةً. فَأَخَذُوا حِجَارَةً وَعَمِلُوا رُجْمَةً وَأَكَلُوا هُنَاكَ عَلَى الرُّجْمَةِ. وَدَعَاهَا لأَبَانُ يَجَرْ سَهْدُوثَا وَأَمَّا

يَعْقُوبُ فَدَعَاهَا جَلْعِيد. وَقَالَ لاَبَانُ: هذِهِ الرُّجْمَةُ هِيَ شَاهِدَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ الْيَوْمَ. لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا جَلْعِيدَ» (تك ٣١: ٤٣ ــ ٤٨).

المعنى العميق للأحداث

لقد سردنا بإيجاز سريع، الأحداث الخاصة بالبطريرك يعقوب، وقد حرصنا على أن نختصر في حديثنا عن الجانب التاريخي. لكن من الضروري أن نوضح الآن المعنى العميق لهذه الأمور. حسناً، لا نحتاج إلى جهدٍ مضنٍ لكي نتحقق من خلال هذه الأحداث أن العالم قد انتابه جنون شديد، لأن المسيح ربح هذا الجمع من المؤمنين بعدما انتصر على الشيطان المتوحش[٢٨٧]. فمثلما رحل يعقوب وقام لابان بإدانته هو وأولاده وتكلموا عليه بكلام سيء، هكذا عندما شرع المسيح في الرحيل مع عروسه. أي الكنيسة (الممثلة في التلاميذ) قال ــ بطريقة روحية ــ لخاصته: «قوموا ننطلق من ههنا» (يو ١٤: ٣١). لكن الرحيل لم يكن بطريقة مادية محسوسة، ولا هم انتقلوا من مكان إلى مكان بطريقة جسدية (لأنه من غير اللائق أن نعتقد أو نقول مثل هذا القول)، لكن تحقيق هذا الأمر (أي

---

[٢٨٧] والقديس يوحنا ذهبي الفم أيضًا في عظته عن ''الصليب'' يقول: ''إذا عرفت بأي طريقة انتصر المسيح، سوف يصير إعجابك أعظم. فبنفس الأسلحة التي غلب الشيطان بها الإنسان، انتصر المسيح عليه. واسمع كيف؟ عذراء وخشبة وموت هي رموز هزيمتنا. العذراء كانت حواء، لأنها لم تكن قد عرفت رجلها. الخشبة كانت الشجرة (التي أوصى الله آدم بألاّ يأكل منها) والموت كان عقاب آدم. لكن العذراء والخشبة والموت التي كانت رموزًا لهزيمتنا، صارت رموزًا للانتصار. لأن لدينا مريم العذراء بدلاً من حواء، ولدينا خشبة الصليب بدلاً من شجرة معرفة الخير والشر، ولدينا موت المسيح بدلا من موت آدم. هل رأيت، فالشيطان هُزم بنفس الأسلحة التي انتصر بها قديمًا؟!'' انظر كتاب ''الصليب'' عظتان للقديس يوحنا ذهبي الفم، ابريل ٢٠٠٤، العظة الثانية، ص ٢٨و٢٩.

الرحيل عن العالم) بألا ننشغل بأمور هذا العالم، بل ننشغل بعمل كل ما يسر الله. لذا قال بولس الطوباوي «لأن ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا نطلب العتيدة» (عب ١٣ :١٤)، وأيضاً قديس آخر قال: «أطلب إليكم كغرباء ونزلاء أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية التي تحارب النفس» (١ بط ٢ :١١). يجب علينا أن نسلك كأننا موجودون في السماء[٢٨٨] بالرغم من أننا نحيا على الأرض (انظر في ٣ :٢٠)، ونحرص على أن نحيا بعد الآن لا بطريقة جسدية، بل بالحري بطريقة روحية كما يليق بالقديسين. ويحثنا في هذا الأمر بولس الطوباوي حين قال «ولا تشاكلوا هذا الدهر. بل تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم لتختبروا ما هي إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة» (رو ١٢ :٢). لكن لأننا لا نخضع لهذا العالم ونبتعد عن الضلال، فإن العالم سيبغضنا. والمخلّص العارف بهذا الأمر يقول لنا «إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم» (يو ١٥ :١٩).

بناءً على ذلك قد حكم العالم على المسيح لأنه يُبغض المسيح. لكن الله يُقيِّد هذا الثور الهائج والقاتل ولا يسمح له أن يؤذينا، بيد أن كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يضايقنا بكلام قاسٍ. وهذا نفهمه من قول الكتاب «وأتى الله إلى لابان الآرامي في حلم الليل. وقال له احترز من أن تكلم يعقوب بخيرٍ أو شرٍ» (تك

---

[٢٨٨] يحثنا القديس يوحنا ذهبي الفم على التمسك بالخيرات السماوية ونحتقر الأرضية، قائلاً: "ألا تعلم، لو أنك امتلكت عشرة أضعاف المسكونة، ومئات الأضعاف، وآلاف المرات أكثر، وأضعاف الآلاف، فإنه لا يُعد شيء أمام جزء يسير من الخيرات السمائية؟ إذًا فذاك الذي يُعجب بالخيرات الأرضية، يكون قد احتقر الخيرات السمائية. إن كان حقًا يعتبر الخيرات الأرضية مستحقة للاهتمام، فإنه يبتعد أكثر عن الخيرات السمائية، أي كيف يمكنه أن ينجذب إليها، مادام هو منجذب للخيرات الأرضية. فلنمزق ولو متأخرًا، الحبال والخيوط التي تقيدنا، لأن هذه الحبال وهذه الخيوط هي الأمور الأرضية" تفسير الرسالة إلى العبرانيين، الإصحاح الحادي عشر، ص٣٣٢.

٢٤:٣١). وقد اتهمه لابان (أي العالم) بسبب أنه سُلب ونُهب وضاعت آلهته، إذ أن راحيل كانت قد سرقتها. انتبه إذاً ماذا فعل؟ لقد فتش لابان وبحث عن الآلهة عند ليئة والجاريتين و لم يجدها، لأن راحيل جلست فوقهما متعللة بأن عليها عادة النساء. وإنني أتساءل ما الذي يشير إليه هذا الكلام؟ يشير إلى أن تحريم الأصنام نهائياً لم يكن مهمة أضطلع بها مجمع اليهود، ولا أولئك الذين كانوا عبيداً، بل كانت مهمة راحيل الشابة التي ترمز إلى الكنيسة، التي اعتبرت الأصنام من أعمال البشر الحقيرة وطبَّقت عليها ما قاله النبي: «وتنجسون صفائح تماثيل فضتكم المنحوتة وغشاء تمثال ذهبكم المسبوك. تطرحها مثل فرصة حائض. تقول لها اخرجي» (أش ٣٠:٢٢).

ثم بعد ذلك، صنع لابان ميثاق سلام مع يعقوب منذ ذلك الوقت الذي لم يجد فيه آلهته. وهذا يشير إلى أنه عندما تختفي آلهة العالم سيصير هذا العالم صديقٌ لنا. وبالفعل صار المسيح أيضاً عهد سلام[٢٨٩]. المسيح الذي هو حجر امتحان، حجر عثرة، حجر الزاوية الكريم، الذي هو أساس صهيون، لأنه مكتوب «هاأنذا أؤسس في صهيون حجراً حجر امتحان حجر زاوية كريماً أساساً مؤسساً» (أش ١٦:٢٨، انظر أف ٢٠:٢). هكذا الحجر الذي أخذه يعقوب وأوقفه عموداً (انظر تك ٤٥:٣١) يرمز إلى المسيح. أما الأحجار الأخرى التي تجمعت مكتوب عنها: «وقال يعقوب لإخوته التقطوا حجارة. فأخذوا حجارة وعملوا رجمة وأكلوا هناك على الرجمة» (تك ٤٦:٣١)، فهي تشير إلى الرسل القديسين الذين

---

[٢٨٩] "وَلكِنِ الآنَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، أَنْتُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ قَبْلاً بَعِيدِينَ، صِرْتُمْ قَرِيبِينَ بِدَمِ الْمَسِيحِ. لأَنَّهُ هُوَ سَلاَمُنَا، الَّذِي جَعَلَ الاثْنَيْنِ وَاحِدًا، وَنَقَضَ حَائِطَ السِّيَاجِ الْمُتَوَسِّطَ أَيِ الْعَدَاوَةَ. مُبْطِلاً بِجَسَدِهِ نَامُوسَ الْوَصَايَا فِي فَرَائِضَ" (أف ١٣:٢ ــ ١٥).

تبرروا بالإيمان وتقدسوا بالروح واشتركوا في عهد السلام بالمسيح. لأن الكلمة النبوية قالت عن الرسل القديسين: «كحجارة التاج مرفوعة على أرضه» (زك ٩:١٦). التلاميذ العظماء جالوا في كل الأرض حاملين بشارة الإنجيل للأمم. وبولس الحكيم قال لأولئك الذين تبرّروا بالإيمان: «الذي فيه أنتم أيضاً مبنيون معاً مسكناً لله في الروح» (أف ٢:١٢).

حسناً، لقد تجمعت كومة الحجارة ودُعيت من قبل لابان «يجر سهدوثا» (تك ٣١:٤٧) (أي رجمة الشهادة Βουνὸς μαρτυρίας) بينما يعقوب نقل رمزية الاسم إلى الأعظم والفائق أي إلى المسيح داعياً كومة الحجارة «جبل الشاهد»[٢٩٠]، لأن رأس هؤلاء الرسل الذين آمنوا هو المسيح نفسه Κεφαλὴ γάρ τῶν πιστευόντων αυτός ὁ χριστός. أيضاً كون أن المسيح المخلّص هو الذي يخلص المؤمنين خاصته ويخرجهم بعيداً عن شر هذا العالم ويحيطهم بجمع الملائكة الذين جعلوا مسئولين عن خدمة هؤلاء المؤمنين، كل هذا يمكن أن يتعلمه المرء بسهولة من الآتي: عندما رحل لابان راجعاً إلى وطنه سالماً يقول الكتاب: «أما يعقوب فمضى في طريقه ولاقاه ملائكة الله. وقال يعقوب إذ رآهم هذا جيش الله. فدعا اسم ذلك المكان محنايم» (تك ٣٢:١ — ٢). ومكتوب أيضاً «ملاك الرب حال حول خائفيه وينجيهم» (مز ٣٤:٧) وكذلك «لأنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك في كل طرقك» (مز ٩١:١١)

---

[٢٩٠] تختلف عبارة يعقوب في المعنى عن عبارة لابان؛ لأن عبارة يعقوب ''جبل الشاهد'' تشير إلى شخص الشاهد وليس مثل عبارة لابان ''رجمة الشهادة'' المجردة التي تدل على معنى الشهادة.'Βουνὸς μαρτυρίας''

أي أن ربنا يسوع المسيح يخلّص كل أولئك الذين يحبونه، هذا الذي به وبواسطته ومعه المجد لله الآب والروح القدس إلى أبد الآبدين آمين.

الاقتداء بالقديسين

أولئك الذين اختاروا الحياة الفُضلى يعجَبون بحياة القديسين، إذ أن الكلام لا يكفي لوصف بهاء حياة القديسين. فالقديسون هم مثالٌ جميل للذين يريدون أن يحيوا بالتقوى؛ لأنهم كرزوا بكافة الطرق عن أسلوب الحياة الجميلة والفاضلة، وهو الأسلوب المرضي عند الله. ولست أنا فقط، بل الكتاب المقدس نفسه يحثنا على أن نتمثل بنهاية سيرة هؤلاء القديسين وبإيمانهم وأن نتبع آثار الفضيلة الموجودة فيهم. لأنه من العبث إنه بينما نجد علماء في علوم متنوعة قد تتلمذوا لأساتذة من الذين سبقوهم، ويتفاخرون بأنهم يطبقون بدقة ما هو صحيح من جهة العلوم اعتماداً على هؤلاء الأساتذة، فإننا نحن الذين نقصد أن نحيا في الفضيلة لا نثبّت عيون أذهاننا على منهج حياة القديسين الأقدمين لكي نتعلّم منهم الأمور التي بها يستطيع المرء أن يصير متمرساً ومختبراً أمام الله، ويملأ ذهنه بمعرفة طريقة الحياة الفاضلة.

يعقوب العظيم مثالٌ لنا

إذن، فلنأخذ يعقوب العظيم مثالاً لنا، الذي قطع شوطاً كبيراً على قدر ما يتناسب مع عصره في الطريق المستقيم للحياة آخذاً إله الكل معيناً وقائداً له، الله الذي ارتضى أن يسمح له ــ لأجل فائدته ــ أن يكابد أتعاباً كثيرةً. لأنه ليس من الممكن أن ينال المرء مفاخر الفضيلة بدون تعب. وقد كلّله الله، بعد

التجارب، بنعم وعطايا من تلك التي تُعطى للمصارعين الأقوياء بسبب مواجهاتهم الصعبة والكثيرة[٢٩١].

حسناً، لا تقل لنفسك: لماذا لم يمنح الله القديسين حياةً بدون تعب طالما هو يعرف أنهم سيفلحون ويعترفون بإحسانه ويبجلونه؟ إنه لو (فعل هكذا) فهذا معناه إنه سوف يتركهم في الحياة بدون أن يتدربوا، وهكذا يكون أجرهم قليلاً بالمقارنة بالأجر العظيم الذي يناله من يحيا في الفضيلة. وأيضاً، فإن قبول الله لهم سيكون ليس بسبب أنهم في داخلهم لهم تأهب واستعداد وإرادة قوية ومنافسة جليلة لاكتساب المواهب، بل عكس ذلك. فإنه كان يجب عليهم أن يبرهنوا أنهم مختبرون جيدون، ويظهِرون بأعمالهم مسبقاً أنهم جديرون بتلك العطايا المُعطاة من الله. وكان ينبغي عليهم أيضاً أن يكونوا أمثلةً ونماذج تُحتذى بالنسبة للاحقين في تفضيلهم للألم والصبر مبرهنين على أن أولئك الذين يحيون بتنعم لا ينالون مكافأة، بينما ينال المكافأة أولئك الذين يفضلون الألم والتعب والجهد لأجل حياة صالحة. قال أحد الحكماء: «يا بُني، إن أقبلت لخدمة الرب فأعدد نفسك للتجربة. أرشد قلبك وأصبر» (حكمة ابن سيراخ ٢: ١)، كما هو مكتوب أيضاً «الصبر تزكية والتزكية رجاء. والرجاء لا يُخزي لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعُطى لنا» (رو ٥: ٤ـــ٥. راجع مز ٢٥: ٢٠).

---

[٢٩١] يدعونا القديس يوحنا ذهبي الفم إلى حياة الجهاد، قائلاً: "فلتستعد هكذا مثل جندي شجاع، وأن تكون دائمًا مُتسلّحًا، وهادئًا، ويقظًا مستعدًا لهجوم العدو. لكن يجب إلّا تستدعي الحرب، لأن هذه ليست سمة جندي، بل سمة العاصي والمخالف. أما إذا دعاك بوق التقوى، فتجنّد علىٰ الفور، احتقر الحياة، انطلق إلى الجهاد الروحي برغبة كبيرة، حطم فيلق الأعداء، اقطع وجه الشيطان، وأَقم نصب الانتصار" تفسير الرسالة إلى العبرانيين، ص ١٠٦.

دعونا نأتي إلى الهدف من حديثنا. لقد أسرع يعقوب، بعد رحيل لابان من جبل جلعاد، في السير في طريقة وأراد أن يُعجِل بانطلاقه. لكن بمجرد أن تحرر من هجوم لابان واستراح قليلاً، فإنه سقط حالاً في مخاوف مرعبة. لقد رحل مِن ما بين النهرين سائراً نحو حاران، وكان ينبغي أن يمر في أرض سعير حيث يسكن عيسو، لذا استولى عليه خوفٌ شديد. لأنه لم ينسَ أن عيسو كان غاضباً وحزيناً بسبب البركة والبكورية.

حسناً، بأي طريقة جعل أخاه عيسو يتحرر من الحزن والغضب، ونقله إلى المحبة والوداعة، ألا يستحق أن نتأمل في هذا الأمر الجدير بالإعجاب؟ فنحن نقرأ ما يلي: «وأرسل يعقوب رُسلاً قدامه إلى عيسو أخيه إلى أرض سعير بلاد أدوم».

أرأيت كيف إنه يلاطف عيسو، ويقع عند قدميه متأسفاً، وقد حاول أن يتجنب غضبه الشديد بأقواله الحسنة؟ لأنه بالرغم من أنه صار الأعظم ببركة أبيه وتفوق عليه بمجد البكورية، وكان له الله معيناً، فإنه تنازل كما يليق بالقديسين، وتصرف بالطريقة التي أشار بها بولس فيما بعد «إن كان ممكناً فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس» (رو ١٢:١٨). لأن الكلمة القاسية والثقيلة والمملوءة بالتفاخر والتعالي لا يمكن لأحد أن يحتملها. وكما كتب حكيم الأمثال «الجواب اللين يصرف الغضب» (أم ١٥: ١). لاحظ من فضلك بصيرة البار المملوءة تقوى. لقد أرسل رُسلاً لكي يطلبوا السلام ويحملوا كلاماً لطيفاً لعيسو. لقد أمرهم بشدة أن يقولوا له: «هكذا قال عبدك يعقوب» (تك ٣٢:٤). لقد استند يعقوب على الصلاة وطلب المعونة التي تنقذ، وعلى الرجاء في عمل الله، فعندما أشار إلى الماضي قال: «فإني بعصاي عبرت هذا الأردن والآن قد صِرت جيشين» (تك

١٠:٣٢). كأنه يقول يا رب بعصاي فقط والتي كانت معي عبرت الأردن وصِرت بعد ذلك سيداً لكثيرين نائلاً رضاك.

دعونا نحن أيضاً أن نعرف من كل هذا إنه يجب أن نكون ودعاء وصانعي سلام راغبين بكافة الطرق أن نحيا في سلام، لأنه مكتوب: «عبد الرب لا يحب أن يُخاصم بل يكون مترفقاً بالجميع» (٢ تيمو ٢:٢٤). ويجب علينا أيضاً أن نستخدم الطرق والأساليب البشرية[٢٩٢] كما فعل يعقوب، لأجل الصلاح، وهذه لن تعيقنا، بل ستكون من الأمور الممدوحة طالما تهدف إلى النسلام والمصالحة. ومن الضروري عندما نفعل هذا الأمر أن نطلب عناية الله والمعونة السماوية بدون أن نكون «متفاخرين» (انظر رو ١٢: ١٦)، بل متذكرين بالحري ما هو مكتوب «ازدد تواضعاً ما ازددت عظمةً فتنال حُظوةً لدى الرب» (حكمة ابن سيراخ ٣:١٨ ــ انظر فيلبي٢:٣).

فلنسعَ أن نحيا ونعمل بهذه الطريقة، وسوف نربح خيرات الصلح والسلام، وهؤلاء الذين لهم أساليب شرسة ضدنا، سوف نجعلهم مسالمين. لأنه يقول: «ستكون الوحوش مسالمة لك» (أيوب ٥:٢٢س).

هذا ما فعله يعقوب. لأنه لم يلاطف أخيه فقط بكلام ناعم ومعسول، بل قدَّم له عطايا، جاعلاً إياه شريكاً في ما يملك، إذ أعطى له جزءً كبيراً من الأغنام والماعز، وكذلك من العجول والحمير والجِمال والقطعان. لأن السلام أسمى من

---

[٢٩٢] يقصد هنا كل المناهج البشرية والأساليب العلمية والمجهودات والمبادرات التي يقوم بها البشر والتي تهدف إلى المصالحة والسلام.

الأموال والممتلكات، وينبغي أن تكون الأولوية لمحبة الأخوة قبل الممتلكات الوقتية.

كان يعقوب طبعاً ـــ كما قال هو بنفسه ـــ خائفاً من أخيه عيسو كأن الأخير سيصُبُّ جام غضبه عليه، لذا عانى من ضيق شديد. لكن عيسو سما فوق غيرته القديمة وعانق يعقوب. وقبّله باكياً. لأنه وفقاً لنواميس الطبيعة البشرية تنتصر المحبة الأخوية على الغمة الثقيلة والغضب. إذ نقرأ: «فركض عيسو للقائه وعانقه ووقع على عُنقه وقبله باكياً» (تك ٣٣:٤). وكل مفاخر الوداعة هي ثمرة التصرف المتواضع الذي يخلو من التغالي، وعطية رضى الله لهؤلاء الذين يحبونه، الله الذي يحل الصعاب ويُقوِّم المعوجات، إذ يمنح للمقربين منه نفساً هادئة.

أعتقد أنه يجب أن نغيِّر حديثنا، ونحاول إعطاء شرح روحي لهذه الأمور التي سردناها.

حسناً، فلنمض في حديثنا ونعود إلى بداية الكلام، لأنه هكذا يمكن لنا أن نوضح سر المسيح لأولئك الذين يبتغون الاستفادة.

التفسير الروحي لقصة يعقوب

كان يعقوب التقى خائفاً جداً من أخيه عيسو الذي كانت تصرفاته تتسم بالوحشية، إذ كان قتّالاً مثل الوحش، لذلك قرَّر يعقوب أن يقيم في حاران عند لابان بعدما نال موافقة أبيه إسحق. إذ ظنَّ أبوه أنه بهذه الطريقة يُجنب يعقوب هجوم عيسو المغتاظ والحزين. وعندما وصَّل يعقوب عند لابان تزوَّج ـــ كما رأينا ـــ من ابنتيه اللتين هما ليئة وراحيل، وأنجب أولاداً، واكتسب قطعاناً من الماشية وثروةً كبيرة. وعندما رأى أنه قد امتلك خيرات وفيرة جداً، فكَّر في أن

يكون له بيته الخاص. وهكذا رحل من حاران ومن بيت لابان ومعه كل ما حصل عليه، وطبعاً رحل معه امرأتاه وأولاده. لكن لابان اغتاظ وتعقبه حتى وصَّل إليه، إلَّا إنه صنع اتفاق سلام ورباط محبة معه، وأُكِّد هذا الاتفاق بإقامة نُصُبٍ من الحجارة، هذا النُصُب يشير إلى المسيح.

ثم بعد ذلك، بعدما مضى لابان راجعاً إلى بيته، شَرع يعقوب في صنع اتفاق سلام مع أخيه عيسو، ذاك الذي كان سابقاً يريد أن يقتله وساخطاً عليه. وقد تمَّ ذلك بعد أن عانق أحدهما الآخر، وهكذا دفنا بتصرفات المحبة هذه، كل ما حدث بينهما في الماضي.

لكني أذكركم بأننا قلنا إن يعقوب يشير إلى شخص المسيح، وأيضاً يشير أحياناً إلى أولئك الذين يتبررون بالإيمان، بينما عيسو يشير إلى شعب الختان والناموس، حيث إن الرب إله الكل قال لرفقة وهي ما زالت تعاني آلام الولادة: «في بطنك أمتان. ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعب. وكبير يُستعبد لصغير» (تك ٢٥: ٢٣)، الأمر الذي يتحقق في المسيح؛ لأنه بينما كان بنو إسرائيل الأولون زمنياً ولأجل هذا السبب دُعُوا أبكاراً، إلَّا أنهم صاروا بعد أولئك الذين آمنوا بالمسيح، هؤلاء الذين ورثوا أيضاً مجد البِكر، بسبب وجود المسيح البِكر بينهم، وبالرغم من أنه هو الوحيد الجنس[٢٩٣]، إلَّا أنهم صاروا

---

[٢٩٣] يركز القديس كيرلس هنا على مصطلح ''الابن الوحيد'' أو ''وحيد الجنس'' للدلالة على أن الابن ليس له مثيل وبالتالي هو ابن الله الوحيد، إذن تقاس عظمة محبة الله على أنه بذل ابنة الوحيد. وعلى ذلك فهو ابن الله الواحد مع الآب في الجوهر وليس مجرد مخلوق. بالإضافة إلى هذا يقارن في شرحه ليوحنا في نفس السياق مَنْ يخالف الناموس بالذي داس ابن الله مستشهداً بما ورد في (عب ١٠: ٢٨ ــ ٢٩): ''مَنْ خَالَفَ نَامُوسَ مُوسَى فَعَلَى شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةِ شُهُودٍ يَمُوتُ بِدُونِ رَأْفَةٍ. فَكَمْ عِقَاباً أَشَرَّ تَظُنُّونَ أَنَّهُ يُحْسَبُ مُسْتَحِقّاً مَنْ دَاسَ ابْنَ اللهِ'' إذ

متمثلين به نائلين الولادة الثانية من جهة عدم الموت والقداسة بواسطة الروح القدس.

إذن، فقد طارَّد ولاحق إسرائيل المشار إليه بعيسو، المسيحَ المشار إليه بيعقوب. لكن كما قُلنا، فأن يعقوب يشير أحياناً إلى المسيح، وأحياناً أخرى يشير إلى شعب الإيمان الجديد، وذلك حسب السياق الملائم لذلك. فالمسيح الطريد أقام في بلاد الأمم، صارخاً: «قد تركت بيتي رفضت ميراثي دفعت حبيبة نفسي ليد أعدائها. صار لي ميراثي كأسد في الوعر. نطق عليَّ بصوته. من أجل ذلك أبغضته» (إر ١٢:٧ ــ ٨). وأيضاً، بعد القيامة من الأموات، بلطف وداعته أعلن ذاته للمريمات في البستان، قائلاً: «اذهبا قُولا لإخوتي أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يرونني» (مت ٢٨:١٠). هكذا عندما وصل المسيح إلى الجليل (جليل الأمم) (أنظر مت ٤: ٥) مثلما وصَّل يعقوب إلى حاران، رعى خِراف لابان، أي خِراف العالم، هذا العالم الذي كان يعبد المخلوقات، وكان في ضلالٍ مثل لابان. عندما ذهب المسيح هناك، كمثل عريس، وضع داخل بيته الروحي عذراء نقية، أي الكنيسة التي من الأمم، التي تشير إليها راحيل في قصتنا. ووضع أيضاً في بيته تلك المرأة التي كان قد سبق وتزوجها بالفعل، أي مجمع اليهود، أقصد ليئة ــ في قصتنا ــ وهي التي كانت تشير إلى المجمع اليهودي «لأن البقية

يقول: "لأن مَنْ يحتقر الحقيقة يُعتبَر كأنه قد داس تحت الأقدام، لا الابن الحقيقي، بل خادماً زميلاً لموسى، إذ المخلوق من جنس المخلوق، على الأقل بسبب أن كليهما قد خُلق، حتى أن فاق أحدهما الآخر في المجد، فيما يخص امتيازات كونه أكبر أو أفضل. لكن كلمة بولس صادقة. لأنه لابد أن يحل عقاب شديد بمن داس الابن، إذاً عظيم وفائق للطبيعة هو حب الآب، الذي بذل ابنه الذاتي والذي هو من ذاته لأجل حياة العالم". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، ص ١٩٤ ــ ١٩٥.

ستخلص» وفق كلمات النبي، إذ ليس كل الجماعة اليهودية نالت النعمة بواسطة الإيمان بالمسيح. فعندما صار المسيح العريس[٢٩٤] مقبولاً لدى الأمم وَلَدَ بالنعمة كثيرين جداً بالتبني الروحي، وجمَّع حقاً جمعاً كبيراً من الخِراف العقلية، في الوقت الذي طُرِد من العالم؛ لأن البعض من أناس هذا العالم حاربوا مجد المسيح لأنهم كانوا معتمدين على الغنى والسلطة. لكن النعمة الإلهية هدأّت العالم وسكّنته، وعقد (أناسٌ من هذا) العالم اتفاق سلام مع المسيح مثلما فعل لابان مع يعقوب (أنظر تك ٣١:٤٤ ــ ٥٢). أيضاً بعد مرور عدد من السنين جعل ربنا يسوع المسيح إسرائيل مُطارده القديم من ضمن خاصته، مثلما عانق يعقوب، بعد رحيله من حاران، عيسو طارده القديم.

وكون أن إسرائيل سوف يصير مقبولاً في محبة المسيح بالإيمان بعد مرور الوقت، فهذا لا يقبل الشك أبداً، إذ أننا نؤمن بكل ما قيل في الكتاب المقدس الموحى به من الله. لأن رب الكل قال بفم أحد الأنبياء القديسين: «لأن بنى إسرائيل سيقعدون أياماً كثيرة بلا ملك وبلا رئيس وبلا ذبيحة وبلا تمثال وبلا أفود وترافيم. بعد ذلك يعود بنو إسرائيل ويطلبون الرب إلههم وداود ملكهم ويفزعون إلى الرب وإلى جُوده في آخر الأيام» (هوشع ٣:٤ ــ ٥).

لأنه بينما لا يزال مخلصنا المسيح يُجمّع أولئك الذين يؤمنون به من الأمم، كان إسرائيل يهدأ قليلاً غير متمسكٍ بالأمور التي يجب أن يفعلها حسب

---

٢٩٤ يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "لأنه هو كمالنا، إذ هو "ملء الذي يملأ الكل في الكل" (أف١:٢٣). وهو الطريق، والزوج، والعريس، لأنه يقول: "خطبتكم لرجل واحد لأقدم عذراء عفيفة للمسيح" (٢كو١١:٢)" تفسير الرسالة إلى رومية، الإصحاح الثالث عشر، ص٥٤٠

الناموس، وبدون أن يقدم تقدمات ناموسية على المذبح، كأنه منتظرٌ أن يرجع المسيح من مهمة دعوة الأمم ليُدخِل إسرائيل بين المؤمنين به، وهكذا بناموس المحبة، يندمجون مع الشعوب الأخرى. لاحظ كيف أنه بعدما رجع يعقوب من حاران، وفي محبته قبَّل أخيه عيسو، أن عيسو فرح من أجل أن يعقوب أنجب أولاداً، واكتسب قطعان كثيرة من الماشية. هكذا سوف يرجع إسرائيل بعد دعوة الأمم، وسوف يُعجب بغنى المسيح. ويمكن لكل من يريد أن يتحقق بسهولة من هذه الأمور، إذا فحص هذه الحوادث التاريخية روحياً.

لقد أرسل يعقوب هدايا إلى عيسو جاعلاً إياه يحبه بتقدمات الهدايا، لكن قبل ذلك أرسل رُسلاً من عنده يقولون له كلاماً سلامياً. هذا الأمر قاله الرب بكل وضوح لليهود بفم أحد الأنبياء: «ها أنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب العظيم والمخوف. فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم لئلا آتي وأضرب الأرض بلعنٍ» (ملا ٤:٥ ــ ٦).

عندما يأتي المسيح حينذاك يتحول إسرائيل إلى الطريق الصحيح ويبتعد عن عناده وغضبه ويصير صديقاً ومسالماً بالمسيح، مُظهراً له عطايا وهدايا المحبة الحاضرة، أي رجاء هؤلاء الذين آمنوا. لن تتأخر المواعيد في أن تتحقق للذين آمنوا، بل إن العطايا قريبة جداً والنعمة تتبعها مباشرةً. هكذا عندما يَبُطل ابن الخطية، ففي الحال سوف يأتي المسيح مخلص الجميع من السماء مع الملائكة القديسين، الذي له المجد مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور أمين.

أيضاً المزيد عن يعقوب

بسبب الخطية سقطت الطبيعة البشرية في الموت، وابتعدت تماماً عن ذاك الذي يستطيع أن يخلصها. هكذا صار الإنسان الذي خُلِق بحسب صورة الله أسيراً، وتثقل بحمل الخطية. وقد أحنى رقبته للشيطان الذي مارس عليه القهر، الشيطان الذي من كبريائه جاء بوقاحة أمام جميع سكان الأرض قائلاً: «فأصابت يدي ثروة الشعوب كعش وكما يجمع بيض مهجور جمعت أنا كل الأرض و لم يكن مرفرف جناحٍ ولا فاتح فم ولا مصفف» (أش ١٠:١٤). لقد ملك من جرَّاء جشعة على هذا العالم، لذا دُعِيَ إله هذا العالم. لأن العالم سجد له وعَبَدَ المخلوق دون الخالق. وبالرغم من أن البشر وصلوا إلى هذا المستوى من الانحدار، إلّا أن الله قد حزن عليهم ووَعَدَ أن يرسل لنا ابنه من السماء لكي يُحضر الطبيعة البشرية ثانيةً إلى الحالة التي كانت عليها في البداية «إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة» (٢ كو ٥:١٧) كما هو مكتوب.

أحاديثٌ كثيرةٌ عن الصالحات الممنوحة لنا قد قيلت بواسطة الأنبياء: «الذين تنبأوا عن النعمة التي لأجلكم، باحثين أي وقت أو ما الوقت الذي كان يدل عليه روح المسيح الذي فيهم. إذ سبق فشهد بالآلام التي للمسيح والأمجاد التي بعدها. الذين أُعلن لهم أنهم ليس لأنفسهم بل لنا كانوا يخدمونه بهذه الأمور» (١ بط ١:١٠ ـــ ١٣). هذا ما كتبه تلميذ المخلص، وأقوالٌ كثيرة قيلت بواسطة الأنبياء عن تأنس مخلصنا، وعن مجيء الفادي. ولمعرفة هذه الأحاديث سوف أذكر القليل منها الذي لا يُسبب لنا أي حزن، ولكنها تدين جمع اليهود! وبقدر استطاعتنا سنرى هذا الأمر من الأحاديث ذاتها.

بالرغم من أنه كان ممكناً أن يتحقق اليهود التعساء، من أقوال الأنبياء عن مجيء المخلص ويستوعبونه حتى مِن ظِل الناموس ذاته، إلّا أنهم قاوموا بشراسة إعلانات الله والمسيح نفسه، وهذا ما قاله لنا بولس الحكيم: «إن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل» (رو ١١:٢٥). والمخلص نفسه قال: «لأنهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون» (متى ١٣:١٣). وأشعياء العظيم قدّم لنا عمانوئيل في كتاباته قائلاً: «روح السيد الرب عليَّ لأن الرب مسحني لأبشر المساكين أرسلني لأعصب مُنكسري القلب لأنادي المسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق. لأنادي بسنة مقبولة للرب وبيوم انتقام لإلهنا لأعزي كل النائحين» (أش ٦١:١ـــ٢). هذه الأشياء هي إنجازات باهرة للمسيح الآتي. أيضاً قال هوشع النبي: «ويجمع بنو يهوذا وبنو إسرائيل معاً ويجعلون لأنفسهم رأساً واحداً ويصعدون من الأرض لأن يوم يزرعيل عظيم» (هوشع ٢:٢).

إن معلمين كثيرين من اليهود علّموا الشعوب الذين كانوا أوصياء عليهم بأن يكرموا إله الكل فقط بشفاههم معلمين إياهم وصايا البشر. أمَّا المسيح، فهو الذي يرأس الكل وهو فوق الكل، الذي به صعدنا من الأرض وتعلّمنا أن نتدبر في الأمور السامية. لأنه يقول: «يوم يزرعيل عظيم»، أي يوم مجيء الابن. وداود العظيم كان يقصد هذا اليوم حين قال: «هذا هو اليوم الذي صنعه الرب. نبتهج ونفرح فيه» (مز ١١٨:٢٤)، أيضاً بولس الحكيم يقول لنا: «هوذا الآن وقت مقبول. هوذا الآن يوم خلاص» (٢كو ٦:٢)، اليوم الذي بمقتضاه سوف نخلص؛ لأن المسيح يدعونا إليه. لأنه، كما قال التلميذ الحكيم: «ليس اسم آخر تحت السماء قد أُعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص» (أع ٤: ١٢). كذلك ستعلم أيضاً من أرميا مما قاله بوضوح: «ها أيام تأتي يقول الرب وأُقيم لداود غصنَ برٍ

فيملك ملك وينجح ويُجري حقاً وعدلاً في الأرض. في أيامه يخلص يهوذا ويسكن إسرائيل آمناً وهذا هو اسمه الذي يدعونه به الرب برنا» (إر ٢٣:٥ـــ ٦). لقد ملك علينا حقاً الملك البار يسوع، وحكم بالعدل وخلّص من الخطايا هؤلاء الذين ضلوا، وكذلك أدان عدوه، الشيطان وسلب غناه. ودُعيَ «الرب برنا»؛ لأننا تبرَّرنا بواسطته «وليس بأعمال بر عملناها ولكن بمقتضى رحمته العظيمة خلصنا» (في ٣:٥)، لذلك قال الله أيضاً: «قريبٌ مجيء خلاص واستعلان بري» (أش ٥٦:١). وحقاً صار لنا المسيح رحمةً وبراً من الله الآب، وقد دعاه خورس القديسين باسم المسيح، هكذا صموئيل الطوباوي والشهير بين الأنبياء تحدث لبني إسرائيل قائلاً: «وأنا قد سرت أمامكم منذ صباي إلى هذا اليوم. هاأنذا فاشهدوا عليَّ قدام الرب وقدام مسيحه» (١ صمو ١٢: ٢ ـــ ٣). وأيضاً قال: «شاهد الرب عليكم وشاهد مسيحه اليوم هذا أنكم لم تجدوا بيدي شيئاً» (١ صمو ١٢:٥). وداود الطوباوي يدين عصيان اليهود ووقاحتهم الشديدة ضد المسيح، وكذلك أفكارهم الباطلة والصبيانية، قائلاً: «لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب في الباطل. قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه» (مز٢:١ـــ٢).

حقاً إن تصرفات اليهود الجهلة ضد المسيح هي غبية. لأنه لم يكن من الممكن أن تموت الحياة، ولا أن يُمسك من أبواب الجحيم وهو الذي قال للأرواح السفلية «خرجوا للذين في الظلام اظهروا على الطرق يرعون وفي كل الهضاب مرعاهم» (أش ٤٩:٩). وأيضاً ناحَّ النبي ارميا على أورشليم كقاتلة للرب وكدنسة وناكرة للجميل، إذ قال: «نفس أُنوفنا مسيح الرب أُخذ في حُفرهم الذي قُلنا عنه في ظلِه نعيش بين الأمم» (مراثي أرميا ٤:٢٠). وبينما كان ينبغي

عليهم أن يفضّلوا النعمة بواسطة الإيمان كطريق للخلاص، إلّا أنهم حاربوا الله. هكذا إذن خالق الكل، كلمة الله وحيد الجنس، أخلى ذاته ومُسِحَ من الآب وصار مثلنا (انظر فيلبي ٢:٧). وهدف الإخلاء هو أن يخلّص البشر الذين على الأرض. لذلك كرز النبي الحكيم بالرسالة المُفرحة، قائلاً: «ترنمي يا ابنة صهيون أهتف يا إسرائيل افرحي وابتهجي بكل قلبك يا ابنة أورشليم. قد نزع الرب الأقضية عليك أزال عدوك. ملك إسرائيل الرب في وسطك. لا تنظرين بعد شراً» (صفنيا٣:١٤ ــ١٥).

لكن اليهود القُساة والعُصاة مضوا في الشر بدناءة كالسكارى وصنعوا بالمسيح كل ما هو سيئ بعدم تبصُّر وبوقاحة. لذلك نالوا جزاء خطاياهم، لأنهم حقاً أشرار هلكوا بطريقة شريرة. لكن ليس الكل، لأن البقية رُحمت وخَلُصَت وفق كلام النبي (انظر قض ٤:١٣. أش ١٠:٢٢).

أيضاً المزيد عن يعقوب

علّمنا يعقوب العظيم كيف تصير الأمور هكذا (كما رأينا)، ودبَّر الله هذه الأحداث بطريقة حكيمة، وسوف أحدثكم عن هذه الأمور مستنداً على الكتب المقدسة التي أخبرتنا بما يلي: «ثم قام (يعقوب) في تلك الليلة وأخذ امرأتيه وجاريتيه وأولاده الأحد عشر وعبر مخاضة يبوُق. أخذهم وأجازهم الوادي وأجاز ما كان له. فبقى يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُق فخذه. فانخلع حُقّ فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر. فقال لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له ما اسمك فقال يعقوب. فقال لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل. لأنك

جاهدت مع الله والناس وقدرت. وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك. فقال لماذا تسأل عن اسمي. وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل. قائلاً لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يخمع على فخذه» (تك ٣٢: ٢٢ ـــ ٣١).

لقد أجاز يعقوب كل ما له وبقى وحده، كيف ـــ إذن ـــ يكون هذا الحدث غير جدير بأن نفحصه؟ حسناً، دعنا نرى عِلّة هذا الأمر، وليمضِ حديثنا مباشرةً إلى الروحيات. كان عيسو يسكن في أدوم وسعير، وكان يملك هذه المنطقة ويستحوذ عليها بسلطانه الذي لا يتخطى منطقة يعقوب. لكن لأن يعقوب ارتحل من بلاد ما بين النهرين ومن السكن عند لابان، فإنه أسرع ليصل إلى أرض آبائه، وكان من الحتمي أن يجتاز في آدوم، فحرص بشدة على أن يصنع سلاماً مع أخيه، وهكذا أرسل رُسلاً محمَّلين بهدايا كثيرة قبل أن يراه، وأوصى أن يقولوا له أنه سيأتي هو بنفسه لكي يراه وأن يكلموه بأقوال لينة ويغدقوا عليه الهدايا. وبهذه الأمور جعله هادئاً، ذاك الذي كان قديماً غاضباً ومتوحشاً ويريد أن يقتله. وعندما وصل رسله وأخبروه قائلين: «أتينا إلى أخيك إلى عيسو. وهو أيضاً قادم للقائك وأربع مئة رجل معه» (تك٣٢: ٦). وحين سمع يعقوب هذا الكلام استولى عليه الخوف، لأنه لم يستطِع أن يعرف بوضوح أياً من الخيارين: هل سوف يجد سلاماً وصداقة مع أخيه، أم أن وقاحة عيسو المعتادة ما زالت تستحوذ عليه وإنه سيفعل ما تمليه عليه الغيرة الرديئة.

«أخذهم وأجازهم الوادي وأجاز ما كان له. فبقى يعقوب وحده» (تك ٣٢: ٢٣ ـــ ٢٤). لقد كان يفكر في أنه لو كان عيسو سيتصرف معه حسناً وبوداعة، عندئذٍ لن تكون هناك صعوبة في اجتياز النساء والأولاد، لكن لو كان

تصرفه بقسوة وحنق شديد لدرجة القتل، فسوف يحزن الأولاد عليه، وسوف تُذرف عليه دموع النساء، وموته سوف يُرضي غضب عيسو. لكن بقوة الله تطوَّرت الأمور أكثر مما كان يأمل، كما سبق وقُلنا. لأنه مكتوب: «فركض عيسو للقائه. وعانقه ووقع على عنقه وقبَّله» (تك ٣٣:٤). هذا الحدث علَّمنا المفهوم العميق للسر. كيف وبأية طريقة؟ هذا ما سوف أذكره لكم أيضاً.

حسناً، عندما أجاز كل ما له في الوادي، وعندما بقى وحده، صارعه إنسان حتى طلوع الفجر. نقول إن الملاك الذي صارعه هو مِثالٌ للمسيح الذي كان مثلنا لأنه صار إنساناً[٢٩٥]. وكونه لم يعبر الوادي مع الآخرين، أي وادي «يبوق» الذي تفسيره «صراع Πάλη»، فهذا له دلالته. حسناً. ما هو أهمية هذا الأمر؟ ما هو المفهوم العميق لهذا الصِراع؟ إن المسيح لا يصارع هؤلاء الذين عبروا الأردن، الذي أشير إليه بوادي يبوق، ولا الذين عبروا يُوضعون في موضع الأعداء أو الخصوم. إذ أنهم يكرمون أسراره ويحفظونها، وسبق لهم أن انتصروا على العالم، كأُناسٍ قد اجتازوا معركةً ذهنيةً[٢٩٦]، لقد توَّجهم وأنارهم بامتيازات سامية. واسم الوادي يعني «صراع»، لأنه يقول: «ملكوت السموات يُغصب والغاصبون يختطفونه» (مت ١١: ١٢)، و «ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة. وقليلون هم الذين يجدونه» (مت ٧:١٤).

---

[295] *τὸν μὲν οὖν προσπαλαὶοντά φαμεν ἅγιον ἄγγελον, τύπον Χριστοῦ τοῦ καθ' ἡμᾶς διά τὸ ἀνθρώπινον.*

[٢٩٦] فَإِنَّ مُصَارَعَتَنَا لَيْسَتْ مَعَ دَمٍ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّؤَسَاءِ، مَعَ السَّلاَطِينِ، مَعَ وُلاَةِ الْعَالَمِ، عَلَى ظُلْمَةِ هَذَا الدَّهْرِ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ " أف٦:١٢.

هكذا يشير هذا الحدث (صراع يعقوب) إلى أن بني يعقوب سوف لا يعبرون الأردن، أي لن ينالوا النعمة بواسطة المعمودية المقدسة، وسوف يستهينون بها بطريقة رديئة، وسوف يكون عمانوئيل خصماً لهم. لأن هؤلاء الذين استهانوا بالإيمان سوف يُحسبون مع هؤلاء الذين يقاومون المسيح، وهذا ما يخبرنا إياه الرب نفسه حين قال: «مَنْ ليس معي فهو عليَّ. ومن لا يجمع معي فهو يفرق» (لو ١١:٢٣). أما أولئك الذين يؤمنون فسوف يكونون معه. هل يمكن أن يشكك أحدٌ في هذا؟ إذ نقرأ أيضاً «فبقى يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه» (تك ٣٢:٢٣ ــ ٢٥).

اسمع، ألم يحدث الصراع في الليل؟ لقد سقط وهُزِم لأنه أراد أن ينال ما هو غير ممكن، إذ تجرأ على أن يصارع الله، وأن يحاول هزيمة هذا الذي هو قادر على كل شيء. هذا ما قاله داود المرنم عن بني إسرائيل الذين تفكروا بأمورٍ صعبة ضد رئيسهم، وأصيغها هكذا حتى لا أقول ضد المسيح، لقد قال داود: «تفكروا بمكيدة. لم تستطيعوها» (مز ٢١:١١). إذن، صارع إسرائيل المسيح، في الظلمة، أي بدون أن يكون لديه استنارة إلهية في ذهنه، ولا حتى عندما بدأ النهار يبزغ، ولا أيضاً عندما أشرق كوكب الفجر في قلوب هؤلاء الذين آمنوا. لأنه بقى عاصياً وكما يقول النبي: «من أجل ذلك ابتعد الحق عنا و لم يُدركنا العدل. ننتظر نوراً فإذا ظلام ضياء، فنسير في ظلام دامس» (أش ٥٩:٩). أيضاً أرسل بولس العظيم رسالة لهؤلاء الذين تبرَّروا بالإيمان وقبلوا استنارة الروح، وقال: «جميعكم أبناء نور وأبناء نهار. لسنا من ليل ولا ظلمة» (١ تس ٥:٥). وأيضاً كون أنهم صاروا أسمي من جهل اليهود، وتخطوا الظلمة التي عند أولئك، فهذا يعلنه قائلاً: «قد تناهى الليل وتقارب

النهار فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور، لنسلك بلياقة كما في النهار» (رو ١٣:١٢ ــ ١٣).

وهكذا، فإن هؤلاء الذين آمنوا، عاشوا كما في النهار، بينما غير المؤمنين صارعوا مع المسيح أثناء فترة الليل. هذا ما فعله أيضاً بنو يعقوب لكنهم كانوا ضعفاء، وهُزموا و لم يستطيعوا أن يسيروا منتصبي القامة. لأنه يقول: «ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُق فخذه. فانخلع حُق فخذ يعقوب في مصارعته معه» (تك ٣٢:٢٥).

حسناً، فلنواصل حديثنا عن أي مفهوم عميق يمكن أن نستخرجه من هذا الأمر. إن حُقَّ الفخذ في الكتاب المقدس يشير إلى الأجزاء الهامة للجسد. والتي هي ضرورية لولادة الأولاد، وتشير أيضاً إلى الولادة ذاتها، إذ أن حول حُق الفخذ توجد كل الأعضاء التي تساهم في عملية ولادة الأطفال. هكذا أيضاً إبرآم الطوباوي عندما أرسل عبده الأمين إلى بلاد ما بين النهرين ليأخذ امرأة لإسحق، قال له: «ضع يديك تحت فخذي» (تك ٢:٢٤). بمعنى اقسم أمام الله، وأمام هؤلاء الذين سوف يُولدوا من هذا الحُق، أي نسل الرب. إذن حُق الفخذ يعني هؤلاء الذين أتوا من الفخذ. وهكذا انخلع فخذ يعقوب، تعني انخلع هؤلاء الذين وُلدوا منه، أي بني إسرائيل. والمخلص نفسه هو شاهد على هذا الأمر، إذ قال بفم داود «بنو الغرباء يبلون ويزحفون من حصونهم» (مز ١٨: ٤٥). وكون أن إسرائيل أُصيب بعَرَجٍ روحي، فهذا يعرفه بولس الحكيم. حسناً لقد كتب الآتي: «قوّموا الأيادي المسترخية والرُكب المخلعة. واصنعوا لأرجلكم مسالك مستقيمة لكي لا يعتسف الأعرج بل بالحري يُشفى» (عب ١٢:١٢ ــ ١٣).

لكن شفاء هذا النوع من العَرَج لن يصير بطريقة أخرى، إلّا بالإيمان بالمسيح. لذا، أولئك الذين لم يؤمنوا ظلّوا في العَرَج، وفي شهواتهم المنحرفة وفق كلام بولس الطوباوي. إذن، الألم الذي أصاب حُق يعقوب يمثل رمزاً لعَرَج إسرائيل الروحي. وإننا لا نتكلم كذباً، إذ قُلنا بيقين إن المسيح يصد ويصارع هؤلاء الموجودين في ظلمة الليل، إذ لهم ذهن مظلم يصيبهم بعرج روحي، وسوف يمكن أن نعرف هذا الأمر بسهولة. فالإنسان الذي صارع يعقوب قال له: «أطلقني لأنه قد طلع الفجر» (تك ٣٢:٢٦). فهمت إذن، أنه لم يُطِق أن يصارع عندما طلع النهار. لأنه لن يصارع هؤلاء الذين هم في النور. فهؤلاء الذين قد وصلوا إلى مثل هذا المستوى من البهاء، يقول لسان حالهم: «يا الله إلهي أنت. إليك أُبكِّر» (مز ٦٣:١)، وكذلك: «يا رب بالغداة تسمع صوتي. بالغداة أُوجِّه صلاتي نحوك وأنتظر» (مز ٥:٣). عندما يشرق نور البر، أي المسيح، على عقولنا ويأتيها بالفجر الروحي، عندئذ نحضر أمامه مستنيرين ومطهِّرين ذواتنا ومستحقين رحمته الجزيلة وعنايته السماوية. لأنه يقول: «عينا الرب نحو الصديقين» (مز ٣٣:١٦). أي عندما طلع الفجر توقف الصراع.

لاحظ إذن مدى عناية الرب واهتمامه بأن يُعلّم يعقوب، الذي يريد أن يرحل، أن يغيِّر رأيه ويستلم تلك الأمور الهامة لخلاصه. لأن الإنسان الذي صارع يعقوب انتصر في النهاية عليه ورحل عنه، إلّا إنه سمح للمهزوم (يعقوب) أن يمسكه بقوله: «أطلقني» (تك ٣٢:٢٦). هذا الأمر شبيهٌ بما حدث مع موسى، عندما عَبَدَ الشعب الأصنام في الصحراء (لأنهم صنعوا عجلاً مسبوكاً)، قال الله لموسى بحكمةٍ، وبحسب التدبير: «رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب

صلب الرقبة. فالآن أتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم. فأصيّرك شعباً عظيماً» (خر ٣٢: ٩ ـــ ١٠).

أراد الله أن يعاقب إسرائيل المهووس بعبادة الأصنام، لكن الله أعطى لموسى انطباعاً يعيق غضبه بمقتضاه بقوله: «اتركني ليحمى غضبي عليهم». لذا عندما أدرك موسى رغبة الإرادة الإلهية مضي في تنفيذ هذه الإعاقة، وقال: «والآن إن غفرت خطيئتهم. وإلّا فأمُحني من كتابك الذي كتبت» (خر ٣٢: ٣٢).

هكذا بنفس الطريقة، قيل ليعقوب «اطلقني»، لقد قال للإنسان الذي صارعه هذه العبارة: «اطلقني». ويعقوب فَهِمَ بسرعة مَنْ هو الذي كان يصارعه، وشعر بالحدث كله بكل جوارحه، وغيَّر مباشرةً توجُّهه، وقال: «لا أطلقك إن لم تباركني» (تك ٣٢: ٢٦). وقد نال البركة. وطريقة مباركته صارت بتغيير اسمه الأول، إلى اسم آخر. لأنه يقول له: «لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل» (تك ٣٢: ٢٨). اسم يعقوب يعني «المتفوق τὸν πτερνίζοντα» أي القوي واليقظ في قدرته أن يفعل كل ما هو واجب، بينما إسرائيل يعني «العقل الذي يعاين الله νοῦν ὁρῶνταθεὸν»

إذن، مَنْ كان السبب؟ دعنا نشرح هذا الأمر ونحن نقلب صفحات هذه القصة.

إسرائيل يعترف بعمانوئيل

عندما صارع يعقوب وهُزِم وأُصيب في الظلمة بانخلاع حُق فخذه، أمسَكَ مُصارعه في الحال مستعطفاً إياه أن يباركه حين بدأ طلوع الفجر، ونال حقًا البركة وسُمِّي بإسرائيل.

عصيان إسرائيل وعدم إيمانه بسبب جهله، ووجوده في الظلمة، أي ظلمة الجهل. هذا العصيان قد تبدَّل بفعل عمانوئيل. إذ أن إسرائيل كان عديم الإحساس و لم يعترف بعمانوئيل إلَّا بعدما أشرق على عقله بالنور الإلهي. وباركه المسيح، لكن ليس كل إسرائيل، بل جزء منه، أقصد أولئك الذين آمنوا، لأنه كما هو مكتوب: «أيضاً قد حصلت بقية حسب اختيار النعمة» (رو ١١:٥)، وآمن عدد ليس بقليل من اليهود (انظر أع ١٧:١٢). والتلاميذ العظماء ـــ بل الجميع ـــ كانوا مثل يعقوب لديهم ناموس بلا فاعلية، وقد اجتازوا وابتعدوا بسرعة ورحلوا ودخلوا في صراع مع الله (لأنهم بالنسبة للناموس كانوا بلا لوم)، لكن بعد ذلك صاروا مثل إسرائيل لديهم عقل يعاين الله. إذ أنهم عرفوا المسيح: مَنْ هو؟ ومن أين وُلِد وصار مِثلنا؟، وما هي طريقة تدبيره بالجسد؟ هذا ما أقصده حين أقول قبلوا في عقلهم نور المعاينة الإلهية الحقيقية.

وكون أن معرفة الله هي أعظم وأكثر سمواً، وفائقة جداً على طريقة الحياة وفق الناموس، يخبرنا هو نفسه قائلاً بواسطة نبي من الأنبياء: "إني أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات" (هوشع ٦:٦). وبولس الذي وُلِدَ "وفق بر الناموس" (فيلبي ٣:٦)، وكان أيضاً بلا لوم وفق الناموس، يقول: "أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي" (فيلبي ٣:٨). وكون أن المعرفة الحقيقية عن المسيح هي أسمى أيضاً من الرضى والارتياح الذي يأتي من تتميم أعمال الناموس، فهذا ما يوضحه بولس الرسول حيث كتب إلى تيموثاؤس حاثاً إياه على التدرب في الفضيلة والتقوى: "لأن الرياضية الجسدية نافعة لقليل ولكن التقوى نافعة لكل شيء إذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة" (١ تيمو ٤:٨)، وكما قال المخلص نفسه إلى أبيه السماوي: "وهذه هي الحياة

الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يو ١٧:٣).

بناءً على ذلك، لو صار أحدٌ مثل يعقوب، بمعنى إنه استطاع أن يجتاز ويرحل بسهولة وبقوة من أي شيء يعيقه ويدعوه إلى الخطية، سوف يرتقي بنعمة المسيح في الفهم الذي يليق بالقديسين، وسوف يُدعى إسرائيل، أي الذي يرى الله. وحينذاك سيكون قوياً بالنسبة للناس طالما أن قوة الله قد سندته. لأنه لا يمكن لضعف المرضى أن يجعله يعرف الله وأن يختار هذه المعرفة، حتى ولو أنه ما زال يراه كما في مرآه في لغز (انظر ١ كو ١٣:١٢)، والموجود في هذا المستوى يعتبر الأمور الجسدية والعالمية غير جديرة بالحديث عنها، ويستطيع أن يُسرع بتدبير فائق نحو هذا الذي يريده الله، لأنه سيكون قوياً بين الناس وسوف ينتصر مع الله وبه.

حسناً، لقد نال يعقوب البركة. توسَّل إليه قائلاً: "أخبرني باسمك"، فأجابه: "لماذا تسأل عن اسمي؟" (تك ٣٢:٢٩). ولم يقل له الله اسمه مبرهناً بذلك على أن اسمه متطابقٌ مع طبيعته. لأنه لا يمكن أن يوجد اسم خاص لله، مثلما يحدث مع الإنسان، لكن الألقاب(٢٩٧) التي هي وفق طبيعته تُنسب إليه بطرق كثيرة.

---

٢٩٧ يؤكد القديس كيرلس على أهمية الألقاب أو الأسماء التي لها علاقة مع أسماء أخرى لمجرد نطق أي اسم منهما، إذ يقول في حواره حول الثالوث: "إن الأسماء التي تدلّ على علاقة، تُشير أيضاً إلى طرفي هذه العلاقة لأن المعنى يشمل كل منهما. هكذا سيكون من السهل على المرء وهو يعرف معنى اليمين ـــ على سبيل المثال ـــ هو أن يعرف من خلاله معنى اليسار وسيوافق المرء أيضاً أن العكس صحيح. فالاسم "آب" إذن هو من الأسماء التي تدل على علاقة مع آخر، كما أن الاسم "ابن" يدل على نفس العلاقة. وبالتالي فإلى أي شيء تدل الأسماء "الآب"، "الابن" وإلى أي علاقة تُشير، وعند استخدامها، هل يخرج الحديث عمّا يليق؟". ويستمر القديس كيرلس في الحديث، قائلاً: "إذن لنسمع المسيح نفسه وهو يصرخ قائلاً: "لَستُمْ تَعْرِفُونَنِي أَنَا وَلاَ أَبِي. لَوْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ

هكذا يُدعى «نور وحياة وقوة وحق، ووحيد الجنس وشعاع ورسم ذاك الذي ولده، ورحمة، وبر وفداء»[٢٩٨]. لقد أدرك يعقوب أيضاً أن الله ليس له اسمٌ خاص، فأعطى للمكان الذي رأى فيه الله اسم «فنئيل» لأنه يقول: «لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونُجيت نفسي» (تك ٣٢: ٣٠). لاحظ لقد صار اسمه إسرائيل، أي «الذي يرى الله». إنه يقول إنه رأى الله وجهاً لوجه ونجت نفسه، بينما كان يصارع إنساناً. لأن معرفة المسيح هي معرفة خلاصية. إذن، الكلمة المتجسد هو الله، إذ أن يعقوب البطريرك يقول إنه رأى الله وجهاً لوجه. وعندما «أشرقت له الشمس» رحل عنه منظر الله، لذا يقول: «إذ عَبَرَ فنوئيل وهو يخمع على فخذه» (تك ٣٢: ٣١). لقد توقَّف الصراع ــ كما قُلت ــ عندما استنار اليهود، لكن رحل «منظر الله» بمعنى صعد المسيح إلى السموات. لكن إسرائيل لم يتخلص تماماً مِن العرج. لأنه لم يخلص بالكامل، إذ لا زال يتألم بسبب أولئك الذين لم يؤمنوا بعد، هكذا لم ينتصب الجميع. حسناً لقد دُعيَ يعقوب إسرائيل، أي الذي له «عقلٌ يرى الله».

أبي أيضاً". وعندما سألوا عن سبب توبيخهم أجابهم قائلاً "إن من ينكر الآب ينكر الابن أيضاً ومن ينكر الابن لن يقبل الآب أيضاً. وبالطبع فإنه محق في قوله هذا. لأنه إن لم يكن هناك آب قد وَلَدَ حسب الطبيعة، فإن أحداً لن يقبل أن يكون هناك ابن مولود، ولا حتى آب، وهذه طريقة تفكير غير منطقية. لأن الآب يدعي أباً لأنه وَلَدَ. وبالتالي هو قول حق أن الاسمين أب وابن يُشيران إلى الاثنين وعندما يوجد الواحد، يوجد بالضرورة الآخر وهذا هو السبب فيما يُقال عن كينونة كل منهما". القديس كيرلس السكندري، حوار حول الثالوث، الجزء الرابع، الحوار الرابع ص ١٥ ــ ١٧.

298 *«Ζωὴ καὶ δύναμις καί ἀλὴθεια, μονογενὴς καὶ ἀπαύγασμα καὶ χαρακτὴρ τοῦ γεννήσαντος, ἔλεος καὶ σοφία καὶ δικαιοσύνη καὶ ἀπολύτρωσις».*

وبعد ذلك، ماذا حدث؟ «وأما يعقوب فارتحل إلى سكوت. وبنى لنفسه بيتاً وصنع لمواشيه مظلات. لذلك دُعي اسم المكان سكوت» (تك ٣٣:١٧). أسمعت؟ لقد سكن في خيام. يمكن أن يعني هذا أيضاً أن ذهن إسرائيل رجِع تجاه المكان الأفضل. لأنه عندما نصب خياماً، سكن فيها. فالعقل الذي يرى الأمور السامية ويصير جديراً بظهورات الله، والذي يتقدم إلى الكمال ببذل الجهد، يصير له من عند الله ثمرة ثمينة: أن أمور هذا العالم لا يُحسب لها حساب إطلاقاً معتبراً أن الحياة في الجسد مؤقتة. إذن، هذا هو العقل الذي يليق بالقديسين ورسالة التعاليم السماوية العظيمة والواضحة. سوف تقتنع بهذا الأمر من داود الطوباوي الذي وصل إلى مثل هذا المستوى من التقدم «لا تسكت دموعي. لأني أنا غريب عندك. نزيل مثل جميع آبائي» (مز ٣٩:١٢). أيضاً يكتب بولس الرسول لهؤلاء الذين وصلوا إلى قياس الكمال، قياس قامة ملء المسيح (انظر أفسس ٤:١٣): «لأن ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا نطلب العتيدة. الذي صانعها وبارئها هو الله» (عب ١٣:١٤). إذن، أن يسكن يعقوب العظيم، أي إسرائيل في خيام، سيصير علامةً، لكل الذين يفكرون بالصواب بأنه ينبغي لأولئك الذين لديهم بالفعل أعين متجهة نحو الله وعقل مستنير، أن يعتبروا أن أمور هذا العالم مؤقتة.

يعقوب في شكيم

بعد ذلك «أتى يعقوب سالماً إلى مدينة شكيم» (تك ٣٣:١٨) الموجودة في أرض كنعان حيث جُرِّب أيضاً البار مواجِهاً مظالم تجاه ابنته دينا، إذ أن هذه الشابة العذراء خرجت من خيمة أبيها لترى بنات هذه الأرض. ولأن الجنس

الأنثوي مندفع ولا يخاف ويُسرع ليتعرف ويحب مَنْ هم في عمره. هكذا خرجت الشابة ورآها شكيم ابن حمور واغتصبها عنوةً، بمعنى أفقدها عذريتها، وتملّكت عليه الشهوة فأراد أن يتزوجها. عندئذٍ احتد غضب كل من شمعون ولاوي بسبب ما صار لأختهما واعتبرا هذا الأمر إهانةً لهم فشرعا في أعمال دنسة ضد أولئك الذين ارتكبوا الجُرم، فقد أقنعا سكان شكيم بأن يختتنوا كل ذكر، وقتلوهم بدون رحمة ورأفة وبدون أي استثناء. وقد غضب يعقوب غضباً شديداً لِما حدث، وأخذ يوبخهما قائلاً: « كدرتماني بتكريهكما إياي عند سكان الأرض» (تك ٣٤: ٣٠).

هذا الموقف يذكّرنا بأن المخلص نفسه أنبأ بطرس الذي أخرج سيفه من غمده، وقال له: «لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» (مت ٢٦: ٥٢). لا ينبغي أن نتسلح بسيوف ضد الأعداء، نحن الذين أخترنا أن نجاهد من أجل إيماننا بالله، بل على النقيض ينبغي علينا أن نتحمل الآلام[٢٩٩] للدرجة التي فيها إذا أراد البعض أن يطردنا، فإننا نباركهم عندما يسيئون إلينا، عندما نتألم لا نجازي الشر بالشر، بل نُسلم أنفسنا لذاك الذي يحكم بالعدل. أيضاً نحترس من هؤلاء الذين لهم إيمان آخر، لأنه عندما خرجت دينا من المسكن

[٢٩٩] يؤكد القديس يوحنا ذهبي الفم على أننا يجب أن نتمثل بالمسيح الذي احتمل الآلام، إذ يقول: "فإن كنت أنت عضو في جسد المسيح، فلنتحمل الصليب، لأن المسيح تحمّله. نتحمل اللطم. نتحمل الضربات. نتحمل الجروح. هكذا كان جسد المسيح، ذلك الجسد "الذي لم يفعل خطية ولا وُجد في فمه مكر"، وكل ما فعلته يديه، كان لأجل الإحسان لكل محتاج، ولم يخرج من فمه أي شيء غير لائق، لقد سمعتم أنهم يقولون عنه أن "به شيطان" لكنه لم يجب بشيء " تفسير الرسالة إلى أفسس، الإصحاح الأول، ص٦٧.

الأبوي، ابتعدت ووُجدت هناك عند بيت شكيم. لكن ما كان لها أن تُهان لو بقيت في بيت أبيها وعاشت داخل خيمة القديسين.

هذا الأمر حسنٌ ومفيد، ويقنعنا بهذا داود الطوباوي والمرنم حين قال: «واحدة سألت الرب وإياها ألتمس: أن أسكن في بيت الرب كل أيام حياتي لكي انظر إلى جمال الرب وأتفرس في هيكله. لأنه يخبئني في مظلته في يوم الشر يُسترني بستر خيمته. على صخرة يرفعني» (مز ٤٧:٤ ــ ٥). والأمر حدث كالآتي: «ثُمَّ قَالَ اللهُ لِيَعْقُوبَ: «قُمِ اصْعَدْ إلى بَيْتِ إِيلَ وَأَقِمْ هُنَاكَ، وَاصْنَعْ هُنَاكَ مَذْبَحاً لله الَّذِي ظَهَرَ لَكَ حِينَ هَرَبْتَ مِنْ وَجْهِ عِيسُو أَخِيكَ». فَقَالَ يَعْقُوبُ لِبَيْتِهِ وَلِكُلِّ مَنْ كَانَ مَعَهُ: «اعْزِلُوا الآلِهَةَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَتَطَهَّرُوا وَأَبْدِلُوا ثِيَابَكُمْ. وَلْنَقُمْ وَنَصْعَدْ إلى بَيْتِ إِيلَ، فَأَصْنَعَ هُنَاكَ مَذْبَحاً لله الَّذِي اسْتَجَابَ لِي فِي يَوْمِ ضِيقَتِي، وَكَانَ مَعِي فِي الطَّرِيقِ الَّذِي ذَهَبْتُ فِيهِ». فَأَعْطَوْا يَعْقُوبَ كُلَّ الآلِهَةِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي فِي أَيْدِيهِمْ وَالأَقْرَاطَ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ، فَطَمَرَهَا يَعْقُوبُ تَحْتَ الْبُطْمَةِ الَّتِي عِنْدَ شَكِيمَ.ثُمَّ رَحَلُوا، وَكَانَ خَوْفُ اللهِ عَلَى الْمُدُنِ الَّتِي حَوْلَهُمْ، فَلَمْ يَسْعَوْا وَرَاءَ بَنِي يَعْقُوبَ».

يعقوب في بيت إيل

لقد دعا إله الجميع يعقوب البار أن يذهب من شكيم إلى بيت إيل. وهو أطاع. بعد ذلك، عندما وصل إلى لوز، ورأى الله وتيقن بالوعود أنه سيصير أباً لأمم كثيرة: «ثم صعد الله عنه في المكان الذي فيه تكلم معه. فنصب يعقوب عموداً في المكان الذي فيه تكلم معه عموداً من حجر، وسكب عليه سكيباً

وصب عليه زيتاً. ودعا يعقوب اسم المكان الذي فيه تكلم الله معه بيت إيل» (تك ٣٥: ١٣ ـــ ١٥).

حوادث كثيرة ـــ مثل تلك التي ذكرناها ـــ برهنت على أن يعقوب رجع إلى أرض إسرائيل وفضَّل أن يكون في حالة أفضل. لقد سكن في خيام مُظهِراً بهذا أن القديسين يقيمون في العالم بصفة مؤقتة. عندما عَلِم بالأمور التي حدثت لابنته وحزِنَ جداً لحدوث التصرفات التي فعلها ـــ بخساسةٍ ـــ كل من شمعون ولاوي، وهما في حالة غضب، وجَّه لهما كلاماً لاذعاً نستنتج منه أن ما يتناسب مع القديسين هو التسامح والصبر في التجارب.

إذن، عندما دعاه الله ليصعد إلى بيت إيل، أي إلى مسكن الله εἰς οἶκον θεοῦ (لأن هذا هو معنى اسم بيت إيل)، صلى إلى الله مبيناً لنا مدى حُبه للحياة السرائرية. لكن بأيةِ طريقةٍ ـــ إذن ـــ نذهب إلى بيت الله؟ نعرف هذا الأمر مما فعله يعقوب كالآتي: أمر أن يُبعدوا الآلهة الغريبة الدنسة، وأن يغيروا ملابسهم، الأمر الذي نعتاد أن نفعله عندما نكون مدعوين أن نرى الله، وندخل إلى هيكله المقدس بالحري وقت المعمودية المقدسة. لأنه ينبغي علينا أن نُخرِج من داخلنا الآلهة الغريبة، ونكون بعيدين عن أي ضلال، ونقول: «أجحدك أيها الشيطان وكل أعمالك وكل عباداتك»[٣٠٠]. ينبغي علينا أن نُغيَّر ملبسنا خالعين الإنسان العتيق، هذا الذي فسد بشهوات الضلال، ونلبس الجديد الذي يتجدد وفق صورة ذاك الذي خلقه (انظر كو ٣: ١٠). أيضاً خلعن الأقراط التي في

---

[٣٠٠] يصف القديس كيرلس الأورشليمي هذا الطقس قائلا: "بدايةً دخلتم في مدخل المعمودية ووقفتم ملتفتين نحو الغرب، وبسطتم يدكم وخاطبتم الشيطان كما لو كان حاضرًا قائلين: "أجحدك أيها الشيطان مع كل أعمالك وكل عبادتك" *PG, 33, 1068-1069.*

آذانهن، هكذا دخلت النساء اللاتي كُنَّ مع يعقوب إلى بيت الله بدون أن يكون لديهن أية زينة جسدية، حللن أيضاً شعورهُن، محررين هكذا رؤوسهن من أية تعقيدات مجدولة في شعورهُن تشير إلى ارتكاب جرائم[٣٠١]. إذن عندما نصعد إلى بيت إيل، أي إلي بيت الله نطرح عنا ــ مثلما فعلت النساء ــ أية زينة لكي نتعرف على الحجر المختار الموضوع في رأس الزاوية، أقصد المسيح (انظر مت ٢١:٤٢). وسوف نراه يُمسح من الآب لبهجة وفرح كل الأرض. لأنه ــ كما قُلت ــ مُسح الابن بواسطة أبيه «من أجل ذلك مسحك الله إلهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك» (مز ٤٥:٨) بحسب قول المرنم. يمكنك أن ترى هذا ــ بطريقةٍ رمزيةٍ وتصويرية ــ في القراءات التي قُرئت علينا منذ قليل، لأنه يقول: «نصب يعقوب حجراً ومسحة بزيت وخمر». حسناً، هذا الذي حدث كان مثالاً لسر المسيح الذي له المجد مع الآب والروح القدس إلى أبد الآبدين آمين.

---

[٣٠١] كانت عادة النساء من الوثنيين أن يجدلوا شعورهن كالحبال ويفعلون الفحشاء أمام الآلهة الوثنية، وهنا يوصي يعقوب نساءه بأن يحلّلن شعورهن حتى لا يتشبهن بالنساء الوثنيات. (المترجم).

المقالة السادسة على سفر التكوين

عن يوسف ابن يعقوب

عظيمٌ هو سر الإيمان أي سر المسيح. والحديث عنه طبعاً عميق جداً، والهدف من تجسد الرب يُدركه الذين يفحصونه بدون تروٍّ وبدون استعداد، بدرجة أقل مما يدركه الذين يتأملون فيه باستقامةٍ وتعقل. لأن هؤلاء قد استناروا بالنعمة الإلهية، فصاروا حكماء وصارت لهم معرفة عميقة بكُتب الناموس والأنبياء. وقد اعترف بطرس العظيم الأول بين التلاميذ والمتقدم بينهم اعترافاً صحيحاً بالإيمان، لذلك قال له المسيح: "طوبى لك يا سمعان بن يونا إن لحماً ودماً لم يعلن لك لكن أبي الذي في السموات" (مت ١٦: ١٧). فإن الله الآب يتكلم سراً في قلوبنا عن ابنه لكي يأتي بنا إليه كمخلص وفادي، وهكذا فهو يخلصنا. فالمخلص نفسه يقول: "لا يقدر أحد أن يُقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني" (يو ٦:٤٤).

إذن، فلكي نفهم كل الأقوال التي تشير إليه في كل الكتاب المقدس، ويكون لدينا إيمانٌ صحيح، دون أن يتذبذب قلبنا، ودون أن نسقط في الشكوك بسبب الجهل، فلنسمع الله الذي يتكلم بصوت الأنبياء قائلاً: "هكذا أحبوا أن يجولوا. لم يمنعوا أرجلهم، فالرب لم يقبلهم" (أر ١٤:١٠). ولهذا فإن الله يستعمل صوراً

كثيرة جداً لكي يساعدنا على إدراك الحق، ويعضِّد إيماننا به بهذه الصورة، بطريقة نافعة، وذلك بواسطة الأحداث التي تحدث خلال الزمن، ويقدمها لنا كأنها أيقونات بهية لنعرفه بواسطتها.

مكانة يوسف عند أبيه

دعنا إذن نرى الأحداث التي حدثت ليوسف العظيم لكي يتضح صدق ما قلته الآن. فيقول الكتاب بخصوص يوسف ما يلي: «وَسَكَنَ يَعْقُوبُ فِي أَرْضِ غُرْبَةِ أَبِيهِ، فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. هذِهِ مَوَالِيدُ يَعْقُوبَ: يُوسُفُ إِذْ كَانَ ابْنَ سَبْعَ عَشَرَةَ سَنَةً، كَانَ يَرْعَى مَعَ إِخْوَتِهِ الْغَنَمَ وَهُوَ غُلاَمٌ عِنْدَ بَنِي بِلْهَةَ وَبَنِي زِلْفَةَ امْرَأَتَيْ أَبِيهِ، وَأَتَى يُوسُفُ بِنَمِيمَتِهِمِ الرَّدِيئَةِ إلى أَبِيهِمْ. وَأَمَّا إِسْرَائِيلُ فَأَحَبَّ يُوسُفَ أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ بَنِيهِ لأَنَّهُ ابْنُ شَيْخُوخَتِهِ، فَصَنَعَ لَهُ قَمِيصاً مُلَوَّناً. فَلَمَّا رَأَى إِخْوَتُهُ أَنَّ أَبَاهُمْ أَحَبَّهُ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ أَبْغَضُوهُ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُكَلِّمُوهُ بِسَلاَمٍ» (تك ١:٣٧ ــــ ٤). أحصى كاتب سفر التكوين بالتفصيل أولئك الذين وُلدوا من عيسو، وفي أي جزء من الأرض سكن كل واحدٍ منهم ورئاساهم والحروب التي خاضوها. كل هذا يبديه لنا الكتاب، لكن لم يفعل أي واحد منهم أي شيء حسن يستحق أن يذكره عنهم. فبعد أن سرد ألقاهم بسرعة، قفز إلى يوسف الرائع وذكر أبناء يعقوب بالتفصيل. ورغم أن يوسف كان أصغر إخوته، إذ كان له من العمر سبعة عشر عاماً، إلا أنه اشترك في مهمة رعاية الغنم واشتغل أشغالاً مساوية لأشغال إخوته الآخرين، دون أن يستسلم للراحة والكسل والاستمتاع بصحبة أقرانه من الأحداث، ولا تحاشي الانشغال المبكر بالحياة العملية، ولا أحب أن يستريح من أتعاب العمل بسبب عمره الصغير. ولكنه كانت له أفكارٌ

ناضجة وكأنه شيخ كبير، وكان عقله ينمو ويتقدم في الحكمة بُخطى صحيحة مما يشير إلى الجمال الروحي الذي سوف يظهر عليه فيما بعد. ولذلك فإن أباه الحنون والطوباوي، أُعجب به كثيراً وأحبه واعتنى به اعتناءً خاصاً، كما يقول الكتاب: «وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه. لأنه ابن شيخوخته» (تك ٣٧:٣). وماذا يعني هذا؟ عادةً ما تكون محبة الوالدين لأبنائهم متساوية للجميع، ولكن يحدث أحياناً كثيرة أن الطبيعة تغلب العقل وتغصبه وتُقنعه بأن يُعطي اهتماماً أكثر للأبناء الذين هم أكثر عجزاً، فهؤلاء في الحقيقة يحتاجون لعناية أكثر مما يحتاجه الآخرون. كما أنه عندما يكون لإنسانٍ أبناءٌ كثيرون، فإن فيض المحبة يكون أكثر في الابن الأصغر، إذ يتمتع هذا الأخير بحنانٍ أكثر من إخوته السابقين. فالعقل البشري يُحِب الجديد، فرغم أن الآب لا يتخلى عن حُبه لأبنائه السابقين، إلّا أنه يكنُّ حُباً للمولود الأخير أكثر من السابقين، ويعطيه حناناً أعظم.

ويقول الكتاب إن يعقوب أحب يوسف أكثر من الآخرين «لأنه ابن شيخوخته» (تك ٣٧:٣)، لكن يجب أن نعرف أنه بالرغم من أنه تزوج ليئة أولاً في حاران، إلّا أنه أحب راحيل التي ولدت يوسف وبنيامين. لذلك نقول إن الاثنين كانا ابني شيخوخته. لكن يبدو أن ذكاء يوسف من جهة كل الأمور، كان أكثر مما عند بنيامين، مما جعل الشيخ يميل أكثر ليوسف، وربما يكون قد فكر أنه سوف يصير عظيماً ومشهوراً، لأنه منذ شبابه كانت فيه صفات تدل على أنه عندما يصير رجلاً، سيكون عظيماً ويستحق إعجاباً كبيراً.

لقد صنع يعقوب شيئاً جديداً لم يفعله مع أبنائه الآخرين، إذ نسج له قميصاً ملوَّناً، لكي يُعبِّر عن محبته له عن طريق اللُّبَاس المميَّز. وما الذي نتج عن هذا

الأمر؟ اغتاظ أبناء الجاريتين زُلفة وبلهة واستشاطوا غضباً، واشترك معهم في غضبهم أبناء ليئة الحُرة، وحسدوا الفتى، ويوسف طبعاً لم يظلمهم أبداً، لكن محبة أبيه أشعلت نار الغيرة في هؤلاء. فوجَّهوا سهام ألسنتهم ضده، وكانوا يحكمون عليه كما يحكم عليه أي واحد من الأعداء بطياشتهم. وهذا ما يعنيه الكتاب بقوله: «وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيه» (تك ٣٧:٢). كان الكلام الشرير والإهانات من لسان منفلت مملوء بالحسد بمثابة الضربات الأولى لأفكارهم الدنسة، إذ ألقوا وقوداً على النار لتزداد اشتعالاً مما يؤدي لعداوة أشد من الأسباب التي تؤدي إلى الغيرة.

لقد أظهر الله منذ البداية أن الشاب سوف يصير ممجداً ومشهوراً مع مرور الزمن، وسيكون من العظماء ويُكلَّل بأمجاد كبيرة. فهذا الذي حدث من جهة القميص الملون كان يمكن أن يكون تشجيعاً من الأب لكي يدفعه إلى محبة الفضيلة. وهذا مثلما يحدث مع المصارعين، فالذين يدربوهم يدهنون أجسادهم ويمسحوها بالزيت[٣٠٢] لكي يحثّوهم على الشجاعة والجرأة، ويقنعوهم بهذا الأمر الذي يتطلب صبراً كثيراً، ويحدثوهم منذ البداية عن المكافآت العظيمة التي يحصل عليها المنتصرون، بالإضافة إلى هُتاف المشاهدين وثنائهم وتصفيقهم. هكذا إله الكل، فعندما يرى نفساً تتميز بعقل حكيم وجريء وببراعة في تتميم كل الأمور الصالحة، فإنه يدعوها للسلوك في كل ما هو حسن، إذ يُظهِر لها مسبقاً

[٣٠٢] قديمًا كان يدهن المصارع بالزيت قبل دخول حلبة المصارعة لتعطيه قوة من جراء لمعان جسده أمام الخصم الذي لا يتمكن من الإمساك بجسده اللامع والمدهون بالزيت. وهكذا قبل أن يترل المعمد في ماء المعمودية، يدهن بالزيت لأنه مقبل على معركة مع الشيطان.

الامتيازات التي ستحصل عليها، ويحثها في داخلها لكي تتأهب لتعيش حياة الفضيلة.

ويخبرنا الكتاب أن يوسف حَلِمَ حُلماً جاءه من السماء، ولأنه تحيَّر و لم يعرف ما معنى هذا الحُلم، وما عسى أن يكون؟ فإنه أخبر أخوته قائلاً لهم ما يلي: «اسْمَعُوا هذَا الْحُلْمَ الَّذِي حَلُمْتُ: فَهَا نَحْنُ حَازِمُونَ حُزَماً فِي الْحَقْلِ، وَإِذَا حُزْمَتِي قَامَتْ وَانْتَصَبَتْ، فَاحْتَاطَتْ حُزَمُكُمْ وَسَجَدَتْ لِحُزْمَتِي». فَقَالَ لَهُ إِخْوَتُهُ: «أَلَعَلَّكَ تَمْلِكُ عَلَيْنَا مُلْكاً أَمْ تَتَسَلَّطُ عَلَيْنَا تَسَلُّطاً؟» وَازْدَادُوا أَيْضاً بُغْضاً لَهُ مِنْ أَجْلِ أَحْلاَمِهِ وَمِنْ أَجْلِ كَلاَمِهِ» (تك ٣٧: ٦ — ٨).

نلاحظ هنا أن المعنى المقصود من الحُلم صار سبب زيادة الشر ووقوداً يُشعِل حسدهم. فإن هؤلاء الذين اغتاظوا قليلاً في البداية بسبب نواله كرامة أكبر منهم (أي بسبب القميص الملون)، كيف سيتحملون في المستقبل أن يسجدوا له، ويقدموا له احتراماً فوق جميع الناس؟ وهكذا يجب أن نلاحظ هُنا أن الحسد ينشئ دائماً تعدياً سافراً ودنيئاً ويؤدي إلى شرور كثيرة[٣٠٣]. وهكذا نرى الحسدَ كوحشٍ أعمى، وهو مضاد لله ومحارب له. لاحظ كيف أن الله يُعلن ليوسف عن طريق الحُلم عظمة المجد الذي سيكون له، أما إخوته فبدلاً من أن يدركوا بوضوح أن الله الذي يدين بالعدل، لا يمنح كرامات سامية وفائقة للذين لا يستحقونها، وبدلاً من أن يفرحوا من أجل أخيهم الذي أُعلِن له ما سوف يصل

---

[٣٠٣] يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "إن هذا الحسد هو الذي أثار الفوضى في كل شيء، وملأ المسكونة، بل والكنيسة باضطرابات لا حصر لها. ومثل الميناء الهادئ، عندما تهب عليه عواصف عاتية، فإنها تجعله عرضه للأخطار، أكثر من أخطار الصخور، وأكثر من الأخطار التي تتعرض لها مضايق البحار، هكذا شهوة المجد، تثير الفوضى والارتباك في كل شيء" تفسير الرسالة إلى أفسس، الإصحاح الرابع، ص ١٧١.

إليه في المستقبل، وأن الله يُكرَّمه بقرار منه هو، بدلاً من ذلك أصابتهم شوكة الحسد الصلبة واستولى عليهم هوس الغيرة كوحش مفترس، فتطاولوا على الله الذي وعد يوسف بالمجد، وأظهر مسبقاً أنه سيصير إنساناً عظيماً. ونفس هذا الأمر نرى أنه كان قد حدث أيضاً بين قايين وهابيل. فبسبب أن الله استحسن تقدمه هابيل وقَبِل قربانه وعطاياه، بينما لم ينظر إلى قُربان قايين، لذلك تحرك قايين بحسدٍ قاتل مُعلناً غضبه من الأوامر السماوية، فاستخدم حيلةً تجاه أخيه وقتله. لأن الحسد ينتهي دائماً بالقتل.

تفسير الحلم

لكن ما هو معنى الحلم؟ حسناً، الحزمة نقبلها على أنها علامة للوقت. وكون أن حزمة قامت وانتصبت، فهذا يشير إلى المجد الظاهر. وكون أنه سيأتي الوقت الذي فيه يصير يوسف ممجداً، وأن أخوته سوف يسجدون ويخضعون له، تُظهِره حزمته التي قامت وانتصبت وسُجِد لها. لكن أحلام يوسف لم تقف عن هذا الحد، إذ سرد أيضاً لأبيه الطوباوي وأخوته، أنه رأى حلماً آخر. لأنه يقول: «إني قد حَلُمت حُلماً أيضاً وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي. وقصَّه على أبيه وعلى إخوته. فانتهره أبوه وقال له ما هذا الحُلمُ الذي حلمت. هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض. فحسده أخوته. وأما أبوه فحفظ الأمر» (تك ٣٧: ٩ ــ ١١). يا لحكمة الشيخ وبراعته أمام دلالات الأحلام، لقد أدرك بالطبع أهمية هذه الرؤى، لكنه وبَّخ ولده، قائلاً: «هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض». طريقة توبيخه كانت حكيمة وضرورية. لأنه من جهةٍ، قطع بذكاء، حسد أولئك الذين يسمعونه، ويضبط الفتى الذي استولت

عليه جُرأة زائدة، ودعاه أن يلزم الهدوء، ومن جهةٍ أخرى، لم يترك الفتى المراهق أن يطلق العنان لافتخاره أمام إخوته مستنداً على رجاء الأحلام، ولا أيضاً أن لا يبالي لأجل خاطر كرامة أبيه، بل أن يقتنص لذاته المجد الفائق قبل أوان حدوثه.

لاحظ إذن مدى ذكائه في إظهار أن تحقيق هذه الأحلام ليست غير ممكنة. فبالرغم من أن راحيل التي ولدت يوسف كانت قد ماتت، يقول: «هل نأتي أنا وأمك. لنسجد لك». وفعل هذا الأمر، كما قُلت، لكي يقلّل من تفاخر الفتى، ولكي يُسَكِّن الحسد الذي استفز إخوته ضده. طبعاً يعقوب نفسه انتظر تحقيق الحلم، لأنه لم يسمعه وهو غير مبالٍ، ولا اعتبر أن الأقوال التي سمعها تستحق النسيان، بالرغم من أنه وبَّخه. لأن الكتاب يقول: «وأما أبوه فحفظ الأمر» (تك ٣٧:١١)، لأنه صدَّق أن هذه الأحلام سوف تتحقق. وبعد أن سرَدَ يوسف عليهم الحُلم: «مضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم» (تك ٣٧:١٢). وبعد أن مرت فترة من الزمن، سمح الأب للفتى أن يزور إخوته. لأنه يقول: «أليس إخوتك يرعون عند شكيم. تعال فأرسلك إليهم. فقال له هأنذا. فقال له اذهب أنظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم ورُد لي خبراً» (تك ٣٧: ١٣ ـــ ١٤). حسناً، لقد وعد بتأهبٍ أنه سيذهب، ومضى وذهب مباشرةً من وطاء حبرون. وبينما هو سائر في البرية قابله رجلٌ وسأله عن ماذا يطلب؟ (انظر تك ٣٧:١٥)، «فقال أنا طالب إخوتي. أخبرني أين يرعون. فقال الرجل قد ارتحلوا من هنا. لأني سمعتهم يقولون لنذهب إلى دوثان. فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم في دوثان» (تك ٣٧:١٦ ـــ ١٧). وعندما وصل، وعلى غير ما توقّع، وقع في مصيدة.

إخوة يوسف يشرعون في قتله

منذ فترةٍ كان الحسدُ يقوم بدوره على أكمل وجه، وفكّر أبناء بلهة وزلفة، الذين كانوا عبيداً، في قتل يوسف. لأنهم قالوا: «هوذا صاحب الأحلام قادم. فالآن هلم نقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونقول وحشٌ رديء أكله. فنرى ماذا تكون أحلامه» (تك ٣٧: ١٩ ــ ٢٢).

هكذا خلعوا عن يوسف قميصه الملون، وأنزلوه إلى البئر حياً، بل ظنوا أنه سيموت بعد قليل. لكنهم رأوا تجاراً إسماعيليين كانوا يتاجرون في الروائح ذاهبين ليترلوا إلى مصر. فقال يهوذا لإخوته لا ينبغي أن نقتل أخانا، فلنبيعه للإسماعيليين. وبالفعل اشتراه الإسماعيليون بعشرين من الفضة. ونُقِل طبعاً يوسف إلى مصر، لكن ذهب رأوبين إلى البئر ــ ولم يكن يعرف ما حدث ــ وعندما لم يجد الفتى ظنَّ أن خطراً ما قد أصابه، فمزَّق ثيابه وأدان أخوته، قائلاً: «الولد ليس موجوداً. وأنا إلى أين أذهب» (تك ٣٧: ٣٠). كأنه يقول كيف سأرجع إلى أبي، وكيف سيقبلنا بدون أن يكون معنا ابنه المحبوب؟ وماذا سنقول له عندما يسألنا عن ولده؟ أما أولئك فقد غمسوا القميص الملون في دم تيس ذبحوه لأجل هذا الغرض، وذهبوا به إلى أبيهم قائلين له وهم سكارى من الضلال والجُبن: «وجدنا هذا. حَققِّ أقميص ابنك هو أم لا» (تك ٣٧: ٣٢). بدأ الأب ينوح ويصرخ صراخاً شديداً ضد الغيرة والأفكار الدنسة لأولاده، قائلاً: «وحشٌ رديءٌ أكله. افترس يوسف افتراساً» (تك ٣٧: ٣٣). وحزنه من أجل مصيبة ابنه لم يقبل أي تهدئة ونصيحة. لأنه يقول: «فأبى أن يتعزَّى وقال إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية» (تك ٣٧: ٣٥). إذن، طالما أن الحديث وصل إلى نهايته، سوف

ينتقل ذهننا لكي نُفسِّر المعنى العميق لهذه الأحداث، مظهِرين الحقيقة الخاصة بهذه الأمور التي حدثت كأنها ظلال للحق، وسوف نعمل بقدر الإمكان على إظهار جمال وعمق ومعنى هذه الأحداث.

لقد ولدت راحيل الشابة، يوسف. راحيل التي كانت حسنة الصورة، وكانت عيونها تشع بالبهجة، بينما ليئة لم تكن مثلها في الجمال. مِن أين نعرف هذا؟ نعرف من المكتوب: «وكانت عينا ليئة ضعيفتين. وأما راحيل فكانت حسنة الصورة وحسنة المنظر» (تك ٢٩:١٧).

نقول عن ليئة إنها تشير إلى أمُ اليهود، أي المجمع اليهودي. لأن الرؤية الداخلية لمجمع اليهود كانت حقاً سيئة ومريضة، إذ وفق كلام النبي «لهم أعين ولا يبصرون» (أر ٥:٢١). لأنهم لم يعرفوا ما كتبه موسى، ولا استطاعوا أن يلاحظوا الأسرار الموجودة فيما كتبه، والتي كانت ترسم لنا صورة عمانوئيل.

اسم "ليئة" يعني: "هذه التي تتعب κοπιῶσα"، وحقاً تعب المجمع اليهودي تحت ثقل ناموس موسى. والمسيح دعا هؤلاء المتعبين وثقيلي الأحمال إلى راحة الإيمان، قائلاً: "تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (مت ١١:٢٨). هكذا ليئة تشير إلى كل هذا.

راحيل تشير إلى كنيسة الأمم

أمَّا راحيل التي كانت عيناها صافية، فهي تشير إلى الكنيسة التي من الأمم، الكنيسة التي رأت مجد المسيح، ورآها الآب فيه ودعاها لتصير مسكناً للعريس العقلي، أي المسيح، بعد ارتباطه بالأولى (مجمع اليهود). لأن الشابة ليس بها

غضن بينما الأولى صارت قديمة، ولأنها شاخت فقد وُجدت قريبة من الاضمحلال.

اسم "راحيل" يعني "رعية الله". وحقاً، الكنيسة هي رعية المخلص الذي قال لليهود من خلال قديس من القديسين: "فقُلت أرعاكم. مَنْ يَمُت فليمت ومَنْ يُبِد فليُبِد والبقية فليأكل بعضها لحم بعض" (زك ١١ :٩) وقال عنها: "خِرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني. وأنا أعطيها حياة أبدية" (يو ١٠ :٢٧ ــ ٢٨). إنه بالتأكيد هو الراعي الصالح والأول في كل شيء[٣٠٤]، لكنه وُجد أيضاً حملاً لأنه صار مثلنا. وحقاً أظهره يوحنا المعمدان أمام جمع اليهود، قائلاً: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو ١ :٢٩). بالتأكيد ذُبحت آلاف الحملان وفق الناموس، لكن ولا واحد منها رفع خطية العالم. لأنه يقول: «لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا» (عب ١٠ :٤). لكن الحمل الذي بلا خطية، الحمل الحقيقي، الذبيح الذي لم يفعل خطية أبطَل خطية العالم.

إذن، حُسبَ حملاً معنا (انظر أش ٥٣ :٧)[٣٠٥]. وأيضاً بسبب هذا دُعي الابن البكر للكنيسة بين أخوة كثيرين (انظر رو ٨ :٢٩). أيضاً يجب أن نعرف أن اسم «يوسف» يعني «إضافة وازدياد من الله»، لأن الجمع المقدس لأبناء الكنيسة يمضي دائماً في ازدياد. لأجل هذا قيل لها: «ارفعي عينيك حواليك وانظري كلهم قد اجتمعوا أتو إليك. فتسير الأمم في نُورك والملوك في ضياء إشراقك» (أش ٤٩ :١٨، ٦٠ :٤). وأيضاً: «هؤلاء من بعيد يأتون وهؤلاء من الشمال

---

[304] "Εστι μὲν οὖν ποιμὴν ἀγαθὸς καὶ ἐν πᾶσιν αὐτὸς πρωτεύων.

[٣٠٥] أي من ضمن الرعية مثلنا.

ومن المغرب وهؤلاء من أرض سينيم» (أش ٤٩: ١٢). وكذلك في سفر أعمال الرسل مكتوب أن الرب جمع جميع هؤلاء الذين خلصوا، معاً كل يوم (انظر أع ٤٧:٢). وكذلك يذكر سفر الأعمال: «وكان مؤمنون ينضمون للرب أكثر. جماهير من رجال ونساء» (أع ١٤:٥). لأجل هذا، كما قُلت من قبل إن «يوسف» بالمعنى الروحي هو المؤمنون بالمسيح، والذي يعني «إضافة وازدياد من الله». إن حديثنا يمضي ويدعو هؤلاء الذين آمنوا بالمسيح باسم المسيح بحسب التدبير؛ لأنه هو الرأس ونحن الجسد والأعضاء (انظر كو ١٨:١). وهو أيضاً كمثل الكرمة بينما نحن الأغصان مرتبطين به باتحادٍ روحي بواسطة التقديس[٣٠٦].

سر تدبير التجسد من خلال عمر يوسف

يقول الكتاب أيضاً إن: «يوسف كان ابن سبعة عشر عاماً» (تك ٢:٣٧). وكان شاباً فتياً وأعتقد أن الكتاب المقدس أراد أن يبرز هذا الأمر. ونحن نقول إن عمانوئيل كان أيضاً أكثر نضارةً وقوةً من الآخرين بمقارنة عُمره مع عُمر الآخرين، أقصد بمقارنته بموسى والأنبياء. وأيضاً نحن نُفسر هذه الأقوال المكتوبة على أنها تعلن أمراً آخراً. إن عدد السنين يرسم لنا أيضاً سر تدبير التجسد العميق، كيف؟ سأحاول أن أشرح لكم بقدر المستطاع هذا الأمر الذي قُلته قبل ذلك لآخرين.

306 *ἑνώσει τῇ κατὰ Πνεῦμα δι' ἁγιασμοῦ συνδούμενοι.*

إن الأعداد التي تمثل وحدة واحدة، ترمز عادةً في الكتاب المقدس إلى الكمال. على سبيل المثال وِحدة العشرة، يستطيع المرء أن يبدأ العَدَّ من رقم عشرة بطريقة تنازلية ليصل إلى رقم واحد، ثم يبدأ من واحد ليصل إلى رقم عشرة، أي النهاية. نفس الأمر بالنسبة لوحدة الأسبوع، يبدأ المرء من اليوم الأول حتى يصل إلى السابع، وبعد ذلك يكون قد أكمل عدد الأيام حتى النهاية، ليبدأ مرةً أخرى من بداية الأسبوع. حسناً، بهذه الطريقة يعتبر الكتاب مثل هذه الأرقام رمزاً للكمال.

من ناحيةٍ أخرى، في مثل الوزنات (انظر مت ٢٥:١٤ ــ ٢٦)، فإن الذي استثمر وزناته وصل إلى كمال العمل بحسب الله باقتنائه عشر وزنات، وقد كافأ المسيح أيضاً الذي ربح عشرة أَمنَاءَ بإعطائه سلطاناً على عشر مُدنٍ (انظر لو١٩:٢٧)، مُظهِراً بهذا أن المكافآت تشير إلى كمال العطايا. كما استخدم أحد القديسين رقم سبعة ليرمز إلى الكثرة، إذ قال إن عاقراً قد ولدت سبعة. هكذا أيضاً فأن هذه الأرقام تُستخدم للتعبير عن الكمال. إذن، فعندما قيل عن يوسف إنه كان ابن سبعة عشر عاماً، فهذا يشير إلى عمانوئيل الذي هو مسيحٌ واحدٌ، وابنٌ واحدٌ من طبيعتين، لاهوت كامل وناسوت كامل[٣٠٧]. إننا لا نقبل بالطبع ما يظنه البعض ويؤمنون به، بأن ذاك الهيكل الإلهي الذي لبسه الله الكلمة من

---

307 *εἰς ἕνα Χριστὸν καὶ Υἱὸν ἐκ δυοῖν τελείον, Θεότητός τε καὶ ἀνθρωπότητος*

إن اتحاد الطبيعتين بالنسبة للقديس كيرلس كان اتحادًا داخليًا حميمًا بحسب 'الهيبوستاسيس' (أي اتحاد هيبوستاسي) وليس مجرد اتحادًا خارجيًا في نطاق البروسوبون. لذلك فإن المسيح هو هيبوستاسيس واحد مركب (أي مركز واحد للوجود والفعل)، وطبيعة واحدة مركبة، وبروسوبون واحد. فالطبيعتين الإلهية والإنسانية ظلتا محتفظتين بخواصهما دون أي نقصان أو تغيُّر وقد اتحدتا بصورة داخلية حميمة بدون اختلاط أو انفصال. للشرح التفصيلي لطريقة اتحاد الطبيعتين في شخص المسيح بحسب تعليم القديس كيرلس والقديس ساويرس الأنطاكي. انظر: الأب فِ. سي. صموئيل، مجمع خلقيدونية إعادة فحص، ترجمة د. عماد موريس إسكندر، مراجعة دكتور جوزيف موريس فلتس، مركز باناريون للتراث الآبائي، ط أولى، ٢٠٠٩.

العذراء القديسة كان بدون نفسٍ عاقلة. وأيضاً مثلما كان إلهاً كاملاً، فقد كان أيضاً إنساناً كاملاً في اتحادٍ سريٍّ يفوق العقل(٣٠٨).

بالتالي، فإن رقم عشرة يشير إلى كمال اللاهوت بينما رقم سبعة يشير هنا إلى كمال الناسوت. والفرق بين عشرة وسبعة هو رقم ثلاثة الذي يشير إلى الثالوث. إذن الله الكلمة واحد من ثالوث قدوس يفوق بلاهوته العنصر الإنساني الذي هو أدنى من رقم عشرة، أي أن العنصر الإنساني هو أدنى من مجد الله. ويُدرَك الله الكلمة على أنه كائن أزلي، بينما العنصر الإنساني قد أُضيف إليه (بالتجسد). بالتالي حتماً، فإن رقم عشرة هو الأول والسابق، ثم أضيف إليه رقم سبعة؛ ليصبح في النهاية سبعة عشر، وهي سنيين عمر يوسف. لأنه يقول: «كان يوسف ابن سبعة عشر عاماً» (تك ٣٧: ٢).

لاحظ إذاً من فضلك، العنصرين، العنصر الزمني والعنصر الذي لا بداية له τό πρόσκαιρόν τε καὶ ἄναρχον، أقصد العنصرين اللذين لعمانوئيل وهو في الزمن. لقد أصبح إحصاء عدد سنين عمر يوسف يشير ـــ كما في أيقونةٍ ـــ إلى عمانوئيل. كما أن كلمة «كان» في عبارة «كان يوسف ابن سبعة عشر عاماً»، تعني أنه وُلِدَ منذ سبعة عشر عاماً، وهذا تحديدٌ لعمره كإنسان، وهذا يشير إلى الكلمة الذي صار إنساناً، رغم أنه كان الله. وهكذا، فان كلمة «كان ἦν» تشير إلى أنه «كان» مع الآب أزلياً συναΐδιος، كما قال يوحنا العظيم: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الله الكلمة» (يو ١: ١).

---

308 *Ἀλλ’ ὥσπερ ἦν τέλειος ἐν θεότητι, οὕτω καὶ ἐν ἀνθρωπονητι, πλήν εἰς ἕνα συγκείμενος ἀπορρήτως τε καὶ ὑπὲρ νοῦν.*

المسيح الراعي والطريق

وأقول أيضاً، إن يوسف العظيم كان ابن سبعة عشر عاماً، ورعى قطعان أبيه مع إخوته الذين كانوا أبناء زِلفة وبلهة، أي أبناء الخادمتين. هكذا كلمة الله عندما صار إنساناً جال كل بلاد اليهودية طولاً وعرضاً ليرقى بخِراف إسرائيل الضالة[٣٠٩] إلى محبةٍ لله، لأنه كما كتب بولس الطوباوي: «أي أن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه» (٢ كو ٥:١٩). إذن، فعمانوئيل رعى أولئك الذين كانوا عبيداً بالولادة، أبناء الخادمتين، غير الأحرار. لأنهم بعد مملكة يربعام، رحلت عشرة أسباط من أورشليم، وسكنت السامرة، وكان يربعام الملك هو الذي قاد الأسباط في ذلك. إلّا أن يهود هذه الأسباط قد خُدِعوا وعبدوا الأبقار الذهبية. لذلك أيضاً أداهم الله بفم حزقيال كأنهم امرأتان زانيتان، قائلاً: «يَا ابْنَ آدَمَ، كَانَ امْرَأَتَانِ ابْنَتَا أُمٍّ وَاحِدَةٍ، وَزَنَتَا بِمِصْرَ. فِي صِبَاهُمَا زَنَتَا. هُنَاكَ دُغْدِغَتْ ثُدِيُّهُمَا، وَهُنَاكَ تَزَغْزَغَتْ تَرَائِبُ عُذْرَتِهِمَا. وَاسْمُهُمَا: أُهُولَةُ الْكَبِيرَةُ، وَأُهُولِيبَةُ

---

[٣٠٩] يؤكد القديس كيرلس أثناء حديثة عن المنارة والمائدة للخيمة المقدسة، على أن المسيح قد أشرق كنورٍ على اليهود إذ يقول: "أمَّا كونُ المسيحِ نوراً، فقد أعلنته المنارة، وكونه الحياةَ والخبز الذي يعطي حياةً، فقد أظهرته المائدة وكل ما وُضع فوقها. لكن عليك أنْ تتأمل أمراً آخراً، وتلاحظ ما ينطوي عليه من سرٍّ: يقع موطن اليهود في الجنوب، بينما موطن الأمم في الشمال. فإذا أخذنا في الاعتبار مكان كلٍ من المنارة والمائدة، فسوف يُدرك مَن يريد، أنَّ المسيحَ قد أشرق كنورٍ على اليهود وكرز لهم "أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ" (يو ٨: ١٢). لأنه قد أُرسل إلى خراف بيت إسرائيل الضالة (مت ١٥: ٢٤)، وبحسب الكتب المقدسة "لأنَّ لهم المواعيد" (رو ٩: ٤). لكن بما أنهم لم يقبلوا نور الحق، صار المسيحُ للأمم هو الحياةَ والخبزَ النازل من السماء، وهكذا لم يبقَ الأممُ بدون نور. وهذا ما تراه من جهة أنَّ النورَ يُشرق على شمال الخيمة؛ لأنَّ المنارةَ قد وُضعت فوق المائدة التي كانت جنوباً. وما ساعد على إظهار ذلك، أنَّ الخيمةَ كانتِ محدودة القياس". أنظر السجود والعبادة بالروح والحق، مرجع سابق، المقالة العاشرة ص ٣٩٨.

أُخْتُهَا. وَكَانَتَا لِي، وَوَلَدَتَا بَنِينَ وَبَنَاتٍ. وَاسْمَاهُمَا: السَّامِرَةُ «أُهُولَةُ»، وَأُورُشَلِيمُ «أُهُولِيبَةُ»» (حزقيال ٢٣: ٢ — ٤).

حسناً، لقد رعى ابن الله، عندما صار إنساناً مثلنا، أولئك الذين كانوا أبناء العبيد والزواني. لقد كانوا زعماء إسرائيل ومدبروه وفق الناموس، بيد أن المسيح كان يعلّم هؤلاء الذين يقتربون منه وينقلهم إلى طريق الحق، فهو نفسه كان الطريق، لذا قال: «أنا هو الطريق» (يو ١٤: ٦). والكتبة والفريسيون الذين كانوا يؤمنون بالشرائع رعوا الشعب في مراعٍ مملوءةً شوكاً وزواناً وضلالاً. وكانت تعاليمهم هي وصايا الناس، بينما المسيح كان يرعى في مراعٍ حسنةٍ خضراء مملوءةٍ بالورود الجميلة، بمعرفة التعاليم الإنجيلية الرائعة والمحبوبة. لقد كان الكتبة والفريسيون رُعاةً كسالى وخاملين، وتساهلوا وأخذوا الرشاوى وعانوا من الولع بالربح، كما قال النبي: «تأكلون الشحم وتلبسون الصوف وتذبحون السمين ولا ترعون الغنم» (حز ٣٤: ٣)، لقد كانوا يأخذون أُجرةً وصاروا متفاخرين؛ لأنهم نادراً ما كانوا يهتمون بما كان عليهم أن يفعلوه من أجل الخِراف (انظر يو ١٠: ١١)، وكما أن أبناء زِلفة وبلهة دبَّروا مكائد ضد يوسف، هكذا حشد الفريسيون النجسون والشرسون ضد عمانوئيل، وأساءوا إليه محاولين تشويه مجده داعين إياه بأنه سامريٌّ وشرِّيبُ خمرٍ، وبه شيطان، إذ قالوا إنه ببعلزبول يُخرج الأرواح الشريرة من المرضى (انظر يو ٨: ٤٨، مت ١١: ١٩، ١٢: ٢٧). لأجل هذا أدان عمانوئيل ثرثرة اليهود ووقاحتهم بأقوال النبي، قائلاً: «ويل لهم لأنهم هربوا عني. تبًّا لهم لأنهم أذنبوا إليَّ. أنا أفديهم وهم تكلموا عليَّ بكذبٍ» (هو ٧: ١٣). وأيضاً: «يسقط رؤساؤهم بالسيف من أجل سخط ألسنتهم» (هو ٧: ١٦).

إذن، لقد ثرثر جمع الفريسيين بوقاحة ضد المسيح، وهذا ما أشار إليه موقف إخوة يوسف منه حين تقوَّلوا عليه شراً وأدانوه وأبغضوه.

«وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته» (تك ٣٧:٣)، لأنه كان يوجد رُعاةٌ طيبون آخرون وصالحون قبل مجيء مخلصنا بالجسد إلى العالم، وقبل الآخرين كان موسى العظيم، وكذلك أولئك الذين بعد مجيئه رعوا القطعان العقلية، إلَّا أن الأب كان يحب يوسف الابن، على الرغم من أنه الابن الأخير، إذ جاء بعد الآخرين، في الأيام الأخيرة. ويمكن أن يكون ليعقوب ابناً في شيخوخته، أقصد يوسف.

أمَّا الله، فإنه لا يشيخ، وهو بلا بداية ولا يكبر، ودائماً هو كُلي الكمال. لذلك فهناك حكمة في قولنا إنه في الأزمنة الأخيرة لهذا الدهر الحاضر، وهذا ما تشير إليه شيخوخة يعقوب، وُلِدَ عمانوئيل (بالجسد)، وبعده لم يأتِ أحدٌ آخر. لأننا لا ننتظر الخلاص من شخصٍ آخر (انظر أع ٤:١٢). إن كفايتنا هي في المسيح؛ لأننا نؤمن بأن الخلاص، وكذلك حياة العالم لا توجد في شخصٍ آخر. إذن، فالمسيح سوف يرعانا[٣١٠] إلى الأبد، وفقاً ما قاله المرنم (انظر مز

---

[٣١٠] يرى القديس يوحنا ذهبي الفم بأن كون أن الكلمة يتجسد ويموت لأجلنا دليل على محبته وعنايته بنا، إذ يقول: "إن صليب الرب هو بالنسبة لنا فعل محبته التي لا يُنطق بها نحو البشر، ودليل اهتمامه العظيم بنا ..«لأنه لهذا مات المسيح وقام وعاش..» (رو ١٤:٩) ليت هذا يُقنعك بأنه على الدوام مهتم بخلاصنا وتقويمنا .. فالذي أظهر مثل هذا الاشتياق لأن نكون له حتى أخذ شكل العبد ومات لهذه الغاية، أيمكن أن يهملنا بعد أن صرنا له؟ هذا أمر مُحال ولن يكون بكل تأكيد! ولن يهون عليه (أي على الرب) بأن تضيع عليه مثل هذه الأتعاب، «فإنه لهذا مات ...» (رو ١٤: ٩). وكأن أحداً يقول: إن فلاناً لن يهون عليه أن يفقد عبداً له، لأنه يشفق على الثمن الذي دفعه لأجله. على أننا لا نحب المال مثلما يحب هو خلاصنا؛ إذ أنه لم يدفع مالاً، بل دفع دمه الخاص لأجلنا! ولهذا السبب لن يهون عليه أن يفقد أولئك الذين دفع لأجلهم مثل هذا الثمن الكريم!" شرح الرسالة إلى رومية (عظة ٢ و٢٥) *PG 60, 408, 631.*

١٥:٤٨)، وسنظل تحت رعايته، هو الابن المحبوب الذي ظهر بالجسد في الأيام الأخيرة، كما قلت من قبل، إلّا أنه كائن منذ الأزل لأنه إله. لأننا نقول إنه يشترك في الأزلية مع الآب.

حسناً. لقد كان يوسف محبوباً حُبًّا خاصاً من أبيه، وأُعطي له قميصاً ملوَّناً كعطيةٍ عظيمةٍ، وكإعلانٍ عملي لمحبته، لكن هذا الأمر صار، مثيراً لفعل الشر، وسبباً لحسد وغيرة إخوته، كما سيتضح في النهاية. وهذا ما حدث أيضاً مع الفريسيين، فقد ظلوا على حقدهم على الابن المحبوب، أقصد المسيح، لأن الله الآب قد شمله بمجد عظيم. فهو كان محط الإعجاب من زوايا متعددة، من حيث أنه الحياة، ومن جهةٍ أخرى كونه النور، لأنه كانت لديه القدرة على أن ينير أيضاً أولئك الذين هم في الظلمة، ولأنه شفي البُرص وأقام الموتى مُقيماً إياهم بكل سهولة حتى عندما انبعثت رائحة نتنة مِن الميت، وكذلك لأنه انتهر البحر ومشى على أمواجه بسلطان. لأجل هذا كله تحيَّر اليهود واشتعلوا بنار الحسد المتقدة، وقالوا فيما بينهم: «ماذا نصنع فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة» (يو ٤٧:١١).

إذن، فالقميص الملوَّن والجميل هو رمزٌ، فالله الآب سوف يُلبسه للابن الذي صار مثلنا لكي يخلص البشرية. وهو رب المجد ὁ τῆς δόξης Κύριος بحسب طبيعته الإلهية، حتى لو قال بحسب التدبير οἰκονομικῶς بسبب تشابهه معنا «أيها الآب قد أتت الساعة مَجد ابنك» (يو ١:١٧).

لقد استولى الحزن على أبناء الخادمتين بسبب الحُلم الذي سرده يوسف عليهم. لأنهم عرفوا ـــ مسبقاً ـــ أنهم سوف يخضعون ويسجدون له، بينما هو سيكون الأعظم وسيصل في المستقبل لمثل هذا العلو من المجد، حتى أنه سيسجد

له هؤلاء الذين هو واحد منهم، وأصرُّوا على أسنانهم من الغيظ، وانتهوا إلى قرارٍ بأنهم يجب أن يقتلوه. بالمثل حنق اليهود غيظاً واستشاطوا غضباً وضيقاً عندما علموا أن عمانوئيل سوف يتفوق على الآباء القديسين أنفسهم، وسوف يُسجد له من كل الشعب، أو أنه هو الأفضل، في كل الأرض، ولأنهم يدركون هذا الأمر، قالوا: «هذا هو الوارث. هلموا نقتله فيكون لنا الميراث» (مر ١٢:٧)، برغم أن داود الطوباوي قال بكل وضوح عن الابن الوحيد الذي صار إنساناً: «كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك يا رب ويُمجدون اسمك» (مز ٨٦:٩). ومرة أخرى أظهر بكل وضوح حسد وغضب بني إسرائيل، قائلاً: «الرب قد ملك. ترتعد الشعوب» (مز ٩٩:١).

إذن، فبما أننا قد أوضحنا وشرحنا حسد اليهود الأهوج، حين أشرنا إلى خططهم ومكائدهم لارتكاب جريمة القتل، فإننا نرجع بعد ذلك ونتحدث عن هدف تأنس الابن الوحيد، وهذا سيكون موضوع حديثنا المُقبل.

الهدف من تأنس الابن الوحيد

حسناً، لقد أطاع يوسف وصية أبية بالذهاب إلى شكيم لكي يطمئن على إخوته ويعرف أين وتحت أي ظروف يرعون الأغنام. لقد ذهب، ولكنه لم يجدهم في شكيم لأنهم كانوا قد ذهبوا إلى دوثان (انظر تك ٣٧:١٧). وحين رأوه يقترب منهم سخروا منه وهم مملوؤن بالمكر والكراهية، قائلين: «هوذا صاحب الأحلام قادم» (تك ٣٧:٢٠). وبالرغم من أنهم كانوا يريدون قتله، إلَّا أنهم قبلوا نصيحة رأوبين، الذي منعهم من فعل هذا الأمر، وهكذا ألقوه في بئرٍ. وبعد قليل أخرجوه من البئر وباعوه للإسماعيليين الذين كانوا ذاهبين إلى مصر.

وعندما رجع رأوبين إلى البئر و لم يجد يوسف، اعتقد أنه قُتِلَ بالفعل من جراء فعل إخوته المشين، إخوته الذين كانوا يريدون قتله، فحزن رأوبين حزناً شديداً. أما يُوسف فقد نُقِل إلى مصر، وبكى عليه أبيه بكاءً شديداً واستمر يرثيه كثيراً منتحباً بصوتٍ عالٍ.

وهذا يشير إلى ربنا يسوع المسيح الذي أُرسِلَ مِن الله أبيه لكي يفتقد أبناء إسرائيل، ولكي يطمئن عليهم هل هم بخير، وهل الخِراف التي يرعوها تفتقر إلى العناية، لكنه لم يجدهم في شكيم بل في دوثان. وشكيم تعني "كتف ὦμος»، وهذا الجزء في جسم الإنسان يشير إلى حب العمل. لأن الكتاب الموحى به من الله يستخدم كلمة «كتف» بمعنى القوة، وأحياناً أخرى بمعنى العمل. مثلما نقول: «أعط قلبك لأكتافك»، أي أعطِ قلبك لمحبة العمل. بينما «دوثان» تعني «نقصٌ كبير ἔκλειψις ἱκανή».

حسناً، لقد وُجِدَ بنو إسرائيل غير محبين لأعمال الفضيلة ولا يتقدمون في وصايا الناموس، بل لديهم نقصٌ كبير في البر والوداعة. لأنه يقول: «ليس من يعمل صلاحاً. ليس ولا واحد» (مز ١٤: ١، ٥٣: ٤)، وأيضاً مثلما قال الله بصوت النبي إنهم يكرمونه فقط بالشفاه، وأبعدوا قلبهم بعيداً، وبدلاً من أن يطبقون الوصايا التي شرَّعها موسى حادوا بقلوبهم بعيداً عنها (انظر أش ٢٩: ١٣). إذن، لقد أعطوا فقط انتباههم لتعاليم الناس ووصاياهم.

لقد عرفوا أن الابن المحبوب مِن أبيه حاضرٌ، أي يوسف الروحي، كما قال يوحنا الإنجيلي: «آمن به كثيرون من الرؤساء أيضاً غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به» (يو ١٢: ٤٢). إذن، بالرغم من أنهم قد عرفوه جيداً، إلّا أنهم احتقروه. لقد قتله التعساء وأنزلوه ـــ كما في بئرٍ ـــ إلى هوة الموت العميقة

والمظلمة، أقصد الجحيم. لأنه هكذا وصف لنا هذا الأمر داود العظيم، متوجهاً إلى الله الآب السماوي، كممثلٍ للمسيح: «يا رب أصعدت مِن الهاوية نفسي أحببتني من بين الهابطين في الجُب» (مز ٣٠:٣). أرجو من فضلك أن تلاحظ عمق الكتب المقدسة وإصرارها الكبير على الدقة.

لأن الكتاب يقول: «وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء» (تك ٣٧:٣٤)، أي أن الهاوية هي مسكن وإقامة لأولئك الذين ليس لهم حياة. هكذا خرج يوسف من البئر. وهكذا المسيح أيضاً، فقد قام من الأموات. أي لم يُمسَك من الموت، لم يبقَ المسيح في الهاوية، بل بالحري أفرغها «قائلاً للأسرى أخرجوا» (أش ٤٩:٩). ويوسف العظيم أيضاً خرج سريعاً من البئر وانتقل إلى مصر، لأن الإسماعيليين اشتروه، هؤلاء الإسماعيليون كانوا تُجار عطور. حسناً، قام المسيح أيضاً وخرج من البئر تاركاً اليهودية وانتقل إلى بلاد الأمم حيث حمله الإسرائيليون الروحيون، أي أولئك الذين أطاعوا الله، لأن هذا هو معنى اسمهم.

ومَنْ هم هؤلاء؟ هم التلاميذ الطوباويون الذين أصغوا لتعاليم المسيح، والذين صاروا بداية لأولئك الذين انتظروا ـــ وهم في طاعةٍ وإيمان ـــ أموراً فائقة على الناموس. لأن هؤلاء التلاميذ هم مِثل تجار العطور، إذ أنهم نشروا عِطر سر المسيح، وطبعوا في نفوسهم كل فضيلة. هؤلاء اشتروا يسوع تاركين أمجاد الناموس، إذ اقتنوا «اللؤلؤة كثيرة الثمن» (مت ١٣:٤٦)، حسب المثل الذي رواه المخلّص. لقد أعطوا المسيح للأمم متممّين الإنجيل وكارزين به في كل الأرض، معترفين به إلهاً ورباً، ومثل حجر ثمين رُفِضَ من قِبَل بنائي الناموس، إلّا أنه صار مختاراً وثميناً عند الله وصار هو رأس الزاوية (انظر مز ١١٨: ٢٢). لقد أعاق رأوبين إخوته عن قتلة، ويهوذا اقترح عليهم بيعه. رأوبين كان البكر، بينما

يهوذا كان من السبط الذي دُعيَ لكي يملك. حسناً، كل الذين كانوا مثل البكر أتوا مِن اليهودية، وكذلك الذين قبلوا الكرازة عن المسيح قد دُعُوا إلى المملكة السماوية. هؤلاء حزنوا جداً من أجل كل ما صار ضد المسيح. ولـــم يكن هؤلاء قليلين في أورشليم ـــ في ذلك الوقت ـــ وفي بقية بلاد اليهودية، الذين حزنوا وتألموا على المسيح الذي أُهِينَ. لقد انتحب أبو يوسف، لأن الكتاب يقول: «فأبى أن يتعزى» (تك ٣٧:٣٥). ونستطيع أن نقول هنا إن حُزن الآب السماوي لم يكن قليلاً. لقد أغضبه اليهود القتلة بتصرفاتهم الفظيعة لدرجة أنه لم يقبل أي عزاء من أحد، لأن الأنبياء قد تضرعوا له مرات كثيرة وترجوه لكي ينقذ إسرائيل، بالرغم من أن إسرائيل ارتكب أشياء ضد الأنبياء تخطت كل وصف. بالطبع أظهر الله إشفاقاً عليهم مرات كثيرة، لكن حين تصرفوا تصرفات طائشة ضد المسيح نفسه حمى غضبه عليهم. لأنهم لم يهينوا أحد الأنبياء بل مخلّص العالم، رب الأنبياء، أقصد المسيح الذي له المجد مع الآب والروح القدس إلى دهر الدهور آمين.

عن يهوذا وثامار

يهدف الكتاب المقدس إلى أن يجعل لنا سر المسيح واضحاً بآلاف الوقائع[٣١١]، ويمكن لأحدٍ أن يشبِّه الكتاب بمدينةٍ بهيةٍ جديرةٍ بالإعجاب. هذه المدينة لا تملك صورةً واحدةً للملك، بل صوراً كثيرةً جداً، وموضوعةً في كل مكان بطريقةٍ رائعةٍ وبهية. حسناً، كل الأقوال التي صارت لتحقيق هذا الهدف لا يغيب عنها شيء، بل يُذكر فيها كل شيء. وحين يذكر الكتاب حادثةً فيها شيئاً سيئاً، فهو لا يُعطي أهمية لهذا الشيء السيئ، بل يكفيه عرض جوهر الموضوع الذي يخدم الهدف بطريقة حسنة. لأن الغرض من ذِكر الوقائع ليس هو تسجيل تاريخ حياة القديسين، بل هو يبتعد كثيراً عن هذا الأمر، بل هو يعطينا معرفة السر من خلال تسجيل موضوع الحديث لكي يصير واضحاً وحقيقياً. لذا لا يجب أن يُدين أيٌّ أحدٍ الكتاب من أجل شيء سيئ ذُكِرَ فيه، متهماً إياه بأن ذِكر الشيء السيئ هو خطأ تجاه الحق.

حسناً، لقد صوَّر الكتاب لنا من خلال يهوذا وثامار سر تدبير المخلّص. لأن الكتاب يقول: «وحدث في ذلك الزمان أن يهوذا نزل من عند إخوته ومال إلى

٣١١ بحسب القديس كيرلس، كانت توجد جموع من الأشخاص والأحداث والأشياء، بسبب الملمح الخريستولوجي للعهد القديم، تصوِّر مسبقًا وبجسم أو كما يذكر القديس كيرلس ''كانت إشارة سرية لقوة وساطة المسيح'' (السجود والعبادة بالروح والحق، المقالة الثانية) هذا صار على الجانب الآخر بطريقة واضحة: ''لأن الناموس هو معلم البدايات ويقودنا إلى أساسيات أقوال الله ويلقي داخلنا ـــ بألغاز وظلال ـــ بذرة معرفة سر المسيح'' (المرجع السابق). إن المثال الذي يشير مسبقًا إلى شخصَ الإله المتأنس في العهد القديم، أو الرمز الذي له علاقة بحدث مستقبلي لعمل المسيح الفدائي ليس هو، بحسب القديس كيرلس، إدراك ذهني مجرد ذات طبيعة رمزية خالي من المنظور التاريخي والعمق اللاهوتي.

رجل عدلامي اسمه حيرة. ونظر يهوذا هناك ابنة رجل كنعاني اسمه شوع. فأخذها ودخل عليها. فحبلت وولدت ابناً ودعا اسمه عيرا. ثم حبلت أيضاً وولدت ابناً ودعت اسمه أونان. ثم عادت فولدت أيضاً ابناً ودعت اسمه شيلة. وكان في كزيب حين ولدته» (تك ٣٨: ١ ــ ٥). إذن، هؤلاء كانوا أبناء يهوذا الثلاثة. وعندما صار أولاده كِباراً أخذ يهوذا ثامار لابنه البكر لتكون زوجةً له، أقصد ابنه البكر عير. لكن بسبب أن عير كان شريراً في أعين الله، قبلما يُرزق بأولاد، مات. لأن الكتاب يقول: «فأماته الرب» (تك ٣٨: ٦). ثم بعد ذلك سمح يهوذا لأونان أن يدخل على امرأة أخيه لكي يقيم نسلاً لأخيه الذي مات. أمَّا أونان لأنه عرِف أن النسل الذي سوف يصير لن يكون نسله، خالف ناموس المعاشرة وسكب بذرته على الأرض، وأماته الله مباشرةً (انظر تك ٣٨: ١٠). وعندما صار هذا الأمر، خاف يهوذا من السماح للابن الثالث شيلة للدخول عليها مبرراً ذلك بأنه ربما يفقد أيضاً ابنه الثالث، علاوةً على أنه ما زال صغيراً. لأنه قال لثامار عروسه: «لعله يموت هو أيضاً كأخويه» (تك ٣٨: ١١). وثامار رحلت وظلّت في بيت أبيها.

وبعد مرور زمنٍ، تضايقت ثامار من أجل تأجيل الزواج، لأنها أدركت كيف أن حماها لن يوفي بوعده وبالحري حوَّل انتظارها إلى آمال لن تتحقق.

إذن، ما الذي ابتكرته لأجل تحقيق هذا الهدف؟ يقول الكتاب: «فأُخبرت ثامار وقِيل لها هوذا حَمُوكِ صاعد إلى تِمنه ليجز غنمه. فخلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلففت وجلست في مدخل عنايم التي على طريق تِمنه. لأنها رأت أن شِيلة قد كبر وهي لم تُعطَ له زوجة. فنظرها يهوذا وحسبها زانية. لأنها كانت قد غطت وجهها» (تك ٣٨: ١٣ ــ ١٥). ولأن الشهوة قد

استولت عليه، فمال إليها على الطريق، وطلب منها أن يدخل عليها، فطلبت المرأة منه أجرةً، فوعدها بأن يرسل لها جدي معزي من الغنم، وعندما طلبت منه أيضاً ضمان لوعده، أعطاها عصاه وخاتمه وعِصابته، (أي زينة تُلبس على الرقبة، كما يفعل الكلدانيون). لأن الكلدانيون يحبون الحُلي ويزينون أيديهم ورقابهم، وأحياناً يلبسون أيضاً تيجاناً على رءوسهم، إذ كانوا يظنون أن هذا الأمر يليق بأصلهم النبيل، وأن هذا الأمر أيضاً لا يحرمهم مِن الثناء على رجولتهم.

حسناً، عندما حدثت هذه الأمور، ذهب يهوذا هناك إلى حيثما كان مقصده الأصلي، بينما ثامار عادت إلى بيت أبيها، وصارت حاملاً كما كانت ترجو. وعندما علم يهوذا بهذا الأمر، قال يجب أن تموت هذه المرأة لأنها قد زنت. لكن عندما وصل إلى المرحلة الأخيرة، أظهرت له العصى وباقي الأشياء التي أخذتها منه قائلة له: «أَمَّا هِيَ فَلَمَّا أُخْرِجَتْ أَرْسَلَتْ إلى حَمِيهَا قَائِلَةً: «مِنَ الرَّجُلِ الَّذِي هذِهِ لَهُ أَنَا حُبْلَى!» وَقَالَتْ: «حَقِّقْ لِمَنِ الْخَاتِمُ وَالْعِصَابَةُ وَالْعَصَا هذِهِ». فَتَحَقَّقَهَا يَهُوذَا وَقَالَ: «هِيَ أَبَرُّ مِنِّي، لأَنِّي لَمْ أُعْطِهَا لِشِيلَةَ ابْنِي». فَلَمْ يَعُدْ يَعْرِفُهَا أَيْضاً. وَفِي وَقْتِ وِلاَدَتِهَا إِذَا فِي بَطْنِهَا تَوْأَمَانِ. وَكَانَ فِي وِلاَدَتِهَا أَنَّ أَحَدَهُمَا أَخْرَجَ يَداً فَأَخَذَتِ الْقَابِلَةُ وَرَبَطَتْ عَلَى يَدِهِ قِرْمِزاً، قَائِلَةً: «هذَا خَرَجَ أَوَّلاً». وَلكِنْ حِينَ رَدَّ يَدَهُ، إِذَا أَخُوهُ قَدْ خَرَجَ. فَقَالَتْ: «لِمَاذَا اقْتَحَمْتَ؟ عَلَيْكَ اقْتِحَامٌ!». فَدُعِيَ اسْمُهُ «فَارِصَ». وَبَعْدَ ذلِكَ خَرَجَ أَخُوهُ الَّذِي عَلَى يَدِهِ الْقِرْمِزُ. فَدُعِيَ اسْمُهُ «زَارَحَ»» (تك ٣٨:٢٥ ـــ ٣٠).

هذه الأقوال قيلت في الكتاب المقدس، أما عن أهميتها، فهي مستترة. حسناً، هذه الأهمية سوف نفحصها بإيجاز لنتحقق مِن دقة هذه الأقوال.

إنني أعتقد ـــ قبل أي شيء ـــ أنه ينبغي أن نقول الآتي: بالرغم من أن أمراً قد حدث من تلك الأمور غير المحتشمة، إلّا أننا لنا رأيٌ واضحٌ من جهة فِهم الكتاب المقدس، إذ أن الله دبر أن ننال منفعةً مما ذكره الكتاب عن يهوذا. إذن، فلنترك الضرر الناشئ من العثرة، إذا كنا نظن أننا حكماء ولدينا رأيٌ صحيح ولا نجهل هذه الأمور، لأنها تؤدي للمنفعة الروحية بحسب التدبير. يجب أن نتأمل في قول الرب لهوشع بأن يتخذ لنفسه امرأة زانية وينجب منها نسلاً ويصير أباً لأولاد مكروهين ودعاهم بـــ «لستم شعبي» (انظر هوشع ١:٢ – ٩). وماذا يعني هذا الأمر؟ ولأي هدف قد حدث؟ سوف لا نتردد في شرح هذا الأمر. بسبب أن أولئك الذين هم من بني إسرائيل الذين كانوا يعتقدون أنهم عظماء قد قاوموا كرازة الأنبياء، وكانت الكلمة الإلهية بالنسبة لهم غير مقبولة، صارت هذه الأمور عبر الزمن مع القديسين. والقديسون وهم يرون بوضوح مغزى هذه الأمور من خلال حدوث هذه الوقائع، ركزوا عقولهم في طلب الأمر المفيد وأقنعوا الآخرين به. لأنهم أدركوا أن بني إسرائيل سوف يصيرون شعباً لا ينتمي إلى الله، وسينحدر منهم هؤلاء الذين هم غير مرحومين، لأنهم سيكونون قُساةً وعُصاةً. وبالفعل أيُّ مرضٍ من هذه الأمراض لم يُصابوا به؟ فيما يخص النبي الذي عاشر زانية، فإنه كان رمزاً لله الذي ارتبط بمجمع اليهود الذي يُشبَّه بامرأةٍ زانيةٍ وممقوتةٍ، وقد قَبِل أن يكون له أولاداً منهم.

إذن، ونحن نتأمل طرق التدبير هذه، سوف ننال منفعةً مما حدث بين ثامار ويهوذا، لأن ثامار رغبت في أن يكون لديها ابنٌ حُرٌّ، بينما هي لم تكن تعاشر زوجاً شرعياً، ويهوذا أيضاً كان بلا امرأة لأن امرأته الأولى قد ماتت. إذن، علينا أن ننظر للعلاقة الجسدية والولادة الجسدية على أنها أمثلة للعلاقة الروحية والولادة

الذهنية[٣١٢]. وبهذه الطريقة سوف ينقاد الذهن البشري إلى الحق، وليس بأي طريقة أخرى.

إذن، لقد نزل يهوذا ورحل إلى شخص يُدعى حِيرة، كان راعياً للماعز ومتخصصاً في الأعمال الرعائية. وحين رأى يهوذا سافا هناك اتخذها امرأته وأنجب منها ثلاثة أولاد: عِيرا وأونان وشيلة. «عيرا» يعني «جلدي δερμάτινος»، أي «جسدي σάρκινος»، و «أونان» يعني «مجروحٌ في القلب πεπληγώς δέ καρδίνος» والثالث يعني «الراحة والهدوء ἐκσπασμός». وهذا كله يشير إلى كلمة الله وحيد الجنس الذي نزل من السماء كما مِن أرضٍ مقدسةٍ، هذا الذي يُقدَّم له التسبيح ومنه يشع مجد المملكة. وهذا يعني اسم يهوذا حيث أنه يعني «الممدوح» وسبطه وُضِع في المكانة الملوكية وتفوَّق على غيره من الأسباط. لأجل هذا أيضاً باركه يعقوب العظيم، قائلاً: «يهوذا إياك يحمدُ إخوتك» (تك ٤٩:٨). وقد شهد أيضاً بولس الحكيم بأن مِن سبط يهوذا أتى المسيح، هذا الذي تقدَّم له كل الخليقة المدح والتمجيد والتسبيح.

لقد نزل كلمة (الله) وحيد الجنس وانتقل إلى صحراء مديان حيث رعى موسى الغنم وظهر له في شكل نار في العليقة (انظر خر ٣:٢ـــ٤)، واتحد بواسطتها ـــ كما بامرأةٍ من كنعان ـــ بجميع بني إسرائيل في مصر، بالضبط مثل

---

[٣١٢] إن مشكلة الهراطقة، كما يقول القديس كيرلس، إنهم لا يخضعون لتدبير الله وطُرقه الكثيرة الخاصة بإعلانات الكلمة، ويوضح هذا الأمر في سياق شرحه لنص لو ١٠: ٢٢، إذ يقول: "فإن الهرطوقي، لا يخضع لشروط التدبير، ولكنه يعمد إلى قِلّة حيائه المعتاد، ويجعل ما يُقال طعاماً لخبث عقله". تفسير إنجيل لوقا، عظة ٦٦ ص ٣١٨.

يهوذا حين اتحد بواسطة راعي غنم بسافا[٣١٣] ابنة رجل كنعاني اسمه شوع، واسمها يعني «المرتفعة والمتكبرة ὕψωσίς τε καὶ ἔπαρσις» (راجع تك ٣٨: ١ـــ٢س)، لأن مجمع اليهود المدعو للسكنى مع الله لم يظل وضيعاً ومتذللاً بحقارة العبودية، بل صار مرتفعاً وعالياً وفخوراً. إذ أُفتدي كانتشال الحديد مِن الأتون، مِن العبودية كما هو مكتوب (انظر خر ١٣: ٣). ثم أتى من مجمع اليهود في مصر ـــ الذي كان من أُمة أخرى ـــ من هذا المجمع أتى ثلاثة شعوب لتكميل أبناء الله، الذين أتوا من أُم واحدةٍ، لكن اختلفوا فيما بينهم من جهة زمن ولادهم. وبأي طريقة حدث هذا الأمر؟ سوف نقوله بإيجاز. أولاً اتحد يهوذا عن طريق ابنه عِير البكر بثامار، لكن، لأنه كان شريراً، أهلكه الله. ثم تزوَّج أونان ثامار، أونان الذي كان من جهة الترتيب الزمني، الثاني. لكنه لأنه لم يرد أن يحصل على ابنٍ لأخيه، هلك مثل الأول لأن الله غضب عليه. أما الابن الثالث، أقصد شيلة لم يتركه أبيه ليتزوجها مِن خوفه عليه لئلا يموت أيضاً. ماذا يعني هذا الحدث التاريخي؟ سأحاول أن أقول هذا الأمر بالاستنارة التي يعطيني إياها الله.

حسناً، المجمع الأول في مصر، والذي وصفناه بأنه من سبط آخر، لأنه حينذاك قد توحَّش بطُرق وأعراف يونانية، أعاد الله إصلاحه عن طريق الناموس، وجعله مجمعاً جديداً ومختلفاً عن السابق. وهذا ما يعنيه اسم ثامار. ولاحظ أن السر يُوجد في تفسير الأسماء. لأن ثامار تعني «خسوف وانتقال ἔκλειψις, ἡ

---

[٣١٣] هذا الاسم الذي ذكره القديس كيرلس وارد في الترجمة السبعينية اليونانية (تك ٣٨: ٢).

σαλευομένη». وحقاً قد انتقل مجمع اليهود. كيف حدث ذلك؟ لم تظل عبادة هذا المجمع غير متغيرة، بل انتقل وضعها إلى العبادة الروحية. هكذا جاءت العبادة التي بالمسيح مُبطلة العبادة الأولى، والتي لم تكن بلا لوم، وتزوَّج المسيح الكنيسة كما من عذراء طاهرة، تاركاً تلك القديمة والأولى. إذن، أُعتبر مجمع اليهود عن حقٍ منتقلاً ومتحولاً. أما كون أن ليس أحد يتبرر بالناموس، ولا يمكن التمتع برضا الله في مجمع اليهود؛ لأنه كما هو مكتوب: «الناموس ينشئ غضباً» (رو ٤:١٥)، نجد كل هذا معلناً في قصة أولاد يهوذا الذين ارتبطوا بثامار. لأن البِكر، عِير يعني: «الجلدي» أي «الأرضي γήϊνος»، لكن بسبب أنه كان شريراً، فقد أماته الرب. والشعب الأول في الواقع كان شريراً، فقد تكلم ضد الله: «هل يقدر الله أن يُرتب مائدةً في البرية» (مز ٧٨:١٩). بالرغم من أنه ضرب لهم الصخر وتدفقت المياه وفاضت الأودية، ولكنهم قالوا: «هل يقدر الله أن يُرتب مائدة في البرية» (مز٧٨:١٩). وأيضاً المرسلون الذين ذهبوا ليروا أرض الموعد، بكوا مثل الأطفال، كما لو أنهم سوف يموتون للتو سريعاً، وهم بعصيانهم أهانوا الله الذي يستطيع أن يفعل كل شيء. لأجل هذا أيضاً ماتوا و لم يدخل أحدٌ إلى أرض الموعد «فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر» (عدد ١٤: ٣٢).

إذن، البِكر عِير، أي الشرير والجسدي، مات أولاً، لأن ليس فيه أي ثمر للتقوى. والعصيان أيضاً يُعلن لنا بمثالٍ. لأن الأمور المحسوسة هي صُورٌ للأمور العقلية. ثم الثاني بعد ذاك، كأنه ابن الله الذي خلَّصه وأخرجه من بيت العبودية، هذا الشعب، الذي عبر الأردن بقيادة يشوع وورث أرض الموعد، والذي دبر الله أموره بواسطة القضاة، لكن هذا الشعب سقط بسبب أنه أغضب الله وتمرَّد عليه.

لأن اسم أونان يعني «المجروح في قلبه». إذ أنهم انجذبوا بجهلٍ تجاه تعدد الآلهة تاركين الإله الحقيقي الواحد بالطبيعة. لأجل هذا أيضاً هلك وأُستعبِد لأمم أخرى. لأن هذه الأمور علّمها لنا سفر القضاة. مات أيضاً «أونان» بدون أن يحصل على أولاد، مثل عِير، مُلقياً بذرته على الأرض. هكذا كان طبيعياً أن لا يتمتع بأي ثمر حتى إن كان هذا الثمر هو إنشاء نسل لأخوته. إذ أنه تصرَّف بتمردٍ وكراهية تجاه الشعب الثاني من جهة الترتيب الزمني، في أن يُقيم برحمة الناموس ابناً (من ثامار) لله، بدلاً من أولئك الذين عصوا، وبذلك رفض أن يُظهِر بالفعل أن الشعب الجديد قد نشأ. وهذا هو ما يعنيه بأن ينشئ أونان نسلاً لأخيه.

إذن، عندما مات الاثنان بصواب (لأن الأول كان شريراً، والآخر مجروحاً في القلب)، فإن الأب منع الثالث من عمل علاقة مع ثامار، لأنه خاف أن يموت هذا أيضاً كالاثنين الذين ماتا. لأن الشعب الثالث، الأعظم، الذي كان في الأزمنة الأخيرة للأنبياء القديسين (مع هؤلاء والتالي المباشر هو المعمدان العظيم، الذي أظهر أن المرسل من السماء هو حاضر، أقصد المسيح)، لم يتركه الله يسقط في أحضان مجمع اليهود، ولا أراد أن يكون له نسل من هؤلاء، خائفاً أن يهلك هو أيضاً. لأنه مكتوب «الناموس ينشئ غضباً» (رو ٤:١٥)، ولن يتبرر أحد بتاتاً بالناموس.

لكن، لاحظ كيف أن شيلة يُظهِر أنه مِثالٌ للشعب الأخير والمؤمن. لأن اسم «شيلة» يعني «الراحة والهدوء». إذن، جاء الغضب على نسل إسرائيل بسبب أعمالهم الشريرة ضد المسيح بتصرفاتهم المخمورة. لقد أفلت أولئك الذين آمنوا من فم الوحش ونجوا من القيود التي كبلتهم.

أقصد خَلُصت البقية بحسب الكتب (انظر قض ١٣:٥. أش ٢٢:١٠. رو ٩: ٢٧). قال الله بفم النبي: «كما ينزع الراعي من فم الأسد كراعين أو قطعة أُذن هكذا يُنتزع بنو إسرائيل» (عا ١٢:٣). إذن، لأجل هذا أيضاً سُمي شيلة «المرتاح والمنتزع ἐκσπασμός, ἢ ἀπόλυσις». بمعنى هذا الذي ارتاح من صُنع علاقة مع ثامار، أي من صُنع ثمار وفق الناموس، هؤلاء الذين آمنوا، ومنتزَعين من وسط أولئك الذين هلكوا، يمكنك أن تعرف عنهم من بولس الطوباوي بسهولة، إذ يقول عن مفاخر الناموس: «ما كان لي ربحاً فهذا حسبته من أجل المسيح خسارة» (فيلبي ٧:٣). لأنه لم يرغب في الحصول على نفس البر، أي ذلك الذي بالناموس بل أراد التبرير بالإيمان بيسوع المسيح. بالتالي شيلة الأكثر حيويةً وشباباً لم يرتبط بثامار. لأجل هذا ظلّت ثامار أرملةً، وعاشت في ترملها سنين عديدة. أي، لأن الله لم يُرد أن يُثمِر مجمع اليهود، صار كمثل أرملة بدون أولاد وبدون رجل، أي بدون عريس عقلي. لأنه قال (بالنبي): «لأنها ليست امرأتي وأنا لست رجلها» (هوشع ٢:٢).

حسناً، ألم يصر بعد هذا أيُّ حديثٍ عنها، ولم يهتم بها الله؟ أرجو أن لا تُفكر هكذا. لأنه، بالرغم من أنها أُدينت لأجل كل أعمالها الفاسقة والسيئة، إلّا أن الله مِن صلاحه سوف يرحمها في الأيام الأخيرة، وسوف تُثمِر أيضاً صفات المسيح. أما بخصوص أنها ستكون في المرتبة الثانية بعد الأمم، فهذا سوف تعرفه مما هو مكتوب. لأن يهوذا ذهب لكي يجز غنمه وهو في طريقة وجد ثامار وعاشرها وأعطاها عصاه وخاتمه وعِصابته ووعدها بأن يرسل لها جدي معزى من الغنم. حسناً، وأيضاً المسيح، كراعٍ للخراف العقلية، اعتنى بالرعية قابلاً ثمارها، أي هؤلاء الذين قد آمنوا وتقدسوا بالروح، أما مجمع اليهود، فقد جعله ـــ مؤقتاً ـــ

خارج عنايته الخاصة، وسوف يظهره ثانيةً قادراً أن يحمل ثمار حكمته. سيعطيه ذاته، مثلما أعطانا نحن، عصا القوة، وصورةً ومثالاً لله الآب (لأن الخاتم يرمز لهذا) وجمالاً أكثر مما لأبناء الناس (انظر مز ٤٥ :٣). لأن هذا ما تشير إليه عِصابته (الزينة التي تُوضع على الرقبة). لأن كل شيء بمثابة زينة يمكن أن يُعتبر علامة للجمال. وأرسل لها أيضاً جدي معزى، أي سيعطيهم غفراناً لخطاياهم. لأن جدي معزى، وفق الناموس، يُذبح لأجل الخطية ويرمز لغفران الخطايا. وخَلُصت ثامار، بالرغم من أنها أُدينت بالموت وتثقلت بأبشع الجزاءات. لقد أُدينت ثامار لأنها زنت. لكن خَلُصت لأنها قدَّمت العصا والخاتم والعِصابة، واعترفت بوضوح أنها حملت من يهوذا، ولديها ثمرة. والمسيح سوف يحرر مجمع اليهود نفسه الذي ينبغي عليه أن يُعاقَب لأنه حمل رموز الشركة معه[٣١٤]، وأظهر بوضوح أنه حمل ما يخصه. هذه الأقوال قالها أيضاً هؤلاء الذين انتظروا، وكان لهم الرجاء بالإيمان بالمسيح: «كما أن الحُبلى التي تقارب الولادة تتلوى وتصرخ في مخاضها هكذا كنا قدامك يا رب. حبلنا تلوينا كأننا ولدنا ريحاً خلاصاً في الأرض و لم يسقط سكان المسكونة» (أش ٢٦ :١٧ ــــ ١٨س).

وثامار التي حملت بجنينين وصلت إلى لحظة الولادة. وفي وقت ولادها أخرج البكر يده، وردَّها ثانيةً بالرغم من أن يده رُبطت بالخيط القرمزي، وخرَّج الثاني أولاً، كمثل اقتحام شخصٍ لسدٍّ أو حاجزٍ، وبعد ذلك خرج الأول الذي صار الأخير. هذا الأمر بالنسبة لنا هو علامةٌ واضحة على أن الأمم تقدَّموا على بني إسرائيل، ونالوا مجد البكر، أولئك الذين كُرِّموا في أزمنة متتالية. لكن هذا الأخير

---

314 τῆς πρὸς αὐτὸν κοινωνίας τὰ σύμβολα φέρουσαν.

سيتبعه، بدون شك، طالما أظهر ذبيحة المسيح، لأن الخيط القرمزي يُعتبر مثالاً للدم المقدس. إذن مَنْ هو هذا الذي أبطَل الحاجز المتوسط (انظر أفسس ٢:١٤)، وأحضر الثاني مكان الأول، ووضع الأول خلف ذاته؟ أليس من الواضح أنه هو المسيح الذي بواسطته، وله نعطي المجد لله الآب والروح القدس إلى أبد الآبدين. آمين.

عن يوسف وولديه افرايم ومنسى

«كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عند أبي الأنوار» (يع ١:١٧). ولا يوجد شيئاً من الأشياء المقدسة ومن الأشياء الصالحة والسامية نحصل عليه إلّا بواسطة المسيح. لأنه يقول: «هو سلامنا الذي جعل الإثنين واحداً ... لأن به لنا كلينا قدوماً في روح واحد إلى الآب» (أف ٢:١٤ ــ ١٨). لأجل هذا قال: «ليس أحد يأتي إلى الآب إلّا بي» (يو ١٤:٦). قد أُعطى لنا من خلاله وبواسطته كل ملء النعمة والنصيب المجيد، لأنه إذ هو الله الغني، صار فقيراً لأجلنا لكي نستغنى نحن بفقره، ونستطيع أن نقترب ثانيةً من مجد الآباء القديسين، ونشترك معهم في نفس الرجاء اللائق بهم. وانتبه أيضاً أن الحديث عن كل هذه الأمور هو حقيقي، وثبّت عين ذهنك على الكتاب المقدس لأنه مكتوب الآتي: «وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّهُ قِيلَ لِيُوسُفَ: هُوَذَا أَبُوكَ مَرِيضٌ. فَأَخَذَ مَعَهُ ابْنَيْهِ مَنَسَّى وَأَفْرَايِمَ. فَأُخْبِرَ يَعْقُوبُ وَقِيلَ لَهُ: هُوَذَا ابْنُكَ يُوسُفُ قَادِمٌ إِلَيْكَ. فَتَشَدَّدَ إِسْرَائِيلُ وَجَلَسَ عَلَى السَّرِيرِ. وَقَالَ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ: اللهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ظَهَرَ لِي فِي لُوزَ، فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَبَارَكَنِي. وَقَالَ لِي: هَا أَنَا أَجْعَلُكَ مُثْمِراً وَأُكَثِّرُكَ، وَأَجْعَلُكَ جُمْهُوراً مِنَ الأُمَمِ، وَأُعْطِي نَسْلَكَ

هذِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِكَ مُلْكاً أَبَدِيّاً. وَالآنَ ابْنَاكَ الْمَوْلُودَانِ لَكَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، قَبْلَمَا أَتَيْتُ إِلَيْكَ إلى مِصْرَ هُمَا لِي. أَفْرَايِمُ وَمَنَسَّى كَرَأُوبَيْنَ وَشِمْعُونَ يَكُونَانِ لِي. وَأَمَّا أَوْلاَدُكَ الَّذِينَ تَلِدُ بَعْدَهُمَا فَيَكُونُونَ لَكَ. عَلَى اسْمِ أَخَوَيْهِمْ يُسَمَّوْنَ فِي نَصِيبِهِمْ وَأَنَا حِينَ جِئْتُ مِنْ فَدَّانَ مَاتَتْ عِنْدِي رَاحِيلُ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ فِي الطَّرِيقِ، إِذْ بَقِيَتْ مَسَافَةٌ مِنَ الأَرْضِ حَتَّى آتِيَ إلى أَفْرَاتَةَ، فَدَفَنْتُهَا هُنَاكَ فِي طَرِيقِ أَفْرَاتَةَ، الَّتِي هِيَ بَيْتُ لَحْمٍ « (تك ٤٨: ١ — ٧).

حسناً، أصبح يعقوب الطوباوي كهلاً مريضاً، كما هو مكتوب، وأراد أن يبارك ابني يوسف اللذين كانا من أمٍّ تنتمي لجنس آخر، أقصد من أسنات بنت فوطي فارع الكاهن المصري (انظر تك ٤١: ٤٥)، وحتى لا يعتبرهما أحد من بني إسرائيل أنهما غريبين قام يعقوب العظيم بطريقة حكيمة ورعائية بتعليم يوسف نفسه وأخوته بأنهما كانا يخضعان للنواميس الإلهية. وذلك باعتباره أن كل الذين وُلِدوا من يوسف هم له. لأنه يقول: «الله القادر على كل شيء ظهر لي» ووعدني بكل وضوح أنني سوف أصير أباً لشعوب كثيرة من الأمم. وفي نفس الوقت أقنع أولاده بأن يكرموا الله بالإيمان الحقيقي وجعلهم يعتبرون كل من وُلد منهم، أهلٌ لهم خاصةً أولئك الذين وُلِدوا من أم من جنس آخر.

والآن لنخرج قليلاً من الوقائع التاريخية، لنتحدث عن الآتي: بنفس الطريقة، نحن الذين تبررنا بإيماننا، صرنا بواسطة المسيح أبناء الله ورعيةً مع القديسين. بهذه الوساطة ومن خلال ذاته ربطنا بذاته وبالآب، وبمصاف القديسين، مثل يوسف، الموجود في المنتصف جعل أولاده افرايم ومنسى لأبيه، وتم تسجيلهما في قائمة رؤساء الآباء. لأنه يقول: «وَالآنَ ابْنَاكَ الْمَوْلُودَانِ لَكَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، قَبْلَمَا أَتَيْتُ إِلَيْكَ إلى مِصْرَ هُمَا لِي. أَفْرَايِمُ وَمَنَسَّى كَرَأُوبَيْنَ وَشِمْعُونَ يَكُونَانِ لِي»

(تك ٤٨: ٥)، أي سيكونان من بين الأبكار لأن ثمرة الطاعة أن كثيرين «أولون يكونون آخرين وآخرون أولين» (مت ١٩: ٣٠). لأن رأوبين كان بكراً وشمعون أيضاً يعني الطاعة. أي بإيماننا صرنا نحن الأخيرون أولين، ومجد البكر كان من نصيب الشعب الآتي من الأمم، وقد كُرِّم هذا الشعب بسبب طاعته وخضوعه. لأن الرب ذاته أكد قائلاً: «شَعْبٌ لَمْ أَعْرِفْهُ يَتَعَبَّدُ لِي. مِنْ سَمَاعِ الأُذُنِ يَسْمَعُونَ لِي. بَنُو الْغُرَبَاءِ يَتَذَلَّلُونَ لِي» (مز ١٨: ٤٣ ــ ٤٤). لأنه بالرغم من أننا وُلدنا من أمٍّ من جنسٍ آخر، فالكنيسة دُعيت من الأمم، لكن سُرَّ عمانوئيل أن يربطنا من خلال ذاته بالله الآب، ويسجِّلنا في مصاف القديسين، ويرفعنا إلى المجد اللائق بأولئك ويجعلنا جنساً مقدساً (انظر ١بط ٢: ٩).

لاحظ أيضاً أنه بسبب محبته ليوسف الطوباوي، يعتبر يعقوب أولاد يوسف كأنهم أولاده بمعنى أننا نحن صرنا محبوبين بإيماننا بالمسيح، ولأننا وُلدنا بالروح ولادة روحية، وصرنا مقبولين لدى الآب، كما قلت منذ قليل، وانضممنا إلى صفوف القديسين الذين كانوا قبلنا. لكن، بالرغم من أننا دُعينا أبناء الله الآب، إلّا أننا سنكون أيضاً خاضعين للذي قادنا إليه، أقصد المسيح. لاحظ أن يعقوب الطوباوي، بعد تسجيل افرايم ومنسى من ضمن أولاده يقول: «وأما أولادك الذين تلد بعدهما فيكونون لك» (تك ٤٨: ٦). إذن، لأننا صرنا أبناء الله، فنحن أيضاً نكون للمسيح. وهذا ما كان يعنيه حين قال للآب: «لَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ الْعَالَمِ، بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لأَنَّهُمْ لَكَ. وَكُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ، وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي، وَأَنَا مُمَجَّدٌ فِيهِمْ» (يو ١٧: ٩ ــ ١٠).

قال يعقوب إن راحيل دُفنت في بيت لحم. نتذكر بالطبع أنه مرات كثيرة ندعو راحيل أيقونة ومثال للكنيسة التي من الأمم. ولن يكذب أحدٌ إذا قال إن

الكنيسة انتقلت إلى حياة أخرى أفضل وأكثر عطاءً، وبالنسبة للعالم قد ماتت، لأنها لا تطيق أن تؤمن بأمور خاصة بالعالم بل تحيا روحياً لله بالإيمان بالمسيح وبطريقة حياة تتفق مع الإنجيل لأنه، بالرغم من أنها موجودة في العالم بسبب الحياة في الجسد لكنها تختفي ولا تأخذ المجد العالمي إذ قد دُفنت مع المسيح. وهذا ما أشار إليه بولس حين قال: «لأنكم قد متم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله» (كو ٣:٣).

حسناً، طالما أن راحيل قد دُفنت في بيت لحم، ولم يعد أحد يراها، اختفى معها أيضاً عمانوئيل؛ لأنه لم يكن قد وُلِد بعد من عذراء. وسوف نثني على موت الكنيسة لأنه قدَّم لنا ثانيةً الحياة المقدسة في المسيح. لكني أعتقد أنه من الضروري أن نضيف الآتي: حينما بارك يعقوب أولاده، أعطى وصيةً خاصةً بتكريم الأم؛ لأنه بالحديث عن المكان الذي دُفنت فيه راحيل (انظر تك٤٨:٧)، لا يريد أن يقنعهم بشيء آخر إلّا بأنه يجب أن نُظهر للأم العناية اللائقة بها. وهكذا أيضاً فإن الآب أعطى وصيةً لابنه لأجل الكنيسة لكي يعتني بها؛ لأنها كانت مهزومة بالموت بسبب اللعنة القديمة. لأجل هذا أيضاً نادى داود الآب السماوي: «قَدْ أَمَرَ إِلهُكَ بِعِزِّكَ. أَيِّدْ يَا اَللهُ هذَا الَّذِي فَعَلْتَهُ لَنَا» (مز ٦٨:٢٨). كأنه يُظهِر بأنه حرّر الجسد الذي ساد عليه الموت من الفساد بقوة الله الآب، أي بالابن وأعاده ثانيةً إلى الحياة الأولى، أي إلى حياة المسيح الطوباوية وغير المائتة.

وكون أن إسرائيل بعدما كان البكر والمكرّم، ابتعد عن المجد الذي كان له، ونُقلت نعمة المجد البهي إلى الشعب الجديد الذي من الأمم، فهذا سوف نعرفه جيداً من كل ما سوف نذكره. لأنه يقول: «وَرَأَى إِسْرَائِيلُ ابْنَيْ يُوسُفَ فَقَالَ: مَنْ هذَانِ؟ فَقَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ: هُمَا ابْنَايَ اللَّذَانِ أَعْطَانِيَ اللهُ ههُنَا. فَقَالَ:

قَدِّمْهُمَا إِلَيَّ لأُبَارِكَهُمَا. وَأَمَّا عَيْنَا إِسْرَائِيلَ فَكَانَتَا قَدْ ثَقُلَتَا مِنَ الشَّيْخُوخَةِ، لاَ يَقْدِرُ أَنْ يُبْصِرَ، فَقَرَّبَهُمَا إِلَيْهِ فَقَبَّلَهُمَا وَاحْتَضَنَهُمَا. وَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنِّي أَرَى وَجْهَكَ، وَهُوَذَا اللهُ قَدْ أَرَانِي نَسْلَكَ أَيْضاً. ثُمَّ أَخْرَجَهُمَا يُوسُفُ مِنْ بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ وَسَجَدَ أَمَامَ وَجْهِهِ إلى الأَرْضِ. وَأَخَذَ يُوسُفُ الاثْنَيْنِ أَفْرَايِمَ بِيَمِينِهِ عَنْ يَسَارِ إِسْرَائِيلَ، وَمَنَسَّى بِيَسَارِهِ عَنْ يَمِينِ إِسْرَائِيلَ وَقَرَّبَهُمَا إِلَيْهِ. فَمَدَّ إِسْرَائِيلُ يَمِينَهُ وَوَضَعَهَا عَلَى رَأْسِ أَفْرَايِمَ وَهُوَ الصَّغِيرُ، وَيَسَارَهُ عَلَى رَأْسِ مَنَسَّى. وَضَعَ يَدَيْهِ بِفِطْنَةٍ فَإِنَّ مَنَسَّى كَانَ الْبِكْرَ. وَبَارَكَ يُوسُفَ وَقَالَ: اللهُ الَّذِي سَارَ أَمَامَهُ أَبَوَايَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْحَاقُ، اللهُ الَّذِي رَعَانِي مُنْذُ وُجُودِي إلى هذَا الْيَوْمِ، الْمَلاَكُ الَّذِي خَلَّصَنِي مِنْ كُلِّ شَرّ، يُبَارِكُ الْغُلاَمَيْنِ. وَلْيُدْعَ عَلَيْهِمَا اسْمِي وَاسْمُ أَبَوَيَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ، وَلْيَكْثُرَا كَثِيراً فِي الأَرْضِ» (تك ٤٨:٨ ــ ١٦).

لقد وقف الابنان بجوار يعقوب الشيخ، فسأل مَن يكونان. ويوسف أجابه: «هما ابناي اللذان أعطاني الله ههنا». وحين قربهما يوسف إليه قبّلهما واحتضنهما.

إذن، عليك أن تدرك بأننا حقاً كُنا أناسٌ مجهولين عند الله الآب وصِرنا معروفين واقتربنا منه بالمسيح. لقد قبلنا الآب بفرح عظيم وأظهر لنا محبته لابنه، وبسبب هذه المحبة جعلنا مستحقين لمحبته ودعانا للاتحاد به ذهنياً وبالطبع روحياً. وتُعتبر قُبلة المحبة والأحضان هي مثال لاتحادنا به. لأجل هذا كتب بولس الحكيم لهؤلاء الذين آمنوا بالمسيح، قائلاً: «ولكن الآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح» (أف ٢:١٣)، بمعنى أن المسيح قد جعلنا قريبين من الآب، ولقد قال أيضاً بولس الرسول: «أما الآن إذ عَرفتم الله بل بالحري عُرفتم من الله» (غلا ٤:٩). أي أن الله الآب جعلهم مستحقين أن يروه ويعرف فقط هؤلاء الذين لديهم شركة روحية مع الابن وحصلوا ــ بغنى

حقيقي ــ على الولادة الثانية في اسمه وبواسطته. هكذا مثل أولئك الذين مُسحوا بدم الحمل جعلهم معروفين له، قائلاً: «ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها. فأرى الدم وأعبر عنكم. فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر» (خر ١٢:١٣). حسناً، لقد امتلأ يعقوب بالفرح حين قال لابنه يوسف: «لم أكن أظن أني أرى وجهك وهوذا الله قد أراني نسلك أيضاً» (تك ٤٨:١٢).

لقد ظن اليهود أن الابن سوف يُمسكُ من أبواب الجحيم وسيظل مائتاً مع الآخرين، إذ سلّموه للموت وسيُحرم الآب من ابنه. لكن رئيس الحياة لم يكن من الممكن أن يمسكه الموت[٣١٥]. حسناً لقد قام وظهر أمام الآب، وكذلك ظهر أيضاً للجنس الذي أتى منه ومعه، أي أولئك الذين آمنوا: «وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي أمة مقدسة شعب اقتناء لكي تخبروا بفضائل الذي

---

[٣١٥] يقول القديس أثناسيوس: ''فالجسد (جسد الكلمة) لكونه من طبيعة البشر ذاتها لأنه كان جسدًا بشريًا ــ حتى وإن كان قد أُخِذَ من عذراء فقط بمعجزة فريدة ــ لكن لأنه كان قابلاً للموت لذلك كان لابد أن يموت كسائر البشر نظرائه، غير أنه بفضل اتحاده بالكلمة، فإنه لم يعد خاضعًا للفساد الذي بحسب طبيعة بل بسبب كلمة الله الذي حلّ فيه فإن الفساد لم يلحق به''. تجسد الكلمة، فصل ٤:٢٠. وفي سياق شرحه لإنجيل يوحنا يعلّق القديس كيرلس علي معجزة شفاء المولود اعمي والطريقة التي أجري بها المسيح تفتيح عيني الأعمى عندما تفل علي الأرض وصنع التفل طينًا وطلي بالطين عيني الأعمى، ويري فيها أيضًا ما يعرف بعملية تبادل الخصائص وهنا يُعبّر ق. كيرلس عن هذه الحقيقة بقوله: ''يمكن للمرء أن يري وبكل سهولة كيف أن الابن قد أقام جسده'' ثم يسترسل بأكثر تفصيل فيقول: ''لأننا نؤمن أن جسد المسيح هو واهب للحياة، حيث إنه هو هيكل ومسكن كلمة الإله الحي، وفيه توجد كل قوة الكلمة، ولذلك نحن نعلن أن جسده هو أيضًا ''مصدر للنور'' لأنه هو جسد ذلك الذي هو بالطبيعة النور الحقيقي. وكما أنه حينما أقام وحيد الأرملة من الموت، فإنه لم يكتِف بمجرد أن يأمره قائلاً ''إيها الشاب لك أقول قم''، رغم إنه معتاد إن يتمم كل الأشياء التي يريدها بواسطة كلمة، لكنه أيضًا في هذه الحالة (المولود أعمي) فإنه يطلي بتفله، معلّمًا أن جسده أيضًا هو ''مصدر للنور'' حتي ولو كان بمثل هذه اللمسة البسيطة. لأنه هو مصدر النور''. شرح إنجيل يوحنا، القاهرة ٢٠٠٩، المجلد الأول، ص٦٧٠.

دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب» (١ بط ٢:٩). ويفرح المسيح بهؤلاء قائلاً: «هاأنذا والأولاد الذين أعطانيهم الرب» (أش ٨: ١٨. انظر يو ١٧:٩).

لقد قادهما يوسف إلى أبيه، وهما بدورهما قد سجدا له. وبينما كان منسى البكر واقفاً عن يمينه، والأصغر افرايم عن يساره، وضع يعقوب يديه عليهما بالعكس، أي كرّم افرايم واضعاً يده اليُمنى فوقه وجاعلاً منسى في المرتبة الثانية، وهكذا بدأ يباركهما. بمعنى أننا قد صرنا مقبولين كأبكار وأولين وشعوب آتية بدون أن يقودنا موسى، ولا الأنبياء لأن الناموس كان عاطلاً جداً من جهة الخلاص، لكن الابن ذاته هو الذي قادنا. لأنه، كما قُلت، «الذي به أيضاً صار لنا الدخول بالإيمان» (رو ٥:٢). وهدفه كان بالطبع أن يضع إسرائيل قبل الأمم. لأن يوسف وضع منسى على يمين أبيه. لكن لأن بني إسرائيل ارتكبوا أفعالاً سيئة تتجاوز أي منطق تجاهه، فضّل الله الذين هم في المرتبة الثانية زمنياً، أقصد الأمم. «كثيرون أولون يكونون آخرين وآخرون أولين» (مت ١٩:٣٠). هكذا بارك يعقوب الابنين داعياً باسم الله الذي أطعمه والملاك الذي أنقذه زابطاً الابن بالله الآب، الذي يُدعى بفم الأنبياء: «ملاك المشورة العظمى» (أش ٩:٦ سبعينية).

هكذا، أي نعمة وبركة ومعونة تجاهنا لا يمكن أن تتم إلّا من الآب بواسطة الابن. لأجل هذا يقول بولس العظيم: «نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح» (أف ١:٢). وتضايق يوسف العظيم بالطبع وهو يرى البكر يدخل بعد الأصغر. لكن أبيه شرح أهمية السر قائلاً: «هو أيضاً يكون شعباً وهو أيضاً يصير كبيراً. ولكن أخاه الصغير يكون أكبر منه ونسله يكون جمهوراً من الأمم» (تك ٤٨:١٩). وبعد ذلك يقول: «وباركهما في ذلك اليوم قائلاً بك

يُبارك اسرائيل قائلاً يجعلك الله كافرايم وكمنسى. فقدم افرايم على منسى» (تك ٤٨: ٢٠).

قال الرب: «لم أُرسل إلّا إلى خراف بيت اسرائيل الضالة» (مت ١٥: ٢٤). لكن بسبب أن إسرائيل انحل أخلاقياً وسلك سلوكاً لا يليق، كما هو مكتوب، محتقراً دعوة ذاك الذي دعاه للخلاص، وظل عاصياً، وُضِع على اليسار آخذاً مجداً أقل. ونال جزءً منه، أي الذين خَلُصوا، أي «البقية»، وفق أقوال النبي (انظر أش ١٠: ٢٢) لكن تفوق كثيراً الشعب الآتي من الأمم وامتد لمجموعات من الشعوب وهو أعظم من اسرائيل مُظهراً تفوقه بالجمع الذي لا يُحصى من الذين آمنوا. لأننا كُلِّنا بنعمةٍ واحدة متساوية للتقديس نحن الذين من الأمم ومن بني إسرائيل، نحن الذين قد آمنا وتبررنا بالإيمان بالمسيح الذي له المجد مع الآب والروح القدس إلى دهر الدهور. آمين

المقالة السابعة على سفر التكوين

عن بركة يعقوب لأبنائه الاثنا عشر

هدف حديثنا هو شرح كلّ قولٍ من الأقوال التي قالها يعقوب لأبنائه والتي أعلن فيها عن أحداثٍ سوف تحدث لهم في مستقبل الأيام. لكننا نعترف مسبقاً بأنه صعب جداً للمرء أن يفهم كل ما قيل فهماً عميقاً، إذ أن حديث يعقوب غير واضح لكثيرين، وكذلك أيضاً هو غامض ورمزي[٣١٦] αἰνιγματώδης δὲ καὶ ἀσυμφανὴς.

حسناً، يخبر يعقوب أولاده عما سوف يحدث في الأيام الأخيرة، ذاكراً لهم أيضاً أحداثاً حدثت في الماضي ومحصياً أخطائهم. لقد ابتدأ برأوبين، وبعد ذلك مباشرةً شمعون ولاوي. لكنني أتساءل: مَنْ يتجرَّأ ويقول إن البركة هي مجرد تذكر أخطاء الماضي، وأنها لا تخفي وراء أقوالها أي مفهوم عميق؟ أقول إن الحديث عميقٌ، وليس سطحياً بالنسبة للذين يريدون إدراك مفهوم أقوال البركة.

الحديث المُسجَّل في الكتاب يخبرنا عن النبوة الخاصة بهؤلاء الذين قيلت لهم هذه الأقوال، وكذلك هل هذه النبوة تخص كل سبط على حدة، ومَن سيكون بعد مرور الأوقات، ولِمَن سوف تصير هذه النبوة، وما هي نهاية الأمور المتعلقة بها؟

---

٣١٦ يقصد بأنه غامض، أي يحتاج إلى توضيح. ويقصد بأنه مجازي أو ذو مغزى، أي رمزي يشير إلى مفهوم يختفي وراء الحرف، نحن هنا أمام القديس كيرلس المفسِّر الذي ينتمي لمدرسة الإسكندرية الرمزية.

والجدير بالملاحظة، أنه يخبرنا بواسطة الحديث عن الأمور التي حدثت بالفعل عما سوف يحدث في المستقبل، وأيضاً عن طريق سرد الأسماء يجعل تفسيرها كرسالة مسبقة وإنباء واضحاً لهم عما سوف يحدث.

نقرأ ما يلي: «ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا واسمعوا يا بني يعقوب. واصغوا إلى إسرائيل أبيكم» (تك ٤٩ :١ ــ ٢).

عن رأوبين

«رأوبين أنت بكري قوتي وأول قدرتي فضل الرفعة وفضل العز. فائراً كالماء لا تتفضل. لأنك صعدت على مضجع أبيك. حينئذٍ دنسته على فراشي صعد» (تك ٤٩: ٣ ــ ٤).

ذهب رأوبين وصعد إلى فراش أبيه، واضطجع مع بلهة خادمة أبيه، وسمع كل إسرائيل بهذا الحدث المشين (انظر تك٣٥:٢١ ــ ٢٢)، وأُدين هذا العمل من جانب يعقوب، إذ اعتبره عملاً شريراً. ولا أظن أن أحداً يتوقع أن يحدث هذا العمل في الأيام الأخيرة. لكن ونحن ننظر إلى هذه الخطية كمثال، سوف نرى خطية الشعب البِكر، أقصد الشعب الإسرائيلي[٣١٧]. إن الله قَبل بجودٍ وكرم مجمع اليهود في مصر، إذ أقام معه علاقة وفق الناموس. لقد احتمل هذا الجمع

---

[٣١٧] يقول القديس كيرلس عن رأوبين في موضع آخر: "إذن، برأوبين يشير إلى إسرائيل، الشعب البكر من ناحية الزمن، الذي كان قاسياً ووقحاً وشتّاماً" السجود والعبادة بالروح والحق، ص٤٨٦. وقبل القديس كيرلس، يرى العلامة هيبوليتس (+ ٢٣٥م) أن رأوبين كان يرمز لشعب إسرائيل الذي دعاه الله ابنه البكر، فقال قال موسى لفرعون: "هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر.." (خر ٤:٢٢ــ٢٣). وبذلك فإن النبوة عن رأوبين تشير إلى ما سيحدث لشعب إسرائيل في آخر الأيام. (*A.N.F.vol.v,p.164*) راجع شرح سفر التكوين، سفر البدايات، دار مجلة مرقس، طبعة أولى ٢٠٠٥، ص ٤٩٤.

اليهودي وجعله جديراً بالشركة معه، وكذلك اعتبره أُمّاً لأولاد كثيرين متخذاً لهم موسى كزوج له، والملائكة كوسطاء في علاقته به. لكن هذا المجمع رُفِض من الله وسبّب حزناً للناموس الأصيل؛ لأنه خاض في علاقة عشق وزنى مع آخرين، وأنا أقصد علاقة ذهنية مع تعليم غريب. إذ احتقر علاقته مع الله واعتبرها أنها بلا هدف، ثم مال إلى وصايا وتعاليم الناس رافضاً التعاليم السماوية، وجعل تعاليم الناس ناموساً له. لأجل هذا يقول أشعياء: «كيف صارت القرية الأمينة زانية ملآنة حقاً. كان العدل يبيت فيها. وأما الآن فالقاتلون، صارت فضتك زغلاً وخمرك مغشوشة بماء» (أش ٢:‏٢١ ــ ٢٢).

لقد استراح فيها البر (العدل) أي الله، لكنها قبلت أُناساً قتلة وزُناة وفاسدين، أُناساً أعطوها عُملات مزيَّفة وغشُّوا الخمر بالماء. لأنه حقاً كان قول أولئك دنساً، إذ فضَّلوا تكريم تعاليم ووصايا الناس، التعليم المزيف والمخلوط بكل ما هو سيئ. وهذا ما يعنيه بقوله: «وخمرك مغشوشة بماء».

وكون أن إله الجميع تضايق من هذه الحالة وأدان ــ عن حق ــ أورشليم كزانية، فهذا ما يقوله بفم إرمياء: «ارفعي عينيك إلى الهضاب وانظري أين لم تضاجعي. في الطرقات جلست لهم كأعرابي في البرية ونجست الأرض بزناك وبشرّك. فامتنع الغيث و لم يكن مطر متأخر. وجبهة امرأة زانية كانت لك. أبيت أن تخجلي» (إر ٣:‏٢ ــ ٣)، وأيضاً: «إذا طلّق رجلٌ امرأته، فانطلقت من عنده وصارت لرجل آخر، فهل يرجع إليها بعد. ألا تتنجس تلك الأرض نجاسة. أما أنت فقد زنيت بأصحاب كثيرين. لكن ارجعي إليّ يقول الرب» (إر ٣:‏١). ولقد أظهر لنا المخلص بكل وضوح معنى الزنى في هذه الحالة. لأن الفريسيين، مُحبي الإدانة كانوا ــ بدون تبصرٍ ــ يأتون إليه ويقولون: «لماذا يتعدى تلاميذك

تقليد الشيوخ. فإنهم لا يغسلون أيديهم حينما يأكلون خبزاً» (مت ١٥: ٢). ورد المسيح قائلاً: «وأنتم أيضاً لماذا تتعدون وصية الله بسبب تقليدكم. فإن الله أوصى قائلاً أكرم أباك وأمك. ومن يشتم أباً أو أماً فليمت موتاً. وأما أنتم فتقولون مَن قال لأبيه أو أمه قربان هو الذي تنتفع به مني. فلا يكرم أباه أو أمه. فقد أبطلتم وصية الله بسبب تقليدكم » (مت ١٥:٣ ـــ ٦). هل سمعت كيف أنهم زنوا وتتلمذوا لمعلمين آخرين، لذلك آمنوا وفعلوا أموراً أخرى غير تلك التي حدّدها المشرع؟

هكذا زنى مجمع اليهود، بينما الكنيسة العذراء النقية والتي بلا لوم وبلا دنس وبلا عيب (انظر أف ٢٧:٢) وُعِدتْ بأنها سوف تحفظ ارتباطها بزوجها بلا تغيير وبوقار، قائلة: «حبيبي لي وأنا له» (نش ١٦:٢). بالتالي بلهة خادمة يعقوب التي زنى معها رأوبين سوف نعتبرها صورةً لمجمع اليهود، أي الشعب البكر. وكلمة «بلهة» تعني «العتيقة»، و «رأوبين» معناها «ابن الدنس». وحقاً، شاخ مجمع اليهود وصار قديماً ومملوءاً بالغضن والتجاعيد، وحلّ الشعب الجديد المؤمن مكانه. ولأجل هذا ترنم داود بفرح: «وشعب سوف يُخلق يسبح الرب» (مز ١٧:١٠٢). لأن كل ما للمسيح سيكون خليقةً جديدةً وفق الكتب المقدسة، بينما إسرائيل سيُعتبر دنساً ومملوءاً بالأرجاس؛ لأنه لم يقبل النقاوة التي من المسيح. لذلك يقول الله بفم الأنبياء القديسين: «هل يغيِّر الكوشي جلده أو النمر رقطه. فأنتم أيضاً تقدرون أن تصنعوا خيراً أيها المتعلمون الشر» (إر ٢٣:١٣)، وكذلك أيضاً يقول لأورشليم، كأنه يقول لامرأة: «فإنك وإن اغتسلت بنطرون وأكثرت لنفسك الأشنان فقد نُقش إثمك أمامي يقول السيد الرب» (إر ٢٢:٢).

يقول يعقوب: «رأوبين أنت بكري قوتي وأول قدرتي فضل الرفعة وفضل العز» (تك ٤٩:٣). وحقاً حقق الله عجائب بقوة شديدة للشعب البكر القادم من مصر. لأن المصريين نالوا عقاباً بطرق كثيرة، فتحول الماء إلى دم وامتلأ الجو بالبعوض والذباب وتغطت الأرض بالضفادع وسقط صقيعٌ على كل الأرض وذُبح الأبكار وعبر اليهود الأحرار البحر كأنه يابس (انظر تك ١٤:٨). لأجل هذا دُعي رأوبين «قوة إسرائيل». لكن كان رأوبين قاسياً في سلوكه ووقحاً وغير مؤمن وفظاً ومفترساً. لأن طباع اليهود كانت وحشية وسلوكهم غير منضبط. لأجل هذا استحقوا أن يسمعوا: «يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والآذان أنتم دائماً تقاومون الروح القدس. كما كان آباؤكم كذلك أنتم» (أع ٧:٥١)، والمسيح نفسه أيضاً يقول: «فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء. فاملأوا أنتم مكيال آباؤكم» (مت ٢٣:٣١ — ٣٢).

إذن، كان إسرائيل وقحاً ومتأهباً للغضب ويصعب الاقتراب منه، ومنتفخاً ويفور بطريقةٍ مبالغ فيها مثل الماء. لقد كان حقاً منغلقاً ومتهوراً في هجومه على الآخرين مثل فوران الماء. «فائراً كالماء لا تتفضل» (تك ٤٩:٤). وماذا تعني هذه العبارة؟ الماء الذي يفور ويصعد إلى فوق وينسكب من الوعاء يعطي انطباعاً أنه كثير جداً. فكأنه يقول له لا ترتفع عالياً جداً ولا تظن أنك عظيم. لأن جمع اليهود هو الأدنى في العدد بالمقارنة بجمع اليونانيين. ثم بعد ذلك يخبرنا عن علة هذا الأمر، قائلاً: «لأنك صعدت على مضجع أبيك حينئذٍ دنسته. على فراشي صعد» (تك ٤٩:٤). أي كما قلت بالفعل من قبل، لم يبحثوا كل ما ذُكر في الناموس وفي وصايا الذين أنارهم الله، لأجل هذا سقطوا خارج إطار معرفة

المسيح[٣١٨]. لأجل هذا أيضاً يقول المسيح: «فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم لكم فيها حياة أبدية. وهى التي تشهد لي» (يو ٥:٣٩). كذلك: «لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني» (يو ٥:٤٦). وأدان المسيح بشدة معلّمي اليهود، قائلاً: «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيين المراؤون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل. ولعلة تطيلون صلواتكم. لذلك تأخذون دينونة أعظم» (مت ٢٣:١٤).

لقد ارتكب بنو إسرائيل الزنى واستحقوا أن يصيروا أبناء جهنم، إذ صعدوا على سرير أبيهم محتقرين وصايا الناموس معتبرين إياها بلا فائدة، وأدخلوا تعاليمهم الخاصة واضعين بذور النجاسة داخل نفوس الذين يتعلمون[٣١٩].

---

[٣١٨] يعلق العلامة هيبوليتس على عبارة ''لأنك صعدت على مضجع أبيك '' قائلاً: ''إنه يذكر الحادثة الأولى، مشيراً إلى أنه في نهاية الأيام سوف يغتصب الشعب مضجع الآب، محاولاً إفساد العروس كنيسة الله، الأمر الذي تم بالفعل في هذه الأيام بمحاولتهم إفسادها بالهرطقات''(*A.N.F.vol.v,p.164*) . المرجع السابق، ص ٤٩٤.

[٣١٩] يفسر الحكيم الفارسي المسيحي ''أفراهات'' (٢٨٠ــ٣٤٥) كيف بقيت لرأوبين بقية من الرجاء: ''منذ أن رقد يعقوب وحتى زمان موسى انقضت مائتان وثلاث وثلاثون سنة. حينذاك أراد موسى بسلطانه الكهنوتي أن يحل رأوبين من تعديه وخطيته في كونه اضطجع مع بلهة سرية أبيه، لكي عندما يقوم إخوته لا يُقطع هو من جملتهم. لذلك قال في بداية بركته لهم ''ليحي رأوبين ولا يمُت ولا يكن رجاله قليلين'' (تث ٣٣:٦)''

2nd series, vol.xiii,p.377A.N.F المرجع السابق، ص ٤٩٥.

عن شمعون ولاوي

«شمعون ولاوي أخوان[٣٢٠]. آلاتُ ظُلمٍ سيوفهما. في مجلسهما لا تدخلِ نفسي. بمجمعهما لا تتحد كرامتي. لأنهما في غضبهما قتلا إنساناً وفي رضاهما عرقبا ثوراً. ملعون غضبهما فإنه شديد وسخطهما فإنه قاسٍ. أقسِّمهما في يعقوب وأفرقهما في إسرائيل» (تك ٤٩: ٥ ــــ ٧).

لقد غضب إله الجميع مِن إسرائيل لأنه زنى وأخضع عقله لضلالات أولئك الذين اعتادوا أن يعلّموا بتعاليم غريبة، وقال بفم أشعياء بكل وضوح: «لأن هذا الشعب قد اقترب إلى بفمه وأكرمني بشفتيه وأما قلبه فأبعده عني وصارت مخافتهم مني وصية الناس معلمةً» (أش ٢٩: ١٣). لكن لأن الله الآب، يعرف حالة أورشليم الدنسة وقد كانت مخمورة بتصرفاتها الطائشة الفاسدة، فإنه أراد أن يغيِّرها للأفضل. لذلك أرسل ابنه من السماء، ابنه الذي صار إنساناً مثلنا لعلهم يستحون من الابن الآتي إليهم، لأن جمع الأنبياء القديسين كان قد وصل إلى الدرجة التي فيها لم يستطع أن يفعل شيئاً مع هؤلاء اليهود (لأنهم قالوا: «مَنْ صدَّق خبرنا» أش ٥٣: ١). لقد انحدر هؤلاء اليهود إلى مثل هذا المستوى من عدم التقوى حتى أنهم ظنوا أنهم يستطيعون أن يأخذوا أيضاً نصيب سيِّدهم وقاموا بقتل القديسين وتخطوا كل حدود الشر، وتصرفوا بطريقة شاذة كالمخمورين ضد الابن ذاته. لأنه مكتوب: «قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث

---

[٣٢٠] يقول العلامة هيبوليتس: "حيث أنه من سبط شمعون جاء الكتبة ومن سبط لاوي جاء الكهنة، فإن الكتبة والكهنة قد أكملوا الإثم باختيارهم واتفقوا معا على قتل الرب". (*A.N.F.vol.v,p.164*) المرجع السابق، ص ٤٩٥.

هلموا نقتله ونأخذ ميراثه» (مت ٢١:٣٨) و لم يتوقف جحودهم عند هذا الحد، بل ثاروا أيضاً على الرسل القديسين وكانوا يريدون قتلهم.

إن النبوة التي ندرسها الآن تحمل مثل هذا المعنى. ويبدو أن يعقوب العظيم قد تذكَّر أيضاً تلك الأمور التي حدثت في شكيم. أليس هذا هو هدف يعقوب، أن يُظهر أن ما حدث يمكن أن يكون مِثالاً لما يحدث في المستقبل؟ إن ما حدث في شكيم يتماثل من جهة أسلوب فعل الخطية مع الأحداث التي حدثت للمسيح، وأيضاً في حالة رأوبين البكر.

ماذا فعل إذن شمعون ولاوي في شكيم؟ خرجت دينا، أخت لاوي وشمعون، من خيمة أبيها لكي ترى بنات هذه الأرض، فاغتصبها شكيم بن حمور. لذلك، استولى الغضب على إخوتها وشرعوا في قتله لأجل فعلته الشنيعة، فأقنعوه أولاً بأن يقبل ختانهم هو وكل أهله، وحدث أنه بعد أن اختتن بنو حمور أن شمعون ولاوي قتلا حمور وابنه شكيم، قائلين: «أنظير زانية يفعل بأختنا» (تك ٣٤:٣١).

حسناً، ليتنا نأتي إلى الأمر الذي يُشبه هذا الحدث، ودعونا بقدر الإمكان نستعرض الموضوع آخذين كل ما يُساعدنا في عرضه بكل وضوح. عندما تحدثنا عن يعقوب حديثاً شاملاً، عرضنا كيف عاش وما هي طريقة حياته، وما عدد النساء اللاتي تزوجهن، وكم عدد أولاده. لقد قُلنا إنه تزوج ليئة، كُبرى بنات لابان، وبعدها تزوج راحيل الصغرى. وأظهرنا كيف أن ليئة بالنسبة لنا تمثل صورة مجمع اليهود، بينما راحيل تمثل صورة الكنيسة التي مِن الأمم. لأن اسم ليئة يعني «المُتعَبة» وكانت عيناها ضعيفتان. وحقاً هي مثال مجمع اليهود الذي كان مُتعباً، إذ تثقَّل بالناموس الذي أُعطي بواسطة موسى، لذا لم يرَ بأعينٍ سليمة

سِرَّ مخلصنا. على النقيض، كانت عينا راحيل جميلتين وكانت رائعة الجمال. وهي مثالٌ للكنيسة الآتية من الأمم التي كانت مجيدةً حقاً. دينا كانت بنت ليئة، وهذه ترمز لمجمع اليهود المختون في زمن تأنس الابن الوحيد.

هكذا، عندما خرج مجمع اليهود المختون مِن خيمته، أقصد خرج خارج الأعراف الناموسية وارتحل لينظر أراضي غريبة، أقصد حين نظر تعليم الرُسل القديسين الذين لم يعودوا يحيون بعد بالأعراف اليهودية، وقبل تعليم الرسل عندئذ أُغتصب روحياً وقد وُلِدَ منهم نسلٌ مسيحيٌّ وإنجيلي. لكن بعض أولاد يعقوب غضبوا (مثل شمعون ولاوي)، أي الذين وُجدوا في مصاف الطائعين ومع هؤلاء الذين من الجنس المقدس والمختار. لأن شمعون يعني «المطيع» ولاوي يعني «المختار».

وكون أن الذين كان لديهم امتياز الكهنوت الناموسي تطاولوا على الرسل بمعونة الجمع اليهودي، فهذا لا يمكن الشك فيه. لأنهم اغتاظوا حقاً واصفين إيمان أولئك الذين كانوا ينتمون إليهم بأنهم مجرمون، وإنهم ارتكبوا جرائم رهيبة. إذ قالوا: «وها أنتم قد ملأتم أورشليم بتعليمكم وتريدون أن تجلبوا علينا دم هذا الإنسان» (أع ٥:٢٨). ولأنهم اتهموهم بأنهم لا يلتزمون بناموس الختان، فقد سمعوا الرد من بولس عندما قال: «لأن اليهودي في الظاهر ليس يهودياً ولا الختان الذي في الظاهر في اللحم ختاناً» (رو ٢: ٢٨).

أرأيت كيف أن أولئك الذين هم من أممٍ أخرى آمنوا وارتبطوا باليهودية الحقيقية، إذ كانوا مختونين في داخلهم بالختان الروحي؟ لكن مثلما قتلوا الأنبياء، هكذا قتلوا أيضاً عمانوئيل. لأنه يقول، لقد ارتكب شمعون ولاوي ظُلماً بإرادتهما. أي اتفقا وارتكبا الظلم ضد القديسين، أي الشعب والكهنة. أما أنهم قد فعلوا هذا

الأمر بإرادهم بعد تفكير وتخطيط، فهذا ما ذكره الكتاب بأهم بحثوا هذا الأمر في مجامعهم ومضوا في تحقيق تلك الأفعال التي فاقت كل شرٍ.

حسناً، تجنَّب يعقوب المشاركة في تفكيرهم وقراراهم، لأنه يقول: «في مجلسهما لا تدخل نفسي. بمجمعهما لا تتحد كرامتي. لأهما في غضبهما قتلا إنساناً وفي رضاهما عرقبا ثوراً» (تك ٤٩:٦)، كأنه يقول: ولا أريد أن أرى بأعين ذهني هذه القرارات، ولا أيضاً أقبل في قلبي بتاتاً أفكار الجاحدين الشريرة.

هكذا يتحدث أشعياء عن تعاسة جمع اليهود، قائلاً: «ويل لنفوسهم لأهم يصنعون لأنفسهم شراً» (أش ٣:٩). أيضاً رنَّم داود: «طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار وفي طريق الخطاة لم يقف وفي مجلس المستهزئين لم يجلس» (مز ١:١). وكذلك، في موضع آخر، يقول: «أبغضتُ جماعة الأثمة ومع الأشرار لا أجلس» (مز ٢٦: ٥).

لقد تجنب ــ إذن ــ يعقوب، القرارات اليهودية، وذكر الأسباب قائلاً: «في مجلسهما لا تدخل نفسي. بمجمعهما لا تتحد كرامتي. لأهما في غضبهما قتلا إنساناً» (تك ٤٩:٦). أي كما قُلت، قتلوا قديسين وقادوهم وشنَّعوا هم بلا رحمة أو إنسانية مِن جراء غضبهم الدنس. وهؤلاء التعساء إذ سيطرت عليهم الشهوة الدنسة الحمقاء عرقبوا ثوراً، أي المسيح[٣٢١]. وما هي شهوهم؟ سبق أن تحدثنا عنها من قبل، إذ عرفوا أنه الوارث فاشتهوا أن يأخذوا ميراثه.

---

[٣٢١] يقول العلامة هيبوليتس: ''إنه يتكلم هنا بخصوص المؤامرة التي اشتركا فيها معاً ضد الرب. فمن الواضح لنا أنه يعني هذه المؤامرة. لأن الطوباوي داود يرنم قائلاً: '' تآمر الرؤساء معاً على الرب'' مز٢. وعن هذه المؤامرة تنبأ الروح: ''لا ترتفق روحي'' راغباً بذلك أن يثنيهما إن أمكن حتى لا تتم بواسطتها تلك الجريمة المستقبلة.

انتبه إذن، إلى المفهوم العميق لهذا الحديث. لأنه يقول، قتلوا البشر وعرقبوا الثور. قتلوا ــ إذن ــ القديسين الذين ماتوا على رجاء القيامة المنتظَرَة. لكنه كمثل ثور قد عرقبه نِسر، فقد أُهلِك المسيح ووقع على الأرض محتملاً بإرادته موت جسده، لكنه لم يُمسَك في قبضة الموت، بل ظلَّ حياً بلاهوته. وُصِف المسيح بالثور؛ لأن هذا الحيوان قويٌّ جداً وطاهر ومقدس. والابن هو رب القوات الذي لم يرتكب خطية (انظر ١بط ٢:٢٢)، بل بالحري قدَّم ذاته لأجلنا لله الآب رائحةً طيبةً (انظر أفسس ٥:٢). ليت الذين عرقبوا الثور يسمعون الآتي: «ملعون غضبهما، فإنه شديد وسخطهما فإنه قاس» (تك ٤٩:٧). ما الذي أصابهم؟ رحلوا من بلادهم، وهجروا أرضهم، وتشتتوا وصاروا غرباء ونزلاء وامتلأوا مِن الخوف. لأنه حقاً مثلما يشعر الطائر الذي يطير خارج عِشه، هكذا يشعر أيضاً الإنسان عندما يبتعد عن موطنه. أيضاً، بالنسبة لأولئك الذين عرقبوا الثور، فإن أعمالهم تستحق اللعنة، بينما بالنسبة لهؤلاء الذين تألموا ألماً رهيباً، سيكون لهم هذا الثور فِدية وطهارةً وغفراناً للخطايا. هذا الذي قُلته نجده مكتوباً في الناموس، إذ نقرأ في سفر التثنية: «إِذَا وُجِدَ قَتِيلٌ فِي الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ لِتَمْتَلِكَهَا وَاقِعاً فِي الْحَقْلِ، لاَ يُعْلَمُ مَنْ قَتَلَهُ، يَخْرُجُ شُيُوخُكَ وَقُضَاتُكَ وَيَقِيسُونَ إِلى الْمُدُنِ الَّتِي حَوْلَ الْقَتِيلِ. فَالْمَدِينَةُ الْقُرْبَى مِنَ الْقَتِيلِ، يَأْخُذُ شُيُوخُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ عِجْلَةً مِنَ الْبَقَرِ لَمْ يُحْرَثْ عَلَيْهَا، لَمْ تَجُرَّ بِالنِّيرِ. وَيَنْحَدِرُ شُيُوخُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بِالْعِجْلَةِ إِلى وَادٍ دَائِمِ السَّيَلاَنِ لَمْ يُحْرَثْ فِيهِ وَلَمْ يُزْرَعْ، وَيَكْسِرُونَ عُنُقَ الْعِجْلَةِ فِي الْوَادِي. ثُمَّ يَتَقَدَّمُ الْكَهَنَةُ بَنُو لاَوِي، لأَنَّهُ إِيَّاهُمُ

"قتلا إنساناً وعرقبا ثوراً": يعني به المسيح، وبقوله: "عرقبا" أي علقوه على خشبة" (*A.N.F.vol.v,p.164*).

المرجع السابق، ص ٤٩٥.

اخْتَارَ الرَّبُّ إِلَهُكَ لِيَخْدِمُوهُ وَيُبَارِكُوا بِاسْمِ الرَّبِّ، وَحَسَبَ قَوْلِهِمْ تَكُونُ كُلُّ خُصُومَةٍ وَكُلُّ ضَرْبَةٍ، وَيَغْسِلُ جَمِيعُ شُيُوخِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْقَرِيبِينَ مِنَ الْقَتِيلِ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْعِجْلَةِ الْمَكْسُورَةِ الْعُنُقِ فِي الْوَادِي، وَيُصَرِّحُونَ وَيَقُولُونَ: أَيْدِينَا لَمْ تَسْفِكْ هذَا الدَّمَ، وَأَعْيُنُنَا لَمْ تُبْصِرْ. اِغْفِرْ لِشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ الَّذِي فَدَيْتَ يَا رَبُّ، وَلاَ تَجْعَلْ دَمَ بَرِيءٍ فِي وَسَطِ شَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ. فَيُغْفَرُ لَهُمُ الدَّمُ. فَتَنْزِعُ الدَّمَ الْبَرِيءَ مِنْ وَسَطِكَ إِذَا عَمِلْتَ الصَّالِحَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ» (تث ٢١: ١ ـــ ٩).

لاحظ، كيف أن البعض منهم قد خلُصوا من إدانتهم بالقتل[٣٢٢]، لأن البقرة هي مثالٌ لعمانوئيل. لأنه كان ينبغي على هؤلاء أن يُخلِّصوا ذواتهم من الإدانة، ليقولوا: «أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر» (تك ٣١:٧). لكن شعب اليهود لم يتفوه بهذا القول، بل تطاولوا وقالوا وهم يعرقبون الثور: «أيدينا سفكت هذا الدم». وهذا ما قالوه بدون تبصُّرٍ عن المسيح: «دمه علينا وعلى أولادنا» (مت ٢٧:٢٥).

---

[٣٢٢] يقول العلامة هيبوليتس: "ولكن موسى رفع اللعنة عن لاوي أو بالحري حولها إلى بركة، وذلك من أجل الغيرة التي أظهرها السبط فيما بعد والتي اتضحت في فينحاس على الأخص من نحو الله. ولكن لعنة شمعون لم يرفعها، ولذلك فقد تمت فيه فعلاً. لأن شمعون لم يحصل على ميراث مثل باقي الأسباط بل سكن في وسط ميراث يهوذا، إلا أن سبطه بقى محفوظاً على الرغم من أنه كان نفراً قليلاً".. *(A.N.F.vol.v,p.164)* المرجع السابق، ص ٤٩٥.

عن يهوذا[٣٢٣]

«يهوذا إياك يحمد إخوتك. يدك على قفا أعدائك يسجد لك بنو أبيك. يهوذا جرو أسد مِن فريسة صعدت يا ابني. جثا وربض كأسد وكلبوة. مَنْ ينهضه. لا يزول قضيب مِن يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب. رابطاً بالكرمة جحشه وبالجفنة ابن أتانه. غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه. مسود العينين مِن الخمر ومبيض الأسنان من اللبن» (تك ٤٩: ٨ — ١٢).

لقد صارت طريقة البركة، بهذه الأقوال واضحة، إذ تعلن مسبقاً تدبير مخلصنا للبشر[٣٢٤]. لقد عرض يعقوب — قبلاً — أهمية الاسم بالتهليل والهتاف، وهكذا تفوق سبط يهوذا بالأكثر على الأسباط الأخرى. لأنه إذا أراد أحدٌ أن يفسر معنى اسم يهوذا، سيجده بمعنى: «حمد» أو «ثناء» أو «تسبيح». والحديث يخص

---

[٣٢٣] تعتبر النبوة عن يهوذا هي أوضح النبوات عن مجيء المخلص من سبط يهوذا.

[٣٢٤] يقول القديس أثناسيوس لليهود الذين مازالوا ينتظرون الماسيا: "هكذا، فحينما جاء قدوس القدوسين كان من الطبيعي أن تبطل الرؤيا والنبوة وتنتهي مملكة أورشليم. فقد كان يجب أن يُمسح بينهم ملوك إلى أن يُمسح "قدوس القديسين". فيعقوب تنبأ أن مملكة يهوذا تبقى حتى مجيء (المسيح) قائلاً: "لا يزول حاكم من يهوذا ورئيس من بين أحقائه حتى يأتي المُعد له ويكون هو رجاء الأمم". لهذا هتف المخلّص نفسه قائلاً: "الناموس والأنبياء إلى يوحنا تنبأوا" (مت ١١: ١٣). فلو كان الآن بين اليهود ملك أو نبي أو رؤيا لكان لهم العذر أن ينكروا المسيح الذي أتى فعلاً. أما إن لم يكن هناك ملك ولا رؤيا، بل قد خُتمت كل نبوة من ذلك الوقت وأُخذت المدينة والهيكل، فلماذا يجحدون ويتمردون إلى هذه الدرجة، حتى أنهم بينما ينتظرون ما قد حدث فإنهم ينكرون المسيح الذي جعل كل هذه الأمور تتم؟" تجسد الكلمة، فصل: ٤٠: ٣ — ٤.

نسل يهوذا، أي المسيح حسب الجسد[٣٢٥]، والعذراء التي ولدته بالجسد، قد أتت أيضاً من يهوذا وداود. يسجل يعقوب حقيقة الأمور ـــ بمجرد رؤيته للاسم ـــ كما هي واضحة من ذاتها، فمعنى الاسم (يهوذا) برهانٌ ساطعٌ، فسوف تصير (أيها المسيح) ممجَّداً بالمجد الذي يليق بالله. لأنه لا يليق أن يُقدَّم المجد لأحد آخر، إلّا فقط، لله الذي هو الكائن بالحقيقة والمعروف للجميع. لأنك بالرغم من أنكَ صِرت إنساناً وأخليت ذاتك، إلّا أنك سوف تصير ممجَّداً ومُهاباً على الدوام. والأخوة الذين هم بشر، سوف لا يتصرفون تجاهك بكونك إنساناً، بل لأنهم شهود عيان لتصرُّفِك بينهم، سوف يعاملوك بكونك ربّاً ويسبحونك بكونك خالقاً. وبالرغم من وجودك معهم بين المخلوقات، إلّا أنهم سوف يعترفون بك كملك ورب الجميع مع إنك صِرت في هيئة عبد.

وكون أن عمانوئيل سوف يصير سيداً على كل أولئك الذين يقاومونه وينتصر بسهولة على كل الأعداء، فقد صرَّح بهذا قائلاً: «يدك على قفا أعدائك» (تك ٤٩: ٨).

وهذا الأمر ذكره المسيح مسبقاً بفم داود؛ لأنه قال: «أسحقهم فلا يستطيعون القيام. يسقطون تحت رجلي. تمنطقني بقوة للقتال. تصرع تحتي القائمين عليَّ» (مز ١٨: ٣٨ ـــ ٣٩). حسناً، «يدك على قفا أعدائك»، يقول

[٣٢٥] يقول القديس كبريانوس (+ ٢٥٨م) في رسالته (٦٢:٦): "في بركة يهوذا ... نجد هناك أيضاً رمزاً للمسيح، بأنه سوف يحمده إخوته، ويسجدون له، وأنه سوف يطارد فلول أعداءه المستسلمين والهاربين بيديه اللتين حملتا الصليب وهزم بهما الموت "يداك على قفا أعدائك"، وأنه هو نفسه الأسد الخارج من سبط يهوذا الذي ينبغي أن يجثو لينام في آلامه، ولكنه يقوم، وسوف يكون هو نفسه رجاء الأمم" *A.N.F. VOL.,P.300.* شرح سفر التكوين، سفر البدايات، دار مجلة مرقس، طبعة أولى ٢٠٠٥، ص ٤٩٦.

هذا القول؛ لأنه بالحري سوف يطردهم ولن يتقهقر، وكذلك لن يتمكنوا منه، بل هو سوف يضربهم. لأن ما جاء في المزامير هو حق: «وأسحق أعداءه أمام وجهه وأضرب مبغضيه» (مز ٨٩:٢٣). وبالرغم من أنه أعطانا السلطان أن ندوس الحيات والعقارب وكل قوات العدو (انظر لو ١٠:١٩)، إلّا أنه لابد وأن نعترف أنه يضع يديه ــ قبلنا ــ على الذين يتطاولون علينا ويهاجموننا بوقاحة[٣٢٦]. وكون أنه لن يتقهقر بل بالحري سوف يسود عليهم كما يشاء بدون أدنى تعب (لأنه قد انتصر على العالم)، هذا أعلنه مسبقاً يعقوب العظيم، قائلاً: «يدك على قفا أعدائك. يسجد لك بنو أبيك». حسناً، ما هو الاختلاف بين الأخوة الذين يسبحونه، وبنو أبيه الذين سوف يسجدون له، كيف نتجاهل هذا الأمر؟

إن عبارة «بنو أبيك» تعني روحياً أنهم أبناء أبيه في المسيح، بينما في الحقيقة لم يكن يوسف النجار الطوباوي أباه. بل كان ليوسف أولاد وبنات من زواج سابق. ولأنهم قد تتبعوا يسوع ورأوه يصنع معجزات؛ ولا يعطي أهمية عظمى لتقاليدهم الناموسية فيما يخص الأطعمة وراحة السبت، إذ قال: «ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان» (مت ١٥: ١١)، وأيضاً قال: «ابن الإنسان هو رب السبت» (مت ١٢:٨)، امتلكتهم الحيرة والدهشة، فهُم لم يكرموه بسبب أنهم ظنُّوا أن أفكاره عن الناموس خاطئة، وفي نفس الوقت لم يستطيعوا أن لا يعبروا عن إعجابهم به وبهيبته وروعته. لذلك قالوا له بكل وضوح: «انتقل من هنا

---

[٣٢٦] يقول القديس أغسطينوس (٣٥٤ــ٤٣٠): "وها نحن نرى يديه على قفا أعدائه الذين رضخوا وخضعوا إلى الأرض بنمو الجماعات المسيحية رغم مقاومتهم لها. وها نحن نرى بني يعقوب يسجدون له، أعني البقية الباقية التي خلصت بموجب اختيار النعمة" *N.P.N.F.1st series, vol.IV,P.196* .. المرجع السابق، ص ٤٩٦.

وأذهب إلى اليهودية لكي يرى تلاميذك أيضاً أعمالك التي تعمل. لأنه ليس أحد يعمل شيئاً في الخفاء وهو يريد أن يكون علانية» (يو ٧: ٣ ـــ ٤). ويستمر الإنجيلي، قائلاً: «لأن أخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به» (يو ٧: ٥). لكن أولئك الذين ـــ في البداية ـــ قالوا هذه الأقوال، قد آمنوا مع مرور الوقت. لأنهم عرفوا، بالرغم من أنه وُلِد جسدياً وصار إنساناً، أنه هو الله بحسب الطبيعة، هذا ما أقرَّ به النبي إرميا الطوباوي وقاله عن عمانوئيل ذاته: «لأنك أخوتك أنفسهم وبيت أبيك قد غادروك أيضاً. هم أيضاً نادوا وراءك بصوتٍ عالٍ. لا تأتمنهم إذا كلموك بالخير» (إر ١٢: ٦). هكذا أدانه أولئــك وأناس آخرون ـــ قديماً ـــ إلَّا أنهم انجذبوا إلى الإيمان وتحدثوا عنه بكلام حسن. وحقاً كتب يعقوب رسالته إلى الأسباط الاثني عشر، قائلاً: «يعقوب عبد الله والرب يسوع المسيح» (يع ١: ١). حسناً، سوف يسبحونه بكونه إلهاً، سوف يسبِّحه هؤلاء الذين، بالإيمان والقداسة التي أتت من الإيمان، قد دُعُوا لكي يصيروا أخوةً. وسوف يسجد له أيضاً أبناء أبيه. وواضح أن الساجدين له سوف يسبحونه، كذلك أولئك الذين كتبوا التسبحة سوف يسجدون له. من جهةٍ أخرى، المسيح هو «أسدٌ» آتٍ من يهوذا، حقاً ابن الله هو الذي يفعل كل شيء، وتُوجد فيه قوة تغلب بدون معركةٍ، فهو الوحيد الذي يمكنه بصوته أن يغلب أولئك الذين يقاومونه ويصيبهم بجراحٍ. لأنه كما يقول النبي: «الأسد قد زمجر فمَنْ لا يخاف» (إر ٨: ٣).

المسيحُ هو الأسد الذي وُلِدَ كما مِن نبتٍ وجذرٍ شريف، مِن العذراء القديسة. لأنه حقاً هو: «قضيب عزك» (مز ١١٠: ٢) الذي أرسله الله لصهيون، هو العكاز الذي يسندنا كلنا ويعضدنا «قضيب استقامةٍ قضيب مُلكك» (مز ٤٥: ٦)، هو الذي يرعى بحقٍ ووداعة، جمع القديسين، أما أولئك الذين لا

يحتملون رعايته، فسوف «تحطمهم بقضيب من حديد. مثل إناء خزاف تكسرهم» (مز ٢:٩). هذا هو عصا هارون التي كانت في الخيمة المقدسة، في قدس الأقداس، العصا التي ازهرت ونبتت ثمرة جوز، التي هي رمز للقيامة. لأن ثمرة شجر الجوز تسبب للذي يأكلها عدم النوم واليقظة الدائمة، لذا ترمز إلى سر قيامة كنيسة الله.

لأجل هذا يدعوه يعقوب الطوباوي قضيباً لأنه رأي مسبقاً (بالروح) ما سوف يصير في نهاية خطة الخلاص، إذ قال: «جثا وربض كأسد مَنْ ينهضه» (تك ٤٩:٩). أي سوف تخضع (أيها المسيح) للموت بإرادتك[٣٢٧]، وبالرغم من أنك كأسدٍ، تستطيع أن ترعبهم وتخيفهم وتحرَّر وتفك قيود الأعداء، إلَّا أنك رقدت بإرادتك ونهضت، وليس كما ظن هؤلاء، الذين أرادوا أن يصلبوك، أنك مهزوم من الموت، بل أنت غفوت وأغلقت عينيك قليلاً.

حسناً، يقول: «مَنْ ينهضه»، أي لقد نام بإرادته، إلَّا أنه غير محتاج لمعونة آخر لكي يقيمه. لأنه هو قادر على كل شيء، إذ هو قوة الآب وقادرٌ بسهولةٍ أن يعطي حياةً لهيكل جسده. كان يقصد مثل هذا الأمر حين قال لليهود: «انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه» (يو ٢:١٩). وكون أنه لا يحتاج معونة أحد،

---

[٣٢٧] يقول القديس أغسطينوس: "موت المسيح قد تنبأ عنه بقوله: "جثا وربض"، وأنه لم يكن على اضطرار ولكن موته كان فعلاً إرادياً، ويتضح ذلك من وصفه كأسد. هذه القوة التي أعلن عنها هو نفسه في الإنجيل بقوله: "لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن أخذها أيضاً. ليس أحد يأخذها مني بل أضعها أنا من ذاتي" (يو ١٠:١٨). وهكذا فقد زأر الأسد وتمم ما قاله، لأنه عن هذه القوة التي ظهرت بقيامته أضاف قائلاً: "مَنْ ينهضه؟". وهذا معناه أن أحداً لم ينهضه بل أقام هو نفسه، هذا الذي قال أيضاً عن جسده الخاص: "انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أُقيمه" (يو ٢:١٩)" *N.P.N.F.1st series, vol.IV,P.196.* المرجع السابق، ص ٤٩٧.

وأنه هو نفسه يستطيع أن ينهض بمفرده؛ لأنه هو قوة ذاك الذي ولدَه، سوف يظهره حديثنا بكل وضوح.

إنه يُظهر وقت مجيئه قائلاً: «لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب» (تك ٤٩: ١٠). لقد تسيَّد اليهود والرؤساء الذين كانوا من بني إسرائيل حتى هيرودوس الذي كان غريباً من جهة أبيه حيث كان فلسطينياً ودُعيَ رئيسَ رُبعٍ وتولى السلطة، وأثناء مُلكه وُلِدَ المسيح «مشتهى الأمم ἡ τῶν ἐθνῶν προς δοκία». وكون أن جمع الأمم نالوا الخلاص عندما وُلِدَ المسيح، لا نحتاج لأقوال كثيرة لنبرهن عليه؛ لأن هذا الأمر يعلن بذاته عن نفسه. أما بخصوص أن إسرائيل سوف يُدعى بعد ما يؤمن الشعب الجديد من الأمم والمولود حديثاً، فهذا يقوله مباشرةً: «رابطاً بالكرمة جحشه»، لأن الكرمة الحقيقية، أقصد المسيح قد ربط بذاته شعب الأمم الذي أُشيرَ إليه بالجحش، وبعبارة «وبالجفنة ابن أتانه»، أي ربط في حضن محبته، الشعب اليهودي الذي آمن، وهو الذي كان مولوداً من الأم القديمة، أقصد المجمع وقد أُشيرَ إليه « بابن أتان». وهل يُوجد أحد يشكك في هذا الأمر خاصةً أن كل الكتاب المقدس كرز بهذا السر وأعلنه؟

وكون أن دمه سوف يصبغ جسده وهو مُسمَّرٌ على الصليب عندما طعن بالحربة، فهذا يظهره يعقوب، قائلاً: «غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه» (تك ٤٩: ١١)[٣٢٨]. وأيضاً أشعياء النبي وهو يشير إلى صعود المسيح إلى السماء، يقول

---

[٣٢٨] يقول القديس أغسطينوس: "أما بالنسبة للباسه الذي غسله بالخمر، أي طهَّره من الخطية بدمه، ذاك الدم الذي يعرف سرَّه أولئك الذين اعتمدوا، لذلك فقد أضافت النبوَّة: "وبدم العنب ثوبه"، وأي شيء تكون ثيابه سوى أنها الكنيسة؟ "مسودُّ العينين من الخمر": هؤلاء هم شعبه الروحي وقد سكروا من كأسه التي عنها يتغَّنى

كيف أن الملائكة القديسين قالوا: «مَنْ ذا الآتي من أدوم بثياب حُمر مَنْ بُصرة هذا البهي بملابسه المتعظم بكثرة قوته. أنا المتكلم بالبر العظيم للخلاص. ما بال لباسك مُحمر وثيابك كدائس المعصرة» (أش ٦٣: ١ ــ ٢).

وأيضاً تصرفات اليهود الشريرة من لطمات وضربات واستهزاءات لم يعمل لها أي حساب بل استهان بها، فهذا يظهره بقوله: «مسود العينين مِن الخمر» (تك ٤٩: ١٢)، أي ارتسم السرور والفرح على عينيه، وهذا يشير إلى فرح وسرور الطبيعة الإلهية (انظر عب ١٢: ٢). لأن عقل الذين يشربون الخمر يتجاهل عادةً الأمور التي تسبب حُزناً ولا يعمل لها أي حساب. ولأن القول يخرج من الأسنان، يقول: «مبيض الأسنان من اللبن»، أي أن قوله بليغ ونقي وواضح. إذ أن المسيح لم يتحدث إطلاقاً عن أمور خاطئة، بل كان قوله فصيحاً وصريحاً ويليق بالقديسين، ويسبب لسامعيه دهشةً وتعجباً وبهاءاً لنفوسهم وعقولهم (راجع مر ١: ٢٢، لو ٥: ٢٦).

المزمور قائلاً: "وكأسك روتني مثل الصرف": "ومبيض الأسنان من اللبن": التي تعني الكلام المغذّي الذي قال عنه الرسول إنه شراب الأطفال الذين ليسوا قادرين بعد على الطعام الذي للأقوياء" *N.P.N.F. 1st series, vol.IV,P.335* المرجع السابق، ص ٤٩٧. أما القديس نوفاتيان القس الروماني (٢١٠ــ٢٥٨م) في مقال له عن الثالوث شرح فيه التجسد الإلهي والفداء كما تعلنه الآية: «غسل بالخمر لباسه، وبدم العنب ثوبه» قائلاً: «إذا قلنا إن لباس المسيح هو اللحم والثوب هو الجسد، فقد يسأل سائل: «ماذا يعني هذا الذي ثوبه الجسد ولباسه اللحم؟» أما نحن فمن الواضح عندنا أن اللحم هو لباس الجسد والجسد هو ثوب الكلمة، وهو قد غسل جوهر جسده وطهَّر مادة لحمه بالدم الذي هو الخمر، وذلك بواسطة آلامه التي بها بهيئته الإنسانية التي اتخذها. لذلك، فإنه إذا كان قد اغتسل، فهو إنسان لأن اللباس الذي غُسل هو اللحم، ولكن الذي غَسَلَ هو كلمة الله، الذي من أجل أن يغسل الثوب أتخذ له (اللحم) لباساً. فإنه بعدل قد استُعلِن إنساناً باتخاذه لذلك الجوهر المادي حتى يمكن غَسله، لكي بسلطان الكلمة الذي قد غَسَله يُستعلن أنه الله» *A.N.F. vol. VI,p.633.*

عن زبولون[٣٢٩]

«زبولون عند ساحل البحر يسكن وهو عند ساحل السفن وجانبه عند صيدون» (تك ٤٩:١٣).

لقد قُلنا من قبل إننا نحاول تفسير نبوة يعقوب لكي نتحقق بدقة مما أراد أن يقوله، وكيف تحقق ما قاله. ويمكن لواحد من الفاهمين أن يبرهن على أن هذه الأقوال التي تفوّه بها يعقوب تعلن مسبقاً صورةً للأمور التي سوف تحدث. فمن جهةٍ نقول هذا الأمر عن طريق تشابه هذه الأمور مع تلك التي حدثت بالفعل في الماضي، ومن جهة أخرى عن طريق معنى الأسماء، الأمر الذي نستطيع أن نراه في حالة زبولون، والأسماء التي ذُكِرْت بعده. وبحسب أولئك الذين يملكون القدرة على إيضاح معنى هذه الأسماء جيداً، فإن اسم زبولون يعني "رائحةً زكية" وأيضاً يعني «بركة εὐωδία τε καὶ εὐλογία».

إذن، سنجد البعض من الإسرائيليين مبارَكين، وهؤلاء هم المحاطون برائحة الله الزكية، تلك الرائحة الموجودة في كل أولئك الذين يسرون الله، وأيضاً في هؤلاء الذين قد تبرروا بإيمانهم بالمسيح واستناروا بنعمة الروح القدس، حتى إننا نستطيع أن نجاهر بدون أن نكذب ونقول: «أنتم مباركون للرب الصانع السموات والأرض» (مز ١١٥:١٥). وأيضاً يناسب هؤلاء ما قاله أشعياء الطوباوي: «طريق الصديق استقامة. تُمهد أيها المستقيم سبيل الصديق» (أش ٢٦:٧). وقد

---

[٣٢٩] كانت النبوات الأربع الأولى عن أبناء يعقوب الأربعة الأوائل من ليئة زوجته. ولكن الروح الذي نطق على فم يعقوب لم يتبع بعد ذلك ترتيب ولادهم، فزبولون وُلِدَ من ليئة أيضاً بعد يسَّاكر، إلا أن النبوة عنه جاءت قبل يسَّاكر، لأنه فاق أخوه في البركة.

أمر الله المستنيرين والمباركين أن يدخلوا إلى الدار الإلهية والمقدسة قائلاً: «أفتحوا الأبواب لتدخل الأمة البارة الحافظة الأمانة. ذو الرأي الممكن تحفظه سالماً سالماً لأنه عليك متوكل» (أش ٢٦ : ٢ ــ ٣).

وأيضاً حتى لا يستولي عليهم الخمول من جهة فعل الصالحات، وضع عراقيل في الطريق وأمرهم بأن يصيروا رائحة زكيةً ويمهِّدوا الطريق للدخول، قائلاً للخدام المقدسين: «اعبروا أعبروا بالأبواب هيئوا طريق الشعب أعدوا اعدوا السبيل بقوة من الحجارة ارفعوا الراية للشعب» (أش ٦٢ : ١٠). وهكذا، فإن أولئك الذين آمنوا بالمسيح مِن بني إسرائيل، سيكونون مبارَكين وسعداء. ويؤكد لهم بوضوح أن الذين من زبولون سوف يسكنون عند ساحل البحر (انظر أش ٩ : ١ ــ ٢).

كأنه يقول، إن إسرائيل سوف يحيا مختلطاً بالأمم حيث إن الشعبين اتحدا في رعيةٍ واحدة، ووُضِعا تحت يدي الواحد الصالح بحسب طبيعته، أقصد رئيس الرعاة، المسيح. وكون أن الرمز كان حقيقياً، فهذا ما تخبرنا به كلمة الكتاب الموحى به من الله ناسباً للذين من الأمم المكان الواقع على البحر. لأنه قال الآتي: «أرض زبولون وأرض نفتاليم طريق البحر عبر الأردن جليل الأمم. الشعب الجالس في ظلمة أبصر نوراً عظيماً» (مت ٤ : ١٥).

أي أن «أرض زبولون» تُدعى مكان الأمم الذين رأوا نوراً عظيماً، أقصد بواسطة المسيح. هكذا استنار أيضاً الشعب الإسرائيلي الذي كان يسكن مع الذين سكنوا على البحر. وهذا هو سبب تقدُّمهم بفضل بركة الله. وكون أن الاستنارة سوف يصاحبها التوفيق والفلاح، فهذا نعرفه أيضاً مِن المخلص حيث قال لجمع اليهود: «النور معكم زماناً قليلاً بعد. فسيروا في النور ما دام لكم النور لئلا يُدرككم الظلام» (يو ١٢ : ٣٥). إذن، الشعب القديم الذي كان

يسكن منعزلاً وتجنَّب الاختلاط بالأمم، سوف يصير من ضمن الساكنين معهم لأنه لم يختلف عنه في شيء، ولأن الحاجز المتوسط قد نُقض بواسطة المسيح وناموس الوصايا بفرائض قد أُبطِلَ، والشعبان صارا إنساناً واحداً جديداً في المسيح بواسطة الروح القدس.

يقول: «عند ساحل السفن»، أي مثل ميناءٍ آمِن وهادئ تُربط فيه جبال الرجاء في المسيح. وأيضاً كأنه ابتعد عن عواصف البحار وسيدخل المرسى من الآن فصاعداً بفضل المسيح مثلما ترسو السفن في الميناء. وكذلك بقوله: «وجانبه عند صيدون» يعلن أنه سوف يصير ملتقى عظيم للشعبين نحو الاتحاد الروحي، وسوف يملأ زبولون مع بقية نسل إسرائيل المدن التي سبق أن أداها الله، إذ أنهم ضلوا وسرقوا أولئك الذين كانوا يتقونه[٣٣٠]. لأنه قال بفم الأنبياء: «وماذا أنتن لي يا صور وصيدون وجميع دائرة فلسطين. هل تكافئون عن العمل أم هل تصنعون بي شيئاً. سريعاً بالعَجَلِ أرد عملكم على رؤوسكم. لأنكم أخذتم فضتي وذهبي وأدخلتم نفائسي الجيدة إلى هياكلكم وبعتم بني يهوذا وبني أورشليم لبني الياوانيين لكي تُبعدوهم عن تخومهم» (يوئيل ٣: ٤ ـــ ٦). لاحظ إذن، أن المدن الرهيبة والشرسة والذين تسببوا في الهلاك للإسرائيليين، سوف

[٣٣٠] قد سبق للعلامة هيبوليتس أن يقول في نفس السياق: "إنه يتكلم عن نصيبه الذي سيقع عند ساحل البحر، وعن اختلاط إسرائيل بالأمم، جاعلاً كليهما (أي إسرائيل والأمم) رعيَّة واحدة. وهذا الأمر ظاهر في الإنجيل: "أرض زبولون وأرض نفتاليم طريق البحر عبر الأردن جليل الأمم، الشعب الجالس في ظلمة أبصر نوراً عظيماً..." (مت ٤: ١٥ــ١٦) ويمكنك أن تلاحظ بأكثر جلاء وفرة غنى نصيبه بحصوله على مقاطعته في كل من داخل البلاد وعلى ساحل البحر. "وهو عند مرفأ السفن": أي أنه في مكان أمين عند مرسى السفن، مشيراً إلى المسيح مرساة الرجاء، وإشارة إل دعوة الأمم، حيث إن نعمة المسيح سوف تعم الجميع في الأرض والبحر" *A.N.F. vol.V,p.165.*

يقبلون بدون خوف هؤلاء الذين آمنوا، وبذلك يوحِّد مخلصنا يسوع المسيح الشعبين معاً مُزيلاً العداوة التي كانت بينهما، جاعلاً الشعب الإسرائيلي يسكن مع الأمم. هذا ما أراده وقصده حين قال إن زبولون سوف يسكن عند ساحل البحر.

عن يساكر[٣٣١]

«يساكر حمار جسيم رابض بين الحظائر. فرأى المحل أنه حسن والأرض أنها نزهة. فأحنى كتفه للحمل وصار للجزية عبداً» (تك ٤٩: ١٤ ـــ ١٥).

اسم «يساكر» يعني «أُجرة Μισθὸς». لذلك يُعتبر يساكر أنه مثال وصورة واضحة لأولئك الذين أعطاهم الله الآب للمسيح كأجرة. لأن داود يقول: «اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصي الأرض مُلكاً لك» (مز ٢: ٨)، وكذلك سَبَّح مُظِهراً هؤلاء الذين أُعطُوا لعمانوئيل، قائلاً: «هوذا البنون ميراث مِن عند الرب. ثمرة البطن أُجرة» (مز ١٢٧: ٣). لأنه قد أُعطِيَ لعمانوئيل هؤلاء الذين آمنوا مِن بني إسرائيل والبقية مِن الجمع، أقصد بالطبع جمع الأمم. ويدعو الرب يسوع قائلاً: إنه صار أيضاً ثمرة البطن لأنه صار مثلنا لأنه وُلِدَ من امرأة، وكان ثمرة الأم العذراء. بالتالي، لقد ربح المسيح هؤلاء الذين آمنوا، ولأجل هؤلاء قال لله الآب السماوي: «أنا أظهرت أسمك للناس الذين أعطيتني من العالم» (يو ١٧: ٦). هؤلاء إذن، رغبوا في الصلاح، أي رغبوا في كل ما هو حسن من الأمور المحبوبة عند الله. إنهم يعتبرون هذا الأمر هاماً وضرورياً وهم يحاولون أن يحققوه حتى يستطيعوا بقلب صالح أن يصرخوا، قائلين: «أحكام الرب حق عادلة كلها. أشهى من الذهب والإبريز الكثير وأحلى من العسل وقطر الشِهاد» (مز ١٩: ٩ ـــ ١٠). حسنٌ أيضاً أن يرغبوا في الوجود تحت ظل المسيح ذاته، الأمر الذي قالته العروس في نشيد الأنشاد: «تحت ظِله اشتهيت أن أجلس» (نشيد الأنشاد ٢: ٣).

---

[٣٣١] هو الابن الخامس لليئة قبل زبولون.

حسناً، الشعب الذي وصل إلى هذه المرحلة من الإيمان يفكر في ميراث الله، أقصد الخيرات المرجوة التي وعد بها الله لأتقيائه والتي قال عنها داود النبي: «في يدك آجالي» (مز ٣١:١٦)، وسوف يرتاح هذا الشعب كليةً منتظراً تحقيقها. إذن طالما مدح مشيئة الله وحُكمه وأُعجب كثيراً بالراحة، أقصد الحياة الأبدية حيث حياة القداسة الكاملة، والمجد الذي لا نهاية له والمُلك الذي لا يزول، وكل الأمور التي لا يستطيع العقل أن يدركها ولا اللسان أن يعبر عنها؛ سوف يصير من الآن فصاعداً صابراً ومحتملاً للأتعاب[٣٣٢]. لأنه حين رأى أن الأرض نزهةً «فأحنى كتفه» (تك ٤٩:١٥)، لكي يتعب. ويأخذ كمثال من أولئك الذين اعتادوا أن يفلحوا الأرض جيداً، هؤلاء نشطاءٌ جداً ومحبون للفأس، أيضاً وبدون محراث يحرصون على بذل كل جهد وعرق، عندما تكون الأرض خصبة قاصداً بالطبع الثمرة الغنية وكل ما تنتجه هذه الأرض. وينصحنا أيضاً هوشع الحكيم بخصوص هذا الأمر، قائلاً: «ازرعوا لأنفسكم بالبر. أحصدوا بحسب الصلاح أحرثوا لأنفسكم حرثاً فإنه وقتٌ لطلب الرب حتى يأتي ويُعلمكم البر» (هو ١٠:١٢). وبولس الطوباوي صلى، قائلاً: «والذي يقدم بذاراً للزارع وخبزاً

---

[٣٣٢] سبق للقديس أثناسيوس شرح هذه النبوة، قائلاً: "يساكر يشتهي ما هو جيد لذلك ربض بين الأنصبة...." ما أشبه ذلك بعروس نشيد الأنشاد، فهو إذ يستحوذ عليه الحب الإلهي، جمع الكثير من الأسفار المقدسة لأن عقله قد سُبي، ليس بالقديم فقط، بل بكلا الميراثين معاً. فمِنْ ثم، إذا به يبسط جناحيه وينظر من بعيد تلك الراحة التي في السماء. وبما أن هذه "الأرض" تحتوي أشياءً جميلةً بهذا المقدار، فكم بالأحرى كثيراً تكون السموات! لأن الأخرى جيدة دائماً ولا تشيخ أبداً. لأن هذه الأرض تزول كما قال الرب، ولكن تلك المعدَّة لاستقبال القديسين تبقى إلى الأبد. فلما رأي يساكر أب الآباء هذه الأمور هكذا، جعل افتخاره بالضيقات والأتعاب بكل سرور وأحنى كتفه للعمل والمشقات" *541 letter XIII,Ester p.341 - N.P.N.F.2nd series, vol.IV,p.540*شرح سفر التكوين، سفر البدايات، دار مجلة مرقس، طبعة أولى ٢٠٠٥، ص ٥٠٣ــ٥٠٤.

للأكل سيقدم ويكثر بذاركم وينمي غلات بركم. مستغنيين في كل شيء لكل سخاء ينشئ بنا شكراً لله» (٢ كو ٩: ١٠ ـــ ١١).

عن دان[٣٣٣]

«دان يدين شعبه كأحد أسباط إسرائيل. يكون دان حيةً على الطريق أفعواناً على السبيل يلسع عقبي الفرس فيسقط راكبه إلى الوراء» (تك ٤٩: ١٦ ـــ ١٧).

يهتم حديثنا أيضاً بمعنى الاسم. لأن "دان" يعني "ديان"، أي "الدينونة"، وهذا أيضاً يشير إلى مصاف الرسل القديسين الممجدين والظاهرين للجميع، هؤلاء الرسل القديسون الذين صاروا رؤساء على الذين آمنوا وكذلك دُعُوا لكي يدينوا ويحكموا آخذين هذا السلطان مِن المسيح. لذلك يقول بولس العظيم: "ألستم تعلمون أننا سندين ملائكة فبالأولى أمور هذه الحياة" (١ كو ٦: ٣). حسناً، المسيح هو بحسب الكتب المقدسة ديان ومشرّع، وطالما أن الرُسل يعملون كوكلاء عن المسيح ووضع فيهم كلمة المصالحة، إذن ليس تناقضاً على الإطلاق اعتبارهم قضاةً مثل المسيح. أيضاً على الجانب الآخر، كرز أشعياء العظيم بمملكة المسيح ذاته، قائلاً: "فإن الرب قاضينا. الرب شارعنا. الرب ملكنا هو يخلصنا" (أش ٣٣: ٢٢).

قديماً مَلَك نسل سبط يهوذا على أورشليم. ودُعِيَ هؤلاء الذين كانوا يخدمون في الخيمة المقدسة وخدمة الكهنوت للقيام بأعمال القضاء، لأنه يقول: "لأن شفتي الكاهن تحفظان معرفة ومن فمه يطلبون الشريعة لأنه رسول رب الجنود"

[٣٣٣] وُلد ليعقوب من بلهة جارية راحيل.

(ملا ٢: ٧). ولكن حين توارى ظلُّ الناموس وظهرت العبادة بالروح والحق بواسطة المسيح، دُعِيَ التلاميذ القديسين لرتبة القضاء، إذ كانت الحاجة إلى قضاة في العالم. لأجل هذا قال الله لأورشليم، أُم اليهود، بصوت المرنم: "عِوضاً عن آبائك يكون بنوك" (مز ٤٥: ١٦أ)، أي أن هؤلاء الذين هم أبناؤك صار نصيبهم هو مكان آبائهم، أما من جهة ربنا يسوع المسيح فيقول: "تقيمهم رؤساء في كل الأرض" (مز ٤٥: ١٦ب)، الأمر الذي نستطيع أن نراه محققاً. لأنه لدينا التلاميذ القديسين رؤساء وقضاة للمسكونة وهم الذين كرزوا بسر المسيح، لأنهم هم وكلاء على كلمة الخلاص وأوصياء على هؤلاء الذين آمنوا وصاروا أولاداً لهم، إذ هم يدبرون أمورهم ويرفضون ما هو مزيف وغير نافع لهم وينصحونهم بما هو مفيد لهم.

إذن، يشير دان لأولئك الذين سوف يصيرون قضاةً للشعوب والأمم ومدبرون لهم بقوة ومجد عظيم مثلما كان يدبر "أحد أسباط إسرائيل". وأعتقد أنه يقصد سبط يهوذا.

كيف وهل يجوز لنا أن نتشكك في أن هؤلاء الذين عُينوا بواسطة المخلص، كُرِّموا ووصلوا لأسمى مرتبة من المجد؟

أما أن يصيروا رؤساء، فهذا ليس بدون أتعاب؛ لأنهم سوف يُختبرون بشرور كثيرة لا تحصى، وسوف تعترضهم معوقات كثيرة، ولن يسيروا في تأدية رسالتهم بدون مواجهة مخاطر، وهذا ما يشير إليه بقوله: "يكون دان حية على الطريق أفعواناً على السبيل يلسع عقبي الفرس" (تك ٤٩: ١٧)؛ أي أنه يعطي تعاليم مخيفة لا تطاق. لأن لسعات الحية، من الصعب على أي واحد أن يتجنبها حتى لو كانت في العقب. إذ يقول: "هو يسحق رأسك وأنتِ تسحقين عقبه"

(تك ٣:١٥). وفعلاً فقد نصب البعض مصائد كثيرة للرسل القديسين لدرجة أهم تعرضوا للموت الجسدي. وحسناً نقول إنهم ابتُلوا بشيءٍ مثلما يحدثُ لفرسٍ، الذي حين يموت ينحني تجاه ركبتيه ويسقط على الأرض[٣٣٤]. هكذا أيضاً سوف يسقط الفارس من على ظهره، وسوف ينتظر مَنْ ينقذه. إذن، سوف ينتظر التلاميذ القديسون مجيء وقت مجدهم وخلاصهم، والذي فيه سوف يُدعون ليدخلوا إلى المملكة الأبدية غير المتزعزعة، وهكذا سوف ينادي عليهم المسيح، قائلاً: «تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم» (مت ٢٥:٣٤). لأنهم سلكوا الطريق وحفظوا الإيمان وسوف ينالون إكليل المجد الذي لا يبلى (انظر ٢ تيمو ٤:٧ ــ ٨. ١ بط ٥:٤).

لكن لو أراد أحد أن يفسّر بحسب رأيه، أن الذين هم من دان ليسوا مثل الحيات التي تتربص في الطريق، بل آخرون هم الذين يتآمرون على دان نفسه، سوف نقول إن الكتبة والفريسيين كان لهم سلطان أن يحكموا وأن يكونوا رؤساء للشعب، وهم قد انقضّوا كمثل الحيات على المسيح، وقبضوا عليه وطعنوه بطعنات غادرة. لكن، بالرغم من أن الفارس وقع خاضعاً بإرادته للموت الجسدي، إلَّا أنه سوف يقوم مرةً ثانيةً بقوته وقوة أبيه معه. لأنه، بما أن الابن هو قوة الله الآب، لذلك أعطى حياةً لهيكله (أي لجسده). لأجل هذا يُقال إنه أُنقِذَ بواسطة الآب حين تعرض للخطر كإنسان، بالرغم من أنه هو الله من جهة طبيعته ضابطاً كل الخليقة المنظورة وغير المنظورة لتوجد في حالة حسنة. وهذا ما

[٣٣٤] لكن يرى العلامة هيبوليتس أن النبوة تشير إلى المسيح، إذ يقول: "صُوِّر الرب لنا كراكب للفرس، والعقب يدل على نهاية الأيام. وسقوطه يشير إلى موته، كما هو مكتوب في الإنجيل: "ها إن هذا قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين" *A.N.F.vol.V,p.166*

قصد أن يقوله بولس حين تحدث عنه، قائلاً: «وإن كان قد صُلِب من ضعف لكنه حيٌّ بقوة الله» (٢ كو ١٣: ٤).

عن جـــــــــاد[٣٣٥]

«سوف ينصبون شباكاً لجاد، أما هو فسوف ينصب شباكاً لقدم ذاك الذي شرع في إيقاعه» (تك ٤٩: ١٩س).

علينا أن نشرح أيضاً ما هو معنى اسم "جاد"، لأنه يعني "تجربة" أو «عصابة للسلب πειρασμός γάρ, ἤ πειρατήριον». أعتقد أن الاسم يشير إلى كراهية وكبرياء الكتبة والفريسيين الذين عارضوا الكرازة الإنجيلية والإلهية و لم يحترموا شيئاً من الأشياء المفيدة، وحنقوا غيظاً ضد المسيح الذي علَّم بتعاليم كانت أسمى من الظلال والناموس، المسيح الذي كانت له سُمعة طيبة وأُعجب به الجميع، إذ أدهش كل سكان اليهودية بمعجزاته الكثيرة وتعاليمه التي قدَّم فيها كل ما هو مرضي أمام الله. لأجل هذا، بحسب أقوال النبي حين دخل أورشليم وديعاً وجالساً على حمار وجحش ابن أتان (انظر زك ٩: ٩)، صرخ الأطفال أمامه قائلين: «أوصنا لابن داود. مبارك الآتي باسم الرب» (متى ٢١: ٩)، والبعض الآخر فرشوا ثيابهم في الطريق وجعلوا دخوله لأورشليم حماسياً وجديراً بالإعجاب وعلى النقيض من ذلك، فإن أولئك الذين امتلأوا شراً وطُعِنوا بسهام الحسد تشاوروا فيما بينهم وحكموا عليه بأنه ينبغي أن يُقتل.

---

[٣٣٥] وُلد ليعقوب من زلفة جارية ليئة.

لأنهم قالوا: «أنظروا إنكم لا تنفعون شيئاً. هوذا العالم قد ذهب وراءه» (يو ١٢: ١٩).

لكن بسبب خوفهم مِن الجمع الذين آمنوا به تجنَّبوا مؤقتاً القبض عليه. ولكي يجعلوه في مواجهة مع جنود الرومان، أرسلوا البعض من تلاميذهم مع الهيرودوسيين، ليسألوه، قائلين: «يا معلم نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تُبالي بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس. فقُل لنا ماذا تظن. أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا» (متى ٢٢: ١٦ ـــ ١٧). لقد قالوا هذا عن خبث، وعَلِمَ المسيح بدوافعهم، لأنه عندما أحضروا له ديناراً، قال لهم: «أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (متى ٢٢: ٢١). وأولئك، عوضاً عن أن يخجلوا ويتجنبوا مضايقته بعد ذلك، فإنهم قاوموه مرةً أخرى؛ لأنه حينما صنع سوطاً من الحبال وأخرج من الهيكل أولئك الذين كانوا يبيعون خرافاً وماعز، قائلاً: «بيتي بيت صلاة يُدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص» (مت ٢١: ١٣)، غضبوا وذهبوا إليه ليسألوه: «بأي سلطان تفعل هذا ومَنْ أعطاك هذا السلطان» (مت ٢١: ٢٣).

وماذا كانت إجابة المسيح؟ «فأجاب يسوع وقال لهم وأنا أيضاً أسألكم كلمة واحدة فإن قلتم لي عنها أقول لكم أنا أيضاً بأي سلطان أفعل هذا. معمودية يوحنا من أين كانت. من السماء أم من الناس. ففكروا في أنفسهم قائلين إن قُلنا من السماء يقول لنا فلماذا لم تؤمنوا به. وإن قُلنا من الناس نخاف من الشعب لأن يوحنا عند الجميع مثل نبي. فأجابوا يسوع وقالوا لا نعلم. فقال لهم هو أيضاً ولا أنا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا» (مت ٢١: ٢٤ ـــ ٢٧).

إذن، جاد كان قناصاً، أي يشير إلى الفريسيين[٣٣٦] الذين كانوا يتصيدون كلمة. لكن هؤلاء أيضاً وقعت أرجلهم في الشّبّاك. لأن هذا هو من تنبأ عنه صوت النبي، «هاأنذا أعود أصنع بهذا الشعب عجباً وعجيباً. فتبيد حكمة حكمائه ويختفي فهم فهمائه» (أش ٢٩: ١٤)، إذ هو يقلب أفكارهم الخبيثة بطريقة ماهرة، لتصير أسئلة ضدهم.

عن أشـــــــير[٣٣٧]

«أشير خُبزه سمين وهو يعطي لذَّاتِ مُلوك» (تك ٤٩: ٢٠)

اسم أشير يعني «الغني πλοῦτος». لأن هذا هو ترجمة الاسم حرفياً. وأعتقد أنه يشير إلى ذاك «المذّخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم» (كو٢: ٣)، أقصد المسيح الذي هو «كنزٌ مُخفي في الحقل» (مت ١٣: ٤٤)، «والجوهرة كثيرة الثمن» والذي يقول بفم الحكيم: «عندي الغنى والكرامة. قنية فاخرة وحظ» (أمثال ٨: ١٨). إنه ذاك الذي قال عنه داود: «تعهدت الأرض وجعلتها تفيض» (مز ٦٥: ٩). أيضاً بولس الحكيم يكتب لنا عنه، قائلاً: «أشكر إلهي في كل حين من جهتكم على نعمة الله المعطاة لكم في يسوع المسيح. إنكم في كل شيء استغنيتم فيه في كل كلمة وكل علم» (١ كو ١: ٤ — ٥). لأنه افتقر معنا أيضاً

---

[٣٣٦] يقول العلامة هيبوليتس: "نحن نحسب المزاحم أو الناهب أنه خائن، ولا يوجد خائن للرب إلا شعب اليهود .. فقد تآمر ضده، أما "مؤخره" فيشير إلى معونة الرب التي يقدمها ضد أولئك الذين يتربصون في المؤخر ضده. وأيضاً يشير إلى أن الرب سوف ينتقم عاجلاً فإنه سوف يتسلح جيداً عند قدميه، وسوف يهزم ويسلب جيش السالب" *A.N.F.vol.V,p.166*

[٣٣٧] وُلد ليعقوب من زلفة جارية ليئة.

بالرغم من أنه غنيٌّ؛ حتى بفقره نصير نحن أغنياء. لأن هذا يعني، على أية حال، «الخبز الوفير πίων ὁ ἄρτος»، أي الغنى الكثير والمُغذّي. لأن ربنا يسوع المسيح يغذّي، ليس بالمَنْ المادي، مثلما أعطاه قديماً لبني إسرائيل، لكن بأن يعطي ذاته في نفوس الذين يؤمنون به بواسطة الروح القدس.

لأجل هذا قال لليهود: « الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء. لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم» (يو ٦: ٣٢ — ٣٣) وأيضاً: «أنا هو خبز الحياة» (يو ٦: ٣٥). لكن الخبز يُدرَك على أنه مُحيي سرائرياً. ويعطي غذاءً للملوك. وأستطيع أن أقول إن العروش والسلاطين والرؤساء والقوات والملائكة ورؤساء الملائكة وكل الخليقة المقدسة والعاقلة يعرفون المسيح بكونه طعامهم[٣٣٨]. وهكذا يجب أن يُدرَك هذا الأمر.

وأيضاً يمنح معلمي الرعية الأرضية طعاماً روحياً بإعلان الأسرار الإلهية، بمعرفة كل فضيلة حتى يُطعم هؤلاء شعوبهم بكلمات الحياة. لأنه يقول لهم: «مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا» (متى ١٠: ٨). وكذلك في موضع آخر يقول: «فمَنْ هو الوكيل الأمين الحكيم الذي يُقيمه سيده على خدمه ليعطيهم العُلوفة في حينها. طوبى لذلك العبد الذي إذا جاء سيده يجده يفعل هكذا. بالحق أقول لكم إنه

---

[٣٣٨] قد سبق أن شرح العلامة هيبوليتس هذه النبوة كما شرحها القديس كيرلس، إذ يقول: "هذا الأمر نأخذه رمزاً لدعوتنا، لأن كلمة "سمين" تعني "غنى". وأي خبز غنّي سوى خبزنا؟ لأن الرب هو خبزنا، كما قال هو عن نفسه: "أنا هو خبز الحياة" (يو٦: ٣٥). ومَنْ هو الذي يعطي لذّات ملوكٍ إلا ربنا يسوع المسيح؟ وليس فقط للمؤمنين من الأمم، بل وأيضاً لأولئك الذين من الختان، الذين هم في الإيمان أولاً، للآباء والأنبياء، ولكل الذين آمنوا باسمه وآلامه" *A.N.F.vol.V,p.166* .

يقيمه على جميع أمواله» (لو ١٢: ٤٢ ــ ٤٤). هذا ما يفعله معلمو الكنائس، وهكذا فعل من قبلهم الرُسل القديسون. لأن بولس الطوباوي يكتب للبعض، قائلاً: «مشتاقٌ أن أراكم، لكي أمنحكم هبة روحية لثباتكم» (رو ١:١١). إنهم ينالون التعضيد مِن الله، إذ يملأهم من الخيرات السماوية ويطعمهم بوفرة بعطايا الروح. بالتالي «أشير» يشير إلى المسيح، أو لهؤلاء الذين لهم المسيح بكونه غناهم، إذ يصير الخبز هو الغنى بالنسبة لهم.

عن نفتالي[339]

«نفتالي أَيَّلةٌ مسيبة يعطي أقوالاً حسنة» (تك ٤٩:٢١)

أيضاً يمكن للمرء أن يطبق هذا على عمانوئيل، وأيضاً على هؤلاء الذين تبَّرروا بالإيمان وتقدسوا بالروح. لأنه قيل لأم اليهود، أقصد أورشليم، بفم أرميا: «زيتونة خضراء ذات ثمر جميل الصورة دعا الرب اسمك. بصوت صنجة عظيمة أوقد ناراً عليها فانكسرت أغصانها ورب الجنود غارسك قد تكلم عليك شراً من أجل شر بيت إسرائيل وبيت يهوذا» (أر ١١:١٦ ــ ١٧).

أي كان ينبغي أن يكون لديها رعاية لائقة، لكنه أمرَ أن تُحرق؛ لأنها لم ترد أن تعترف بغارسها الذي كان حاضراً، الذي مثل منجل حاد، بفعل الروح خلصنا مِن الأمور غير المفيدة، أي الأمور الأرضية والجسدية، لكي نشتهي ونتأهب لأي شيء من الأمور العجيبة. لأنه من الممكن أن نستمع إلى مخلصنا

---

[339] ذُكر هذا السبط مع سبط زبولون في انتصارهم العظيم على يابين ملك الكنعانيين تحت قيادة باراق ودبورة النبية (قض٤و٥). وقد كان نصيبه في تقسيم أرض الموعد مع سبط زبولون أيضاً في المنطقة التي دُعيت فيما بعد "جليل الأمم".

المسيح الذي قال بكل وضوح: "أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرام. كل غضن فيَّ لا يأتي بثمر ينزعه. وكل ما يأتي بثمر ينقيه ليأتي بثمر أكثر" (يو ١٥: ١ ـــ ٢). لأن جذر وثمرة الكرمة المزروعة بعمق وثبات لهؤلاء الذين اقتيدوا إلى الحياة الجديدة هو ربنا يسوع المسيح، ونحن نبتنا كأغصان باتحاد روحي معه، ونحن معلقون ذهنياً فيه ومرتبطون بمحبته ومتمتعون بطعامه الغني ومتغذون بالنعمة الإلهية لنثمر ثمار الفضيلة.

والآب نفسه مع الابن يعضد أعمالنا. وبالرغم من أن المسيح هو الكرمة والآب هو الغارس لكن بالمسيح سوف يقطع ما هو غير مفيد، وسوف يعتني بما هو موجود في أحسن حالة، وما له القدرة على الإثمار بمفرده.

حسناً، عندما كان ينبغي أن توجد أم اليهود بين الفاضلات كزيتونة خضراء ذات ثمر جميل الصورة، كما قال النبي، دُمِّرَت وأوقدَ النار فيها. لأجل هذا قال متى البشير: "والآن قد وُضعت الفأس على أصل الشجرة. فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تُقطع وتُلقى في النار" (مت ٣: ١٠).

وكون أن المدينة الشهيرة سوف تقع في مصائب تصل إلى شرور قصوى، فهذا هو ما ينبئنا عنه زكريا النبي قائلاً: "في ذلك اليوم يعظم النوح في أورشليم كنوح هدد رمون في بقعة مجدون" (زك ١٢: ١١). وأيضاً كأنه عن نفس المدينة يقول: "افتح أبوابك يا لبنان فتأكل النار أرزك. ولول يا سرو لأن الأرز سقط لأن الأعزاء قد ضربوا. ولول يا بلوط باشان لأن الوعر المنيع قد هبط" (زك ١١: ١ ـــ ٢). لأن لبنان هو جبل به أشجار كثيفة من الأرز، أشجارٌ بها رائحة زكية ومنظرها رائع ومدهش. حسناً، يشبِّه أورشليم بلبنان، أورشليم التي لديها جمع من الكهنة الجديرين بالإعجاب قياساً بالطبع بكرامات الناموس. لأنهم عُيِّنوا رؤساء

وكشجرة في غابة، شجرة ضخمة وباسقة، يتخطون قياس كل الآخرين ويتفوقون كثيراً بعملهم عن اختصاصات الشعب. لكن أُحرقت أورشليم، أي لبنان وهؤلاء الذين هم مشهورون ومعروفون، الذين كانوا في قمة المجد أحرق أحدهم الآخر، وكذلك سقطوا وقُتِلوا كما لو كانوا قد سقطوا في أيدي جامعي الحطب العُتاة، في أيدي جنود الرومان. لكن ربنا يسوع المسيح، من خلال هؤلاء الكهنة الذين أضمروا له شراً، صار شجرةً عالية.

حسناً، افرحوا دائماً بمرتفعاته اللامتناهية تجاه الأعلى، كما يقول الحديث، امتد إلى كل الأرض. وهذا ما نادى به الله قبلاً بوضوح بفم حزقيال، قائلاً: "هكذا قال السيد الرب وآخذ أنا من فرع الأرز العالي وأغرسه وأقطف من رأس خراعيبه غصناً وأغرسه على جبل عالٍ وشامخ. في جبل إسرائيل العالي أغرسه فينبت أغصاناً ويحمل ثمراً ويكون أرزاً واسعاً فيسكن تحته كل طائر كل ذي جناح ليسكن في ظل أغصانه. فتعلم جميع أشجار الحقل أني أنا الرب وضعت الشجرة الرفيعة ورفعت الشجرة الوضيعة ويبست الشجرة الخضراء وأفرخت الشجرة اليابسة. أنا الرب تكلمت وفعلت" (حز ١٧: ٢٢ ــ ٢٤).

أترى إذن، أن الله الآب أخذ شجر الأرز المنتخب، وأنبت شجرة الحياة داخلنا، أقصد المسيح. بالطبع شجر الأرز يصف سبط يهوذا الذي كان القائد دائماً، وكان دائماً الأكثر مجداً والذي منه وُلِدَ يسي وداود والعذراء القديسة التي ولدت يسوع.

وأما أن الغصن الذي أُخِذَ من شجرة الأرز المختارة وصار نبتاً حسناً بثمر جميل، عُلِّق فوق الخشبة لأجلنا، كيف من الممكن أن نشك في هذا الأمر؟ فنحن قد زُرِعنا مرةً أخرى بإرادة الآب، أما الأشجار الأخرى، فهي عقيمة ويابسة،

وتلك الأشجار صارت هكذا؛ لأنها وُجدت في رطوبة خانقة وعاشت حياة الناموس، أقصد الأشجار الآتية من إسرائيل. وهؤلاء الذين من إسرائيل كانوا مرتفعين، بينما نحن كُنا وضيعين ومدوسين. لكننا ارتفعنا بإيماننا بالمسيح، بينما أولئك سقطوا من المجد القديم وصاروا وضيعين. إذن، رب الكل هو الله، الذي بإشارة منه يُنزل المرتفعين ويرفع المتضعين إلى أعلى، ويُيبِّس الشجرة الخضراء ويجعل اليابسة تزدهر مرة أخرى وتنبت[٣٤٠].

أما أن هؤلاء المنتمين للمجمع القديم لا يختلفون إطلاقاً عن الأشواك والزوان وأنهم سوف يُجتّزون من الأرض المقدسة، وأنه سوف ينبت مكانهم جمع المؤمنين الذي يشبُّه بالأشجار ذات الرائحة الزكية، فهذا سوف تعلمه من الله الذي يقول: «افتح على الهضاب أنهاراً وفي وسط البقاع ينابيع. أجعل القفر أجمة ماء والأرض اليابسة مفاجر مياه. أجعل في البرية الأرز والسنط والآس وشجرة الزيت. أضع في البادية السرو والسنديان والشربين معاً» (أش ٤١: ١٨ ــ ١٩). وبعد ذلك يقول: «عوضاً عن الشوك ينبت سرو وعوضاً عن القرِيس يطلع آس. ويكون للرب اسماً علامة أبدية لا تنقطع» (أش ٥٥: ١٣).

يشير بالأرز إلى رجاء أولئك الذين آمنوا بالخلود؛ لأن الأرز لا يفسد. ويشير بالصنوبر إلى أن أتباع المسيح لا ينبغي أن يكون لديهم عقل غير متزن ولا تصرفات طائشة. لأن الكل فاهمون؛ إذ أن لهم فكر المسيح. لأن شجر الصنوبر ثابت وكثيف جداً. والآس يرمز إلى رائحة القداسة الزكية والنعمة المزدهرة

---

[٣٤٠] هذا ما جعل العلامة هيبوليتوس يقول: ''نفتالي، رمز للأشياء التي وُهبت لنا لتكون ملكاً لنا، كما يبين الإنجيل: ''أرض زبولون وأرض نفتاليم طريق البحر عبر الأردن جليل الأمم، الشعب الجالس في ظلمة أبصر نوراً عظيماً''. وأي نور هذا سوى دعوة الأمم'' *A.N.F.vol.V,p.167*.

دائماً. والسرو أيضاً يرمز إلى المرتفع وذو الرائحة الزكية. والعلو يعني سمو الفضيلة وعظمة العقائد. والسنديان الأبيض يرمز إلى لمعان ونصاعة البر. لأن أتباع المسيح ممجدون لأنهم يصيرون هكذا بنعمته.

هكذا الشجرة الباسقة هي نفتالي، أي تشير إلى المسيح أو إلى أحباء المسيح. ثم يقول أيضاً: «يعطي أقوالاً حسنة» (تك ٤٩:٢١). أي في البداية رأي بنو إسرائيل المسيح مثلنا في الشكل؛ لأنه أخذ جسداً بشرياً، فلم يؤمنوا أنه إلهٌ بحسب الطبيعة. لأجل هذا أيضاً اليهود تطاولوا عليه وأرادوا أن يرجموه. «فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه. أجابهم يسوع أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من عند أبي. بسبب أي عمل منها ترجمونني. أجابه اليهود قائلين لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف. فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً» (يو ١٠:٣١ ــ ٣٣).

سوف نجد الرسل القديسين أنفسهم يُعجبون به بالطبع كصانع عجائب، رغم أنهم لم يدركوا جيداً السر الخاص به. لأجل هذا، بينما أمر البحر لكي يهدأ وهدأت العواصف الشديدة بأمر المسيح، قال تلاميذه: «أي إنسان هذا. فإن الرياح والبحر جميعاً تطيعه» (مت ٨:٢٧). أرأيت كيف كان هو الله بحسب الطبيعة، بالرغم من أنه صار إنساناً، إلّا أنه لم يكن معروفاً لأهل العالم، ولم تكن أمجاده ظاهرة؟ لكن عندما زادت معرفتنا به داخلنا، آمنا بأنه الله بحسب الطبيعة؛ «لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض» (فيلبي ٢:١٠)، أي أن كل المسكونة سوف تسجد له. وبما أن معرفتنا به تقدمت إلى الكمال، عندئذٍ تحقق لنا أنه جميل وأكثر جمالاً من بني البشر (انظر مز ٤٥:٣). إذن عبارة «يعطي أقوالاً حسنة» هي واضحة جداً. لأن أحباءه سوف يتقدمون دائماً في الفضيلة ليصلوا إلى الأسمى، أي يمتدون إلى الأمام وفق كلام بولس الطوباوي

صاعدين دائماً تجاه الأفضل والحسن (انظر فيلبي ٣:‏١٣ ــ ١٤). وأقصد بالحسن هو الجمال الروحي حتى ينطبق علينا هذا القول «فيشتهي الملك حسنك» (مز ٤٥:‏١٢).

عن يوسف[٣٤١]

«يوسف غصن شجرة مثمرة، غصن شجرة مثمرة على عين أغصان قد ارتفعت فوق حائط. فمررته ورمته واضطهدته أرباب السهام. ولكن ثبتت بمتانة قوسه وتشددت سواعد يديه. من يدي عزيز يعقوب، من هناك، من الراعي صخر إسرائيل. مِن إله أبيك الذي يُعينك، ومن القادر على كل شيءِ الذي يباركك، تأتي بركاتُ السماء من فوق، وبركات الغمر الرابض تحت بركات الثديين والرحم. بركات أبيك فاقت على بركات أبويَّ. إلى منية الآكام الدهرية تكون على رأس يوسف، وعلى قمة نذير إخوته» (تك ٤٩:‏٢٢ ــ ٢٦).

تتحدث هذه النبوة عن عمانوئيل[٣٤٢]. وقد أشير إليه قبلاً بالقول: «يُعطي أقوالاً حسنة» (تك ٤٩:‏١). لقد قيل إن يوسف عظَّم عطاياه والمجد الذي له أتى إليه بطريقة طبيعية، وهذا يعني بوضوح الأمر الذي أدركناه جيداً. أقصد، كلمة الله وحيد الجنس الذي هو إلهٌ مولود من إله، وهو الذي وضع ذاته، حسب

---

[٣٤١] الابن المحبوب من يعقوب الذي صاغت أحداث حياته تاريخ بني إسرائيل كله، وأثرت على مستقبلهم" أنظر شرح سفر التكوين، سفر البدايات، دار مجلة مرقس، طبعة أولى ٢٠٠٥، ص ٥٠٦

[٣٤٢] لذا يتساءل العلامة هيبوليتس، قائلاً: "مَنْ هو الابن الوفي الذي حسدوه حتى إلى هذا اليوم سوى ربنا يسوع المسيح؟ فهو موضع حسدهم بالفعل، أولئك الذين اختاروا أن يكرهوه مجاناً، إلا أنه لا يمكن بأي حال أن ينهزم" *A.N.F.vol.V,p.168*

الكتب المقدسة (انظر فيلبي ٢: ٧)، متنازلاً بإرادته إلى المستوى الذي لم يكن عليه، ولبسَ هذا الجسد المحتقَر وأخذ شكل العبد وصار مطيعاً لله أبيه حتى الموت (انظر فيلبي ٢: ٨)، لأجل هذا قيل إنه رُفِّعَ ــ إذ أن تأنسه ليس لأجل ذاته ــ آخذاً «اسماً فوق كل اسمٍ» كما قال بولس الطوباوي (انظر فيلبي ٢: ١٩).

هنا، في الواقع، نتحدث ليس عن أنه مُنِحَ شيئاً لم يكن موجوداً فيه من قبل بحسب الطبيعة، بل بالحري، فإن الكلام هنا هو عن رجوعه إلى حالته التي كان عليها منذ البداية و لم تكن أساساً قد نُزعت منه.

وقيل أيضاً أنه لَبسَ حقارة الطبيعة البشرية بحسب التدبير، لذا نراه يقول: «مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (يو ١٧: ٥). لأنه كان على الدوام ممجَّداً بالمجد اللائق بالله حيث إنه أزلي مع الذي ولده قبل الدهور والأزمنة وقبل خلقة العالم.

حسناً، فإن الازدياد في حالة المسيح يجب أن نعتبر أنه عطية المجد الخاص بالله، ومُنِحَ له باتساع ووفرة واضحة. لأنه يُدرَك بأنه قريب من العالم بحسب الطبيعة البشرية، أما من جهة كونه ربّاً الكل فإنه يُقدَّم له المجد والسجود مع الله أبيه. أيضاً بالرغم من أنه خالق الدهور، إلّا أنه (بسبب تجسده في الزمن) هو أحدث من مصاف الأنبياء القديسين، إذ أتى في الأزمنة الأخيرة (انظر عب ١: ١)، بعد أولئك الذين كانوا قبل مجيئه ينتمون إلى رتبة الأبناء بفضل فضيلتهم.

أما كون عمانوئيل كان أيضاً جديراً بأن يحسده أحد، فهذا لا يمكننا أن نشك فيه. أيضاً كان محط إعجاب وغيرة، بالنسبة للقديسين الذين حاولوا أن يتتبعوا آثاره وأن يكتسبوا جماله وأن يجعلوه قدوة لأعمالهم. هناك أيضاً غيرة وحسداً داخل هؤلاء الذين لم يحبوه، أقصد معلمي اليهود أي الكتبة والفريسيين،

إذ كانوا يحسدونه بسبب مجده الفائق. لقد أقام المسيح الأموات الذين انبعثت منهم رائحة النتانة بسبب تحلل أجسادهم، وبذلك برهن على أنه أقوى من الموت ذاته. وأولئك المعلمين بدلاً من أن يتعجبوا وينقادوا ــ بلا تردد ــ إلى الإيمان، فإنهم اغتاظوا بشدة وحسدوه، وانتابهم حزن وغم واضطراب ذهني. وشفى المسيح أيضاً المولود أعمى، إلّا أنهم دعوه خاطئاً (انظر يو ٩:١ــ الخ). كذلك أخرج وطرد قطيعاً من الشياطين، إلّا أنهم أتهموه زوراً بأنه ببعلزبول يُخرج الشياطين» (انظر مت ١٢:٢٢ــ الخ). وشرعوا في قتله قائلين فيما بينهم: «لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف. فانك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً» (يو ١٠:٣٣). لقد اصطكت أسنانهم غيظاً قائلين: «هذا هو الوارث. هلموا نقتله ونأخذ ميراثه» (مت ٢١:٣٨). هكذا اغتاظ منه الذين كرهوه، لكن لم يمكنهم القضاء عليه وإبادته. فهو بالرغم من أنه خضع للصلب، إلّا أنه لكونه إلهاً قام منتصراً على الموت، والله الآب قال له: «التفت وارجع إليَّ» (تك ٤٩:٢٢س)[٣٤٣]. إذن، صعد إلى السموات لكي يتم ما قِيل: «اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك» (مز ١١٠:١٠).

وكون أن خططهم فشلت بالرغم من جنونهم الشديد ضده، فهذا يعلمنا إياه، قائلاً: «فمرَّرته ورمته واضطهدته أرباب السهام. ولكن ثبتت بمتانة قوسه وتشددت سواعد يديه. مِن يدي عزيز يعقوب من هناك من الراعي صخر إسرائيل» (تك ٤٩:٢٣ ــ ٢٤). أي أن «أرباب السهام» أي أرباب المتهجمين

---

[٣٤٣] ورد في نص القديس كيرلس عدد٢٢ من إصحاح ٤٩ هكذا من الترجمة السبعينية: "ابني يوسف المتزايد غنى، ابني العجيب، التفت وارجع إليَّ" (تك ٤٩:٢٢).

عليه اتفقوا معاً ضده، أقصد زعماء الشعب الذين تطاولوا عليه وانقضوا عليه مثل الوحوش المفترسة. لكن سهامهم انكسرت وبطُلت بسبب يدي عزيز يعقوب، أي الله الآب الذي هو رب القوات، الذي أراد أن يبارك ابنه في السماء وعلى الأرض. لأن بولس العظيم قال: «وأيضاً متى أدخل البكر إلى العالم يقول ولتسجد له كل ملائكة الله» (عب ١:٦)، وأيضاً داود العظيم يقول: «كل الأرض تسجد لك وترنم لك. ترنم لاسمك» (مز ٦٦:٤).

نقول، هذه هي البركة السماوية، سواء على الأرض أو في كل مكان، أي حيث توجد كل فضيلة لأجل المسيح، إنها الثمار الوفيرة للتقوى عند الله. لأنه قِيل للابن: «ارو اتلامها مهِّد أخاديدها بالغيوث تحللها. تبارك غلتها» (مز ٦٥:١٠). وكون أن البركة السماوية، وكذلك الأرضية قد أُعطيت له، فهذا يؤكده بوضوح: «من إله أبيك الذي يعينك ومن القادر على كل شيء الذي يباركك تأتي بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت. بركات الثديين والرحم. بركات أبيك فاقت على بركات أبويَّ» (تك ٤٩:٢٥ — ٢٦). بهذا يعلن، بوضوح، ولادة وحيد الجنس من الله الآب، وكذلك من العذراء القديسة بولادته منها إنساناً. لأنه، بينما بحسب الطبيعة كان حقاً ابن الله الآب فإنه ارتضى لأجلنا أن يُولَدَ من امرأةٍ ويرضع من الثديين. إذ ليس كما يقول البعض، أنه صار إنساناً حسب الظاهر، بل صار حقاً مثلنا مُخضِعاً نفسه لنواميس الطبيعة البشرية وقَبِل أن يتناول طعاماً كالبشر بالرغم من أنه هو ذاته الذي يعطي حياةً للعالم. لأجل هذا يخبرنا أشعياء الطوباوي بأن الرب سوف يتأنس حقاً، ذاكراً أنه سيحتاج للطعام المناسب للصغار، قائلاً: «زبداً وعسلاً يأكل» (أش ٧:١٥). إذن، لقد نال بركة بسبب ثديي الأم. لأنه «إذ وُجِدَ في

الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب. لذلك رفعَّه الله أيضاً وأعطاه أسماً فوق كل اسم. لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض» (فيلبي ٢: ٨ ــ ١٠).

وأيضاً بالرغم من أنه صار مثلنا، إلّا أنه أعظم من أي قديس ويتفوَّق بغير حدود بحسب كونه هو الله، على كل السابقين من المدعوين آباء. فهذا هو ما يقوله المرنم: «لأنه مَن في السماء يعادل الرب. مَن يشبه الرب بين أبناء الله» (مز ٨٩: ٦)؛ وهذا يعلّمه يعقوب الطوباوي، قائلاً: «إلى منية الآكام الدهرية تكون على رأس يوسف وعلى قمة نذير إخوته» (تك ٤٩: ٢٦). إنه يدعو القديسين آكاماً، بالطبع آكامٌ ثابتة ولا تتحرك وتلالٌ أبدية، لأنهم قد ارتفعوا روحياً عن الأرض لدرجة أنهم لا يفكرون في أي شيء وضيع، بل يطلبون السماويات ويطيرون بسهولة جداً إلى مرتفعات الفضيلة. إذن، فالذين هم أكثر شهرة من بين الآباء الذين وصلوا إلى قمة الفضائل هؤلاء يتوارون خلف مجد المسيح. لأن أولئك كانوا خُداماً، حتى لو كانوا قد جاءوا من رتبة الأبناء، بينما الرب بكونه هو الابن، فقد منحهم الوسائل التي بها صاروا ممجَّدين. لأجل هذا، أيضاً، نقول: «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا نعمة فوق نعمة» (يو ١: ١٦).

بناءً على ذلك، فإن إكليل المجد سوف يُوضع بالطبع على رأس مخلصنا، وسيكون أيضاً بالمثل للقديسين الذين قد خضعوا له كعطية وهبة منه، هؤلاء سوف يلبسون إكليلاً لا يذبل (انظر ١بط ٥: ١)، ولأنهم صاروا شركاء في آلامه، فإنهم يصيرون شركاء أيضاً في مجده. هكذا، فكما تألموا معه، سوف يملكون معه.

عن بنيامين[٣٤٤]

«بنيامين ذئبٌ مفترس. في الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهباً» (تك ٤٩:٢٧).

ولدت راحيل أولاً يوسف ثم بنيامين، لكن يعقوب قال عن يوسف إنه قمة بالنسبة لأخوته (انظر تك ٤٩:٢٦)، ذلك لأن بنيامين كان أصغر سناً من يوسف، لذلك يعتبر ــ بصواب ــ نموذجاً وصورةً مسبقةً للشعب الجديد الذي كان سيدعى بواسطة التلاميذ القديسين بعد قيامة المسيح من بين الأموات وصعوده إلى الله الآب. ويشبه بنيامين أيضاً ذئباً مفترساً بسبب إقدامه الشديد ورغبته في أن يتعلم وأن يصعد دائماً وباستعداد هائل، مثلما تفعل بعض الوحوش مع كل ما تتغذى عليه، لكي يكون لهم صحة جيدة، وهذا يشير إلى نوال حالة روحية جيدة بالنسبة للشعب المؤمن. لأن الوحوش تكون مرعبة حين تنظر لشيء ترغب فيه، فهي تخطف ما يفيدها وتُسرع في تجنب ما يضرها، ولا تخاف بسهولة حتى لو حاصرتها الكلاب. هكذا الشعب الجديد الذي دُعيَ للإيمان، لا يخاف بسهولة من أولئك الذين يستخفون بأقوالهم وأعمالهم ويرفضون قبولهم. لأن القديسين قد تعلموا بجسارة أن يقولوا: ‘‘مَنْ سيفصلنا عن محبة المسيح: أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عُري أم خطر أم سيف’’ (رو ٨:٣٥). حتى لو اضطهدهم الرُعاة المزيفون وشرعوا في طردهم من الطريق الذي يحبونه بلا شفقة وفق ما هو مكتوب (انظر زك ١١:٤)، فإنهم يُظهرون صبراً كبيراً في

---

[٣٤٤] وُلِدَ ليعقوب من راحيل زوجته المحبوبة وماتت وهي تلده.

الآلام ويعتبرون الحياة ذات قيمة حقاً حين يتألمون. لأنهم قد تعلموا: "لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح" (فيلبي ١:٢١).

إذن، بالرغم من أن الشعب الجديد يشبه الذئاب الخاطفة، إلّا إنه حريص دائماً على أن يحيا باستقامة، ولا شيء يضره، لأن المخلص يُسمى ذاته أسد وشبل أسد، أي مفترس، قائلاً: "لأني لإفرايم كالأسد ولبيت يهوذا كشبل الأسد فإني أنا أفترس وأمضي آخذ ولا منقذ" (هو ٥:١٤).

إنه يدعو أولئك الذين آمنوا به "وحوش الصحراء" قائلاً بفم أشعياء: "يمجدني حيوان الصحراء الذئاب وبنات النعام لأني جعلت في البرية ماء أنهاراً في القفر لأسقي شعبي مختاري. هذا الشعب جبلته لنفسي. يحدث بتسبيحي" (أش ٤٣:٢٠ ـــ ٢١).

أتدرك إذن، أنه يُسمى الجنس المختار وحوشاً مفترسة وبنات النعام، أي الأكثر عذوبة من الطيور. يُدعَون وحوشاً لأنهم لا يطيقون أن يروضهم الشيطان، الشيطان الذي يحرضهم لكي يفعلوا أموراً لا تليق. ويُدعَون أيضاً النعام لأنهم يتحدثون بفصاحة ولباقة وعذوبة عن إنجازات المسيح ويسبِّحون بتسابيح. وهكذا، فبنيامين هو ذئب، أي الشعب المؤمن الجديد[٣٤٥] والذي لديه استعداد

---

[٣٤٥] يرى العلامة هيبوليتس أن هذه النبوة تتلائم مع بولس الرسول، إذ يقول: «هذه النبوة تتلائم مع بولس الذي كان من سبط بنيامين. لأنه عندما كان صغيراً كان ذئباً مفترساً، ولكنه لما آمن صار يقسم طعاماً (أي يوزع بركات بنشره بشارة الملكوت). وهي أيضاً تدل على نعمة ربنا يسوع المسيح، إذ تشير إلى أن سبط بنيامين سيكون بين أوائل المضطهدين، أعني به شاول (الملك) الذي كان من سبط بنيامين، وقد اضطهد داود الذي تعيَّن أن يكون رمزاً للرب (يسوع)» .*A.N.F.vol.V,p.168*أما القديس جيروم فإنه يقول» :الله يبدأ في محاسبتنا فقط منذ اليوم الذي وُلدنا فيه جديداً في المسيح .فبولس المضطهد للكنيسة الذي كان في الصباح ذئب بنيامين المفترس،

عظيم لإدراك ما يفيده، وما يفيد الآخرين، إذ يقول: «في الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهباً» (تك ٤٩: ٢٧).

إن الذي يُعَلِّم يشبِّه ذاك الذي يُطعِم. فهو لا يختلف أبداً عن الذي يمنح طعاماً لأنه يضع ما ينادي به من تعليم في الذهن والعقل مثلما يُوضع الطعام في الفم. على الجانب الآخر، يشبِّه بولس العظيم التعليم بالطعام. لأنه قال: «الطعام القوي فللبالغين الذين بسبب التمرن قد صارت لهم الحواس مدربة على التمييز بين الخير والشر» (عب ٥: ١٤). حسناً، «بنيامين هو ذئب يفترس. في الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهباً». كأنه يريد أن يقول، بالرغم من أن شخصاً ما مازال تلميذاً ولم يصل بعد إلى مرحلة الكمال، إلّا أنه يستطيع أن يفيد الآخرين، وسوف نبرهن سريعاً هذا الأمر، بأن هؤلاء الذين آمنوا في العصر الجديد هم مناسبون لأن يعلِّموا آخرين. إذ قيل لبني إسرائيل، بسبب جهلهم الشديد والسماكة الذهنية في عقولهم: «أسمع هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهم الذين لهم أعين ولا يبصرون. لهم آذان ولا يسمعون» (إرميا ٥: ٢١) وأيضاً: «المحمَّلين عليَّ من البطن المحمولين من الرحم. وإلى الشيخوخة أنا هو وإلى الشيبة أنا أحمل» (أش ٤٦: ٣ ــــ ٤). أما يوحنا الحكيم فيكتب لأولئك الذين آمنوا، وانتسبوا للمسيح، قائلاً: «ولا حاجة بكم أن يعلمكم أحد بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء وهي حق وليست كذباً. كما علمتكم تثبتون فيه» (يو ٢: ٢٧)، لأن لديهم فكر المسيح الذي يعرف كل شيء، وهم قادرون على أن يعلّم الواحد الآخر ويعضده.

صار في المساء يُعطي طعاماً، حتى أنه أسلم نفسه لحنانيا الغَنمة) الوداعة *N.P.N.F.2nd series,* «) *vol.IV,p126,146*أنظر شرح سفر التكوين، سفر البدايات، دار مجلة مرقس، طبعة أولى ٢٠٠٥، ص ٥٠٩.

أيضاً نستطيع القول بأن الكلام عن بنيامين قد تحقق مع بولس الطوباوي نفسه. لأن هذا الذي اضطهد الكنيسة وأسرع مثل ذئب ضد أولئك الذين كانوا يحبون المسيح، تغير — في وقتٍ قصير جداً — إلى العكس تماماً. لأنه كرز بالإيمان الذي كان يوماً يبغضه وشكر الله الذي كلّفه برسالة، بالرغم من أنه قبلاً كان «مجدفاً ومضطهداً ومفترياً» (١ تيمو ١:١٣). وهو ذاته أقرَّ بذلك.

حسناً، لقد كان من سبط بنيامين. وأيضاً ذاك العظيم، أقصد داود، ذكر بوضوح هذا الأمر في مزمور ٦٨:٢٧: «هناك بنيامين الصغير متسلطهم رؤساء يهوذا جلُّهم رؤساء زبولون رؤساء نفتالي» (مز ٦٨:٢٧). حقاً، إن التلاميذ الطوباويين، وهم يهود من دم إسرائيل قد صاروا معلمين لأولئك الذين انتموا للمسيح وتبرروا بإيمانهم به، ومنهم أيضاً ذاك الذي آتى من سبط بنيامين، يقول في رسالته: «لأننا إن صرنا مختلين فلله. أو كُنا عاقلين فلكم» (٢ كو ٥:١٣). لأنه كرز للأمم ولليهود بربنا يسوع المسيح الذي به وبواسطته ينبغي التمجيد مع الله الآب والروح القدس إلى دهر الدهور. آمين.

فهرس لشواهد الآيات الكتابية الواردة بالهوامش

أولاً: العهد القديم

سفر التكوين:

سفر أمثال:

نشيد الأنشاد:

سفر إشعياء:

ثانيًا: الأسفار القانونية الثانية:

سفر الحكمة:

سفر يشوع بن سيراخ:

سفر باروخ:

ثالثًا: العهد الجديد:

إنجيل متي:

سفر أعمال الرسل:

رسالة كورنثوس الأولي:

رسالة كورنثوس الثانية:

الرسالة إلي أهل فيلبي:

الرسالة إلي أهل كولوسي:

رسالة تسالونيكي الأولي:

رسالة تسالونيكي الثانية:

رسالة تيموثاوس الأولي:

رسالة تيموثاوس الثانية:

الرسالة إلي العبرانين:

فهرس لبعض الكلمات التي وردت بالنص

(ب)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(ي)